

مهنة الشر

من روائع مؤلِّف الرواية
الأكثر مبيعًا نداء الكوكو

روبرت غالبريث

نوفل

مهنة الشرّ

صدرت عام 2018 عن نوفل، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

المكلّس، بناية أنطوان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

صورة وتصميم الغلاف: **Sian Wilson**
© Little Brown Book Group Limited 2015
إقتباس الغلاف: **معجون**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
طباعة: **53Dots**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-438-592-0
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-438-593-7

First published in Great Britain in 2015 by Sphere

See pages 573-575 for full credits.
Selected Blue Öyster Cult lyrics 1967-1994 by kind permission of Sony/ATV Music Publishing (UK) Ltd.
www.blueoystercult.com
'Don't Fear the Reaper: The Best of Blue Öyster Cult' from Sony Music Entertainment Inc available now via iTunes and all usual musical retail outlets.

مهنة الشرّ

روبرت غالبريث

نقله من الإنكليزيّة أدونيس سالم

مكتبة
نوفل

إلى شون وماثيو هاريس
إفعلا ما شئتما بهذا الإهداء
ولكن إيّاكما أن تلامسا حاجبيكما

I choose to steal what you choose to show
And you know I will not apologize –
You're mine for the taking.
I'm making a career of evil[1]*...*

من أغنية Career of Evil لفرقة Blue Öyster Cult

كلمات Patti Smith

[1] أختار أن أسرق ما تختارين أن تعرضيه / تعلمين أنّني لن أعتذر أبدًا / سوف تكونين تحت سيطرتي / سأمارس مهنة الشرّ.

1

2011

This Ain't the Summer of Love[1]

لم يستطع أن يمسح دماءها عن يديه، فقد بقي خطّ داكن يشبه القوس تحت إظفر الإصبع الوسطى في يده اليسرى. حاول مجدّدًا أن يزيله، ومع ذلك كان يحبّ رؤية ذلك الأثر، فهو يذكّره بالمتع التي عاشها في اليوم السابق. عبثًا راح يحكّ الدم الملتصق، ولكن بدون جدوى. فوضع إصبعه في فمه ومصّه، ليحسّ بمذاق حديديّ ذكّره برائحة السيل الأحمر الذي انفجر فوق بلاط الغرفة، وتناثر على جدرانها، مبلّلًا سرواله الجينز، ومغرقًا بالدم مناشف الحمّام الدرّاقية اللون، الناعمة والجافّة والمطويّة بكلّ إتقان.

في ذلك الصباح، بدت الألوان أكثر إشراقًا، والعالم مكانًا أجمل. شعر بصفاء وبهجة، كأنّه امتصّ ضحيّته، كأنّما حياتها انتقلت إليه. الضحايا يصبحن ملكًا للقاتل بعدما يقتلهنّ. إنّه نوع من الشعور بامتلاك الآخر، وهو أقوى من الجنس. حتّى رؤية تعابير الضحيّة لحظة الموت هي نوع من الحميميّة أقوى بكثير من كلّ ما يستطيع جسدان حيّان أن يعيشاه.

لا أحد كان على علم بما فعل. لا أحد يتوقع خطوته التالية. سرت في جسده ارتعاشة إثارة حين خطرت له هذه الفكرة. شعر بالسرور والسلام يغمرانه، ووقف يمصّ إصبعه الوسطى، مستندًا إلى الجدار الذي بثّت فيه شمس نيسان/أبريل بعض الدفء، ومراقبًا المنزل المقابل.

[1] هذا ليس صيف الحبّ.

لم يكن منزلًا فخمًا. كان عاديًّا. لا شكّ بأنّه أجمل من الشقّة الصغيرة حيث ملابسه التي يبّسها الدم موضوعة في أكياس قمامة سوداء بانتظار إحراقها، وحيث سكّيناه اللتان غسلهما بسائل التبييض حتى باتتا تبرقان، مشكوكتان خلف كوع أنبوب مجلى المطبخ.

أمام ذلك المنزل حديقة صغيرة ذات سياج أسود، عشبها مُهمل، وله بابان أماميّان أبيضان متحاذيان يدلاّن إلى أنّ طبقات المبنى الثلاث قد قُسِّمت إلى شقق. في الطابق الأرضيّ، تعيش فتاة تدعى روبن إيلاكوت. وبرغم أنّه حرص على اكتشاف اسمها الحقيقيّ، فقد كان يدعوها في ذهنه «السكرتيرة». رآها منذ قليل تمرّ خلف النافذة. شعرها الأشقر يجعل التعرّف إليها أمرًا سهلًا.

آنذاك، كانت مراقبة السكرتيرة لذّة إضافيّة يمنحها لنفسه. فقد وجد أنّ لديه متّسعًا من الوقت، وقرّر القدوم ليسترق النظر إليها. اليوم هو يوم راحة بين متع الأمس ومتع الغد، بين الرضا عمّا فعله وما ستحمله الأيّام الآتية من إثارة.

فجأة، فُتح الباب الأيمن، لتخرج منه السكرتيرة يرافقها رجل.

لم يبتعد عن الجدار الدافئ. بل اكتفى بنصف استدارة وراح يحدّق في الشارع ليبدو وكأنّه ينتظر صديقًا. لم يعره أيّ منهما انتباهًا، وسارا معًا مبتعدين في الشارع. تركهما يسبقانه لدقيقة، ثمّ لحق بهما.

كانت ترتدي سروال جينز وسترة خفيفة، وتنتعل حذاء مسطّح الكعب. بدا له حين نظر إليها في الشمس أنّ شعرها الطويل والمتموّج أقرب إلى اللون الأحمر. خطر بباله أنّ بين الرجل والمرأة اللذين لا يتبادلان الحديث، شيئًا من الجفاء.

كان بارعًا في قراءة أفكار الآخرين. هذا ما فعله أمس مع الفتاة التي ماتت بين المناشف الدراقيّة اللون الغارقة في الدم. لقد أوقعها في سحره.

تتبّعهما في الشارع الطويل الممتدّ بين المنازل، سائرًا بتمهّل، ويداه في جيبيه كأنّه أحد سكّان الحيّ الذين يقصدون المتاجر للتسوّق في الصباح. النظّارة السوداء التي حجبت عينيه بدت أمرًا طبيعيًّا جدًّا في هذا النهار

المشمس. كانت الأشجار تتمايل برفق في نسيم الربيع الرقيق. عند التقاطع، انعطف الرجل والمرأة نحو طريق عامّ عريض ومزدحم ترتفع مباني المكاتب على جانبيه. ولدى مرورهم بمبنى المجلس البلديّ لبلدة إيلينغ، كانت الواجهات الزجاجيّة العريضة تتألّق في الشمس فوقه.

آنذاك رأى أنّ شريك السكرتيرة في السكن – أو حبيبها، أو أيًّا كان... وهو شابّ عريض الذقن ومسرّح الشعر – يتوجّه إليها بالكلام. لكنّها اكتفت بردّ مقتضب ولم تبتسم.

النساء يتّصفن بالدناءة، والحقارة، والقذارة، والتفاهة. كلّهنّ عاهرات لا يعرفن غير النكد، ويتوقّعن من الرجال أن يمنحوهنّ السعادة. فقط حين يرقدن جثثًا هامدة وفارغة أمامك، يكتسبن ميزات النقاء وجمال الأسرار، وحتّى الروعة. آنذاك يصبحن بكلّيتهنّ للرجل، عاجزات عن الجدال أو المقاومة أو الرحيل، يصبحن للرجل لكي يفعل بهنّ ما يشاء. بالأمس، كانت جثّة المرأة الأخرى ثقيلة ومتراخية بعدما أفرغها من دمها. جثث النساء هي ألعابه الكبيرة الحجم. إنّها دُماه.

تبع السكرتيرة ورفيقها إلى داخل مركز أركاديا التجاريّ المزدحم بمتسوّقي صباح السبت. كان يسير خلفهما وكأنّه شبح أو إله. تساءل عمّا إذا كان الناس يستطيعون أن يروه، أم أنّه أصبح خفيًّا بعدما باتت له تلك الحياة الثانية.

وصلا إلى محطّة للحافلات. أخذ يروح ويجيء قريبًا منهما، متظاهرًا بأنّه ينظر تارة عبر باب مطعم هنديّ، وطورًا إلى الفاكهة المصفوفة أمام متجر بقالة، أو إلى أقنعة كرتونيّة للأمير ويليام وكايت ميدلتون معلّقة في واجهة بائع جرائد. لكنّه كان في الواقع يراقب انعكاس صورتيهما في الزجاج.

همّا بالركوب في الحافلة رقم 83. لم يكن في جيبه الكثير من المال، لكنّه وجد متعة كبيرة في مراقبتها لدرجة أنّه لم يرد للأمر أن ينتهي حالًا. وفيما صعد درجات الحافلة خلفهما، سمع الرجل يذكر محطّة ويمبلي سنترال. فاشترى تذكرة وتبعهما.

وجد الرجل والمرأة مقعدين متحاذيين في مقدّمة الحافلة. جلس في مكان قريب منهما، بجانب امرأة كثيرة التذمّر أرغمها على أن تبعد ما معها من أكياس تسوّق لتفسح له مكانًا. كان صوتاهما يصلان إليه أحيانًا فوق ضجيج الركّاب الآخرين. أمّا حين تصمت السكرتيرة، فكانت تنظر عبر النافذة إلى الخارج، عابسة. أيقن أنّها لا ترغب في الذهاب إلى حيث يتجهان. وحين أبعدت بيدها خصلة شعر عن عينيها، لاحظ أنها تضع خاتم خطوبة. أي أنّها توشك على الزواج... أو أنّ هذا ما تظنّه. فأخفى ابتسامته الخفيفة خلف ياقة سترته المقلوبة إلى الأعلى.

إنسكبت شمس الظهيرة الدافئة عبر نوافذ الحافلة المبقّعة بالغبار. في المحطة التالية دخل عدد من الرجال وملأوا المقاعد الفارغة. كان اثنان منهما يرتديان قميص الرغبي الأحمر والأسود.

شعر فجأة بأنّ البهجة التي أضفاها ذلك النهار قد خفتت. فالقميصان اللذان يحملان رسم الهلال والنجمة أثارا امتعاضه. وذكّراه بزمن لم يشعر خلاله بأنّه إله. مؤسف أن يتلطّخ يوم سعادته بذكريات قديمة وسيّئة، لكنّ انشراحه تراجع فجأة ليحلّ محلّه غضب شديد. لاحظه مراهق بين الركّاب، لكنّه لم يلبث أن أشاح بنظره عنه وقد شعر بالخطر. نهض ومضى نحو درج الحافلة.

كان أب وابنه الصغير يتشبّثان بالعمود القريب من باب الحافلة. شعر بانفجار من الغضب في أحشائه: كان يجب أن يكون له ابن. أو بالأحرى، كان يجب أن يبقى ابنه حيًا حتّى اليوم. تخيّل الصبيّ واقفًا بالقرب منه، يرمقه بالنظرات التي يُرمق بها الأبطال. لكنّ ابنه قد رحل منذ زمن بعيد. وذلك كلّه بسبب رجل اسمه كورموران سترايك.

كان ينوي أن ينتقم من كورموران سترايك. أن يصبّ على رأسه نيران الجحيم.

نزل إلى الرصيف، ونظر إلى نوافذ الحافلة الأماميّة، فلمح للمرّة الأخيرة شعر السكرتيرة الأشقر. سيراها من جديد بعد أقلّ من أربع وعشرين ساعة. ساعدته تلك الفكرة على تخفيف حدّة الغضب المفاجئ الذي سبّبته رؤية

قميصَي فريق ساراسن للرغبي. أقلعت الحافلة، وسار هو مبتعدًا في الاتجاه المعاكس، تاركًا لخطواته أن تخفّف من حدّة غضبه.

كانت لديه خطّة رائعة. لا أحد على علم بها. لا أحد يشكّ بوجودها. وكان شيء مميّز ينتظره في ثلاّجة منزله.

2

A rock through a window never comes with a kiss[1].

Blue Öyster Cult, Madness to the Method

تبلغ روبن إيلاكوت من العمر ستّة وعشرين عامًا، وهي مخطوبة منذ أكثر من عام. كان مقرّرًا لزواجها أن يتمّ قبل ثلاثة أشهر، لكنّ الموت المفاجئ لوالدة خطيبها حتّم تأجيله. في هذه الأشهر الثلاثة حدثت أمور كثيرة. وتزاحمت التساؤلات في رأس روبن: هل كانت علاقتها بماثيو لتكون أفضل لو أنّ عقد القران قد تمّ؟ هل كانت شجاراتهما لتكون أقلّ لو أنّ خاتم الخطوبة الياقوتيّ الذي تراخى قليلًا في إصبعها، قد أضيف إليه محبِس زواج؟

شقّت روبن طريقها بصعوبة وسط ركام الحجارة على طريق توتنهام كورت صباح يوم الاثنين، وهي تستعيد في ذاكرتها الشجار الذي اندلع أمس بينها وبين ماثيو. بدأ الخلاف حتّى قبل أن يغادرا المنزل لمشاهدة مباراة الرغبي. وبعد عودتهما، لفتت نظره إلى أنّ شجارًا ينشب بينهما كلّما التقيا ساره شادلوك وحبيبها طوم. والجدال الذي تصاعدت حدّته بعد المباراة، تواصل حتّى ساعات الصباح الأولى.

[1] الحجر الذي يخترق النافذة لا يحمل معه قبلة أبدًا.

– ساره تثير المتاعب، بربّك – ألا ترى؟ هي التي كانت تطرح ألف سؤال عنه، ولم تتوقّف. لستُ البادئة...

بدا أنّ الحفريات على طول طريق توتنهام كورت لا تنتهي، وتجعل وصول روبن سيرًا إلى مكتبها، منذ أن بدأت العمل في مكتب التحقيق الخاصّ في شارع الدانمارك، مهمّة شاقّة. تَعَكّر مزاجها أكثر حين تعثّرت بكتلة ضخمة من الركام، وترنّحت لبضع خطوات قبل أن تستعيد توازنها. وآنذاك علت صفرات الإعجاب والتعليقات البذيئة من حفرة عميقة في الطريق، ملأى برجال بخوذات الحماية والسترات الخضراء. إحمرّ وجهها حنقًا، وهزّت رأسها لتزيح شعرها الأشقر عن عينيها، وسارت متجاهلة الرجال وتعليقاتهم، لتعود أفكارها ورغمًا عنها، إلى ساره شادلوك وأسئلتها الملحّة والخبيثة حول ربّ عمل روبن.

– إنّه جذّاب على نحو غريب، أليس كذلك؟ يبدو متعبًا قليلًا، لكنّني لم أبالِ بذلك قطّ. هل هو مثير؟ إنّه ضخم الجثّة، صحيح؟

رأت روبن فكّ ماثيو يتصلّب وهي تحاول التملّص من الإجابة.

– ليس في المكتب أحد غيركما. أصحيح هذا؟ لا أحد أبدًا؟

الساقطة، قالت في سرّها روبن التي لم تستلطف – برغم طيبتها – ساره شادلوك قطّ. إنّها تعرف تمامًا ما تفعل.

– أصحيح أنّه نال وسامًا في أفغانستان؟ أصحيح هذا؟ أي أنّه بطل حرب أيضًا؟

بذلت روبن قصارى جهدها لتوقف هذا الفيض من الثناء الذي توجّهه ساره لكورموران سترايك، ولكن بلا جدوى. مع نهاية المباراة حلّ صمت بارد بين ماثيو وخطيبته، لكنّ ذلك لم يمنعه من ممازحة ساره والضحك معها في طريق العودة. فيما راح طوم الذي تجده روبن مضجرًا وغبيًا يضحك مرَحًا، غافلًا عمّا يدور أمامه.

شقّت روبن طريقها وسط المشاة الذين يحاولون المرور بين حفر الطريق، وبعضهم يصطدم ببعض، ووصلت أخيرًا إلى الرصيف المقابل. سارت في ظلّ مبنى سنتر بوينت الذي يرتفع في سماء المدينة كعمود هائل من

المربّعات الإسمنتيّة. ثمّ عاد إليها الشعور بالغضب وهي تتذكّر ما قاله لها ماثيو عند منتصف الليل، حين اشتعل الخلاف بينهما من جديد:

– ألا يمكنك الكفّ عن الحديث عنه؟ سمعتك تقولين لساره...

– لستُ أنا من عدت للحديث عنه. إنّها هي، لكنّك لم تكن تصغي...

– أوه! شعره رائع... قاطعها ماثيو، مقلّدًا إيّاها بصوت نسائي حادّ النبرة وهازئ.

– بربّك، أنت مصاب بجنون الارتياب تمامًا! صاحت روبن. كانت ساره تتغنّى بشعر جاك برغر، لا بشعر كورموران. كلّ ما قلتُه...

– لا بشعر كورموران، كرّر يقول بالصوت الحادّ الهازئ عينه.

حين انعطفت روبن باتّجاه شارع الدانمارك، عاد إليها الغضب الذي شعرت به منذ ثماني ساعات، حين خرجت غاضبة من غرفة النوم لتنام على الأريكة.

ساره شادلوك. ساره شادلوك اللعينة التي كانت في الجامعة مع ماثيو، والتي بذلت كلّ ما في وسعها لتبعده عن روبن، الرفيقة التي تركها في يوركشاير... لو كان بوسع روبن أن تتأكّد من أنّها لن ترى ساره بعد اليوم، لشعرت بالبهجة. لكنّ ساره ستحضر حفلة زفافهما في تمّوز/يوليو، ولا شكّ بأنّها ستستمرّ في تعكير صفو حياتهما الزوجيّة. ولعلّها ستحاول في أحد الأيّام أن تجد وسيلة للقدوم إلى مكتب روبن للقاء سترايك، إذا كان اهتمامها به صادقًا، لا مجرّد وسيلة لزرع الخلاف بين روبن وماثيو.

لن أعرّفها بكورموران أبدًا، فكّرت روبن وهي تقترب من الساعي الواقف خارج باب المكتب. وقد أمسك بإحدى يديه حاملة أوراق، وبالأخرى رزمة طويلة ومستطيلة الشكل.

– هل هذه الرزمة باسم إيلاكوت؟ سألته روبن حين اقتربت منه.

كانت تنتظر استلام مجموعة كاميرات قابلة للاستعمال مرّة واحدة، عاجية اللون، لتقدّمها كهدايا إلى مدعوّيها في حفلة الزفاف. وبما أنّ ساعات عملها باتت غير منتظمة أبدًا في الفترة الأخيرة، فقد وجدت أنّ من الأسهل استلام الطلبات التي تجريها عبر الإنترنت في المكتب، لا في شقّتها.

هزّ الساعي برأسه إيجابًا، ومدّ نحوها حاملة أوراقه بدون أن ينزع عن رأسه خوذته. وقّعت روبن القسيمة، واستلمت الرزمة الطويلة التي كانت أثقل بكثير ممّا توقّعته. أحست وهي تضعها تحت ذراعها وكأنّ بداخلها قطعة كبيرة واحدة، لا مجموعة علب كاميرات صغيرة.

قالت للساعي «شكرًا»، لكنّه كان حينذاك قد استدار وهمّ بركوب درّاجته الناريّة. وسمعت هدير محرّكها ينطلق مبتعدًا فيما كانت تدخل المبنى.

صعدت الدرج الحديديّ الطويل المحيط بالمصعد المعطّل، وصدى حذائها الذي يقرع الدرجات المعدنيّة يتردد في ذلك المهوى الضيّق. فتحت قفل الباب الزجاجيّ، ودفعته فالتمع زجاجه، وظهرت في الظلام لافتة كُتب عليها «ك. ب. سترايك. محقّق خاصّ».

تعمّدت الوصول إلى العمل باكرًا. فالقضايا تراكمت عليهما، وأرادت أن تنجز بعض الأعمال المكتبيّة قبل أن تستأنف عمليّة المراقبة اليوميّة لراقصة تعرٍّ روسيّة. سمعت صوت خطوات ثقيلة في الطابق الأعلى، فعرفت أنّ سترايك لا يزال في شقّته.

وضعت روبن رزمتها المستطيلة فوق المكتب، وخلعت معطفها وعلّقته، مع حقيبتها، على مشجب خلف الباب. أضاءت النور، وملأت الغلاّية الكهربائيّة ماءً ووصلتها بالتيّار، ثمّ تناولت فتّاحة الرسائل الحادّة النصل فوق مكتبها. تذكّرت أنّ ماثيو رفض تمامًا أن يصدّق أنّ ما أبدت إعجابها به هو شعر جاك برغر الأجعد، لا شعر سترايك الشبيه بشعر العانة، فما كان منها إلّا أن وجهت طعنة غاضبة إلى طرف غلاف الرزمة ومزّقته لتُخرج العلبة.

لكنّ نظرها وقع على ساق مبتورة لامرأة، طُويت أصابعها إلى الخلف قبل أن تُحشر في العلبة.

3

Half-a-hero in a hard-hearted game[1].

Blue Öyster Cult, 'The Marshall Plan'

ردّدت النوافذ صدى صراخ روبن. إبتعدت عن المكتب محملقة في تلك الساق المروّعة الملقاة عليه. كانت ملساء ونحيلة وشاحبة، وقد لامستها روبن بإصبعها وهي تفتح الغلاف، وأحسّتِ ببرودة الجلد.

لم تكد تنجح في خنق صرختها مطبقة بكلتا يديها على فمها، حتّى فُتح الباب الزجاجيّ بقوّة إلى جانبها. وظهر سترايك: رجل يزيد طوله عن 192 سنتمترًا، عابس الوجه، بقميص مفتوح الأزرار بدت خلفه كتلة من الشعر الأسود الشبيه بشعر القردة.

– ماذا...

نظر إلى حيث كانت تحملق روبن مذهولة، فرأى الساق. شعرت الفتاة بيده تقبض بخشونة على ذراعها وتخرجها من الغرفة.

– كيف أتت؟

– بواسطة ساعٍ، أجابت مستسلمة ليده التي تقودها لصعود الدرج. على درّاجة ناريّة.

[1] نصف بطل في لعبة قاسية.

– إنتظري هنا. سأتّصل بالشرطة.

وقفت في شقّته بعدما أغلق الباب خلفها، جامدة، خافقة القلب، مصغية إلى صوت خطواته وهو ينزل الدرج مجدّدًا. أحسّت بطعم الحمض يرتفع من معدتها إلى حلقها. ساق. لقد استلمت ساقًا بشريّة. لقد حملت ساق امرأة ملفوفة في علبة، ولم يخامرها أيّ شك. ساق مَن هي؟ أين بقيّة الجثّة؟

سارت إلى أقرب كرسيّ، وهو بلاستيكيّ من النوع الرخيص وذو قوائم معدنيّة. جلست عليه وأصابعها لا تزال مشدودة إلى شفتيها المتخدّرتين. تذكّرت أنّ الرزمة كانت موجّهة إليها باسمها.

في هذا الوقت، كان سترايك يقف إلى نافذة المكتب المطلّة على الطريق، يجوب بعينيه شارع الدانمارك بحثًا عن أيّ أثر للساعي، وهاتفه المحمول إلى أذنه. حين عاد ليدقّق في العلبة المفتوحة الموضوعة على المكتب كان قد أنهى اتّصاله بالشرطة.

– ساق؟ كرّر المفتش إريك واردل على الطرف الآخر من الخطّ، ساق لعينة؟

– حتّى أنّ قياسها لا يناسبني، قال سترايك في دعابة ما كان ليلقيها لو كانت روبن حاضرة.

كانت ساق سرواله مرفوعة ليظهر تحتها القضيب المعدنيّ الذي حلّ محلّ كاحله الأيمن. فقد كان يرتدي ملابسه حين سمع صراخ روبن، ونزل مسرعًا. لاحظ وهو يقول ذلك للشرطيّ أنّها كانت ساقًا يمنى كساقه المفقودة، وأنّها مقطوعة تحت الركبة، أي حيث بُترت ساقه تمامًا. إقترب سترايك والهاتف لا يزال إلى أذنه، لينظر عن كثب إلى تلك الساق. إمتلأ أنفه برائحة بشعة كرائحة الدجاج بعد إخراجه من الثلاّجة. كانت بشرتها بيضاء، ملساء، شاحبة، لا تشوبها غير كدمة قديمة مائلة إلى اللون الأخضر على ربلتها، غير المحلوقة تمامًا. كانت بقايا شعيرات القدم شقراء، وأظافرها غير مطليّة ووسخة قليلًا. برزت وسط اللحم عظمة الساق تلتمع بلونها الأبيض. لقد قُطعت بضربة واحدة، رجّح سترايك أن تكون بفأس أو بساطور.

– هل قلت لي إنّها ساق امرأة؟

– يبدو...

لاحظ سترايك شيئًا آخر: ندبة على الربلة حيث قُطعت الساق. كانت تلك الندبة قديمة ولا علاقة لها بعمليّة البتر.

كم مرّة باغته البحر الغادر وهو يدير ظهره إليه في خلال طفولته بمنطقة كورنوال الإنكليزيّة؟ أولئك الذين لا يعرفون المحيط جيّدًا ينسون قسوته ووحشيّته، فيدركهم الرعب حين ينقضّ عليهم بقوّة هائلة. لطالما واجه سترايك في خلال حياته المهنيّة الخوف، وعمل في ظلّه، وتحكّم به. لكنّ المفاجأة التي أحدثها منظر تلك الندبة القديمة أثار في سترايك رعبًا قطع عليه تنفّسه لبعض الوقت.

– ألا تزال على الخطّ؟ سأله واردل.

– ماذا؟

كان أنف سترايك المكسور مرّتين يبعد سنتمترين من طرف الساق المبتورة. وتذكّر ندبة في ساق طفلة لم ينسها قطّ... متى رآها لآخر مرّة؟ كم يجب أن يكون عمرها الآن؟

– هل أنا أوّل شخص تتّصل به؟ سأله واردل.

– نعم، قال سترايك، مرغمًا نفسه على التركيز. أفضّل أن تتولّى أنت الأمر، لكن إن لم تستطع...

– أنا بطريقي إليك، قال واردل. لن أتأخّر. إنتظرني.

أطفأ سترايك هاتفه ووضعه من يده، وهو لا يزال يحملق بالساق. رأى أنّ تحتها رسالة مطبوعة. قاوم الرجل الذي تدرّب على إجراءات التحقيق في الجيش البريطاني، رغبة شديدة في أن يسحبها ويقرأها. يجب عليه ألّا يعبث بالأدلّة الجنائيّة. فانحنى مقرفصًا حتّى يتمكّن من قراءة العنوان المكتوب على غطاء العلبة المقلوب.

كانت العلبة مرسلة إلى روبن، وهو ما لم يعجبه أبدًا. كان اسمها مكتوبًا بلا خطأ ومطبوعًا على ملصق أبيض يحمل عنوان مكتبهما. رأى سترايك أنّ تحت ذلك الملصق ملصقًا آخر. لكنّه كان مصمّمًا على ألّا يغيّر مكان العلبة

حتّى لقراءة العنوان بوضوح، فأمعن النظر ورأى أنّ المرسِل قد وضع في البداية اسم كامرون سترايك، ثمّ وضع فوقه ملصقًا ثانيًا باسم روبن إيلاكوت. لماذا غيّر رأيه؟

– تبًّا، تمتم سترايك.

وقف بصعوبة، وتناول حقيبة يد روبن عن المشجب، ثمّ أقفل الباب الزجاجيّ وصعد الدرج.

– الشرطة في الطريق إلى هنا، قال لها وهو يضع حقيبتها أمامها. هل تريدين كوبًا من الشاي؟

هزّت رأسها موافقة.

– هل تريدين فيه براندي؟

– ليس لديك براندي، قالت له بصوت مبحوح قليلًا.

– هل كنت تفتّشين منزلي؟

– طبعًا لا! أجابت بنبرة استياء من الإشارة إلى أنها ربّما فتّشت خزائن منزل سترايك. دفعتها نبرتها تلك إلى الابتسام، وتابعت تقول: لستَ ممّن يحتفظون ببراندي.

– هل تريدين بيرة؟

هزّت رأسها تعبيرًا عن الرفض، عاجزة عن مواصلة الابتسام.

أعدّ سترايك الشاي، ثمّ جلس قبالتها حاملًا فنجانه. كان مظهره يشي بحقيقته تمامًا: ملاكم سابق ضخم الجثّة ومسرف في التدخين والأطعمة السريعة. ذو حاجبين كثيفين، وأنف مسطّح وغير متناسق، وتعبير دائم عن الاستياء والتجهّم، اللّهم إذا ابتسم. حين رأت روبن شعره الأسود والكثيف والأجعد، الذي لا يزال رطبًا بعد الحمّام، تذكّرت جاك برغر وساره شادلوك. في تلك اللحظة بدا لها شجارها وماثيو وكأنّه حدث منذ زمن بعيد. منذ صعدت إلى هنا لم يخطر ببالها إلّا لبرهة وجيزة. كانت تخشى أن تخبره بما حدث، فقد يُغضبه ذلك لا سيّما وأنّ عملها لحساب سترايك كان يثير امتعاضه.

– هل نظرت... إليها؟ سألته متمتمة، بعدما حملت فنجانها الساخن ووضعته من يدها بدون أن تشرب.

– نعم، أجاب سترايك.

لم تدرِ ماذا تسأله. كانت ساقًا مقطوعة. كان الوضع مرعبًا وبشعًا لدرجة أنّ كلّ سؤال خطر ببالها بدا لها سخيفًا وغبيًّا. هل عرفت لمَن؟ لماذا برأيك أرسلوها؟ والسؤال الأكثر إلحاحًا: لماذا أرسلوها إليّ؟

– الشرطة ستسألك أن تصفي لها الساعي، قال لها.

– أعرف، قالت روبن، أحاول أن أتذكّر كلّ ما يتعلّق به.

سمعا جرس الباب السفليّ.

– لا بدّ من أنّ واردل وصل.

– واردل؟ سألته مجفلة.

– إنّه الشرطيّ الألطف بين كلّ الذين نعرفهم، ذكّرها سترايك. مهلًا، سآتي به إليك.

تمكّن سترايك من أن يكتسب عداوة أفراد الشرطة اللندنية، وخصوصًا في العام المنصرم. لم يكن وحده المسؤول عن ذلك. فالتغطية الصحفية الشاملة لنجاحه الكبير في حلّ لغزَي جريمتين، أثارت استياء أفراد الشرطة الذين تفوّق عليهم بأشواط. غير أنّ واردل الذي ساعده في أولى تينك القضيّتين، نال قسطًا من المجد، فبقيت علاقة الرجلين على قدر معقول من الودّ.

لم يسبق لروبن أن عرفت واردل إلّا من خلال تقارير الصحف حول القضيّة، ولم تلتقه في المحكمة قطّ. فتبيّن لها حين رأته أنّه رجل وسيم، ذو شعر كستنائيّ وعينين بنّيتين، يرتدي سترة جلديّة وسروال جينز. لم يدرِ سترايك ما إذا كانت نظرة واردل إلى روبن مثيرة للضحك أم للاستياء. فلدى دخوله الغرفة، رمقها المفتّش بنظرة أفراد الشرطة اللاإرادية الفاحصة: نظرة مرّت على شعرها لتنتقل بسرعة إلى وجهها ويدها اليسرى، وتتوقف لبرهة عند خاتم خطوبتها المصنوع من الياقوت والماس.

– إريك واردل، قال بصوت منخفض وابتسامة ساحرة شعر سترايك بأنّها غير ضروريّة. وهذه هي الرقيبة إكوينسي.

كانت برفقته شرطيّة سوداء نحيلة جمعت شعرها في كعكة خلف رأسها. إكتفت بتوجيه ابتسامة عابرة إلى روبن، التي شعرت بارتياح كبير لوجود امرأة أخرى. بعد ذلك، نقّلت الشرطيّة نظراتها في أرجاء حجرة سترايك، التي يستخدمها بمثابة غرفة جلوس ونوم في آن واحد.

– أين الرزمة؟ سألتهما.

– في الطابق السفلي، قال سترايك وهو يخرج مفتاح المكتب من جيبه. سأدلّك. هل زوجتك بخير يا واردل؟ أضاف وهو يستعدّ لمغادرة الغرفة مع الرقيبة إكوينسي.

– فيمَ يهمّك الأمر؟ ردّ الشرطيّ.

شعرت روبن بالارتياح حين تخلّى واردل عمّا اعتبرته تصرّفًا متكلّفًا يليق بالأطبّاء النفسيّين، ليجلس إلى الطاولة قبالتها ويفتح دفتره.

– كان يقف خارج الباب حين أتيتُ عبر الشارع، أجابت روبن عن سؤال واردل حول كيفيّة وصول الساق. ظننتُه ساعي بريد. كان يرتدي ملابس جلدية سوداء بالكامل، ما عدا الأشرطة الزرقاء على كتفي سترته. خوذته أيضًا كانت سوداء، وقد خفض حاجب العينين العاكس. طوله 183 سنتمترًا على الأقلّ، وهو أطول منّي بـ 10 أو 12 سنتمترًا، حتّى بدون الخوذة.

– وجسمه؟ سألها واردل الذي كان يدوّن في دفتره.

– ضخم الجثّة، لكن لعلّ سترته زادت من حجمه. وحين اتّجهت عينا روبن تلقائيًا نحو سترايك الذي عاد إلى الغرفة، أضافت: أعني أنّه ليس...

– ليس بضخامة ربّ عملك النذل؟ قال سترايك الذي سمع بداية الجملة.

ما كان من واردل الذي لا يفوّت أبدًا فرصة للاستمتاع بالتهكّم على سترايك إلّا أن راح يضحك بصوت غير مسموع.

– وكان يضع قفّازين، تابعت روبن التي لم تبتسم. قفّازان جلديّان أسودان خاصّان بسائقي الدرّاجات النارية.

– من الطبيعيّ أن يضع قفّازين، قال واردل وهو يكتب ملاحظة. لا أظنّك لاحظت ماركة الدرّاجة الناريّة؟

– هوندا، حمراء وسوداء، قالت روبن. لاحظتُ شعار الماركة المجنّح. أظنّها بسعة 750 سنتمتر مكعّب. كانت ضخمة.

بدت على وجه واردل ملامح المفاجأة والإعجاب في الوقت عينه.

– روبن من هواة القيادة السريعة، قال سترايك، وتقود مثل فرناندو ألونزو.

كانت روبن تتمنّى لو أنّ سترايك يضع حدًّا لبهجته وثرثرته. في الطابق السفليّ ساق امرأة. أين بقيّة جثّتها؟ يجب ألّا تفقد رباطة جأشها. ليتها نامت وقتًا أطول أمس. تلك الأريكة اللعينة... الواقع أنّها أمضت ليالي كثيرة على تلك الأريكة في الآونة الأخيرة...

– هل طلب منك أن توقّعي قسيمة الاستلام؟

– لم يطلب مني. مدّ نحوي حاملة أوراق، فوقّعت تلقائيًّا.

– ماذا كان في حاملة الأوراق؟

– بدا ذلك كفاتورة أو...

أغمضت عينيها وبذلت جهدًا لتتذكّر. أدركت في تلك اللحظة أنّ القسيمة بدت من تصميم هاوٍ، وكأنّها أُعِدّت على كومبيوتر شخص ما. فقالت ذلك لواردل.

– هل كنت تنتظرين استلام علبة؟

شرحت لواردل أنّها كانت تنتظر استلام كاميرات قابلة للاستعمال مرّة واحدة، لتقديمها في حفل زفافها.

– ماذا فعل بعدما أخذتِ العلبة؟

– عاد إلى درّاجته الناريّة وغادر عبر طريق شايرينغ كروس.

سُمع طرق على باب الشقّة. عادت الرقيبة إكوينسي حاملة الرسالة التي رآها سترايك تحت الساق، وكانت في كيس خاصّ بالأدلّة الجنائيّة.

– خبراء الأدلّة الجنائيّة هنا، قالت لواردل. هذه الرسالة كانت في العلبة. فلنعرف ما إذا كانت تعني للآنسة إيلاكوت شيئًا.

أخذ واردل الرسالة المغلّفة بالبلاستيك، ونظر إليها، ثمّ عبس.

– هذا غير مفهوم، قال وهو يقرأها بصوت مرتفع: A harvest of limbs, of arms and of legs, of necks حصاد من الأطراف، من الأذرع والسيقان، من الأعناق...

– ...That turn like swans, as if inclined to gasp or pray التي تدور كالإوزّ وكأنّها تميل إلى أن تشهق أو تصلّي. قاطعه سترايك الذي لم يكن يستطيع، من حيث وقف متّكئًا إلى موقد الطهو، أن يقرأ الرسالة.

إتّجهت إليه أنظار الموجودين الثلاثة.

– إنّها كلمات أغنية، قال سترايك.

لم ترتح روبن إلى التعبير الذي ظهر على وجهه، وأيقنت أنّ لتلك الكلمات معنى سيّئًا بالنسبة إليه. وبدا أنّه يبذل جهدًا ليوضح:

– إنّه المقطع الأخير من أغنية Mistress of the Salmon Salt لفرقة Blue Öyster Cult.

رفعت الرقيبة إكوينسي حاجبيها المرسومين بقلم دقيق، وسألته:

– مَن؟

– فرقة لموسيقى الروك كانت مشهورة في السبعينيّات.

– هل تعرف أعمالهم جيّدًا؟ سأله واردل.

– أعرف هذه الأغنية، أجاب سترايك.

– هل تعرف مَن أرسل هذه العلبة؟

تردد سترايك. وفيما كان الآخرون يراقبونه، مرّت سلسلة من الصور في ذهنه بسرعة. وقال في داخله صوت خفيض: She wanted to die. She was the quicklime girl كانت تريد أن تموت. كانت فتاة الكلس. الساق النحيلة لطفلة في الثانية عشرة، وعليها ندوب من خطوط فضية. عينان داكنتان صغيرتان كعينَي ابن مقرض، ضيّقهما الكُره. وشم وردة صفراء.

على مسافة أبعد من تلك الذكريات، ظهرت لسترايك صورة واضحة جدًّا، وكأنّ شخصًا آخر وضعها في مقدّمة الصور الأخرى: رأى محضرًا للشرطة يتحدّث عن بتر عضو ذكريّ من جثّة وإرساله بالبريد إلى مخبر شرطة.

– هل تعرف مَن أرسلها؟ قال واردل مجدّدًا.

– ربما، قال سترايك. ثمّ ألقى نظرة خاطفة نحو روبن والرقيبة إكوينسي، وتابع: أفضّل أن أتحدّث بالأمر مع الشرطة فقط. هل عرفتما كلّ ما تريدان معرفته من روبن؟

– لا نزال بحاجة إلى الاسم والعنوان وما إلى ذلك، قال واردل. فانيسا، أيمكنك القيام بهذا؟

تقدّمت الرقيبة إكوينسي حاملة دفترها، فيما خرج الرجلان وابتعدا حتّى تلاشى صوت خطواتهما. أمّا روبن، وبرغم عدم رغبتها في رؤية الساق المبتورة مرّة أخرى، فقد شعرت بالإهانة لأنّها أُهمِلت. العلبة كانت تحمل اسمها هي.

كانت الرزمة المروّعة حيث تُركت، على المكتب في الطابق السفليّ. إنهمك الشرطيان اللذان سمحت لهما الرقيبة إكوينسي بالعمل: تولّى الأوّل التقاط الصور الفوتوغرافيّة، فيما كان الثاني يتحدّث بهاتفه النقّال. مرّ بهما رئيسهما، واردل، يرافقه المحقّق الخاصّ. نظر الشرطيّان باستغراب إلى هذا الأخير. بات سترايك يتمتّع بالشهرة بعدما أثار نفور كثيرين من زملاء واردل.

أغلق سترايك باب غرفته، وجلس إلى مكتبه يقابله واردل، الذي فتح صفحة جديدة في دفتره.

– حسنًا. مَن الذي يحبّ تقطيع الجثث وإرسال أطرافها بالبريد؟

– تيرنس ماللي، قال سترايك بعد تردّد وجيز. لنبدأ به.

لم يكتب واردل شيئًا، بل اكتفى بحمل قلمه والنظر إلى سترايك، قبل أن يسأله:

– تيرنس ماللي الملقّب بالحفّار؟

هزّ سترايك رأسه موافقًا.

– عصابة هارينغاي؟

– كم شخصًا باسم تيرنس ماللي الحفّار تعرفهم؟ سأله سترايك وقد نفد صبره. وكم شخصًا اعتادوا إرسال أطراف بشريّة بالبريد؟

– كيف تعرفت إلى الحفّار؟

– في خلال عمليّة مشتركة مع شرطة مكافحة الرذيلة للقبض على عصابة مخدّرات. العام 2008.

– أهي عمليّة المداهمة التي اعتُقل فيها؟

– صحيح.

– اللعنة، قال واردل. هو الفاعل بالتأكيد. الرجل معتوه تمامًا. لقد خرج مؤخّرًا من السجن ويمكنه الوصول بسهولة إلى نصف عاهرات لندن. يجدر بنا البدء بتفتيش نهر التايمز عن بقيّة الجثّة.

– أجل، لكنّ شهادتي كانت سرّية. ما كان يُفترض به أن يعرف أنّني شهدتُ ضده.

– عصابة هارينغاي تملك وسائلها الخاصّة لتقصّي المعلومات. إنّهم كالمافيا. هل سمعت كيف أرسل قضيب هاتفورد علي إلى إيان بفين؟

– نعم، سمعتُ ذلك.

– ما حكاية الأغنية؟ والحصاد؟

– هذا ما يقلقني، قال سترايك ببطء. يبدو هذا عملًا أصعب من أن يقوم به أمثال الحفّار. وهذا ما يدفعني إلى التفكير في الأشخاص الثلاثة الآخرين.

4

Four winds at the Four Winds Bar,
Two doors locked and windows barred,
One door left to take you in,
The other one just mirrors it[1]*...*

Blue Öyster Cult, 'Astronomy'

– أنت تعرف أربعة رجال قد يرسلون إليك ساقًا مقطوعة؟ أربعة؟

في المرآة المستديرة بقرب المغسلة التي وقف خلفها ليحلق ذقنه، رأى سترايك تعبير الرعب على وجه روبن. بعدما أخذت الشرطة الساق، قرّر سترايك إقفال المكتب في ذلك اليوم. بقيت روبن جالسة إلى الطاولة الصغيرة في حجرة رب عملها التي تشكل مطبخًا وغرفة جلوس في الوقت عينه، تؤرجح بيدها فنجانًا ثانيًا من الشاي.

– الحقيقة أنّني أظنّهم ثلاثة، قال لها وهو يواصل الحلاقة. أظنّني أخطأت في ذكر أمر ماللي لواردل.

– لماذا؟

[1] أربع رياح في بار الرياح الأربع، / بابان مقفلان ونوافذ لها قضبان، / بقي باب واحد لتدخل منه، / الباب الآخر مجرّد مرآة...

روى سترايك لروبن حكاية لقائه الوجيز بالمجرم، وشهادته ضدّه في المحكمة، التي أودعته السجن. وتابع:

– واردل مقتنع بأنّ عصابة هارينغاي عرفت بأمري. لكنّي سافرت إلى العراق بعد شهادتي بوقت قصير. ولم أسمع قطّ بأنّ أحد ضبّاط فرع الاستقصاء الخاصّ قد أصيب بأذى يومًا بسبب افتضاح أمر شهادته في المحكمة. إضافة إلى ذلك، فإنّ كلمات الأغنية لا توحي لي بأنّ الفاعل هو الحفّار، لأنّه ليس من أصحاب المخيّلة الخلاّقة.

– أما سبق له أن قطع أطراف ضحاياه؟

– مرّة واحدة بحسب علمي. لكن لا تنسي: مُرسل الساق ربّما لم يقتل أحدًا، قال سترايك محاولًا التخفيف عن روبن. لعلّ الساق بُترت من جثّة، أو أتت من نفايات أحد المستشفيات. واردل سيحقّق في ذلك كلّه. لن نعرف الكثير حتّى ينظر خبراء الأدلّة الجنائيّة في الأمر.

فضّل سترايك ألّا يذكر أمامها الاحتمال المروّع بأن تكون الساق قد بُترت من امرأة حيّة.

تلا ذلك صمت طويل. إنشغل سترايك خلاله بغسل آلة الحلاقة بالماء، فيما اتّجهت روبن بنظرها إلى خارج النافذة، شاردة الأفكار.

– لكنّك كنت مضطرًّا إلى أن تذكر ماللي لواردل، قالت روبن وقد عادت لتلتفت إلى سترايك، الذي نظر إليها عبر المرآة. ما دام أرسل لأحدهم من قبل... ما الذي أرسله تحديدًا؟ سألته بعصبية.

– أرسل قضيبًا. ثمّ غسل وجهه وجفّفه بمنشفة، وتابع: نعم، لعلّك على حقّ. لكنّني وكلّما فكّرتُ في الأمر، زادت قناعتي بأنّه ليس الفاعل. سأعود بعد قليل، أريد تغيير قميصي، فقد تمزّق منه زرّان حين صرختِ.

– آسفة، قالت روبن بدون تركيز، فيما دخل سترايك الحجرة.

شربت الشاي وهي تنظر حولها في الغرفة. لم يسبق لها أن دخلت شقّة سترايك قطّ. أقصى ما بلغته من قبل هو طرق الباب لتسليمه رسائل، أو لإيقاظه في المرّات التي كان المكتب يشهد في خلالها زحمة قضايا تحرمه النوم. كانت تلك الحجرة المستخدَمة مطبخًا وغرفة جلوس في آن واحد، صغيرة

ولكنّها نظيفة ومرتّبة. لم يكن فيها ما هو شخصيّ جدًّا: فناجين غير متناسقة، وخرقة لتجفيف الأواني مطويّة بجانب موقد الطهو؛ لا صور فوتوغرافيّة أو قطع فنية على الإطلاق، ما خلا صورة جنديّ رسمها طفل، مثبّتة إلى أحد الرفوف.

– من رسم هذه الصورة؟ سألت روبن سترايك الذي عاد بقميص نظيف.

– جاك، ابن شقيقي. إنّه يحبّني، لا أعرف لماذا.

– لا تقلّل من قدر ذاتك.

– أنا لا أفعل ذلك. لا أعرف أبدًا ما يجب قوله للأطفال.

– أتظنّ أنّك التقيتَ ثلاثة رجال قادرين على...؟ عادت روبن للسؤال.

– أريد أن أشرب كأسًا، قال سترايك. لنذهب إلى حانة توتنهام.

كان التحادث في الطريق إلى هناك من ضروب المستحيل بسبب ضجيج الحفّارات الصاخب. لكنّ العمّال الذين رأوا روبن تسير إلى جانب سترايك امتنعوا عن التصفير أو إطلاق التعليقات. وصل الاثنان أخيرًا إلى الحانة المحليّة المفضّلة لدى سترايك، بما فيها من المرايا المذهّبة والمزخرفة، والجدران الخشبيّة الغامقة، ومضخّات البيرة النحاسيّة اللمّاعة، وقبّتها الزجاجيّة المتعدّدة الألوان، ولوحات الفتيات اللاهيات في الطبيعة، من رسم فليكس دي يونغ.

طلب سترايك كوب بيرة دوم بار، أمّا روبن فشعرت بأنّها لن تتحمّل الكحول آنذاك، فطلبت فنجان قهوة.

– إذًا؟ قالت روبن حالما عاد المحقّق الخاصّ إلى الطاولة العالية تحت القبّة الزجاجيّة. مَن هم الرجال الثلاثة؟

– لا تنسي أنّني قد أكون مخطئًا تمامًا، قال سترايك وهو يشرب البيرة.

– حسنًا، مَن هم؟

– منحرفون، لدى كلّ منهم سبب وجيه ليكرهني.

في ذهن سترايك، كانت طفلة نحيلة خائفة، في الثانية عشرة من عمرها، تحمل ندوبًا حول ساقها، تنظر إليه عبر نظّارتها غير المستقيمة. هل كانت الساق المبتورة ساقها اليمنى؟ لم يتذكّر. ربّاه، لا تسمح بأن تكون...

– مَن؟ سألت روبن مجدّدًا، وقد عيل صبرها.

– جنديّان، قال سترايك وهو يفرك ذقنه، وهما مجنونان وعنيفان بما يكفي لكي... لكي...

لكنّ تثاؤبًا لا إراديًا طويلًا قطع جملته. وبانتظار عودته إلى الكلام، تساءلت روبن عمّا إذا كان قد قضى ليلة البارحة مع حبيبته الجديدة. كانت إلين عازفة كمان محترفة سابقة، تعمل الآن مقدّمة برامج في راديو ثلاثة. وهي شقراء ذات جمال سكنديناڤيّ باهر، تُذكّرها بساره شادلوك، ولكنّها تفوقها جمالًا. إفترضت روبن أنّ هذا الشبه هو ما جعلها تنفر من إلين منذ البداية، إضافة إلى أنّ العازفة السابقة وصفت مرّة روبن، وعلى مسمعها، بسكرتيرة سترايك.

– آسف، قال سترايك. سهرتُ حتّى ساعة متأخّرة لكتابة الملاحظات حول قضيّة خان. أنا مرهق.

قال هذا ونظر إلى ساعته، ثمّ تابع يقول:

– هلاّ ننزل لنأكل؟ أتضوّر جوعًا.

– بعد قليل، الساعة لم تبلغ الثانية عشرة بعد. أريد أن أعرف حكاية أولئك الرجال.

تنهّد سترايك.

– حسنًا، قال بصوت خفيض لدى مرور رجل بطاولتهما في طريقه إلى المرحاض. دونالد لاينغ، من فوج الحدود الملكيّ. ثمّ تذكّر من جديد عينين تشبهان عينَي ابن مقرض، والكراهية الشديدة، ووشم الوردة، قبل أن يتابع: بسببي نال حكمًا بالسجن المؤبّد.

– ولكن...

– خرج بعد عشر سنوات، قال سترايك. إنه حرّ منذ العام 2007. لم يكن لاينغ مجنونًا كباقي المجانين. كان وحشًا ذكيًا ومنحرفًا. نموذج حقيقيّ للمختلّ نفسيًا. بسببي نال حكمًا بالسجن المؤبّد في جريمة لم يكن يُفترض بي التحقيق فيها، بعدما كان على وشك أن يُبرّأ منها. لا بدّ من أنّه يكرهني بشدّة.

لكنّ سترايك لم يذكر ما فعل لاينغ ولا سبب تكليفه التحقيق في قضيته. عند الحديث عن عمله في فرع الاستقصاء الخاصّ، غالبًا ما كانت روبن تشعر، من نبرة سترايك، أنّه بلغ نقطة لا يريد مواصلة الحديث بعدها. ولم يسبق لها قطّ أن ضغطت عليه ليتجاوزها. فتركت موضوع دونالد لاينغ على مضض.

– مَن هو الجنديّ الآخر؟

– نويل بروكبانك. جرذ صحراء.

– جرذ... ماذا؟

– من فرقة المدرّعات السابعة.

بدا سترايك أكثر ميلًا إلى الصمت، ونمَت تعابيره عن الاستياء. تساءلت روبن عمّا إذا كان السبب هو الجوع – فقد كان رجلًا بحاجة إلى الغذاء بوتيرة منتظمة للمحافظة على مزاج متّزن – أم أمر آخر أكثر غموضًا.

– هلاّ نأكل؟ سألته روبن.

– نعم، قال سترايك، ثمّ أنهى كوب البيرة وهبّ واقفًا.

دخلا إلى صالة في الطابق السفليّ حُوِّلت إلى مطعم. كانت تضمّ بارًا ثانيًا، وفُرشت بسجّادة حمراء وطاولات خشبيّة، كما غُطّيت جدرانها بنسخ لوحات فنية. في تلك الساعة، كانا أوّل زبونين يجلسان هناك ويطلبان طعامًا.

– ماذا قلت بشأن نويل بروكبانك؟ سألت روبن سترايك بعدما اختار سمكًا وبطاطا، واختارت هي طبق سلطة.

– إنّه شخص آخر يملك سببًا وجيهًا ليحقد عليّ، قال سترايك باقتضاب.

قبل قليل لم يشأ أن يتحدّث عن دونالد لاينغ، وها هو يظهر الآن تردّدًا في الحديث عن بروكبانك. بعد صمت طويل قضاه سترايك محملقًا في الفراغ فوق كتف روبن، قال:

– بروكبانك مجنون، أو أنّ هذا ما يتظاهر به.

– هل أنت من قبضت عليه؟

– لا.

بدا من تعبيره أنّه يرفض مواصلة الحديث. إنتظرت روبن، ولكنّها فهمت أنه لن يضيف شيئًا جديدًا. فسألته:

– والرجل الثالث؟

هذه المرّة لم يجب سترايك بشيء. وظنّته لم يسمعها.

– من...؟

– لا أريد الحديث في الأمر، قال مغمغمًا.

نظر باستياء إلى كوب البيرة الجديد أمامه. لكنّ روبن لم تخشَ مواصلة الحديث، فقالت:

– أيًا كان مَن أرسل تلك القدم، فقد أرسلها إليّ أنا.

– حسنًا، قال سترايك متذمّرًا بعد تردّد قصير. إسمه جف ويتايكر.

سرت في جسد روبن قشعريرة. لم تكن بحاجة إلى أن تسأل سترايك عن معرفته بويتايكر. كانت تعلم كلّ شيء، برغم أنّهما لم يتحادثا بالأمر قطّ.

كانت المعلومات المتعلقة بالمرحلة الأولى من حياة كورموران سترايك متوفرة بغزارة على الإنترنت، بعدما اجترّتها حتّى الملل التغطية الصحفيّة لنجاحاته في كشف أسرار الجرائم. كان سترايك ثمرة علاقة غير شرعيّة وعابرة بين أحد نجوم الروك وامرأة لطالما وُصفت بلقب السوبرغروبي[2]. ماتت تلك المرأة بجرعة مخدّرات زائدة حين كان سترايك في عامه العشرين. وكان جف ويتايكر زوجها الثاني الذي يصغرها سنًّا بكثير، وقد وُجّهت إليه تهمة قتلها. لكنه بُرّئ منها.

جلسا في صمت ينتظران وصول طعامهما.

– لماذا تأكلين السلطة فقط؟ ألست جائعة؟ سألها سترايك وهو يلتهم طبق البطاطا المقليّة الخاصّ به.

مثلما توقّعت روبن، تحسّن مزاجه بعدما تناول الكربوهيدرات.

– من أجل حفلة الزفاف، قالت باقتضاب.

[2] السوبرغروبي هي فتاة تُشتهر بملاحقة نجوم الموسيقى (أو الفرق الموسيقية) حيثما تنقلوا، والسعي لإقامة علاقات جنسية معهم.

لم يتفوّه سترايك بكلمة واحـدة. فالتعليق على مظهرها أمر يتجاوز الحدود التي فرضها على نفسه في العلاقة بينهما، والتي قرّر منذ بدايتها ألّا تصبح حميمة أبدًا. ومع ذلك فقد بات يراها نحيلة جدًّا. وبرغم أنّ الفكرة تتجاوز الحدود عينها، كان يعتبر أنّ بعض اللحم المكتنز يجعلها أجمل قوامًا.

– ألن تخبرني حتّى كيف تعرف تلك الأغنية؟ سألته روبن بعد عدّة دقائق من الصمت.

مضغ قطع البطاطا الأخيرة وشرب مزيدًا من البيرة. ثمّ طلب كوبًا آخر من دوم بار، وقال:

– كان عنوان الأغنية وشمًا على جسد أمّي.

لم يرغب في أن يخبر روبن أين كان الوشم تحديدًا، مفضّلًا ألّا يفكّر في الأمر. غير أنّ الطعام والبيرة ليّنا أخيرًا موقفه: ورأى أنّ روبن التي تعاملت دائمًا مع ماضيه بكلّ أخلاقيّة، مبرَّرة اليوم في سعيها للحصول على المعلومات.

– كانت تلك أغنيتها المفضّلة. Blue Öyster Cult كانت فرقتها الموسيقية المفضّلة. حتّى أنّ صفة «المفضّلة» لا تكفي. الواقع أنّه كان هوسًا.

– ألم تكن Deadbeats فرقتها المفضّلة؟ سألته روبن بدون تفكير. فوالده كان المغنّي الرئيسيّ في فرقة Deadbeats. لكن لم يسبق لهما أن تحادثا في موضوع أبيه قطّ.

– لا، قال سترايك بنصف ابتسامة. جوني العجوز كان في المرتبة الثانية من حيث الأهمية بالنسبة إلى ليدا. عشقها الحقيقيّ كان إريك بلوم، المغنّي الرئيسيّ في فرقة Blue Öyster Cult، لكنّها لم تستطع الوصول إليه قطّ. كان واحدًا من رجال قلائل استطاعوا الإفلات منها.

حارت روبن في ما تقول. سبق لها أن تساءلت حول شعور المرء حين يكون تاريخ والدته الجنسيّ منشورًا على الإنترنت ومتاحًا للجميع. وصل كوب البيرة الجديد، وشرب منه سترايك جرعة قبل أن يتابع:

– أرادت أمّي أن تطلق عليّ اسم إريك بلوم سترايك، قال. فكادت روبن تختنق بجرعة الماء. وفيما أخذت تسعل في منديل، ضحك وأضاف: اسم كورموران ليس أفضل بكثير. كورموران بلو...

– بلو؟

– Blue Öyster Cult، ألست تصغين؟

– ربّاه، قالت روبن. أنت لا تقول شيئًا حول هذا الأمر.

– أما كنت لتصمتي أيضًا لو أنّك مكاني؟

– ما معنى Mistress of the Salmon Salt؟

– لا أعلم. كلمات أغانيهم غير طبيعيّة. خيال علميّ. جنون.

سمع صوتًا في رأسه يقول: She wanted to die. She was the quicklime girl كانت تريد أن تموت. كانت فتاة الكلس.

شرب مزيدًا من البيرة.

– لا أظنّني سمعت أيّة أغنية لفرقة Blue Öyster Cult، قالت روبن.

– بلى، سمعتِ، قال سترايك مصحّحًا. Don't Fear the Reaper.

– ماذا؟

– كانت أغنية حقّقت نجاحًا كبيرًا. Don't Fear the Reaper.

– أوه... فهمت.

خالت روبن لبرهة أنّه يسدي إليها نصيحة.

أكلا في صمت لبعض الوقت، حتّى شعرت روبن بأنّها لا تستطيع تأجيل السؤال وقتًا أطول، فسألته، راجية ألّا يظهر الخوف في كلامها:

– برأيك، لماذا أُرسلت الساق إليّ؟

كان سترايك قد وجد وقتًا للتفكير في هذا السؤال.

– تساءلتُ حول هذا الأمر، قال. وأظنّ أنّ علينا اعتباره تهديدًا صامتًا. لذلك، وحتّى نكتشف...

– لن أتوقّف عن العمل، قالت روبن بحدّة. لن أبقى في المنزل. هذا ما يريده ماثيو.

– هل كلّمتِه؟

كانت روبن قد اتّصلت بماثيو في أثناء وجود سترايك مع واردل في المكتب.

– نعم، ويلومني على توقيعي قسيمة الاستلام.

– أظنّه قلقًا عليك، قال سترايك. لكنّه لم يعنِ ما قاله، فقد التقى ماثيو بضع مرّات، وفي كلّ مرّة كان نفوره منه يزداد.

– ليس قلقًا، ردّت روبن بحدّة، بل يظنّ أنّ الوقت حان، وأنّ عليّ أن أشعر بالخوف وأستقيل من العمل حالًا. لن أفعل ذلك.

إرتاع ماثيو حين علم بما جرى لروبن. ومع ذلك، فقد استشفّت في صوته نبرة ارتياح، وكأنّه اقتنع بأنّه آن لها أن تدرك أخيرًا أيّ خيار سيّئ قامت به، حين كرّست وقتها وجهدها للعمل مع محقّق خاصّ متهوّر، لا يستطيع حتّى أن يدفع لها راتبًا جيّدًا. كان سترايك يجعلها تعمل حتّى ساعات متأخّرة، اضطرّتها إلى طلب استلام بريدها في المكتب لا في الشقّة. (عدم قدرتي على استلام بريدي في المنزل ليس هو السبب الذي جعلني أستلم ساقًا! قالت له روبن بحدّة.) وفوق ذلك طبعًا، بات سترايك شخصيّة مشهورة ومصدر إعجاب لأصدقائهما، بعكس ماثيو الذي يعمل محاسبًا. لذلك كان شعور هذا الأخير بالامتعاض والغيرة عميقًا لدرجة أنّه هدّد علاقتهما.

لكنّ سترايك لم يكن أحمق ليشجّع روبن على أن تتفوّه بحقّ ماثيو بسوء قد تندم عليه حين يزول ما شعرت به حينذاك من اضطراب.

– كانت الساق مرسلة إليّ في الأساس. لا تنسي أنّ الملصق الأوّل كان يحمل اسمي. أظنّه حاول إمّا إثارة قلقي بإظهار معرفته اسمك، أو إثارة خوفك ودفعك للاستقالة من العمل عندي.

– لن ينجحوا بذلك.

– روبن، هذا ليس وقتًا للبطولات. أيًّا كان الفاعل، فهو يقول لنا إنّه يعرف الكثير عنّي، وإنّه يعرف اسمك، وقد بات منذ اليوم يعرف وجهك. لقد كان أمامك، ورآك. وأنا لا أحبّ هذا الأمر.

– من الواضح أنّك تستخفّ بقدرتي على التملّص من المراقبة.

– أنت تكلّمين رجلًا درّبك على أفضل المهارات، وقرأ رسالة التوصية المبالغ بها والتي قدّمتِها إليّ لأقبل بتوظيفك...

– إذًا فأنت لا تظنّني قادرة على الدفاع عن نفسي.

– وما أدراني؟ لم أرَ من قدراتك سوى ما أخبرتني به.

– هل كذبتُ يومًا حول قدراتي؟ سألته روبن وقد شعرت بالإهانة. كان سترايك مرغمًا على الاعتراف بأنّها لم تكذب. فتابعت: حسنًا! لن أقوم بأيّة مجازفة غبيّة. لقد درّبتَني على أن ألاحظ كلّ ما يثير الشكّ. كما أنّك لا تستطيع صرفي من العمل، فنحن غارقان في القضايا.

تنهّد سترايك وفرك وجهه بيديه الضخمتين.

– بعد اليوم، لن تبقي للعمل بعد حلول الظلام. كما عليك أن تحملي جهاز إنذار فعّالًا.

– حسنًا.

– بدءًا من الاثنين المقبل، ستعملين على قضيّة رادفورد، قال سترايك، وقد شعر بالارتياح لهذه الفكرة.

كان رادفورد مقاولًا ثريًّا يريد تكليف محقّق بالعمل في مكتبه متخفيًا تحت ستار وظيفة بدوام جزئيّ، ليكشف أمر أحد كبار مديريه، يشكّ في كونه يقوم بصفقات غير مشروعة. كانت روبن اختيارًا بديهيًّا، بعدما بات سترايك شخصًا معروفًا على أثر نجاحه في حلّ الجرائم والشهرة التي نالها. وفيما كان سترايك ينهي كوب البيرة الثالث، تساءل عمّا إذا كان بوسعه إقناع رادفورد بزيادة عدد ساعات روبن. سيريحه أن يعرف أنّها بأمان في مبنى فخم، تعمل من التاسعة حتّى الخامسة كلّ يوم، إلى أن يتمّ القبض على المهووس الذي أرسل الساق.

في ذلك الحين، كانت روبن تقاوم أمواج الإرهاق وإحساسها بالغثيان. فقد عاشت منذ العشيّة شجارًا، وليلة من النوم المضطرب، وصدمة مروّعة باستلامها الساق المقطوعة. وعليها الآن أن تعود إلى المنزل لتبرّر من جديد رغبتها في مواصلة العمل في وظيفة خطرة لقاء راتب زهيد. وماثيو، الذي

كانت تجد إلى جانبه الارتياح والدعم في الماضي، بات عائقًا آخر يجب العمل على تخطّيه.

رغمًا عنها، عادت إليها صورة الساق المقطوعة والباردة في العلبة الكرتونيّة. وتساءلت إلى متى ستظلّ هذه الصورة تطاردها. كما شعرت بوخز مزعج في أصابعها التي لامستها، فشدّت بحركة لا شعوريّة قبضتها فوق حضنها.

5

Hell's built on regret[1].

Blue Öyster Cult, 'The Revenge of Vera Gemini'

كلمات Patti Smith

في أولى ساعات المساء رافق سترايك روبن إلى محطّة المترو، ثمّ عاد إلى المكتب وجلس وحيدًا إلى مكتبها، في صمت، غارقًا في أفكاره.

لقد سبق له أن شاهد الكثير من الجثث المقطّعة الأوصال. منها المتفسّخة في قبور جماعيّة، ومنها التي سقطت على الطرقات، بُعَيْد وقوع انفجار أو سقوط قذيفة: أطراف مقطوعة، وأشلاء ممزّقة، وعظام مهشّمة. حالات الموت العنيف كانت مجال عمل فرع الاستقصاء الخاصّ، وهو أحد أقسام الشرطة العسكريّة الملكيّة، يعمل أفراده بملابس مدنيّة. وغالبًا ما كانت ردّة الفعل اللاإراديّة لسترايك وزملائه أمام الجثث تتّسم بالفكاهة. بهذه الطريقة فقط يستطيع المرء تحمّل رؤية الأجساد الممزّقة والمشوّهة. فليس لفرع الاستقصاء الخاصّ ترف رؤية الجثث مغسولة ومجمّلة في توابيت مبطّنة بقماش الساتان.

[1] الجحيم مبنيّ على الندم.

بدت العلبة الكرتونيّة التي وصلت فيها الساق عاديّة جدًّا. لا كتابة تدلّ إلى مصدرها، ولا أثر إلى مرسَل إليه سابق، لا شيء. التنظيم الدقيق لما جرى هو ما أثار قلقه، لا الساق، برغم بشاعتها. وهاله أسلوب التنفيذ الدقيق، والمُتقَن، والفطِن إلى أصغر التفاصيل.

نظر سترايك إلى ساعته. ينتظره موعد مع حبيبته هذا المساء. كانت إلين التي مضى على علاقته بها شهران، في خضمّ مرحلة طلاق صعبة جدًّا تسير كأنّها لعبة شطرنج بين بطلين كبيرين تستهويهما تكتيكات حافّة الهاوية. كان زوجها الذي انفصلت عنه ثريًّا جدًّا، وهو ما لم يلاحظه سترايك حتّى الليلة الأولى التي سُمح له فيها بالعودة إلى منزلها الزوجيّ، ليجد نفسه في شقّة كبيرة ذات أرضيّة خشبيّة، مطلّة على حديقة ريجنتس بارك. وبحسب ترتيبات تقاسم الحضانة بين الزوجين لم تكن تستطيع لقاء سترايك إلّا في الليالي التي لا تكون فيها طفلتها، ابنة الأعوام الخمسة، في المنزل. وحين يخرجان معًا، يختاران المطاعم الأكثر هدوءًا والأقلّ شهرة في العاصمة، لأنّ إلين لم ترغب في أن يعرف زوجها أنّها تقابل رجلًا آخر. هذا الوضع كان يناسب سترايك تمامًا. فلطالما عانى الكثير للتوفيق بين علاقاته الغراميّة وعمله، حيث كان يضطرّ دائمًا إلى العمل في الليالي التي يستمتع فيها الآخرون عادة، متعقّبًا أزواجًا أو زوجات يرتكبون فعل الخيانة. كذلك لم يرغب في أن تكون له علاقة وثيقة بابنة إلين. لم يكذب على روبن: فهو فعلًا يجهل كيف يحادث الأطفال.

بحث عن هاتفه المحمول. ما زال لديه الوقت للقيام ببعض الأمور قبل أن يذهب للعشاء.

إنتهى اتّصاله الأوّل برسالة صوتيّة إلى غراهام هاردكاير، زميله السابق في فرع الاستقصاء الخاصّ، يطلب منه فيها الاتّصال به. لم يكن يعلم أين مركز هاردكاير حاليًّا. وفي آخر مخابرة بينهما، كان هذا الأخير على وشك الانتقال من ألمانيا.

مرّة جديدة شعر سترايك بالخيبة حين لم يردّ أحد على اتّصاله الثاني، الذي كان بصديق قديم سلك في حياته دربًا معاكسة لدرب هاردكاير. ترك سترايك رسالة صوتيّة ثانية، شبه مطابقة للأولى، وأقفل الخطّ.

قرّب كرسيّ روبن من الكومبيوتر. شغّله وجلس يحملق في صفحة البداية بدون أن يراها. فالصورة الوحيدة التي ملأت ذهنه، رغمًا عنه، كانت لوالدته العارية. مَن كان يعلم بمكان الوشم؟ زوجها طبعًا، والرجال العديدون الذين دخلوا حياتها وخرجوا منها، وأيّ شخص آخر ربّما رآها عارية في المباني المهجورة والأماكن القذرة حيث عاشا. كذلك هناك الاحتمال الذي خطر بباله في حانة توتنهام، لكنه لم يشأ إطلاع روبن عليه، وهو أنّ ليدا تعرّت أمام عدسات المصوّرين. ذلك ليس غريبًا عنها.

تريّثت أصابعه قليلًا فوق لوحة المفاتيح. ثمّ كتب عبارة ليدا سترايك عارية ليعود ويمحو كلّ ما كتبه بنقرات متتالية، غاضبة، عنيفة من سبابته. ثمّة أماكن لا يقبل أيّ رجل طبيعيّ بالذهاب إليها، وعبارات لا يرغب بأن يتركها في تاريخ البحث عبر الإنترنت. ولكنّها أيضًا، وللأسف، أمور لا يجوز تكليف آخرين القيام بها.

نظر إلى مربّع البحث الخالي، وإلى المؤشّر الذي يومض في وجهه خاليًا من أيّة مشاعر. ثمّ كتب بسرعة، وبإصبعين فقط كما يفعل دائمًا، كلمتَي: دونالد لاينغ.

كان كثيرون يحملون هذا الاسم، وخصوصًا في سكوتلندا. غير أنّ بوسعه أن يستبعد من بينهم كلّ مَن دفع بدل إيجار أو صوّت في الانتخابات في أثناء وجود لاينغ في السجن. بعد جوجلة متأنّية، وتقدير للعمر الذي بلغه لاينغ، ضيّق سترايك بحثه مركّزًا على رجل بدا أنّه عاش مع امرأة باسم لورين ماك نوتون في كوربي العام 2008. أمّا الآن فالسجلّات تذكر أنّ المرأة تعيش هناك وحيدة.

حذف اسم لاينغ، وكتب مكانه نويل بروكبانك. كان عدد حاملي هذا الاسم في بريطانيا أقلّ من حاملي اسم دونالد لاينغ، لكنّ سترايك وصل في بحثه إلى طريق مسدود آخر. وجد شخصًا يدعى ن. ك. بروكبانك عاش وحيدًا في مانشستر العام 2006. لكن إن كان هو مَن يبحث عنه سترايك، فهذا يعني أنّه انفصل عن زوجته. لم يكن سترايك متأكّدًا من أنّ هذا أمر جيّد أم سيّئ...

أسند سترايك جذعه إلى ظهر كرسيّ روبن، وبدأ يفكّر في ما قد يحدث. لا بدّ للشرطة من أن تُطلِع الجمهور قريبًا على مسألة الساق المقطوعة بحثًا عمّن قد يملك معلومات. لكنّ واردل وعد سترايك بإبلاغه قبل عقد المؤتمر الصحفيّ. لا شكّ بأنّ خبرًا غريبًا وبشعًا كهذا سينتشر بسرعة، كما أنّ إرسال الساق إلى مكتبه سيضاعف من الاهتمام الشعبيّ بالموضوع، وهو ما لم يستسغه سترايك قطّ. كان كورموران سترايك في تلك المرحلة تحت الأضواء. فقد تمكّن، أمام أنظار الشرطة العاجزة، من حلّ لغزَي جريمتين كانتا كفيلتين بإثارة اهتمام الجمهور، حتّى ولو لم يكشف محقّق خاصّ أسرارهما: الأولى، لأنّ الضحيّة كانت شابّة جميلة؛ والثانية لأنّها كانت جريمة قتل غريبة، هي أقرب إلى طقس دينيّ.

تساءل سترايك كيف يمكن لإرسال تلك الساق أن يؤثّر في المؤسّسة التي بذل جهدًا كبيرًا لبنائها. شعر بأنّ النتائج ستكون وخيمة. بات البحث عبر الإنترنت مقياسًا حقيقيًّا لأيّ وضع. وعمّا قريب، لن تعود أولى نتائج البحث عبر غوغل عن كورموران سترايك مقالات تكيل المديح للرجل لنجاحه في القضيّتين المشهورتين. ما سيقرأه المتصفّحون سيكون واقعًا بشعًا وهو أنّ الرجل استلم طرفًا مبتورًا، وأنّ لديه عدوًّا مجرمًا خطيرًا واحدًا على الأقل. كان سترايك متيقّنًا من أنّه يفهم الجمهور جيّدًا، أو على الأقلّ الفئة التي يتألّف منها زبائنه، وهي فئة تشعر بطبيعتها بعدم الاطمئنان وبالخوف. وأدرك أنّ هذه الفئة لن تجذبها مؤسّسة للتحقيق الخاصّ تتلقّى عبر البريد سيقانًا مقطوعة. في أفضل الحالات، سيفترض الزبائن الجدد أنّ له ولروبن ما يكفيهما من المشاكل. وفي أسوأها، سيفترضون أنّ تهوّر المحقّقَين وعدم كفاءتهما قد ورّطاهما في أمر أكبر منهما بكثير.

كان على وشك أن يطفئ الكومبيوتر حين غيّر رأيه. وبتردّدٍ فاق تردّده في البحث عن صور عارية لأمّه، كتب بريتاني بروكبانك.

وجد على فايسبوك وإنستغرام بضع فتيات بهذا الاسم، يعملن في شركات لم يسبق له أن سمع بها قطّ، ويبتسمن في صور السلفي. دقّق في الصور: كنّ جميعهنّ تقريبًا في العشرينيّات من عمرهنّ، أي في مثل

عمرها. بوسعه أن يستثني السوداوات، لكنّه لن يستطيع أبدًا أن يتعرّف إليها بين عشرات صور الفتيات السمراوات، أو الشقراوات، أو الصهباوات، أو الجميلات، أو العاديّات الجمال، أو المبتسمات، أو المتعكّرات المزاج، أو ممّن التُقطت لهنّ صور على غفلة. لم تكن أيّ منهنّ تضع نظّارة. هل منعها غرورها من أن تضع نظّارة لالتقاط صورة لها؟ هل خضعت لجراحة بالليزر في عينيها؟ لعلّها تتجنّب وسائل التواصل الاجتماعيّ. تذكّر أنّها رغبت في تغيير اسمها. أو لعلّ سبب غيابها كان جوهريًّا أكثر، وهو أنّها ماتت.

نظر إلى ساعته من جديد: حان الوقت ليذهب لتغيير ملابسه.

لا يمكن أن تكون هي، فكّر. ثمّ فكّر من جديد: أرجو ألّا تكون هي.

إذا كانت هي، فالمسؤوليّة تقع عليه.

6

Is it any wonder that my mind's on fire?[1]

Blue Öyster Cult, 'Flaming Telepaths'

كانت روبن متيقّظة تمامًا بطريق عودتها إلى المنزل ذلك المساء. وأخذت تقارن، بدون لفت الأنظار إليها، كلّ رجل تراه في عربة المترو بالصورة التي تتذكّرها عن الرجل الطويل ذي الملابس الجلديّة السوداء، الذي أعطاها تلك العلبة المروّعة. حين التقت عيناها للمرّة الثالثة بعينَي شابّ آسيويّ نحيل يرتدي سترة رخيصة، ابتسم لها آملًا إثارة اهتمامها. بعد ذلك لم تبارح عيناها هاتفها، متصفّحة موقع بي.بي.سي كلّما سمح لها الإرسال. وتساءلت، مثلها مثل سترايك، متى سيُنشر خبر الساق المبتورة.

بعد أربعين دقيقة من انصرافها، دخلت سوبرماركت وايتروز الكبير الكائن قرب محطّة المترو في محيط منزلها. ثلاّجتها شبه فارغة، وماثيو لا يحبّ شراء الطعام. كانت متأكّدة، وعلى رغم إنكاره ذلك في الشجار ما قبل الأخير بينهما، من أنّه يتعمّد تركها تهتمّ بذلك لأنّها لا تساهم في نفقات المنزل بغير الثلث.

[1] هل من العجب أن يكويني القلق كالنار؟

كان الرجال العازبون ببزّات العمل الرسميّة يملأون السلال والعربات بالوجبات الجاهزة؛ والنساء العاملات يسرن بسرعة، ويخطفن أكياس المعكرونة السريعة الطهو لإعدادها عشاءً للعائلة. راحت أمّ شابّة يبدو عليها الإرهاق تدفع عربة فيها طفل صغير لا يكفّ عن الصراخ، متنقّلة بين أجنحة السوبرماركت كفراشة مترنّحة، عاجزة عن التركيز، وليس في سلّتها غير كيس جزر. كانت روبن تسير ببطء في الممرّات، وهي تشعر بتوتّر. لم يكن في ذلك المكان أحد يشبه رجل الملابس الجلديّة السوداء الخاصّة براكبي الدرّاجات الناريّة. لا أحد يتربّص بها، متخيّلًا بتر ساقَي روبن... بتر ساقيّ...

«عفوًا!» قالت امرأة كهلة سيئة المزاج تحاول الوصول إلى علبة نقانق. إعتذرت روبن وابتعدت، وقد فوجئت برؤية نفسها تحمل علبة من أفخاذ الدجاج. رمتها في عربتها وأسرعت إلى طرف السوبرماركت حيث ممرّ قناني النبيذ والمشروبات الروحيّة. كان ذلك المكان هادئًا نسبيًا، فأخذت هاتفها واتّصلت بسترايك، الذي أجاب بعد الرنّة الثانية.

– أنت بخير؟

– نعم، طبعًا...

– أين أنت؟

– في وايتروز.

كان رجل قصير أصلع يبحث في رفّ نبيذ الشيري خلف روبن تمامًا، وعيناه تحملقان بثدييها. تنحّت جانبًا، فتبعها. عندئذ نظرت إله شزرًا فاحمرّت وجنتاه وابتعد.

– وايتروز مكان آمن لك.

– إمم... همهمت روبن، وعيناها تتابعان الرجل الأصلع الذي يبتعد. إسمع. قد لا يكون لما أقوله أيّة أهمية. لكنّني تذكّرت أنّنا تلقينا بعض الرسائل الغريبة في الأشهر القليلة الماضية.

– رسائل المخبولين؟

– لا تبدأ.

لطالما اعترضت روبن على هذه التسمية التعميميّة. بعدما حلّ سترايك لغز الجريمة المشهورة الثانية، ازداد ورود الرسائل الغريبة إليهما بشكل كبير. كتبة الرسائل الطبيعيّون كانوا يكتفون بطلب المال، مفترضين أنّ سترايك قد حقّق ثراء واسعًا. بعد ذلك تأتي فئة ذوي الأحقاد الشخصيّة الغريبة الذين يريدون من سترايك أن يثأر لهم. ثمّ فئة الذين يكرّسون وقتهم لإثبات نظريّات عجيبة. وفئة ذوي الحاجات والرغبات غير المكتملة وغير الواضحة لدرجة أنّ كلّ ما يكتبونه لا يعدو كونه مرضًا عقليًا. وأخيرًا قلّة من الأشخاص – وهم من وصفتهم روبن بالمخبولين – كانوا، رجالًا ونساءً، يجدون سترايك جذّابًا.

– هل كانت موجّهة إليك؟ سألها سترايك بنبرة جدّية فجأة.

– لا، إليك أنت.

سمعته يتنقّل من مكان إلى آخر في شقّته فيما يتكلّمان. لعلّه على موعد مع إلين هذا المساء. لم يكن سترايك يتكلّم عن علاقته بها قطّ. ولو لم تمرّ إلين بالمكتب ذات يوم، لما درت روبن بوجودها... ربّما، إلى أن يأتي سترايك إلى العمل يومًا وفي يده خاتم زواج.

– ماذا في الرسائل؟

– إحداها من فتاة أرادت بتر ساقها. كانت تطلب نصيحة.

– أعيدي ما قلتِ.

– أرادت أن تبتر ساقها، أوضحت له روبن، ممّا جعل امرأة تختار زجاجة نبيذ بالقرب منها ترميها بنظرة خوف.

– ربّاه! تمتم سترايك. ولا يحقّ لي أن أنعتهم بالمخبولين! أتظنّينها بترتها وأرادت إطلاعي على الأمر؟

– ظننتُ أنّ لتلك الرسالة علاقة بما جرى، قاطعته روبن. بعض الأشخاص يرغبون فعلًا في بتر أجزاء من أجسادهم. إنّها ظاهرة معروفة وتُدعى... لا، ليست خبلًا، أضافت، مستبقة ما قد يقوله سترايك. ضحك هذا الأخير. كذلك وردت رسالة أخرى، طويلة جدًّا، من شخص وقّعها بأحرف اسمه الأولى، واسترسل فيها بالحديث عن ساقك وكيف أراد التعويض عليك.

– إذا أراد أحدهم التعويض عليّ، ألا تظنّينه يرسل ساق رجل؟ سأبدو سخيفًا جدًّا بـ...

– إيّاك! قالت له. إيّاك أن تمزح. لا أدري كيف تستطيع أن تمزح.

– لا أدري كيف تستطيعين أن تبقي جدّيّة، ردّ عليها، ولكن بلطف.

سمعت روبن عبر الهاتف صوت تقليب أوراق ينتهي بقرقعة معدنيّة مألوفة جدًّا.

– أنت تبحث في درج المخبولين!

– لا تطلقي هذا الاسم عليه يا روبن. هذه إساءة إلى المريضين عقليًا من بين...

– إلى اللقاء غدًا، قالت له، مبتسمة برغم إرادتها، ثمّ أقفلت الخطّ وهي تسمعه يضحك.

في خلال تنقّلها بين أجنحة السوبرماركت، شعرت بأنّ التعب الذي قاومته طوال النهار قد نال منها تمامًا. كانت تجد أنّ اتّخاذ القرار بشأن ما تعدّه من طعام أمر مُجهد، وتفضّل أن تشتري محتوى لائحة أعدّها شخص آخر. أخيرًا استسلمت، فاختارت الكثير من المعكرونة، على غرار الأمّهات العاملات اللواتي يبحثن عن طبخة سريعة. وقفت في الصفّ عند أحد الصناديق، ووجدت نفسها خلف الشابّة التي بكا طفلها حتّى الإنهاك، وكان آنذاك نائمًا ملء جفنيه، وقبضتاه مفتوحتان.

– طفل لطيف، قالت روبن، التي شعرت بأنّ المرأة بحاجة إلى بعض التشجيع.

– فقط حين يكون نائمًا، أجابت الأمّ بابتسامة فاترة.

حين وصلت روبن إلى المنزل كانت مرهقة تمامًا. وفوجئت برؤية ماثيو يقف بانتظارها في المدخل الضيق.

– لكنّني تسوّقتُ! قال لها حين رأى الأكياس الأربعة الملأى في يديها، وأضاف بنبرة استشفّت منها خيبته لأنّ مبادرته العظيمة قد ضاعت هباء: بعثت إليك برسالة نصيّة أبلغك أنّني ذاهب إلى وايتروز!

– لا بدّ من أنّني أغفلتُ قراءتها. آسفة.

لعلّ الرسالة وصلت وهي تحادث سترايك بالهاتف. ولعلّها حتّى كانت ستلتقي ماثيو في السوبرماركت لولا أنّها أمضت نصف الوقت بين رفوف النبيذ والمشروبات الروحيّة.

تقدّم ماثيو فاتحًا ذراعيه، وشدّها إليه معانقًا. شعرت بأنّ سخاءه هذا مثير للغيظ. برغم ذلك، كان عليها الاعتراف بأنّه وكعادته يبدو وسيمًا جدًّا ببزّته الداكنة، وشعره الأسود الكثّ المرفوع عن جبينه.

– لا بدّ من أنّ الأمر كان مخيفًا، همس لها، مالئًا شعرها بأنفاسه الدافئة.

– فعلًا، قالت وهي تطوّق خصره بذراعيها.

أكلا بسلام، بدون أيّة إشارة إلى ساره شادلوك، أو سترايك، أو جاك برغر. وتبخّرت الحماسة التي تميّزت بها روبن صباحًا لإقناع ماثيو بأنّ ساره هي التي أبدت إعجابها بشعر سترايك الأجعد. شعرت بأنّ صبرها ونضوجها قد أوتيا ثمارهما حين قال ماثيو بنبرة اعتذار:

– عليّ العمل قليلًا بعد العشاء.

– لا بأس. كنت أنوي النوم باكرًا بأيّة حال.

حملت معها إلى السرير كوبًا من الشوكولاتة الساخنة القليلة السعرات، ونسخة من مجلّة غرازيا. لكنّها لم تستطع أن تركّز. نهضت بعد عشر دقائق وأحضرت كومبيوترها النقّال، وبحثت عبر غوغل عن جف ويتايكر.

سبق لها أن قرأت مقالة ويكيبيديا تلك في خلال تنقيبها الفضوليّ في ماضي سترايك. لكنّها عادت لتقرأها باهتمام أكبر.

تبدأ المقالة بعبارة رفع مسؤوليّة مألوفة:

هذه المقالة تتضمّن الكثير من النواقص.

تحتاج هذه المقالة إلى مصادر ومراجع إضافيّة لتحسين موثوقيّتها.

هذه المقالة ربّما تحتوي بحثًا أصليًّا.

جف ويتايكر

جف ويتايكر (المولود في العام 1969) هو موسيقيّ اشتُهر بزواجه في السبعينيّات من ليدا سترايك، السوبرغروبي المعروفة، والتي اتُّهم بقتلها العام 1994.[1] ويتايكر هو حفيد الدبلوماسيّ السر راندولف ويتايكر الحائز على وسام الخدمة المميّزة ووسام القدّيسين ميخائيل وجرجس من رتبة فارس.

بداية حياته

نشأ ويتايكر في منزل جدّيه. فوالدته المراهقة باتريسيا ويتايكر كانت مصابة بانفصام الشخصيّة. (يجب إضافة المصدر) ولم يعرف ويتايكر هويّة والده الحقيقيّة قطّ. (يجب إضافة المصدر) طُرد من مدرسة غوردونستاون بعدما هدّد أحد الموظّفين بسكّين. (يجب إضافة المصدر) ويزعم أنّ جدّه احتجزه في كوخ لمدّة ثلاثة أيّام بعد طرده، وهو ما ينكره جدّه.[2] هرب ويتايكر من المنزل وعاش فترة مراهقة صعبة. ويزعم أيضًا أنّه عمل حفّارًا للقبور. (يجب إضافة المصدر)

عمله في الموسيقى

كان ويتايكر عازف غيتار وكتب كلمات أغان لعدد من فرق الثراش ميتال الموسيقيّة في نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات، ومنها Restorative Art، وDevilheart، وNecromantic.[3][4]

حياته الشخصية

في العام 1991 التقى ويتايكر ليدا سترايك، الحبيبة السابقة لكلّ من جوني روكبي وريك فانتوني، والموظفة في شركة الأسطوانات التي كانت تدرس حينذاك إمكانية توقيع عقد مع Necromantic. (يجب إضافة المصدر) تزوج ويتايكر وسترايك العام 1992. في كانون الأول/ديسمبر من العام نفسه ولدت ابنًا، وهو سويتش لافي بلوم ويتايكر.[5] في

العام 1993 طُرد ويتايكر من Necromantic بسبب إفراطه في تعاطي المخدرات. (يجب إضافة المصدر)

حين ماتت ليدا ويتايكر بجرعة هيرويين زائدة العام 1994، اتُّهم ويتايكر بقتلها. لكنّه بُرّئ من تلك التهمة. (6)(7)(8)(9)

في العام 1995 اعتُقل ويتايكر مجدّدًا بتهمة الاعتداء ومحاولة خطف ابنه، الذي كان في عهدة جدّي ويتايكر. وحُكم عليه بالحبس مع وقف التنفيذ بتهمة الاعتداء على جدّه. (يجب إضافة المصدر)

في العام 1998 هدّد ويتايكر زميلًا له بسكّين، وحُكم عليه بالحبس ثلاثة أشهر. (10)(11)

في العام 2002 حُكم على ويتايكر بالسجن لإخفائه جثّة كارن أبراهام، التي كانت تعيش معه. ماتت أبراهام بأزمة قلبيّة، لكنّ ويتايكر احتفظ بجثّتها في شقّتهما لشهر. (12)(13)(14)

في العام 2005، سُجن ويتايكر بتهمة ترويج الكوكايين. (15)

قرأت روبن الصفحة مرّتين، فتركيزها كان ضعيفًا هذا المساء، وبدا لها أنّ المعلومات تنزلق عن ذهنها، بدون أن تستطيع استيعابها. كان بعض جوانب قصّة ويتايكر يثير الاستغراب الكبير. لماذا قد يخفي أحدهم جثّة لمدّة شهر؟ هل خشي ويتايكر أن يُتّهم بالقتل مجدّدًا؟ أم أنّ هناك سببًا آخر؟ جثث، وأطراف، وأشلاء... شربت من فنجانها وكشّرت. كان للشوكولاتة مذاق منكّهات الطعام الاصطناعيّة. وقد توقّفت منذ شهر عن تناول الشوكولاتة الحقيقيّة، رغبة منها في أن تبدو نحيفة في فستان الزفاف.

وضعت الفنجان على الطاولة المحاذية للسرير، وعادت إلى لوحة المفاتيح للبحث عن صور محاكمة جف ويتايكر.

إمتلأت الشاشة بصور ويتايكر في محاكمتين مختلفتين، الفارق بينهما ثماني سنوات، وقد بدا الاختلاف واضحًا على ملامحه بين المناسبتين.

في الصور الأقدم، أي حين حوكم ويتايكر بقتل زوجته، كان شعره مجدولًا في ضفائر مربوطة إلى الخلف. وأضفت عليه بزّته السوداء وربطة عنقه، على رثاثتهما، شيئًا من الأناقة. كان أطول من معظم المصوّرين

المتحلّقين حوله. كما كانت عظمتا خدّيه عاليتين، وبشرته شاحبة، وعيناه الكبيرتان متباعدتين على نحو غير مألوف، كعينَي شاعر أدمن الأفيون، أو كاهن هرطوقيّ.

أمّا ويتايكر الثاني المتّهم بإخفاء جثّة امرأة أخرى، فبدا رجلًا فَقَدَ وسامة المتشرّد القديمة، إذ اكتسب وزنًا، وكان ذا شعر قصير جدًّا ولحية. وحدهما عيناه المتباعدتان لم تتغيّرا، وكذلك هالة الغرور الوقح.

إستعرضت روبن الصور ببطء. ولم تلبث أن اختلطت صور ويتايكر الذي تحدّث عنه سترايك بصور لأشخاص آخرين يحملون الاسم نفسه، ماثلين في المحاكم. منهم مثلًا أميركيّ أسود بريء الملامح يدعى جف ويتايكر، ادّعى على جاره لأنّه سمح لكلبه بالدخول مرارًا إلى حديقته والتغوّط على عشبها.

لماذا ظنّ سترايك أنّ زوج والدته السابق (وقد استغربت روبن الإشارة إليه بهذه الصفة، علمًا بأنّه لا يكبر سترايك إلّا بخمسة أعوام) قد أرسل إليه الساق المبتورة؟ وتساءلت متى كانت آخر مرّة قابل فيها سترايك الرجل الذي ظنّه قاتل أمّه. كانت تجهل أمورًا كثيرة جدًّا تتعلّق بربّ عملها. إنّه لا يحبّ الخوض في ماضيه.

عادت أصابع روبن إلى لوحة المفاتيح، وكتبت إريك بلوم.

الأمر الأوّل الذي خطر ببالها وهي تحدّق إلى صور مغنّي الروك في السبعينيّات بملابسه الجلديّة، هو أنّ شعره شبيه جدًّا بشعر سترايك: كثيف وأسود وأجعد. ذكّرتها هذه الفكرة بجاك برغر وساره شادلوك، وهو ما لم يحسّن مزاجها أبـدًا. أرادت الاستعلام عن الرجلين الآخرين اللذين يشتبه فيهما سترايك، لكنّها لم تتذكّر اسميهما. دونالد... نسيت شهرته. واسم غريب آخر يبدأ بحرف الباء... هي تتمّتع بذاكرة ممتازة غالبًا ما أثنى سترايك عليها. لماذا لا تستطيع أن تتذكّر؟

ولكن، هب أنّها تذكّرت، فهل للأمر أهمية؟ الكومبيوتر المحمول لن يساعد كثيرًا على العثور على رجلين قد يكونان في أيّ مكان. وروبن، التي عملت فترة طويلة في مكتب تحقيق خاصّ، تـدرك تمامًا أنّ أولئك الذين

يستخدمون أسماء وهمية، ويعيشون حياة الجريمة، ويفضّلون الإقامة في المباني المهجورة، ويستأجرون بيوتًا هنا وهناك، ولا يسجّلون أسماءهم في القوائم الانتخابيّة هم أشخاص لا يمكن العثور عليهم بسهولة في أدلّة الاستعلامات.

بعد الجلوس في صمت لدقائق أخرى، كتبت في مربّع البحث ليدا سترايك، يساورها إحساس بأنّها تخون ربّ عملها. بعد ذلك، وبإحساس أعظم بالذنب، أضافت كلمة عارية.

ظهرت أمامها صورة بالأسود والأبيض لليدا، وهي شابّة، وذراعاها فوق رأسها، وشلال طويل من الشعر الأسود يحجب ثدييها. برغم ضآلة حجم الصورة استطاعت روبن أن تلاحظ كتابة على شكل قوس فوق مثلّث شعر العانة الأسود. كبّرت روبن الصورة، وهي تغمض عينيها نصف إغماضة، وكأنّما تشويش الرؤية يلطّف من فداحة ما تفعله. لم تشأ أن تقرّب الصورة، ولا هي كانت بحاجة إلى ذلك. كانت كلمة عشيقة واضحة تمامًا.

فجأة، سمعت صوت مروحة المرحاض المحاذي لغرفتها. أجفلت روبن كمذنب يكاد أمره يُفتضح، وسارعت إلى إغلاق الصفحة التي تنظر إليها. كان ماثيو قد اعتاد مؤخّرًا أن يستعير كومبيوترها المحمول. ومنذ أسابيع ضبطته يقرأ رسائلها الإلكترونيّة إلى سترايك. فتحت صفحة الإنترنت مجدّدًا، وأزالت سجلّ التصفّح، ثمّ انتقلت إلى صفحة الإعدادات، وبعد تفكير قصير غيّرت كلمة المرور لتصبح Don’t Fear the Reaper. ذلك كفيل بإبعاده عن الكومبيوتر.

نهضت لترمي بالشوكولاتة الساخنة في مجلى المطبخ. خطر ببالها أنّها لم تبحث عن أيّة تفاصيل تتعلّق بتيرنس ماللي الحفّار. لا شكّ بأنّ الشرطة هي في موقع أفضل منها ومن سترايك للعثور على رجل عصابات لندنيّ.

ولكن هذا غير مهمّ، فكّرت وهي تعود إلى غرفة النوم، والنعاس يغلبها. ماللي ليس الفاعل.

7

Good To Feel Hungry[1]

كان من الجمل المفضّلة لدى والدته الساقطة اللئيمة: لقد فقدتَ الحِسّ السليم، أليس كذلك أيّها الوغد الغبيّ الصغير؟ طبعًا، لو كان يملك حِسًّا سليمًا، لما تبع السكرتيرة غداة اليوم الذي سلّمها فيه الساق. غير أنّه وجد صعوبة في مقاومة الإغراء، خصوصًا وأنّه يجهل متى تُتاح له فرصة ثانية ليقوم بذلك. فقد استبدّت به خلال الليل الرغبة في تعقّبها مجدّدًا، ليرى ما أصبحت عليه ملامحها بعدما فتحت الهديّة.

إعتبارًا من الغد، ستخضع حرّيته لقيود صارمة، لأنّ الشيء ستكون في المنزل. وحين تكون الشيء موجودة فهي تتطلّب كلّ اهتمامه. كانت سعادة الشيء أمرًا في غاية الأهمية، لا سيّما وأنّ الشيء هي التي تكسب المال. كانت الشيء غبيّة وبشعة وشديدة البحث عن العاطفة، لدرجة أنها لم تلاحظ أنّه يعيش على حسابها.

بعدما رافق الشيء إلى العمل في ذلك الصباح، أسرع بالخروج لانتظار السكرتيرة في المحطّة القريبة من منزلها. كان ذلك خيارًا صائبًا لأنّها لم تذهب إلى المكتب. ظنّ أنّ وصول الساق قد يغيّر في روتينها اليوميّ، وكان ظنّه في محلّه. غالبًا ما تصحّ ظنونه.

[1] الإحساس بالجوع أمر جيّد.

كان يعرف كيف يتبع الآخرين. وهذا ما فعله اليوم: فقد كان يعتمر قبّعة صوفيّة أحيانًا، وأحيانًا يخلعها. ويسير بقميص تي شيرت، ثم يرتدي فوقها سترته، ليعود ويقلب باطن السترة نفسها إلى الخارج. وتارة يضع نظّارته الشمسيّة، وطورًا ينزعها.

قيمة السكرتيرة بالنسبة إليه – والتي تزيد عن القيمة التي تمثّلها له أيّة امرأة، إذا ما استطاع الانفراد بها – هي في أنّه يستطيع الوصول إلى سترايك من خلالها. كان طموحه إلى أن ينتقم لنفسه من سترايك انتقامًا نهائيًا ووحشيًا، قد تعاظم في داخله حتّى بات محور حياته. هذه طبيعته: لا ينسى أبدًا مَن يعترض طريقه. وعندما تحين الفرصة، ولو بعد سنين، ينتقم منه. لقد ألحق به كورموران سترايك أذى يفوق ما ألحقه به أيّ إنسان آخر، ويجب أن يدفع الثمن.

طوال سنوات فَقَدَ كلّ أثر لسترايك. لكنّ الصخب الإعلاميّ أرشده إلى مكان ذلك اللعين، الذي باتت هالة من الشهرة والبطولة تحيط به. هذا ما أراده دائمًا، ما تاق إليه دائمًا. كان ذلك بمثابة شرب الأسيد بالنسبة إليه. وكان يختنق بقراءة المقالات التي تسبغ المديح على ذلك السافل. لكنّه تحمّل كلّ شيء، لأنّ مَن يُرِد أن يُلحق بهدفه أكبر قدر من الأذى، يدرسه جيّدًا. كان يدرك أنّه هو ليس من طينة البشر العاديّين، لذلك أراد أن يسبّب لكورموران سترايك ألمًا يفوق طاقة أيّ إنسان على الاحتمال، بل يفوق طاقة أيّ إله على الاحتمال. لن يقتصر الأمر على طعنة خنجر تخترق الأحشاء تحت جنح الظلام. لا. عقاب سترايك يجب أن يكون أعظم في بطئه، وغرابته، وإثارته للرعب، وقدرته على التعذيب. يجب أن يكون هائلًا وشاملًا.

لن يعرف أحد كيف انتقم. أنّى للآخرين أن يعرفوا؟ ثلاث مرّات ولم يُكتشف أمره حتّى الآن. ثلاث نسوة متن، ولا يملك أحد فكرة عمّن هو الفاعل. أتاح له هذا اليقين أن يقرأ عدد اليوم من جريدة مترو بدون أثر للخوف، ويشعر بالفخر والرضا عند قراءته المقالات الهستيريّة حول الساق المبتورة، ويتلذّذ برائحة الخوف والارتباك المنبعثة من كلّ مقالة، وبثغاء الحيرة المرتفع من جهة قطعان البشر الذين يشمّون رائحة ذئب قريب.

لم يعد ينقصه سوى أن تسير السكرتيرة مسافة قصيرة في طريق خالٍ... لكنّ لندن مزدحمة وتعجّ بالناس طوال النهار. فوجد نفسه محبطًا، يروح ويجيء بحذر في محيط كليّة الاقتصاد في لندن، مراقبًا تحرّكاتها.

كانت السكرتيرة تتعقّب هي الأخرى هدفًا، ومن السهل تمييزه: إنّها فتاة تضع شعرًا فضيًّا مستعارًا.

بعد الظهر، عادت الفتاة إلى طريق توتنهام كورت، حيث دخلت ناديًا لرقص التعرّي. دخلت السكرتيرة التي لم تتركها تغيب عن عينيها قطّ، إلى حانة مقابلة للنادي. فكّر في أن يلحق بها إلى الداخل، لكنّها بدت حذرة على نحو مقلق يومذاك. فدخل مطعمًا يابانيًّا رخيصًا ذا نوافذ زجاجيّة مقابل الحانة، وجلس إلى طاولة قريبة من النافذة، ينتظر خروجها.

سيحدث الأمر، قال في سرّه وهو يحملق بنظارته السوداء في الشارع المزدحم. سينال منها. كان بحاجة إلى التشبّث بتلك الفكرة. لأنّ عليه في ذلك المساء أن يعود إلى الشيء، إلى نصف الحقيقة، إلى حياة الكذبة، التي تسمح لذاته الحقيقيّة والسرية بأن تستمرّ، بأن تعيش وتتنفس.

عكست نافذة المطعم المغطّاة بالبقع والغبار تعبيره الحقيقيّ، المجرّد من طلاء التمدّن الذي يضعه لاستدراج النساء اللواتي يقعن ضحايا إغرائه وسكّينيه. وصعد إلى السطح المخلوق الذي يعيش في داخله، المخلوق الذي لا يريد سوى فرض سيطرته.

8

I seem to see a rose,
I reach out, then it goes[1].

Blue Öyster Cult, 'Lonely Teardrops'

كما توقّع سترايك منذ انتشرت في وسائل الإعلام قصّة الساق المقطوعة، اتّصل به صديقه القديم دومينيك كالبيبر من وكالة أخبار العالم صباح الثلثاء، وهو ثائر غضبًا. رفض الصحفيّ أن يصدقّ أنّ سترايك قد تكون له أسباب مشروعة لعدم الاتصال به لحظة أدرك أنّه استلم ساقًا مبتورة. وما زاد في شعور كالبيبر بالإهانة أنّ المحقّق رفض إطلاعه على أيّ جديد في القضيّة، لقاء مبلغ كبير من المال. عند انتهاء المكالمة، شعر سترايك الذي سبق أن تقاضى من كالبيبر مالًا في مقابل معلومات، بأنّ مصدر الدخل هذا سيُسدّ في وجهه، لأنّ الصحفيّ شعر بالاستياء الشديد.

لم يتحادث سترايك وروبن قبل ظهر ذلك اليوم. وعند العصر، اتّصل بها سترايك من قطار مزدحم في هيثرو.

– أين أنت؟ سألها.

– في حانة تُدعى كورت مقابل سبيرمينت راينو، أجابته. وأنت؟

[1] تلوح لي وردة / أمدّ يدي إليها، لكنّها تختفي.

– عائد من المطار. «الأب المجنون» سافر بالطائرة والحمد لله.

كان «الأب المجنون» مصرفيًا عالميًا ثريًا يتعقّبه سترايك، مكلّفًا من زوجته. كان الزوجان، وهما في مرحلة الطلاق، يخوضان معركة قضائيّة لحضانة طفلهما. فجاء سفر الزوج إلى شيكاغو ليسمح لسترايك بالاستراحة بضع ليالٍ من مهمّة المراقبة، التي يقضيها جالسًا في السيّارة خارج منزل الزوجة حتّى الرابعة فجرًا، ومراقبًا نافذة غرفة الطفل بمنظار للرؤية الليليّة.

– سآتي للقائك، قال سترايك. إنتظريني، إلّا إذا خرجت بلاتينوم برفقة شخص ما، طبعًا.

بلاتينوم هي طالبة الاقتصاد وراقصة التعرّي الروسيّة. أمّا زبونهما، فهو عشيقها الذي لقباه بـ«المخدوع مرّتين»، لسببين: الأوّل هو أنّها المرّة الثانية التي يكلّفهما فيها بملاحقة عشيقة شقراء، والثاني أنّه مهووس باكتشاف أين تخونه عشيقاته وكيف. كانت روبن تجده شخصًا يوحي بالشؤم، كما يستحقّ الشفقة. وقد التقى بلاتينوم في الملهى الذي جلست روبن لمراقبته، فكلّفهما تقصّي ما إذا كان هناك رجال غيره ينالون ما يناله من خدماتها الجنسيّة.

الغريب هو أنّ «المخدوع مرّتين» وقع هذه المرّة على عشيقة استثنائيّة، تكتفي برجل واحد، برغم أنّه قد لا يحبّ ذلك أو يجده قابلًا للتصديق. بعد أسابيع عدّة قضتها روبن في مراقبة تحرّكات الراقصة، عرفت أنّها امرأة ميّالة جدًّا إلى العزلة، تتناول الغداء وحيدة مع كتبها، ونادرًا ما تتفاعل مع زملائها في الجامعة.

– من الواضح أنّها تعمل في الملهى لتحصيل قسطها الجامعيّ، قالت روبن متألّمة بعد أسبوع على بدء المراقبة. إذا لم يشأ «المخدوع مرّتين» أن يشتهيها رجال آخرون، فلماذا لا يساعدها ماليًّا؟

– أهمّ ما يجذبه إليها هو أنّها ترقص في أحضان رجال آخرين، ردّ سترايك بصبر. يفاجئني أنّه قضى وقتًا طويلًا ليختارها. إنّها كلّ ما يطمع به.

بعد وقت قصير على تكليفهما المهمّة، قصد سترايك الملهى حيث اتّفق مع فتاة ذات عينين حزينتين تُدعى رايفن على مراقبة عشيقة زبونه، لقاء أجر. كان على رايفن الاتّصال بهما مرّة كلّ يوم لإطلاعهما على ما تفعله

بلاتينوم، وإبلاغهما حالًا إذا رأتها تعطي رقم هاتفها لأحد أو تبالغ بالاهتمام بزبون ما. كانت قواعد الملهى تمنع ملامسة الفتيات أو طلب الخدمات الجنسيّة منهنّ، لكنّ «المخدوع مرّتين» ظلّ على قناعته (وغد تافه ومثير للشفقة، وصفه سترايك) بأنّه ليس سوى واحد من عدّة رجال يدعونها إلى العشاء ويشاطرونها سريرها.

– لا أفهم حتّى الآن لما علينا أن نراقب المكان، قالت روبن متنهّدة عبر الهاتف للمرّة الألف. يمكننا الردّ على اتّصالات رايفن من أيّ مكان.

– تعرفين السبب، قال سترايك وهو يستعدّ لمغادرة القطار. إنّه يحبّ الصور.

– لكن لا صور لها سوى لدى دخولها الملهى أو مغادرته.

– غير مهمّ، فالصور تثيره. كما أنّه مقتنع بأنّها ستغادر الملهى يومًا ما بصحبة أحد الأثرياء الروس.

– ألا تشعر بأنّ القيام بهذا العمل أمر مهين؟

– هذا من مخاطر المهنة، قال سترايك بلا اكتراث. إلى اللقاء قريبًا.

مكثت روبن تنتظر في الحانة، بين ورق الجدران الذهبيّ المزيّن برسوم الأزهـار، والكراسي المزخرفة، والمصابيح غير المتناسقة. ديكور يتناقض تمامًا مع أجهزة تلفزيون البلاسما الضخمة وإعلانات كوكاكولا. كانت الحانة مدهونة بلون عصريّ رائج، وهو الرماديّ-البيج الذي طلت به شقيقة ماثيو غرفة جلوسها مؤخّرًا. وجدته روبن لونًا مثيرًا للاكتئاب. كان الحاجز الخشبيّ للدرج المفضي إلى الطابق العلويّ يمنعها من أن ترى مدخل الملهى بوضوح. في الخارج كان سيل لا ينقطع من السيّارات يتدفّق يمينًا ويسارًا، وكثير من الحافلات الحمراء ذات الطابقين تحجب مدخل الملهى لدى مرورها.

وصل سترايك وقد بدا عليه الاستياء الشديد.

– خسرنا رادفـورد، قال وهو يرمي حقيبة ظهره بقرب الطاولة التي جلست إليها. إتصل بي منذ قليل.

– لا!

– بلى. يظنّ أنّ توظيفك في مكاتبه الآن مستحيل، لأنّ الصحفيين سيلاحقونك.

منذ السادسة صباحًا، انتشر خبر الساق المبتورة في كلّ وسائل الإعلام. وفى واردل بوعده، وأبلغ سترايك بالأمر مسبقًا. فاستطاع هذا الأخير مغادرة شقّته في ساعات الصباح الأولى حاملًا في حقيبته ملابس تكفيه بضعة أيّام. عرف أنّ الصحفيّين لن يلبثوا أن يراقبوا المكتب. ليست تلك المرّة الأولى.

عاد سترايك إلى روبن حاملًا كوب بيرة، وجلس على مقعد مرتفع وقال:

– خان أنهى المهمّة أيضًا. سيبحث عن مكتب تحقيق خاصّ لا يتلقّى أطرافًا مبتورة.

– تبًا. قالت روبن. ثمّ سألته: لماذا تبتسم؟

– لا شيء.

لم يشأ أن يخبرها أنّه يحبّ طريقتها في لفظ كلمة تبًا، التي تفضح لكنة يوركشاير.

– كانتا مهمّتين مُربحتين! قالت روبن.

هزّ سترايك رأسه موافقًا، بدون أن يبعد نظره عن مدخل ملهى سبيرمينت راينو.

– كيف حال بلاتينوم؟ هل اتّصلت بنا رايفن؟

أخبرت روبن سترايك أنّ رايفن اتّصلت بها قبل قليل، وكالعادة، لا أخبار أبدًا. كانت بلاتينوم محبوبة من الزبائن، وقد قدّمت يومذاك ثلاث رقصات بقيت ضمن الحدود التي تنصّ عليها قوانين الملهى.

– هل قرأت الأخبار؟ سألها مشيرًا إلى نسخة من جريدة ميرور متروكة على طاولة قريبة.

– فقط عناوينها، أجابت روبن.

– أرجو أن يعود ذلك علينا ببعض المعلومات. لا بدّ من أن يكون أحدهم قد لاحظ فقدانه ساقًا.

– هاها، ردّت روبن.

– ألا يزال الوقت باكرًا جدًّا؟

– نعم، أجابت ببرودة.

– بحثت قليلًا مساء أمس، قال سترايك. ربّما كان بروكبانك في مانشستر في العام 2006.

– ما أدراك بأنّه الرجل المطلوب؟

– لا أدري ذلك. لكنّ الرجل الذي عثرتُ عليه له العمر نفسه، والحرف الأوّل نفسه من الاسم الأوسط.

– هل تتذكّر الحرف الأوّل من اسمه الأوسط؟

– نعم. قال سترايك. لكن يبدو أنّه رحل. مثله مثل لاينغ. أنا متأكّد من أنّ هذا الأخير كان يسكن منزلًا في كوربي العام 2008، لكنّه انتقل منه. وأضاف وهو ينظر عبر الشارع: كم مضى على وجود الرجل ذي النظّارة وسترة التمويه في ذاك المطعم؟

– نحو نصف ساعة.

تراءى لسترايك أنّ الرجل ذا النظّارة الشمسيّة يراقبه بدوره، عبر الشارع الفاصل بينهما ونافذتين. كان عريض الكتفين، طويل القدمين، أضخم بكثير من الكرسيّ حيث جلس. وبدا أنّ ذقنه غير حليقة، لكنّ انعكاس مرور السيّارات والمشاة في الزجاج منع سترايك من أن يجزم بذلك.

– كيف هي الحال في الداخل؟ سألته روبن مشيرة إلى بابَي سبيرمينت راينو تحت خيمتهما المعدنيّة الثقيلة.

– في ملهى التعرّي؟ سألها سترايك الذي فوجئ بما قالته.

– لا، في المطعم اليابانيّ، ردّت روبن متهكّمة. طبعًا في ملهى التعرّي.

– لا بأس، قال، غير واثق ممّا تريد معرفته.

– صفه لي.

– ديكور مذهّب، ومرايا، وإضاءة خفيفة. وحين نظرت إليه تتوقّع تفسيرًا أوضح، أضاف: في الوسط عمود يرقصن إليه.

– ألا يرقصن في أحضان الرجال؟

– ثمّة مقصورات خاصّة لذلك.

– ماذا ترتدي الفتيات؟

– لا أعلم، لا يرتدين الكثير من الملابس.

رنّ جرس هاتفه. إنّها إلين.

أشاحت روبن بنظرها، تتلهّى بما يشبه نظّارة قراءة أمامها، ولكنّها كانت تحتوي في الواقع كاميرا صغيرة تصوّر بها تحرّكات بلاتينوم. حين أعطاها إيّاها سترايك فرحت بها ووجدتها مثيرة، لكنّ حماستها لها تلاشت منذ وقت طويل. شربت عصير الطماطم ونظرت عبر النافذة، محاوِلة ألّا تصغي إلى محادثة سترايك وإلين. كان جدّيًا دائمًا عندما يكلّم حبيبته بالهاتف، ومع ذلك كان من الصعب على روبن تخيّل سترايك يهمس لأحدهم بكلمات رقيقة. كان من عادة ماثيو أن يناديها بـ روبسي أو روزي بوزي، حين يكون في مزاج حسن، لكنّ هذا بات من الماضي.

– ... في منزل نِك وإلسا، قال سترايك. نعم. لا، أوافق... نعم... حسنًا... وأنت أيضًا.

ثمّ أنهى الاتّصال.

– هل ستقيم هناك؟ مع نِك وإلسا؟ سألته روبن.

كان الاثنان من أقدم أصدقاء سترايك، وقد التقتهما روبن في زياراتهما إلى المكتب، وأحبّتهما.

– نعم. دَعَواني للإقامة لديهما قدر ما أشاء.

– لماذا لا تقيم مع إلين؟ سألته روبن، مجازِفة بسماع إجابة جافّة. فهي تدرك تمامًا الحدود التي يفضّل سترايك المحافظة عليها بين الحياة الخاصّة والعمل.

– لن ينجح الأمر. قال، بغير أن يبدو عليه أنّه استاء من سؤالها، لكنّه لم يُظهر رغبة في التوضيح.

نظر مجدّدًا عبر الشارع إلى المطعم اليابانيّ، فرأى أن الطاولة التي جلس إليها الرجل بسترة التمويه والنظّارة الشمسيّة قد خلت. قال لروبن:

– نسيتُ. جئتُك بهذا.

كان جهاز إنذار ضدّ الاغتصاب.

– لديّ جهاز مماثل، قالت وهي تُخرج من جيب سترتها جهازًا وتريه إيّاه.

– نعم، لكنّ هذا الجهاز أفضل، قال سترايك وهو يعدّد لها خصائصه. إنّه يطلق إنذارًا بقوّة 120 ديسيبل على الأقلّ، ويرشّ المعتدي بمادّة حمراء لا تزول.

– جهازي يطلق إنذارًا بقوّة 140 ديسيبل.

– أظنّ هذا الجهاز أفضل.

– هل من عادة الرجال الظنّ دائمًا أنّ أيّة آلة يختارونها هي أفضل ممّا أختاره؟

ضحك، ثمّ أفرغ كوب البيرة.

– إلى اللقاء.

– أين تذهب؟

– للقاء شانكر.

كان الاسم غريبًا بالنسبة إليها.

– الرجل الذي يعطيني أحيانًا معلومات أستطيع مقايضتها بمعلومات من الشرطة، شرح سترايك. إنّه الرجل الذي أخبرني مَن طعن مخبر الشرطة، أتتذكّرين؟ والذي أوصى بي لرجل العصابة للعمل بصفة حارس؟

– آه، قالت روبن. ذاك الرجل. لم تقل لي أبدًا ما اسمه.

– شانكر هو فرصتي الأفضل لأكتشف مكان ويتايكر، قال سترايك. لعلّه أيضًا يملك معلومات بشأن ماللي الحفّار، فهو يعاشر بعضًا من أمثاله.

نظر عبر الشارع وقال:

– إنتبهي لذلك الرجل بسترة التمويه.

– أنت متوتّر الأعصاب.

– أنا طبعًا متوتّر يا روبن، قال وهو يُخرج علبة سجائر ويستعدّ للسير نحو المترو. أحدهم أرسل إلينا ساقًا مبتورة!

9

One Step Ahead of the Devil[1]

رؤية سترايك المبتور القدم يسير على الرصيف المقابل متّجهًا إلى حانة كورت، كانت جائزة غير منتظرة.

اللعين زاد وزنه منذ آخر لقاء بينهما. يسير حاملًا حقيبة ظهره كالجنود الأغبياء (وكان واحدًا منهم)، جاهلًا أنّ الرجل الذي أرسل إليه ساقًا لا يبعد عنه أكثر من خمسين مترًا. أيّ محقّق عظيم هذا! دخل الحانة للقاء السكرتيرة الصغيرة. كان شبه متأكّد من أنّه يضاجعها. بأيّة حال، هو يرجو ذلك، لأنّه سيضاعف من متعة ما ينوي القيام به.

وفيما كان يحدّق عبر نظّارته الشمسيّة إلى وجه سترايك الجالس خلف واجهة الحانة، خُيّل إليه أنّ هذا الأخير التفت ونظر إليه. طبعًا لم يستطع تمييز ملامحه عبر الطريق والواجهتين الزجاجيّتين ونظّارته الملوّنة. لكنّ شيئًا ما في حركة الوجه البعيد، وفي التفاتته نحوه، رفع من مستوى التوتّر لديه. لقد نظر كلّ منهما إلى الآخر، والسيّارات تمرّ على الطريق الفاصل بينهما، هادرة في كلا الاتّجاهين وحاجبة الرؤية أحيانًا.

إنتظر حتّى مرّت بينهما ثلاث حافلات ذات طابقين، الواحدة خلف الأخرى، فنهض عن كرسيّه وخرج عبر باب المطعم الزجاجيّ ليتوارى في زقاق جانبيّ.

[1] عندما تسبق الشيطان بخطوة.

تدفّق الأدرنالين في جسمه، وهو يخلع سترة التمويه ويرتديها مقلوبة. لم يكن التخلّص منها واردًا، فسكّيناه مخفيّتان في بطانتها. سلك منعطفًا آخر واندفع يجري بأقصى سرعة.

10

With no love, from the past[1].

Blue Öyster Cult, 'Shadow of California'

حال سيل السيارات المتواصل دون عبور سترايك طريق توتنهام كورت حالًا، فوقف منتظرًا، مسرّحًا بصره على الرصيف المقابل. حين وصل إليه، نظر من خلال واجهة المطعم اليابانيّ، لكنّه لم يرَ أيّ سترة تمويه، ولا كان أيّ من الرجال المرتدين قمصانًا تقليديّة أو تي شيرت يشبه صاحب النظّارة الشمسيّة، حجمًا أو شكلًا.

أحسّ سترايك بارتجاج هاتفه في جيب سترته. أخرجه، وقرأ عليه الرسالة التالية من روبن:

تمالك نفسك.

إبتسم سترايك ورفع يده ملوّحًا بالوداع نحو واجهة الحانة وسار مبتعدًا في اتّجاه المترو.

لعلّه متوتر الأعصاب، ليس إلاّ، كما قالت روبن. أيُعقل أن يجلس المعتوه الذي أرسل الساق مراقبًا روبن في وضح النهار؟ ومع ذلك، لم يحبّ

[1] بدون حبّ، من الماضي.

سترايك النظرات التي صوّبها إليه الرجل الضخم ذي سترة التمويه، ولا نظّارته شمسيّة، فالشمس ليست ساطعة. واختفاؤه حين حالت الحافلات بينهما، هل جاء محض مصادفة أو متعمّدًا؟

المشكلة هي أنّ سترايك لا يتذكّر كثيرًا أوصاف الرجال الثلاثة الذين يشغلون باله حاليًا. فهو لم يرَ بروكبانك منذ ثماني سنوات، ولاينغ منذ تسع، وويتايكر منذ ستّ عشرة سنة. لعلّهم الآن زادوا وزنًا، أو هزلوا، أو أدركهم بالصلع، أو تركوا لحاهم أو شاربيهم، أو أُقعِدوا، أو اكتسبوا قامة رياضيّة مشدودة. سترايك نفسه خسر قدمه منذ رآهم لآخر مرّة. لكنّ الأمر الوحيد الذي لا يستطيع أحد إخفاءه هو الطول. وهؤلاء الثلاثة طولهم 180 سنتم أو أكثر، كصاحب سترة التمويه الذي جلس في المطعم اليابانيّ.

فيما كان سترايك يسير نحو محطّة طريق توتنهام كورت، أزّ هاتفه في جيبه. شعر بالسرور حين وجد أنّ المتّصل هو غراهام هاردكاير. وقف جانبًا لئلاّ يعيق حركة المارّة، وأجاب.

– أوغي، قال زميله القديم. ما الأمر يا صديقي؟ لماذا يرسلون إليك سيقانًا؟

– أظنّك لست في ألمانيا، قال سترايك.

– في إدنبره، منذ 6 أسابيع. قرأتُ منذ قليل مقالة في جريدة سكوتسمان حول ما حدث معك.

كان لفرع الاستقصاء الخاصّ في الشرطة العسكريّة الملكيّة مكتب في إدنبره كاسل، يُعرف بالشعبة 35، ويُعتبر مركزًا مرموقًا.

– هاردي، أنا بحاجة إلى خدمة. أريد معلومات حول شخصين. هل تتذكّر نويل بروكبانك؟

– من الصعب أن أنساه. ألم يكن في لواء المدرعات السابع، إذا لم تخنّي الذاكرة؟

– هذا هو. والآخر هو دونالد لاينغ. كان في فوج الحدود الملكي. تعرّفتُ إليه في قبرص، قبل أن أعرفك.

– سأرى ما يمكنني عمله حين أعود إلى المكتب. أنا الآن وسط حقل محروث.

ما لبث ارتفاع ضجيج السيارات في ساعة الذروة أن أعاق محادثة الرجلين. فوعد هاردكاير زميله القديم بالاتّصال به بعدما يدقّق في السجلاّت العسكريّة، وتابع سترايك طريقه باتّجاه المترو.

بعد ثلاثين دقيقة، خرج من المترو في محطّة وايتشابل ليجد رسالة نصيّة من الرجل الذي يُفترض به لقاؤه:

آسف يا بانسن. لا يمكنني الحضور اليوم. سأتّصل بك.

شعر سترايك بالخيبة وبضياع وقته سدى، ولكن ليس بالمفاجأة. فلا هو يقوم بتوصيلة مخدّرات، ولا يحمل رزمة كبيرة من الأوراق الماليّة المستعملة، كما أنّه لم يأتِ لطلب ترهيب شخص أو ضربه. لذلك كانت علامة تقدير كبير أنّ شانكر قد سبق أن تنازل وعيّن مكانًا وزمانًا للقائه.

أحسّ سترايك بألم في ركبته بعد يوم قضاه في السير. لكنّه لم يجد مقاعد خارج المحطّة، فاستند إلى الجدار الحجريّ الأصفر بقرب المدخل، وطلب رقم شانكر.

– هل أنت بخير يا بانسن؟

نسي سترايك لماذا يُسمّى شانكر باسمه هذا، كما نسي لماذا يناديه الأخير باسم بانسن. إلتقيا وكان لهما من العمر سبعة عشر عامًا. ولم تفرّق بينهما، حتى اليوم، الخلافات المألوفة التي تعكّر صفو الصداقات القديمة. الواقع أنّها لم تكن صداقة بالمعنى الشائع للكلمة، بل نوعًا من الأخوّة التي فرضها الواقع. كان سترايك على ثقة بأنّ موته لا بدّ من أن يُحزِن شانكر، وعلى القدر عينه من الثقة أيضًا بأنّ هذا الأخير سيجرّد جثّته من كلّ ما عليها من أشياء ثمينة إذا تُرك وحده معها. ما قد لا يفهمه الآخرون هو أنّ شانكر سيفعل ذلك مقتنعًا بأنّ سترايك سيسرّه، في الآخرة التي ينتقل إليها، أن يكون سترايك هو مَن يسرق محفظته، لا شخص انتهازيّ مجهول آخر.

– أنت مشغول يا شانكر؟ سأله سترايك وهو يشعل سيجارة جديدة.

– نعم يا بانسن، لا مجال للّقاء اليوم. ما الأمر؟

– أبحث عن ويتايكر.

– للقضاء عليه؟

هذا التغيّر المفاجئ في نبرة الرجل كان كافيًا لإثارة الذعر في قلب كلّ مَن لا يعرفه. بالنسبة إلى شانكر وأمثاله، النهاية الوحيدة الممكنة للحقد هي القتل. وقد قضى نصف حياته خلف القضبان، حتّى أنّ سترايك يشعر بالدهشة لأنّ شانكر ظلّ حيًا حتّى منتصف عقده الرابع.

– أريد فقط أن أعرف أين هو، قال سترايك بحدّة.

لا شكّ في أنّ شانكر لم يعلم بأمر الساق المبتورة، فالرجل يعيش في عالم لا تعنيه إلّا الشؤون الخاصّة، ولا تنتقل فيه الأخبار إلّا شفهيًا.

– يمكنني أن أسأل عنه.

– سأدفع لك السعر المعهود، قال سترايك، الذي يجمع بينه وبين شانكر اتّفاق على ثمن المعلومات، وأضاف: ... شانكر؟

كان صديقه القديم معتادًا إقفال الخطّ بدون إنذار حين ينشغل بأمر آخر.

– هل هناك المزيد؟ سأله شانكر بصوت بدا أنّه يقترب من الهاتف. كان سترايك على حقّ بظنّه أنّ الرجل أبعد الهاتف، مفترضًا أنّ المكالمة انتهت.

– نعم، أجاب سترايك. مالّلي الحفّار.

كان الصمت الذي تلا ذلك يعبّر بوضوح عن أنّ شانكر لم ينسَ قطّ مَن هو سترايك، مثلما لم ينسَ هذا الأخير مَن هو شانكر. تابع سترايك:

– شانكر، هذا الأمر بيني وبينك فقط. أنت لم تذكر لي اسم مالّلي قطّ، مفهوم؟

بعد صمت، قال شانكر بصوت مخيف:

– لماذا أفعل أمرًا كهذا؟

– كان عليّ أن أطرح السؤال عليك. سأشرح لك حين أراك.

من جديد، عاد الصمت الموحي بالخطر.

– شانكر، هل وشيتُ بك يومًا؟ سأله سترايك.

تلا ذلك صمت أقصر، ثمّ عاد شانكر ليقول لسترايك بصوت عاديّ:

– حسنًا. ويتايكر. سأرى ما يمكنني أن أفعله يا بانسن.

ثمّ انقطع الاتّصال. فلباقة إنهاء المكالمات لم تكن من شيم شانكر.

تنهّد شترايك وأشعل سيجارة جديدة. كان قدومه إلى هنا بلا فائدة. وسيعود لركوب القطار حالما ينهي السيجارة.

كان مدخل المحطّة يفضي إلى باحة إسمنتيّة تحيط بها الجهات الخلفيّة لعدد من المباني. في الأفق البعيد التمع مبنى غركين الأسود الشبيه بقذيفة عملاقة. منذ عشرين عامًا لم يكن هذا المبنى هنا، في الفترة القصيرة التي أقامت عائلة سترايك خلالها في وايتشابل.

نظر سترايك من حوله، فلم يخامره أيّ شعور بالحنين. لم تذكّره هذه الباحة الإسمنتيّة ولا هذه المباني بشيء. حتّى ذكرياته عن المحطّة كانت واهية جدًّا. فالحياة المضطربة التي قضاها في الانتقال مع والدته من مسكن إلى مسكن، قد شوّشت لديه ذكريات الأماكن. حتّى بات ينسى أحيانًا أيّ متجر كان قريبًا من هذه الشقة المتداعية أو تلك، أو أيّة حانة كانت في هذا المبنى المهجور أو ذاك.

أراد العودة إلى المترو، لكنّه وجد نفسه يسير إلى المكان الوحيد في لندن الذي يتجنّبه منذ سبعة عشر عامًا: المبنى حيث ماتت أمّه. كان ذلك آخر المباني المهجورة التي سكنتها ليدا، وهو بناء متداعٍ من طابقين يطل على شارع فولبورن، ويبعد عن المحطّة مسافة لا تزيد عن دقيقة واحدة. فيما سار سترايك إلى هناك، بدأ يتذكّر. طبعًا، لقد سار على هذا الجسر المعدنيّ المرتفع فوق السكك الحديديّة في أثناء دراسته الثانويّة. وتذكّر الاسم أيضًا: شارع كاسلماين... إحدى رفيقاته في الثانويّة عاشت هناك، وهي فتاة كانت تلثغ كثيرًا في نطقها...

حين بلغ نهاية شارع فولبورن أخذ يسير الهوينا، وقد اختلط عليه المشهد الذي يظهر أمام عينيه. فمحاولاته المتعمّدة لنسيان هذا المكان حوّلته إلى مشهد غامض في أعماق ذاكرته. المباني لا تزال كما يتذكّرها،

بواجهاتها الرثّة التي تقشّر طلاؤها، لكنّ المؤسّسات والمتاجر كانت غير مألوفة أبدًا. شعر وكأنّه عاد إلى مكان شاهده في حلم، لكنّ معظم معالمه تغيّرت. طبعًا، كان كلّ شيء سريع الزوال في النواحي الفقيرة من لندن، حيث تُفتح المتاجر الصغيرة ثمّ تُقفل لتحلّ محلّها متاجر أخرى، وتُركّب اللافتات الرخيصة ثمّ تُنزع، ويمرّ أشخاص من أمامها ثمّ يموتون.

أمضى دقيقة أو اثنتين يبحث عن باب المبنى المهجور حيث سكنوا، بعدما نسي رقمه. في النهاية عثر عليه، بجانب متجر يبيع ملابس رخيصة، آسيوية وغربية. كان هذا المكان في أثناء إقامته سوبرماركت لبضائع من جزر الهند الغربيّة. أحسّ بانقباض في قلبه لرؤيته، صندوق البريد النحاسيّ الذي كان يقرقع كلّما دخل أحدهم الباب أو خرج منه.

تبًّا، تبًّا، تبًّا...

أشعل سترايك سيجارة ثانية من طرف الأولى، وسار مسرعًا نحو طريق وايتشابل، حيث انتصبت الأكشاك التي تبيع مزيدًا من الملابس الرخيصة، وأنواعًا لا تحصى من السلع البلاستيكيّة الفاقعة الألوان. حثّ خطاه، يسير إلى حيث لا يدري، وبعض ما يمرّ أمامه يوقظ مزيدًا من الذكريات: صالة البلياردو تلك كانت هناك منذ سبعة عشر عامًا... وكذلك مصنع الأجراس... كانت الذكريات تستيقظ لتلسعه وكأنّه سائر على جحر أفاعٍ نائمة...

حين قاربت والدته عامها الأربعين، بدأت تعاشر رجالًا يصغرونها سنًّا، لكنّ ويتايكر كان أصغرهم. ففي بداية علاقتهما، كان له من العمر واحد وعشرون عامًا. وحين اصطحبته إلى المنزل للمرّة الأولى كان عمر ابنها ستّة عشر عامًا. حتّى في الحادية والعشرين، كانت الدوائر الجوفاء الشاحبة تحيط بعينَي الموسيقيّ الذهبيّتَين المتباعدتين، وضفائر شعره الأسود تسقط على كتفيه. ولم يكن يبدّل قميصه ولا سرواله الجينز قطّ، فتنبعث منه رائحة منتنة.

فيما سار سترايك في شارع وايتشابل، كانت جملة قديمة تتردّد في ذهنه على وقع خطواته:

Hiding in plain sight. Hiding in plain sight. مختبئًا أمام أنظار الجميع. مختبئًا أمام أنظار الجميع.

طبعًا، قد يظنّه الناس مهووسًا، متحاملًا، غير قادر على نسيان الماضي. قد يقولون إنّ أفكاره اتّجهت نحو ويتايكر حين رأى الساق في العلبة، لأنّه لم يستطع قطّ أن ينسى حكم المحكمة ببراءة الرجل من تهمة قتل أمّه. مهما شرح سترايك أسباب اشتباهه بويتايكر، فالناس قد يسخرون من فكرة أنّ ذلك المغرور المنحرف والساديّ قد يبتر ساق امرأة. كان سترايك يدرك تمامًا اقتناع الناس الراسخ بأنّ الأشرار الحقيقيين يخفون نزعاتهم الخطيرة إلى العنف والسيطرة. أمّا حين يتظاهر المنحرفون بتلك النزعات، فإنّ السذّج يضحكون ويعتبرون الأمر تفاخرًا، أو يجدونه جذّابًا على نحو غريب.

إلتقت ليدا بويتايكر في شركة تسجيل الأسطوانات حيث كانت تعمل. أي حيث كانت جزءًا صغيرًا وحيًّا من تاريخ موسيقى الروك، تمّ توظيفه بمثابة رمز من رموز الروك يجلس إلى مكتب الاستقبال. كان ويتايكر عازف الغيتار وكاتب الأغاني لعدد من فرق الثراش ميتال الموسيقيّة. لكنّها استغنت كلّها عن خدماته بسبب غروره وإفراطه في تعاطي المخدّرات وعدائيّته. زعم أنّه التقى ليدا أثناء توقيعه عقدًا لتسجيل أسطوانة. لكنّ ليدا أسرّت لابنها أنّ لقاءهما الأوّل جرى عندما تدخّلت لحماية ويتايكر من قسوة موظّفي الأمن المكلّفين بطرده. وأحضرته معها إلى المنزل، ولم يغادره قطّ.

لم يدرِ سترايك، في عامه السادس عشر، ما إذا كان شغف ويتايكر المعلن بكلّ ما هو ساديّ وشيطانيّ حقيقيًّا أم تمثيلًا. لكنّه أدرك أنّه يكنّ لويتايكر كراهية شديدة، تفوق كلّ ما شعر به نحو أيّ من عشّاق أمّه الآخرين. كان مضطرًّا إلى إتمام واجباته المدرسيّة مساءً في ذلك المبنى المهجور وهو يتنشّق رائحة الرجل الكريهة، ويكاد يحسّ بطعم قذارته في فمه. حاول ويتايكر فرض سلطته على المراهق. وكانت سورات غضبه وعباراته الجارحة تكشف عن لسان سليط، يحرص على إخفائه حين يسعى للتودّد إلى أصدقاء ليدا الأقلّ علمًا وثقافة. لكنّ سترايك كان دائم الاستعداد للردّ، وباللهجة نفسها، مع فارق أنّه ليس مثله تحت تأثير المخدّرات، إلّا – أقلّه – بالقدر الذي يعانيه

شخص يعيش وسط ضباب دائم من دخان القنّب. وبعيدًا عن مسمع ليدا، كان ويتايكر يهزأ بتصميم سترايك على متابعة تعليمه الذي غالبًا ما ترغمه الظروف على الانقطاع عنه. كان الموسيقيّ طويلًا ونحيلًا، ومحافظًا على قوّة عضلاته برغم قلّة نشاطه الجسديّ. أمّا سترايك فكان طوله يزيد على 180 سنتم، ويمارس الملاكمة في نادٍ قريب. لذلك كان التوتّر يتصاعد كلّما اجتمع الاثنان، ويهدّد دائمًا بالتحوّل إلى العنف.

لم تتمكّن لوسي، أخت سترايك من أمّه والبالغة أربعة عشر عامًا، من تحمّل تنمّر ويتايكر عليها وتلميحاته الجنسيّة المتحرّشة، فغادرت المنزل بصورة نهائيّة. كان يسير أمامها عاريًا، وهو يحكّ صدره المغطّى بالوشوم، ويهزأ بخوفها. وذات ليلة أسرعت إلى كشك الهاتف عند زاوية الشارع، واتّصلت بخالتها وزوجها في كورنوال تتوسّلهما للمجيء وأخذها. إنطلق النسيبان من سانت موز في الليلة نفسها ووصلا فجر اليوم التالي. كانت لوسي التي جمعت مقتنياتها القليلة في حقيبة صغيرة مستعدّة للرحيل، ولم تعد للعيش مع والدتها قطّ.

وقف تيد وجوان على عتبة الباب يرجوان سترايك ليرافقهما أيضًا، لكنّه رفض. ولم تنفع مناشدات جوان إلّا بزيادة تصلّبه وتصميمه على طرد ويتايكر، وعدم ترك والدته وحيدة معه. كان سترايك قد سمع ويتايكر يصف القتل بأنّه لذّة للحواسّ، متسائلًا عمّا قد يشعر به مَن يخطف حياة إنسان آخر. لم يصدّق آنذاك أنّ ويتايكر يعني ما يقول، لكنّه كان يدرك أنّه قادر على العنف، ورآه يهدّد جيرانهم في المبنى المهجور. وفي حادثة أخرى رفضت ليدا أن تصدّق وقوعها، شهد سترايك على محاولة ويتايكر قتل هرّة أيقظته حركتها من قيلولته، فراح يلاحقها في أنحاء الغرفة، ملوّحًا بحذائه الثقيل، صائحًا، شاتمًا، مصمّمًا على الانتقام من الهرّة المرعوبة، قبل أن يتمكّن سترايك من انتزاع الحذاء من يده.

حثّ سترايك خطاه في ذلك الشارع، فاشتدّ الألم في ركبته التي وُصلت بها الساق الاصطناعيّة. ظهرت أمامه إلى جهة اليمين حانة ناغ هاد، وكأنّها

استجابة لتمنّياته. لكنّه شاهد عند الباب حارسًا بملابسه السوداء، وتذكّر أن ناغ هاد بات ملهى لرقص التعرّي.

– سحقًا، تمتم.

لم يكن يمانع وجود نساء نصف عاريات يرقصن حوله وهو يستمتع بكوب من البيرة، لكنّ أسعار المشروبات كانت خياليّة في مؤسّسات كهذه، وهو قد خسر زبونين في يوم واحد.

لذلك دخل أوّل مقهى ستارباكس رآه، وبحث عن مقعد جلس عليه. رفع ساقه التي تؤلمه على كرسيّ فارغ فيما راح يحرّك باستياء فنجان قهوة كبيرًا. الأرائك الترابيّة اللون والمتراخية، والفناجين الطويلة الطافحة بالرغوة الأميركيّة، والشبّان والشابّات العاملون بهدوء وفعاليّة خلف الحاجز الزجاجيّ... ذلك كلّه كان الترياق المثاليّ للمشهد القذر الذي يعصف ببال سترايك. مع ذلك ظلّ عاجزًا عن الخروج منه، ووجد نفسه يعيش الذكريات كلّها من جديد...

أثناء إقامة ويتايكر مع ليدا وابنها، لم يكن ماضيه في الانحراف والعنف معروفًا إلّا من دوائر الخدمات الاجتماعيّة في شمال إنكلترا. كما روى هو عن ماضيه حكايات متعدّدة وزاهية، غالبًا ما كانت متناقضة. لكن بعدما اعتُقل بتهمة قتل ليدا، تسرّبت الحقيقة من جانب عدد من الأشخاص الذين عرفوه في ماضيه، بعضهم أملًا ببعض المال من الصحافة، والبعض الآخر كان مصمّمًا على الانتقام منه، فيما حاولت فئة أخرى الدفاع عنه بطريقة خرقاء.

وُلد ويتايكر في عائلة من الطبقة الوسطى الميسورة، على رأسها دبلوماسيّ يحمل لقب فارس، ظلّ ويتايكر حتّى عامه الثاني عشر يظنّه والده. كذلك اكتشف أنّ أخته الكبرى، والتي قيل له إنّها معلّمة مدرسة في لندن، هي في الحقيقة أمّه، وأنّها تعاني مشكلة كحول ومخدّرات حقيقيّة وتعيش في فقر شديد، مرذولة من عائلتها. كان ويتايكر في الأساس طفلًا صعب المراس، عصبيًّا، وعرضة لنوبات الغضب العنيف. لكنّ ما اكتشفه ضاعف من سوء حالته حتّى لم يعد بالإمكان السيطرة عليه أبدًا. فطُرد من مدرسته، وانضمّ إلى عصابة محليّة سرعان ما أصبح قائدها. إنتهت تلك المرحلة بإيداعه سجنًا

للأحداث لأنّه هدّد فتاة بقطع عنقها بالسكّين فيما كان أصدقاؤه يعتدون عليها جنسيًّا. في عامه الخامس عشر هرب إلى لندن بعدما ارتكب عددًا من الجرائم الصغيرة، ونجح في العثور على والدته الحقيقيّة. لكنّ فرحة اللقاء الوجيزة سرعان ما تحوّلت إلى عنف وكره متبادلين.

– هل يستعمل أحد هذا؟

إنحنى شابّ طويل القامة فوق سترايك، وقد أمسك بظهر الكرسيّ الذي أسند إليه سترايك ساقه. حين رأى هذا الأخير شعر الشابّ البنّي المتموّج وتأنّقه الزائد، تذكّر ماثيو خطيب روبن. رفع ساقه مهمهمًا باستياء، وهزّ رأسه، ونظر إلى الشابّ يحمل الكرسيّ لينضمّ إلى مجموعة من ستّة أشخاص على الأقلّ. كانت الفتيات متلهّفات لعودته، وما إن وضع الكرسيّ وجلس بينهنّ حتّى استوين في جلستهنّ وأشرقت وجوههنّ بالابتسامات. هل كان السبب شبهه بماثيو؟ أو انتزاعه الكرسيّ؟ أو لأنّ سترايك يملك قدرة حقيقيّة على تمييز الأشخاص البغيضين؟ أيًّا كان السبب، فقد وجد سترايك أنّ ذلك الفتى منفّر جدًّا.

إمتعض سترايك من هذا الإزعاج، فحمل نفسه على الوقوف حتّى قبل الانتهاء من قهوته، وانصرف. تساقط المطر عليه وهو يسير عائدًا عبر طريق وايتشابل، يدخّن سيجارةً غير عابئ بمقاومة سيل الذكريات الذي جرفه من جديد...

كان ويتايكر بحاجة إلى أن يكون محطّ اهتمام دائم، ويستاء من أن تنشغل ليدا عنه مهما كان الوقت أو السبب، سواء أكان عملها أو ولديها أو أصدقاءها. وكلّما وجدها لا تعيره الاهتمام الكافي، حوّل سهام سحره الأخّاذ إلى نساء أخريات. حتّى سترايك الذي كان يكرهه كمرض فتّاك، اعترف بأنّه ذا جاذبيّة قوية فعلت فعلها مع معظم النساء اللواتي أقمن بذلك المبنى.

برغم طرده المتكرّر من الفرق الموسيقيّة، ظلّ ويتايكر يحلم بالنجوميّة. كانت له معرفة بالعزف على الغيتار، ودأب على أن يملأ كلّ ورقة يجدها بكلمات أغانٍ مستوحاة من الإنجيل الشيطانيّ. تذكّر سترايك ذلك الكتاب بغلافه الأسود المزيّن بنجمة خماسيّة الأطراف ورأس معزاة، ملقىً على الفراش

حيث ينام ويتايكر وليدا. كان ويتايكر ملمًّا بحياة تشارلز مانسون، الزعيم الأميركيّ لطائفة عائلة مانسون الإجراميّة. وكان صرير نسخة فينيل قديمة من أسطوانة تشارلز مانسون LIE: The Love and Terror Cult، الموسيقى الوحيدة التي سمعها سترايك في السنة الأخيرة من المرحلة المتوسطة.

كان ويتايكر يعرف حكاية ليدا حتى قبل أن يتعارفا، ويحبّ أن يسمعها تروي أخبار الحفلات الصاخبة التي ارتادتها والرجال الذين عاشرتهم، وكأنّه يستطيع من خلالها أن يكوّن صلة بالمشاهير. إستنتج سترايك حين توثّقت معرفته به أنّ الموسيقيّ لا يحسب حسابًا إلّا للشهرة، ولا يميّز بين مانسون، العزيز جدًّا على قلبه، ونجوم الروك الآخرين مثل جوني روكبي. كان كلاهما، مانسون وروكبي، أيقونة موسيقية راسخة في الوعي الشعبيّ. لكنّ ويتايكر كان يفضّل مانسون، لأنّ أسطورته لم تتأثّر بتغيّر الموضة والأذواق الموسيقية، فالشرّ جذّاب دائمًا.

ومع ذلك، لم تكن الشهرة وحدها ما جذب ويتايكر إلى ليدا. فقد سبق لها أن أنجبت طفلين من نجمَي روك ثريّين تكفّلا بإعالة طفليهما. دخل ويتايكر المبنى المهجور بانطباع واضح وهو أنّ عيش حياة التشرّد والفقر ما هو إلّا أسلوب ليدا، وأنّها في الواقع تغرف المال من نهر لا ينضب يغذّيه كلّ من جوني روكبي، والد ابنها سترايك، وريك فانتوني، والد ابنتها لوسي. وبدا أنّه لا يصدّق أو يفهم الحقيقة، وهي أنّ السنوات التي قضتها ليدا في التبذير حملت الرجلين على الحدّ من سخائهما الواسع. ومع الوقت زادت وتيرة التعليقات الساخرة والخبيثة حول تردّد ليدا في إنفاق المال على ويتايكر. واندلعت بينهما شجارات حادّة حين رفضت أن تدفع ثمن غيتار فندر ستاركوستر يحلم باقتنائه، أو سترة مخمليّة من تصميم جان بول غوتييه استهوته فجأة على رغم نتانته ورثاثة ملابسه.

زاد من ضغطه عليها، وراح يختلق ذرائع مشينة وواهية، كحاجته إلى علاج طبيّ طارئ، أو إلى عشرة آلاف جنيه لسداد دين لرجل يهدّده بتحطيم ساقيه. لكنّ تلك الذرائع كانت تُضحك ليدا تارة، وطورًا تثير استياءها.

– عزيزي، لا أملك مالًا، كانت تقول له. حقًّا يا عزيزي، أنا مفلسة، ألستُ لأعطيك مالًا لو كنت أملكه؟

بلغ سترايك الثامنة عشرة وهمّ بتقديم طلب لدخول الجامعة. وفي ذلك العام حملت ليدا بطفل. شكّل الأمر صدمة شديدة للفتى، ومع ذلك لم يتوقّع منها الزواج بويتايكر. لطالما قالت له إنّها تكره أن تصبح زوجة لأحد، وإنّ تجربتها الأولى في الزواج وهي بسنّ المراهقة لم تدُم سوى أسبوعين قبل أن تهرب. كما لا يمكن تخيّل ويتايكر رجلًا متزوّجًا.

ومع ذلك فقد تمّ الزواج. لأنّ ويتايكر ظنّه السبيل الوحيد المضمون ليضع يده على تلك الملايين المخفيّة. لا شكّ في ذلك. جرى الاحتفال في مكتب سجلّات النفوس في ماريليبون، حيث سبق لاثنين من فرقة البيتلز أن عقدا قرانهما. لعلّ ويتايكر خال أنّ هناك مَن سيلتقط له صورًا عند المدخل، مثل بول ماكارتني، لكنّ أحدًا لم يكن مهتمًّا بذلك. وحده موت عروسه الباسمة هو ما جعل المصوّرين يتجمّعون لتصويره عند درج المحكمة.

أدرك سترايك فجأة أنّه سار حتّى محطّة ألدغايت إيست بدون إدراك. لامَ نفسه قائلًا إنّ هذه الجولة كلّها ليست سوى دوران لا جدوى منه. لو أنّه عاد إلى القطار في وايتشابل، لكان الآن في طريقه إلى منزل نِك وإلسا. لكنّه أطلق العنان لساقيه ومضى في الاتّجاه الخطأ، ليصل إلى المحطة في لحظة الذروة والازدحام الشديد.

حجمه الضخم وحقيبة الظهر التي حملها أثارا امتعاضًا مكتومًا بين ركّاب المترو المرغمين على الوقوف حوله في مجال ضيّق. لكنّ سترايك لم يعر ذلك اهتمامًا. كان أطول من كلّ الذين حوله، ووقف متمسّكًا بالحلقة المتدلّية من السقف، يتفرّج على انعكاس صورته في النوافذ الداكنة، ويتذكّر الجزء الأخير والأسوأ من القصّة: ويتايكر في المحكمة، يدّعي البراءة. سيق إلى هناك لأنّ الشرطة لاحظت ثغرات كثيرة في إفادته، كضعف حجّة غيابه يوم اخترقت الإبرة ذراع زوجته، والتناقض في روايته حول مصدر الهيرويين، وحول تاريخ ليدا في تعاطي المخدّرات.

قدم عدد كبير من سكّان المبنى المهجور ليشهدوا على العلاقة المضطربة والعنيفة بين ليدا وويتايكر، وامتناع ليدا عن تعاطي الهيرويين بكلّ أشكاله، وتهديدات ويتايكر، وخياناته، وهوسه بالقتل والمال، وعدم حزنه لموت ليدا. وأصرّوا على أنّهم متيقّنون من أنّ ويتايكر قتلها. لكنّهم أدلوا بشهاداتهم بطريقة هستيرية ومثيرة للشفقة، ممّا سهّل على محامي الدفاع مهمّة تكذيبها وعدم الأخذ بها.

وحدها شهادة سترايك، طالب أوكسفورد الشابّ، أمام المحكمة كانت ذات وقع مختلف. فالقاضي ارتاح إلى هذا الشابّ الذكيّ، والطلق اللسان، والذي ظهر كمن يجيد الاعتناء بمظهره، فعوّض ببزّته الرسميّة عن الخوف الذي قد تثيره ضخامة جثّته. أراد النائب العامّ منه أن يجيب عن أسئلة تركّز على اهتمام ويتايكر بثروة ليدا المزعومة. أصغت المحكمة بصمت إلى سترايك يتحدّث عن المحاولات التي قام بها زوج والدته ليضع يده على ثروة غير موجودة إلّا في مخيّلته، وعن إلحاحه على ليدا لإدراج اسمه في وصيّتها، تعبيرًا عن الحبّ الذي يربطها به.

راح ويتايكر ينظر إلى سترايك يدلي بشهادته، بعينيه الذهبيّتين الخاليتين تقريبًا من أيّ انفعال. وفي الدقيقة الأخيرة، التقت عيونهما. إرتسمت على فم ويتايكر ابتسامة واهية وهازئة، ورفع سبابته نصف بوصة عن الطاولة التي جلس إليها، ليحرّكها ببطء من اليمين إلى اليسار.

فهم سترايك تمامًا ما يقصده ويتايكر. هذه الحركة موجّهة إليه، وهي نسخة مصغّرة عن تهديد عُرف ويتايكر بتوجيهه إلى مَن يهينه، فيحرّك يده أفقيًا كسكّين تحزّ عنقًا.

سيأتي دورك. كان ويتايكر يقول، وعيناه الذهبيّتان الواسعتان تحدّقان إليه بنظرة جنونية. سيأتي دورك!

نال ويتايكر البراءة. فقد تكفّل أحد أفراد عائلته الأثرياء بنفقات محامي دفاع بارع. أتى إلى المحكمة نظيفًا، مرتديًا بزّة، وتكلّم بصوت هادئ يوحي بالاحترام، فأنكر كلّ ما نُسب إليه. أتقن إعداد روايته قبل مثوله أمام المحكمة. وكلّ ما حاول النائب العامّ تقديمه من براهين على صورة الرجل

الحقيقية – أي أسطوانة تشارلز مانسون القديمة، والإنجيل الشيطانيّ على السرير، وأحاديثه تحت تأثير المخدّرات عن القتل بدافع المتعة – نجح ويتايكر في التشكيك به وإسقاطه.

– ماذا يمكنني أن أقول لك... أنا موسيقيّ يا سيّدي القاضي. قال في إحدى جلسات محاكمته. الشِّعر يسكن في خبايا النفس المظلمة. وهي كانت تفهم هذا أكثر من أيّ شخص آخر.

ثمّ تكسّر صوته على نحو مسرحيّ وأخذ يشهق متظاهرًا بالحزن. فسارع محامي الدفاع إلى سؤاله عمّا إذا كان بحاجة إلى استراحة قصيرة.

وآنذاك هزّ ويتايكر رأسه رافضًا العرض بشجاعة، وقال مقتبسًا كلمات الأغنية لتفسير موت ليدا:

– كانت تريد أن تموت. كانت فتاة الكلس.

آنذاك لم يفهم أحد ما أشار إليه، ما عدا سترايك الذي سمع الأغنية مرّات كثيرة في طفولته ومراهقته. كان ويتايكر يقتبس كلمات أغنية Mistress of the Salmon Salt.

خرج من المحاكمة حرًّا. على رغم تقرير التشريح الذي نفى إدمان ليدا الهيروين، لم تكن شهرتها في مصلحتها. فقد تعاطت الكثير من المخدّرات الأخرى، كما عُرف عنها أنّها تعيش حياة فسق ومجون. ورأى القضاة الناظرون في المسألة، والذين تقضي مهمّتهم بتصنيف حوادث الموت العنيف وفقًا لدرجة خطورتها، أنّ موتها على فراش قذر سعيًا إلى لذّة لم تمنحها إيّاها حياتها، أمر طبيعيّ جدًّا لمَن يسلك طريق الانحراف.

صرّح ويتايكر على درج المحكمة بأنّه ينوي كتابة سيرة حياة زوجته المتوفّاة. لكنّه توارى عن الأنظار. لم يظهر الكتاب الموعود قطّ. تبنّى جَدّا ويتايكر اللذان سبق لهما أن عانيا الكثير بسببه، طفل ليدا الثالث. ولم يرَه سترايك بعد ذلك قطّ. غادر هذا الأخير أوكسفورد بصمت والتحق بالجيش. وذهبت لوسي إلى الجامعة. واستمرّت الحياة.

عاد اسم ويتايكر للظهور في الجرائد بين الحين والآخر، مرتبطًا دائمًا بجريمة ما، ومثيرًا في كلّ مرّة حزن ولدَي ليدا واضطرابهما. طبعًا، لم يتصدّر

ويتايكر الصفحات الأولى قطّ: فهو ليس سوى رجل تزوّج بامرأة اشتُهرت بمعاشرتها المشاهير. ولم يكن ما بلغه من شهرة إلّا انعكاسًا باهتًا لانعكاس صورة تلك المرأة.

– إنّه كالغائط الذي لا يزول بالماء، قال سترايك للوسي التي لم تضحك لهذا التشبيه. فقد كانت أقلّ ميلًا – حتّى من روبن – إلى الفكاهة الفظّة التي يلجأ إليها أخوها لمواجهة الوقائع البشعة.

وقف سترايك، متمايلًا مع حركة القطار، متعبًا، جائعًا، متألّمًا في ركبته. شعر بالسخط على العالم كلّه، وعلى نفسه خصوصًا. فقد قضى سنوات تعمّد خلالها عدم النظر إلّا إلى المستقبل. الماضي لا يمكن تغييره. لم ينكر ما حدث، لكن لا حاجة إلى الخوض فيه؛ لا حاجة إلى زيارة المبنى المهجور الذي سكنه منذ نحو عشرين عامًا؛ إلى تذكّر قرقعة صندوق البريد؛ إلى سماع صرخات الهرّة المرتعبة من جديد؛ إلى استعادة صورة والدته في دار الجنازات، شاحبة في فستانها ذي الكمّين الواسعَي الطرف...

أنت مغفّل لعين قال سترايك لنفسه غاضبًا وهو ينظر إلى خريطة المترو، محاولًا أن يفهم كم قطارًا عليه أن يبدّل للوصول إلى منزل نِك وإلسا. ويتايكر لم يرسل الساق قطّ. أنت فقط تبحث عن ذريعة للانتقام منه.

مرسل الساق كان شخصًا ذكيًّا، ينظّم حركته ويحسب خطواته جيّدًا. لكنّ ويتايكر الذي عرفه منذ نحو عقدين كان فوضويًّا وأحمق ومتقلّب المزاج.

ومع ذلك...

سيأتي دورك...

كانت فتاة الكلس...

تبًّا! قال سترايك بصوت مرتفع، مثيرًا انزعاج مَن حوله.

فقد أدرك أنّه تخلّف عن النزول من القطار حيث كان عليه أن ينزل.

11

Feeling easy on the outside,
But not so funny on the inside[1].

Blue Öyster Cult, 'This Ain't the Summer of Love'

تناوب سترايك وروبن على تعقّب بلاتينوم لبضعة أيّام. وكان سترايك يختلق شتى الذرائع ليلتقيا نهارًا، ويصرّ على مغادرة روبن العمل قبل حلول المساء وتراجع حركة الركّاب في المترو. مساء الخميس، لحق سترايك بالراقصة الروسية حتّى وصلت بأمان إلى منزل «المخدوع مرّتين»، الدائم التشكيك بها. ثمّ قفل راجعًا إلى شارع أوكتافيا في واندسوورث، حيث لا يزال يقيم لتجنّب الصحفيّين المتحلّقين بمنزله.

إنّها المرّة الثانية في حياته المهنيّة التي يضطرّ فيها سترايك إلى اللجوء إلى منزل صديقيه نِك وإلسا. لعلّه المنزل الوحيد الذي كان يتحمّل الإقامة فيه، ومع ذلك ظلّ يشعر بأنّ حرّيته مقيّدة في بيت زوجين عاملين. مهما كانت سيّئات العليّة المزدحمة بالأثاث فوق مكتبه، والتي جعل منها منزلًا، فقد كانت له فيها حرّية الدخول والخروج كما يشاء، أو الأكل عند الثانية بعد منتصف الليل، بعد انتهائه من مهمّة مراقبة، أو صعود الدرج المعدنيّ

[1] إرتياح المظهر الخارجيّ / لا يعكس ما في الداخل من قلق.

المقرقع ونزوله بدون أن يخشى إيقاظ الساكنين معه. أمّا الآن، وبرغم ترحيب الزوجين به فهو يشعر بأنّ عليه الحضور في موعد تناول الطعام، وبأنّ من غير اللائق أن يفتح الثّلاجة بعد منتصف الليل بحثًا عمّا يأكله.

لكنّ سترايك لم يكن بحاجة إلى الجيش ليتعلّم منه النظافة والتنظيم. فسنوات حداثته التي قضاها وسط الفوضى والقذارة أوجدت لديه ردّ فعل عكسيًّا. ولاحظت إلسا أنّ سترايك يتنقّل في منزلها بدون أن يترك أيّ أثر، بعكس زوجها طبيب المعدة والأمعاء، الذي يترك الأشياء مرميّة خلفه كيفما اتّفق، والأدراج غير مغلقة.

عرف سترايك من جيرانه في شارع الدانمارك أنّ المصوّرين الصحفيّين لا يزالون قابعين عند باب مكتبه، فوجد نفسه مضطرًا إلى قضاء بقيّة الأسبوع في غرفة الضيوف بمنزل نِك وإلسا. الغرفة ذات الجدران البيضاء والعارية، والمسكونة بكآبة انتظار طفل عبثًا ينتظر الزوجان منذ عامين مجيئه. لكنّ سترايك لم يُثر الموضوع معهما قطّ، وشعر بأنّ نِك، خصوصًا، يقدّر له ذلك.

تعود علاقة سترايك بهما إلى فترة طويلة، وتحديدًا إلسا التي يعرفها منذ طفولته. تلك الفتاة الشقراء نشأت في سانت موز في كورنوال حيث قضى سترايك أطول فترة في حداثته، كما كانت رفيقته في المدرسة الابتدائيّة. فكانت زياراته المتكرّرة للإقامة في منزل خالته جوان مناسبة لاستئناف الصداقة بينهما، في ظلّ العلاقة التي جمعت بين جوان ووالدة إلسا، زميلتَي الصفّ القديمتين.

أمّا نِك ذو الشعر الكستنائي الذي بدأ ينحسر في عامه العشرين، فقد تعرف إليه سترايك في سنته الثانوية الأخيرة في هاكني. إلتقى نِك وإلسا في حفلة عيد مولد سترايك الثامن عشر في لندن، وارتبطا بعلاقة غرامية لمدّة عام قبل أن ينفصلا ليذهب كلّ منهما إلى جامعة. في عمر الخامسة والعشرين التقيا مجدّدًا، وكانت إلسا مخطوبة لزميلها في المحاماة ونِك يقابل زميلة له في الطبّ. ما هي إلّا أسابيع حتّى أنهيا علاقتيهما، وتزوّجا بعد عام، وكان سترايك إشبينهما.

عاد سترايك إلى منزلهما عند العاشرة والنصف مساء. وحالما أغلق الباب الأماميّ رحّب به نِك وإلسا من غرفة الجلوس، ودعواه إلى أن يأكل من صينيّة الدجاج بالكاري التي لا تزال شبه ملأى.

– ما هذا؟ سألهما سترايك وهو ينظر مرتبكًا إلى أعلام إنكليزيّة طويلة، وأوراق تحمل كتابات ورسومًا، ونحو مئتَي كوب بلاستيكيّ أحمر وأبيض وأزرق في كيس نايلون كبير.

– نساعد على تزيين الشارع لمناسبة الزفاف الملكيّ، قالت إلسا.

– ربّاه! قال سترايك واجمًا، وهو يملأ طبقه بالدجاج الفاتر.

– سيكون الأمر مسلّيًا! يجب أن تأتي.

رماها سترايك بنظرة جعلتها تضحك ضحكة مكبوتة.

– هل كان يومك جيّدًا؟ سأله نِك وهو يناوله علبة بيرة.

– لا، أجاب سترايك وقد أخذ منه البيرة بامتنان. خسرتُ مهمّة أخرى، ولم يبقَ لي سوى زبونين.

عبّر الزوجان عن تعاطفهما بتأوّه خافت، ثمّ لاذا بالصمت وتركاه يأكل. كان سترايك متعبًا ومحبطًا، وقد أمضى رحلة العودة بالمترو كلّها مفكّرًا في حاله. فالساق المبتورة تركت، وكما توقّع، تأثيرًا مدمّرًا على المؤسّسة التي بذل جهدًا كبيرًا في بنائها. وانتشرت صورته على مواقع الإنترنت وفي صفحات الجرائد، مقترنة بخبر جريمة شنيعة. إستغلّت الصحافة تلك الحادثة لتذكّر العالم بأنّ إحدى ساقَي سترايك مبتورة أيضًا. لم يكن يخجل بهذا الأمر، لكنّه لم يرغب في استغلاله للدعاية. لقد بات اسمه يرتبط بعمل غريب ومنحرف، وتلطّخت سمعته.

– هل من أخبار بشأن الساق؟ سألته إلسا، بعدما التهم كمّية لا بأس بها من الدجاج بالكاري ونصف علبة البيرة. هل وجدت الشرطة شيئًا؟

– سألتقي واردل مساء غد لأستطلع آخر الأخبار، لكن لا يبدو أنّ لديهم الكثير. يركّزون جهودهم على ماللي.

لم يبُح سترايك لنِك وإلسا بتفاصيل حول الرجال الثلاثة الخطيرين الذين يشكّ في كونهم أرسلوا الساق إليه بدافع الثأر. بل ذكر أنّه التقى ذات

مرّة مجرمًا بتر عضوًا بشريًا وأرسله بالبريد. فكان بديهيًا أن يقتنعا بوجهة نظر واردل في أنّ هذا هو الفاعل المحتمل.

جلس سترايك على أريكة الزوجين الخضراء الوثيرة، وتذكّر للمرّة الأولى أنّ نِك وإلسا التقيا جف ويتايكر، خلال حفلة عيد مولد سترايك الثامن عشر في حانة بل في وايتشابل. كانت أمّه حاملًا في شهرها السادس يومذاك. حاولت خالته جوان أن تخفي استياءها بقناع من السعادة المصطنعة. أمّا زوجها تيد فقد عجز، برغم مهارته في تلطيف الاحتقان، عن لجم غضبه واشمئزازه حين قاطع ويتايكر الحفلة بوقاحة ليغنّي إحدى أغانيه الخاصّة، وهو تحت تأثير المخدّرات. كان غيظ سترايك لا يوصف يومذاك، وتمنّى أن يكون في أكسفورد، بعيدًا عن كلّ ما يجري حوله.

لعلّ نِك وإلسا لا يتذكّران ذلك، فقد تاها تلك الليلة في سحر اللقاء المفاجئ والعميق الذي جذب كلًّا منهما إلى الآخر، مذهولين عن كلّ ما حولهما.

– أنت قلق بشأن روبن، قالت إلسا بنبرة بدت أقرب إلى التأكيد منها إلى السؤال.

غمغم سترايك موافقًا، ففمه كان مليئًا بالخبز. صحيح. لقد تسنّى له في خلال الأيّام الأربعة الأخيرة أن يفكّر في الأمر. لا ذنب لها في هذه القضيّة، لكنها باتت نقطة ضعف بالنسبة إليه. إشتبه في أنّ المجرم على معرفة بذلك، وإلّا لماذا أرسل الساق إليها، بعدما كان ينوي إرسالها إليه هو؟ لو أنّها كانت رجلًا لما شعر سترايك بمثل هذا القلق.

لم ينسَ سترايك أنّ روبن لا تزال ثمينة جدًّا بالنسبة إلى مؤسّسته. فقد نجحت مرارًا في حمل شهود متردّدين على الكلام، حيث لم تنفع معهم ضخامة جثّته ولا ملامحه المخيفة. كما أنّ سحرها ودماثة أخلاقها لطالما بدّدا الشكوك، وفتحا الأبواب، ومهدّا السبيل أمام سترايك مرّات كثيرة. كان يعلم أنّه مدين لها. وتمنّى في تلك اللحظة أن تبتعد وتختبئ حتّى يتمّ القبض على مُرسل الساق المبتورة.

– أحبّ روبن، قالت إلسا.

– الجميع يحبّ روبن، غمغم سترايك مجدّدًا وفمه مليء بالخبز.

إنّها الحقيقة: أخته لوسي، وأصدقاؤه الذين يتصلون به إلى المكتب، والزبائن... كلّهم يشدّدون على التعبير له عن إعجابهم بالمرأة التي تعمل معه. لكنّه استشفّ آنذاك في جملة إلسا نبرة تحرٍّ جعلته يُبعد الحديث عن أيّ إطار شخصيّ. وازداد شعوره بالاستياء حين طرحت عليه سؤالها التالي:

– كيف الحال مع إلين؟

– جيّدة جدًّا.

– ألا تزال تحاول إخفاءك عن زوجها السابق؟

– إلين لا تعجبك، أليس كذلك؟ ردّ سترايك الذي قرّر أن يتسلّى بقلب الأدوار ويطرح هو الأسئلة.

لم يكن نفي إلسا المرتبك غريبًا عمّا توقّعه سترايك من المرأة التي يعرفها منذ ثلاثين عامًا:

– بلى، تعجبني... أعني، لا أعرفها جيّدًا، لكنّها تبدو... بأيّة حال، أنت سعيد معها، وهذا هو المهمّ.

ظنّ سترايك أنّ ما قيل كافٍ للجم إلسا عن الحديث عن روبن. – لم تكن الأولى، بين أصدقائه، لتقول إنّه وروبن متّفقان جيّدًا، لذلك أليس من احتمال...؟ أما فكّر أبدًا...؟ – لكنّ إلسا محامية وليس من السهل ثنيها عن متابعة استجواب تبدأ به.

– لقد أجّلت روبن زفافها، صحيح؟ هل حدّدا موعدًا جديدًا؟

– نعم، أجاب سترايك، في الثاني من تموز/يوليو. ستأخذ إجازة أسبوع طويلة لتذهب إلى يوركشاير وتقوم بما يجب القيام به استعدادًا للزفاف. وستعود يوم الثلثاء.

الصدفة فقط شاءت أن يتّفق وماثيو على الإصرار على أن تأخذ روبن إجازةً يومي الجمعة والاثنين. فقد طمأنته فكرة أنّها ستكون بعيدة أربعمئة كيلومتر عن لندن وفي منزل والديها. كانت خيبة أملها كبيرة لأنّها لن تستطيع مرافقته إلى أولد بلو لاست في شورديتش للقاء واردل، ومع ذلك شعر سترايك بأنّه استشفّ في صوتها أثر ارتياح لنيلها تلك الإجازة.

إمتعضت إلسا قليلًا حين علمت أنّ روبن لا تزال تنوي الزواج برجل غير سترايك. ولكن قبل أن تقول شيئًا، أزّ هاتف سترايك في جيبه. كان المتّصل غراهام هاردكاير، زميله القديم في فرع الاستقصاء الخاصّ.

– آسف، قال سترايك وهو يضع طبق الدجاج من يده. عليّ أن أردّ على هذا الاتّصال. إنّه مهمّ... هاردي!

– أتستطيع أن تتحدّث يا أوغي؟ سأل هاردكاير صديقه الذي سار إلى الباب الأماميّ.

– الآن أستطيع، قال سترايك بعدما بلغ نهاية ممرّ الحديقة بخطوات قليلة، وخرج منها إلى الشارع المظلم ليسير ويدخّن سيجارة. ماذا تحمل إليّ؟

– بصراحة، قال هاردكاير الذي بدا متوترًا، من الأفضل أن تأتي إلى هنا وتلقي نظرة بنفسك. الرقيبة المسؤولة عنّي امرأة مزعجة حقًّا، ونحن لا نتّفق جيّدًا. إذا بدأتُ بإرسال معلومات من هنا وتناهى إليها الأمر...

– وإذا أتيتُ إليك؟

– تعال في الصباح الباكر. سأترك الملفّات مفتوحة على الكومبيوتر بشكل يوحي وكأنّني نسيتُ إطفاءه.

سبق لهاردكاير أن أطلع سترايك على معلومات يُفترض بها أن تكون سريّة. لكنّه الآن حديث العهد في الشعبة 35. فلم يفاجأ سترايك بعدم رغبته في تعريض منصبه إلى الخطر.

إجتاز المحقّق الطريق، وجلس على سور حديقة واطئ، مقابل منزل صديقيه. أشعل سيجارة وسأل:

– أيستحق الأمر عناء السفر إلى سكوتلندا؟

– هذا وقف على ما تبحث عنه.

– عناوين قديمة، صلات عائليّة. سجّلات طبية ونفسية أيضًا. سُرّح بروكبانك لسبب طبيّ. هل كان ذلك في العام 2003؟

– صحيح، أجاب هاردكاير.

سمع سترايك خلفه صوتًا جعله يقف ويلتفت. فرأى مالك السور حيث كان جالسًا يرمي نفاياته في صندوق النفايات. كان رجلًا قصير القامة له من

العمر ستون عامًا تقريبًا. رأى سترايك على ضوء مصباح الشارع تعبير استياء على وجه الرجل ما لبث أن تحوّل إلى ابتسامة استرضاء، بعدما رأى ضخامة جثّة المحقّق. سار هذا الأخير مبتعدًا، ومرّ بمنازل محاطة بأشجار وشتول مورقة تتموّج في نسيم الربيع. لن تلبث الأعلام أن تملأ هذا المكان احتفالًا بزفاف ملكيّ جديد. يوم زفاف روبن لن يكون بعيدًا.

– أظنّك لا تملك معلومات كثيرة حول لاينغ، قال سترايك بنبرة استفسار. خدمته في الجيش كانت أقصر من خدمة بروكبانك.

– لا، لكنّ أمره غريب. قال هاردكاير.

– أين ذهب بعد السجن العسكريّ؟

كان جميع الجنود السجناء يودعون في السجن العسكريّ في كولشستر، قبل نقلهم إلى سجن مدنيّ.

– إلى سجن إلملي. بعد ذلك اختفى كلّ خبر عنه. عليك البحث في دوائر إطلاق سراح السجناء المشروط.

– نعم، قال سترايك وهو ينفث دخان سيجارته في الليلة المزيّنة بالنجوم.

كان هاردكاير يعرف تمامًا أنّه لم يعد شرطيًا، ولا يحقّ له، شأنه شأن كلّ المواطنين، الاطّلاع على سجلات السجناء الذين خرجوا بإطلاق سراح مشروط. ثمّ سأل صديقه:

– من أي منطقة في سكوتلندا أتى يا هاردي؟

– من ملروز. بحثتُ في سجلّاته فرأيتُ اسم والدته وعنوانها في ملفّ التطوّع.

– ملروز، كرّر سترايك مفكّرًا.

ثمّ فكّر في الزبونين الباقيين لديه: الأحمق الثريّ الذي تثيره محاولة إثبات كونه عشيقًا مخدوعًا، والزوجة الثرية التي تدفع لسترايك أجرًا لقاء جمعه أدلّة تثبت أنّ زوجها السابق يتعقّب ولديهما. هذا الأب كان الآن في شيكاغو، أمّا بلاتينوم فمن السهل تركها بلا مراقبة أربعًا وعشرين ساعة.

طبعًا، يبقى هناك احتمال أنّ أيًّا من الرجال الذين يشكّ بهم لا علاقة له بالساق، وأنّ الأمر ليس إلّا في مخيّلته.

A harvest of limbs حصاد من الأطراف...

– كم تبعد ملروز عن إدنبره؟

– نحو ساعة أو ساعة ونصف بالسيّارة.

رمى سترايك بسيجارته في المجرور.

– هاردي، يمكنني القدوم مساء الأحد بالقطار، فأمرّ بالمكتب صباح الاثنين باكرًا. ثمّ أذهب إلى ملروز، لأرى إن كان لاينغ عاد إلى عائلته، أو إذا كانوا يعرفون مكانه.

– فكرة جيّدة. إذا أبلغتني بموعد وصولك سآتي بك من المحطّة يا أوغي. وفي بادرة سخاء أضاف هاردكاير: وإذا كنت ستأتي إلى هنا ليوم واحد، سأعيرك سيّارتي.

لم يعد سترايك فورًا إلى صديقيه الفضوليّين وطبق الدجاج البارد. بل دخّن سيجارة أخرى وسار في الشارع الهادئ مفكّرًا. ثمّ تذكّر أنّ عليه مرافقة إلين لحضور حفلة موسيقيّة في مركز ساوثبانك مساء الأحد. لم يكن من عشّاق الموسيقى الكلاسيكيّة، لكنّها صمّمت على تغيير ذلك. نظر إلى ساعته. الوقت غير مناسب الآن للاتّصال وإلغاء الموعد. عليه ألّا ينسى الاتّصال بها في الغد.

بطريق عودته إلى المنزل، سرحت أفكاره نحو روبن. لم تكن تتكلّم إلّا قليلًا عن الزفاف الذي لا يفصلها عنه سوى شهرين ونصف. فقط حين سمعها تخبر واردل عن طلبيّة الكاميرات القابلة للاستعمال مرّة واحدة، تذكّر أنّها ستصبح قريبًا جدًّا السيّدة ماثيو كانليف.

لا يزال لديّ وقت، فكّر. لأجل لماذا؟ لم يوضح ذلك، ولا حتّى لنفسه.

12

... the writings done in blood[1].

Blue Öyster Cult, 'OD'd on Life Itself'

قد يعتبر رجال كثيرون أنّ مهمّة مدفوعة الأجر وتقضي بملاحقة فتاة شقراء مثيرة في أنحاء لندن هي تسلية ممتعة، غير أنّ سترايك سئم تعقّب بلاتينوم. مكث ساعات في شارع هاوتون، حيث تسنّى له أن يرى بين الحين والآخر الراقصة الروسيّة تمرّ على الجسر الزجاجيّ والفولاذيّ المعلّق والمؤدّي إلى كليّة الاقتصاد، متّجهة إلى المكتبة. وحوالى الرابعة بعد الظهر، تبعها إلى عملها في ملهى سبيرمينت راينو. ثمّ انصرف للقاء واردل عند السادسة، واثقًا بأنّ رايفن ستتّصل به إذا ما قامت بلاتينوم بشيء غير لائق.

أكل شطيرة في متجر قريب من الحانة حيث تواعدا على اللقاء. رنّ هاتفه، ولكنه حين رأى أنّها أخته، ترك الاتّصال للبريد الصوتيّ. عرف أنّ عيد مولد ابنها جاك بات قريبًا. لكنّه لا ينوي الذهاب إلى حفلته. وخصوصًا بعد المرّة الأخيرة التي لم ينسَ فيها ما عاناه من فضوليّة الأمّهات صديقات لوسي، وصراخ الأطفال المتحمّسين الذي يمزّق الآذان.

[1] ... الكتابة بالدم.

يقع مبنى أولد بلو لاست عند نهاية شارع غرايت إيسترن في شورديتش. وهو مبنى حجري ضخم من ثلاث طبقات، ذات واجهة مقوّسة ناتئة فوق الرصيف. تذكّر سترايك أنّه كان في الماضي ملهى للتعرّي وماخورًا، وأنّ أحد أصدقائه زعم أنّه مارس الجنس هناك للمرّة الأولى مع امرأة بعمر والدته.

رأى في الداخل لافتة تعلن عن تحويل أولد بلو لاست إلى نادٍ للموسيقى. وكان البرنامج المسائي يقدّم، اعتبارًا من الثامنة، عروضًا حيّة لفرق Islington Boys' club، وRed Drapes، وIn Golden Tears، وNeon Index. إرتسمت على شفتيه تكشيرة اشمئزاز ودخل إلى قاعة أرضيّتها خشبيّة داكنة، وفيها بار ارتفعت خلفه مرآة ضخمة قديمة الطراز، عليها إعلانات مكتوبة بحروف ذهبيّة لأصناف من البيرة لم تعد موجودة. تدلّت من السقف المرتفع مصابيح زجاجيّة كرويّة الشكل، فأضاء نورها جمعًا من الشبّان والشابّات، يبدو الكثيرون بينهم طلاّبًا، بملابس تدلّ على صيحات أزياء لا يتحمّلها سترايك.

كانت والدته عاشقة للفرق الموسيقيّة المشهورة التي تقدّم عروضها في الملاعب الرياضيّة الكبرى. ومع ذلك فقد رافقها في طفولته إلى كثير من الحفلات الشبيهة بهذه، لمشاهدة عروض بعض الفرق التي تضمّ أصدقاء لها. عادة ما كانت تلك الفرق تختفي بسبب خلافات أفرادها، لتتشكّل مجدّدًا وتظهر في حانات أخرى بعد ثلاثة أشهر. تعجّب سترايك من اختيار واردل نادي أولد بلو لاست مكانًا للقائهما، بعدما كان يفضّل حانة فيذرز القريبة من سكوتلنديارد. لكنّه أدرك السبب حين اقترب من الشرطيّ الواقف إلى البار وفي يده كوب بيرة.

– زوجتي تحبّ Islington Boys' club، وستلاقيني إلى هنا بعد العمل.

لم يسبق لسترايك أن التقى زوجة واردل قطّ، ولا خطر بباله أن يرسم عنها صورة في ذهنه. ولكنّه لو فعل، لتخيّلها مزيجًا من امرأتين: الأولى هي بلاتينوم (لأنّ عينَي واردل تلاحقان دائمًا السمرة المزيّفة والملابس الفاضحة)؛ والثانية واسمها هيلي، وهي زوجة الشرطيّ اللندنيّ الوحيدة التي تعرف إليها

سترايك، وكان همّها الأساسيّ أولادها ومنزلها وأخبار الفضائح الاجتماعية. لكنّ إعجاب زوجة واردل بفرقة موسيقيّة مغمورة يكرهها سترايك برغم أنّه لم يسمع باسمها قطّ، جعله يظنّها امرأة أكثر إثارة للاهتمام ممّا توقّعه.

– ماذا لديك من أخبار؟ سأله سترايك، بعدما أحضر كوب بيرة، مستبقًا تزايد عدد الزبائن أمام البار. إبتعد الرجلان تلقائيًا متّجهين إلى آخر طاولة خالية في القاعة.

– خبراء الأدلّة الجنائيّة أرسلوا تقريرهم، قال واردل وهما يجلسان. الساق تعود لامرأة بين منتصف العقد الثاني ومنتصف العقد الثالث من عمرها. كانت ميتة حين بُترت ساقها، ولكن ليس قبل وقت طويل، كما يشير إليه تخثّر الدم. حُفظت الساق في ثلاّجة بين ساعة بترها، وساعة تسليمها إلى صديقتك روبن.

بين منتصف العقد الثاني ومنتصف العقد الثالث من العمر. وفقًا لحسابات سترايك، فإنّ بريتاني بروكبانك يجب أن تكون في عامها الحادي والعشرين الآن.

– ألا يمكنهم تحديد العمر بدقّة أكبر؟

هزّ واردل رأسه سلبًا.

– هذا كلّ ما يمكنهم قوله. لماذا؟

– قلت لك: كان لبروكبانك ابنة من زوجته.

– بروكبانك، قال واردل بنبرة تدلّ إلى أنّه يجهل الاسم.

– أحد الرجال الثلاثة الذين أشتبه في كونهم أرسلوا الساق، قال سترايك، وقد نفد صبره. إنّه أحد جرذان الصحراء السابقين. رجل أسمر ضخم الجثّة، له أذن منتفخة...

– حسنًا، حسنًا، قال واردل الذي اغتاظ في الحال. أقرأ أمامي أسماء كثيرة جدًّا. بروكبانك. كان على ذراعه وشم...

– ذاك هو لاينغ، قال سترايك. إنّه السكوتلنديّ الذي أودعتُه السجن لعشر سنوات. بروبانك هو ذاك الذي زعم أنّني سببت له ضررًا في الدماغ.

– أجل، أجل.

– بريتاني، ابنة زوجته، كانت تحمل ندبة قديمة على ساقها. قلت لك ذلك.

– نعم، نعم، أتذكّر.

شرب سترايك من كوبه ليكتم ردًّا ساخرًا. لو كان الرجل الجالس قبالته غراهام هاردكاير زميله القديم في فرع الاستقصاء الخاصّ، لا واردل، لأخذ شكوك سترايك على محمل الجدّ. منذ البداية اتّسمت علاقته بواردل بالحذر، الذي طغت عليه مؤخّرًا الرغبة في المنافسة. كان يعتبر واردل محققًا أفضل من كثيرين من أفراد الشرطة الذين التقاهم، غير أنّه شديد التمسّك بنظريّاته الخاصّة، ولا يقبل بالإصغاء إلى نظريّات سترايك.

– هل قالوا شيئًا عن الندبة على ربلة الساق؟

– قالوا إنّها قديمة وتعود إلى ما قبل الوفاة بكثير.

– اللعنة، قال سترايك.

لعلّ الندبة القديمة غير مهمّة بالنسبة إلى خبراء الأدلّة الجنائيّة، لكنّها ذات أهمّية كبرى بالنسبة إليه. آنذاك حدث ما كان يخشاه، فظهرت على وجهه علامات قلق شديد. ولم يستطع واردل، الذي من عادته عدم تفويت فرصة للسخرية من سترايك، إلّا أن يشعر بشيء من التعاطف أمام ملامح المحقّق المنقبضة.

– يا صديقي، قال مستخدمًا هذه الكلمة للمرّة الأولى. الفاعل ليس بروكبانك، بل ماللي.

كان سترايك يخاف هذا الاستنتاج، وأنّ مجرّد ذكر ماللي سيجعل واردل يركّز كلّ جهوده على البحث عنه، ويهمل المشتبه بهم الآخرين. ففكرة القبض على رجل عصابات مشهور مثل ماللي كانت تثير حماسته الشديدة.

– ما دليلك؟ سأله سترايك فجأة.

– تقوم عصابة هارينغاي بتسهيل عمل عاهرات من أوروبا الشرقية في لندن ومانشستر. إتصلت بشرطة الآداب. داهموا ماخورًا قريبًا من هنا الأسبوع الماضي واعتقلوا فيه فتاتين أوكرانيّتين. وأضاف واردل بصوت أكثر انخفاضًا: ذكرت الفتاتان للشرطة في إفادتيهما إنّ إحدى صديقاتهما ظنّت

نفسها تأتي إلى المملكة المتّحدة للعمل في عرض الأزياء. فرفضت ممارسة الدعارة، حتّى حين كانوا يوسعونها ضربًا. جرّها الحفّار من شعرها إلى خارج الماخور منذ أسبوعين، ولم تُشاهَد منذ ذلك الحين. لا هي ولا الحفّار.

– هذا ما يفعله الحفّار كلّ يوم، لكنّ الأمر لا يعني أنّ الساق لها. هل سمعه أحد يذكر اسمي؟

– نعم، قال واردل بنبرة انتصار.

خفض سترايك الكوب بعدما كان رفعه ليشرب. لم يكن يتوقّع تلك الإجابة.

– حقًّا؟

– إحدى الفتاتين تؤكّد أنّها سمعت الحفّار يتحدّث عنك منذ وقت غير طويل.

– بأيّ سياق؟

تمتم واردل بكلمة متعدّدة المقاطع الصوتيّة، هي في الوقع اسم مالك كازينو روسيّ ثريّ كلّف سترايك بمهمّة تحقيق في نهاية العام السابق. عبس هذا الأخير. حتّى لو علم الحفّار بأنّ عملًا جمع سترايك بمالك الكازينو، فلن يكتشف أنّ شهادة سترايك هي التي أودعته السجن. كلّ ما أكّدته هذه المعلومة الجديدة للمحقّق الخاصّ هو أنّ زبونه الروسيّ يعمل في بيئة موبوءة، وهو ما كان يعرفه.

– وما تأثير عملي لحساب أرزاماستسيف على الحفّار؟

– أين تريد أن تبدأ؟ قال واردل، بنبرة شعر سترايك معها أنّ الشرطيّ يحاول إضفاء شيء من الغموض. العصابة متورّطة في أمور كثيرة. ولدينا هنا رجل عرفتَه، سبق له أن أرسل طرفًا بشريًّا بالبريد، وقد يكون ناقمًا عليك. ثمّ اختفى ومعه فتاة شابّة، لتستلم بعد ذلك بفترة قصيرة ساقًا مبتورة تعود لفتاة شابّة.

– الأمر يبدو مقنعًا إذا ما رسمت الصورة على هذا النحو، قال سترايك الذي بقي غير مقتنع أبدًا. هل تحقّقتَ من أمر لاينغ وبروكبانك وويتايكر؟

– طبعًا، قال واردل، لديّ مَن يعمل على تحديد أماكن وجودهم.

أمل سترايك أن يكون ما قاله واردل حقيقيًا، لكنّه امتنع عن التشكيك به خشية أن يعرّض ذلك إلى الخطر علاقته الوديّة بواردل.

– لدينا فيديو للساعي أيضًا، قال واردل.

– وماذا فيه؟

– زميلتك شاهدة جيّدة، قال واردل. الدرّاجة الناريّة كانت فعلًا هوندا، ولكنّ لوحتها مزيّفة. ملابسه كانت كما وصفتها تمامًا. إنطلق نحو الجنوب الغربيّ قاصدًا مستودع بريد حقيقيًا. آخر مرّة صوّرته الكاميرا كانت في ويمبلدون. وبعد ذلك اختفى كلّ أثر له أو للدرّاجة الناريّة. ولكن كما قلت، لوحتها مزيّفة، وقد تكون في أيّ مكان.

– لوحتها مزيّفة، كرّر سترايك. لقد خطّط للأمر بشكل ممتاز.

كانت الحانة تمتلئ بالزبائن، لأن وقت الحفلة الموسيقيّة يقترب، وتزاحم الناس عند الباب المؤدي إلى الطابق الأوّل. سمع سترايك صوتًا يعرفه جيّدًا: الصفير الحادّ للارتداد الصوتيّ في الميكروفون.

– عندي لك شيء آخر، قال سترايك بدون حماسة. وعدتُ روبن بأن أعطيك نسخة.

كان سترايك قد عاد إلى مكتبه قبل انبلاج فجر ذلك اليوم. وعرف بواسطة جاره صاحب متجر الغيتارات المقابل للمكتب أنّ الصحفيّين الذين مكثوا حتى العشية في محيط المكتب ينتظرون دخوله أو خروجه، ملّوا الانتظار وانصرفوا.

أخذ واردل الرسالتين المنسوختين بآلة تصوير المستندات، وقد بدت عليه الحيرة.

– وصلت الرسالتان في الأشهر القليلة الماضية، قال سترايك. تظنّ روبن أنّ عليك أن تلقي نظرة عليهما. ثمّ سأله وهو يشير إلى كوب واردل شبه الفارغ: أتريد كوبًا آخر؟

قرأ واردل الرسالتين فيما ذهب سترايك لإحضار المزيد من البيرة. كانت الرسالة التي تحمل توقيع «ر. ل.» لا تزال في يده حين عاد المحقّق

الخاصّ، الذي أخذ الرسالة الأخرى وقرأ ما كُتب فيها بخطّ طالبة مدرسة واضح تمامًا ومستدير الحروف:

«... وأنّني لن أكون على حقيقتي، ولن أكتمل حقًّا إلّا حين تزول ساقي. لا أحد يفهم أنّ هذه الساق ليست ولن تكون أبدًا جزءًا منّي. يصعب جدًّا على عائلتي أن تتقبّل حاجتي إلى بترها. يظنّون أنّ المشكلة في عقلي، لكنّك تفهم...»

أنت مخطئة، فكّر سترايك، وهو يلقي نسخة الرسالة على الطاولة. لاحظ وهو يفعل ذلك أنّها تعمّدت كتابة عنوانها في شيبيرد بوش بخطّ واضح جدًّا، لئلاّ يضيع الردّ الذي تتوقّعه من سترايك، حيث سينصحها بالطريقة الأفضل لقطع ساقها. كانت الرسالة تحمل توقيعًا باسم كيلسي ولكن بدون شهرة.

كان واردل مستغرقًا في قراءة الرسالة الأخرى، وأفلتت منه همهمة امتزجت فيها الفكاهة بالاشمئزار.

– اللعنة، هل قرأت هذه؟

– لا، أجاب سترايك.

تجمّع عدد أكبر من الشبّان في القاعة. لم يكن وواردل الوحيدين اللذين تجاوزا سنّ الثلاثين بين الموجودين، لكنّهما كانا بلا شكّ من أكبرهم سنًّا. نظر سترايك إلى شابّة تبحث عن رفيقها. كانت جميلة وشاحبة البشرة، تبرّجت كنجمة سينمائيّة من أربعينيّات القرن العشرين، بحاجبيها الأسودين الضيّقين، وأحمر الشفاه القرمزيّ، وشعرها المصبوغ باللون الأزرق والمرفوع فوق رأسها. وتابع يقول لواردل:

– روبن تقرأ رسائل المخبولين، وتعطيني موجزًا عنها إذا ظنّت أنّ ذلك ضروريّ.

أريد أن أدلّك بقيّة ساقك، قرأ واردل بصوت عالٍ. أريدك أن تستعملني كعكّاز حيّ. أريد... تبًّا! هذا ليس حتّى ممكنًا من الناحية الجسديّة. وأضاف بعد أن قلب الرسالة:

– «ر. ل.» أيمكنك قراءة العنوان؟

– لا، قال سترايك وهو يمعن النظر إليها.

كان العنوان مكتوبًا بخطّ صغير جدًّا وصعب القراءة. والكلمة الوحيدة الواضحة فيه كانت والثامستو.

– هل نسيت أنّك قلت لي «سأكون بجانب البار» يا إريك؟

أتت المرأة ذات الشعر الأزرق والشفتين القرمزيّتين إلى طاولتهما، حاملة كأسًا. وكانت ترتدي سترة جلديّة فوق فستان بموضة الأربعينيّات.

– آسف يا عزيزتي، كنا نتكلّم في أمور العمل، قال واردل، بغير أن يبدو أنّ ملاحظتها أزعجته. وأضاف معرّفًا واحدهما بالآخر: أقدّم لك أبريل زوجتي. كورموران سترايك.

– مرحبًا، قال سترايك، مادًّا نحوها يده الضخمة. لم يكن ليتخيّل قطّ أنّ مظهر زوجة واردل سيكون هكذا. لكنّها، ولأسباب حال تعبه دون تحليلها حينئذ، زادت من إعجابه بواردل.

– أوه، أنت هو! قالت أبريل بابتسامة، فيما رفع واردل نسختَي الرسالتين عن الطاولة، وطواهما ثمّ وضعهما في جيبه. تابعت تقول: كورموران سترايك! سمعت الكثير عنك. هل تبقى لمشاهدة الفرقة تعزف؟

– أشكّ في ذلك، قال سترايك على مضض. فالمرأة كانت جميلة جدًّا.

لم تشأ أبريل أن تتركه ينصرف. قالت له إنّ بعض الأصدقاء سينضمّون إليهما. وما لبث ستّة أشخاص أن وصلوا، بينهم امرأتان غير مرتبطتين. إقتنع سترايك بمرافقتهم إلى الطابق العلويّ، حيث يوجد مسرح صغير ازدحم الجمهور أمامه. قالت أبريل مجيبة عن أسئلته إنّها تعمل في تصميم الأزياء، وأنّها انشغلت يومذاك بتصوير الأزياء لإحدى المجلاّت. ثمّ أضافت بشكل عابر إنّها تزاول أحيانًا رقص البورلِسك.

– بورلسك؟ سألها سترايك بأعلى صوته، فيما دوّى صفير الميكروفون في القاعة من جديد، وعلت من بين المتجمّعين صيحات الاستهجان.

ألا يعني ذلك رقص التعرّي الفنيّ؟ تساءل سترايك، فيما كانت أبريل تخبره أنّ صديقتها كوكو، وهي فتاة ذات شعر أحمر كالطماطم تبتسم له وتهزّ أصابعها، هي أيضًا راقصة بورلِسك.

بدت أبريل ورفاقها ودودين، وبعيدين كلّ البعد عن التباهي الذي يقابله به ماثيو كلّما التقيا. مضت عليه فترة طويلة لم يشاهد خلالها أيّ عرض موسيقيّ حيّ. وطلبت منه كوكو الفتاة القصيرة القامة أن يحملها لترى الموسيقيّين على نحو أفضل...

ولكن، حين اعتلت فرقة Islington Boys’club المسرح، وجد سترايك نفسه يعود بالرغم عنه إلى زمن وأشخاص بذل جهدًا كبيرًا لنسيانهم. رائحة العرق البشعة التي تملأ الجوّ، والصوت المألوف للغيتارات التي يدوزنها العازفون، وضجيج الميكروفون المفتوح، كلّ ذلك كان يستطيع أن يتحمّله، لولا أنّ مظهر المغنّي واختلاط الأنوثة بالذكورة في جسده المهزول ذكّراه بويتايكر.

ما كادت الحفلة تبدأ حتّى أدرك سترايك أنّ عليه الذهاب. ألحان الهافي روك التي عزفتها الفرقة كانت مقبولة. كما أنّ المغنّي الرئيسيّ كان ذا صوت جميل برغم شبهه بويتايكر. لكنّ سترايك سبق له أن عاش طويلًا في هذا الجوّ، مرغمًا. أمّا الليلة فقد كان يملك حريّة الخروج إلى الهواء النقيّ، وهو ينوي ممارسة هذه الحريّة.

صاح بواردل مودّعًا، ولوّح بيده، مبتسمًا، لأبريل التي غمزته ولوحت له بدورها. ثمّ خرج. لم يجد صعوبة في أن يشقّ بجسده الضخم طريقه وسط المتجمّعين المتصبّبين عرقًا. وصل إلى الباب والفرقة تنتهي من عزف أغنيتها الأولى. تلا ذلك تصفيق بدا أقرب إلى زخّة بَرَد فوق سقف معدنيّ. ما هي إلّا دقيقة حتّى كان يسير مبتعدًا، والارتياح يغمره، وسط أصوات السيّارات العابرة.

13

In the presence of another world[1].

Blue Öyster Cult, 'In the Presence of Another World'

صباح السبت، غادرت روبن ووالدتها بسيارة اللاند روفر العائلية القديمة بلدتهما الصغيرة ماشام، قاصدتين خيّاطة الفساتين في هاروغايت التي تهتمّ بتعديل فستان زفاف روبن، لتحويله إلى فستان صيفيّ بعدما تمّ تأجيل الزفاف من كانون الثاني/يناير إلى تمّوز/يوليو.

– نقص وزنك أكثر، قالت لها الخيّاطة العجوز وهي تشكّ الدبابيس في ظهر الجزء الأعلى من الفستان. لا تنحفي كثيرًا، فهذا الفستان مصمّم لجسد ممتلئ قليلًا.

مضى عام وأكثر على اختيار روبن قماش هذا الفستان، المستوحى من أحد تصاميم إيلي صعب. كان والداها، اللذان دفعا ثمنه، عاجزين عن دفع ثمن تصميم باهظ لاضطرارهما أيضًا إلى المساهمة بنفقات زواج ابنهما الأكبر ستيفن، المقرّر بعد ستّة أشهر. حتّى التصميم الذي اختارته روبن، والمعروض بسعر مخفّض، ما كان ممكنًا بالراتب الذي يؤمّنه العمل في مكتب سترايك.

[1] في حضور عالم آخر.

على رغم الإضاءة القويّة في غرفة تبديل الملابس، بدت روبن في المرآة المذهّبة الإطار شاحبة جدًّا، وكانت عيناها مثقلتين ومتعبتين. لم يعد الفستان يعجبها بعد نزع كُمّيه، اللذين كانا يضفيان عليه أناقة كبيرة. ثمّ خُيِّل لها أنّها ربّما ملّت فكرة الفستان الذي بقي طويلًا ينتظر أن ترتديه.

إنبعثت من غرفة تبديل الملابس رائحة موكيت جديد وطلاء تلميع. وفيما راحت ليندا، والدة روبن، تراقب الخيّاطة تشكّ الدبابيس وتثني القماش، كانت الابنة التي أحبطها انعكاس صورتها في المرآة، تحدّق إلى طاولة صغيرة في الزاوية وُضعت عليها تيجان العرائس المرصّعة بالكريستال، والأزهار الاصطناعيّة.

– ذكّريني، هل قرّرنا أيّ تاج سنعتمد؟ سألتها الخيّاطة التي اعتادت التحدّث، كالممرّضات، بصيغة جمع المخاطب. كنّا نفكّر في تاج مرصّع للفستان الشتويّ. صحيح؟ ربّما علينا الآن تجربة تاج من الأزهار يليق بالفستان العاري اليدين والكتفين.

– تاج الأزهار سيكون جميلًا، قالت ليندا موافقة من إحدى زوايا الغرفة.

كان الشبه كبيرًا بين الوالدة والابنة. وعلى رغم أنّ وزن ليندا قد زاد، وخطّ الشيب شعرها الذهبيّ وغير المسرّح، فقد كانت عيناها الزرقاوان شبيهتين جدًّا بعيني ابنتها. كانت تانك العينان تنظران آنذاك إلى روبن بتعبير يختلط فيه القلق بالذكاء، كان سترايك ليجده مألوفًا إلى درجة تثير الضحك.

جرّبت روبن عددًا من تيجان الأزهار الاصطناعيّة لكنّ أيًّا منها لم يعجبها.

– قد أُبقي على تاج الكريستال، قالت.

– أو تاج من الأزهار الحقيقيّة؟ اقترحت ليندا.

– نعم قالت روبن، التي تحمّست فجأة للابتعاد عن رائحة الموكيت، وانعكاس صورتها الشاحبة في المرآة. لنذهب ونرَ ما إذا كان بوسع بائعة الزهور أن تفعل شيئًا.

سُرّت بأن تبقى وحدها في غرفة التبديل لدقائق قليلة. وفيما خلعت فستانها وارتدت الجينز وكنزتها القطنية من جديد، حاولت أن تجد سببًا لاكتئابها. صحيح أنّها أُرغمت على التغيّب عن اجتماع سترايك ووادل، لكنّها رغبت في الابتعاد مسافة تزيد عن ثلاثمئة كيلومتر عن الرجل المقنّع والمرتدي الملابس السوداء، والذي سلّمها ساقًا مبتورة.

ومع ذلك، لم تشعر أنّ مشاكلها زالت. فقد تجدّد الشجار بينها وبين ماثيو في القطار. وكانت هواجسها المتضاعفة تطاردها حتّى هنا، في غرفة تبديل الملابس في شارع جايمس: خسارة المكتب عددًا من الزبائن، الخشية ممّا قد يحدث إذا عجز سترايك عن تأمين راتبها... إنتهت من ارتداء ملابسها ونظرت إلى هاتفها: لا رسائل من سترايك.

بعد ربع ساعة، وقفت بين سلال الميموزا والزنابق. بالكاد كانت تستطيع الردّ بغير كلمتي «نعم» أو «لا» على أسئلة البائعة المنهمكة باختيار أصناف مختلفة من الزهور، تحملها لتجربتها الواحد بعد الآخر على رأس روبن، فيما قطرات الماء الخضراء تسيل من سيقان الزهر وتسقط فوق كنزتها العاجيّة اللون.

أخيرًا، وبعدما اختارت روبن تاجًا، قالت ليندا:

– لنذهب إلى بيتيز.

كان بيتيز أوف هاروغايت مقهىً قديمًا ومشهورًا في تلك البلدة التي تتميّز بينابيعها المعدنيّة. تتدلّى أمام واجهته سلال من الزهور، حيث يقف صفّ الزبائن المنتظرين تحت خيمة سوداء ذات سقف زجاجيّ وزخرفات ذهبيّة. ديكوره الداخليّ إنكليزيّ الطابع تمامًا: المصابيح الأسطوانية الشبيهة بعلب الشاي ذات الرسوم الجميلة، وأباريق الشاي المزخرفة، والمقاعد الوثيرة، وأزياء النادلات المطرّزة. كانت روبن تعشق هذا المكان، وكم أحبّت في طفولتها النظر إلى الرفوف التي صُفّت عليها قطع حلوى المرزبانيّة المصنوعة على هيئة حيوانات، فيما أمّها تشتري حلوى الفاكهة الفاخرة الموضّبة في العلب المعدنيّة.

جلست يومذاك بجانب النافذة محدّقة إلى الخارج حيث أحواض الزهور الملوّنة والشبيهة بالأشكال الهندسيّة التي يصنعها الأطفال بالعجائن. ورفضت أن تأكل، مكتفية بطلب إبريق شاي. من جديد نظرت إلى هاتفها. لا شيء.

– هل أنت بخير؟ سألتها أمّها.

– بخير. أبحث فقط عن أخبار جديدة.

– عمَّ؟

– عن الساق، قالت روبن. سترايك التقى واردل، الشرطيّ، مساء أمس.

– أوه، قالت ليندا.

ثمّ ساد بينهما الصمت حتّى وصل الشاي.

طلبت ليندا كعكة فات راسكال، وهي من أنواع الكعك الكبرى لدى بيتيز. طلتها بالزبدة ثمّ سألت ابنتها:

– أنت وكورموران ستحاولان البحث عمّن أرسل الساق، أليس كذلك؟

قالت الأمّ ذلك بنبرة جعلت روبن تجيب بحذر:

– نحن نهتمّ فقط بما تفعله الشرطة. هذا كلّ شيء.

– آه، قالت ليندا وهي تمضغ الحلوى، وتراقب روبن.

مزاج روبن السريع الانفعال جعلها تشعر بالذنب. كان فستان الزواج باهظ الكلفة، ولم يكن تصرّفها تجاه أمّها يعبّر عن أيّ امتنان.

– أعتذر عن إجابتي الانفعاليّة.

– لا بأس.

– ماثيو لا يكفّ عن انتقادي على العمل في مكتب كورموران.

– نعم، سمعنا شيئًا من هذا مساء أمس.

– ربّاه يا أمّي! آسفة!

لم يخطر ببال روبن أنّ شجارها وماثيو قد أيقظ والديها. فالجدال الذي بدأ في طريقهما إلى ماشام، وعُلِّق في خلال العشاء مع والديها، عاد ليشتعل في غرفة العائلة بعدما أوى مايكل وليندا إلى النوم.

– تردّد اسم كورموران كثيرًا، أليس كذلك؟ أظنّ ماثيو...

– ليس قلقًا، قالت روبن.

لا شكّ بأنّ ماثيو يعتبر عمل روبن بمثابة مزحة. ولكنّه، وحين يضطرّ إلى أن يأخذه على محمل الجدّ، كما في حادثة إرسال الساق المقطوعة، فالشعور بالغضب، لا بالقلق، هو ما كان يعتريه.

– الأحرى به أن يقلق، قالت ليندا. أحدهم أرسل إليك ساق امرأة ميتة. ومنذ مدّة قصيرة، اتّصل بنا ماثيو قائلًا إنّك في المستشفى مصابة برضوض. أنا لا أطلب منك أن تستقيلي! أضافت غير آبهة بتعبير اللوم الذي ارتسم على وجه روبن. أعرف أنّك تريدين هذا العمل! بأيّة حال، تابعت تقول وهي تضع نصف الكعكة في يد ابنتها التي لم ترفضها، سؤالي ليس «هل يشعر ماثيو بالقلق؟»، بل «هل يشعر بالغيرة؟»

شربت روبن من فنجانها. أحسّت بقوّة الطعم التي تميّز شاي بيتي بلند. خطر ببالها أن تأخذ معها إلى المكتب بضعة أكياس من هذه الماركة التي لا تجدها في سوبرماركت وايتروز حيث تتسوّق عادة. كان سترايك يحبّ الشاي القويّ الطعم.

– نعم، ماثيو يشعر بالغيرة، قالت أخيرًا.

– أيملك سببًا لذلك؟

– طبعًا لا! ردّت روبن بحدّة. لقد شعرت بالخيانة. فأمّها كانت دائمًا إلى جانبها، دائمًا...

– إذًا فلا حاجة إلى الغضب، قالت ليندا غير مبالية. لم ألمّح إلى أنك فعلتِ ما ليس عليك فعله.

– جيّد، قالت روبن وهي تأكل الكعكة بحركة آليّة. لأنّني لم أفعل شيئًا. إنّه ربّ عملي لا أكثر.

– وصديقك، قالت ليندا، كما يظهر من أسلوبك في محادثته.

– نعم، قالت روبن. لكنّ الصدق أرغمها على أن تضيف: إلّا أنّها ليست صداقة عاديّة.

– لماذا؟

– إنّه لا يحبّ التكلّم في الأمور الشخصيّة. لا يمكن انتزاع كلمة واحدة منه.

لم يكن سترايك يتحدّث طوعًا عن حياته الخاصّة أبـدًا، ما خلا تلك الأمسية الوحيدة التي لا تُنسى، حين سكر حتّى عجزت ركبتاه عن حمله. لكنّها أمسية نادرًا ما عادا إلى الحديث عنها.

– ولكنّكما متفّقان جيّدًا؟

– نعم، على أتمّ اتّفاق.

– كثير من الرجال يصعب عليهم أن يعرفوا أنّ نسائهم على أتمّ اتّفاق مع رجال آخرين.

– وماذا أفعل؟ أعمل فقط مع نساء؟

– لا، قالت ليندا. من الواضح أنّ ماثيو يشعر بأنّه مهدّد.

كانت روبن تعتقد أحيانًا أنّ أمّها آسفة لكون ابنتها لم تعاشر عددًا أكبر من الرجال قبل أن ترتبط بماثيو. كانت روبن الابنة الوحيدة لليندا، وقريبة جدًّا منها. وفي تلك اللحظة، ووسط رنين الصحون والملاعق وضجيج المطعم حولهما، خشيت أن تقول لها ليندا إنّ الوقت لم يفُت بعد على العودة عن قرار الزواج إذا أرادت. برغم شعورها بالتعب والإحباط، وبرغم الأشهر التي قضياها في الشجار، كانت تعلم أنّها تحبّ ماثيو. كما أنّ الفستان بات جاهزًا، والكنيسة حُجزت، وحفلة الاستقبال دُفعت كلّ تكاليفها تقريبًا. وما عليها إلّا مواصلة المشوار حتّى النهاية.

– على أيّة حال، أنا غير معجبة بسترايك. إنّه على علاقة بإلين توفت، مقدّمة البرامج على راديو ثلاثة.

ألقت روبن بهذه المعلومة على أمل إلهاء أمّها، التي تعشق الإصغاء إلى البرامج الإذاعيّة أثناء الطهو أو الاهتمام بالحديقة.

– إلين تـوفـت؟ أهـي تلك الشقراء الجميلة جـدًّا التي ظهرت على التلفزيون منذ أيّام لتتحدّث عن المؤلفين الموسيقيين الرومانسيين؟

– ربّما، أجابت روبن بفتور واضح. برغم أن خطّتها للتضليل قد نجحت، إلّا أنّها غيّرت الموضوع، وسألت أمّها: إذًا، هل ستتخلّصين من اللاند روفر؟

– نعم، من الواضح أنّها لن تباع إلّا بسعر زهيد جدًّا، إلاّ... وأضافت ليندا التي خطرت لها فكرة مفاجئة: ... إذا كنت وماثيو ترغبان فيها. رسومها عن بقيّة العام مدفوعة، ولا أدري كيف لا تزال تجتاز اختبار المعاينة الميكانيكية بنجاح.

مضغت روبن الحلوى وهي تفكّر. كان ماثيو يتذمّر دائمًا من أنّهما لا يملكان سيّارة، ملقيًا بالسبب على راتبها المتدنّي. كانت سيّارة صهره أودي A3 المفتوحة السقف تثير لديه حسدًا مؤلمًا. أدركت روبن أنّه لن يتحمّس لسيارة لاند روفر قديمة متهالكة، تنبعث منها رائحة كلبهم المبلل والجزمات البلاستيكية. غير أنّ ماثيو جلس عند الواحدة من صباح ذلك اليوم عينه في غرفة العائلة مستعرضًا الرواتب التي يتقاضاها الأشخاص في سنّهما، ليستنتج بتعبير مسرحيّ بأنّ راتب روبن يأتي في أسفل اللائحة. فجأة تخيّلت نفسها تقول لخطيبها بشيء من الخبث: «لكنّنا نملك اللاند روفر يا ماثيو. لا داعي للتوفير لشراء سيّارة أودي الآن!»

– قد تكون السيّارة مفيدة للعمل، قالت بصوت مرتفع. لن يكون سترايك بحاجة لاستئجار سيّارة إذا أردنا الخروج من لندن.

«ممم»، كان ردّ ليندا الوحيد وغير المبالي. لكنّ عينيها ظلّتا تتفرّسان في وجه ابنتها.

عادا إلى المنزل ليجدا ماثيو يعدّ مائدة الطعام مع حميه المقبل. كان من عادته أن يقدّم المساعدة في مطبخ منزل الوالدين أكثر ممّا يفعل في منزله وروبن.

– كيف بدا الفستان عليك؟ سألها في ما اعتبرته روبن محاولة للمصالحة من قبله.

– لا بأس.

– هل الحديث عن فستان الزفاف يجلب سوء الحظّ؟ سألها. ثمّ أضاف حين رأى أنّها لم تبتسم: لا شكّ عندي بأنّك جميلة فيه.

رقّت مشاعر روبن لكلماته، فمدّت إليه يدها. غمزها ماثيو وشدّ على أصابعها.

وضعت ليندا طبقًا من البطاطا المهروسة على الطاولة بينهم، وقالت لماثيو إنّها أعطتهما اللاند روفر.

– ماذا؟ سألها ماثيو بوجه ارتسمت عليه تعابير القنوط.

– كنت تقول دائمًا إنّك تريد سيّارة، قالت روبن، مدافعة عن أمّها.

– نعم، ولكن... اللاند روفر، في لندن؟

– ولمَ لا؟

– ستُفسد صورته، قال مارتن، شقيق روبن، وهو يدخل الغرفة وبيده الجريدة التي قرأ فيها آخر أخبار سباق الجياد لذلك اليوم. وأضاف يقول لشقيقته: لكنّني أعتبرها تناسبك تمامًا يا روب. أتخيّلك فيها مع الطائر الأعرج تذهبان إلى مواقع حدوث الجرائم.

أحسّ ماثيو بانقباض فكّيه.

– إخرس يا مارتن، عاجلته روبن، وهي تنظر إليه شزرًا فيما جلست إلى المائدة. كم أرغب في أن أراك تنعت سترايك بالطائر الأعرج في وجهه.

– قد يضحك، قال مارتن مبتهجًا.

– ألأنكما تتشابهان؟ سألته روبن بنبرة جافّة. ألأنّك تشبهه في سجلّك الحربيّ المدهش، وفي المجازفة بحياتك لأجل الوطن؟

كان مارتن الوحيد بين أبناء إيلاكوت الأربعة الذي لم يرتد الجامعة، والذي لا يزال يقيم مع والديه. وكان دائم التأثّر بأيّ تلميح إلى حياته الخالية من أيّ إنجاز.

– ماذا تعنين بهرائك؟ أيجب أن أكون عسكريًّا؟ سألها غاضبًا.

– مارتن! قالت ليندا بحدّة. صُن لسانك!

– هل تنتقدك لأنّك لا تزال تحتفظ بكلتا ساقيك يا ماثيو؟ سأل مارتن.

ألقت روبن السكّين من يدها، وغادرت المطبخ.

عادت إليها صورة الساق المبتورة، بعظمتها البيضاء البارزة من اللحم الميت، وأظافر القدم الوسخة قليلًا التي ربّما أرادت صاحبتها أن تنظّفها أو تطليها قبل أن يراها أحد...

في تلك اللحظة وجدت نفسها تبكي، للمرّة الأولى منذ أن استلمت العلبة. بكت حتّى تشوّشت أمام عينيها رسوم سجّادة الدرج، وبات عليها أن تتلمّس باب غرفتها بحثًا عن المقبض لتفتحه. سارت إلى السرير وارتمت على بطنها فوق اللحاف النظيف. كانت كتفاها تنتفضان، وصدرها يعلو ويهبط بحركة مضطربة. حاولت أن تخنق شهقاتها بيديها، لئلاّ يأتي أحد إليها. لم ترد أن تضطرّ إلى الكلام أو التفسير. أرادت فقط أن تبقى وحيدة لتفرّج عن مكنونات صدرها التي كتمتها لتنهي أسبوع العمل.

ذكّرها تهكّم مارتن بساق سترايك المبتورة بنكات هذا الأخير بشأن الساق المبتورة. لقد ماتت امرأة في ظروف رهيبة ووحشيّة. ويبدو أنّ أحدًا لا يبالي بالأمر مثل روبن. تلك المجهولة حوّلها الموت والفأس إلى كتلة من اللحم، وإلى لغز يجب حلّه. ومع ذلك شعرت روبن بأنّها الوحيدة التي تتذكّر أنّ تلك الساق كانت لامرأة حيّة، ربّما منذ ما لا يزيد عن أسبوع واحد...

بعد عشر دقائق من البكاء الحارّ، إنقلبت لترقد على ظهرها، وفتحت عينيها الغارقتين بالدموع، ونظرت إلى أرجاء غرفتها القديمة، وكأنّها تستنجدها.

كانت هذه الغرفة في الماضي ملاذها الآمن الوحيد في العالم. وفي الأشهر الثلاثة التي تلت انسحابها المفاجئ من الجامعة، لازمتها وكادت ألّا تغادرها أبدًا، ولا حتّى لتأكل. كانت الجدران ذات لون ورديّ فاقع، أخطأت باختياره وهي بسنّ السادسة عشرة. لكنّها لم تعترف بخطأها، ولم ترد أن تطلب من أبيها إعادة طلائها، فغطّت الجدار الفاقع اللون بأكبر عدد ممكن من الملصقات، منها صورة كبيرة لفرقة Destiny's Child الموسيقيّة قبالة سريرها. على رغم أنّ اللون القديم توارى خلف ورق الجدران الأزرق الهادئ الذي ركّبته ليندا بعدما رحلت ابنتها لتعيش مع ماثيو في لندن، ظلّت روبن تتخيّل بيونسي وكيتي رولاند وميشيل ويليامز يحملقن بها من غلاف أسطوانتهنّ Survivor. كانت تلك الصورة مرتبطة بأسوأ وقت في حياتها ارتباطًا لا يمكن محوه.

لم يكن على الجدران آنذاك سوى صورتين في إطار: صورة لروبن مع رفاق السنة الأخيرة في المدرسة الثانوية، وفي خلفيّة الصورة ماثيو، وهو أوسم فتى عامذاك، يرفض أن يتصنّع مظهرًا مضحكًا أو يعتمر قبّعة سخيفة. والصورة الثانية لروبن في عامها الثاني عشر، تمتطي أنغوس، حصانها البوني القويّ والعنيد الذي كان في مزرعة عمها، والذي أحبّته روبن كثيرًا، على رغم سوء طباعه.

كانت مرهقة. راحت ترمش بعينيها للتخلّص من دموعها، ومسحت وجهها المبلل بأسفل كفّي يديها. تناهت إليها أصوات مكتومة مصدرها المطبخ تحت غرفتها. لا شكّ بأنّ أمّها كانت تنصح ماثيو بتركها وشأنها لبعض الوقت. أملت روبن أن يصغي هذا الأخير إلى النصيحة. وشعرت برغبة في النوم طوال ما تبقّى من نهاية الأسبوع.

مرّت ساعة. لا تزال على السرير، تحملق بنظرات شاردة إلى قمم أشجار الحديقة. دقّ الباب ودخل ماثيو حاملًا فنجان شاي.

– أمّك قالت إنّ فنجانًا من الشاي سيفيدك.

– شكرًا، قالت روبن.

– سنشاهد سباق الجياد معًا. مارتن راهن بمبلغ كبير على بالابريغز.

لم يفه بكلمة واحدة حول شعورها بالضيق، أو حول ملاحظات مارتن الفظّة. حتّى أنّ أسلوبه أوحى بأنّها مَن سبّبت الإحراج لنفسها، وأنّه يأتي ليقدّم لها مخرجًا. علمت في الحال أنّه لا يفهم أبدًا ما أثاره بداخلها منظر ساق تلك المرأة وملمسها. لا. هو فقط يشعر بالإزعاج لأنّ سترايك، الذي لم يلتقِه أحد من عائلة إيلاكوت يومًا، يعود مجدّدًا ليحتلّ مكانًا في محادثات نهاية الأسبوع. من جديد قضيّة ساره شادلوك ومباراة الرغبي.

– لا أحبّ مشاهدة الجياد تحطّم أعناقها، قالت روبن. كما أنّ لديّ عملًا أقوم به.

وقف ماثيو ونظر إليها. ثمّ خرج وأغلق الباب بقوّة جعلته ينفتح من جديد.

جلست روبن في سريرها. سوّت شعرها وأخذت نفسًا عميقًا. ثمّ أتت بكومبيوترها المحمول عن طاولة التبرّج. في طريقهما إلى المنزل، شعرت بالذنب لأنّها أحضرت هذا الكومبيوتر، آملة أن تجد وقتًا لما تدعوه في سرّها «تحقيقاتها الخاصّة». لكنّ عرض ماثيو السخيّ لمسامحتها على خطئها أوجد ذلك الوقت، وزال الشعور بالذنب. فليشاهدْ سباق الجياد. أمّا هي فلديها أمور أفضل تقوم بها.

عادت إلى السرير وكوّمت الوسائد خلفها. ثمّ فتحت الكومبيوتر وبحثت في بعض صفحات المواقع الإلكترونيّة المحجوزة التي لا يعرف بشأنها أحد، ولا حتّى سترايك، الذي سيظنّها مضيعة للوقت بلا شكّ.

سبق لها أن أمضت ساعات عدّة تتابع تحقيقين منفصلين – برغم أنّ بينهما صلة – دفعتها إليهما الرسالتان اللتان أصرّت على سترايك ليأخذهما إلى واردل: رسالة المرأة التي ترغب في أن تُبتر ساقها، ورسالة الرجل الذي يرغب في أن يفعل بساق سترايك المبتورة أمورًا أثارت غثيان روبن.

لطالما توقّفت روبن مأخوذة بطريقة العقل البشريّ في العمل. وقد اختارت دراسة علم النفس في الجامعة برغم أنّها لم تتابعها. بدا أنّ الشابّة التي راسلت سترايك تعاني ما يُعرف باضطراب سلامة الهوية الجسدية، ويعني الرغبة غير المنطقية في إزالة أحد أعضاء الجسد.

قرأت روبن على الإنترنت عدّة مقالات علميّة تتعلّق بهذه الحالة، وعلمت أنّ مَن يعانونها نادرون، وأنّ السبب الحقيقيّ لها لا يزال مجهولًا. كما دلّها تصفّح مواقع الدعم الإلكترونيّة إلى حجم اشمئزاز الناس ممّن يعانونها. كانت التعليقات الغاضبة تملأ تلك المواقع، متّهمة مرضى اضطراب سلامة الهوية الجسدية بالرغبة في أن يصابوا بإعاقة لا تصيب الآخرين إلّا بنتيجة المرض أو الحظّ السيئ، أو بالرغبة في اجتذاب الاهتمام بطريقة بشعة ووحشية. لكنّ تلك الانتقادات لقيت بدورها ردودًا غاضبة: أحقًّا يظنّ المنتقدون أنّ المرضى يريدون أن يعانوا هذه الحالة؟ أحقًّا لا يفهمون المعاناة التي تدفع المرء إلى الرغبة، بل الحاجة إلى أن يكون مشلولًا أو مبتور الطرف؟

تساءلت روبن عمّا قد يكون رأي سترايك في قصص مرضى اضطراب سلامة الهوية الجسدية لو قرأها. وشكّت في أن يتعاطف معهم.

فُتح باب غرفة الجلوس في الطابق الأسفل، فتناهت إلى مسمع روبن أصوات عدّة: صوت معلّق تلفزيونيّ، وصوت أبيها يطرد كلبهم اللابرادور العجوز لأنّه أطلق ريحًا كريهة الرائحة، وصوت ضحك مارتن.

عجزت روبن المرهقة عن تذكّر اسم الشابّة التي راسلت سترايك، تسأله النصيحة حول بتر ساقها. ثمّ فكّرت في أنّ اسمها كايلي أو ما يشبهه. تصفّحت ببطء أكبر موقع دعم إلكترونيّ لمرضى تلك الحالة، باحثة عن أسماء مستخدِمات قد تكون على صلة بتلك الشابّة. فالفضاء الإلكتروني هو المكان الأفضل لتلجأ إليه مراهقة مريضة نفسيًا للبوح بما تحلم به.

دفع راونتري، الكلب المطرود، باب الغرفة الذي تركه ماثيو نصف مفتوح، ودخل مختالًا. إقترب من روبن التي داعبت أذنيه بحركة تلقائيّة، ثمّ رقد أرضًا بجانب السرير. قرع الأرض بذيله لبعض الوقت قبل أن يغطّ في النوم. وعلى صوت أنفاسه المرتفع، تابعت روبن قراءة التعليقات الإلكترونية.

فجأة، شعرت بتلك الإثارة التي باتت مألوفة منذ بدأت العمل في مكتب سترايك. إنّه الشعور بالمكافأة الناتج عن النجاح في العثور على معلومة صغيرة قد لا تعني شيئًا، وقد تعني شيئًا ما، وأحيانًا، قد تعني كلّ شيء.

الوحدة القاتلة: هل يعرف أحدكم شيئًا عن كامرون سترايك؟

حبست روبن أنفاسها وبدأت القراءة.

وانابي: المحقق ذو الساق الواحدة؟ نعم، إنّه جنديّ قديم.
الوحدة القاتلة: سمعتُ أنّه ربّما بتر ساقه بنفسه.
وانابي: لا، مَن يبحث يجد أنّه كان في أفغانستان.

هذا كلّ شيء. بحثت روبن أكثر، لكن الشخص المسمّى «الوحدة القاتلة» لم يواصل الاستفسار، ولا ظهر مرّة جديدة. هذا لا يعني شيئًا، فلعلّه

(أو لعلّها) غيّر(ت) اسم المستخدم الخاصّ به(ا). واصلت روبن التفتيش حتّى تأكّدت من أنّها قرأت كلّ كلمة في الموقع. لكنّ اسم سترايك لم يعد للظهور.

تراجع شعور روبن بالإثارة. حتّى لو افترضت بأنّ «الوحدة القاتلة» هي كاتبة الرسالة، فاعتقاد هذه المرأة أنّ سترايك بتر ساقه بنفسه واضح. لا شكّ بأنّها تقصده هو. فلن تجد كثيرين من المشاهير المبتوري الأطراف ممّن ترجو أن يشاطروها الميول المرضيّة عينها.

آنذاك، كانت صيحات التشجيع ترتفع من غرفة الجلوس. تركت روبن مواقع اضطراب سلامة الهوية الجسدية، وعادت إلى تحقيقها الثاني.

كانت روبن تزهو في سرّها بأنّها ازدادت صلابة منذ أن بدأت العمل في مكتب التحقيق الخاص. ومع ذلك فإنّ أبحاثها الأولى على الإنترنت في تخيّلات مرضى الأكروتوموفيليا، أي الانجذاب الجنسيّ إلى مبتوري الأطراف، والتي كانت متاحة بسهولة، قد ولّدت انقباضًا في معدتها لم يُزله ابتعادها عن الكومبيوتر. وها هي تجد نفسها تقرأ اعترافات رجل (افترضت أنّه رجل) يبوح بأنّ تخيّله الجنسيّ الأقوى هو معاشرة امرأة مبتورة الأطراف الأربعة فوق مفاصل المرفقين والركبتين. بدا أنّ مكان البتر أمر بالغ الأهمية بالنسبة إليه. وقال رجل ثانٍ (كلاهما ليس امرأة، بالتأكيد) إنّه يمارس منذ حداثته الاستمناء متخيّلًا حادثة يتعرّض وصديقه فيها إلى بتر الساقين فجأة. كان الموقع يحفل بالإعجاب ببقايا الأطراف المقطوعة، وبحركة المبتورين المقيّدة، وبالإعاقة التي عدّتها روبن التعبير الأشدّ عن المازوشية.

فيما تواصل سباق الجياد، وتواصل معه سيل الكلام غير المفهوم، الذي يبدو وكأنّه يخرج من أنف المعلّق، وعلت صيحات التشجيع التي يطلقها شقيقها. تابعت روبن تصفّح مواقع أخرى على الإنترنت، باحثة عن أيّ إشارة إلى سترايك، وأي صلة بين هذا الشذوذ الجنسيّ والعنف.

ما وجدته روبن جديرًا بالملاحظة أنّ أحدًا ممّن استرسلوا في تخيّلاتهم على هذه المواقع لم يعبّر عن شعوره بالإثارة الجنسيّة مع العنف أو الألم. وحتّى الرجل الذي تخيّل بتر ساقيه وساقي صديقه معًا، كان واضحًا جدًّا في إشارته إلى أنّ البتر ليس إلّا مقدّمة ضروريّة للولع بالبقايا المقطوعة.

هل يقوم شخص تثيره جنسيًّا بقيّة ساق سترايك المقطوعة ببتر ساق امرأة وإرسالها إليه؟ ظنّت روبن ساخرة بأنّ هذا هو الاستنتاج الذي قد يتوصّل إليه ماثيو. فهذا الأخير قد يفترض – بل قد يرجّح – أنّ أيّ شخص غريب الأطوار ينجذب إلى بقايا الأطراف المقطوعة مستعدّ بما يكفي لبتر طرف شخص آخر. غير أنّ ما تذكّرته روبن من رسالة «ر. ل.»، وما قرأته من كتابات مرضى الأكروتوموفيليا الآخرين، جعلها ترجّح أنّ المقصود بعبارة «التعويض عليك» في الرسالة يشير إلى ممارسات قد يجدها سترايك أكثر إثارة للاشمئزاز من البتر بعينه.

طبعًا، لعل «ر. ل.» تعاني الأكروماتوفيليا واختلالًا نفسيًّا في الوقت عينه...

– نعم! نعم! خمسمئة جنيه! صاح مارتن.

بدا من صوت القرع الشديد في ردهة المنزل أنّ غرفة الجلوس لم تكفِ مارتن ليرقص رقصة الانتصار. إستيقظ راونتري وهبّ واقفًا وهو ينبح. كان الضجيج شديدًا لدرجة أنّ روبن لم تسمع صوت ماثيو يقترب إلى أن فتح الباب. بحركة تلقائية، نقرت فأرة الكومبيوتر مرّات عدّة وأغلقت المواقع المخصصة للولع الجنسيّ بمبتوري الأطراف.

– مرحبًا، قالت. أظنّ أن بالابريغز ربح السباق.

– نعم.

للمرّة الثانية في ذلك اليوم، مدّ إليها يده. أزاحت روبن كومبيوترها، وساعدها ماثيو لتقف ثمّ عانقها. جعلها دفء جسده تشعر بالارتياح يتسلّل إليها ويهدّئها. لن تكون قادرة على تحمّل شجار ليلة أخرى.

ثمّ ابتعد، وعيناه تحدّقان من فوق كتفها في شيء ما.

– ماذا؟

نظرت إلى الكومبيوتر. فرأت وسط الشاشة البيضاء إطارًا كبيرًا فيه تعريف لغويّ:

أكروتوموفيليا (اسم):

شذوذ ينتج فيه الشعور باللذة الجنسيّة عن تخيّلات

أو أفعال تقترن بأشخاص مبتوري الأطراف.

مرّت فترة صمت قصيرة.

– كم حصانًا مات؟ سألت روبن بصوت مرتجف.

– إثنان، أجاب ماثيو، وغادر الغرفة.

14

... you ain't seen the last of me yet,
I'll find you, baby, on that you can bet[1].

Blue Öyster Cult, 'Showtime'

عند الثامنة والنصف من مساء الأحد كان سترايك يقف خارج محطّة يوستون، مدخّنًا سيجارته الأخيرة قبل الشروع برحلته إلى إدنبره، المتوقع أن يصلها بعد تسع ساعات.

خاب أمل إلين لأنّه سيفوّت عليه حفلة المساء الموسيقية. لكنّهما قضيا معظم فترة بعد الظهر في السرير. كان ذلك خيارًا بديلًا لم يتردّد سترايك لحظة في قبوله. تلك المرأة الجميلة والرصينة والباردة في العلن ما كانت تتردّد في إطلاق العنان لأحاسيسها بداخل غرفة النوم. الذكرى القريبة لما جرى بينهما والأصوات المشحونة بالإثارة، جلدها الأملس كالمرمر والرطب تحت فمه، شفتاها الشاحبتان اللتان تنفتحان لأنين اللذّة... كل ذلك كان يزيد من حدّة طعم النيكوتين الذي يبتلعه. لم يكن التدخين مسموحًا في شقّة إلين الفخمة في كلارنس تيراس، بحجّة أنّ ابنتها الصغيرة مصابة بالربو. وللتعويض عن هذه اللذّة البسيطة التي تلي الجنس عادة، أرغمت إلين سترايك على

[1] لم ينتهِ الأمر بيننا، / تأكّدي من أنّني سأجدك يا حبيبتي.

مشاهدة فيلم تتحدّث فيه عن المؤلّفين الموسيقيّين الرومنسيين. كاد يغفو وهو يشاهده...

– أنت تشبه بيتهوفن، قالت له بنبرة تدلّ على التفكير العميق، مع ظهور تمثال نصفيّ رخاميّ للمؤلّف في الفيلم.

– بأنف مكسور، ردّ سترايك. فقد قيل له ذلك من قبل.

– لماذا تذهب إلى سكوتلندا؟

حين سألته ذلك، كان سترايك يعيد تركيب ساقه الاصطناعيّة جالسًا على السرير في غرفة نومها، المزيّنة باللونين العاجيّ والأبيض، ولكن البعيدة كلّ البعد عن طابع التقشّف المثير للاكتئاب الذي توحي به غرفة الضيوف في منزل نِك وإلسا.

– أتبع دليلًا، أجاب.

كان يدرك تمامًا أنّ ما يقوله مبالغ به. فوحدها شكوكه كانت تربط دونالد لاينغ ونويل بروكبانك بالساق المبتورة. ومع ذلك، وبرغم تحسّره على الثلاثمئة جنيه التي ستكلّفه إيّاها رحلته، لم يكن نادمًا على قرار الذهاب.

سحق عقب السيجارة بكعب ساقه الاصطناعيّة. دخل المحطّة، واشترى طعامًا من السوبرماركت ودخل القطار الليليّ.

كانت المقصورة الفرديّة، بمغسلتها التي تُطوى وسريرها الضيّق، صغيرة الحجم، إلّا أنّه عرف في حياته العسكريّة أماكن أقلّ راحة. لاحظ بارتياح أنّ السرير يتّسع لقامته البالغة 192 سنتمترًا. كما أنّ الأمكنة الضيّقة تسهّل عليه الحركة بعد أن يفكّ ساقه الاصطناعيّة. إشتكى فقط من أنّ حرارة المقصورة مرتفعة. فقد اعتاد أن يُبقي في عليّة مكتبه على درجة حرارة قد تكون جليديّة بالنسبة إلى كل النساء اللواتي عرفهنّ. لكنّ ذلك لا يعني أنّ أيّة امرأة قد نامت فعلًا في تلك الشقّة. فإلين لم ترَها قطّ. كما لم يدعُ إليها شقيقته لوسي خشية أن تصيبها خيبة الأمل برؤيته لا يجني المال الكثير مثلما ظنّت. بعد التفكير في الأمر، أدرك أنّ روبن هي المرأة الوحيدة التي دخلت ذلك المكان.

إنطلق القطار في رحلته، وبدأت أعمدة المحطّة ومقاعدها تتراءى أمام عيني سترايك ولا تلبث أن تختفي. إستلقى على سريره. فتح شطيرة اللحم

المقدّد الأولى وقضم منها قطعة كبيرة. عادت إليه صورة روبن جالسة إلى طاولة المطبخ، شاحبة الوجه ومرتجفة. ثمّ تذكّر أنها في منزلها في ماشام، بمأمن من أيّ أذى محتمل، فشعر بالارتياح، وبأنّ همًّا قد انزاح عن كاهله.

كان هذا النوع من السفر مألوفًا جدًّا. شعر كما لو أنّه عاد إلى الجيش، يسافر عبر المملكة المتحدة بأرخص وسيلة ممكنة ليلتحق بفرع الاستقصاء الخاصّ في إدنبره. لم يُعيّن للخدمة في ذلك المركز قطّ. لكنه يعرف أن مقرّ الفرع يقع في القلعة الكائنة فوق مرتفع صخريّ وعر في وسط المدينة.

عاد من المرحاض إلى مقصورته عبر الرواق الذي يهتزّ مع حركة القطار. جلس في سريره، وخلع ملابسه واستلقى بسرواله الداخليّ على الأغطية الرقيقة، راجيًا أن يغفو قليلًا. كانت حركة القطار المتأرجح من جانب إلى جانب مهدّئة، لكنّ الحرارة وتغيّر السرعة كانا يوقظانه مرّة بعد الأخرى. منذ أن انفجرت به في أفغانستان المصفّحة التي كانت تقلّه، فأودت بأسفل ساقه وبحياة زميلين له، بات سترايك يخشى ركوب آليّة يقودها آخرون. واكتشف آنذاك أنّ رهابه هذا قد انتقل إلى القطارات. إستيقظ ثلاث مرّات منتفضًا على صفير محرّك سيّارة تمرّ في الاتجاه المعاكس للقطار. وعند كلّ انعطافة كان يتخيّل برعب أنّ هذا الوحش المعدنيّ الضخم سيفقد توازنه ويخرج عن خطّه ليتشقلب ويتحطّم إلى أجزاء...

دخل القطار محطّة إدنبره وايفرلي عند الخامسة والربع. لكنّم لم يقدّموا الفطور حتّى السادسة. إستيقظ سترايك على صوت موظف يسير في العربة ويسلّم الركّاب صواني الطعام. حين فتح باب مقصورته، متأرجحًا على ساق واحدة، أفلتت من فم الشابّ شهقة، وتسمّرت عيناه بالساق الاصطناعيّة الملقاة أرضًا خلف سترايك.

– آسف يا صديقي، قال الشابّ بلكنة سكّان غلاسكو، وهو ينظر إلى ساق سترايك. ثمّ أدرك أنّ الرجل لم يبتر ساقه بنفسه. وأضاف: الأمر محرج!

ضحك سترايك وأخذ الصينيّة. بعد ليلة مرّت بدون نوم، كان بحاجة إلى سيجارة لا إلى هلالية بطعم المطّاط أعيد تسخينها. ركّب ساقه الاصطناعيّة

في مكانها، وارتدى ملابسه وهو يشرب القهوة بسرعة. وكان من بين أوائل الركاب الذين خرجوا إلى برودة الصباح السكوتلنديّ الباكر.

شعر سترايك بأنّه في قاع هاوية، فقد رأى من خلال السقف الزجاجي الممتدّ فوق المحطّة مباني سوداء قوطيّة العمارة شُيّدت على المرتفعات المحيطة. بحث عن موقف سيارات التاكسي حيث سيوافيه هاردكاير. وهناك جلس على مقعد حديدي بارد، ووضع حقيبته عند قدميه، وأشعل سيجارة.

وصل هاردكاير بعد عشرين دقيقة، بسيّارة جعلت سترايك يشعر بالانقباض لدى رؤيتها. حين أخبره صديقه قبل أيّام بأنّه سيوفّر عليه كلفة استئجار سيّارة، وجد أنّ من غير اللياقة أن يسأله ما نوع السيّارة التي يقودها.

لكنّها كانت ميني! سيّارة ميني لعينة...

– أوغي!

تبادلا السلام على الطريقة الأميركية التي شاعت في أوساط الجنود، أي بنصف عناق ونصف مصافحة. كان هاردكاير رجلًا لا يتجاوز طوله 160 سنتمترًا، خفيف الشعر، وله وجه يوحي بالودّ. لكنّ سترايك يدرك أنّ هذا المظهر العاديّ يخفي عقلًا تحليليًا حادّ الذكاء. كانا شريكين في اعتقال بروكبانك، وهذا ما متّن العلاقة بينهما، خصوصًا بعد ما تلا ذلك من متاعب.

حين رأى هاردكاير صديقه القديم يدخل بصعوبة إلى سيّارة الميني، ندم لأنّه لم يقل له إنّه آتٍ بها.

– نسيتُ أنّك ضخم الجثّة، علّق قائلًا. هل تستطيع قيادة هذه السيّارة؟

– أجل، قال سترايك، وهو يُرجع مقعد الراكب إلى أبعد ما يمكنه الوصول. شكرًا لأنّك تعيرني السيارة يا هاردي.

لحسن الحظ أن آلية تعشيق السرعات فيها كانت أوتوماتيكيّة.

خرجت السيارة من المحطة وصعدت الهضبة حيث المباني السوداء التي شاهدها سترايك عبر السقف الزجاجيّ. كانت سماء الصباح رمادية.

– يبدو أنّ الطقس سيتحسّن، غمغم هاردكاير.

إنطلقت بهما السيّارة في طلعة رويال مايل. مرّا أمام المتاجر التي تبيع التنانير التقليدية، والأعلام السكوتلندية، والمطاعم، وكذلك أمام المقاهي،

وإعلانات الزيارات إلى المنازل المسكونة بالأشباح، والأزقة التي تظهر من خلالها المدينة إلى يمينهما.

في أعلى التلّة، بدت لهما القلعة، وهي عبارة عن بناء ضخم كالح يحجب السماء، تحيط به أسوار حجرية شاهقة. إنعطف هاردكاير يمينًا، مبتعدًا عن البوّابات المزينة بالتيجان السكوتلندية والتي بدأ السياح يتجمعون أمامها منذ تلك الساعة المبكرة، تجنّبًا للوقوف في صفوف الانتظار. توقف هاردكاير عند إحدى نقاط الحراسة، فذكر اسمه وأظهر بطاقته، ثمّ تابع السير متجهًا نحو المدخل المحفور في الصخر البركانيّ، والمؤدي إلى نفق تضيئه الكشّافات وتمتدّ على جدرانه كابلات كهربائية ضخمة. خرجا من النفق إلى أن وجدا نفسيهما في ساحة تحيط بها استحكامات مزيّنة بصفّ من المدافع القديمة. وامتدّت تحتهما المدينة، بسطوحها وأبراج كنائسها السوداء والذهبية البارزة من الضباب، حتى نهر مصبّ فورث في البعيد.

– منظر جميل، قال سترايك، وهو يقترب من المدافع ليتمتع بالمنظر.

– لا بأس به، قال هاردكاير، وهو يلقي نظرة خاطفة على العاصمة السكوتلنديّة التي باتت مألوفة بالنسبة إليه. ثمّ قال: من هنا يا أوغي.

دخلا القلعة عبر باب خشبيّ جانبيّ. سار سترايك خلف هاردكاير في رواق حجريّ ضيّق وبارد، ينتهي بدرج سبّب صعوده ألمًا في ساقه اليمنى. ورأى لوحات لقادة عسكريّين بالزيّ الرسميّ من عهد الملكة فكتوريا، موزّعة على الجدران بصورة غير متناسقة.

عند منبسط الدرج الأوّل، دخلا عبر باب إلى رواق تمتدّ على جانبيه غرف المكاتب، وفُرشت أرضه بموكيت ورديّ غامق وبشع، وطُليت جدرانه بطلاء أخضر كغرف المستشفيات. لم يسبق لسترايك أن أتى إلى هنا قطّ، لكنّه شعر بأنّه مكان مألوف. مألوف، لا كالمبنى المهجور الذي قطنه في شارع فولبورن، بل كمكان ينتمي إليه فعلًا. شعر أنّ بوسعه أن يجلس إلى أيّ مكتب خالٍ فيعود إلى العمل في أقلّ من عشر دقائق.

كانت على الجدران ملصقات. أحدها يذكّر المحقّقين بأهمية إجراءات الساعة الذهبية، أي تلك الفترة القصيرة التي تلي وقوع الجريمة، حين تكون

المعلومات والأدلة وفيرة ويسهل الحصول عليها. وملصق آخر تظهر فيه صور للمخدّرات. كما رأى سترايك ألواحًا بيضاء امتلأت بأوراق تحمل ملاحظات وتواريخ تتعلّق بقضايا التحقيق الراهنة – «بانتظار تحليل الاتصالات الهاتفية والحمض النووي»، «قسيمة الشرطة 3 مطلوبة» – وحقائب معدنية فيها عدّة رفع البصمات. كان باب المختبر مفتوحًا. وعلى طاولة معدنية عالية رأى كيس أدلّة بلاستيكيًا وبداخله وسادة ملطّخة ببقع دم جافّة وغامقة اللون. وبجانبه علبة كرتونيّة فيها زجاجات كحول. حيثما تُسفك الدماء لا بدّ من وجود الكحول. وفي الزاوية زجاجة فارغة من ويسكي بِل، وعليها قبّعة عسكريّة حمراء، ما ذكّره بلقب هذا الفرع العسكريّ، أي «القبّعات الحمراء».

سارت في اتجاهه امرأة ذات شعر أشقر قصير، ترتدي بزّة مقلّمة.

– سترايك. وأضافت بابتسامة حين أدركت أنّ الرجل لم يتذكّرها في الحال: إيما دانييلز. كاتريك 2002. كنت تلقّب رقيبنا المسؤول بالأبله المهمل.

– أجل، قال لها سترايك، فيما ضحك هاردكاير. كان أبله حقًّا. لقد قصصتِ شعرك.

– وأنت حققت الشهرة.

– لست لأصف ما وصلت إليه بالشهرة.

أطلّ شابّ شاحب البشرة يرتدي قميصًا من باب أحد المكاتب، وقد لفتت المحادثة انتباهه.

– يجب أن نذهب يا إيما، قال هاردكاير باقتضاب. ثمّ أدخل سترايك إلى مكتبه وأغلق الباب خلفهما، قائلًا له: علمت أنّك ستثير اهتمامهم.

كانت الغرفة مظلمة، فنافذتها تطلّ على صخر وعر ومرتفع. لكنّ صور أولاد هاردكاير ومجموعة كبيرة من أكواب البيرة المصنوعة من السيراميك أضفت بعض الحياة على ديكور ذلك المكتب الذي لم يختلف بسجّاده الورديّ الغامق أو بجدرانه الخضراء الشاحبة عن ديكور الرواق الخارجي.

– حسنًا يا أوغي، قال هاردكاير، وهو ينقر لوحة مفاتيحه. وأضاف بعدما وقف ليدع سترايك يجلس مكانه: ها هو.

كان فرع الاستقصاء الخاصّ يستطيع الوصول إلى ملفّات الأجهزة الثلاثة العاملة في إطاره. وظهرت على شاشة الكومبيوتر صورة لنويل كامبل بروكبانك، التُقطت له قبل أن يلتقيه سترايك، وقبل أن يتلقى اللكمات التي شوّهت وجهه فجعلت إحدى عينيه تغور في محجرها وضخّمت إحدى أذنيه. ظهر بروبانك في الصورة بشعر أسود مقصوص قصيرًا جدًّا، ووجه ضيّق، ولحية أضفت على ذقنه لونًا أزرق، وجبين له حجم غير طبيعيّ. حين التقيا للمرّة الأولى، ظنّ سترايك أنّ هذا الرأس المستطيل ذا الملامح غير المتناسقة قد ضُغط بلمزمة.

– لا يمكنك طباعة أيّ مستند يا أوغي، قال هاردكاير لسترايك وهو يجلس على كرسيّ المكتب. لكنّ بوسعك أن تصوّر الشاشة. أتريد قهوة؟

– أريد شايًا، إن كان لديك شاي. شكرًا.

غادر هاردكاير الغرفة، وأغلق الباب خلفه بحذر. أخرج سترايك هاتفه المحمول ليلتقط صورة للشاشة. ثمّ تابع البحث لقراءة ملفّ بروكبانك الكامل، مسجّلًا تاريخ ولادته، وتفاصيل شخصيّة أخرى.

وُلد بروكبانك يوم عيد الميلاد في العام عينه الذي وُلد فيه سترايك. وسجّل عنوان إقامته في بارو إن فورنس حيث التحق بالجيش. وقبيل مشاركته في عمليّة غرانبي، المعروفة بحرب الخليج الأولى، تزوّج بأرملة جنديّ لها ابنتان، إحداهما بريتاني. ووُلد ابنه فيما كان يخدم في البوسنة.

واصل سترايك التفتيش في الملفّ، مسجّلًا الملاحظات، وصولًا إلى الإصابة التي غيّرت حياة بروكبانك ووضعت حدًّا لمهنته العسكرية. عاد هاردكاير إلى الغرفة حاملًا فنجانين. غمغم سترايك بكلمة «شكرًا»، فيما واصل البحث في الملف الإلكتروني. لم يجد أي ذكر للجريمة التي اتُّهم بروكبانك بها، والتي تولى سترايك وهاردكاير التحقيق فيها. ظلّ الرجلان على قناعة بأنّ بروكبانك هو مرتكبها. كانت نجاة هذا الأخير من العدالة الإخفاق الأكبر في حياة سترايك العسكرية. لم تُمحَ من ذاكرة هذا الأخير صورة بروكبانك يندفع نحوه حاملًا زجاجة بيرة مكسورة، بهيئة وحش كاسر. كانت له قامة سترايك

تقريبًا أو أطول بقليل. ولاحقًا، قال هاردكاير إنّ صوت بروكبانك وهو يرتطم بالجدار بعدما لكمه سترايك، كان كصوت سيّارة تصطدم بجدار الثكنة.

– إنّه يتقاضى راتبًا تقاعديًّا كبيرًا من الجيش، غمغم سترايك وهو يدوّن أسماء المواقع المختلفة التي قبض منها بروكبانك رواتبه منذ تسريحه. في البداية قصد مسقط رأسه، أي بارو إن فورنس، ثمّ عاش في مانشستر لأقلّ من عام.

– هاه! تمتم سترايك. إذًا فهذا أنت أيها اللعين.

غادر بروكبانك مانشتسر إلى ماركت هاربورو، ثم عاد إلى بارو إن فورنس.

– ما هذا يا هاردي؟

– تقرير الطبيب النفسي، قال هاردكاير الذي جلس على كرسيّ منخفض بجانب الجدار، يبحث في ملفّ خاصّ به. عليك ألّا تنظر إليه. كان تهوّرًا كبيرًا منّي أن أتركه هنا.

– كان تهوّرًا كبيرًا فعلًا، ردّ سترايك وهو يفتح الملفّ.

لكنّ تقرير الطبيب النفسيّ لم يُطلعه على الكثير ممّا لم يكن يعرفه. لم ينكشف أمر إدمان بروكبانك الكحول إلّا بعدما أُدخِل إلى المستشفى. واختلف أطبّاؤه حول تفسير ما يعانيه، فمنهم مَن أعاد الأسباب إلى الكحول فيما تحدّث آخرون عن اضطراب نفسيّ نتج عن صدمة أو عن إصابة دماغيّة. إضطرّ سترايك وهو يقرأ التقرير إلى البحث في غوغل عن بعض معاني الكلمات، مثل الحبسة، أي صعوبة العثور على الكلمة الصحيحة، أو الرتّة، أي عسر التلفّظ بالكلمات، أو اللامفرداتية، أي صعوبة فهم العواطف والتعبير عنها.

بالنسبة إلى رجل في وضع بروكبانك آنذاك، فكّر المحقق، كان فقدان الذاكرة مخرجًا ملائمًا جدًّا. هل تظاهر بالإصابة ببعض هذه الأعراض الكلاسيكية؟

– ما لم يأخذوه في الحسبان هو أنّ الرجل وغد بطبيعته، قال سترايك الذي سبق له أن عرف رجالًا عانوا إصابات دماغيّة وأحبّهم.

– صحيح، قال هاردكاير الذي كان يشرب القهوة وهو يعمل.

أغلق سترايك ملفّ بروكبانك، وانتقل إلى ملفّ لاينغ. كانت صورته تتطابق تمامًا مع ما يتذكّره سترايك عن الجنديّ السابق في فوج الحدود الملكيّ، الذي كان بسنّ العشرين حين التقيا: رجل شاحب البشرة، ذو شعر يصل إلى أسفل جبينه، وعينين صغيرتين وسوداوين كعَينَي ابن مقرض.

كان سترايك يتذكّر جيّدًا تفاصيل الفترة القصيرة التي قضاها لاينغ في الجيش، والتي أنهاها بنفسه. سجّل عنوان منزل والدة لاينغ في ملروز، ثمّ قرأ بشكل سريع بقيّة التقرير ليفتح بعد ذلك تقرير الطبيب النفسيّ.

إشارات قويّة إلى اضطرابات لاجتماعيّة وشخصيّة حدّية... يمثّل خطرًا دائمًا وقد يلحق الأذى بالآخرين...

سُمع قرع قويّ على الباب، فعاجل سترايك إلى إغلاق الملفّات المفتوحة في الكومبيوتر، وهبّ واقفًا. ما كاد هاردكاير يصل إلى الباب حتّى ظهرت فيه امرأة ذات تعابير صارمة ترتدي تنّورة.

– هل وجدت شيئًا حول تيمبسون؟ قالت لهاردكاير بصوت جافّ.

ثمّ رمقت سترايك بنظرة شكّ، فأدرك أنّها كانت على علم بوجوده، وقال في الحال:

– سأنصرف الآن يا هاردي. سررتُ برؤيتك بعد طول غياب.

باختصار شديد، قدّم هاردكاير سترايك إلى الضابطة المسؤولة، وشرح لها أنّهما كانا زميلين، ثمّ رافق سترايك مودّعًا، وقال له وهو يصافحه عند الباب:

– سأبقى هنا حتّى ساعة متأخّرة. إتّصل بي حين تعرف متى ستعيد السيّارة إليّ. يومًا سعيدًا.

فيما نزل سترايك الدرج الحجري بحذر، فكّر في ما كان سيعانيه لو أنّه قبل عرض الجيش بعدم تسريحه بعد إصابته. كان ممكنًا أن يعمل في هذا المكان إلى جانب هاردكاير، ويغرق في الإجراءات الروتينية التي يطبّقها فرع الاستقصاء الخاصّ. لم يندم قطّ على قرار الرحيل، لكنّ هذه العودة المفاجئة والقصيرة إلى ماضيه أيقظت فيه حنينًا لا مفرّ منه.

خرج سترايك من القلعة، وسار تحت سماء ملبّدة بالغيوم بالكاد تقوى بعض خيوط الشمس على اختراقها. وهناك، وعى تمامًا التغيير الذي طرأ على حياته. لقد بات حرًا، ولم يعد مضطرًا إلى الامتثال لأوامر رؤساء متسلّطين، أو إلى المكوث في مكتب محاط بالصخور، يشبه الزنزانة. لكنّه في الوقت عينه جُرِّد من قوّة الجيش البريطانيّ ومكانته، وأصبح وحيدًا تمامًا في سعيه إلى مطاردة قد تكون بلا جدوى، وسلاحه الوحيد بضع عناوين، خلف رجل أرسل إلى روبن ساق امرأة.

15

Where's the man with the golden tattoo?[1]

Blue Öyster Cult, 'Power Underneath Despair'

كانت قيادة سيارة الميني، وكما توقع سترايك، عذابًا حقيقيًا بالنسبة إليه برغم إرجاعه مقعد السائق إلى أقصى ما يمكنه إرجاعه. لم يكن بوسعه الضغط على دوّاسة الوقود إلّا بساقه اليسرى، وهذا يعني اضطراره إلى الجلوس بوضعيّة مرهقة في مكان ضيّق جدًّا. ظلّ على هذا المنوال من المعاناة حتّى خرج من العاصمة السكوتلنديّة ووصل إلى طريق «A 7» المستقيم، المؤدّي إلى ملروز. وآنذاك فقط بات بوسعه أن يفكّر بهدوء في حلبة الملاكمة حيث كان لقاؤه الأوّل بالجنديّ دونالد لاينغ من فوج الحدود الملكيّ، قبل أحد عشر عامًا.

أقيمت تلك المباراة ذات مساء، في إطار دورة ملاكمة بين الأفواج العسكرية، في قاعة نادٍ رياضيّ فقيرة التجهيزات ومظلمة، وسط صيحات مئات الجنود. آنذاك كان العريف كورموران سترايك من الشرطة العسكرية الملكية رجلًا بكامل لياقته الجسدية، متين البنية، مفتول العضلات، قويّ الساقين، ويتوق لإظهار مهاراته. كان عدد مشجّعي لاينغ يفوق عدد مشجّعي سترايك بثلاثة أضعاف، لا لشيء إلّا لأنّ الشرطة العسكريّة كانت فوجًا غير

[1] أين الرجل ذو الوشم الذهبي؟

محبوب أصلًا. ولم يكن يرضي جمهور الجنود أكثر من مشهد أحد أفراد الشرطة العسكريّة يخسر بالضربة القاضية. كانت المباراة الأخيرة في ذلك المساء، يتقابل فيها ملاكمان كعملاقين، وقد دوّى هتاف الجمهور في عروقهما كقصف الرعد الهادر.

يتذكّر سترايك عيني خصمه السوداوين الصغيرتين وقصّة شعره الأحمر القصيرة، ووشم الوردة الصفراء الممتدّ على طول ساعده الأيسر. كان عنقه الضخم يتناقض بكثير مع فكّه الضيّق، وصدره الشاحب اللون والمجرّد من الشعر يشبه بعضلاته البارزة تماثيل عمالقة الأساطير الإغريقية. وبرز النمش المتناثر فوق ذراعيه وكتفيه كعلامة فارقة فوق بشرته البيضاء.

بعد أربع جولات، ظلّت النتيجة تعادلًا. لعلّ الشابّ كان أسرع حركة لكنّ سترايك تفوّق من ناحية التقنية. في الجولة الخامسة، تجنّب سترايك لكمة من خصمه، ثمّ تظاهر بأنّه يستهدف وجهه ليفاجئه بضربة على كليته ألقت به أرضًا. لبرهة، ساد الصمت بين مشجّعي لاينغ مع سقوط هذا الأخير، لترتفع بعده صيحات الاستهجان مدوّية في القاعة كخوار قطعان غاضبة.

نهض لاينغ مع وصول الحكم بالعدّ إلى الرقم 6. لكنّه تخلّى عن الروح الرياضية فراح يسدد اللكمات العنيفة إلى خصمه، ورفض أمر الحكم بالابتعاد عنه، ممّا كلّفه توبيخًا شديد اللهجة. ولم يتردّد في توجيه لكمة بعد انتهاء الجولة، فنال إنذارًا ثانيًا.

بعد دقيقة على انطلاق الجولة السادسة، استفاد سترايك من ضياع خصمه وأخطائه، فدفعه إلى الحبال والدم يتدفق من أنفه. باعد بينهما الحكم، ثم أشار إليهما بالمتابعة. آنذاك تخلّى لاينغ عمّا تبقّى لديه من لياقة، وحاول أن ينطح سترايك، فأخفق. حين حاول الحكم أن يتدخل، فقد لاينغ صوابه نهائيًا. ونجا سترايك في اللحظة الأخيرة من ركلة استهدفت خصيتيه، ليجد نفسه وقد طوقه لاينغ بذراعيه غارزًا أسنانه في وجهه. تناهت إليه، مشوّشةً، صيحات الحكم، وهتافات الجمهور التي تراجعت أمام وحشيّة لاينغ، ليحلّ الصمت محلّها. أرغم الحكم الخصمين على الانفصال، وراح يصيح موبّخًا لاينغ الذي بدا أنّه لا يسمعه، بل استجمع قوّته، وانقضّ من جديد. تملّص سترايك

ونجح بتسديد ضربة شديدة إلى معدة لاينغ. فقد الأخير توزانه وخرّ على ركبتيه. غادر سترايك الحلبة على صوت تصفيق ضعيف، والدم يسيل من خدّه.

في نهاية الدورة حلّ سترايك في المركز الثاني، بعدما خسر أمام رقيب من فوج المظلّيين الثالث. وبعد أسبوعين نُقل من مركزه في ألدرشوت، لكنّه علم قبل سفره أنّ لاينغ عوقب بحرمانه من مغادرة الثكنة بسبب ما أظهره على الحلبة من فظاظة وعنف. كادت العقوبة أن تكون أشدّ، لولا أنّ رئيس لاينغ قبل التماس هذا الأخير ظروفًا تخفيفيّة، بحجّة أنّه دخل الحلبة وهو بحالة اكتئاب شديد لأنّ خطيبته اضطرّت إلى إجهاض جنينها.

لكنّ سترايك لم يصدّق أنّ جنينًا ميتًا قد يعني شيئًا للاينغ، ذلك الوحش الأبيض البشرة. حتّى آنذاك كان يرفض أن يصدّق ذلك، أي قبل أن يعرف عن لاينغ ما حمله على القدوم إلى هنا والتنقّل على الطريق الريفيّ بسيّارة ميني استعارها من صديقه، وقبل أن تزول عن خدّه آثار أنياب لاينغ التي دامت طويلًا.

بعد ثلاث سنوات، وصل سترايك إلى قبرص للتحقيق في قضيّة اغتصاب. ولدى دخوله غرفة التحقيق التقى للمرّة الثانية دونالد لاينغ، الذي زاد وزنه وانتشرت فوق جسده وشوم جديدة، كما امتلأ وجهه بحبوب النمش بسبب شمس قبرص، وطوقت التجاعيد عينيه الغائرتين.

كان متوقّعًا أن يعترض محامي لاينغ على أن يتولّى التحقيق رجل سبق أن عضّه موكّله. فتمّ تبادل القضايا بين سترايك وزميل له يحقّق في عملية ترويج مخدّرات. بعد أسبوع التقى المحقّقان لشرب كأس. فوجئ سترايك بأنّ زميله يميل إلى تصديق رواية لاينغ، الذي زعم أنّه أقام علاقة جنسيّة مع الضحية، وهي نادلة قبرصيّة، تحت تأثير السكر وبرضاها التامّ. كما قال إنّ الفتاة لم توّجه إليه الاتّهام إلّا لأنّ حبيبها عرف بمغادرتها مكان عملها بصحبة لاينغ. ولم يكن للنادلة التي زعمت أنّ المغتصب هدّدها بسكّين أيّ شهود يؤكّدون روايتها.

– فتاة طائشة! قال زميل سترايك واصفًا الضحيّة المزعومة.

لم يكن بوسع سترايك مناقضة رأي زميله. لكنّه لم ينسَ أنّ لاينغ سبق له أن فاز بتعاطف رئيسه حتّى بعد المباراة التي خاضها بعنف وعدم انضباط غير مسبوقين، أمام أنظار المئات. وحين طلب سترايك تفاصيل حول إفادة لاينغ وسلوكه، أجابه زميله بأنّ المتّهم رجل حادّ الذكاء، وودود، ويملك حسّ فكاهة مذهلًا.

– لا شكّ بأنّه يفتقر إلى الانضباط، أقرّ المحقق الآخر بعدما راجع سجلّ لاينغ، لكنّني لا أتخيّله يرتكب جريمة اغتصاب. إنّه متزوّج بفتاة بريطانيّة، وهي هنا معه.

عاد سترايك إلى التحقيق بقضيّة المخدّرات تحت شمس قبرص اللاهبة. كانت مهمّته تقتضي منه التنكّر، فأطلق لحيته، وما هي إلّا فترة أسبوعين حتّى بات أشبه بمدمني المخدّرات بشعره الأشعث، ولحيته الكثّة، وصنداله المفتوح، وسرواله القصير الفضفاض، والأساور الغريبة حول معصمه. لم يشكّ المروّج القبرصيّ الشابّ للحظة في أنّ هذا الرجل المستلقي بجانبه، مصغيًا إلى رواياته في غرفة قذرة عابقة بدخان حشيش سيجارتيهما، ما هو إلّا أحد أفراد الشرطة العسكريّة البريطانيّة. فأسرّ إليه بأسماء عدّة جنود يروّجون في قبرص كلّ أنواع المخدّرات، لا القنّب فقط. لكنّ الشابّ كان يقول تلك الأسماء، أو الألقاب، بلكنة يصعب حفظها، أو حتّى فهمها حالًا. فلم يفطن سترايك إلى أن اسم «دونالانغ» الذي سمعه هو في الواقع اسم لاينغ، إلّا حين ذكر له القبرصيّ كيف قيّد دونالانغ زوجته، وعذّبها.

– مجنون، قال الفتى بعينين جاحظتين. فعل ذلك لأنّها حاولت أن تتركه.

واصل سترايك استدراج القبرصيّ بأسئلته الذكيّة، حتّى باح له بأنّ لاينغ نفسه هو مَن قصّ عليه الحكاية، بدافع الفكاهة، ولكن أيضًا لتحذيره من عدم العبث معه.

مجمّع سيفورث إستايت العسكريّ هو أقدم مجمّع سكنيّ للجنود البريطانيّين في قبرص، وقد ترك الزمان على منازله المطلية باللون الأبيض آثار القِدم والإهمال. دخله سترايك في اليوم التالي، تحت شمس الظهر اللاهبة،

متعمّدًا اختيار وقت يكون خلاله لاينغ الذي نجا من تهمة الاغتصاب، في الخدمة. حين رنّ جرس الباب، لم يسمع سوى صوت بكاء طفل آتٍ من بعيد.

– نعتقد أنّها مصابة برهاب الساحات العامّة، أسرّت إليه جارة ثرثارة هرعت إلى الخارج. ما يجري في المنزل غريب حقًّا. إنّها خجولة جدًّا.

– وماذا عن زوجها؟ سألها سترايك.

– دوني؟ أوه! دوني هو الحياة والروح، قالت الجارة بوجه مشرق. يجب أن تسمعه يقلّد العريف أوكلي! إنه مدهش وفي غاية الطرافة.

كان الدخول إلى منزل جندي بدون إذنه الصريح أمرًا دونه الكثير من القوانين. قرع سترايك الباب. لا جواب. ومع ذلك، ظلّ يسمع بكاء الطفل. مضى نحو الجهة الخلفية للمنزل. كانت الستائر كلها مسدلة. قرع الباب الخلفي. لا شيء.

فكّر في أنّه يستطيع تبرير دخوله المنزل بحجّة إنقاذ الطفل. لكنّ ذلك قد لا يعتبر كافيًا للدخول عنوة بدون مذكرة تفتيش. كان سترايك بطبيعته حذرًا من كل شخص يبالغ بالوثوق بغريزته أو بحدسه، ولكنّه أيقن آنذاك بأنّ في المنزل خطبًا ما. كان ذا قدرة مدهشة على التنبّه إلى الأمور المريبة. وقد رأى في طفولته أمورًا يظنّها الناس لا تحدث إلّا في الأفلام.

لم يصمد الباب أمام الضربة الثانية من كتف سترايك، فانفتح. كانت رائحة كريهة تنبعث من المطبخ. من الواضح أنّ النفايات لم تُرمَ في الخارج منذ أيّام. دخل المنزل.

– سيدة لاينغ؟

لم يسمع جوابًا. كان أنين الطفل الضعيف يأتي من الطابق العلوي. صعد الدرج مناديًا.

كان باب غرفة النوم الرئيسية مفتوحًا، والغرفة نصف مظلمة، وتنبعث منها رائحة كريهة جدًّا.

– سيدة لاينغ؟

كانت عارية، مقيدة بأحد معصميها إلى رأس السرير، ونصف مغطاة بشرشف ملطّخ بالدماء. وكان الطفل راقدًا بالقرب منها على الفراش، ليس عليه سوى قماط. وبدا هزيلًا وسقيمًا.

أسرع نحوها لتحريرها، يبحث بإحدى يديه عن هاتفه المحمول لاستدعاء سيارة إسعاف. وسمعها تقول له بصوت متحشرج:

– لا... إرحل... أخرج...

لم يسبق لسترايك أن شاهد إنسانًا يشعر بهذا القدر من الرعب إلّا نادرًا. بدا أنّ زوج هذه المرأة قد بلغ حدًّا من اللاإنسانيّة لم يسبقه إليه أحد. ظلّت تتوسّل إلى سترايك أن يتركها، حتى وهو يحاول فكّ معصمها الدامي والمتورّم. فقد هدّدها لاينغ بالقتل إذا عاد ولم يجد الطفل هادئًا. بدا عليها أنّها لا تستطيع أن تتخيّل عالمًا لا يسيطر عليه لاينغ سيطرة تامّة.

حُكم على دونالد لاينغ بالحبس ستّة عشر عامًا عقابًا له على ما فعله بزوجته. وقد لعبت شهادة سترايك دورًا حاسمًا في الوصول إلى ذلك الحكم. ظلّ لاينغ حتّى اللحظة الأخيرة ينكر كلّ شيء، ويصرّ على أنّ زوجته قيّدت نفسها، وأنّ ذلك يُشعرها بالإثارة، وأنّها أهملت طفله وتحاول تحميله المسؤوليّة، وأنّ روايتها كلّها مفبركة.

إستغرب سترايك أن تعود إليه تلك الذكريات السيئة. كان يقود سيّارة الميني بين السفوح الخضراء المتألقة تحت الشمس الساطعة. لم يكن هذا المشهد مألوفًا لعينيه، فكتل الغرانيت الهائلة الحجم، والهضاب المترامية إلى ما لا نهاية بدت كأرض مجهولة، مهيبة... لقد أمضى معظم طفولته في قرية ساحليّة، حيث طعم الملح يختلط بالهواء. أمّا هذا المكان فغابات وأنهار يكتنفها الغموض وتختلف كل الاختلاف عن سانت موز، البلدة الصغيرة المشهورة بأنّها وكر للتهريب، والتي تتناثر منازلها الصغيرة الملوّنة حتى الشاطئ.

عبر في الطريق جسرًا حجريًا يطلّ على وادٍ خلّاب. فكّر في أنّ المختلّين نفسيًّا موجودون في كلّ مكان، لا فقط في المباني المتداعية والمهجورة، والأحياء الفقيرة. وحتّى هنا، في موطن الجمال والصفاء هذا. كان أمثال لاينغ

يشبهون الجرذان: يعرف المرء أنّها في مكان ما، لكنّه لا يفكّر فيها كثيرًا حتّى يلتقي بأحدها وجهًا لوجه.

رأى سترايك على جانبي الطريق قصرين حجريين مصغّرين يقفان كالحارسين. تابع طريقه إلى مسقط رأس دونالد لاينغ، فيما شقّت الشمس ستائر الغيوم وبثّت في الأرض نورها الباهر.

16

So grab your rose and ringside seat,
We're back home at Conry's bar[1]*.*

Blue Öyster Cult, 'Before the Kiss'

في طريق البلدة الرئيسيّ، شاهد سترايك خلف الباب الزجاجيّ لأحد المتاجر فوطة عليها رسوم بالحبر الأسود للمعالم الطبيعيّة والآثار السكوتلنديّة. لكنّ ما لفت انتباهه كان عددًا من الورود الصفراء الشبيهة تمامًا بوشوم ذراع دونالد لاينغ. توقف ليقرأ في وسط الفوطة الأبيات التالية:

It's oor ain toon
It's the best toon
That ever there be:
Here's tae Melrose,
Gem o' Scotland,
.The toon o' the free[2]

1 إحملي وردتك وتشبّثي بمقعدك المحاذي للحلبة / ها قد عدنا إلى حانة كونري.

2 هذه بلدتنا، أفضل بلدة على الإطلاق / هذه ملروز، لؤلؤة سكوتلندا، وبلدة الأحرار.

ركن سيّارة الميني في موقف للسيارات محاذٍ للدير، الذي ارتفعت قناطره الحمراء الشاهقة أمام صفحة السماء الصافية. وخلفها، باتجاه الجنوب الشرقيّ، لاحت هضبة إيلدون ذات القمم الثلاث التي شاهدها على الخريطة، مضفية على الأفق مسحة دراميّة مميّزة. إشترى لفافة لحم مقدّد من مقهى قريب، وجلس إلى طاولة أمامه. أكل ثمّ دخّن سيجارة وشرب فنجان شاي قويّ الطعم. كان الفنجان الثاني الذي يشربه يومذاك. بعد ذلك نهض وسار باحثًا عن ويند، عنوان السكن الذي دوّنه لاينغ في قسيمة تطوّعه في الجيش قبل ستة عشر عامًا. كان سترايك محتارًا في كيفيّة لفظ الكلمة: أهي «وِيْند»، أم «وَيْند»؟

بدت ملروز في ذلك النهار المشمس بلدة مزدهرة. سار سترايك على الطريق الرئيسي باتجاه الساحة، التي يزيّنها حوض من الزهور في وسطه عمود يعلوه تمثال حصان أقرن. كما لفته بين حجارة الرصيف حجر مستدير حُفر فيه الاسم الروماني القديم للبلدة، تريمونتيوم. لا شكّ بأنّ الاسم يعني القمم الثلاث للهضبة القريبة.

بدا له أنّه تجاوز مفرق ويند. ومع ذلك كان واثقًا، ووفقًا لخريطة هاتفه، بأنّ المفرق يتشعّب من الطريق الذي يسير عليه. عاد أدراجه ووجد إلى يمينه فتحة ضيّقة بين جدارين، لا تتّسع إلّا لدخول شخص واحد، وتفضي إلى باحة داخليّة معتمة. كان لمنزل عائلة لاينغ القديم باب أماميّ أزرق، يقود إليه درج صغير.

ما كاد سترايك يطرق الباب حتّى فتحت له امرأة جميلة سوداء الشعر، أصغر بكثير من أن تكون والدة لاينغ. وحين شرح لها الغاية من زيارته، أجابته بلكنة رقيقة وجدها جذّابة:

– السيدة لاينغ؟ لقد غادرت هذا المكان منذ أكثر من عشر سنوات.

وأضافت قبل أن يستوعب تمامًا ما قالته: إنّها تقيم الآن في طريق دينغلتون.

– هل المكان بعيد؟

– من هناك، قالت وهي تشير خلفها إلى جهة اليمين. لكنّني لا أعرف رقم المنزل. آسفة.

– لا بأس، أشكر لك مساعدتك.

عاد سترايك إلى الساحة التي تنيرها الشمس. خطر بباله أنّه، وما خلا الشتائم التي همس بها الجنديّ الشابّ في أذنه في حلبة الملاكمة، لم يسمع دونالد لاينغ يتكلّم قطّ. كان من الضروريّ بمكان ألّا يشاهد أحد سترايك يدخل إلى مركز قيادة الفرع ويخرج منه، وهو بلحيته الكثّة وشعره الأشعث، حين تولّى التحقيق متخفيًا في قضيّة ترويج المخدّرات. لذلك تولّى زملاؤه استجواب لاينغ بعد اعتقاله. ولاحقًا حين أنهى بنجاح قضيّة المخدّرات وحلق ذقنه، مثل أمام المحكمة للشهادة ضدّ لاينغ. وحين مثل لاينغ بدوره أمام المحكمة وأنكر أنّه قيّد زوجته وعذّبها، كان سترايك يغادر قبرص على متن طائرة. تساءل هذا الأخير وهو يجتاز ساحة السوق عمّا إذا كانت لكنة دوني لاينغ السكوتلنديّة، وهي لكنة جنود فوج الحدود الملكيّ، سببًا يحمل الناس على أن يصدّقوه، ويسامحوه، وحتّى أن يحبّوه. تذكّر المحقّق أنّه قرأ ذات مرّة أنّ شركات الإعلان تلجأ إلى اللكنات السكوتلنديّة للإيحاء بالنزاهة والاستقامة.

لم يرَ سترايك سوى حانة واحـدة، تقع على مقربة من الشارع الذي يسلكه قاصدًا طريق دينغلتون. بدا أنّ بلدة ملروز مولعة باللون الأصفر. وبرغم أنّ جدران الحانة كانت بيضاء، فقد طُليت أبوابها ونافذتها باللونين الأصفر الفاقع والأسود. كما شعر سترايك، الإنكليزي المولود في كورنوال، بمفاجأة طريفة حين قرأ في ذلك المكان الموغل جدًّا في قلب اليابسة أنّ اسم الحانة شيب إن أي نزل السفينة. واصل سيره في طريق دينغلتون الذي امتدّ متلوّيًا تحت أحد الجسور، ليصعد مع الهضبة ويتوارى في الأفق.

منذ أن فقد سترايك ساقه، لاحظ أنّ الناس يستخدمون تعبير «غير بعيد» بصورة غير دقيقة أبـدًا. بعدما سار صعودًا في طريق الهضبة عشر دقائق، شعر بالندم لأنّه يعد إلى موقف الدير لاسترجاع سيّارته. سأل امرأتين في الطريق عن عنوان السيدة لاينغ، لكنّهما أجابتاه بكثير من الودّ أنّهما لا تعرفان. واصل سيره وقد بدأ العرق يتصبب منه. ولدى مروره أمام صفّ من المنازل الخشبيّة البيضاء، التقى رجلًا عجوزًا يسير في اتّجاهه، مرتديًا قبّعة من صوف التويد، ويقود كلب بوردر كولي أبيض وأسود.

– معذرة، قال سترايك. هل تعرف أين تقيم السيدة لاينغ؟ نسيت رقم منزلها.

– السيدة لاينغ؟ أجاب الرجل، وهو يتفحّص سترايك بعينيه الغارقتين تحت حاجبين كثيفين خطّهما الشيب. نعم، إنّها جارتي.

الحمد لله!

– إنّها تسكن المنزل الثالث، قال الرجل مشيرًا إلى منزل أمامه بئر حجرية صغيرة.

– شكرًا جزيلًا، قال سترايك.

حين انعطف في الممشى المؤدّي إلى منزل السيدة لاينغ، شاهد بطرف عينه الرجل العجوز لا يزال واقفًا حيث هو، يراقبه، برغم محاولات الكلب لشدّ رسنه ومواصلة السير.

بدا منزل السيدة لاينغ لائقًا ونظيفًا. ورأى سترايك تماثيل حيوانات حجرية جميلة الشكل، كأنها من أفلام ديزني، تطلّ من خلف أحواض الزهور وكأنّها تلهو. كان باب المنزل في الجهة الجانبية للمنزل، الغارقة في الظلّ. وفي اللحظة التي ارتفعت فيها يد سترايك إلى مقرعة الباب، خطر بباله أنّه قد يلتقي بعد ثوان قليلة بدونالد لاينغ وجهًا لوجه.

طرق الباب وانتظر. مرّت دقيقة كاملة بدون أن يحدث شيء. عاد العجوز أدراجه ووقف عند بوابة المنزل، يحملق صامتًا. ظنّه سترايك نادمًا على أنّه باح بعنوان جارته، وأنّه يأتي ليتأكّد من هذا الغريب الضخم الجثّة لا ينوي بها شرًا. لكنّ ظنّه كان في غير محلّه.

– إنّها في الداخل، صاح بسترايك، الذي كان يفكّر في جدوى طرق الباب من جديد، لكنّها مخبولة.

– ماذا؟ سأله سترايك وهو يطرق الباب للمرّة الثانية.

– مخبولة.

سار الرجل بضع خطوات نحو سترايك.

– إنّها مصابة بالخرف، قال للإنكليزي شارحًا.

– آه، قال سترايك.

فُتح الباب، وظهرت منه امرأة عجوز بمبذل كحليّ، صغيرة القامة، مهزولة وشاحبة الوجه، وقد نبتت بعض الشعيرات في ذقنها. رمت سترايك بنظرة شرّ باهتة.

– سيّدة لاينغ؟

لم تقل شيئًا، بل نظرت إليه بعينين أدرك جيّدًا، برغم احتقانهما بالدم وبهوت نظرتهما، أنّهما كانتا في شبابهما ضيّقتين وشبيهتين بعينَي ابن مقرض.

– سيّدة لاينغ، أبحث عن ابنك دونالد.

– لا! لا! قالت بصوت قويّ فاجأ سترايك.

ثمّ تراجعت وأغلقت الباب بقوّة.

– تبًّا، تمتم سترايك.

في تلك اللحظة خطرت روبن بباله. لا شكّ بأنّها كانت لتنجح أكثر منه في كسب ودّ السيدة العجوز. إستدار ببطء، متسائلًا عمّا إذا كان في ملروز مَن يستطيع مساعدته. حين بحث عبر الإنترنت قرأ أسماء كثيرين من عائلة لاينغ. وفجأة وجد نفسه وجهًا لوجه مع العجوز الذي سار لملاقاته، وقد بدت عليه حماسة مشوبة ببعض الحذر.

– أنت المحقق الذي زجّ بابنها في السجن، قال العجوز.

ذُهل سترايك. لم يتخيل كيف يمكن أن يتعرف عليه سكوتلندي عجوز لم يسبق له أن التقاه قطّ. وأيقن أنّ شهرته باتت في غير مصلحته لأنّ الغرباء قادرون على التعرّف عليه. كان يسير في شوارع لندن يوميًّا بدون أن يبالي به أحد. وما لم يرد اسمه في سياق تحقيق ما، نادرًا ما كان أحد يربط بينه وبين التقارير الصحفيّة التي أسهبت في نشر قصص نجاحاته في حلّ ألغاز الجرائم.

– نعم، هذا صحيح! قال العجوز الذي زادت حماسته. زوجتي وأنا صديقان لمارغريت بونيان. وأضاف يقول لسترايك الذي وقف حائرًا: أعني والدة رونا.

كانت ذاكرة سترايك القويّة بحاجة إلى بضع ثوانٍ لتسترجع أنّ رونا هو اسم زوجة لاينغ الشابّة، التي عثر عليها مقيّدة إلى السرير ومغطّاة بشرشف مبقّع بالدماء.

أضاف العجوز:

– حين رأت مارغريت صورتك في الجرائد قالت لنا: هذا هو. هذا هو الرجل الذي أنقذ رونا! لقد أبليتَ حسنًا. توقف يا وولي! صاح العجوز بالكلب الذي عيل صبره وأخذ يشدّ برسنه محاولًا العودة للسير. نعم. مارغريت تتابع كلّ ما تفعله، وتقرأ كلّ ما تكتبه الجرائد عنك. لقد عثرتَ على قاتل عارضة الأزياء، وقاتل ذلك الكاتب! لم تنسَ مارغريت ما فعلته لابنتها قطّ!

تمتم سترايك بكلام غير مفهوم، أراد أن يعبّر به عن تقديره لمارغريت.

– لماذا تريد محادثة السيّدة لاينغ العجوز؟ هل فعل دوني شيئًا جديدًا؟

– أحاول العثور عليه، قال سترايك محاولًا التملّص من الإجابة. هل تعرف إن عاد إلى ملروز؟

– لا. لا أظنّ ذلك. أتى لرؤية والدته منذ بضع سنوات. لكنّني لا أعرف إن عاد منذ ذلك الحين. هذه بلدة صغيرة، ولو عاد لعرفنا بعودته، أليس كذلك؟

– أتظنّ أنّ السيّدة... بونيان، هل هذا اسمها؟ قد تملك...

– ستحبّ أن تلتقيك، قال العجوز بحماسة. ثمّ أضاف يقول للكلب الذي يئنّ ضجرًا ويحاول أن يجرّه بعيدًا: لا يا وولي. سأتّصل بها. لقد ذهبت إلى بلدة دارنيك القريبة. هل أتّصل بها؟

– سيكون ذلك مفيدًا جدًّا بالنسبة إليّ.

رافق سترايك الرجل العجوز إلى المنزل المجاور، ومكث ينتظر في غرفة جلوس صغيرة نظيفة جدًّا، فيما راح العجوز يثرثر بصوت مرتفع عبر الهاتف، ليعلو فوق أنين كلبه الساخط.

– ستأتي، قال العجوز مغطّيًا سمّاعة الهاتف بيده. أتودّ لقاءها هنا؟ أهلًا وسهلًا بك، ستعدّ لك زوجتي الشاي.

– شكرًا، لكنّ لديّ بضعة أمور أقوم بها، قال سترايك كاذبًا. كان يخشى أن يُفسد عليه وجود هذا الشاهد الكثير الكلام لقاءه بالمرأة. أيمكنك أن تسألها ما إذا كانت تستطيع موافاتي للغداء في حانة شيب إن بعد ساعة من الآن؟

وحده تصميم الكلب على الحصول على نزهته هو ما رجّح الكفّة لمصلحة سترايك. غادر الرجلان المنزل، وسارا معًا في طريق النزول، والكلب يشدّ برسنه إلى الأمام بقوّة. إضطرّ سترايك إلى السير بسرعة سبّبت له الإزعاج فوق هذا المنحدر الحادّ.

عند ساحة السوق، افترق الرجلان. لوّح العجوز الخدوم بيده للمحقّق بكثير من الودّ، وسار في اتجاه نهر تويد، فيما راح سترايك يتمشى في الطريق الرئيسي وهو يعرج قليلًا، لتمرير الوقت حتى يحين موعد ذهابه إلى الحانة.

في نهاية الشارع، عاد اللونان الأصفر الفاقع والأسود للظهور بشكل طاغٍ، وارتفعت لافتة رُسمت عليها الوردة الصفراء ومكتوب عليها نادي ملروز للرغبي. توقف سترايك في ذلك المكان وقد أدرك أخيرًا سبب اختيار الحانة لهذين اللونين، ووضع يديه في جيبيه، وراح ينظر من فوق جدار واطئ إلى الملعب الأخضر الواسع والذي تحيط به الأشجار، وأعمدة الرغبي الصفراء التي تلتمع في الشمس، والمدرّجات جهة اليمين، والهضاب المتموّجة برفق خلفها. في بلدة صغيرة كهذه بدا الملعب مجهّزًا على نحو يثير الدهشة، ويحظى بأعلى درجات العناية.

فيما كان سترايك يتأمّل الملعب المكسوّ بالعشب والشبيه ببساط مخمليّ، عادت إليه صور المبنى المتداعي حيث سكنوا. وتذكّر ويتايكر، يرقد بقذارته مدخّنًا المخدّرات، وليدا إلى جانبه تصغي بدهشة إلى الروايات التي يلفّقها عن حياته الصعبة. بات سترايك الآن يدرك كم كانت ليدا تصدّق أكاذيب ويتايكر بسهولة. فقد اقتنعت بأنّ مدرسة غوردونستاون لم تختلف عن سجن ألكاتراز بشيء، واستهجنت أن يُرغَم حبيبها الشاعر النحيل على الخروج في صقيع الشتاء السكوتلنديّ ليلعب الرغبي ويتلقّى الركلات العنيفة في الوحل وتحت المطر.

– لا! مسكين أنت يا عزيزي... أرغموك أنت على أن تلعب الرغبي!

جلس سترايك – بشفتين متورّمتين على أثر مباراة ملاكمة خاضها، وله من العمر يومذاك سبعة عشر عامًا – يصغي إلى تلك الرواية وهو يكتب فرضه المدرسيّ، فلم يتمالك نفسه من الضحك. هبّ ويتايكر واقفًا وصاح بنبرة هازئة كريهة:

– علامَ تضحك أيّها الأبله؟

لم يكن ويتايكر يتحمّل أن يهزأ به أحد. كان بحاجة ماسّة إلى تبجيل الآخرين، وإلّا فإلى خوفهم أو حتى اشمئزازهم، دليلًا على قوّته. لكنّ الهزء كان بالنسبة إليه إشارة إلى أنّ الآخرين يعتبرون أنفسهم متفوّقين عليه، وهو ما لم يكن قادرًا على تحمّله قطّ. فصاح بالفتى:

– كنت لتحبّ الذهاب إلى تلك المدرسة، أليس كذلك أيها الأحمق؟ أتظنّ نفسك من طبقة أعلى، وواحدًا من لاعبي الرغبي؟ وأضاف صائحًا بليدا: إجعلي والده الغنيّ يرسله إلى مدرسة غوردونستاون.

– إهدأ يا عزيزي، قالت ليدا لويتايكر، قبل أن تتوجّه إلى ابنها بنبرة أكثر جزمًا: لا يا كورم!

كان سترايك قد وقف وشدّ قبضته ينوي أن يضرب ويتايكر. يومذاك كاد يضربه فعلًا لولا أن والدته وقفت بينهما ووضعت على صدر كلّ من الرجلين يدًا نحيلة وملأى بالخواتم.

طرفت عينا سترايك، فعاد من رحلة الذكريات ليرى أمامه من جديد الملعب، ذلك المكان المخصّص للتنافس بروح رياضيّة وللإثارة، والذي يضيئه نور الشمس الساطع. بلغت أنفه رائحة أوراق الأشجار والعشب ودواليب السيّارات، آتية من الطريق القريب منه. فاستدار ببطء وعاد أدراجه باتجاه الحانة، يتوق إلى كأس. لكنّ لاوعيه كان يخبّئ له الكثير بعد.

أعاد إليه ملعب الرغبي ذكرى أخرى: صورة نويل بروكبانك، الرجل ذو الشعر الأسود والعينين الداكنتين يندفع نحوه رافعًا بيده زجاجة البيرة المكسورة. كان بروكبانك، اللاعب الظهير في فريق الرغبي، ضخم الجثة وقويًا

وسريعًا. تذكّر سترايك قبضته تتجاوز الزجاجة، لتهوي على رأس روكبانك في اللحظة التي لامس فيها الزجاج المكسور عنقه.

كِسر عند قاعدة الجمجمة، ذلك كان تعريف الإصابة. نزيف من الأذن، وإصابة دماغية كبرى.

– تبًا. تبًا. تبًا. تمتم سترايك، على وقع خطواته.

لاينغ، أتيتَ إلى هنا لأجل لاينغ.

مرّ تحت السفينة المعدنية ذات الأشرعة الصفراء المعلقة فوق باب شيب إن. ورأى في الداخل لافتة كُتب عليها الحانة الوحيدة في ملروز.

ما كاد يدخل حتّى وجد أنّ المكان كفيل بأن يهدّئ الأعصاب: الألوان الدافئة، وتألق الزجاج ولمعان النحاس، وسجادة كمرقّعة يختلط فيها البنّي بالأحمر والأخضر، ولكن بدرجات لون غير صارخة، وجدران من حجارة ترابيّة عارية. كل ما في ذلك المكان كان يقدّم دليلًا على هوس ملروز الرياضي: الألواح التي تعلن عن مواعيد المباريات، وشاشات البلازما العملاقة. وحتّى فوق المراحيض (انقضت ساعات منذ أن تبول سترايك) رُكّب في الجدار تلفزيون صغير، تحسّبًا للحالات التي تشتدّ فيها الحاجة إلى مشاهدة المباراة وإلى التبوّل في الوقت عينه.

لم تفارق سترايك فكرة أنّه مضطرّ إلى العودة إلى إدنبره بسيارة هاردكاير. إبتاع ربع ليتر من البيرة وجلس على أريكة جلدية مقابل البار، وأخذ لائحة الطعام ليتفحّصها، آملًا أن تكون مارغريت بونيان دقيقة في مواعيدها، فقد لاحظ أنّه يحسّ بالجوع.

لم تتأخّر إلّا خمس دقائق. صحيح أنّه لم يلتقِها قطّ وكاد ينسى ملامح ابنتها، ولكنّه سرعان ما تعرّف عليها حين وقفت عند الباب تتفرّس به، بوجه يشي بمزيج من استعجال اللقاء والخشية في الوقت عينه.

حين سارت إليه بخطى متعثرة، قابضة بكلتا يديها على حقيبة يدها السوداء الكبيرة، وقف سترايك احترامًا.

– أنت سترايك فعلًا، قالت لاهثة.

كانت تلك المرأة التي لها من العمر نحو ستين عامًا، قصيرة القامة، وضعيفة البنية، وذات شعر أشقر ومتموج، وتضع نظّارة لها إطار معدنيّ. ودلّت ملامحها إلى القلق الذي يسكنها.

مد إليها سترايك يده الضخمة وصافحها، فأحسّ بيدها الباردة والصغيرة العظام ترتجف قليلًا.

– والدها في هاويك اليوم، ولا يستطيع المجيء. إتصلت به فطلب مني أن أبلغك أننا لن ننسى أبدًا ما فعلته من أجل رونا، قالت السيدة بونيان لسترايك. ثمّ ارتمت جالسة بجانبه على الأريكة، مواصلة التحديق به بمزيج من الرهبة والإعجاب. وأضافت: لم ننسَ قطّ. نتابع أخبارك في الجرائد. حزنّا جدًّا لفقدانك ساقك. ما فعلته لرونا! ما فعلته... وفجأة اغرورقت عيناها بالدموع، وقالت: لقد كنّا...

– يسرّني أنّني استطعت... أن أساعدها.

العثور على ابنتها مقيّدة في السرير، عارية، تغطّيها الدماء؟ أصعب ما في عمله كمحقق كان أنّ عليه أن يخبر أقارب الضحايا بما عاناه أبناؤهم.

تمخّطت السيدة بونيان بمنديل وجدته في حقيبة يدها. بدا واضحًا لسترايك أنّها من جيل النساء اللواتي لا يدخلن الحانات بمفردهنّ أبدًا، وينتظرن من الرجل أن يطلب الشراب بالنيابة عنهنّ.

– هل أقدّم لك ما تشربينه؟

– فقط عصير برتقال، قالت وهي تمسح عينيها بالمنديل.

– وطعامًا، أضاف سترايك ملحًّا، وقد عزم على طلب طبق السمك والبطاطا لنفسه.

طلب ما يريدانه عند البار وعاد إليها. وحين سألته عمّا يفعله في ملروز، أدرك في الحال سبب توتّرها.

– هو لم يعد، أليس كذلك؟ دوني؟ هل عاد؟

– حسبما أعلم، هو لم يعد، قال سترايك. أنا أجهل مكانه.

– أتظنّ أنّ له صلة... وأضافت وقد تحوّل صوتها إلى همس: قرأنا في الجريدة... رأينا أنّ أحدهم أرسل إليك...

– نعم، قال سترايك. أجهل ما إذا كانت له علاقة بالأمر، لكنني أودّ العثور عليه. قيل لي إنّه أتى إلى هنا ليرى أمّه بعدما خرج من السجن.

– حدث ذلك منذ أربع أو خمس سنوات، قالت مارغريت بونيان. وصل فجأة ودخل المنزل عنوة. إنّها مصابة بالألزهايمر الآن. لم تستطع منعه من الدخول، لكنّ الجيران اتّصلوا بأشقائه الذين أتوا وطردوه خارجًا.

– حقًّا؟ طردوه؟

– دوني هو الأصغر سنًّا، قالت السيدة بونيان. له أربعة أشقّاء قساة الطباع. جايمي، الذي يقيم في سلكرك، عاجل بالقدوم وطرد شقيقه من منزل والدته. يقولون إنّه ضربه حتّى أفقده الوعي.

شربت بشفتين مرتجفتين جرعة من عصير البرتقال قبل أن تتابع:

– لقد علمنا بما حدث. فصديقنا بريان، وهو الرجل الذي التقيته، شاهدهم يتعاركون في الشارع. أربعة ضدّ رجل واحد، وكلّهم يصيحون. أحد الجيران اتصل بالشرطة. تلقى جايمي إنذارًا لكنّه لم يبالِ. لم يرد الأشقاء أن يروا دونالد قريبًا منهم أو من والدتهم. وأرغموه على مغادرة البلدة. وتابعت تقول: شعرت برعب، من أجل رونا. فلطالما قال إنّه سيعود للبحث عنها حالما يغادر السجن.

– وهل فعل ذلك؟ سألها سترايك.

– نعم، أجابت مارغريت بونيان بألم. كنّا نعلم أنّه سينجح بذلك. إنتقلت رونا للسكن في غلاسكو، ووجدت وظيفة في وكالة سفريات. ومع ذلك تمكن من العثور عليها. عاشت ستة أشهر تخشى عودته. وفي أحد الأيام عاد فعلًا. أتى إلى منزلها ذات مساء ولكنه كان مريضًا. كان مختلفًا عن الرجل الذي عرفته من قبل.

– مريض؟ سألها سترايك فورًا.

– نسيت ما هو مرضه. أظنّه نوعًا من داء المفاصل. قالت لي رونا إنّ وزنه زاد كثيرًا. أتى إلى منزلها ليلًا بعدما تعقّبها. لكنّ حسن حظّها شاء أن يكون خطيبها موجودًا. يدعى بن، وهو شرطيّ، أضافت السيدة بونيان بنبرة انتصار، وقد أشرق فجأة وجهها الشاحب.

لقد ظنّت بلا شكّ أنّ خبرًا كهذا سيفرح سترايك، كما لو أنّه وبن من عائلة واحدة، عائلة المحققين الكبرى. وتابعت تقول:

– إنّهما متزوّجان الآن، ولكن بدون أولاد، بسبب... أنت تعرف السبب.

وفجأة فاضت عينا السيدة بونيان بالدموع، التي سالت من خلف النظارة على خدّيها. وكأنّ الرعب الذي عاشته ابنتها منذ عشر سنوات عاد للظهور أمام عينيها، أو كأنّ أحدهم قد رمى على الطاولة كومة من النفايات.

– غرز لاينغ سكّينًا في بطنها، قالت هامسة.

كانت تبوح بأسرارها لسترايك وكأنّه طبيب أو كاهن، وكأنّه الوحيد القادر على سماع ما يُثقل قلبها، وما تعجز عن إخبار أصدقائها به. إنّه الشخص الذي شاهد الأسوأ. وفيما راحت تبحث في حقيبة يدها السوداء عن منديل، عادت إلى ذاكرة سترايك صورة بقعة الدم الكبيرة على الغطاء، والجلد المسلوخ على معصم رونا. كان من حسن حظّ الوالدة أنّها لم تدرك ما يدور في ذهنه.

– غرز سكّينًا في... وقد حاولوا... تعرف... معالجة...

حاولت السيدة بونيان استعادة أنفاسها وهي ترتجف. ثمّ وصل طبقاهما.

– لكنّها تقضي إجازة ممتعة مع بن، همست له بنبرة مضطربة، وهي لا تكفّ عن تجفيف خدّيها الهزيلين، ونزع نظارتها لتمسح عينيها. وأضافت: وهما يربّيان... يربّيان كلاب رعيان ألمانية.

كان سترايك يشعر بجوع شديد، لكنّه امتنع عن الأكل بعدما أثير موضوع ما عانته رونا لاينغ من عذاب.

– أنجبت طفلًا من لاينغ. أليس كذلك؟ سألها وقد تذكّر الصغير الذي كان يئنّ بالقرب من والدته المدمّاة، والمصابة بالجفاف. لا بد من أنه ببلغ عامه العاشر؟

– لقد... مات، غمغمت، ودموعها تتقطر من ذقنها. تعرض لموت مفاجئ. كان مريضًا دائمًا، المسكين. حدث ذلك بعد يومين من اعتقال... دوني. وهو... دوني... اتصل برونا من السجن ليقول لها إنها قتلت الطفل، وإنه سيصفي حسابه معها حالما يخرج من السجن.

وضع سترايك يده الضخمة على كتف المرأة الباكية. ثمّ نهض واقترب من النادلة الشابة التي كانت تنظر إليهما فاغرة الفم. أراد أن يطلب لها كأس كونياك، لكنّه عدل في اللحظة الأخيرة. فالكونياك مشروب قويّ جدًّا بالنسبة إلى امرأة نحيلة مثلها. كانت جوان خالة سترايك، والتي لم تكن أكبر سنًّا بكثير من السيدة بونيان، تعتبر نبيذ البورتو بمثابة علاج. فطلب كأس بورتو وعاد بها إلى المرأة.

– هاك، اشربي هذا.

عادت دموعها لتسيل غزيرة. لكنّها أخذت منديلها المبلّل ومسحت به وجهها، وقالت له بصوت مرتجف:

– أنت لطيف جدًّا.

بعد ذلك شربت كأس البورتو، وتنهدت، وهي تحاول أن تمنع برموشها الشقراء فيضًا جديدًا من الدموع من أن يسيل من عينيها المحمرّتين.

– أتعرفين أين ذهب لاينغ بعدما قصد منزل رونا؟

– نعم، قالت همسًا. إستطاع بن، كونه شرطيًّا، أن يتعقّبه بواسطة مكتب إطلاق السراح المشروط. يبدو أنّ دوني ذهب إلى غايتسهاد، لكنني أجهل ما إذا بقي هناك.

غايتسهاد. تذكّر سترايك أنّه عثر عبر الإنترنت على شخص يدعى دونالد لاينغ. هل انتقل من غايتسهاد إلى كوربي؟ أم أنّهما شخصان مختلفان؟

– بأيّة حال، قالت السيدة بونيان، لم يعد إلى إزعاج رونا وبن قطّ.

– بالتأكيد! بوجود شرطيّ وكلاب رعاة ألمانية! ليس غبيًّا.

بدا أنّ كلمات سترايك الرقيقة قد أعادت إليها شجاعتها. وبابتسامة مبلّلة صغيرة، بدأت تأكل طبق المعكرونة بالجبن.

– تزوّجا وهما صغيرا السنّ، علّق سترايك توّاقًا لمعرفة كلّ ما يمكنه معرفته عن لاينغ، لعلّه يستخلص من أخبار عاداته ومَن يعاشرهم دليلًا ما.

هزت رأسها موافقة وقالت بعدما ابتلعت الطعام:

– كانا صغيري السنّ جدًّا. حين بدأت تعاشره، كان لها من العمر خمسة عشر عامًا فقط. لم يعجبنا الأمر، بسبب ما سمعناه عنه. فقد زعمت

فتاة أنّه اعتدى عليها في ملهى يونغ فارمرز. لم تثبت التهمة قطّ، فالشرطة قالت إنّ الأدلّة غير كافية. حاولنا أن ننصح رونا بالابتعاد عنه لأنّه مصدر للمتاعب، قالت متنهّدة، لكنّها ازدادت تشبّثًا به. رونا عنيدة جدًّا.

– هل سبق أن وُجّهت إليه تهمة الاغتصاب؟ سألها سترايك.

كان طبق السمك والبطاطا الذي يتناوله لذيذًا جدًّا. وأخذت الحانة تمتلئ، وهو ما استحسنه سترايك، لأنّ النادلة انشغلت عن مراقبتهما.

– نعم. إنّهم عائلة قروبين، قالت السيدة بونيان بالنبرة المتعجرفة لساكني المدن الصغيرة، والتي عرفها سترايك نفسه في حداثته. الأشقاء لاينغ ليسوا سوى زمرة من الأشقياء! شجاراتهم لا تنتهي، ومشاكلهم مع الشرطة لا تنتهي، لكنّه كان أسوأهم. أشقاؤه لم يكونوا يحبونه، وكذلك أمّه، برأيي. كانت ثمّة شائعة، أضافت وقد راقها فجأة البوح بالأسرار، تقول إنّه ليس ابن أبيه. كان والداه دائمَي الشجار، وقد انفصلا. وآنذاك حملت بدوني. قيل إنّها عاشت مغامرة صغيرة مع شرطيّ محليّ. أجهل إن كان ذلك صحيحًا. رحل الشرطيّ، وعاد السيد لاينغ. لكنّ السيد لاينغ لم يحبّ دوني قطّ. أنا واثقة من ذلك. لم يكن يحبّه قطّ. كان الناس يقولون إنّه على علم بأنّ دوني ليس ابنه. كان الأعنف بين أفراد العائلة. رجل ضخم الجثّة. وكان في فريق السبعة.

– السبعة؟

– فريق رغبي السبعة، أجابت.

حتّى هذه السيدة المميزة أصيبت بالدهشة حين لم يفهم سترايك بسرعة عبارة تتعلق برياضة ترفعها بلدة ملروز كلها إلى مرتبة القداسة. وأضافت تقول:

– طردوه من الفريق، لعدم الانضباط. وفي الأسبوع التالي قلب أحدهم أرض غرينياردز، أي الملعب. قالت موضحة، وكأنها أدركت أنّ هذا الإنكليزي لا يفهم شيئًا.

كان البورتو قد أطلق لسانها، فباتت الكلمات تخرج منها بسهولة.

– إتجه إلى الملاكمة. كان يعرف كيف يسحر المحيطين به. أجل. حين بدأت رونا بمعاشرته، وكانت في عامها الخامس عشر، وهو في السابع

عشر، قال لي بعضهم إنّه ليس بالرجل السيئ. أجل، أجل، قالت وهي تهزّ رأسها أمام تعبير الدهشة الذي ظهر على وجه سترايك. مَن لا يعرفونه جيّدًا وقعوا ضحيته. دوني لاينغ يستطيع أن يكون جذّابًا حين يريد ذلك.

ليس عليك سوى أن تسأل والتر غيلكرايست عما إذا كان يجده جذّابًا. عمل دوني في مزرعته، لكنّه كان يصل إلى العمل متأخّرًا دائمًا، وفي النهاية طرده والتر. وبعد ذلك، احترق مخزن الحبوب في مزرعته. ولم يستطيعوا قطّ أن يثبتوا أنّ دوني هو الفاعل. كما لم يستطيعوا أن يثبتوا أنّه مَن خرّب ملعب الرغبي. أمّا أنا فلا أحتاج إلى إثباتات لأعرف مَن الفاعل.

لكنّ رونا أدارت أذنًا صمّاء لكلّ ما يُقال. ظنّت أنّها تعرفه. واعتبرته ضحيّة سوء فهم من الآخرين. كنّا نحن بالنسبة إليها أشخاصًا محدودي العقل ومليئين بالأحكام المسبقة والمتحاملة ضدّه. أراد الالتحاق بالجيش، فقلت في نفسي: الحمد لله على خلاصنا منه. كنت آمل أن تنساه.

ثمّ عاد، فحملت منه، ثمّ فقدت الطفل. كانت غاضبة مني لأنني قلت...

هنا صمتت، لكنّ سترايك فهم ما أرادت قوله.

– بعد ذلك، رفضت التحدّث إليّ. وانتظرت عودته في مأذونية لتتزوجه. لم أُدع وأباها إلى العرس. ثمّ سافرا إلى قبرص. لكنني أعرف أنّه قتل هرّتنا.

– ماذا؟ صاح سترايك مذهولًا.

– أعرف أنّه الفاعل. في آخر لقاء مع رونا قبل زواجها، قلنا لها إنّها ترتكب خطأً فادحًا. في تلك الليلة، لم تعد بوردي إلى المنزل. وفي الصباح التالي وجدنا جيفتها على العشب خلف المنزل. قال الطبيب البيطريّ إنّها ماتت خنقًا.

على شاشة البلازما خلف رأس السيدة بونيان، ظهر ديميتار برباتوف باللباس الأحمر يسجّل هدفًا ضدّ فولهام. علا الصياح حولهما، واختلطت اللكنة السكوتلندية بقرقعة الصحون والأكواب، فيما كان سترايك يسمع من محاورته أخبار الموت والتشويه.

– أعرف أنه الفاعل. أعرف أنه قتل برودي، قالت مضطربة. أنظر إلى ما فعله برونا والطفل. إنّه رجل شرير.

فتحت حقيبة يدها وأعطته بعض الصور، وتابعت:

– يقول لي زوجي دائمًا: لماذا تحتفظين بهذه الصور؟ أحرقيها. لكنني اعتقدت دائمًا أننا قد نحتاج إلى صوره يومًا ما. تفضل، قالت له وهو يأخذ الصور بحماسة. إحتفظ بها. لقد ذهب إلى غايتسهاد.

تركته السيدة بونيان وهي تعيد باكية على مسامعه عبارات الشكر. دفع سترايك الحساب وسار إلى ميلرز أوف ملروز، وهو متجر لحوم قديم الطراز لاحظ وجوده أثناء سيره في البلدة. وهناك اشترى فطائر بلحم الطرائد، مدركًا أنّها ستكون أشهى بكثير من كلّ ما يمكنه شراؤه من محطّة القطارات قبل أن يعود للسفر ليلًا إلى لندن.

عاد سترايك إلى موقف السيارات عبر زقاق مزيّن بورود ذهبية، وتذكّر من جديد وشم الزهرة على ذراع لاينغ.

لا شكّ بأنّ الانتماء إلى هذه البلدة الجميلة المحاطة بالأراضي الزراعية، والتي تشرف عليها هضبة إيلدون ذات القمم الثلاث كان في الماضي البعيد أمرًا بالغ الأهمية بالنسبة إلى دوني لاينغ. ومع ذلك، فهو لم يجد فيها مكانًا له، ولم يصبح مزارعًا ولا لاعب رغبي. لم يندمج في هذه الجماعة من المواطنين الغيارى على القيم كالنظام والانضباط والنزاهة. وقد لفظت ملروز الرجل الذي أحرق مخازن حبوبها وخنق هررتها وخرّب ملعب الرغبي فيها. كان رفض البلدة للاينغ شديدًا لدرجة أنّ هذا الأخير لجأ إلى مكان آخر، إلى حيث وجد قبله كثيرون إمّا الخلاص أو حلًا طبيعيًا: وهو الجيش البريطانيّ. وبعدما انتهى به الأمر في السجن، وأمضى عقوبته، حاول العودة إلى موطنه. ولكنّ أحدًا هناك لم يرضَ بعودته.

هل كان الاستقبال الذي لقيه دونالد لاينغ في غايتسهاد أكثر دفئًا؟ هل غادر غايتسهاد إلى كوربي؟ تساءل سترايك وهو يتقوقع ليدخل سيّارة الميني الصغيرة، أمّ أنّ تينك المدينتين لم تكونا سوى محطّتين على الطريق الذي يقود إلى لندن، إلى حيث سترايك؟

17

The Girl That Love Made Blind[1]

حلّ صباح الثلثاء. نامت الشيء بعدما قالت إنّها لم تذق للنوم طعمًا طوال الليل. لم يكن يبالي بذلك، ومع ذلك يجب التظاهر بأنّه يبالي. أصرّ على أن تعود الشيء لتستلقي. وحين بدأت تتنفسّ بعمق وهدوء، بقي لبعض الوقت بجانب السرير ينظر إليها متخيّلًا نفسه يخنقها حتى الموت. تـراءت له جاحظة العينين، مفتوحة الفم تصارع بحثًا عن الهواء، ولون وجهها يتحوّل إلى القرمزيّ.

بعدما تأكّد من أنّ الشيء تغطّ في نوم عميق، غادر الغرفة على أطراف أصابعه، ارتدى سترة، ثم انسلّ خارجًا في الصباح الباكر يبحث عن السكرتيرة. مضت أيّام لم تتسنّ له خلالها فرصة اللحاق بها. أدرك أنّـه تأخّر ولم يعد بوسعه انتظارها في المحطة القريبة من منزلها، والأجدى به أن يذهب إلى تقاطع شارع الدانمارك.

لمحها في البعيد. من السهل جدًّا التعرّف على هذا الشعر الأشقر المتموّج. لا شكّ بأنّ العاهرة الصغيرة تحبّ أن يلاحظها الآخرون، وإلّا لقصّت شعرها أو صبغته أو غطّته بقبّعة. كلّهنّ متشابهات. كلّهنّ يردن أن يكنّ موضع انتباه. كان يدرك ذلك جيّدًا.

[1] الفتاة التي أعمى الحبّ بصيرتها.

حين رآها تقترب شعر بأنّ شيئًا ما تغيّر فيها. حدسه في ذلك لا يخطئ، فهو قادر على أن يميّز في الحال تقلّبات الآخرين المزاجيّة. كانت تسير وهي تنظر إلى الأرض، متقوّسة الكتفين، من دون أن تنتبه إلى المارّة الذين يسرعون إلى أعمالهم، وبيد كلّ منهم ما يتشبّث به: هذه تمسك بحقيبة يدها، وهذا بهاتفه وذاك بفنجان قهوة...

كاد أن يلامسها حين مرّ بها. إقترب منها لدرجة أنّه كاد يشمّ رائحة عطرها لولا أنّ الشارع كان يختنق بغازات عوادم السيارات والغبار. لكنّها لم تنتبه لوجوده حتّى. صحيح أنّه بذل كلّ ما بوسعه لكي لا تراه، ومع ذلك لم يرق له أن تعامله بمثل هذه اللامبالاة امرأة اختارها من بين آلاف النساء.

لكنّه ومن جهة أخرى، اكتشف أنّها بكت لفترة طويلة. كان يعرف أن يميّز النساء اللواتي بكين، فقد رأى الأمر كثيرًا: إنتفاخ الوجه، واحمراره، وهبوط ملامحه، والدمع، والأنين. هذه الملامح تتشابه لدى كلّ النساء. كلهنّ يعشقن لعب دور الضحيّة. يكاد المرء يشعر برغبة في قتلهنّ فقط لمجرّد أن يكتم لديهن هذا الأنين.

عاد أدراجه وسار خلفها مسافة الأمتار القيلة التي تفصلهما عن شارع الدانمارك. في مثل هذه الحال غالبًا ما تستجيب النساء. والتحكّم بهنّ يصبح أسهل وهنّ تحت تأثير الخوف أو الحزن. حينذاك تنسى هؤلاء العاهرات تكتيكاتهنّ الصغيرة التي يلجأن إليها عادة لإبعاد أمثاله من الرجال، كالمفاتيح البارزة من بين أصابع اليد المشدودة كقبضة، أو الهاتف القريب جدًّا، أو أجهزة الإنذار الخاصّة بمقاومة المغتصبين، أو السير في الشوارع المزدحمة. حينذاك يتلهّفن إلى كلمة رقيقة، وأذن تصغي إليهنّ بحنان. هكذا تمكّن من الشيء.

حين رآها تسير في شارع الدانمارك، حثّ خطاه. كان الصحافيون قد ملّوا محاصرة المكتب بعد ثمانية أيام من الحصار، ورحلوا. فتحت السكرتيرة باب الطابق السفلي ودخلت.

هل ستخرج أم أنها ستقضي اليوم مع سترايك؟ كان يأمل أن يكون بين الاثنين علاقة جنسية. الأمر طبيعي. أليس هذا ما يحدث حين يقضي رجل

وامرأة أيامًا بكاملها وحيدين في المكتب عينه؟ وقف في ظلّ شرفة وأخرج هاتفه من دون أن يبعد نظره عن نافذة الطابق الأول، في المنزل رقم 24.

18

I've been stripped, the insulation's gone[1].

Blue Öyster Cult, 'Lips in the Hills'

دخلت روبن مكتب سترايك للمرة الأولى صباح اليوم التالي لخطوبتها. عاد إليها المشهد وهي تدير المفتاح في القفل. يومذاك كانت تهمّ بطرق الباب حين رأت ظلًا داكنًا فوق ياقوت خاتمها، وما لبث سترايك أن ظهر أمامها يندفع خارجًا من المكتب، فكاد يشقلبها فوق الدرج المعدنيّ.

أمّا اليوم فلم تكن روبن تضع خاتمًا. لكنّ جلد إصبعها لا يزال حسّاسًا جدًا وكأنّ الخاتم الذي بقي شهورًا ترك أثره على الإصبع. كانت تحمل جعبة تضع فيها ثيابًا احتياطية وبعض أدوات التبرّج.

لا يمكنك أن تبكي هنا. عليك ألّا تبكي هنا.

بحركة آلية، قامت بالأعمال الصغيرة التي اعتادت القيام بها حين تصل إلى العمل: خلعت معطفها، وعلقته مع حقيبة يدها على مشجب بقرب الباب، ملأت الغلاّية الكهربائيّة الماء وسخّنتها، ثم وضعت جعبتها تحت مكتبها لئلا يراها سترايك. عادت لتتأكّد مرّات عّدة من أنّها لم تنسَ شيئًا.

[1] تعرضتُ للسرقة، وزال العزل الحراري.

خامرها شعور غريب، وكأن جسدها ليس سوى دخان، أو شبح ذي أصابع باردة لا يمكنها الإحساس بها، تحاول عبثًا الإمساك بحقيبة يدها، أو بالغلاّية.

كانت أربعة أيام كافية للقضاء على علاقة عمرها تسع سنوات. أربعة أيام اشتدّ فيها الخلاف، وظهرت الأحقاد وأُلقيت الاتّهامات. من أجل أمور تافهة: اللاند روفر، سباق الجياد، الكومبيوتر المحمول الذي أخذته معها في إجازة الأسبوع. يوم الأحد تشاجرا حول مَن سيدفع بدل استئجار سيارات العرس: والده أم والداها؟ فكان أن عاد من جديد إلى لومها على راتبها الضئيل. وطوال رحلة العودة باللاند روفر إلى وست إيلينغ صباح الاثنين، ساد بينهما صمت مخيف...

وفي المساء، انفجر كلّ شيء. كان الصدام الأخير من القوّة أن جعل مناوشاتهما السابقة أشبه بهزّات صغيرة تنذر بزلزال مدمّر.

كانت روبن تنتظر نزول سترايك بين لحظة وأخرى. سمعته يتحرّك في شقّته في الطابق الأعلى. أدركت أنّ في مصلحتها أن تخفي مشاعرها وارتباكها. لم يبقَ لها سوى عملها. عليها أن تبحث عن غرفة تستأجرها في شقّة ما. بالراتب الضئيل الذي يدفعه لها سترايك، لم يكن في وسعها أكثر من ذلك. حاولت أن تتخيّل الأشخاص الذين ستشاركهم السكن، تراءى لها أنّها تعود إلى مهجع الطالبات.

ستفكّرين في الأمر لاحقًا.

أدركت وهي تعدّ الشاي أنّها نسيت إحضار الأكياس التي اشترتها من بيتيز، بعدما ذهبت لقياس فستان الزفاف. كادت هذه الفكرة الأخيرة أن تفقدها أعصابها. لكنّها استجمعت كلّ ما تملك من إرادة، فحبست دموعها وحملت فنجان الشاي إلى مكتبها، وجلست لفتح الرسائل الإلكترونية التي تراكمت خلال فترة الأسبوع التي قضياها بعيدًا عن المكتب.

كان سترايك قد وصل حديثًا من سكوتلندا، بقطار الليل. سيكون هذا موضوعًا جيّدًا للحديث حين يوافيها في المكتب بعد قليل. لعله لن يلاحظ عينيها المنتفختين. حاولت معالجة الأمر قبل مغادرتها منزلها، فوضعت على جفنيها ماء باردًا وثلجًا. بدون جدوى.

أراد ماثيو هذا الصباح أن يمنعها من الخروج، فسدّ طريقها.

– إسمعي. يجب أن نتحادث. حقًّا.

أبدًا، فكّرت روبن وهي تحمل فنجان الشاي إلى شفتيها بيد مرتجفة. بعد اليوم لن يكون عليّ أن أفعل ما لا أريده أبدًا.

لكنّ هذه الشجاعة المفاجئة سرعان ما ذهبت بها دمعة كبيرة ساخنة سالت فوق خدّها. هالها الأمر فسارعت إلى مسحها بيدها. كانت تعتقد أنها ذرفت كل ما في عينيها من دموع. حوّلت نظرها إلى شاشة الكومبيوتر، وبدأت بكتابة ردّ لزبون يطالب بفاتورته. وكادت ألّا تفهم ما تكتبه بنفسها.

سمعت أصواتًا على الدرج، فتمالكت ذاتها. فُتح الباب. نظرت روبن، لكنّ الرجل الذي دخل المكتب لم يكن سترايك.

تملّكها خوف شديد. لا وقت الآن لتحليل سبب المشاعر التي أثارها دخول هذا الرجل الغريب. عرفت فقط أنّه يمثّل خطرًا. وبلمحة بصر أدركت أنّها لا تستطيع الهروب، وأنّ جهاز الإنذار الذي تحمله ليس قريبًا، بل في جيب معطفها، وأنّ السلاح الوحيد الذي قد يبعد الخطر عنها ما هو إلّا فتّاحة الرسائل البعيدة سنتمترات قليلة عن يدها اليسرى.

كان الرجل هزيلًا، شاحب الوجه، حليق الرأس، كبير الفم، مكتنز الشفتين، له أنف ضخم تغطّيه حبوب النمش، ملأت الوشوم معصميه وأصابعه وعنقه. إلتمعت خلف تكشيرة فمه سنّ ذهبيّة، وامتدّت ندبة عميقة من شفته العليا حتى عظم خدّه، فارتسمت بشكل دائم على هذا الوجه البشع صورة ابتسامة إلفيس برسلي الهازئة. كان يرتدي سروال جينز فضفاضًا وكنزة رياضيّة، وانبعثت منه رائحة تبغ بارد وقنّب قوية جدًّا.

– أنت بخير؟ سألها وهو يتقدّم نحوها. لم يكن يتوقف عن الطقطقة بأصابع يديه المسدلتين. طق. طق. طق. أنت وحدك؟

– لا، أجابته بفم جافّ. أرادت أن تمسك بفتّاحة الرسائل قبل أن يقترب كثيرًا. طق. طق. طق. ربّ عملي لن يلبث أن...

– شانكر! دوّى صوت سترايك عند عتبة الباب.

إستدار الرجل المجهول.

– بانسن، ردّ قائلًا. توقفت طقطقة الأصابع، ومدّ الرجل ذراعه لتلتقي قبضته المقفلة بقبضة سترايك. وقال له: كيف حالك يا صديقي القديم؟

ربّاه! فكّرت روبن وقد غمرها الارتياح. كانت ركبتاها تصطكّان خوفًا. لماذا لم يبلغها سترايك بأنّه ينتظر زائرًا؟ بسرعة، أدارت رأسها وعادت لكتابة الرسالة لئلاّ يلاحظ هذا الأخير انتفاخ وجهها. دخل سترايك وشانكر الغرفة الثانية، وقبل أن يغلقا الباب خلفهما، سمعت روبن اسم ويتايكر.

في غير هذا اليوم، ما كانت لتتردّد باللحاق بهما إلى المكتب لسماع محادثتهما. أنهت كتابة الرسالة، وفكّرت في أنّ عليها تقديم القهوة إليهما. قبل أن تفعل، ذهبت إلى المرحاض لتزيل عن عينيها آثار البكاء. لاحظت أنّ رائحة المجارير لا تزال تنبعث من هذه الحجرة الصغيرة برغم كلّ معطّرات الهواء التي اشترتها.

كانت نظرة واحدة إلى وجه روبن كافية لتثير صدمة سترايك. لم يسبق له قطّ أن رآها بمثل هذا الشحوب، وبعينين منتفختين ومحتقنتين بالدم. برغم أنّه كان جالسًا إلى مكتبه يتحرّق لمعرفة ما استطاع شانكر معرفته بشأن ويتايكر، لم يستطع منع نفسه من التفكير: ماذا فعل بها ذلك الوغد هذه المرة؟ تخيل للحظة، وبكثير من السعادة، أنّه يحطّم بقبضته وجه ماثيو. ثمّ عاد لتركيز انتباهه على زائره.

– وجهك بشع جدًّا يا بانسن، قال شانكر وهو يعدّل جلسته في الأريكة المقابلة للمكتب.

ثمّ عاد إلى الطقطقة بأصابعه بحماسة بالغة. لم تبارحه هذه العادة منذ مراهقته، وكان سترايك يشفق على مَن قد يحاول شفاءه منها.

– أنا مرهق، قال سترايك. كنت في سكوتلندا، ولم تمضِ سوى ساعات قليلة على عودتي.

– لم أذهب إلى سكوتلندا قطّ.

ما كان سترايك يعرف أنّ شانكر لم يغادر لندن قطّ.

– إذًا، ماذا تحمل إليّ؟

– لا يزال هنا، قال شانكر وقد توقف عن الطقطقة ليخرج علبة سجائر مايفير من جيبه. أشعل سيجارة بدون أن يستأذن مضيفه. لكنّ هذا الأخير لم يبالِ، بل أخذ علبته الخاصّة واستعار ولاعة شانكر، الذي أضاف: وفقًا للمروّج الذي يبيعه المخدرات، لا يزال في كاتفورد.

– هل غادر هاكني؟

– أجل، إلا إذا ترك خلفه نسخة طبق الأصل عنه. لم أتحقق من هذا يا بنسون. أعطني مئة جنيه أخرى وسأفعل.

ضحك سترايك هازئًا. كان الاستخفاف بشانكر مجازفة. قد يوحي مظهره بأنّه لم يترك نوعًا من الموادّ الممنوعة إلّا وجرّبه، لكن اضطرابه الدائم لم يكن يعني قطّ أنّه يتعاطى المخدرات. الواقع أنّه كان أكثر يقظة من معظم رجال الأعمال بعد يوم مرهق. لكنّ الجريمة تسري في دمه.

– هل تعرف عنوانه؟ سأله سترايك وهو يمدّ نحوه دفترًا صغيرًا.

– لا، بعد.

– هل يعمل؟

– يقول للجميع إنّه ينظّم جولات فنية لفرقة موسيقية.

– ولكن؟

– يعمل قوّادًا، قال شانكر كمن يتوصل إلى استنتاج بديهيّ.

دُقّ باب الغرفة.

– هل يرغب أحدكما في القهوة؟ سألت روبن.

إتّضح لسترايك أنّها تتجّنب ظهور وجهها في الضوء. نظر إلى يدها اليسرى فلم يرَ خاتم الخطبة.

– نعم، شكرًا، قال شانكر، مع حبّتي سكّر.

– أنا أريد الشاي، قال سترايك وهو يراها تبتعد.

مدّ يده إلى الدرج حيث يحتفظ بمنفضة القصدير القديمة التي سرقها من حانة في ألمانيا، ودفعها إلى شانكر قبل أن يسقط أرضًا الرماد الذي يتأرجح على طرف سيجارته.

– ما أدراك بأنّه يعمل قوّادًا؟

– أعرف رجلًا شاهده مع الفتاة التي يسهّل لها الدعارة، أجاب شانكر. تقول إنّ ويتايكر يقيم معها. طفلة. لم تكد تتجاوز السنّ القانونية.

– أجل، قال سترايك.

منذ أن بدأ بممارسة مهنته هذه، تعامل مع كلّ أنواع القوّادين. لكنّ الأمر يختلف هذه المرّة، فهو يتعلّق بزوج والدته السابق، الرجل الذي أولعت به والدته وحبلت منه بطفل. عادت إليه من جديد الرائحة النتنة، رائحة ويتايكر القذر وملابسه المثيرة للغثيان.

– كاتفورد، قال من جديد.

– نعم. سأستمرّ بالبحث إذا شئت، قال شانكر وهو يرمي رماد سيجارته أرضًا، متجاهلًا المنفضة. كم أنت مستعدّ لتدفع يا بانسن؟

راحا يتفاوضان على الأجر، بمزاج يغلبه المرح، ولكن على قاعدة أنّ شانكر لا يحرّك إصبعًا ما لم يكن أجره سخيًّا. ثمّ دخلت عليهما روبن حاملة القهوة. ظهر وجهها في الضوء، وكان مرآها يبعث على الألم.

– أجبت على الرسائل الأكثر استعجالًا، قالت لسترايك، متظاهرة بأنّها لم تلاحظ نظرته المتفحّصة إليها. سأخرج الآن لأهتمّ ببلاتينوم.

نظر شانكر إليهما محتارًا، لكنّ أحدًا لم يتكلّف عناء أن يشرح له ما يجري.

– هل أنت بخير؟ سألها سترايك الذي كان يفضّل عدم وجود شانكر آنذاك.

– نعم، بخير، أجابت روبن متصنّعة الابتسام. سأطلعك على ما يستجدّ.

– تخرج لتهتمّ ببلاتينوم؟ قال شانكر فيما كان الباب يُغلق.

– لا تطلق العنان لمخيّلتك، قال له سترايك.

عاد إلى الوراء في كرسيّه لينظر عبر النافذة. رأى روبن تخرج من المبنى وهي ترتدي واقي المطر، وتسير في شارع الدانمارك، لتنعطف عند إحدى الزوايا. فجأة خرج من متجر الغيتارات في الجهة المقابلة رجل ضخم الجثة يرتدي طاقية، وسار خلفها. لكنّ سترايك كان مضطرًّا إلى الإجابة على سؤال شانكر:

– هل صحيح أنّهم أرسلوا إليك ساقًا يا بانسن؟

– نعم، ساق مقطوعة ومغلّفة، ومسلّمة باليد إلى هنا.

– اللعنة! قال شانكر، الذي ليس من عادته الشعور بالصدمة بسهولة.

بعد انصراف شانكر حاملًا رزمة من الأوراق النقدية مقابل الخدمات التي أدّاها، ووعدًا بمبلغ مماثل مقابل ما يأتي به لاحقًا من معلومات حول ويتايكر، اتصل سترايك بروبن، لكنّها لم تجب. كان من عادتها عدم الإجابة حين لا تستطيع أن تتحدّث بحرية. فبعث إليها برسالة نصية:

قولي لي أين ومتى أستطيع أن أوافيك.

ثـمّ جلس في مقعد روبـن للاهتمام ببعض الفواتير والقيام ببعض الأعمال المكتبية.

لكنّ الليلتين اللتين قضاهما محاولًا النوم في مهجع قطار، منعتاه من التركيز. مرت خمس دقائق. تحقق من هاتفه، لكن لا إجابة من روبن. نهض ليعدّ الشاي من جديد. حين رفع الفنجان إلى شفتيه، دغدغت أنفه رائحة قنّب خفيفة تصاعدت من يده، فتذكّر أنّه صافح شانكر قبل قليل.

ولد شانكر في كانينغ تاون لكنّ أنسباءه كانوا يقيمون في وايتشابل. قبل عشرين عـامًا، تشاجر هـؤلاء مع عصابة منافسة. وحين أراد شانكر مساعدتهم، وجد نفسه في قناة لتصريف الماء في شارع فولبورن، وفي وجهه جرح عميق يتدفق منه الدم، حيث الندبة الحالية. خرجت ليدا سترايك ليلًا لتشتري علبة ورق للفّ السجائر، وعثرت عليه في طريق عودتها.

ما كانت ليدا لتستطيع أن تتجاهل فتى له عمر ابنها، وتتركه يتخبّط في دمه في قناة ماء. لم تبالِ بالسكين الملطّخ بالدماء الذي يحمله الفتى، ولا بالشتائم التي يطلقها بتأثير المخدّرات. بل اقتربت منه ومسحت الدم عن وجهه وكلّمته كما لم يكلّمه أيّ إنسان منذ توفّيت أمّه وهو في عامه الثامن. رفض شانكر أن يدع المرأة الغريبة تستدعي إسعافًا، لئلاّ ينتهي به الأمر في السجن بسبب طعنه مهاجمه في فخذه. فلم يكن أمام ليدا سترايك سوى حلّ واحد: وهو أن تساعده على السير للوصول إلى المبنى المهجور حيث

تسكن. وهناك قصّت عدة ضمادات ووضعتها على الجرح كيفما اتفق. ثمّ أعدّت حساء، مليئًا برماد السجائر، وطلبت من ابنها المذهول أن يجد للفتى فراشًا ينام عليه.

تعاملت ليدا مع شانكر وكأنّه ابن شقيق لها عاد إلى المنزل بعد طول غياب. فخصّص لها شانكر في قلبه المشاعر التي قد تخالج في هذه الحال كلّ غلام يتيم حطّمه القدر، يتمسّك بذكرى والدته الحبيبة. وبعد شفاء شانكر ورحيله، لبّى دعوة ليدا لزيارتها كلّما شاء ذلك. فراح يتردّد إليها، ويطلعها على أسراره الدفينة. ولعلّه كان الشخص الوحيد في العالم الذي لم يجد فيها أيّ عيب. وانعكس احترامه ليدا احترامًا لابنها، سترايك. برغم أنّ المراهقين كانا يختلفان كلّ الاختلاف، فقد جمعهما رباط وثيق وصامت، وهو كرههما الشديد لويتايكر. حين رأى هذا الأخير شخصًا جديدًا يدخل حياة ليدا، انتابه شعور مرضيّ بالغيرة. لكنّ حذره الشديد من شانكر حال دون معاملته إيّاه بالاحتقار الذي يظهره تجاه سترايك.

أدرك سترايك السبب. فشانكر، مثله مثل ويتايكر، لا تقف في طريق ما ينويه أيّة حدود. فهم الموسيقيّ الوضع تمامًا: لعلّ ابن زوجته يتمنّى موته، لكنّه ما كان ليقتله أبدًا، خشية أن يجرح أمّه، أو أن يخالف القانون فيعرّض مستقبله إلى الضرر. أما شانكر فلا يخشى شيئًا من ذلك. فكانت النتيجة أنّ وجوده وسط هذه العائلة المفككة حماها من تصاعد نوبات العنف لدى ويتايكر.

الواقع أنّ تردّد شانكر إلى المنزل هو سبب قبول سترايك بالرحيل لمتابعة تعليمه الجامعي. ولحظة الوداع، لم يستطع سترايك أن يعبّر لصديقه عما كان المصدر الأكبر لخوفه، لكنّ شانكر كان يفهم.

– لا تقلق يا بانسن، لا تقلق يا صديقي.

ومع ذلك لم يكن بوسع شانكر أن يسهر على حماية ليدا أربعًا وعشرين ساعة على أربع وعشرين. ويوم موتها كان في لندن، يقوم كعادته بترويج المخدّرات. لا ينسى سترايك أبدًا الألم الذي شاهده على وجه صديقه حين التقيا بعد موت ليدا. أجهش شانكر بالبكاء ملقيًا اللوم على نفسه في تركها.

ففيما كان شانكر يفاوض للحصول على سعر بخس لقاء كيلوغرام من أفضل أنواع الكوكايين البوليفيّ في كنتيش تاون، كانت جثّة ليدا سترايك تتخشّب ببطء فوق فراش قذر. ذكر تقرير التشريح أنّها فارقت الحياة قبل ستّ ساعات من محاولة أحد سكّان المبنى المهجور أن يوقظها ممّا ظنّه نومًا عميقًا تغطّ فيه.

منذ البداية كان شانكر مقتنعًا، مثل سترايك، بأنّ ويتايكر قتلها. وتحوّل حزنه إلى عنف هائل ورغبة عارمة في الانتقام لدرجة أنّ قبض الشرطة على ويتايكر أنقذ هذا الأخير من يدَي شانكر. إستُدعي للشهادة في خلال المحاكمة ليتحدّث عن امرأة كانت بمثابة أمّ له، ولم تلمس الهيرويين قطّ. لكنّه ما كاد يدخل قاعة المحكمة حتى انقضّ على ويتايكر صائحًا: «أنت قتلتها أيّها الوغد!» فطُرد من القاعة حالًا.

كانت تلك الذكريات الدفينة تزداد بشاعة كلّما نُبشت من الماضي. تجاهلها سترايك، وشرب جرعة شاي ساخنة، ثمّ نظر إلى هاتفه. لا خبر من روبن.

19

Workshop of the Telescopes[1]

لحظة شاهد السكرتيرة هذا الصباح، أدرك أنّ مزاجها متعكّر. كانت جالسة خلف واجهة غاريك، المطعم الرحب الذي يرتاده طلّاب كليّة الاقتصاد في لندن. بدت بشعة اليوم: شاحبة اللون، متورّمة الوجه، محمرّة العينين. تلك الغبية المسكينة لن تلاحظ وجوده حتّى ولو جلس إلى المائدة القريبة منها. لم تكن تنظر إلّا إلى الفتاة ذات الشعر الفضيّ الغارقة في كومبيوترها المحمول، والجالسة بعيدًا عنها أمتارًا قليلة. لم يكن الرجال يثيرون اهتمامها. لكنّها لن تلبث أن تضطرّ إلى أن تنظر إليه هو، وسيكون آخر مَن تراه قبل أن تموت.

لا داعي اليوم ليتظاهر بالإعجاب بها. فإظهار الرغبة ليس وسيلته المعتمدة للتقرّب من النساء المحبطات. آنذاك يغيّر دوره، ويصبح الصديق الخدوم، والمجهول الرقيق المشاعر. الرجال ليسوا جميعًا مثله يا عزيزتي. أنت تستحقّين ما هو أفضل. دعيني أرافقك إلى منزلك. تعالي، سأقلّك. حالما تنسى النساء أنّ للرجل عضوًا جنسيًّا، يستطيع هذا الأخير أن يفعل بهنّ ما يشاء.

دخل قاعة المطعم المزدحمة، وتلكّأ قليلًا، قبل أن يشتري فنجان قهوة ويجد لنفسه مكانًا يستطيع مراقبتها فيه من الخلف.

[1] مشغل التلسكوبات.

نزعت من إصبعها خاتم الخطوبة. هذا مثير للاهتمام، ويفسّر وجود الجعبة التي تحملها على كتفها تارة، وتضعها تحت الطاولة طورًا. هل تنوي قضاء الليل في مكان آخر غير شقتها في إيلينغ؟ هل ستسلك لأول مرة شارعًا خاليًا، أو طريقًا مختصرًا مظلمًا، أو نفقًا مهجورًا؟

هذا ما حدث حين ارتكب جريمة القتل للمرّة الأولى. كان عليه فقط أن يعرف كيف يغتنم الفرصة. عادت صور المشهد إليه متقطعة، كما في عرض لشرائح بصرية، لأنّ تلك التجربة كانت جديدة، وغامرة بالنشوة. كان ذلك قبل أن يصقل تقنيته، ويصبح الأمر لعبة بالنسبة إليه.

كانت الفتاة سمراء، بدينة قليلًا. وكانت صديقتها قد انصرفت بسيّارة زبون. لم يذُر ببال الرجل أنّه اختار الفتاة التي ستبقى حية.

في هذا الوقت، كان هو يروح ويجيء بسيارته، وفي جيبه سكّين. وحين تيقّن من أنّها باتت بمفردها تمامًا، اقترب منها. مال فوق مقعد الراكب بجانبه، وخاطبها من خلال نافذة السيّارة، ليسألها بفم جافّ كم تريد من المال. بعدما وافقت على السعر، صعدت بجانبه، ومضيا بالسيارة إلى طريق مسدود حيث لا مارّة ولا مصابيح.

نال ما أراده منها. وفيما كانت ترفع رأسها، وحتى قبل أن يغلق سحّاب سرواله، ضربها بقوّة. إصطدمت مؤخرة رأسها بزجاج النافذة. وقبل أن يصدر عنها صوت واحد أخرج السكّين من جيبه.

سمع صوت الفولاذ المكتوم وهو يخترق اللحم. أحسّ بدفء الدم الذي تدفّق فوق يديه. لم تصرخ. خرجت منها فقط شهقة مفاجأة واحدة، تلاها أنين. سقط جسدها في المقعد، لكنّه لم يتوقّف عن تسديد الطعنة تلو الطعنة إليه. ثمّ انتزع القلادة الذهبية التي كانت حول عنقها. في تلك اللحظة، لم يفكر في أن يأخذ منها جائزته الكبرى: قطعة منها. لكنه مسح يديه بفستانها، وهو ينظر إلى انتفاضات جسدها الذي ينازع. حين عاد بسيارته إلى الخلف للخروج من الطريق المسدود، كان يرتجف خوفًا وإثارة. إبتعد عن المدينة، والجثة بجانبه. لم يتجاوز السرعة المسموح بها قطّ، وراح ينظر إلى مرآته كلّ عشر ثوانٍ. كان قد عثر في الريف قبل أيام قليلة على حفرة ملأى

بالأعشاب البرية. دفع الجثة إليها، فسقطت بصوت مكتوم، وتناثر الوحل والدم حولها.

لا يزال يحتفظ بقلادتها، وسط بعض التذكارات الصغيرة الأخرى. كان ذلك كنزه. تساءل في سرّه عما يمكنه أن يأخذه من السكرتيرة.

جلس بقربه شابّ صينيّ، وكان يقرأ في لوحة إلكترونية. الاقتصاد السلوكيّ. تبًّا لهراء علم النفس. سبق له أن قابل عالم نفس بعدما أرغموه على ذلك.

حدِّثني عن أمك.

فاجأه عالم النفس الأصلع بهذا السؤال. الجملة النموذجية لعلماء النفس! الكليشيه الذي بات موضع تندّر! يُقال إنّ علماء النفس أذكياء. شارك في اللعبة، بهدف المزاح. فألقى أمامه باللوم بكامله على أمّه، وقال إنّها كانت باردة، وشريرة، وعاهرة لعينة، وإنها كانت تفضل ألا تنجبه، وكان مصدر إزعاج بالنسبة إليها، وإنها لم تكن تبالي بحياته أو بموته.

– وأبوك؟

– لا أب لي.

– أتعني أنّك لم تلتقه قطّ؟

ساد الصمت.

– ألا تعرف مَن هو؟

أيضًا، الصمت.

– أم أنّك لا تحبّه؟

لم يقل شيئًا. كان قد سئم اللعب. وحدهم الأغبياء كانوا يهتمون بهذا النوع من الحماقات. ولكنه يدرك منذ زمن بعيد أنّ الجميع، وبدون استثناء، كانوا أغبياء.

ومع ذلك، فقد قال له الحقيقة: لم يكن لديه أب. فالرجل الذي قام بهذا الدور، إذا جاز استخدام هذا التعبير، – الرجل الذي كان يضربه كلّ يوم تقريبًا (والذي كان «قاسيًا» ولكن «عادلًا»)، لم يكن يتمتّع بأيّ من صفات الأب. العنف، والنبذ، هذا ما كانت تمثله العائلة بالنسبة إليه. لكنّه في هذا

الجوّ تعلّم، في الوقت عينه، أن يجيد البقاء ويطور قدراته الذهنية. كان يدرك دائمًا أنّه متفوق، حتى حين كان طفلًا يختبئ تحت طاولة المطبخ. نعم، حتى حينذاك، كان يدرك أنه مجبول من طينة أنبل من طينة ذلك الوغد الذي يوسعه ضربًا وهو يكشّر في وجهه كراهية وحقدًا...

نهضت السكرتيرة لتتبع الفتاة ذات الشعر الفضيّ التي غادرت المقهى وهاتفها المحمول في حقيبتها. إبتلع قهوته دفعة واحدة وسار في أثرهما.

كان الأمر سهلًا جدًّا اليوم. وكأنّما كان يلهو! تخلّت السكرتيرة عن الحذر تمامًا. وبالكاد وجّهت اهتمامها إلى مراقبة بلاتينوم. ركب المترو الذي ركبتاه، وأدار ظهره لها، لكنّه وقف يراقب انعكاس صورة السكرتيرة في الزجاج أمامه، مسترقًا النظر بين أذرع السياح النيوزيلنديين المتشبثين بحلقات السقف. حين نزلت، انسل خلفها بسهولة وسار وسط الجموع.

كانوا، ثلاثتهم، يسيرون الواحد خلف الآخر. الفتاة ذات الشعر الفضي في المقدمة، ثمّ السكرتيرة، وأخيرًا هو. صعدوا أدراج المحطة، وساروا على رصيف الشارع المؤدي إلى سبيرمينت راينو. كان قد تأخر، لكنه لم يشعر برغبة في العودة، فهو يتسلّى كثيرًا. كانت تلك المرة الأولى التي تتأخر فيها إلى ما بعد هبوط الظلام. كما أنّها تحمل جعبة، وقد نزعت خاتم خطوبتها. كانت الفرصة رائعة. وسيجد بلا شكّ ذريعة يقنع الشيء بها.

توارت الفتاة ذات الشعر الفضيّ بداخل النادي. تباطأت السكرتيرة ووقفت على الرصيف مترددة. أخرج هاتفه المحمول واختبأ في مدخل أحد المباني ليراقبها.

20

I never realized she was so undone[1].

Blue Öyster Cult, 'Debbie Denise'

كلمات Patti Smith

نسيت روبن الوعد الذي قطعته لسترايك بالعودة إلى منزلها قبل حلول الظلام. والواقع أنّها لم تلاحظ مغيب الشمس إلّا بعدما شاهدت مصابيح السيارات وأضواء الواجهات. غيّرت بلاتينوم روتينها اليوم. فهي عادة تصل إلى الملهى قبل هذا الوقت بكثير، لترقص نصف عارية أمام مجهولين، ولا تبقى حتّى هذه الساعة تسير في الشارع بسروال جينز وحذاء عالي الكعب وسترة من جلد الغزال ذات شراريب. إفترضت روبن أنّ موعد عمل الفتاة تغير، ولا بدّ من أنّها بداخل الملهى الآن، توشك على البدء بالرقص. بقي عليها أن تجد لنفسها مكانًا تنزل فيه هذا المساء.

لم يكفّ هاتفها المحمول طوال اليوم عن الاهتزاز في جيب معطفها الواقي من المطر. فقد أرسل إليها ماثيو أكثر من ثلاثين رسالة نصية.

يجب أن نتحادث.

إتصلي بي من فضلك.

[1] لم أدرك قطّ أنّها مهزومة بهذا القدر.

روبن، إذا لم نتحادث لن تتحسّن الأمور بيننا.

مع انقضاء الساعات، وحين رأى ماثيو أنّها لا تجيب على رسائله، جرّب الاتصال بها. بعد ذلك تغيرت نبرة رسائله.

روبن، تعرفين أنّني أحبّك.
أنا نادم على ما حدث، ليتني أستطيع العودة إلى الوراء.
أنت مَن أحبّ يا روبن. لطالما أحببتك، وسوف أحبّك دائمًا.

لكنّها لم تجب على هذه الرسائل ولا على اتصالاته. كلّ ما كانت تعرفه هو أنّها لن تعود لتطأ شقّتهما، أقلّه هذا المساء. ذلك أقوى منها. كانت تجهل ما ستفعله في اليوم التالي، أو بعده. وشعرت بأنّها جائعة، مرهقة، مذهولة...
أمّا سترايك، فقد بات في نهاية اليوم مصدر إزعاج، مثله مثل ماثيو.

أين أنت؟ إتصلي بي من فضلك.

شعرت بأنّها عاجزة عن مكالمته مباشرة، فأجابته برسالة نصية.

لا أستطيع مكالمتك. بلاتينوم ليست في العمل.

لطالما حافظت روبن على مسافة معيّنة بينها وبين سترايك. كانت تخشى، إذا ما بدا فجأة في غاية اللطف، أن تنهار وتفيض دموعها. فالمحقق سيستاء من أن تتصف معاونته بهذا النوع من الضعف. لقد خسرا كلّ زبائنهما تقريبًا، كما أن تهديد مرسل الساق لا يزال محدقًا بها. لذلك عليها ألا تمنح سترايك سببًا آخر لينصحها بالعودة إلى منزلها.
كان من الواضح أنّ إجابتها لم تعجبه.

إتصلي بي بسرعة.

تجاهلت رسالته. قد يظنّها لم تتلقّها، بعدما أرسلها وهي تهمّ بدخول المترو في أثر بلاتينوم، حيث انقطع الإرسال. حين خرجت من محطة توتنهام

كورت، تفقدت هاتفها من جديد، ووجدت عليه اتصالًا جديدًا من سترايك ورسالة جديدة من ماثيو.

أريد أن أعرف إن كنت ستعودين إلى المنزل هذا المساء. أنا في غاية القلق. أخبريني فقط إن كنت على قيد الحياة. يكفيني هذا.

– لا تبالغ في تقدير نفسك، تمتمت روبن. وكأنني سأنتحر من أجلك.

رأت روبن تحت أضواء خيمة مدخل سبيرمينت راينو رجلًا سمينًا يرتدي بزّة. بدا لها مألوفًا. إنّه «المخدوع مرّتين». خُيّل لروبن أنّها رأت ابتسامة رضا على وجهه.

هل أتى ليرى صديقته تستعرض جسدها أمام رجال آخرين؟ هل كان يستمتع برؤية حياته الجنسيّة تحت المراقبة وعدسات الكاميرات؟ أي نوع من غريبي الأطوار كان هذا الرجل؟

حوّلت روبن نظرها بعيدًا. آن الأوان لتقرر ما يجب أن تفعله هذا المساء. على بُعد مئة متر منها، وفي مدخل مبنى مظلم، كان رجل طويل القامة ويعتمر طاقيّة يتكلّم بانفعال عبر هاتفه، وكأنّه يتجادل مع محادثه.

بعدما توارت بلاتينوم عن الأنظار، لم يعد لديها ما تفعله. أين ستنام هذا المساء؟ وفيما كانت تقف وسط الرصيف مفكّرة، تعمّدت زمرة من الشبّان المرور على مسافة قريبة جدًّا منها. حتّى أنّ أحدهم احتك بالجعبة التي تحملها. وكانت رائحة البيرة ومزيلات الروائح تنبعث منهم.

– هل تضعين في هذه الجعبة لباس الرقص الخاصّ بك يا عزيزتي؟

تذكّرت روبن أنّها تقف أمام ملهى تعرٍّ. فاستدارت فورًا على عقبيها لتقفل راجعة إلى المكتب. وفي اللحظة عينها، رنّ هاتفها المحمول، فأجابت تلقائيًّا:

– آلو.

– اللعنة، هل يمكنني أن أعرف أين أنت؟ زعق صوت سترايك في أذنها.

الحمد لله. ليس ماثيو. لكنّ سترايك لم يمنحها الوقت لتفرح، فتابع يقول زاعقًا:

– أحاول منذ ساعات الاتصال بك. أين أنت؟

– في توتنهام كورت رود، قالت روبن مبتعدة عن الشبّان الذين واصلوا الهزء بها. بلاتينوم دخلت الملهى و«المخدوع...»

– ماذا قلت لك؟ لا تعملي ليلًا أبدًا!

– المكان مضاء جيّدًا هنا.

حاولت أن تتذكّر وهي تحادث سترايك ما إذا كان في تلك المنطقة نزل. كانت بحاجة إلى غرفة نظيفة ورخيصة الكلفة. مهمّ جدًّا أن تكون رخيصة الكلفة لأنّها ستدفع كلفتها من حسابهما المشترك، ولم تكن تريد أبدًا أن تتجاوز حصّتها.

– هل أنت بخير؟ سألها سترايك وقد تراجعت حدّة نبرته قليلًا.

بلعت روبن ريقها.

– بأحسن حال، قالت وهي تبذل قصارى جهدها ليبدو صوتها مقنعًا. حاولت أن تتصرف باحترافية، وتكون على مستوى توقعات سترايك.

– لا أزال في المكتب. هل قلت إنك في توتنهام كورت رود؟

– يجب أن أقفل الخطّ. آسفة، قالت بصوت متوتّر وجاف. وأنهت المكالمة.

كان عليها أن تفعل ذلك لأنّها خشيت أن تنهار باكية أثناء المكالمة. كما شعرت أنّه يوشك على أن يقترح لقاءها في مكان ما. وإذا ما رأته هذا المساء، فستبوح له بكلّ شيء. وهذا الأمر لم يكن واردًا.

فجأة انهمرت الدموع على خدّيها. لم يكن لديها أحد آخر تستجير به. هذه هي المشكلة، تحديدًا. أخيرًا بات بوسعها أن تبوح بالأمر لنفسها. الأشخاص الذين يتناولون العشاء معهما – هي وماثيو – في نهاية الأسبوع، ويرافقونهم لمشاهدة المباريات، هم أصدقاء ماثيو، وزملاؤه في العمل، ورفاقه في الجامعة. أمّا هي، وما خلا سترايك، فلا تعرف أحدًا.

– رباه، قالت وهي تمسح عينيها وأنفها بكمّها.

– أنت بخير يا عزيزتي؟ قال لها متسوّل لا أسنان له يجلس أمام أحد الأبواب.

في النهاية دخلت حانة توتنهام، بدون أن تعرف لما اختارتها. ربّما لأنّ النُدُل يعرفونها، ولأنّها تعرف أين مرحاض السيدات، ولأنّ ماثيو لم يأتِ إلى هنا قطّ. كانت بحاجة إلى أن تجلس في زاوية هادئة، وتبدأ البحث عن نزل رخيص الكلفة. كما استبدّت بها رغبة شديدة في شرب كأس، وهو أمر غير مألوف بالنسبة إليها. غسلت وجهها بالماء البارد في المرحاض، ثمّ خرجت وطلبت كأسًا من النبيذ الأحمر، وضعتها على الطاولة، ثمّ نظرت إلى هاتفها. مرة جديدة رأت أن سترايك اتصل بها.

رأت أنّ بعض الرجال يراقبونها من البار. كانت تدرك جيدًا أن مظهرها غريب: امرأة وحيدة، دامعة العينين، تحمل جعبة. وإن يكن؟ ما الذي يمكنها عمله؟ كتبت في نافذة البحث «نزل بالقرب من توتنهام كورت رود». مكثت تنتظر بفارغ الصبر الإجابة وهي تشرب كأسها. كان عليها ألّا تشرب بسرعة، فهي لم تأكل شيئًا طوال اليوم. أهملت الفطور صباحًا، وعند الظهر اكتفت بكيس من رقائق البطاطا وبتفاحة أكلتهما بسرعة في مقهى الكلية حيث تدرس بلاتينوم.

وجدت نزلًا في هاي هولبورن. يجب أن يفي بالغرض. شعرت روبن بشيء من الطمأنينة بعدما عرفت أين ستبيت ليلتها. ثمّ مضت لإحضار كأس نبيذ ثانية، وهي تحرص على ألّا تلتقي نظراتها نظرات الرجال الجالسين إلى البار. خطر فجأة ببالها أنّ عليها الاتّصال بوالدتها ربّما، لكنّ هذه الفكرة أعادت إليها الرغبة في البكاء. عرفت أنّها لن تستطيع مواجهة حبّ ليندا وشعورها بالخيبة. ليست قادرة على ذلك بعد.

دفع رجل ضخم يعتمر طاقية باب الحانة وداخل. لكنّ روبن تعمّدت ألّا تنظر سوى إلى كأسها وفكّة النقود التي تحملها، خشية أن يظنّ أحد الواقفين عند البار أنّها تبحث عن رفيق.

أنهت كأسها الثانية، فشعرت بمزيد من الاسترخاء. وتذكّرت أنّ سترايك سكر في هذه الحانة عينها حتّى لم تعد ساقاه تقويان على حمله.

كانت تلك المرّة الوحيدة التي تحدّث فيها عن حياته الخاصّة. ربما كان هذا السبب الفعليّ لدخولها إلى هنا، قالت في نفسها وهي تنظر إلى القبّة الزجاجية الملوّنة فوق رأسها. هذه الحانة كانت بمثابة المكان الذي يلجأ إليه الشخص حين يعلم أنّ حبيبه خانه.

– هل أنت بمفردك؟ سألها صوت رجل.

– أنتظر أحدهم، أجابت.

رفعت روبن عينيها نحو الرجل الواقف أمامها. لم تستطع رؤيته بوضوح. لكنّه بدا لها نحيلًا، أشقر، ذا عينين زرقاوين باهتتين. أدركت أنّه لا يصدّق ما قالته.

– هل يمكنني أن أنتظر معك؟

– لا، لا تستطيع. إنصرف من هنا، قال صوت آخر، مألوف.

كان سترايك هنا، واقفًا بجثّته الضخمة والمرعبة، ونظراته الناريّة التي أرغمت الرجل المجهول على الانسحاب مرغمًا، فعاد إلى صديقيه الواقفين إلى البار.

– ماذا تفعل هنا؟ صاحت روبن، وقد فوجئت بتخدّر لسانها بعد شرب كأسين من النبيذ.

– أبحث عنك.

– وكيف عثرت عليّ؟

– هذه مهنتي. كم شربتِ؟ سألها وهو ينظر إلى الكأس التي أمامها.

– كأسًا واحدة، ردّت كاذبة.

وفي الحال، استدار سترايك ليحضر لها كأسًا أخرى ولنفسه كوبًا من بيرة دوم بار. وفي هذا الوقت، سار رجل ضخم الجثة يعتمر طاقية نحو الباب، وانسلّ خارجًا بدون أن يلاحظه أحد. لكنّ سترايك كان يفضّل مراقبة الرجل الأشقر الذي لم يتوقف عن النظر إلى روبن، ولم يبدُ عليه أنّه تراجع عمّا في نفسه حتّى عاد سترايك إلى مائدتهما، ووضع عليها الكوبين، وجلس وهو يرميه بنظرات الغضب.

– ماذا يجري؟

– لا شيء.

– لا أصدقك. تبدين في حال مزرية.

– حسنًا، قالت روبن وهي تشرب جرعة كبيرة. كلامك رفع من معنوياتي.

ضحك سترايك.

– ما هذه الجعبة التي تحملينها؟ وأضاف أمام صمتها: أين خاتم خطوبتك؟

فتحت فمها لتتكلّم، لكنّ الكلمات تجمّدت في حلقها، وخنقتها غصّة هائلة. بعد صراع داخليّ دام لبضع ثوانٍ، وجرعة نبيذ أخرى، قالت:

– لم أعد مخطوبة.

– ولماذا؟

– يا للسؤال المفاجئ!

أنا سكرانة، قالت في سرّها، وكأنّما تنظر إلى ذاتها من خارج ذاتها. أمر مثير للشفقة. أنا سكرانة لأنني شربت كأسين ونصف من دون أن أنام أو آكل.

– ما المفاجئ فيه؟ سألها سترايك مرتبكًا.

– نحن لا نتحادث أبدًا في أمورنا الخاصة. أنت لا تحدّثني عن حياتك الشخصية أبدًا.

– أتذكّر أنّني أفرغت أمامك جعبتي ذات مساء، في هذه الحانة تحديدًا.

– مرة واحدة، أقرت روبن.

حين رأى سترايك تورّد خدّيها وسمع صوتها أدرك أنّ هذه ليست كأسها الثانية.

– أظنّك بحاجة إلى أن تأكلي، قال لها وهو لا يدري إن كان عليه أن يضحك أو يقلق.

– هذا ما أقوله... لك... ليلة قمتَ... ثمّ ذهبنا لنأكل الكباب... ولا أريد أن آكل الكباب، أضافت بنبرة حازمة.

– نحن في لندن. لا بدّ من وجود مطعم قريب، يقدّم شيئًا آخر غير الكباب.

– أحبّ رقائق البطاطا، قالت روبن.

نهض سترايك ليشتري لها كيسًا، ثمّ سألها مجدّدًا بعد عودته:

– ماذا يجري؟

نظر إليها طويلًا وهي تحاول فتح كيس الرقائق، ولمّا لم تفلح، أخذه من يدها وفتحه.

– لا شيء. سأنام في نزل هذا المساء. هذا كلّ شيء.

– في نزل؟

– نعم، يوجد نزل في... يوجد نزل...

نظرت إلى هاتفها المطفأ، فأدركت أنّها نسيت أن تشحنه مساء اليوم السابق.

– لم أعد أعلم أين يقع هذا النزل، لكنّ بوسعك أن تتركني. سأتدبّر أمري، أضافت وهي تبحث في جعبتها عمّا تتمخّط به.

– نعم، أجاب باستياء. الآن أشعر بالطمأنينة التامّة بعدما رأيتك.

– بلى، أنا بخير. ردّت بحدّة. سأذهب إلى العمل غدًا كالعادة. سترى.

– أتظنّينني هنا لأنّ موضوع العمل يقلقني؟

– لا تكن لطيفًا إلى هذا الحدّ! قالت بصوت متألّم وهي تدفن وجهها في حفنة من المناديل الورقيّة. لا أتحمّل هذا! كن طبيعيًّا!

– وكيف أكون طبيعيًّا؟ سألها حائرًا.

– أعني أن تكون نكد... الأطباع... سَكوتًا.

– فيمَ تريديننا أن نتحادث؟

– لا شيء محدّدًا، أجابت. كنت فقط أفكّر... في أمور العمل.

– ماذا جرى بينك وبين ماثيو؟

– ماذا جرى بينك وبين إلين؟

– وأي أهمية لذلك؟ سألها متعجّبًا.

– الأمران سيّان بالنسبة إليّ، تمتمت وهي تنهي كأسها. أرغب في كأس أخرى.

– هذه المرّة ستشربين الصودا.

في انتظار عودته، راحت تحملق بالسقف. رأت فيه جداريّات تشبه ديكور المسارح: بوتوم يلعب مع تيتانيا وسط مجموعة من الساحرات.

– كلّ شيء على ما يرام مع إلين، قال لها وهو يعود للجلوس.

بعد التفكير، رأى أنّ التحدّث قليلًا عن حياته الخاصّة قد يساعد روبن على التعبير عمّا تعانيه، وأضاف:

– أفضّل التكتّم حول هذه العلاقة. هي لا تريد أن أتقرّب كثيرًا من ابنتها، لأنّها تمرّ بدعوى طلاق معقّدة.

– أوه، قالت روبن التي نظرت إليه من فوق كوب الكوكاكولا بعينين تطرفان. كيف التقيتها؟

– بواسطة نِك وإلسا.

– من أين يعرفانها؟

– هما لا يعرفانها. أتت مع شقيقها إلى حفلة أقاماها. شقيقها طبيب يعمل مع نِك. ولم يسبق لهما أن رأياها قطّ.

– أوه، قالت روبن ثانية.

هذه النظرة الخاطفة التي حظيت بها إلى عالم سترايك الخاصّ، جعلتها تنسى لبرهة همومها. لقاء عاديّ، أقلّ من عاديّ! أمسية في منزل أصدقاء. يلتقي شقراء جميلة. يدور بينهما حديث. كان سترايك ناجحًا في التقرّب من النساء. منذ أن بدآ العمل معًا، تسنّت لروبن الفرصة لتتأكّد من ذلك. لم تفهم في الحال انجذابها نحوه. كان مختلفًا تمامًا عن ماثيو.

– هل تقدّر إلسا إلين؟

فوجئ سترايك بقوّة حدسها، لكنّه آثر أن يكذب.

– نعم... أعتقد ذلك.

شربت روبن جرعة كوكاكولا.

– حسنًا، قال سترايك وقد عيل صبره. دورك الآن.

– قطعنا علاقتنا، قالت.

المحقق البارع يعرف متى يصمت ويصغي. وبعد دقيقة أو اثنتين أوتيت هذه الطريقة ثمارها.

– قال لي أمرًا... تابعت. مساء أمس.

صمت سترايك منتظرًا.

– من المستحيل العودة إلى الوراء بعد ما قاله. الأمر سيئ جدًّا.

حاولت أن تتحدّث بنبرة هادئة، لكنّ كلّ كلمة قالتها كانت تنضح بالقلق. ظلّ صامتًا ينتظر.

– لقد ضاجع امرأة أخرى، قالت بصوت مخنوق.

صمتت قليلًا. أخذت كيس رقائق البطاطا، فوجدته فارغًا. ألقت به على الطاولة.

– تبًا، قال سترايك.

شعر بمفاجأة، ليس لأنّ ماثيو ضاجع امرأة أخرى، بل لأنّه اعترف بذلك. فالمحاسب الشابّ والوسيم كان يوحي بأنّه يدير حياته كما يشتهي، راسمًا لكلّ جزء منها حدودًا واضحة تقيه الوقوع في المآزق.

– وأكثر من مرّة واحدة، أضافت روبن بصوتها المخنوق. دام الأمر أشهرًا، مع فتاة أعرفها تدعى ساره شادلوك، التقاها حين كان في الجامعة.

– آسف، قال لها سترايك.

كان صادقًا، ورثا لحالها من كلّ قلبه. لكنّ هذا الخبر أيقظ في داخله نوعًا آخر من المشاعر. إنّها مشاعر كان يكبتها عادة، لأنّه يعتبرها غير لائقة وخطرة في آن واحد. في تلك اللحظة، تحرّكت هذه المشاعر، وسعت للتحرّر من قيودها.

لا تتحامق، قال موبّخًا نفسه. يجب ألّا يحدث هذا الأمر أبدًا. سيفسد كلّ شيء.

– ما الذي حمله على أن يخبرك؟ سألها سترايك.

لم تجب روبن، لكنّ هذا السؤال أعاد إليها مشهد الأمس بكلّ وضوح.

لم يتسّع صالون منزلهما الصغير والفاتح الألوان لاحتواء غضب بهذا الحجم. كانا قد عادا من يوركشاير في سيّارة اللاند روفر التي لم يرغب ماثيو فيها. في الطريق، عاد هذا الأخير للحديث عن سترايك جازمًا بأنّه لن يلبث أن يحاول التقرّب من روبن، والأدهى، بأنّ روبن لن ترفضه.

دخلا المنزل. كانت تقف بقرب أريكة غرفة الجلوس، وحقائبهما لا تزال في ردهة الدخول. صاحت به بأعلى صوتها:

– إنّه صديقي، لا أكثر! أمّا إشارتك إلى أنّ ساقه المبتورة تثيرني جنسيًّا...

– صديقك؟ أنت في غاية السذاجة! قاطعها صائحًا. حين يحاول استدراجك إلى سريره...

– أنّى لك هذه الأفكار السقيمة؟ هل تحلم أنت بمعاشرة زميلاتك؟

– طبعًا لا. لكنّك تبقين مسحورة أمامه. إنّه رجل، وليس في المكتب أحد غيركما...

– إنّه صديقي، كما أنّ ساره شادلوك صديقتك، ومع ذلك فأنت لا تفكّر في...

آنذاك رأت في وجهه تعبيرًا، لم تره من قبل، لكنّها لم تلبث أن عرفت معناه. مرّ ظلّ من الشعور بالذنب فوق عظم خدّيه، وذقنه المحلوقة، لينتهي في عينيه الكستنائيتين الجميلتين اللتين تعشقهما منذ سنوات.

– هل فعلت ذلك؟ قالت وقد انتقلت بسرعة إلى صيغة السؤال. هل ضاجعتها؟

طال تردّده.

– لا، قال فجأة، وكأنّه فيلم عاد ليدور بعد توقف. طبعًا لا.

– بلى. لقد ضاجعتها.

كان النظر إليه كافيًا لتفهم. إذا لم يكن يؤمن بالصداقة بين الرجال والنساء، فلأنه هو نفسه لم يحظَ بصديقة حقيقية. لقد مارس وساره الجنس.

– متى؟ سألته. لم يحدث الأمر حين... آنذاك...؟

– لا.

كشف هذا الاحتجاج الضعيف ارتباك رجل يعترف بالهزيمة، بل يرغب في الهزيمة. فكّرت روبن في الأمر مليًّا طوال الليل، وطوال النهار. لقد كان يتمنّى أن تعرف بالأمر.

هدوء روبن، الذي دلّ إلى الذهول أكثر ممّا إلى رغبة في الانتقام، قاد ماثيو إلى أن يبوح لها بكلّ شيء. فعلًا، لقد حدث الأمر حينذاك. خامره شعور فظيع بالذنب. لطالما كان هذا شعوره. لكنّه وروبن لم يكونا آنذاك قد أقاما علاقة بعد. ومرّت به ساره ذات مساء، وأرادت الترفيه عنه، ثمّ خرجت الأمور عن السيطرة...

– الترفيه عنك؟ سألته روبن قبل أن تنفجر غاضبة، محوّلة الذهول إلى سخط هائل. أرادت الترفيه عنك؟ أنت؟

– كان الأمر صعبًا عليّ أيضًا آنذاك. تعلمين ذلك، صاح ماثيو.

نظر سترايك إلى روبن وهي تهزّ رأسها بحركة لا إراديّة، وكأنّما تحاول أن ترى الأمر بوضوح. لكنّ لحظة المكاشفة الذاتية تلك أعادت اللون الورديّ إلى خدّيها، والبريق إلى عينيها.

– ماذا قلت؟ سألت سترايك، وهي تستعيد هدوءها.

– ما الذي دفعه إلى أن يخبرك؟

– لا أعلم. كنّا نتشاجر، يعتقد أنّني... أخذت نفسًا عميقًا. بوجود ثلثَي زجاجة نبيذ في معدتها الفارغة، بدا لها أنّ من الأسهل أن تحذو حذو ماثيو وتعتمد الصراحة، فتابعت تقول: يعتقد أنّ ما بيني وبينك أكثر من مجرّد صداقة.

لم يفاجأ سترايك بهذا الأمر. فمنذ أن تعرّف إلى ماثيو، كان يقرأ الحذر في كلّ من نظراته، وغياب الطمأنينة في كلّ من الملاحظات اللاذعة التي يرميه بها.

– وهكذا، تابعت روبن تقول بدون أن تعرف كيف سينتهي كلامها، قلت له للمرّة الألف أنّ علاقتنا مجرّدة تمامًا، وأنّ بإمكانه أن يفهم ذلك لأنّه وصديقته القديمة ساره شادلوك... وآنذاك أدركت الحقيقة. عاش مغامرة مع ساره شادلوك في الجامعة فيما كنت... أقيم في منزل والديّ.

– هل مضى على الأمر زمن طويل؟

– أتعتقد أنّني مخطئة بأن أغضب لأجل قصّة عمرها أكثر من سبعة أعوام؟ لم يقل لي شيئًا قطّ، كما أنّنا نقابل تلك الفتاة بوتيرة منتظمة.

– لا، لكن يفاجئني أنّه باح بالأمر بعد كل هذه السنوات، أجابها بهدوء سترايك ليتجنّب الانجرار إلى جدال.

– حسنًا، كان يشعر بالخجل، بسبب حدوث الأمر في تلك الفترة.

– خلال دراستكما الجامعية؟ سألها سترايك مرتبكًا.

– كنت قد توقفت عن دراستي الجامعية.

– آه.

لم تخبره روبن قطّ لما تخلت عن دراسة علم النفس لتعود إلى منزلها في ماشام.

لم تكن تنوي أن تخبره، لكنّ قراراتها كلّها ذابت هذا المساء في الخمر التي أغرقت بها جسدها الجائع والمرهق. بوسعها أن تخبره. أي فرق في ذلك؟ كان بحاجة إلى هذه المعلومة ليحيط بالمشكلة، فقد يستطيع أن يسدي إليها النصيحة. خامرها شعور غامض بأنّها تثق به. كان قادرًا على مساعدتها. بأيّة حال، شاءت أم أبت – وشاء هو أم أبى – كان سترايك أفضل صديق لها في لندن. لم يسبق لها قطّ أن فكّرت في هذا. لا شيء يضاهي الكحول لإعادة الإنسان إلى طريق الصواب، وفتح عينيه. ألا يقول التعبير اللاتيني في الخمر الحقيقة؟ لا بدّ من أنّ سترايك يعرف ذلك. من عادته اقتباس التعابير اللاتينية.

– لم أرد أن أترك الجامعة، قالت روبن وهي تشعر بشيء من الدوار، لكنّ شيئًا ما قد حدث، عانيت بعده مصاعب في...

كلّ ما قالته لم يفسّر شيئًا.

– ذهبت لزيارة صديقة تسكن في الجامعة، وبطريق العودة إلى المبنى حيث غرفتي... قالت له. لم يكن الليل قد تقدّم. الثامنة على أبعد تقدير... لكنّ وسائل الإعلام المحليّة... كانت قد دعت الجميع إلى التيقظ منه.

ما زال الأمر غامضًا. لمَ كلّ هذه التفاصيل؟ عليها أن تخبره بوضوح وإيجاز، بدون الغوص في التفاصيل، كما لو أنها في محكمة.

أخذت نفسًا عميقًا، ونظرت إلى سترايك. رأت في تعابير وجهه أنه بدأ يفهم. شعرت بالارتياح لأنّها لم تكن مضطرة إلى التلفّظ بتلك الكلمة المشؤومة، وسألته:

– هل يمكنني الحصول على كيس رقائق آخر؟

حين عاد إلى الطاولة ومدّ إليها الكيس من دون أن يقول شيئًا، رأت في ملامحه تعبير قلق.

– إياك أن تظن... هذا لا يغير شيئًا أبدًا! قالت يائسة. عشِرون دقيقة من حياتي. مجّرد حادث في حياتي. حادث مررتُ به. وهو لا يحدّد مَن أنا.

إفترض سترايك أنّ هذه التعابير مستقاة من نتيجة تحليل نفسي لا شك بأنها خضعت له. سبق له أن استجوب كثيرًا ضحايا عمليات اغتصاب، وكان يعرف الكلمات التي تقال للنساء لتفسير أمر يعجزن عن تفسيره. في تلك اللحظة باتت صورة روبن أوضح في عينيه: إخلاصها المطلق لماثيو، مثلًا، يُفسَّر على أنّه ركون إلى صديق طفولة كان يُشعرها بالطمأنينة.

لكنّ ذهن روبن الذي شوّشته الخمر، فسّر صمت سترايك على نحو مغاير تمامًا. فرأت أنّها أخطأت بائتمانه على سرّها، لأنّه بات يرى فيها ضحيّة بعدما كانت ندّة له.

– هذا لا يغيّر شيئًا! قالت بانفعال. لا أزال أنا أنا!

– أعرف، ومع ذلك فإنّ مرورك بتلك التجربة القاسية أمر فظيع.

– حسنًا... نعم... تمتمت، وقد هدأ انفعالها. ثمّ تابعت تقول: شهادتي هي التي أدّت إلى القبض عليه، لاحظت بضعة تفاصيل فيما كان... رأيت تحت أذنه بقعة بيضاء، تسمّى بهاقًا. كما أن بؤبؤ إحدى عينيه كان متمدّدًا.

وفيما أكبّت على التهام كيس رقائق البطاطا الثالث، راحت تتكلّم بطلاقة:

– حاول خنقي، لكنّني تظاهرت بالموت، وأرخيت جسدي تمامًا، فلاذ بالفرار. كان قد اعتدى على فتاتين أخريين وهو يضع القناع عينه. لذلك لم تكن إفادتاهما مهمّتين. لكنّ شهادتي هي التي سمحت بالقبض عليه.

– هذا لا يفاجئني البتّة، قال سترايك.

إعتبرت روبن أن إجابته كافية. لزما الصمت دقيقة فيما أنهت رقائقها.

– لكنّني واجهت بعد ذلك متاعب، تابعت تقول وكأنّها لم تتوقّف عن الكلام قطّ. لم يعد بوسعي الخروج من غرفتي. وفي النهاية أرسلتني الجامعة إلى المنزل. كان يُفترض بي متابعة دروسي في الفصل التالي، لكنني... لم أعد إلى الجامعة قطّ.

غاصت روبن في ذكرياتها محملقة في الفراغ. أصرّ ماثيو على أن تبقى في منزل والديها. وبعد عام، حين زال خوفها من مغادرة المنزل، بدأت تزوره في جامعته في باث. كانا يتنزّهان يدًا بيد بين المنازل الحجرية، في الجادّات الرائعة الجمال على ضفّتي نهر إيفون المزروعة بالأشجار. وكلّما خرجا مع الأصدقاء، كانت ساره شادلوك بينهم، تقهقه كلّما ألقى ماثيو دعابة، وتلامس ذراعه، ولا تفوّت فرصة للحديث عن الأوقات الرائعة التي يقضيانها معًا، بغياب روبن، الفتاة المملّة التي يواعدها.

أرادت الترفيه عنّي. كان الأمر صعبًا عليّ أيضًا آنذاك. تعلمين ذلك!

– حسنًا، قال سترايك، يجب أن نجد لك مكانًا تبيتين فيه هذا المساء.

– يجب أن أذهب إلى النزل...

– لا، محال.

لم يُردها أن تنزل في نزل حيث يستطيع مَن يشاء أن يدخل ويتجوّل بحريّة في الممرّات. لعلّه كان مصابًا بجنون الارتياب، لكنّه فضّل أن تقضي الليل حيث لا يمكن أن تضيع صرخة استغاثة وسط سهرات النساء المملوءة ضحكًا وصياحًا.

– يمكنني النوم في المكتب، قالت روبن وهي تحاول الوقوف. لكنّها ترنّحت، فأمسكها بذراعها. وأضافت: إذا لم يزل لديك ذلك السرير...

– لن تنامي في المكتب. أعرف مكانًا آمنًا، نزلت فيه خالتي وزوجها حين أتيا إلى لندن لمشاهدة مسرحيّة «الفخّ». هاتي هذه الجعبة.

سبق له أن وضع ذراعه على كتفي روبن، ولكنّ الأمر كان مختلفًا تمامًا، فآنذاك كان هو يتّكئ إليها. أمّا هذا المساء فهي التي تتّكئ عليه لتسير في خطّ مستقيم. أمسك بها من خصرها بحزم، وساعدها على مغادرة الحانة.

– ماثيو قد لا يروقه هذا، قالت.

لم يجب سترايك، فبرغم كل ما سمعه، لم يكن واثقًا تمامًا من أنّ كلّ شيء قد انتهى بين روبن وخطيبها. فهي تعرفه منذ تسعة أعوام، وفستان زفافها قيد الخياطة في ماشام. إمتنع سترايك عن انتقاد ماثيو، خوفًا من بلوغ هذا الانتقاد مسمع هذا الأخير حين يتجدّد الشجار بينه وبين روبن. كان متأكّدًا من أنّ شجارًا سيقع. فلا يمكن في ليلة واحدة وضع حدّ لحياة مشتركة دامت تسع سنوات. صمته هذا المساء كان في مصلحة روبن، لا بهدف حماية نفسه. فهو لا يخشى ماثيو.

– مَن كان ذلك الرجل؟ سألته روبن وهي نصف نائمة، بعدما اجتازا صامتين نحو مئة متر.

– أيّ رجل؟

– الرجل الذي أتى هذا الصباح... خلته مرسل الساق. أثار فيّ خوفًا شديدًا.

– إنّه شانكر! صديق قديم لي.

– إنّه مرعب.

– شانكر لن يؤذيك أبدًا، أكّد لها سترايك، ثمّ استدرك فقال: إيّاك أن تتركيه وحيدًا في المكتب.

– لماذا؟

– لأنّه قادر على أن يسرق كلّ ما ليس مثبّتًا إلى الأرض أو إلى جدار. إنّه لا يفعل أيّ شيء مجانًا.

– أين عرفته؟

شغلتهما حكاية اللقاء بين شانكر وليدا حتى وصلا إلى شارع فريث، الذي انتظمت على جانبيه المنازل المدينية الصامتة والموحية بالوقار.

– هل وصلنا؟ سألت روبن، وهي تنظر مشدوهة إلى واجهة فندق هازليت. لا يمكنني الإقامة هنا. إنّه فندق باهظ الكلفة!

– ستقيمين على حسابي. إعتبريها علاوة على راتبك. لا تناقشيني، أضاف فيما فُتح الباب وظهر شابّ يبتسم وهو يبتعد ليفسح لهما المَجال بالدخول. حاجتك إلى مكان آمن تبيتين فيه هي بسببي أنا.

كانت جدران ردهة الدخول المكسوّة بالخشب توحي بالراحة والدفء، والشعور بأنّ النزيل في منزله. لم يكن للفندق سوى باب أماميّ واحد، ولا يمكن فتحه من الخارج.

أعطى سترايك موظّف الاستقبال بطاقة اعتماده، ثمّ التفت نحو روبن المترنّحة عند أسفل الدرج.

– يمكنك أن تتأخّري في النوم غدًا... إذا شئتِ...

– سأكون في المكتب عند التاسعة، أجابت. كورموران، شكرًا على... على...

– لا بأس. نومًا هنيئًا.

أغلق سترايك باب الفندق، وخرج يسير في شارع فريث الصامت ويداه في جيبيه، غارقًا في أفكاره.

أحدهم اغتصبها وتركها ظنًّا منه أنّها جثّة هامدة. تبًّا!

ومنذ ثمانية أيّام، أتى وغد إلى مكتبه لتسليمها رزمة تحتوي ساق امرأة. أمّا هي فلم يسبق لها أن باحت بشيء عن ماضيها، ولم تطلب منه إجازة، بل تابعت العمل بالجدّ والالتزام اللذين تتحلّى بهما كلّ صباح حين تأتي للعمل. كان هو الذي ألحّ، حتّى قبل أن يعرف ماضيها، على أن تتسلّح بأفضل جهاز إنذار ضدّ الاغتصاب، وألّا تبقى خارج المنزل بعد غروب الشمس، وأن تبقى على اتّصال دائم به في خلال اليوم.

فطن سترايك إلى أنّه يبتعد عن شارع الدانمارك، وفي اللحظة عينها شاهد شخصًا مختبئًا عند زاوية ساحة سوهو، على مسافة عشرين مترًا منه، وهو يعتمر طاقيّة، ويدخّن في الظلام سيجارة. وفجأة توارى طرف السيجارة المتأجّج حين استدار الرجل وابتعد مسرعًا.

– عفوًا يا رجل!

تردّد صوت سترايك في الشارع الخالي. ثمّ اندفع المحقق، من دون أن يتكبّد عناء النظر خلفه، في أثر الرجل ذي الطاقية الذي أخذ يجري.

– أنت!

بدأ سترايك يجري خلفه، برغم ألم ركبته. ألقى الرجل نظرة خاطفة نحوه، ثمّ انعطف يسارًا. عند مدخل شارع كارلايل، أمعن سترايك النظر محاولًا العثور عليه وسط الجمع المحتشد أمام حانة توكان. تجاوز، راكضًا، لاهثًا، زبائن الحانة ووصل إلى زاوية شارع دين. وهناك توقف والتفت يبحث عن طريدته في كلّ اتجاه. كان عليه أن يختار بين أن يتابع طريقه يمينًا، أو يسارًا، أو يواصل سيره مباشرة في شارع كارلايل. أيًا كانت الوجهة التي يقرّر سلوكها، فالمشكلة عينها تنتظره: لدى صاحب الطاقية عدد كبير من الشرفات والأدراج التي تهبط إلى جوف الأرض، وتشكّل مخابئ مثاليّة، ما لم يكن قد ركب سيّارة تاكسي وبات بعيدًا.

«سحقًا» تمتم سترايك. كانت ساقه تؤلمه كثيرًا لشدّة ما احتكّت بالجزء الاصطناعيّ. كلّ ما تكوّن لديه كان انطباعًا مبهمًا عن رجل ضخم الجثّة، قويّ البنية، يرتدي سترة سوداء ويعتمر طاقيّة، لاذ بالفرار حالما سمع أحدًا يناديه، ولم ينتظر أن يعرف ما إذا كان سترايك يناديه ليطلب ولاّعة أو يسأله كم الساعة أو إرشاده إلى مكان ما.

قرّر الانعطاف يمينًا للسير في شارع دين. دوّى مرور السيّارات في الاتّجاهين كصوت عصفات ريح في أذنيه. جاب سترايك المكان لأكثر من ساعة، مستطلعًا مداخل المباني والمخابئ الممكنة تحت الأرض. كان يدرك أنّه فقد كلّ فرصة في العثور عليه. ولكن إذا كان هذا الرجل هو المعتوه الذي أرسل الساق، فهذا يعني أنّه من النوع المتهوّر، وأنّ مطاردة سترايك له لن تثنيه أبدًا عن تعقّب روبن.

رماه أشخاص يتلحّفون بأكياس النوم بنظرات الغضب حين رأوه يقترب إلى أكثر ممّا يجرؤ عليه الآخرون عادة. كما أجفلت منه مرّتين هررة قابعة خلف مستوعبات النفايات. لكنّه لم يعثر على أيّ أثر لصاحب الطاقيّة.

21

... the damn call came,
And I knew what I knew and didn't want to know[1].

Blue Öyster Cult, 'Live for Me'

إستيقظت روبن في اليوم التالي وهي تشعر بصداع شديد وبتشنّج في معدتها. وما كادت تدير رأسها فوق الوسائد البيضاء المنشّاة حتى عادت إليها كلّ أحداث الأمس. أبعدت بحركة من رأسها خصلات شعرها المتجمّعة فوق وجهها، ثمّ جلست في سريرها ونظرت حولها. من بين أعمدة السرير الخشبية ذات النقوش الجميلة، حاولت أن تتبيّن الغرفة المظلمة التي لم يدخلها إلّا خيط ضوء شعّ بين جهتي الستارة المزركشة. وحين اعتادت عيناها الضوء الخافت، وقع نظرها على لوحة في إطار مذهّب لرجل سمين بسالفين ضخمين. كان هذا المكان من الفنادق التي قد يختارها المرء أحيانًا لقضاء نهاية أسبوع مميّزة، لا ليستيقظ من السكر وبجانبه جعبة عاديّة تحتوي بضع ملابس حُشرت فيها على عجل.

هل أتى بها سترايك إلى هذا المكان الأنيق والساحر، بمثابة خطوة استباقيّة لما ينوي عمله؟ هل عليها أن تتوقع حديثًا جدّيًا اليوم، من نوع

[1] ... أتى ذلك الاتصال اللعين / وعرفت ما كنت أعرفه ولم أرد أن أعرفه.

من الواضح أنّك متأثّرة جدًّا بما... أعتقد أنّ عليك أن تأخذي استراحة لبضعة أيّام...

كان ثلثا زجاجة خمر كافيين لأن تبوح بكلّ شيء. تأوّهت وسقطت على الوسائد من جديد. غطت وجهها بذراعيها واستسلمت بدون أيّة مقاومة لموجة الذكريات التي أيقظتها تعاستها.

كان المغتصب يضع فوق وجهه قناع غوريلا من اللاتكس. ثبّتها أرضًا بإحدى يديه، وضغط بكلّ قوته على حلقها. وفيما كان يغتصبها راح يقول لها إنّها ستموت، وإنّه ينوي خنقها حتّى تسلم الروح. شلّ الرعب والذعر دماغها تمامًا. وضغطت يداه على عنقها كحلقة حبل، وبات بقاؤها حيّة رهنًا بقدرتها على التظاهر بالموت.

بعد ذلك اليوم ظلت طوال أيّام، بل أسابيع، تشعر بأنّها ميتة فعلًا، وبأنّها أسيرة في داخل جسد انفصلت عنه كلّيًا. كان الأمر وكأنّ الشرط الوحيد لتحمي نفسها هو أن تنفصل عن لحمها، وترفض الاعتراف بأنّها تنتمي إلى هذا الجسد. كانت بحاجة إلى فترة طويلة لتبدأ باسترجاع نفسها.

أمام المحكمة، تظاهر بالوداعة وبالتواضع: «نعم، سيدي القاضي»، «لا، سيدي القاضي». كان المغتصب كهلًا أبيض يشبه آلاف الكهول، ورديّ البشرة، ذا بقعة لا لون لها تحت أذنه. وعيناه الباهتتا اللون واللتان ترمشان بلا توقف، بدتا كشقّين خلف القناع.

حين اغتصبها، حطّم الصورة التي رسمتها لنفسها عن مكانها في العالم، ووضع حدًّا نهائيًا لدراستها الجامعيّة وأعادها إلى نقطة الانطلاق، إلى ماشام. كان عليها أن تقاسي فترة محاكمة منهكة، تميّزت باستجواب مضادّ لا يقلّ إثارة للألم عن الاعتداء عينه، لأنّ المعتدي ردّ بالزعم بأنّها هي مَن استدرجته إلى بيت الدرج. ظلّت طوال أشهر ترى صورة يديه اللتين غطّاهما بقفّازين، تخرجان من الظلمة لتجرّانها إلى التجويف المعتم خلف الدرج. لم تتحمّل طوال أشهر أن يمسّها أحد. حتّى أفراد عائلتها لم يكن بوسعهم أن يعانقوها. أفسد ذلك الرجل علاقتها الجنسيّة الأولى والوحيدة، فكان عليها وماثيو أن يبدآ من جديد، والخوف والذنب يتربّصان بهما في كلّ خطوة.

ضغطت روبن بذراعيها على عينيها، كما لو أنّها تستطيع أن تمحو ذاكرتها بإرادتها. لا شكّ بأنّها تدرك الآن كم أخطأت في شأن ماثيو. ففيما كانت ترقد في سريرها في ماشام محملقة بنظرات فارغة في صورة Destiny's Child، كان الشابّ الساحر الذي رأت فيه مثالًا على اللطف والتفهّم يمارس الجنس مع ساره في منزل الطلبة حيث يقيم في باث. وفي صمت غرفتها في فندق هازليت، خطر ببالها سؤال للمرّة الأولى: هل كان ماثيو ليهجرها لأجل ساره لو لم تتعرّض للاعتداء؟ أو حتّى، هل كانت علاقتها بماثيو لتنتهي لو أنّها تابعت دراستها الجامعيّة حتّى نيل الإجازة؟

خفضت ذراعيها وفتحت عينيها الجافّتين. لقد نضبت دموعها. لم يعد الألم الذي سبّبه لها اعتراف ماثيو يخترقها، وحلّ محلّه مجرّد إحساس مبهم بالضيق، طغا عليه قلق كبير من أن تكون قد أفسدت مستقبلها المهنيّ في عالم التحقيق الخاصّ. كيف كانت من الغباء بأن أخبرت سترايك ما حلّ بها؟ أما تعلّمت بأن النزاهة لا جدوى منها؟

بعد عام على حادثة اغتصابها، بدأت روبن تعود إلى طبيعتها. زال عنها الخوف من الخروج، واستعادت وزنها السابق، واستعجلت العودة إلى العالم، والتعويض عن الوقت الضائع. منذ ذلك الحين عبّرت بخجل عن اهتمامها بالأنشطة المتعلّقة بالتحقيق الجنائيّ. لكّن افتقارها إلى شهادة جامعيّة كما إلى الثقة بالنفس بسبب ما تعرّضت له، جعلها لا تجرؤ على أن تؤكّد بوضوح نيّتها في أن تصبح محقّقة. كان ذلك لحسن حظّها لأنّ كلّ الذين تعرفهم، بدون استثناء، كانوا وما إن يسمعوا منها رغبتها في تعلّم تقنيّات التحقيق العدليّ، حتّى يحاولون إقناعها بالعدول عن ذلك. وحتّى أمّها، المتساهلة معها بطبيعتها، خشيت أن يكون هذا الفضول الغريب علامة إلى نكسة في حالتها النفسية ودليلًا إلى أنّها لم تستطع طيّ الصفحة نهائيًا.

لكنّ ذلك كان خطأً كبيرًا، فاهتمامها بالألغاز البوليسية يعود إلى فترة سابقة بكثير. حين كانت في الثامنة من عمرها قالت لأشقائها إنّها ستقبض على اللصوص حين تصبح كبيرة. فهزئوا بها لمجرّد أنّها فتاة، وفوق ذلك، شقيقتهم. أملت روبن أنّ ردّة فعلهم لم تترجم رأيهم الحقيقيّ في قدراتها، بل

كانت فقط نوعًا من ردّ الفعل الذكوريّ الجماعيّ النموذجيّ. ولكنّها لم تعد إلى إثارة هذا الموضوع قطّ مع أولئك الصبيان الثلاثة ذوي الأفكار المتحجّرة. ولم يدرِ أحد أنّها اختارت دراسة علم النفس على أمل أن تتخصّص في تحديد شخصيّات المجرمين وطباعهم.

لكنّ المغتصب وضع حدًّا لكلّ آمالها المشرقة. كان ذلك أمرًا آخر سلبها إيّاه. وفيما كانت تتعافى من الاكتئاب الرهيب الذي عانته، وبظلّ تخوّف الجميع من أن تصاب بنكسة، بدا لها السير في مشروع تحقيق طموحها أمرًا يفوق قدرتها. وهكذا، وبدافع التعب وعرفان الجميل لهذه العائلة التي أحبّتها وقدّمت لها الحماية في أسوأ فترة من حياتها، تخلّت عن طموح حياتها، وسط ارتياح أقربائها.

بعد ذلك تلقت، في خطأ غير مقصود، اتصالًا من إحدى وكالات التوظيف للعمل كموظفة بديلة في مكتب محقق خاصّ لفترة أسبوع فقط. طال الأسبوع ولم ينتهِ. كانت تلك الصدفة بمثابة معجزة. بفعل الحظّ في البداية، ثمّ بفضل الموهبة والمثابرة، باتت روبن شخصًا لا يستطيع سترايك الاستغناء عنه في مكتبه الذي يمرّ بمرحلة صعبة. وهكذا تحقق الحلم الذي دغدغها سرًّا قبل أن يأتي شخص منحرف ليجعل منها موضوع متعةٍ، أو لعبة تُضرب بعد اللعب وتخنق.

ولكن، لماذا روت لسترايك كلّ شيء؟ قبل الآن، كان قلقًا عليها. أمّا الآن... فمن الواضح أنّه سيعتبرها أكثر هشاشة من أن تستطيع العمل، ولن يلبث أن يزيحها جانبًا. فسترايك بحاجة إلى معاوِنة قادرة على تحمّل المسؤوليّة.

هذه الغرفة ذات الأثاث الخشبيّ الضخم، بدت لها في تلك اللحظة، بهدوئها وصلابتها، كعبء هائل يجثم على صدرها.

رفعت روبن فجأة أغطية السرير السميكة وعبرت الأرضية الخشبية المائلة، متجهة نحو الحمّام، حيث حلّ محلّ دشّ الاستحمام مغطس ذو قوائم كبراثن الحيوان. بعد خمس عشرة دقيقة كانت ترتدي ملابسها حين رنّ جرس

هاتفها المحمول الذي كان فوق طاولة التزيّن. لحسن الحظّ أنّها لم تنسَ أن تصله بالقابس لشحنه قبل أن تنام.

– صباح الخير، قال لها سترايك. كيف حالك؟

– بخير، أجابت بصوت كسير.

لا بدّ من أنّه يتّصل بها ليقنعها بعدم القدوم إلى العمل.

– إتّصل بي واردل منذ قليل. لقد عثروا على بقيّة الجثّة.

لم تقوَ ساقا روبن على حملها فجلست، كمن يسقط، فوق كرسيّ التزيّن المغطّى بالقماش المطرّز. وبكلتا يديها، أمسكت بهاتفها تحاول تثبيته على أذنها.

– ماذا؟ أين؟ من هي؟

– سأخبرك بعد قليل. أنا آتٍ لإحضارك. يريدون محادثتنا. سأكون أمام الفندق عند الثامنة. وأضاف: لا تنسي أن تأكلي شيئًا.

– كورموران! هتفت قبل أن ينهي الاتصال.

– ماذا؟

– هل... لا أزال أعمل لديك؟

ساد صمت قصير.

– ماذا تعنين؟ بالطبع.

– ألم... ألا أزال... ألم يتغيّر شيء؟

– هل ستتبعين تعليماتي؟ سألها. حين أقول لك ألّا تبقي خارج المنزل بعد غروب الشمس، هل ستصغين إليّ، اعتبارًا من الآن؟

– نعم، أجابته وهي ترتجف قليلًا.

– حسنًا. إذن نتقابل عند التاسعة.

خرجت من صدرها تنهيدة ارتياح مرتجفة وعميقة. لم يطردها. ما زال يريدها أن تعمل لديه. وحين كانت على وشك أن تضع الهاتف من يدها، رأت أنّها تلقّت في خلال الليل رسالة نصيّة طويلة جدًّا، لم يسبق لها أن رأت مثلها.

«روبن، أنا عاجز عن النوم لأنّني لا أكفّ عن التفكير فيك. أنا نادم حقًّا على ما فعلت. كان عملًا غبيًّا ولا عذر لي. كان لي من العمر واحد

وعشرون عامًا، ولم أكن أعرف ما أصبحتُ أعرفه اليوم، وهو أنّك الشخص الوحيد في حياتي، وأنّني لن أحبّ أبدًا امرأة كما أحبك. بعد ذلك، لم أعرف امرأة غيرك. شعرت بالغيرة منك ومن سترايك. أعرف أنّه ليس من حقّي، بعد ما فعلتُه، أن أشعر بالغيرة. لكن، لعلّي أشعر في أعماقي بأنّك تستحقّين شخصًا أفضل منّي، وهذا الأمر يؤرقني. أعرف فقط أنّني أحبّك، وأريد الزواج بك. وإذا لم تعودي تنوين ذلك، فأنا أتقبّل الأمر. لكن أرجوك يا روبن، أكتبي لي وأخبريني إن كنت بخير. أرجوك. ماثيو. قبلاتي.»

وضعت روبن الهاتف من يدها لتنتهي من ارتداء ملابسها. ثمّ اتصلت بخدمة الغرف، وطلبت هلاليّة وفنجان قهوة. فوجئت، بعدما وصلت صينيّة الفطور، بأنّ الطعام أعاد إليها قواها. أنهت طعامها، وقرأت رسالة ماثيو من جديد.

... لعلّي أشعر في أعماقي بأنّك تستحقّين شخصًا، وهذا الأمر يؤرقني...

كان ذلك مؤثّرًا جدًّا ومفاجئًا من قبل شخص لم ينفكّ يؤكّد أنّ محاولة سبر أعماق اللاوعي ما هو إلّا ضرب من الشعوذة. ثمّ خطر ببالها أنّ وقاحة ماثيو كانت بلا حدود، فهو لم يقطع قطّ علاقته بساره، ولا تزال من بين أقرب أصدقاء الجامعة إليه. وفي جنازة والدته، عانقها بحرارة، كما أنّها غالبًا ما تخرج وصديقها للسهر معهما، ولم تتوقف قطّ عن مغازلة ماثيو، وإثارة التوتّر بينهما.

بعد تفكير وجيز، أجابت روبن:

أنا بخير.

وقفت بكامل نشاطها أمام مدخل الفندق تنتظر سترايك، الذي وصل بسيارة تاكسي سوداء عند التاسعة إلّا خمس دقائق. بدا بذقنه التي لم يحلقها ذاك الصباح وكأنّه متّسخ الوجه.

– هل قرأتِ الأخبار؟ سألها حالما صعدت إلى السيارة.

– لا.

– الصحافة على علم بالأمر. شاهدت الخبر على التلفزيون فيما كنت أهمّ بالخروج.

إنحنى ليقفل الحاجز البلاستيكيّ الذي يفصل بينهما وبين السائق.

– من هي المرأة؟

– لم يتمّ تأكيد هويّتها رسميًّا بعد، لكنّها شابّة أوكرانيّة لها من العمر أربعة وعشرون عامًا.

– أوكرانيّة؟ صرخت روبن.

– نعم. ثمّ أضاف بعد تردّد: مؤجرّة المنزل عثرت عليها في الثلاّجة بداخل شقّتها، جثّة مقطّعة، لا ينقصها سوى الساق اليمنى. لا بدّ من أنّها هي.

أحسّت روبن بطعم معجون الأسنان وقد بات حامضًا في فمها، كما انقلبت معدتها على ما فيها من القهوة وخبز الهلاليّة.

– أين تقع تلك الشقّة؟

– في طريق كونينغهام، بمنطقة شيبرد بوش. هل يعني لك العنوان شيئًا؟

– لا، أنا... ربّاه. ربّاه! أهي الفتاة التي أرادت أن تقطع ساقها؟

– يبدو الأمر كذلك.

– ولكنّ اسمها لم يكن أوكرانيًّا!

– يقول واردل إنّها ربّما استخدمت اسمًا مزيّفًا، كما تفعل العاهرات.

أقلّتهما سيّارة التاكسي من بول مول إلى مقرّ شرطة نيو سكوتلنديارد. مرّت السيّارة بين الأبنية البيضاء ذات الطراز النيوكلاسيكيّ، التي ترتفع ككتل مهيبة وضخمة من الحجارة، لا تؤثّر فيها الصدمات المنهالة على الإنسانيّة الضعيفة.

– الأمر يعزّز فرضيّة واردل، قال سترايك بعد صمت طويل. فهو يقول إنّ الساق تعود لعاهرة أوكرانيّة شوهدت مؤخّرًا مع ماللي الحفّار.

أدركت روبن أنّ في الأمر أكثر مما يقوله سترايك، فنظرت إليه بقلق.

– وجدوا في شقّتها رسالتين موقّعتين باسمي.

– لكنّك لم تجب على رسائلها!

– يعرف واردل أنّهما مزيّفتان. فقد كُتب اسمي خطأ – كامرون – ولكنّ عليّ أن أذهب إلى الشرطة.

– ماذا في تلك الرسائل؟

– لم يخبرني بالهاتف. أرى أنّه يتصرّف بطريقة سليمة، لاحظ سترايك، ليس سيئًا جدًّا.

ظهر أمامهما قصر بكينغهام. وكان تمثال الملكة فكتوريا الرخاميّ الضخم ينظر بعبوس إلى روبن التي لم تكد تصحو من خمر الأمس، قبل أن يتوارى في البعيد.

– أفترض أنّهم سيعرضون علينا صورًا ليروا إن كان بإمكاننا التعرّف إلى الضحيّة.

– حسنًا، أجابت روبن بحماسة مصطنعة.

– كيف تشعرين؟ سألها سترايك.

– بخير. لا تقلق لأمري.

– في كلّ حال، كنت أنوي الاتّصال بواردل هذا الصباح.

– لماذا؟

– مساء أمس، وبطريق عودتي من فندق هازليت، رأيت رجلًا ضخمًا ذا طاقيّة سوداء يتسكّع في شارع جانبيّ. شيء ما في سلوكه أثار حيرتي. ناديته، بنيّة أن أطلب منه ولاّعة لأشعل سيجارتي، لكنه لاذ بالفرار. وأمام صمت روبن، أضاف سترايك يقول: لا. لا تقولي لي إنّني متوتّر الأعصاب أو أنّني أتخيّل أشياء. أظنّه كان يتبعنا، واسمعيني جيّدًا: أظنّه كان في الحانة لحظة دخلتها. لم أرَ وجهه. لم أرَ منه سوى مؤخّر رأسه لحظة خرج إلى الشارع.

فوجئ سترايك بأنّ روبن لم تنفِ ما قاله. بل عقدت حاجبيها وكأنّها تحاول أن تتذكّر شعورًا غامضًا خامرها.

– أعرف... أنا أيضًا شاهدت رجلًا ضخمًا يعتمر طاقيّة... كان ذلك أمس... أجل. كان يقف عند مدخل أحد المباني في توتنهام كورت رود. لكنّ وجهه كان في الظلّ، فلم أتبيّنه.

تمتم سترايك بشتيمة.

– رجـاءً. لا تمنعني من العمل، قالت روبـن بصوت حـادّ أكثر من المعهود. أرجوك. أنا أعشق هذا العمل.

– وإذا كان ذلك المعتوه يلاحقك ؟

لم تستطع روبن أن تكبت ارتجافة سرت في جسدها، لكنّ تصميمها كان أقوى من خوفها. الرغبة في المساهمة بالقبض على ذلك الوحش، أيًّا كان، كانت أشدّ سطوة من أيّ شعور آخر...

– سأكون حذرة، أحمل جهازَي إنذار ضدّ الاغتصاب.

لم يبدُ الاطمئنان على وجه سترايك.

لدى وصولهما إلى مقرّ نيو سكوتلنديارد، أُدخِلا إلى قاعة فسيحة ملأى بمكاتب صُفّت على الجانبين. كان واردل الذي يرتدي قميصًا بدون سترة يخاطب معاونيه. حين رأى سترايك وروبن، قطع حديثه واصطحبهما إلى قاعة اجتماعات صغيرة.

– فانيسا! صاح عبر الباب، فيما كان سترايك وروبن يجلسان إلى مائدة بيضوية الشكل. هل الرسائل معك؟

أتت الرقيبة إكوينسي، وبيدها ورقتان مكتوبتان بالآلة الكاتبة في غلافين بلاستيكيّين، ونسخة لإحدى الرسالتين المكتوبتين باليد اللتين سلّمهما سترايك لواردل في أولد بلو لاست. ألقت الرقيبة إكوينسي التحيّة على روبن بابتسامة وجدت فيها هذه الأخيرة، من جديد، مصدر طمأنينة كبيرة. ثمّ ذهبت للجلوس بجانب واردل، وأخرجت دفترًا.

– أتريدان قهوة أو شيئًا آخر؟ سألهما واردل.

بحركة من الرأس، ردّ كلّ من سترايك وروبن بالرفض. ثمّ دفع واردل بالرسائل على الطاولة ناحية سترايك الذي اطّلع عليهما قبل أن يعطيهما لروبن.

– لم أكتب أيّة منهما، قال سترايك.

– هذا ما كنت أظنّه، ردّ واردل. هل كتبت هذه الرسائل بالنيابة عن سترايك، يا آنسة إيلاكوت؟

أشارت روبن برأسها أن لا.

في الرسالة الأولى، اعترف منتحل اسم سترايك بأنّه بتر ساقه بنفسه، وقال إنّه اختلق رواية العبوة الناسفة، لتغطية فعلته. وقال إنّه يجهل كيف استطاعت كيلسي أن تكتشف الحقيقة برغم كلّ الاحتياطات التي اتخذها، وتوسّل إليها ألّا تخبر أحدًا بالأمر. وبناء عليه، قبل بأن يساعدها على التخلّص من عبئها، وعرض عليها لقاءها في المكان والزمان اللذين يناسبانها.

أما الرسالة الثانية فلم تتجاوز الأسطر القليلة، أكّد فيها سترايك الموعد المضروب في 3 نيسان/أبريل عند السابعة.

وكانت الرسالتان تحملان توقيع كامرون سترايك، بالحبر الأسود.

– هذا يدلّ إلى أنّها كتبت لي رسالة أخرى بين الاثنتين تقترح عليّ فيها موعدًا، قال سترايك الذي استعاد الرسالة الثانية بعدما أنهت روبن قراءتها.

– كان هذا سؤالي التالي، قال واردل. هل تلقيت رسالة ثانية منها؟

إلتفت سترايك ناحية روبن التي هزّت رأسها علامة النفي.

– حسنًا، قال واردل. سأكرّر من أجل المحضر: «حين تلقّيتِ الرسالة الأولى من...» وأضاف بعدما تحقّق من الاسم الوارد في النسخة: ...«كيلسي، حسبما يتبيّن لي من التوقيع؟»

أجابت روبن:

– وضعتُ الرسالة في دُرج المخبو... لتستدرك فيما ارتسمت ابتسامة على وجه سترايك: في الدرج حيث نحتفظ بالرسائل الشاذّة. يمكننا التأكّد من الختم، لكنّ الرسالة وصلتنا، حسبما أتذكّر، في بداية العام. في شباط/فبراير ربّما.

– ممتاز، قال واردل. سنرسل مَن يأتينا بالظرف. ثمّ ابتسم حين رأى ملامح روبن القلقة، وقال لها: لا تهلعي. أنا أصدّقك. أحد المعتوهين يحاول الإيقاع بسترايك. لا منطق في كل هذا الأمر. لماذا قد يطعن سترايك امرأة قبل أن يقطّع جثّتها، ليرسل بعد ذلك إحدى ساقيها إلى عنوانه الخاصّ؟ لماذا يترك رسائل تحمل توقيعه في شقّة الضحية؟

حاولت روبن أن تبادله الابتسامة.

– هل قُتلت طعنًا؟ سأله سترايك.

– لا ندري بعد ما سبب الوفاة، لكنّنا لاحظنا وجود جرحين عميقين في صدرها. ونحن شبه واثقين من أنّه طعنها قبل أن يبدأ بتقطيعها.

شدّت روبن قبضتيها بقوّة تحت الطاولة حتّى أنّ أظافرها انغرزت في كفّيها.

– لننتقل إلى أمر آخر، قال واردل، فيما رفعت الرقيبة إكوينسي غطاء قلمها استعدادًا للكتابة. هل يعني اسم أوكسانا فولوشينا شيئًا لأيّ منكما؟

– لا، أجاب سترايك، فيما هزّت روبن رأسها بالنفي.

– يبدو أنّ هذا هو الاسم الحقيقيّ للضحيّة، شرح لهما واردل، والذي وقّعت به عقد إيجار منزلها. المالكة قالت إنّها أرتها هويتها، وزعمت أنّها تتابع دروسًا هنا.

– زعمت؟ سألته روبن مقاطعة.

– نحن ندقّق في هويتها الحقيقيّة، قال واردل.

لا شكّ بأنّه يظنّها كانت تمارس الدعارة، فكّرت روبن.

– يبدو لنا من رسالتها أنّها كانت تجيد الإنكليزية، قال سترايك معلّقًا. هذا إذا افترضنا أنّها كاتبتها.

نظرت إليه روبن محتارة.

– أحدهم كتب رسالتين منتحلًا اسمي. لعلّه زوّر الرسالة التي تحمل توقيع كيلسي بالطريقة عينها، شرح سترايك.

– من أجل حملك على الاتصال بها؟

– نعم... لحملي على إعطائها موعدًا، أو لترك أثر مكتوب قد يثير حولي شبهات الشرطة بعد موتها.

– فانيسا، هل وصلت صور الجثّة؟ سأل واردل مساعدته.

غادرت الرقيبة إكوينسي الغرفة، وهي تسير كعارضة في عرض أزياء. أحست روبن بالذعر في أحشائها. إستدار واردل نحوها، وكأنه حزر ما بها، وقال:

– ليس ضروريًا أن تنظري إليها، لأنّ سترايك...

– يجب أن تراها، قال سترايك.

بدت المفاجأة على وجه واردل. أمّا روبن فتساءلت في سرّها عمّا إذا كان سترايك يريد تخويفها لإرغامها على أن تحترم حرفيًا تعليماته بتوخّي الحذر.

– بلى، أجابت بهدوء مقنع. أعتقد أنّ عليّ أن أراها.

– الصور ليست... جميلة جدًّا، قال واردل الذي لم يجد سوى هذا التعبير الباهت.

– الساق كانت مرسلة إلى روبن، قال سترايك مذكّرًا. واحتمال أنّها رأت هذه المرأة من قبل يوازي احتمال أن أكون أنا قد رأيتها. هي شريكتي، وعملنا واحد.

رمت روبن سترايك بنظرة جانبيّة. لم يسبق له قطّ أنّ عرّف بها بصفتها شريكته. أقلّه لم تسمعه يفعل ذلك. ولمّا لم ينظر إليها سترايك حولت انتباهها من جديد نحو واردل. صحيح أنّ الخوف لم يبارحها، ولكنّها أدركت، بعد ما قاله سترايك عنها، أنّها ستتحلى بالشجاعة، ولن تخذل نفسها أو تخذله أبدًا، مهما رأت في تلك الصور.

حين عادت الرقيبة إكوينسي حاملة رزمة من الصور، ابتلعت روبن ريقها واستوت في كرسيّها.

نظر إليها سترايك أوّلًا، فأكّدت ردّة فعله مخاوف روبن.

– اللعنة.

– الرأس بحالة أفضل من بقيّة الجثّة، فقد كان في المجمّدة، قال واردل بهدوء.

كمن يبعد يديه بسرعة عن النار، شعرت روبن بحاجة ملحّة إلى أن تلتفت بعيدًا، أو تغمض عينيها، أو تقلب الصورة على الطاولة. لكنها لم تفعل شيئًا من ذلك، بل أخذت الصورة من يد واردل ونظرت إليها. وفي الحال أحسّت بالرغبة في التقيؤ.

كان الرأس موضوعًا على بقيّة العنق المقطوع، ويحملق بعدسة الكاميرا بعينين فارغتين أفقدتهما حرارة المجمّدة المتدنية كلّ لون. كان الفم شبيهًا

بثقب أسود. وتناثرت بلورات الجليد فوق شعرها الكستنائيّ المتجمّد. كان خدّاها ممتلئين، وعلت البثور ذقنها وجبينها. وبدا أنّ عمرها لا يتجاوز الرابعة والعشرين.

– هل تعرفينها؟

فوجئت روبن بأنّ صوت واردل كان قريبًا جدًّا، لأنّ مشهد الرأس المقطوع ألقى بها في وادٍ سحيق.

– لا، أجابت.

ألقت الصورة، ومدّت يدها إلى الصورة الأخرى. كانت تلك صورة الساق اليسرى والذراعين وقد حُشرت في ثلاّجة، وقد بدأت تتفسّخ. حين هيّأت نفسها لرؤية الصورة الأولى، خالت أنّها لن ترى ما هو أسوأ. لكنّ صرخة رعب أفلتت منها، فشعرت بالخجل.

– نعم، هذا بشع، همست الرقيبة إكوينسي، التي وجّهت إليها روبن نظرة امتنان صامتة.

نلاحظ وجود وشم على المعصم الأيسر، قال واردل مشيرًا بإصبعه إلى الصورة الثالثة. كانت الذراع موضوعة على طاولة، وهي ممدودة. نظرت روبن التي كانت ترغب في التقيؤ إلى المعصم، فرأت الرمز «1 د» مكتوبًا بالحبر الأسود.

– لستِ بحاجة إلى رؤية صورة الجذع، قال واردل وهو يرتّب الصور الأخرى قبل أن يعيدها إلى الرقيبة إكوينسي.

– أين كانت؟ سأله سترايك.

– في مغطس الحمّام. هناك قُتلت. المكان يشبه المسلخ. وأضاف بعد تردّد: ثمّة قطعة أخرى ناقصة من جثّتها، غير الساق.

لم يسأله سترايك ما هي، فشعرت روبن بالامتنان، لأنّها ما كانت لتتحمّل سماع الإجابة.

– مَن عثر عليها؟ سأل سترايك.

– مالكة المنزل، أجاب واردل. سيّدة عجوز. بعد وصولنا بقليل أصيبت بعارض صحي. أزمة قلبيّة على ما أفترض، وقد نُقلت إلى مستشفى هامرسميث.

– لماذا ذهبت إلى منزل الفتاة؟

– قصدته بسبب الرائحة الكريهة التي انبعثت. إتّصلت بها مستأجرة أخرى من الطابق الأرضيّ في المنزل. قبل الذهاب إلى السوق لشراء حاجياتها، حاولت المالكة مقابلة أوكسانا قبل خروجها. ولمّا لم تفتح هذه الأخيرة الباب، دخلت المالكة المنزل.

– ألم يسمع سكّان الطابق الأرضيّ شيئًا أو صراخًا؟

– إنّه منزل مقسوم إلى شقق صغيرة للطلّاب. مستحيل أن نعرف منهم شيئًا، قال واردل. منهم مَن يشغّل الموسيقى الصاخبة، ومنهم مَن يدخلون أو يخرجون في كلّ ساعة، نهارًا أو ليلًا. حين سألناهم عمّا إذا سمعوا ضجيجًا في الطابق الأعلى، نظروا كلّهم إلينا بأفواه مفتوحة. أمّا الفتاة التي اتّصلت بالمالكة فقد أصيبت بانهيار هستيريّ، وراحت تكرّر أنّها لن تسامح نفسها أبدًا على عدم اتّصالها حالما شمّت الرائحة.

– نعم، كان ذلك ليغيّر كلّ شيء. وكان يمكن إلصاق الرأس بالعنق فتعود الفتاة بأحسن حال.

إنفجر واردل ضاحكًا، فيما ارتسمت ابتسامة على فم الرقيبة إكوينسي.

لكنّ روبن نهضت فجأة. فنبيذ المساء وفطور الصباح لم يتآلفا في معدتها. تمتمت معتذرة وأسرعت لتغادر الغرفة.

22

I don't give up but I ain't a stalker,
I guess I'm just an easy talker[1]*.*

Blue Öyster Cult, 'I Just Like To Be Bad'

– شكرًا جزيلًا، أعرف معنى الفكاهة السوداء، قالت روبن بعد ساعة بنبرة اختلط فيها الاستياء بالمرح. هل يمكننا الانتقال إلى موضوع آخر؟

كان سترايك نادمًا على الملاحظة التي أطلقها في قاعة الاجتماعات. فقد أمضت روبن عشرين دقيقة في المرحاض، وخرجت شاحبة تمامًا وقد بلّلها العرق الذي تصبّب منها. دلّت رائحة النعناع التي فاحت منها إلى أنّها نظّفت أسنانها. بدلًا من ركوب سيّارة تاكسي، اقترح عليها العودة مشيًا على طريق برودواي، لتتنشّق هواء نقيًا. دخلا حانة فيذرز، التي كانت الأقرب إليهما، وطلب فنجانَي شاي. كان يفضّل احتساء البيرة، لكنّ روبن لا تملك من الخبرة ما يكفي لتدرك أنّ الجرائم الدموية لا تتعارض والكحول، وخشي أن تعتبره، إذا ما رأته يحمل كوب بيرة، رجلًا قاسي القلب لا يعرف الرحمة.

[1] أنا لا أستسلم، لكنّني لست مطارد نساء / لستُ في أعماقي سوى رجل معسول الكلام.

في ذلك الوقت، أي عند الحادية عشرة والنصف من صباح الأربعاء، كانت الحانة هادئة. إختارا مائدة في نهاية القاعة الكبيرة، على مسافة من شرطيّين باللباس المدنيّ جلسا يتحادثان بصوت خفيض بالقرب من النافذة.

– فيما كنت في المرحاض، قال سترايك، كلّمت واردل عن صديقنا ذي الطاقيّة. وسيرسل إلى شارع الدانمارك شرطيًا بملابس مدنيّة لبضعة أيّام.

– أتعتقد أنّ الصحفيّين سيعودون؟ سألته روبن التي لم يتسنّ لها الوقت بعد لتقلقها هذه المسألة.

– أرجو ألّا يعودون. قرّر واردل التكتّم على موضوع الرسائل، فهو يعتقد أن نشرها هو ما يريده القاتل المعتوه الذي يحاول أن ينصب لنا فخًّا، بتقديره.

– وأنت؟

– لا، أجاب سترايك. القاتل ليس على هذا القدر من الجنون. في هذه المسألة أمر أكثر غرابة.

ثمّ أطرق صامتًا، فتركت له روبن الوقت ليفكّر.

– هذا إرهاب، قال سترايك وهو يحكّ ذقنه غير الحليقة. إنّه يحاول أن يثير قلقنا، ويقلب حياتنا رأسًا على عقب. فلنعترف بأنه نجح في ذلك. الشرطة فتّشت كلّ زاوية من المكتب، واستدعتنا للتحقيق معنا، وخسرنا معظم زبائننا، وأنت...

– لا تقلق لأمري! هتفت روبن فجأة. لا أريدك أن...

– بربّك يا روبن، قال سترايك بحدّة. كلانا شاهد ذلك الرجل أمس. يرى واردل أنّ عليّ أن أطلب منك البقاء في منزلك، وأنا...

– أرجوك، قالت روبن وقد عادت إليها مخاوفها كلها دفعة واحدة، أرجوك لا تفعل هذا.

– هل يجب أن تجازفي بالموت لتتخلّصي من مشاكلك مع خطيبك؟

سرعان ما ندم سترايك على ما قاله حين رأى التشنّج على وجه روبن.

– عملي ليس مهربًا من مشاكلي، تمتمت روبن. أنا أحبّ وظيفتي. حين استيقظتُ هذا الصباح، ندمت على ما رويته لك عن حياتي. خشيتُ أن تجدني... سريعة الانكسار كثيرًا.

– ليس للأمر أيّة صلة بما رويتِه لي مساء أمس. وغير مهمّ أن تكوني سريعة الانكسار أو لا. نحن نواجه مختلّا عقليًا، لعلّه يتعقّب أثرك في كلّ لحظة، وقد قام بتقطيع جثّة امرأة.

شربت روبن جرعة من الشاي الفاتر، ولم تفُه بكلمة واحدة. كانت تحس بجوع شديد، لكنّ مجرّد التفكير في أن تأكل طبقًا من اللحم، كالأطباق التي تقدَّم في الحانات عادة، جعل قطرات العرق البارد تسيل على جبينها.

– لم تكن تلك جريمته الأولى، أليس كذلك؟ قال سترايك كمن يطرح سؤالًا بلاغيًا إجابته معروفة، وهو ينقّل نظره بين أسماء ماركات البيرة المرسومة باليد فوق المشرب. لقد قطع رأسها، وانتزع أطرافها، وأخذ أجزاء منها. ما رأيك؟

– هذا ممكن جدًّا، نعم، قالت روبن موافقة.

– يفعل ذلك للذّته. لا شكّ بأنّه استمتع كثيرًا في ذاك الحمّام.

لم تعد روبن واثقة من أنّ ما تحسّ به هو الجوع أو الغثيان.

– مجنون ساديّ حاقد عليّ، ووجد طريقة ليصيب عصفورين بحجر واحد، قال سترايك وهو يفكّر بصوت مرتفع.

– هل تفكّر في أحد الرجال الذين تشتبه بهم؟ سألته روبن. هل تعرف ما إذا كان أحدهم قد ارتكب جريمة قتل؟

– نعم، قال سترايك. ويتايكر. لقد قتل أمّي.

لكن ليس بهذه الطريقة، فكّرت روبن. فليدا سترايك انتهى بها الأمر في المشرحة بسبب إبرة، لا بسبب سكّين. لكنّها فضّلت ألّا تقول شيئًا، احترامًا لسترايك الذي بدا عليه الوجوم الشديد. ثمّ تذكّرت أمرًا آخر، فسألته بحذر:

– أتعرف أنّ ويتايكر احتفظ بجثّة امرأة في منزله مدّة شهر؟

– نعم، سمعتُ هذا.

كانت أخته لوسي مَن أخبرته بذلك، وهو في الخدمة العسكرية في البلقان. عثر في الإنترنت على صورة لويتايكر يدخل المحكمة. وجد سترايك صعوبة في التعرّف إليه. فزوج والدته السابق قصّ شعره وأرخى شعر لحيته. وحدهما العينان الذهبيّتان صاحبتا النظرة الجامدة لم تتغيّرا. زعم ويتايكر

في دفاعه، إذا كان سترايك يتذكّر جيّدًا، أنّه خشي أن يواجه من جديد تهمة قتل ملفّقة، فحاول تحنيط جثة شريكته ووضعها في أكياس نفايات لإخفائها تحت أرضية المنزل. كما جرّب محاميه أن يقنع القاضي غير المتعاطف مع ويتايكر بأنّ موكلّه اختار هذه الطريقة الغريبة لحلّ مشكلته تحت تأثير المخدّرات.

– لكنّه لم يقتلها، أليس كذلك؟ سألته روبن وهي تحاول أن تتذكّر ما قرأته في ويكيبيديا.

– كان شهر قد انقضى على موتها، أجاب سترايك، فلم يكن التشريح سهلًا. وعاد التعبير البشع الذي وصفه به شانكر ليرتسم على وجهه. شخصيًّا، أنا مستعدّ للمراهنة على أنّه قتلها. أيّ سوء حظّ يطارد رجلًا لتموت اثنتان من صديقاته هكذا، في المنزل، أمام عينيه؟

– كان ويتايكر يحبّ الموت والجثث. وقال إنّه كان حفّار قبور في مراهقته. الجثث تستهويه. كان الناس يعتبرونه مجرّد هاوٍ لموسيقى الهارد غوثيك، أو متباهٍ سخيف يعشق الأغاني التي تقدّس الموت، والإنجيل الشيطاني، وألايستر كراولي، وكلّ تلك التفاهات... لكنّه كان نذلًا، وشخصًا عديم الأخلاق، يحبّ الأذى. الأدهى أنّه كان يتباهى بما يفعل. أتعرفين لماذا؟ كانت النساء يتقاتلن للفوز به.

– أنا بحاجة إلى كوب بيرة، قال سترايك. ونهض باتّجاه البار.

شاهدته روبن يبتعد، وقد فاجأتها قليلًا سورة غضبه. كان اقتناعه بأنّ ويتايكر ارتكب جريمتين يتناقض مع قرارات المحاكم، ومع الأدلّة التي جمعتها الشرطة، حسبما علمت. منذ تعرّفت إلى سترايك، كانت تسمعه دائمًا يقول إنّ عملهما يقوم على جمع الوقائع بكلّ دقّة، والبحث عن الأدلّة، وإنّ الحدس ومشاعر الكره الشخصيّة قد تفيد التحقيق، لكن لا يجوز لها أبدًا أن توجّهه. لكن في هذه الحال، يتعلّق الأمر بوالدته...

عاد سترايك حاملًا كوبًا من نيكولسون بايل آيل ولائحتَي طعام.

– آسف، تمتم بعدما شرب جرعة كبيرة من البيرة. كنت أفكّر في أمور نسيتها منذ زمن بعيد. كلمات الأغاني تلك.

– نعم، قالت روبن.

– تبًّا! لا يمكنه أن يكون الحفّار، قال سترايك منفعلًا وهو يمرّر يده في شعره الكثيف والأجعد، من دون يغيّر ذلك في تسريحته شيئًا. إنّه رجل عصابات محترف! لو أنّه اكتشف أنّ لي دورًا في إيداعه السجن، وكان يسعى إلى الانتقام منّي، لأطلق عليّ رصاصة في رأسي. ما كان ليتسلّى بأن يرسل إليّ ساقًا مقطوعة وكلمات أغانٍ، تساعد في تقديم أدلّة إلى الشرطة. إنّه رجل أعمال.

– أما زال واردل يعتقده الفاعل؟

– نعم، قال سترايك. ومع ذلك يجب أن يعرف أنّ شهادات الشهود السريين أمام المحكمة محاطة بالكتمان الشديد. وإلّا لامتلأت المدينة بجثث رجال الشرطة.

بجهد جهيد امتنع عن مواصلة انتقاد واردل. فالرجل قادر على أن يضع له العصيّ في الدواليب، ومع ذلك فهو يخدمه ويظهر حياله الكثير من اللطف. لم ينسَ سترايك آخر مرّة اضطرّ فيها إلى التعامل مع الشرطة، حين تُرك في غرفة استجواب لمدّة خمس ساعات كاملة، إشباعًا لرغبتهم في الانتقام.

– والرجلان اللذان عرفتهما في الجيش؟ سألته روبن بصوت منخفض، فيما كان عدد من موظّفات أحد المكاتب يجلسن إلى مائدة قريبة. بروكبانك ولاينغ، هل قتلا أحدًا؟ أعني... أعرف أنّهما كانا جنديّين، ولكن في ما خلا المعارك؟

– لن يفاجئني أن أعرف أنّ لاينغ قتل أشخاصًا. لكنّه وبحسب علمي لم يقتل أحدًا. أقلّه قبل إرساله إلى السجن. أعرف أنّه استخدم سكّينًا في الاعتداء على زوجته السابقة، وقيّدها، وسبّب لها جروحًا. لقد أمضى عشر سنوات خلف القضبان، وأشكّ في أنّهم نجحوا في إصلاحه. مضت أربع سنوات على خروجه إلى الحريّة، ولعلّه ارتكب جرمًا في هذه الفترة.

للمناسبة، لم أخبرك أنّني التقيت حماته السابقة في ملروز. تظنّه أقام في غايتسهاد بعد خروجه. نحن نعرف أنّه أقام في كوربي في العام 2008... كما قالت لي إنّه كان مريضًا.

– ما مرضه؟

– نوع من داء المفاصيل، لكنّها لا تعرف أكثر من ذلك. هل يستطيع رجل يعيقه المرض أن يفعل ما رأيناه في الصور؟ أخذ سترايك لائحة الطعام، وأضاف: أنا جائع جدًّا وأنت لم تأكلي شيئًا منذ يومين، ما خلا رقائق البطاطا.

طلب له طبقًا من السمك والبطاطا ولروبن طبقًا مشكّلًا، ثمّ استأنف الكلام، ولكن في موضوع آخر:

– هل تعتقدين أنّ الضحيّة كان لها من العمر أربعة وعشرون عامًا؟

– لا... لا أعرف، أجابت روبن وهي تحاول أن تبعد عنها صورة الوجه ذي الخدّين الممتلئين والعينين اللتين ابيضّتا بفعل التجميد. وقالت بعد تريّث قصير: لا، أظنّها أصغر سنًّا.

– وأنا أيضًا.

– يجب أن أذهب... إلى المرحاض، قالت روبن وهي تنهض.

– أنت بخير؟

– فقط لأتبوّل... شربت الكثير من الشاي.

نظر إليها تبتعد، ثمّ أنهى كوب البيرة متابعًا تفكيره في أمر لم يقله بعد لروبن ولا لأحد، بأيّة حال.

حين كان في ألمانيا، عرضت عليه محقّقة موضوعًا إنشائيًّا كتبته تلميذة. لم ينس سترايك الجملة الأخيرة المكتوبة بخطّ فتاة صغيرة على ورقورديّ اللون:

> **غيّرت السيّدة اسمها، وقالت إنّها تدعى أناستازيا، وصبغت شعرها. لم يعرف أحد أين ذهبت. لقد توارت.**

وفي شريط الكاسيت الذي شاهده بعد ذلك، كانت المحقّقة تسأل الفتاة بلطف:

– أهذا ما كنت تودّين عمله يا بريتاني؟ هل كنت تريدين أن تهربي؟ وتتواري؟

– لا، إنّها مجرّد قصّة، أجابت بريتاني بضحكة صغيرة بدا أنّها مصطنعة.

كانت تحرّك أصابعها باضطراب، وتلفّ إحدى ساقيها حول الأخرى. وانسدل شعرها الأشقر فوق جانبي وجهها الذي ملأته حبوب النمش الحمراء. كما استلقت نظّارتها فوق أنفها بشكل غير مستقيم. مظهرها هذا ذكّر سترايك بببّغاء صغير أصفر.

أضافت قائلة:

– لقد اختلقتُ كلّ شيء!

سرعان ما ستكشف نتائج فحوص الحمض النوويّ هوية المرأة التي عُثر عليها في الثلاّجة. بعد ذلك ستحقّق الشرطة لمعرفة من كانت أوكسانا فولوشينا، إذا افترضنا أنّ هذا هو اسمها الحقيقيّ. هل يحقّ لسترايك أن يشكّ في أن تكون الجثّة لبريتاني بروكبانك، أم أنّه كان مصابًا بجنون الارتياب؟ لماذا ظهر اسم كيلسي على الرسالة الأولى التي تلقّاها؟ لماذا بدت الضحيّة صغيرة السنّ جدًّا، بخدّين منتفخين كأنّهما خدّا طفلة صغيرة.

– كان يجب أن أكون في أثر بلاتينوم في مثل هذا الوقت، قالت روبن وهي تعود للجلوس، وتنظر بحزن إلى ساعتها.

كانت إحدى الجالسات إلى المائدة القريبة تحتفل بعيد ميلادها. وقد انفجرت زميلاتها مقهقهات حين رأينها تفتح هديّتها، التي لم تكن سوى لباس داخليّ نسائيّ باللونين الأحمر والأسود.

– الأمر ليس مقلقًا، قال سترايك شارد الذهن.

وصل طعامهما. أكل بصمت لدقيقة أو اثنتين، ثمّ وضع من يده شوكته وسكّينه، وأخرج دفتره مدقّقًا في الملاحظات التي دوّنها في مكتب هاردكاير. بعد ذلك أخذ هاتفه ليقوم ببحث عبر الإنترنت. نظرت إليه روبن بدون أن تفهم.

– حسنًا، قال سترايك، بعدما قرأ نتيجة بحثه. سأقصد غدًا بارو إن فورنس.

– ماذا؟ سألته روبن مذهولة؟ لماذا ستذهب إلى هناك؟

– بروكبانك هناك... يُفترض به أن يكون هناك.

– ما أدراك؟

– علمت في إدنبره أنّ راتبه التقاعديّ يُدفع له في تلك المدينة. ومنذ قليل تحقّقت من عنوان منزل عائلته. الواقع هو أنّ المنزل مسجّل باسم امرأة تدعى هولي بروكبانك، لا بدّ من أنّها قريبته. لعلّها تعرف مكانه. إذا أمكنني التأكّد من أنّه كان موجودًا في مقاطعة كومبريا في الأسابيع القليلة الماضية، سنعرف أنّه هو مَن أرسل الساق، وهو مَن يتتبّعنا في شوارع لندن، أليس كذلك؟

– ماذا تخفي عنّي في شأن بروكبانك؟ سألته روبن وقد ضاقت عيناها.

لكنّ سترايك تجاهل سؤالها.

– أريدك أن تلازمي منزلك في أثناء غيابي. تبًّا لذلك «المخدوع المرّتين». لا يلومنّ إلّا نفسه إذا رافقت رجلًا آخر. لسنا بحاجة إلى ماله.

– آنذاك لن يبقى لدينا سوى زبون واحد، علّقت روبن.

– لن يبقى لدينا أحد قريبًا، كما أظنّ، ما دام ذلك المعتوه طليقًا. سيبتعد الناس عنّا تلقائيًا.

– كيف ستذهب إلى بارو؟ سألته روبن، التي ارتسمت في ذهنها خطّة.

– سأذهب بالقطار، تعرفين أنّني لا أملك مالًا كافيًا لاستئجار سيّارة حاليًّا.

– وإذا أخذتُك أنا بسيّارتي اللاند روفر الجديدة... أعني القديمة، ولكنّها تسير بشكل ممتاز، سألته روبن بنبرة انتصار.

– ومنذ متى تمتلكين سيّارة لاند روفر؟

– منذ يوم الأحد. كانت لوالديّ.

– حسنًا. نعم. هذا سيكون ممتازًا...

– ولكن؟

– لا، هذا سيساعدني حقًّا...

– ولكن؟ عادت روبن لتسأله، وقد لاحظت تحفّظاته.

– أجهل كم من الوقت سأبقى هناك.

– وما الفرق؟ بأيّة حال، أفضّل هذا على أن أبقى في المنزل ولا أفعل شيئًا.

تردّد سترايك. هل رغبتها في إهانة ماثيو هي التي أوحت إليها بهذا الاقتراح؟ كان يتخيّل آنذاك ردّة فعل المحاسب حين يعرف أنّهما يذهبان معًا إلى شمال البلاد لوقت غير محدّد، وحيدين لا ثالث لهما، وحتّى لقضاء الليل هناك. إنّ علاقة مهنيّة طبيعيّة تفترض عدم استخدام زميل لإثارة غيرة الشريك العاطفيّ.

– تبًّا! صاح وهو يبحث عن هاتفه في جيبه.

– ماذا؟ سألته روبن التي خشيت خطبًا ما.

– لقد نسيتُ تمامًا. كان بيني وبين إلين موعد مساء أمس. تبًّا... نسيت. لا تتحرّكي.

خرج إلى الرصيف تاركًا روبن أمام صحنها. لماذا؟ فكّرت الفتاة وهي تنظر إلى سترايك الضخم الجثّة يروح ويجيء أمام واجهة الحانة، وهاتفه إلى أذنه. لماذا لم ترسل إليه إلين رسالة نصية؟ لماذا لم تتصل به؟ وهنا انتقلت أفكارها إلى ماثيو، وهو ما لم تفعله حتّى الآن، أيًّا كان رأي سترايك. ماذا يقول لو رآها تعود إلى المنزل لترحل بسيّارة اللاند روفر حاملة ملابس تكفيها أيّامًا عدّة؟

لا يحقّ له أن يغضب، فكّرت بتحدٍّ، لم يعد الأمر يعنيه أبدًا.

ومع ذلك فإنّ فكرة رؤية ماثيو مجدّدًا، ولو لدقائق قليلة، أزعجتها.

عاد سترايك وهو ينظر إلى السماء تبرّمًا.

– الأمر سيئ، قال باقتضاب، سأذهب لرؤيتها هذا المساء.

لم تعلم روبن لماذا شعرت بالتعاسة حين قال سترايك لها إنّه ذاهب للقاء إلين. لا بدّ من أنّه التعب. فهي تتلقّى الصدمة تلو الصدمة منذ ستّ وثلاثين ساعة، ومجرّد غداء في حانة لا يكفي لتبديد هذا التوتّر. مجدّدًا انفجرت الزميلات الجالسات إلى المائدة القريبة بالضحك، بعدما ظهرت هدية جديدة، وهي أصفاد مكسوّة بفرو مزيّف.

هذا ليس عيد مولدها، أدركت روبن. إنّها على وشك الزواج.

– إذًا، هل أقلّك بسيّارتي أم لا؟ سألته بعصبيّة.

– نعم، قال سترايك، الذي بدا أكثر ميلًا إلى هذه الفكرة. (أم لعلّ فكرة قضاء الأمسية مع إلين أبهجته؟) أتعرفين؟ هذه فكرة رائعة. شكرًا.

23

Moments of pleasure, in a world of pain[1].

Blue Öyster Cult, 'Make Rock Not War'

في صباح اليوم التالي، انتشرت غلالات سميكة من الضباب كشبكة عنكبوت عملاقة فوق رؤوس الأشجار في ريجنتس بارك. كان سترايك الذي عاجل بوقف جهاز الإنذار في هاتفه لتجنّب إيقاظ إلين، يقف متوازنًا على ساق واحدة أمام النافذة، وقد أسدل خلفه الستارة ليحجب دخول الضوء إلى الغرفة. وقف لدقيقة يتأمّل الغابة في حلّتها البيضاء المنسوجة بخيوط السحاب، مأخوذًا بمنظر الشمس المشرقة على الأغصان المورقة والبارزة من تحت بحر الضباب. تبادر إلى ذهنه أنّ المرء يستطيع إذا ما أخذ وقته، أن يجد الجمال في كلّ مكان على الأرض. ولكنّ الصراع اليوميّ يجعله ينسى بسهولة أنّ حوله ترفًا مجانيًا تمامًا. كان سترايك يحمل في نفسه ذكريات كثيرة من هذا النوع، يرتبط معظمها بطفولته في كورنوال: كتلألؤ البحر في الصباح تحت ضوء أزرق كجناح الفراشة، وغموض ممرّ غانيرا بظلاله الياقوتيّة الغامقة في حديقة تريبا غاردن، والأشرعة البيضاء المتهادية فوق بحر رصاصيّ اللون، كطيور نورس تقف على قمم الأمواج.

[1] لحظات من السعادة في عالم من العذاب.

خلفه، كانت إلين تتحرّك متنهدة في السرير الغارق في الظلام. عبر سترايك بدون إثارة أيّ ضجيج من خلف الستارة إلى حيث كانت ساقه الاصطناعيّة مسندة إلى الجدار، وجلس على كرسيّ لتركيبها. ثمّ توجّه بحذر شديد إلى الحمام، وملابسه بين ذراعيه.

مساء أمس، تشاجرا للمرّة الأولى. والشجار الأوّل هو معلم في كلّ علاقة. كان ذلك أمرًا متوقّعًا. فعدم قيامها بأيّة ردّ فعل على غيابه التامّ مساء الثلثاء كان يجب أن يثير شكوكه. ولكن بين روبن والمرأة المقّطعة الأوصال، لم يتسنّ له للوقت للتفكير. لا شكّ بأنّها ردّت ببرودة حين اتّصل بها معتذرًا. ولكن حين قبلت فورًا برؤيته في مساء اليوم عينه، لم يخطر بباله قطّ أن تستقبله بالبرودة عينها. تناولا العشاء في جوّ متوتّر، لم يتبادلا خلاله سوى كلمات قليلة. نهض سترايك قائلًا لها إنّه يفضّل أن يتركها لاستيائها. وحين رأته يحمل معطفه انفجرت غاضبة، لكنّ غضبها سرعان ما تلاشى، واعتذرت منه، وأخبرته بعينين دامعتين أنّها أوّلًا، تخضع لعلاج نفسيّ؛ وثانيًا، أنّ المعالج النفسيّ شخّص لديها ميلًا إلى العدائيّة السلبيّة؛ وثالثًا، أنّ غيابه عن موعدهما مساء الثلثاء أصابها بكآبة شديدة لدرجة أنّها شربت وحدها زجاجة نبيذ كاملة وهي تتفرّج على التلفزيون.

كرّر سترايك اعتذاره أمامها، متذرّعًا بأنّه يعالج قضيّة في غاية التعقيد شهدت فجأة انعطافة خطيرة. كان نادمًا على تخلّفه عن موعدهما، لكنّه يفضّل العودة إلى منزله إذا كانت ترفض أن تسامحه.

في تلك اللحظة، ارتمت بين ذراعيه. وما هي إلّا ثوانٍ حتّى كانا في السرير يغرفان من بحر لذّة لم يسبق لهما أنّ عرفاها قطّ.

في الحمّام الفخم الذي يبرق نظافة، بأضوائه المخفيّة الباهظة الكلفة، ومناشفه الناصعة البياض، وقف سترايك يحلق ذقنه مفكّرًا في أنّه نجا من المأزق بسهولة نسبيًا. فلو أنّه تخلّف عن موعد مع شارلوت، المرأة التي عاشرها بصورة متقطّعة مدّة ستّة عشر عامًا، لواجه انتقامًا أقسى بكثير، ولكان في مثل هذا الموقف وهذا الوقت، يحمل آثار الجروح على وجهه، أو يبحث عنها في كلّ أنحاء لندن، أو حتّى واقفًا على الشرفة، محاولًا منعها من الانتحار.

سبق له أن وصف شعوره نحو شارلوت بالحبّ، الذي لم يعرف مثيلًا له مع أيّة امرأة. لكنّ ذلك الحبّ المؤلم والذي ترك آثارًا طويلة الأمد، كان أشبه بالمرض. ولم يكن سترايك واثقًا من أنّه قد شفي منه حقًّا. لكنّه كان يملك علاجه الخاصّ ليمحو أعراضه. وهذا العلاج يقوم على ألّا يراها أبدًا، ألّا يتّصل بها أبدًا، ألّا يستخدم أبدًا عنوان بريدها الإلكترونيّ الجديد الذي استعملته لترسل إليه صورتها شاردة النظرات، يوم اقترانها برجل جمعتها به علاقة سابقة. ومع ذلك فقد أدرك أنّ تلك القصّة قد تركت فيه جروحًا بليغة لدرجة أنّ ما يشعر به اليوم بات أقلّ قوّة ممّا عاشه من قبل. فتعاسة إلين أمس لم تخترقه حتّى العظام، كما كانت تفعل به تعاسة شارلوت من قبل. وكأنّما قدرته على الحبّ تضاءلت أو كأنّ أحاسيسه تعطّلت. لم يرد أن يجرح إلين، كما لم يحبّ أن يراها تبكي. ومع ذلك فهو لم يعد يشعر حقًّا بألم الآخرين. والحقيقة أنّ كلّ ما فكّر فيه وهي تبكي، كان الطريق الذي عليه سلوكه للعودة إلى منزله.

إرتدى ملابسه في الحمّام، وعاد عبر الرواق الخفيف الإضاءة ليضع علبة لوازم حلاقته في الجعبة التي أحضرها استعدادًا لرحلته إلى بارو إن فورنس. شاهد إلى يمينه بابًا نصف مفتوح. دفعته رغبة مفاجئة إلى أن يدفعه.

تلك كانت غرفة الفتاة الصغيرة التي لم يلتقها قطّ، والتي تنام هنا حين لا تكون في منزل أبيها. غرفة باللونين الورديّ والأبيض، حسنة الترتيب، ألصِقت على جدرانها صور من قصص الساحرات الطيّبات، كما صُفّت على أحد الرفوف دمى باربي بابتساماتها الفارغة ونهودها الناتئة تحت فساتين فاقعة الألوان. وأمام سرير ذي أعمدة، امتدّت سجّادة من الفرو الاصطناعيّ تنتهي برأس دبّ قطبيّ.

بالكاد كان سترايك يعرف فتيات صغيرات. كان لديه ثلاثة أبناء أخت، وهو عرّاب اثنين منهم، من دون أن يعني ذلك أنّهما قريبان إلى قلبه. كما كان لصديقه الأقدم، والذي يعيش في كورنوال، عدّة بنات، لكنّ أيّة صلة لم تجمع سترايك بهنّ. وهو لا يحتفظ منهنّ إلّا بصورة ضفائر مجدولة ومتطايرة وأيادٍ

تلوّح له، «صباح الخير، عمّي كورم؛ مساء الخير، عمّي كورم». طبعًا له أخت، وقد نشآ معًا. لكنّ لوسي لم تكن تنام في سرير ذات أعمدة في طفولتها، على رغم أنّها كانت لتحبّ ذلك.

كانت بريتاني بروكبانك تملك دمية محشوّة على هيئة أسد. إستعاد سترايك فجأة ذلك التفصيل حين رأى سجادة السرير التي تنتهي برأس دبّ قطبيّ. دمية محشوّة على هيئة أسد برأس مضحك. ألبسته بريتاني تنّورة ورديّة اللون ذات كشاكش. وكان على الأريكة في اللحظة التي انقضّ فيها زوج أمّها على سترايك، حاملًا بيده زجاجة بيرة مكسورة.

عاد سترايك إلى الغرفة، وبحث في جيبه. كان يحمل دائمًا دفترًا وقلمًا. كتب كلمة صغيرة لإلين، أشار فيها إلى الجزء الأفضل من الأمسية التي قضياها، ثمّ وضعها على منضدة المدخل، ليتجنّب إيقاظها. بعد ذلك، وبالحذر نفسه الذي نهض به وحلق ذقنه وارتدى ملابسه، علّق جعبته بكتفه، وانسلّ خارجًا من الشقّة. كان على موعد مع روبن عند محطّة وست إيلينغ عند الثامنة.

كانت آخر خيوط الضباب تنجلي عن شارع هايستننغز حين خرجت روبن، مرتبكة ومتعبة، من منزلها وهي تحمل سلّة من الطعام بإحدى يديها، وبالأخرى جعبة من الملابس. فتحت الباب الخلفيّ في سيّارة اللاند روفر الرماديّة، ووضعت الملابس بداخلها، ثمّ انتقلت إلى مقعد السائق، وسلّة الطعام لا تزال بيدها.

كان ماثيو قد حاول أن يعانقها قبل قليل، لكنّها دفعته عنها واضعة كلتا يديها على صدره الخالي من الشعر، وصاحت به ليبتعد. كان بلباسه الداخليّ، ولم ترد أن تدع له الوقت ليرتدي ملابسه، لئلاّ يفكّر في اللحاق بها. أغلقت باب السيارة بقوة وشدّت حزام الأمان، لكنّها ما كادت تدير مفتاح تشغيل المحرّك حتّى رأت ماثيو على الرصيف، حافيًا، يرتدي قميصًا قطنيًّا وسروالًا رياضيًّا. لم يسبق لها قطّ أن رأته بمثل هذا الارتباك وهذا الضعف.

– روبن! صاح بها وهي تضغط بقوّة على دوّاسة الوقود وتبتعد عن الرصيف. أحبّك. أحبّك!

أدارت روبن المقود وخرجت بالسيّارة من حيث كانت متوقّفة، وكادت تصطدم بالهوندا الخاصّة بأحد الجيران. راحت صورة ماثيو تصغر في المرآة أمامها. الرجل الذي لم يعتد أن يُظهر أيّ ضعف قطّ، كان يصيح بحبّه لها بأعلى صوته، مجازفًا بإثارة فضول الجيران أو حتّى سخريتهم.

كان قلب روبن يخفق بقوّة في صدرها. إنّها السابعة والربع. لا شكّ بأنّ سترايك لم يصل إلى المحطة بعد. إنعطفت يسارًا عند نهاية الشارع، لا همّ لها سوى زيادة المسافة التي تفصل بينها وبين ماثيو.

كان ماثيو قد استيقظ فجرًا، وهي تحاول أن توضب حاجاتها بدون أن توقظه.

– أين تذهبين؟

– لمساعدة سترايك في تحقيق.

– هل تعودين هذا المساء؟

– لا أظنّ ذلك.

– أين؟

– لست أكيدة.

لم تشأ أن تخبره أين يذهبان خشية أن يلحق بهما. لم تنسَ بعد المشهد الذي قابلها عند عودتها إلى المنزل مساء أمس. فقد بكى ماثيو وتوسّل إليها. لم تره روبن في مثل هذه الحالة حتّى عند موت والدته.

– روبن، يجب أن نتحادث.

– تحادثنا ما فيه الكفاية.

– هل تعرف أمّك أين تذهبين؟

– نعم.

كذبت. فليندا كانت تجهل أنّ روبن فسخت خطوبتها وأنّها تتّجه شمالًا مع سترايك. في النهاية، كان لها من العمر ستّة وعشرون عامًا، ولا شأن لأمّها بخصوصيّتها. مع ذلك، فهمت أنّ ماثيو يريد معرفة إذا ما أبلغت والدتها بأنّ الزفاف قد ألغي. كان كلاهما يدرك أنّها ما كانت لتفكّر في الذهاب باللاند

روفر إلى وجهة مجهولة برفقة سترايك لو لم تفسخ خطوبتها. والخاتم الياقوتيّ لا يزال حيث تركته، على الرفّ حيث يضع كتب المحاسبة القديمة.

«تبًّا»، تمتمت روبن وهي ترفّ بجفونها لتزيل الدموع. كانت تسير على غير هدى في الشوارع الخالية، متحاشية النظر إلى إصبعها أو التفكير مجدّدًا في وجه ماثيو القلق.

يكفي السير خطوات قليلة لاجتياز عوالم عدّة. هذه هي لندن، فكّر سترايك وهو يدخّن سيجارته الأولى يومذاك: فقد انطلق سيرًا من ناش، حيّ المنازل ذات الأعمدة المتماثلة، والتي تبدو وكأنّها منحوتة في مثلّجات الفانيليا. وهناك رأى جار إلين الروسيّ، ببزّته المقلّمة، يهمّ بركوب سيارته الفخمة. ألقى عليه سترايك التحيّة، فقابلها الروسيّ بإشارة خفيفة من رأسه. مرّ أمام أطياف شرلوك هولمز المرسومة في محطة شارع بايكر، وها هو الآن في عربة مترو، قذرة، محاطًا بعمّال بولونيّين يثرثرون، جاهزين للعمل اعتبارًا من الساعة السابعة صباحًا. وصل إلى محطّة بادنغتون المزدحمة، وشقّ طريقه وسط المقاهي والركّاب، وجعبته معلّقة إلى كتفه. ثمّ دخل قطار هيثرو، الذي سار به عدّة محطّات، ترافقه عائلة كبيرة قادمة من جنوب غرب إنكلترا، تقصد المطار للسفر إلى فلوريدا بملابس خفيفة، برغم برودة الصباح. كانوا يقرأون لافتات الاتجاهات بعصبيّة، متشبّثين بحقائبهم وكأنّهم يخشون هجومًا وشيكًا من بعض اللصوص.

وصل سترايك إلى محطّة وست إيلينغ قبل الموعد بخمس عشرة دقيقة، وشعر برغبة عارمة في التدخين. ألقى الجعبة من يده وأشعل سيجارة آملًا ألّا تصل روبن بسرعة. قد لا تسمح له بالتدخين في السيارة. ولكنه ما كاد يبدأ التدخين حتّى ظهرت عند المنعطف سيارة تشبه العلبة، بدا عبر زجاجها شعر روبن الذهبيّ بوضوح.

– لا أبالي، صاحت فوق صوت المحرّك فيما كان يحمل جعبته، ويتظاهر بأنّه ينوي إطفاء سيجارته، شرط أن تبقي الزجاج مفتوحًا.

صعد، ورمى جعبته على المقعد الخلفيّ، ثم أغلق الباب.

– مستحيل أن يزيد تدخينك رائحة السيارة سوءًا، قالت روبن وهي تحرّك مقبض السرعات بخبرتها المعهودة. رائحة الكلاب تملأ السيارة.

شدّ سترايك حزام الأمان، وانطلقت روبن. نظر سترايك إلى داخل السيارة. كان كل ما فيها قديمًا وبحال مزرية، كما انبعثت منها رائحة الجزمات المطاطية وفرو الكلاب المبلل. ذكّرته هذه الرائحة بالجيش والآليات العسكرية التي قادها في شتّى أنواع المناطق، في البوسنة وأفغانستان. كما ساعدته في الوقت عينه على رسم صورة لروبن في الإطار العائلي. فهذه اللاند روفر تشي بوجود دروب موحلة، وأراض زراعيّة. وهي قد حدّثته ذات يوم عن أنّ عمّها مزارع.

– هل كان لديك بوني؟

رمته بنظرة دهشة. وفي تلك الالتفاتة التي لم تتعدّ الثانية، لاحظ سترايك عينيها المنتفختين وبشرتها الشاحبة. كان من الواضح أنّها لم تنم كثيرًا.

– لماذا تريد أن تعرف؟

– هذه تبدو كسيّارة يذهب بها المرء إلى سباق الجياد.

– نعم، كان لديّ بوني، أجابت كمن يدافع عن نفسه.

إنفجر سترايك ضاحكًا، وأنزل زجاج باب السيارة ليخرج عبره يده حاملة السيجارة.

– ما المضحك في الأمر؟

– لا أعلم. ما كان اسمه؟

– أنغوس، قالت وهي تنعطف يسارًا. كان حقيرًا، ولا يكفّ عن رميي عن ظهره.

– لا أثق بالجياد أبدًا، قال سترايك وهو يدخّن.

– هل مارست ركوب الجياد؟

آنذاك كان دور روبن في الابتسام. فقد تخيّلت سترايك على صهوة حصان، وفكّرت في أنّها قد تكون من المرّات النادرة التي قد يفقد فيها شجاعته الأسطورية.

– لا، ولا أنوي أن أفعل.

– يملك عمّي حصانًا قويًّا يستطيع حملك، قالت روبن. إسمه كلايدسدايل، وهو ضخم جدًّا.

– حسنًا، وصلت الرسالة، أجاب سترايك بنبرة جافّة. فاستغرقت روبن في الضحك.

حين بدأ ازدحام السير أمامهما، راح سترايك يدخّن في صمت لئلاّ تفقد روبن تركيزها على القيادة. أدرك أنّه يحبّ كثيرًا أن يجعلها تضحك. كما أنّه شعر بالارتياح هنا، في هذه اللاند روفر القديمة المتداعية، حيث يستطيع أن يتحدّث على سجيّته مع روبن، أكثر ممّا شعر به في خلال العشاء أمس مع إلين.

لم يكن سترايك ممّن يبحثون عن أوهام تُشعرهم بالارتياح. كان بوسعه أن يزعم أنّ روبن تمثّل له ملذّات الصداقة البسيطة، فيما تمثّل إلين متاعب العلاقة الجنسيّة وملذّاتها. لكنّه عرف أنّ الحقيقة أكثر تعقيدًا، خصوصًا منذ أن انتزعت روبن خاتمها الياقوتيّ. أدرك لحظة التقيا أنّ روبن تمثّل تهديدًا لهدوء البال الذي ينعم به. لكنّه لم يكن بوارد المجازفة بأفضل علاقة عمل عرفها في حياته كلها. لا، سيكون ذلك بمثابة عملية تخريب ذاتيّة، لا أكثر ولا أقلّ، خصوصًا بعد سنوات الشغف المدمّر التي عاشها، وبعد شهور التضحيات والعوائق التي تغلّب عليها ليؤسّس وكالة التحرّي الخاصة به.

– هل تتعمّد أن تتجاهلني؟

– ماذا؟

كان محرّك اللاند روفر القديمة صاخبًا جدًّا، فلم يسمع شيئًا.

– سألتك كيف حال علاقتك بإلين.

لم يسبق لها قطّ أن طرحت عليه سؤالًا مباشرًا كهذا. لعلّ ما أسرّ به كلّ منهما للآخر منذ يومين قد نقلهما إلى مرحلة جديدة من الحميميّة، قال سترايك في نفسه. وشعر بأنّه كان يفضّل عدم الوصول إلى هنا.

– جيّدة جدًّا، أجاب بمزاج متعكّر.

ثمّ رمى عقب السيجارة من النافذة ورفع الزجاج، ما خفّف الضجيج قليلًا.

– هل سامحتك إذًا؟

– سامحتني؟

– على نسيانك موعدكما! أوضحت له روبن.

– نعم! حسنًا، لا... ومن ثمّ نعم.

دخلت روبن المسلك A 40. لدى سماعها إجابته الغامضة، ارتسمت فجأة في ذهنها صورة واضحة جدًّا لسترايك، بجسده الأشعر الضخم، وبساق ونصف، ممتزجًا بالجسد النحيف لإلين الشقراء الشعر، والبيضاء البشرة كالرخام، فوق الشراشف القطنيّة البيضاء... لا شكّ بأنّ الشراشف كانت بيضاء ونظيفة. لا شكّ بأنّ لديها مَن تهتمّ بغسل بياضاتها. كانت إلين امرأة بورجوازيّة وثريّة، وليست ممّن يتفرّجن على التلفزيون وهنّ واقفات لكيّ الملابس في غرفة جلوس صغيرة في إيلينغ.

– وماذا عن ماثيو؟ سألها سترايك لحظة بلغت الطريق السريع. كيف الحال بينكما؟

– جيدة، أجابت روبن.

– هراء، ردّ سترايك.

إستأنفت روبن الضحك. كان ذلك ردّ فعل طبيعيًّا على ما قاله. لكنّ سؤاله أزعجها قليلًا. لماذا هذا الفضول، وهو لا يتكلّم عن حياته مع إلين إلّا نادرًا؟

– يريدنا أن نستعيد علاقتنا.

– طبعًا.

– لماذا «طبعًا»؟

– إن لم يكن الصيد مسموحًا لي، فهو كذلك غير مسموح لك.

لم تدرِ روبن كيف تردّ على تعليقه الأخير. ومع ذلك أحسّت برعشة من السعادة. لعلّها المرّة الأولى التي يُظهر فيها سترايك أنّه يراها كامرأة. وفضّلت

أن تحتفظ بهذه المحادثة القصيرة في زاوية من زوايا عقلها، لتعود إليها لاحقًا، حين تصبح بمفردها.

– أمطرني اعتذارات، وطلب منّي مرّات عدّة أن أعيد خاتم الخطوبة إلى إصبعي، اعترفت روبن. لكنّ ما تبقّى لديها من إخلاص لماثيو منعها من أن تقول إنّه بكى، وتوسّل. ثمّ أضافت: ولكن...

إلّا أنّها صمتت هنا. كان سترايك يودّ أن يعرف أكثر، لكنّه لم يطرح مزيدًا من الأسئلة، بل أنزل زجاج النافذة ليدخّن سيجارة جديدة.

توقفا في هيلتون بارك سرفيسز للاستراحة وتناول القهوة. وفيما وقف سترايك في صفّ الزبائن في برغر كينغ، ذهبت روبن إلى المرحاض. وأمام المرآة، نظرت إلى هاتفها. لم يفاجئها أن ترى فيه رسالة جديدة من ماثيو. إلّا أنّه هذه المرّة لم يكن يتوسّل أبدًا:

«إذا كنت تضاجعينه، فكلّ ما بيننا انتهى إلى الأبد. لعلّك ترغبين في الثأر، لكنّ الأمر هنا مختلف. فعلاقتي بساره حدثت منذ وقت طويل، وكنّا يافعين. كما أنّني لم أفعل ذلك لأجرح مشاعرك. فكّري في ما سنخسره يا روبن. أحبّك.»

«آسفة»، تمتمت روبن وهي تبتعد لتفسح مكانًا لفتاة عيل صبرها للوقوف أمام مجفّف اليدين.

قرأت رسالة ماثيو من جديد. أحسّت بفورة غضب محت الشعور بالشفقة الذي تملّكها منذ الصباح. هذا هو فعلًا، فكّرت. إذا كنت تضاجعينه، فكلّ ما بيننا انتهى إلى الأبد. ألم يأخذها على محمل الجدّ حين نزعت خاتمها، وقالت إنّها لم تعد ترغب في الزواج به؟ ألا ينتهي ما بينهما إلى الأبد، إلّا حين يقرّر ماثيو أنّه انتهى؟ الأمر هنا مختلف. أيعتبر إذًا أنّ خيانتها أسوأ من خيانته؟ وأنّ رحلتها إلى الشمال ليست سوى نيّة ثأر؟ وأنّ جريمة قتل امرأة ووجود قاتل طليق مجرّد ذريعة لتحقيق ذلك؟

تبًا لك، فكّرت روبن وهي تعيد هاتفها إلى جيبها. وعادت إلى القاعة حيث كان سترايك يأكل سندويتشًا كبيرًا باللحم. حين رأى هذا الأخير خدّيها المحمرّين، وفكّها المتشنّج، أدرك أنّ ماثيو اتّصل بها، فسألها:

– هل كلّ شيء على ما يرام؟

– نعم، قالت روبن. ورغبة منها في أن تحول دون استرساله بالأسئلة، سألته هي: حسنًا، هل ستكلّمني عن بروكبانك؟

لم تكن ترغب في أن تردّ بهذه العدائيّة، لكنّ أمرين أثارا حفيظتها: وقاحة ماثيو، والسؤال الذي أيقظته رسالته في ذهنها: أين سينامان الليلة؟

– إن أردتِ، قال سترايك بلطف.

أخرج هاتفه، وفتح صورة بروكبانك التي التقطها على شاشة كومبيوتر هاردكاير، ثمّ ناولها الهاتف.

كان وجه بروكبانك طويلًا، وأسمر، وله شعر بنيّ كثيف. بدا وجهًا غريبًا ولكنّه لا يخلو من الجاذبيّة. قال لها سترايك، وكأنّه قرأ ما تفكّر فيه:

– إنّه اليوم أقبح من هذا. هذه الصورة تعود إلى تاريخ تطوّعه في الجيش. أمّا اليوم فله عين غائرة، وأذن منتفخة.

– كم يبلغ طوله؟ سألته وهي تستعيد صورة الساعي الذي قصدها، بملابس سائق الدرّاجة الناريّة والخوذة ذات الزجاج العاكس.

– له مثل طولي وأكثر.

– هل قلت إنّك التقيته في الجيش؟

– نعم، أجاب سترايك.

خالت لبرهة أنّه سيكتفي بما قاله. ثمّ أدركت أنّه صمت في انتظار مرور زوجين مسنّين يبحثان عن مائدة يجلسان إليها. وحين ابتعدا، أضاف:

– كان رائدًا في فرقة المدرّعات السابعة، وتزوّج بأرملة زميل له. كانت لها ابنتان صغيرتان. وبعد ذلك أنجبا طفلًا.

سرد عليها سترايك كلّ تفاصيل الملفّ الذي عاد مؤخّرًا لقراءته، مع أنّه لم ينسَ شيئًا منه قطّ. كانت تلك إحدى الروايات التي تطارد المرء حتّى نهاية أيّامه.

كانت كبرى الفتاتين تدعى بريتاني. وكان لها من العمر اثنا عشر عامًا حين أسرّت لرفيقتها في الصفّ، في ألمانيا، أنّها ضحيّة تحرّش جنسيّ. كلّمت هذه الأخيرة والدتها التي أخطرت السلطات. تمّ استدعاؤنا. لم أستجوبها شخصيًّا، بل قامت بذلك محقّقة. أنا فقط شاهدت شريط الفيديو.

الأفظع كان سلوك الفتاة. حاولت التصرّف وكأنّ الأمر لا يعنيها، وأن تلعب دور المرأة البالغة. الواقع أنّها كانت تخشى بشدّة أن تنعكس نتائج اعترافها على عائلتها، لذا بذلت كلّ ما بوسعها لتعود عمّا قالته.

طبعًا لا. هي لم تقل لصوفي قطّ إنّه هدّد بقتل شقيقتها الصغيرة إذا ما فضحت أمره! لا، صوفي لم تكذب. إنّها مزحة، لا أكثر. أمّا سبب سؤالها صوفي عن الطريقة الصحيحة للوقاية من الحمل فهو... أنّها فضوليّة، لا أكثر. كلّ الفتيات يردن معرفة هذه الأمور. لا، لم يقل قطّ إنّه سيقطّع والدتها قطعًا صغيرة إذا ما تكلّمت... وهذه الآثار على ساقها؟ أوه، هذه... مجرّد مزحة أيضًا، كلّ ذلك كان مزاحًا بمزاح. قال لها إنّ على ساقها ندوبًا لأنّه كاد يقطعها لها وهي طفلة، لكنّ أمّها وصلت ورأته يفعل ما يفعله. قال لها إنّه فعل ذلك لإنّها مشت فوق أحواض زهوره وهي صغيرة، لكنّ الواقع أنّ ذلك لم يكن سوى مزحة. إسألوا أمّي. الحقيقة أنّها تعثّرت بشريط شائك، وتمزّقت ربلتها حين أرادت أن تتخلّص منه. يكفي أن يطرحوا السؤال على أمّها. لم يسبّب لها جرحًا أبدًا. أبدًا. أبي لا يفعل هذه الأمور أبدًا.

لكنّ الانقباض اللاإراديّ الذي ظهر على وجه الفتاة وهي تقول «أبي»، ظلّ محفورًا في ذاكرة سترايك. كانت تلك ردّة فعل الأطفال حين يبتلعون ريقهم خوفًا من العقاب. كان لها من العمر اثنا عشر عامًا، وتدرك أنّ عائلتها لن تعود إلى حياتها الطبيعيّة إلّا إذا أقفلت فمها وتحمّلت ما يفعله بها ذلك الرجل بدون تذمّر.

منذ اللقاء الأوّل، تركت السيّدة بروكبانك في سترايك انطباعًا سيئًا. كانت امرأة نحيلة، تبالغ في التبرّج. لا شكّ بأنّها كانت ضحيّة هي الأخرى، على طريقتها. ومع ذلك شعر سترايك بأنّها ضحّت ببريتاني لتنقذ ولديها الآخرين. وغضّت النظر حين كان زوجها يتغيّب طويلًا عن المنزل ومعه ابنتها

الكبرى. كان رفضها معرفة ما يجري يجعلها شريكة. قال بروكبانك لبريتاني إنّه سيخنق أمّها وشقيقتها إذا باحت بما يفعله معها في السيّارة، أو في خلال مشاويرهما في الغابة، أو في الأزقّة المظلمة. هدّد بتقطيعهما إلى قطع صغيرة وبدفنهما في الحديقة، وبأنّه بعد ذلك، سيأخذ رايان – أي ابنه الصغير، والوحيد الذي بدا بروكبانك مهتمًّا به – ويذهب به إلى مكان حيث لن يعثر عليهما أحد أبدًا.

– تلك كانت مزحة. مجرّد مزحة. لم يكن يعني ما يقوله.

الأصابع النحيلة الصغيرة التي لا تتوقف عن الحركة، والنظّارة غير المستقيمة، والقدمان اللتان لا تلامسان الأرض. وحتى بعدما ذهب سترايك وهاردكاير إلى بروكبانك للقبض عليه، رفضت أن يعاينها طبيب.

– كان سكرانًا حين دخلنا. حين أعلنت له عن سبب قدومنا، انقضّ عليّ حاملًا زجاجة مكسورة. سدّدتُ إليه ضربة أفقدته الوعي، أضاف سترايك بدون تباهٍ. لكنّني أخطأت. لم يكن هناك داعٍ للأمر.

لم يعترف بخطأه علنًا قطّ، حتّى ولو كان هاردكاير – الذي أيّده بقوّة في التحقيق الذي تلا عملية الاعتقال – يعرف أيضًا أنّ الأمر كان خطأ.

– لكنّه انقضّ عليك حاملًا زجاجة...

– كان عليّ تجريده منها بدون ضربه.

– قلت إنّه كان ضخم الجثّة...

– كان سكرانًا جدًّا، وكان بوسعي السيطرة عليه بدون إفقاده الوعي. بوجود هاردكاير، كنّا اثنين مقابل واحد. الحقيقة أنّني كنت مسرورًا لأنّه هاجمني. فقد رغبت في ضربه. وسدّدت إليه ضربة جانبيّة واحدة بقبضتي اليمنى، فسقط أرضًا. هكذا نجا.

– نجا...

– نجا من السجن، قال سترايك. وكأنّه لم يرتكب أيّ خطأ قطّ.

– ولكن كيف؟

صبّ سترايك لنفسه فنجانًا ثانيًا من القهوة، شارد النظرات، غارقًا في ذكرياته.

– نقلوه إلى المستشفى، لأنّه وحين أفاق من الغيبوبة بعد ضربتي، أصيب بنوبة صرع حادّة. إصابة دماغيّة كبرى.

– ربّاه، قالت روبن.

– أخضِع لجراحة عاجلة لوقف النزيف. وتواصلت نوبات الصرع. شُخّص لديه وجود إصابة دماغيّة، وخلل نفسيّ على أثر صدمة، وإدمان للكحول، فمُنعت عنه المحاكمة. إستغلّ محاموه ذلك ووجهوا إليّ تهمة ضربه والتسبب بإيذائه. لحسن الحظّ أنّ المحامين الذين تولّوا الدفاع عنيّ اكتشفوا أنّه خاض مباراة رغبي في عطلة الأسبوع التي سبقت اعتقاله. وقادهم البحث إلى معرفة أنّ رأسه اصطدم بركبة لاعب ويلزيّ يزن 110 كلغ. بنتيجة تلك الإصابة سقط أرضًا، وكان مغطّى بالوحل والأورام لدرجة أنّ الطبيب الشابّ الذي عالجه لم يلاحظ نزيف أذنه، واكتفى بتوصيته بالراحة. لكنّ الطبيب أغفل تعرّضه لكسر عند قاعدة الجمجمة. هذا ما ظهر حين طلب محاميّ من اختصاصيّين فحص صور الأشعّة التي التُقطت له بعد المباراة. كان اللاعب الويلزيّ مَن كسر له رأسه، لا أنا.

ومع ذلك، لو لم يشهد هاردكاير بأنّه انقضّ عليّ حاملًا زجاجة، لواجهتني ورطة شنيعة. في النهاية أقرّ القضاة بأنّ تصرفي كان دفاعًا عن النفس. ولم يكن بوسعي معرفة أنّه مصاب بكسر في الجمجمة، ولا توقّع نتيجة فعلي.

في هذا الوقت، عثر المحققون في كومبيوتره على أفلام خلاعيّة أبطالها أطفال. كما تقاطعت إفادة بريتاني مع شهادات عدّة أشخاصٍ غالبًا ما رأوها تذهب وحدها بالسيّارة مع زوج أمّها. كما سألوا أستاذها الذي قال لهم إنّ بريتاني تميل أكثر فأكثر إلى الانطوائيّة في الصفّ.

تحرّش بها طوال عامين، مهدّدًا إيّاها بقتلها مع أمّها وشقيقتها إذا تكلّمت. ونجح في إقناعها بأنّه حاول قطع ساقها في السابق، وأنّ ذلك هو سبب وجود الندوب على كلا جانبَي عظم الساق، وأنّ وصول أمّها في اللحظة المناسبة هو وحده ما أنقذها. أمّا الأمّ فقالت إنّ ابنتها جُرحت في حادثة تعرضت لها في طفولتها.

لزمت روبن الصمت، جاحظة العينين، ويدها على فمها. كان منظر سترايك مخيفًا.

– لازم المستشفى في خلال علاجه من نوبات الصرع. تابع سترايك يقول. وكان كلما حاول المحققون استجوابه، يتظاهر بالارتباك الذهنيّ وبفقدان الذاكرة. جمع حوله عددًا من المحامين رأوا فرصة جيّدة للكسب في هذه القضيّة التي يجتمع فيها الاعتداء الجسديّ والخطأ الطبيّ. زعم أنّه هو نفسه ضحيّة سوء معاملة، وأنّ حبّه لأفلام الأطفال الخلاعيّة أحد أعراض مشاكله الذهنيّة وإدمانه الكحول. أصرّت بريتاني على زعمها أنّ كلّ روايتها مختلقة. أمّا الأمّ فكانت تقول للجميع إنّ بروكبانك لم يمسّ الأطفال بأذى قطّ، وإنّه أب صالح، وإنّها خسرت زوجها الأوّل وتتمسّك بالثاني. ومن جهة أخرى، كانت قيادة الجيش ترغب في إقفال القضيّة.

مُنعت عنه المحاكمة بحجة عدم الأهلية، قال سترايك الذي التقت نظرته المظلمة بعينَي روبن الرماديّتين الضاربتين إلى الزرقة. خرج من القضيّة بريئًا، وفاز بعطل وضرر، وراتب تقاعديّ. بعد ذلك رحل، ومعه بريتاني.

24

Step into a world of strangers
Into a sea of unknowns[1]...

Blue Öyster Cult, 'Hammer Back'

كانت سيّارة اللاند روفر المقرقعة تنهب المسافات بفعاليّة مذهلة. ولكن، قبل وقت طويل من رؤية اللافتات الأولى التي تشير إلى اقتراب بارو إن فورنس، بدت الرحلة لا تنتهي. لم تحدّد الخريطة بدقّة كم كان المرفأ بعيدًا ومنعزلًا. لم تكن بارو إن فورنس مكانًا يمرّ به أحد أو يزوره بالصدفة، بل كانت نهاية طريق بحدّ ذاتها.

بعد اجتياز التخوم الجنوبيّة للايك ديستريكت، شاهدا أغنامًا سارحة في الحقول، وجدرانًا حجريّة وأكواخًا قديمة. تلك الطبيعة الريفيّة الخلّابة ذكّرت روبن بمسقط رأسها في يوركشاير. ثمّ عبرا أولفرستون (مسقط رأس الممثّل الكوميديّ ستان لوريل)، ورأيا للمرّة الأولى مصبّ نهر كبيرًا، ما دلّهما إلى أنّهما يقتربان من الساحل. ونحو الظهر، وصلا أخيرًا إلى المنطقة الصناعيّة عبر طريق انتشرت على جانبيها المستودعات والمصانع. وبعد ذلك، دخلا المدينة.

[1] الدخول إلى عالم من الغرباء / في محيط من المجهولين...

– لنبحث عمّا نأكله قبل الذهاب إلى منزل بروكبانك، قال سترايك المنكبّ منذ خمس دقائق على دراسة خريطة المدينة. فهو يرفض الأجهزة الإلكترونيّة التي تساعده على الاسترشاد، لأنّ الخريطة الورقيّة يمكن مراجعتها في الحال، ولا حاجة إلى انتظار تحميلها، كما لا تختفي عند أدنى مشكلة تصادفها شبكة الإنترنت. ثمّ أضاف: يوجد موقف للسيّارات من هنا. إنعطفي يسارًا عند المستديرة.

مرّا أمام بوّابة عتيقة تفضي إلى كرايفن بارك، وهو ملعب فريق بارو ريدرز. أمعن سترايك النظر حوله جيّدًا، متفحّصًا المكان ومتحسّبًا في الوقت عينه لاحتمال ظهور بروكبانك فجأة. كان يتوقّع، وهو المولود في كورنوال، أن يرى البحر، أو حتّى أن يشمّ رائحته. لكن مَن يدري؟ لعلّه لا يزال بعيدًا عشرات الكيلومترات عن الشاطئ. لا بل أنّ المرء قد يشعر هنا بأنّه يجتاز مركزًا تجاريًّا عملاقًا في ضاحية ما، تحيط به المحالّ البشعة ذات اللافتات المشعّة. وبين متجر للأدوات اليدويّة التركيب من هنا، ومطعم للبيتزا من هناك، قد تظهر تحفة معماريّة، غريبة كلّ الغرابة عن محيطها، لتذكّر بالحقبة حين كانت بارو مدينة صناعيّة مزدهرة. تمّ تحويل مركز الجمارك، وهو مبنى جميل شُيّد بأسلوب آرت ديكو المعماريّ، إلى مطعم. كذلك كان معهد فنّيّ مبنيّ على الطراز الفكتوريّ، ومزيّن بالتماثيل الكلاسيكيّة، يحمل على واجهته العبارة اللاتينية Labor Omnia Vincit (بالعمل الدؤوب وحده يتحقّق النجاح). وعلى مسافة قصيرة منه، بلغا صفوفًا لا تنتهي من منازل العمّال، ذات الشرفات، الشبيهة بلوحات الرسّام ل. س. لوري.

– لم يسبق لي قطّ أن رأيت عددًا كهذا من الحانات، قال سترايك فيما كانا يدخلان موقف السيارات.

تملّكته رغبة شديدة في أن يشرب كوب بيرة. ولكّنه، وبتأثير العبارة اللاتينيّة التي شاهدها قبل قليل، وافق على اقتراح روبن بتناول وجبة سريعة في مقهى قريب.

كان ذلك من أيّام نيسان/أبريل المشمسة، وهبّت من ناحية البحر الذي لا يُرى نسائم جليديّة.

– إنّهم لا يبالغون في الغرور هنا، تمتم سترايك حين قرأ اسم المقهى: «الملجأ الأخير».

كذلك شاهد في الناحية المقابلة من الشارع متجرًا باسم «الفرصة الثانية»، لبيع الملابس القديمة، ورهن المقتنيات الشخصيّة. خلافًا لما يوحي به الاسم، كان «الملجأ الأخير» مقهى مريحًا ونظيفًا، مليئًا بالسيّدات العجائز اللواتي يثرثرن.

تناولا وجبتيهما، ثمّ عادا إلى موقف السيارات.

– لن يكون من السهل مراقبة منزله إذا كان خاليًا، قال سترايك وهو يدل روبن إلى الخريطة بعدما دخلا اللاند روفر. إنّه طريق مستقيم، لا منفذ له، ولا مكان فيه للاختباء.

– هل خطر ببالك أنّ نويل ربّما أصبح امرأة اسمها هولي؟ سألته روبن بشيء من عدم الجدّية. لعلّه خضع لجراحة تحويل جنس، أليس كذلك؟

– في هذه الحال، سيصبح العثور عليه سهلًا جدًّا، ردّ سترايك. امرأة طولها 190 سنتم، بأذن منتفخة تسير بحذاء عالي الكعب! إنعطفي يمينًا هنا، قال لها وهو يقرأ لافتة الملهى الليليّ الذي يمرّان أمامه: «المُفلس»، وأضاف: عجبًا، إنّهم حقًّا يسمّون الأمور بأسمائها في هذا المكان.

إرتفع أمامهما بناء طحينيّ اللون يحمل لافتة «أنظمة باي»، يحجب منظر البحر تمامًا. وكان كناية عن كتلة عملاقة وطويلة جدًّا من الإسمنت، خالية تمامًا من النوافذ.

– أظنّ أنّ هولي هي شقيقته، أو ربّما زوجته الجديدة، قال سترايك... إنعطفي يسارًا الآن. إنّها في مثل سنّه. حسنًا. نحن نبحث عن طريق ستانلي... حسبما يتبيّن، سينتهي بنا الطريق أمام «أنظمة باي».

كان سترايك على حقّ، فطريق ستانلي كان يمتدّ في خطّ مستقيم بين صفّ من المنازل وجدار يعلوه شريط شائك. وخلف ذلك الجدار يرتفع المصنع ببنائه الأبيض الضخم، والبشع، والمثير للخوف.

– «حدود الموقع النوويّ؟» سألت روبن، وهي تقرأ لافتة معلّقة على سور المصنع، فيما كانت السيّارة تتقدّم بهما ببطء.

– إنّه مصنع غوّاصات، قال سترايك وهو يرفع نظره نحو الأسلاك الشائكة. وضعت الشرطة لافتات لمنع الدخول في كل مكان تقريبًا. أنظري.

كان الطريق المسدود والمعزول ينتهي بموقف صغير للسيارات، يحاذيه ملعب أطفال. لاحظت روبن وجود عدّة أشياء بين الأسلاك المعدنيّة في أعلى الجدار. لعلّ الكرة وصلت إلى هناك صدفة، لكنّها رأت أيضًا عربة دمية ورديّة اللون، علقت بين الأسلاك ويتعذّر استرجاعها. رؤية هذه الدمية سبّبت استياء غريبًا لروبن: لا بدّ من أنّ أحدهم تعمّد رميها هناك.

– لماذا تنزلين؟ سألها سترايك وهو يدور حول السيّارة من الخلف.

– أريد...

– أنا سأهتمّ ببروكبانك، إذا كان هنا، قال سترايك وهو يشعل سيجارة. إيّاك أن تقتربي منه.

عادت روبن إلى السيّارة.

– حاوِل ألّا تضربه، همست وهي تلتفت إلى سترايك الذي سار نحو المنزل وهو يعرج قليلًا، بعدما يبّست الرحلة الطويلة ركبته.

كانت نوافذ بعض المنازل نظيفة جدًّا، وظهرت خلف زجاجها بعض القطع الفنيّة، فيما انسدلت خلف نوافذ أخرى ستائر شبكيّة تجمّع عليها غبار السنين. لكنّ عددًا قليلًا من النوافذ كان بحال مزرية، وتراكمت على عتباتها أوساخ تشي بحال ما بقي من المنزل. كان سترايك يقترب من باب بنيّ لكنّه توقّف فجأة. رأت روبن عدّة رجال يظهرون في نهاية الشارع، بملابس العمل الزرقاء وخوذات البنائين. هل كان بروكبانك بينهم؟ هل هذا سبب توقف سترايك؟

لا، توّقف لأنّه تلقّى اتّصالًا هاتفيًا. أدار ظهره إلى المنزل والعمّال، وسار متمهّلًا، عائدًا أدراجه نحو روبن، تشغله المحادثة الهاتفية عن كلّ ما يحيط به.

كان أحد الرجال ضخم الجثّة، أسمر، ملتحيًا. هل لاحظه سترايك؟ ترجّلت روبن من اللاند روفر، وتظاهرت بأنّها تكتب رسالة نصيّة بالهاتف

لتلتقط صورًا لوجوه العمّال، مكبّرةً عدستها حتّى أكبر قياس ممكن. تابع الرجال سيرهم إلى أن انعطفوا عند إحدى الزوايا وغابوا عن الأنظار.

توقف سترايك على مسافة عشرة أمتار منها، يصغي مدخّنًا إلى محادثه عبر الهاتف. ووقفت امرأة عجوز خلف نافذة في الطابق الأول من أحد المنازل القريبة، وراحت تراقبهما. قرّرت روبن تبديد شكوكها بلعب دور السائحة، ووجّهت هاتفها المحمول نحو المصنع النوويّ الضخم، متظاهرة بتصويره.

– كان هذا واردل، قال لروبن باستياء. الجثّة لم تكن لأوكسانا فولوشينا.

– كيف عرفوا ذلك؟ سألته روبن، مذهولة.

– أوكسانا عادت إلى موطنها في دونتسك منذ ثلاثة أسابيع لحضور زفاف أحد أقاربها. لم يستطيعوا الاتّصال بها شخصيًا، غير أنّ أمّها أجابت عبر الهاتف، وأكّدت وجود ابنتها. في هذا الوقت، استفاقت المؤجّرة من غيبوبتها، وقالت للشرطة إنّها دُهشت المرأة حين اكتشفت الجثّة لأنّ أوكسانا أخطرتها بذهابها إلى أوكرانيا في إجازة. كما أكّدت أنّ الرأس المجمّد لا يشبه أوكسانا أبدًا.

وضع سترايك هاتفه في جيبه، وبدا مهمومًا. كان يرجو أن يدفع هذا العنصر الجديد واردل إلى توجيه بحثه نحو شخص آخر غير ماللي.

– عودي إلى السيارة، قال لها، ثمّ سار مجددًا نحو منزل بروكبانك، شاردًا في أفكاره.

عادت روبن إلى المقود، فيما لم تغب عنهما نظرات العجوز الواقفة إلى نافذتها.

سارت شرطيّتان ترتديان سترتين باللون الأخضر الفلوري باتجاه سترايك، الذي وصل إلى باب المنزل البنيّ وقرعه. ردّد الشارع صدى ارتطام المقرعة المعدنيّة بالخشب. لكنّ أحدًا لم يفتح. وفيما همّ بالمحاولة من جديد، توقفت الشرطيتان خلفه.

عادت روبن بظهرها إلى الوراء في مقعدها. ماذا أتت الشرطة تفعل؟ نظرت إلى سترايك والشرطيتين يتناقشون لبضع ثوان، قبل أن يقتربوا معًا من اللاند روفر.

خفضت روبن زجاج نافذتها. وشعرت فجأة بالذنب، حتى بدون أن تعرف السبب.

– إنّهما تسألانني عمّا إذا كنت أدعى مايكل إيلاكوت، قال لها سترايك حين اقترب منها.

– ماذا؟ هتفت روبن التي دهشت لسماعها اسم أبيها.

خطرت ببالها فكرة غريبة، وهي أن يكون مايكل قد أرسل الشرطة في أعقابهما. ولكن لماذا يقول للشرطة إنّ سترايك هو والدها؟ ثمّ فهمت ماذا يقوله سترايك، فأجابت:

– السيّارة مسجّلة باسم والدي. هل ارتكبتُ خطأً ما؟

– أنت توقفين السيّارة في مكان ممنوع، أجابت إحدى الشرطيتين بنبرة جافّة. لكنّنا لم نأتِ لأجل هذا الأمر. إلتقطتِ صورًا للمصنع. ثمّ أضافت وهي ترى الهلع على وجه روبن: لا بأس، لست أوّل مَن يفعلون ذلك. رأيناك عبر كاميرات المراقبة. هل يمكنني أن أرى رخصة قيادتك؟

– آه، قالت روبن متأوّهة وهي تشعر بنظرات سترايك الساخرة نحوها. أردت فقط... ظننتُ أنّها ستكون صورة جميلة. مع الأسلاك الشائكة والمصنع الأبيض والغيوم في خلفيّة الصورة...

ثمّ أعطت الشرطيّة أوراق السيّارة، وهي تشعر بالخوف وتتجنّب أن تلتقي نظرتها بعينَي سترايك.

– هل قلت إنّ السيد إيلاكوت والدك؟

– لقد أعارنا سيّارته. هذا كلّ ما في الأمر، قالت روبن وهي تخشى أن تتّصل الشرطة بوالديها، فيعرفان أنها في بارو، بدون ماثيو، وبدون خاتم خطوبة، وحدها مع...

– أين تسكنان؟

– لسنا... لسنا حبيبين.

ثمّ أدليا للشرطيتين باسمهما وعنوانيهما.

– هل أتيت لترى أحدًا، سيّد سترايك؟ سألته الشرطية الثانية.

– نويل بروكبانك، أجاب بسرعة. إنّه صديق قديم لي. كنت مارًّا من هنا، وفكّرت في زيارته.

– بروكبانك، قالت وهي تعيد رخصة القيادة إلى روبن، التي رجت أن تعرفه الشرطيّة، ما قد يفيد في تصحيح الخطأ الذي ارتكبته قبل قليل. لكنّ الأخيرة اكتفت بالقول: هذا اسم شائع هنا. يمكنكما الانصراف، لكنّ التصوير ممنوع بعد الآن.

– أنا... آسفة... حقًّا، قالت روبن بهدوء، وهي تلتفت ناحية سترايك، فيما كانت الشرطيّتان تعودان من حيث أتتا. فهزّ رأسه وابتسم برغم شعوره بالانزعاج.

– صورة جميلة... والأسلاك الشائكة... والغيوم...

– ماذا كنت لتقول؟ لم يمكنّي القول إنّني أصوّر العمّال، لعلّ بروكبانك بينهم. أنظر.

ولكّنها اكتشفت حين كبّرت الصورة أنّ العامل الأضخم جثّة، والذي كان ذا خدّين وردّيين، وأذنين كبيرتين، وبدون عنق تقريبًا، لا يشبه بشيء الرجل الذي يبحثان عنه.

فُتح باب المنزل القريب، لتخرج منه المرأة العجوز التي كانت تراقبهما من نافذتها، وهي تجرّ خلفها عربة تسوّق ذات قماش سكوتلنديّ. أدركت روبن من نظرة المرأة المحبّبة أنّ هذه الأخيرة سمعت حديثهما مع الشرطيّتين بدون شكّ، واستنتجت حين شاهدتهما ترحلان أنّ روبن وسترايك ليسا جاسوسين.

– هذا يحدث دائمًا، قالت لهما بصوت تردّد في الشارع كلّه. كانت تتكلّم بلكنة مقاطعة كمبريا، التي وجدتها روبن غير مألوفة برغم أنّها تأتي من مقاطعة قريبة. وأضافت المرأة: وضعوا كاميرات مراقبة في كلّ مكان، ويدققون في أرقام لوحات السيّارات. لقد اعتدنا الأمر هنا.

– اللندنيون يُكتَشفون بسرعة، قال سترايك متودّدًا، ما أثار فضول المرأة التي توقفت لبرهة وسألتهما:

– هل أنتما من لندن؟ ماذا جاء بكما إلى هنا؟

– نبحث عن صديق قديم اسمه نويل بروكبانك، قال سترايك مشيرًا إلى المنزل الذي لا يبعد عنهم كثيرًا. قرعت الباب لكن لم يجب أحد. أظنّه في العمل.

عقدت المرأة حاجبيها وقالت:

– هل قلت نويل؟ ألا تقصد هولي؟

– إذا كانت هنا، نرغب في أن نراها أيضًا.

– في مثل هذه الساعة تكون في العمل، قالت الجارة وهي تنظر إلى ساعتها. إنّها تعمل في مخبز فيكرستاون. وإلّا، أضافت بنبرة فكاهة، فعليكما البحث عنها في كراوزنست هذا المساء. عادة ما تكون هناك.

– سنذهب إلى المخبز لنفاجئها، قال سترايك. أين يقع تحديدًا؟

– إنّه المبنى الصغير الأبيض، بعدما تجتازان شارع فنجنس.

شكرا المرأة ونظرا إليها تبتعد سعيدة لأنّها استطاعت أن تساعدهما.

عادا إلى اللاند روفر، ثمّ فتح سترايك الخريطة وسأل روبن:

– هل قالت شارع فنجنس؟

– نعم.

لم يكن المخبز بعيدًا. إجتازا جسرًا فوق مصبّ النهر رأيا فيه مراكب شراعية تتأرجح فوق المياه الموحلة، وأخرى عالقة في الوحل. وشيئًا فشيئًا غابت المستودعات والمباني الصناعية التي ارتفعت على ضفّة النهر، لتحلّ محلّها منازل متحاذية، جدران بعضها من الحجارة الحمراء، وبعضها الآخر من الطين المشكوك بالحجارة الصغيرة.

– إنّها أسماء مراكب، قال سترايك وهما يعبران شارع أمفيتريت.

كان شارع فنجنس يمتدّ صعودًا فوق هضبة. جالا في الحيّ قليلًا قبل أن يعثرا على مخبز صغير طُليت جدران واجهته باللون الأبيض.

– هذا هو المكان، قال سترايك فجأة، حين توقفت روبن أمام باب زجاجيّ. إنّها شقيقته بالتأكيد. أنظري إليها.

كانت ملامح الخبّازة أشد قسوة من كثير من الرجال، فكّر روبن. وكان لها وجه بروكبانك المستطيل وجبهته العريضة، وعينان قاسيتان أحاطتهما

بكحل سميك، وشعر فاحم السواد شدّته إلى الخلف بتسريحة زادت من بشاعتها. وظهر من كمّي قميصها الأسود القصير الذي ارتدته تحت مئزرها الأبيض ذراعاها البارزتا العضلات، والمغطّتيان بالوشوم من الكتف وحتّى المعصم. وزيّنت كلًا من أذنيها بعدد من الحلقات الذهبية. كما كانت بين حاجبيها عقدة أضفت عليها مظهر استياء دائم.

كان المخبز يعجّ بالزبائن. وحين رأى سترايك هولي تخدمهم، تذكّر شطائر لحم الطرائد التي اشتراها في ملروز، فسال لعابه.

– لماذا لا آكل شيئًا؟

– لا يمكنك محادثتها هناك، قالت روبن. من الأفضل رؤيتها في منزلها أو في الحانة.

– يمكنك الدخول بسرعة وشراء قطعة حلوى لي.

– لكنّنا أكلنا حلوى منذ أقلّ من ساعة!

– يعني؟ أنا لا أتبع حمية.

– ولا أنا. تخليت عن الحمية، قالت روبن.

تصريحها الشجاع هذا أعاد إلى ذاكرتها فستان الزفاف الذي ينتظرها في هاروغايت. هل حقًّا عدلت عن ارتدائه؟ هل عليها فعلًا أن تتخلّى عن الزهور، ومتعهّد الحفلات، ووصيفات الزفاف، وموسيقى الرقصة الأولى في الحفلة؟ ما الفائدة من هذا كلّه بعد اليوم؟ فكّرت في المال الذي دُفع هباءً، والهدايا التي يجب إعادتها، ودهشة الأصدقاء والأقارب حين ستعلن لهم عن قرار إلغاء الزفاف...

الساعات الطويلة التي أمضتها بداخل اللاند روفر جعلتها تحسّ بالانزعاج، وبالبرد. فكّرت لبرهة في مغامرة ماثيو مع ساره شادلوك. لكنّها برهة كانت كافية لتشعر بانقباض في قلبها، وبأنّها على وشك أن تستسلم للبكاء.

– هل يزعجك أن أدخّن؟ سألها سترايك وهو يُنزل زجاج النافذة حتّى قبل انتظار إجابتها.

ملأ الهواء البارد السيّارة. لم تجد روبن ما تقوله. لقد سامحها قبل قليل على فعلتها مع الشرطة. كما أنّ هذا الهواء البارد قَد يساعدها على تمالك نفسها قبل أن تطلعه على الفكرة التي خطرت ببالها.

– لا تستطيع استجواب هولي.

إلتفت إليها عابسًا.

– فكرة جميلة أن تحاول مباغتة بروكبانك. لكن إذا عرفتك هولي، ستحذّره. يجب أن أقوم أنا بالأمر. عندي خطَة.

– حقًّا؟ حسنًا، الأمر غير وارد، أجاب سترايك بفجاجة. من المحتمل جدًّا أنّه يقيم معها أو على مسافة قريبة. الرجل مجنون تمامًا، وقد يصبح شرّيرًا إذا اشتبه بشيء ما. لن أدعك تذهبين وحيدة.

شدّت روبن معطفها على جسدها، وأجابته بسؤال:

– هل ستصغي إليّ أم لا؟

25

There's a time for discussion and a time for a fight[1].

Blue Öyster Cult, 'Madness to the Method'

لم يكن سترايك مسرورًا بما قالته روبن، لكنّه اضطرّ إلى الاعتراف بأنّ خطتها جيدة. لا شكّ بأنّ في خطّتها مجازفة، لكنها تبقى أقلّ خطرًا ممّا قد يحدث إذا ما أنذرت هولي شقيقها بوجوده. غادرت هولي عملها عند الخامسة بعد الظهر برفقة زميلة لها، ولم تلاحظ وجود سترايك خلفها. في هذا الوقت، كانت روبن تركن السيّارة على جانب طريق شبه خالٍ، بالقرب من مستنقع كبير. أخذت حقيبتها من المقعد الخلفيّ، وخلعت سروالها الجينز لترتدي مكانه سروالًا قماشيًّا لائقًا، برغم تجعّده قليلًا.

كانت تعبر الجسر في الاتجاه المقابل للعودة إلى وسط البلدة حين اتّصل بها سترايك ليبلغها بأنّ هولي، وبدلًا من العودة إلى منزلها، مضت توًّا إلى الحانة الكائنة في نهاية الشارع حيث تسكن.

– ممتاز. أظنّ الأمر سيكون أسهل، صاحت روبن عبر هاتفها الملقى على المقعد بجانبها، وقد شغّلت فيه مكبّر الصوت. وكانت اللاند روفر تصدر قرقعة شديدة.

[1] هناك وقت للنقاش، ووقت للقتال.

– ماذا؟

– قلت إنّني أظنّ... لا بأس، أكاد أصل.

كان سترايك ينتظرها أمام كراوزنست، عند مدخل موقف السيارات. فتح باب السيّارة، وهمّ بالدخول حين همست به روبن:

– إختبئ حالًا!

ظهرت هولي على عتبة الحانة، وبيدها كوب بيرة كبير. بدت بقميصها الأسود وسروالها الجينز أطول من روبن وأعرض قامة بمرّتين. أشعلت سيجارة وراحت تتأمّل المنظر الذي لا بدّ من أنّها حفظته غيبًا. توقّفت عيناها لبرهة على سيّارة اللاند روفر المجهولة.

تقوقع سترايك في مقعده، وخفض رأسه. وما لبثت روبن أن ضغطت دوّاسة الوقود، فانطلقت السيارة مبتعدة بهما.

– أنا متأكّد من أنّها لم ترني حين سرت في أثرها، قال سترايك، وهو يعود للجلوس بشكل طبيعي.

– نعم. ومع ذلك يجب البقاء في الظلّ. لربّما تكون قد شاهدتك فتتذكّر ذلك.

– آسف. نسيت أنّك تأتين بتوصية عمل إيجابيّة جدًّا، قال سترايك.

– إخرس، عاجلته روبن بغضب.

– كنت أمزح، قال لها، مدهوشًا من فجاجة ردّها.

وجدت روبن مكانًا تستطيع أن تركن فيه اللاند روفر بعيدًا عن مدخل الحانة. ثمّ أخرجت من جيبها رزمة صغيرة اشترتها قبل وقت قصير.

– إنتظرني هنا.

– أتمزحين؟ سأكون في موقف سيّارات الحانة، تحسّبًا لاحتمال عودة بروكبانك. هاتي المفاتيح.

أعطته مفاتيح السيّارة مستاءة، ومضت. نظر سترايك إليها تسير، متسائلًا عن سبب ردّة فعلها الانفعالية على دعابته. ربّما لأنّ ماثيو قابل نجاحاتها في العمل بالاحتقار.

تقع حانة كراوزنست على منعطف ضيق جدًّا، عند تقاطع طريقي فيري وستانلي. وهي كناية عن بناء ضخم مقوّس من الحجارة الحمراء. بقيت هولي عند عتبة الباب، تدخّن وتشرب البيرة. شعرت روبن بانقباض في معدتها. لقد تطوعت للقيام بهذه المهمّة، ولم يعد بوسعها سوى الاتكال على نفسها لتحديد مكان بروكبانك. شعرت بالغباء لأنّها لفتت إليهما أنظار الشرطة قبل قليل، وبأنّ مزحة سترايك المشكّكة التي أثارت غيظها ذكّرتها بماثيو وبملاحظاته المسيئة حول التدريب الذي تلقته على العمل الجنائيّ. فقد قال لها بعدما هنّأها ببرودة على علاماتها المميّزة التي حقّقتها، إنّ هذه التقنيّات لا تحتاج إلّا إلى الحسّ السليم.

رنّ هاتفها المحمول في جيب سروالها. أخرجته وتحقّقت من الاسم الذي ظهر على الشاشة، مدركة أنّ نظرات هولي لا تفارقها منذ أن سارت نحوها. إنّها أمّها. لم ترغب في إثارة الشكوك بالامتناع عن الردّ.

– روبن؟ قالت ليندا فيما كانت ابنتها تمرّ بجانب هولي بدون أن تلتفت إليها بنظرة واحدة. هل أنت في بارو إن فورنس؟

– نعم.

كان عليها أن تختار بين بابين. دفعت الباب الأيسر، ودخلت إلى قاعة ضخمة قديمة الأثاث، عالية السقف. كان فيها رجلان بملابس العمل الزرقاء يلعبان البلياردو بقرب المدخل. أحسّت روبن أنّ كلّ الأنظار اتّجهت نحوها. مضت نحو البار، وواصلت الحديث مع والدتها متجنّبة أن تلتقي عيناها بعيني أحد.

– ماذا تفعلين هناك؟ سألتها ليندا التي أضافت بدون أن تنتظر الجواب: الشرطة اتصلت بنا للتحقق من أنّ أباك قد أعارك السيّارة!

– إنّه مجرّد سوء تفاهم. أمّي، لا أستطيع محادثتك الآن.

إنفتح الباب خلفها. دخلت هولي، عاقدة ذراعيها الموشومين فوق صدرها، وبدأت تتفحصها بنظرة جانبيّة، استشفّت منها روبن عدائيّة ظاهرة. ما خلا النادلة القصيرة الشعر، كانت روبن وهولي المرأتين الوحيدتين في هذا البار.

– إتصلنا بك في منزلك، تابعت والدتها تقول بدون أن تسمعها، فأجاب ماثيو بأنّك رحلت مع كورموران.

– نعم.

– وحين سألته إن كان لديكما الوقت لتأتيا للغداء بنهاية هذا الأسبوع...

– ماذا سأفعل في ماشام نهاية الأسبوع؟ سألت روبن متعجّبة، وهي تلمح بطرف عينها هولي تجلس على كرسيّ خلف البار لتحادث عمّالًا من مصنع «باي».

– إنّه عيد مولد والد ماثيو، قالت أمّها.

– نعم، نعم، صحيح. نسيت روبن ذلك تمامًا. ستُقام حفلة للمناسبة، وقد سجّلت التاريخ على رزنامتها منذ فترة طويلة لدرجة أنّها لم تعد تراه. ونسيت أنّهما كانا ينويان الذهاب إلى ماشام في نهاية هذا الأسبوع.

– روبن هل الأمور على ما يرام؟

– أمّي، لا أستطيع أن أكلّمك الآن.

– هل أنت بخير؟

– نعم! أجابت روبن غاضبة. أنا بأفضل حال. سأتّصل بك لاحقًا.

أنهت المكالمة والتفتت نحو البار. وقفت النادلة تنتظر طلبها وهي ترمقها بالنظرة الفاحصة عينها التي رمقتها بها العجوز إلى نافذتها، في طريق ستانلي. لكنّ روبن شعرت بأنّ الحذر الذي يحيط بها في هذا المكان ليس عاديًا. لم يكن من قبيل التعصّب المناطقيّ الذي يظهره أبناء القرى أحيانًا أمام الغرباء. بل هو الحذر الذي يتّصف به الأشخاص الجادّون في كتمان أمر ما. برغم تسارع خفقات قلبها، قالت بشجاعة:

– طاب يومك. أجهل إن كان بوسعك مساعدتي. أبحث عن هولي بروكبانك. قيل لي إنّها قد تكون هنا.

تريّثت النادلة للتفكير، ثمّ أجابت ببرودة:

– تلك هي، هناك. هل تشربين شيئًا؟

– كأسًا من النبيذ الأبيض، من فضلك.

كانت المرأة التي أرادت روبن انتحال شخصيّتها تشرب النبيذ، طبعًا. وهي ليست ممّن يتأثّرون بنظرة النادلة المشكّكة، أو بعدائيّة هولي، أو بنظرات لاعبَي البلياردو المشحونة بالرغبة الجنسية نحوها. إنّها امرأة هادئة الأعصاب، وصافية الذهن وشديدة الطموح.

دفعت روبن ثمن كأسها، وتوجّهت حالًا نحو هولي ورفاقها الثلاثة، المتّكئين إلى البار، والذين ما كادوا يرونها تقترب حتّى صمتوا حذرًا.

– طاب يومك، قالت روبن بتودّد. هل أنت هولي بروكبانك؟

– نعم، ردّت هولي بوجه متجهّم، وضافت بلكنة قرويّة واضحة: وأنت، مَن تكونين؟

– عفوًا؟

كانت النظرات الساخرة مسّلطة عليها، فاستجمعت كلّ ما تملك من إرادة لتحافظ على ابتسامتها.

– ومن أنت؟ كرّرت هولي، محاولة تقليد اللكنة اللندنيّة.

– أدعى فينيشيا هول.

– أوه، يا لسوء الحظّ، قالت هولي بابتسامة عريضة للرجل الجالس بقربها، الذي ردّ بضحكة غبيّة.

أخرجت روبن من حقيبة يدها بطاقة زيارة. فيما كان سترايك يراقب هولي أمام المخبز بعد الظهر، قامت روبن بزيارة عاجلة إلى المركز التجاريّ، حيث طلبت طباعة مئتَي بطاقة، لم تكلّفها سوى 5,4 جنيهات. أوحى إليها سترايك بفكرة استخدام الجزء الثاني من اسمها، قائلًا: «سيضفي عليك اسم فينيشيا طابع الغرور».

ناولتها روبن البطاقة، متفرّسة في عيني هولي اللتين سوّدهما الكحل، وكرّرت تقول:

– فينيشيا هول، محامية.

فجأة امّحت ابتسامة هولي العريضة. أخذت البطاقة عابسة، وقرأت:

هاردكاير وهول

مكتب محاماة متخصص بقضايا الإصابات الشخصيّة

فينيشيا هول

شريكة

هاتف 0888789654، فاكس 0888465877

بريد إلكتروني: venetia@h&hlegal.co.uk

– أبحث عن شقيقك نويل، قالت روبن. نحن...

– كيف عثرت عليّ؟

بدت هولي كهرّ ينتصب شعره لإثارة خوف عدوّ.

– إحدى جاراتك قالت إنك قد تكونين هنا.

دلّت ابتسامات رفاق هولي إلى أنّهم عرفوا مَن هي الجارة المقصودة. مضت روبن في لعبتها:

– لعلّ لدى مكتبنا أخبارًا جيّدة نزفّها إلى شقيقك. لهذا السبب نبحث عنه.

– لا أعرف مكانه، ولا أبالي.

إنسحب اثنان من رفاقها وجلسا إلى مائدة. أمّا الثالث الذي بقي مكانه، فقد بدا عليه أنّه يستمتع بالنظر إلى ملامح الخيبة ترتسم على وجه روبن. أفرغت هولي كوب البيرة، ودفعت نحوه بقطعة نقديّة فوق البار ليطلب لها كوبًا آخر. ثمّ نزلت عن كرسيّها، وسارت بخطوات حثيثة نحو المرحاض، وذراعاها مشدودتان كأذرع الرجال.

– هي وشقيقها لا يتحادثان، قالت النادلة التي اقتربت لسماع ما دار بينهما من حديث. وبدا أنّها شعرت بالأسف لأجل روبن.

– ألأنت أيضًا لا تعرفين مكان نويل؟ سألتها روبن بدون أن تأمل خيرًا.

– لم نرَه منذ أكثر من عام، قالت النادلة. هل تعرف أين هو يا كيف؟

إكتفى الرجل برفع كتفيه، ثمّ طلب كوب البيرة لهولي. كانت لكنته تدلّ إلى أنّه من غلاسكو.

– هذا مؤسف، قالت روبن بصوت واضح، على رغم اشتداد خفقان قلبها. كانت تخشى العودة إلى سترايك بدون نتيجة. لعلّ للعائلة الحقّ بتعويض كبير. ليتني أستطيع العثور عليه...

– ثمّ تظاهرت بالانصراف.

– هل المال للعائلة أم له؟ سألها فجأة الرجل.

– هذا رهن بالحالة، قالت روبن ببرودة وهي تستدير للانصراف. لم يكن على فينيشيا هول أن تظهر الودّ نحو الأشخاص غير المعنيّين. وتابعت تقول: إذا ما تسنّى لأفراد العائلة فرصة الاهتمام به أو معالجته... لكنّني بحاجة إلى تفاصيل لأستطيع الحكم بصورة صحيحة. في بعض الحالات، تقاضى بعض الأقرباء مبالغ غير زهيدة.

عادت هولي من المرحاض. حين رأت أنّ روبن تحادث كيفن، تجهّمت ملامحها بصورة تنذر بالشرّ. مضت روبن بدورها نحو المرحاض، خافقة القلب، ومتسائلة عمّا إذا كانت كذبتها ستؤتي ثمارها. ولكنها خشيت، لحظة مرّت بقرب هولي، أن ينتهي بها الأمر مقتولة بين مغسلتين.

غير أنّ الارتياح بدا جليًّا بين هولي وكيفن حين عادت روبن من المرحاض. ما كان عليها أن تكرّر المحاولة، فكّرت. عليها أن تتخلّى عن خطّتها إذا لم تصدّق هولي روايتها. شدّت حزام معطفها، ومرّت أمامهما بخطوات واثقة متّجهة نحو المخرج.

– أنت!

– نعم؟ قالت روبن

كانت نبرتها باردة. فقد عاملتها هولي قبل قليل بكثير من الخشونة، وكان من عادة فينيشيا هول أن يقابلها الآخرون بالاحترام.

– حسنًا، ما الأمر؟

بدا كيفن راغبًا في البقاء. لكنّ من الواضح أنّ علاقته بهولي لم تكن وثيقة لدرجة أن يستطيع الاطّلاع على شؤونها الماليّة. فابتعد مستاء ليجلس أمام آلة جاكبوت.

– لنجلس هناك ونتحادث، قالت هولي وهي تأخذ كوبها، وتدلّها إلى مائدة منعزلة بالقرب من بيانو.

كانت عتبة النافذة مزيّنة بسفن صغيرة في قنانٍ زجاجية. كم بدت تلك السفن جميلة وسريعة الانكسار، خصوصًا بالمقارنة مع الوحوش الفولاذيّة التي يتمّ بناؤها على مسافة قريبة من ذلك المكان، خلف السور الكبير. لا شكّ بأنّ رسوم الموكيت الغامقة اللون في ذلك المكان تخفي آلاف اللطخات. وبدت الشتول الموضوعة خلف الستائر مائلة وحزينة. ومع ذلك، فإنّ عناصر الديكور تلك، التي لا يجمع بينها جامع، بالإضافة إلى الكؤوس الرياضيّة المعروضة في القاعة، كانت تضفي جوًّا دافئًا. كما أنّ ملابس عمّال المصنع الكحليّة اللون كانت توحي بجوّ من الأخوّة.

– يتوكّل مكتب المحاماة هاردكاير وهول عن عدد كبير من الجنود الذين عانوا، خارج ساحات القتال، إصابات بالغة كان ممكنًا تفاديها، بادرت روبن بسرد ما استعدّت لقوله. علمنا بقضيّة شقيقك في خلال أبحاثنا. لا نستطيع طبعًا أن نعدك بشيء قبل أن نلتقيه. لكن يسرّنا أن نضيف اسمه إلى لائحة طالبي التعويضات. قضيّته تتطابق ومعايير القضايا التي نأمل الفوز بها. إذا وكّلَنا لتمثيله، سيكون ذلك بمثابة وسيلة ضغط إضافيّة في الدعوى التي سنقيمها على الجيش. كلّما كان عدد المدّعين أكبر، زادت فرصنا في الفوز. طبعًا، ليس على السيّد بروكبانك أن يدفع لنا شيئًا عند توكيلنا. ثمّ أنهت مقدّمتها باقتباس سطر من أحد الإعلانات التلفزيونية: «نحن لا نتقاضى أتعابًا إلّا إذا فزنا بالتعويضات».

لم تنبس هولي ببنت شفة، كما لم يظهر على وجهها الشاحب أيّ تعبير. والتمعت في أصابعها كلّها، ما عدا البنصر خواتم ذهبيّة ذات نوعيّة رديئة.

– قال كيفن إنّ العائلة قد تتقاضى مالًا.

– نعم، أجابت روبن بارتياح، إذا ما كان لإصابات نويل أثر عليك، بصفتك من أفراد عائلته...

– هذا أقلّ ما يمكن قوله، قالت هولي باستياء ظاهر.

– كيف؟ سألتها روبن وهي تُخرج من حقيبة يدها دفترًا. واستعدّت لتدوين ما ستقوله هولي.

أدركت روبن أنّ الكحول وإثارة الشعور بالظلم هما مفتاحها الوحيد لاستخراج أكبر قدر من المعلومات من هولي. فهذه الأخيرة قد استسلمت، وشعرت روبن بأنّها على وشك البوح بالرواية التي ترغب المحامية في سماعها.

لكن أوّلًا، كان على هولي تصحيح الانطباع السيئ الذي أحدثته حين تحدّثت عن شقيقها بغضب. فحرصت على أن يأتي كلامها خاليًا من أيّة ضغينة. تطوّع نويل في عامه السادس عشر، وأعطى الجيش كلّ شيء. أجل. لكنّ الناس لا يقدّرون كلّ التضحيات التي يقدّمها الجنود. هل كانت روبن تعلم أنّ نويل هو شقيقها التوأم؟ نعم. لقد وُلدا يوم 25 كانون الأوّل/ ديسمبر... نويل وهولي...

بتجميلها صورة شقيقها، كانت هولي تحسّن أيضًا من صورتها الخاصّة. فالرجل الذي شاركها تسعة أشهر السكن في رحم واحد لم يكن شخصًا عاديًّا. فهو قد بذل من ذاته، وسافر، وقاتل، ونال ترقيات في الجيش البريطانيّ. وكانت شجاعته وجرأته تنعكسان على شقيقته التي تركها في الوطن وسافر.

– تزوّج بأرملة اسمها آيرين، روت هولي. وتعهّد بإعالتها مع ولديها. ربّاه! ألا يقول المثل إنّ عمل الخير لا يبقى بدون جزاء؟

– ماذا تعنين بهذا؟ سألتها فينيشيا هول بأدب، وهي تشرب جرعة من كأس النبيذ.

– تزوّجا، وأنجبا طفلًا... كان صبيًّا جميلًا... رايان، ولطيفًا. كم مضى... ستّة أعوام لم نرَه فيها؟ سبعة؟ تلك الساقطة. نعم. لقد تركته آيرين يوم كان نويل يزور الطبيب، وأخذت الأطفال معها... كان نويل مولعًا بابنه، أقسم لك. ويقولون في عهد الزواج «في السرّاء والضرّاء»! يا لها من ساقطة. تخلّت عنه وهو في أمسّ الحاجة إليها... ساقطة قذرة.

إذًا فقد انقطع الاتصال بين نويل وبريتاني منذ فترة طويلة. أم هل مضى للبحث عن ابنة زوجته التي يحمّلها، كما يحمّل سترايك، مسؤولية إعاقته؟ تساءلت روبن. كان قلبها يخفق بقوّة، لكنّها حافظت على جمود ملامحها.

كانت تتمنى لو أنّ بإمكانها إطلاع سترايك، بواسطة الرسائل النصيّة، على كلّ ما يجري.

بعد رحيل زوجته، وصل نويل فجأة إلى منزله العائليّ القديم في طريق ستانلي، وهو منزل صغير من طابقين يضم ثلاث غرف، تعيش فيه هولي منذ ولادتها، وباتت ساكنته الوحيدة، منذ وفاة زوج والدتها.

– لقد آويته، قالت هولي وهي تستقيم في كرسيّها. العائلة أمر مقدّس.

لم تشر هولي إلى بريتاني، ولا حتّى بتلميح واحد. أرادت أن تظهر بمظهر الشقيقة المتفانية، والتي تهتمّ برفاهية شقيقها. كان ما تقوله رمادًا يُذرّ في العيون، لكنّ روبن كان لها ما يكفي من الخبرة لتعرف أنّه يمكن العثور على نثرات الذهب حتّى بين الرماد.

تساءلت روبن عمّا إذا كانت هولي تعلم بأنّ شقيقها وُجّهت إليه تهمة التحرّش جنسيًا بفتاة قاصر. فذلك قد حدث في ألمانيا، كما أنّ التهمة قد أُسقطت عنه. ولكن، إن كان بروكبانك قد تعرّض حقًّا إلى إصابة دماغيّة، فهل تمتّع بالفطنة الكافية للتكتّم على تسريحه المشين من الجيش؟ وإن كان بريئًا ومضطربًا عقليًا، أما كان ليشهّر علنًا بالظلم الذي قاده إلى الفقر والعوز؟

طلبت لها روبن كوبًا ثالثًا من البيرة، ونجحت في الحصول منها على شرح لحال نويل بعدما سُرّح بسبب إعاقته.

– لم يعد كما كان. بات يتعرّض إلى نوبات صرع، ويتناول الكثير من الأدوية. لم أكد أتنفّس الصعداء بعدما قضيت فترة طويلة أعتني خلالها بزوج والدتي الذي تعرّض إلى جلطة دماغية، حتّى عاد نويل إلى المنزل، مصابًا بالصرع...

غرقت كلماتها الأخيرة في جرعة البيرة التي استعجلت شربها.

– هذا قاسٍ، قالت روبن، التي كانت تدوّن في دفترها الصغير. هل عانى مشاكل سلوكيّة؟ غالبًا ما يقول أفراد العائلات أنّ هذه المشاكل هي الأمر الأصعب.

– طبعًا، أجابت هولي. لا شكّ بأنّ طباعه لم تحسّنها الضربة التي تلقّاها على رأسه. حطّم أثاث المنزل مرّتين، كما كان حادّ الطباع على الدوام. ثمّ أضافت متجّهمة: لقد بات من المشاهير.

– عفوًا؟ سألتها روبن، مضطربة.

– الأحمق الذي ضربه!

– الأحمق...

– ذلك الوغد كامرون سترايك.

– أجل، سمعت بأمره.

– ذلك اللعين بات الآن محقّقًا خاصًا تتحدّث عنه الجرائد! كان في الشرطة العسكريّة حين ضرب نويل... المسكين. لقد سبّب لنويل إعاقة مدى الحياة، ذلك القذر...

فيما واصلت هولي هجومها العنيف، كانت روبن تسجّل الملاحظات بانتظار أن تشرح لها هولي لماذا أتت الشرطة العسكريّة لاعتقال شقيقها. ولكن إمّا أنّ هذه الأخيرة كانت تجهل السبب، أو هي تجاهلته تمامًا. إلّا أنّ أمرًا واحدًا كان مؤكّدًا، وهو أنّ نويل بروكبانك كان يحمّل سترايك المسؤوليّة كاملة عمّا أصابه من داء الصرع.

عاشت هولي سنة صعبة للغاية. كان نويل، وللتخلّص من شعوره بالغضب والإحباط، ينفجر حانقًا في وجه شقيقته، ويحطّم كلّ ما تقع عليه يده في المنزل. بعد ذلك، تدبّر له أحد أصدقائه القدامى وظيفة حارس ملهى ليليّ في مانشستر.

– هل كان بوسعه أن يمارس عملًا؟ تساءلت روبن متعجّبة، بعدما رسمت عنه هولي صورة رجل مضطرب عصبيًا وعاجز عن السيطرة على نفسه.

– نعم، كان يستطيع أن يعمل شرط أن يبقى بعيدًا عن الكحول، ويتناول أدويته. سرّني أن يغادر المنزل، بعدما بات مصدر إزعاج حقيقيّ لي، أضافت هولي التي تذكّرت أنّ في القضيّة مالًا يمكنها أن تكسبه، إذا ما استطاعت أن تبرهن كم عانت بسبب شقيقها. وقالت: أصابتني نوبات ذعر، واضطررت لزيارة الطبيب. هذا مدوّن في ملفّي.

ثمّ استغرقت هولي ولمدّة عشر دقائق، في شرح العذاب الذي عانته بسبب سلوك شقيقها السيّئ. وكانت روبن بين الفينة والأخرى تقول بنبرة ألم، بهدف تشجيع هولي على مواصلة الكلام، عبارات مثل: «نعم، سمعت هذا النوع من الكلام من أهالٍ آخرين»، أو «هذا أمر مهمّ ويجب تسجيله في دعوانا». بعد ذلك اقترحت روبن كوب بيرة رابعًا على محاورتها المسترسلة في الكلام.

– أنا سأدفع ثمن هذا الكوب، قالت هولي وهي تتظاهر بالنهوض.

– لا، لا. سأسجّل كلّ شيء في فاتورة أتعاب المهمّة.

ثمّ وقفت إلى البار في انتظار كوب البيرة، وتفقّدت هاتفها. تجاهلت رسالة نصيّة جديدة أتت من ماثيو، وفتحت رسالة وردتها من سترايك.

هل كلّ شيء على ما يُرام؟

نعم، أجابت.

– إذًا، هل يقيم شقيقك في مانشستر حاليًا؟ سألت هولي، وهي تعود للجلوس إلى المائدة.

– لا، قالت هولي بعدما شربت جرعة كبيرة. لقد طُرد.

– حقًّا؟ تساءلت روبن وهي ترفع قلمها. إذا كان قد طُرد بسبب وضعه الصحي، يمكننا أن نتقدّم بدعوى صرف تعسّفيّ.

– ليس هذا هو السبب.

مرّ على وجه هولي الكئيب تعبير غريب، هو أشبه ببرق فضيّ بين غيمتين سوداوين. كان ثمّة أمر قويّ يلحّ على الخروج.

– رجع إلى المنزل، وعاد كلّ شيء كما كان...

ثمّ روت لها قصصًا جديدة عن العنف ونوبات الغضب وتحطيم أثاث المنزل... إلى أن وجد بروكبانك وظيفة جديدة في الأمن، لم توضح طبيعتها، ورحل إلى ماركت هاربورو.

– ثمّ عاد من جديد، قالت هولي.

– إذًا، هل هو هنا في بارو؟ سألتها روبن التي تسارعت نبضات قلبها.

– لا، أجابت هولي التي بلغت حالًا من السكر تمنعها من مواصلة سرد روايتها بوضوح. بقي في المنزل أسبوعين، لكنّني هدّدته باستدعاء الشرطة، فرحل نهائيًا. ثمّ قالت: يجب أن أذهب لأتبوّل. وبعد ذلك سأدخّن سيجارة. هل تدخّنين؟

بإشارة من رأسها، ردّت روبن بالنفي. نجحت هولي في النهوض ومضت نحو المرحاض مترنّحة، فاستغلّت روبن هذا الوقت لتكتب رسالة إلى سترايك.

ليس في بارو. إنّها ثملة. سأحاول معرفة المزيد. ستخرج لتدخّن. إبقَ مختبئًا.

ما كادت ترسل الرسالة حتى ندمت على الكلمتين الأخيرتين، خشية أن تثيرا لدى سترايك الرغبة في إطلاق تلميح ساخر يتعلّق بتدريبها. لكنّ الردّ الذي وردها بسرعة لم يتضمّن سوى كلمتين.

حسنًا، سأفعل.

عادت هولي إليها، تنبعث منها رائحة سجائر روثمانز، وتحمل بإحدى يديها كأس نبيذ أبيض وضعتها أمام روبن، وبالأخرى، كوب بيرة لها، وهو الخامس.

– شكرًا جزيلًا، قالت روبن.

– بالتأكيد، قالت هولي بصوت أقرب إلى البكاء، مستأنفة حديثها وكأنّها لم تتغيّب قط، كنت بحال صحيّة سيئة جدًّا أثناء إقامته هنا.

– أصدقك تمامًا. إذًا، أين يقيم السيد بروكبانك؟

– كان عنيفًا. لقد أخبرتك أنّه دفعني ذات مرّة نحو باب الثلاجة.

– نعم، أخبرتني، ردّت روبن بصبر.

– ولكمني على عيني حين أردت أن أمنعه من تحطيم الأواني...

– هذا مريع. لديك الحقّ في التعويض بكلّ تأكيد، قالت روبن. ثمّ تخطّت شعورها بالذنب على كذبتها وقالت عائدة إلى صلب الموضوع: إفترضنا أنّ السيّد بروكبانك يقيم في بارو لأنّه يقبض راتبه التقاعديّ من هنا.

بعد أربعة أكواب ونصف من البيرة، باتت ردّات فعل هولي أشدّ بطئًا. أشرق وجهها قليلًا بعدما أملت أن تنال تعويضًا ماليًا ما على ما عانته. حتّى التجعيدة التي شقّتها الحياة بين حاجبيها وأكسبتها ملامح غضب دائمة، بدت أقلّ عمقًا من ذي قبل. ومع ذلك، فما إن سمعت روبن تتحدّث عن راتب شقيقها التقاعديّ، حتّى ردّت بحزم:

– لا، هذا غير صحيح.

– لكنّ مستنداتنا تؤكّد لنا العكس، قالت روبن.

عاد رنين آلة الجاكبوت المعدنيّ الرتيب لينبعث من زاوية القاعة، وكذلك دوّى صوت كرات البلياردو المتصادمة قبل سقوطها في ثقوبها. إختلطت لهجة بارو باللهجة السكوتلنديّة. وفجأة أيقنت روبن أمرًا: هولي تختلس راتب شقيقها التقاعديّ.

– طبعًا، قالت بنبرة رقيقة أرادت منها تخفيف التوتّر، ندرك أنّ السيّد بروكبانك ربّما لا يفعل ذلك شخصيًا. يجوز للأهل أحيانًا تقاضي المال مكان المستفيد، في حال الإعاقة.

– صحيح، سارعت هولي للردّ. ثمّ تابعت وقد جعلتها البقع الحمراء التي ملأت وجهها الشاحب أشبه بطفلة، برغم الوشوم والثقوب الكثيرة التي غطّت جسدها: قبضت المال عنه حين أتى للإقامة هنا في المرّة الأولى، وبدأ يتعرّض لنوبات الصرع.

فكّرت روبن: إذا كان معوقًا إلى هذه الدرجة، لماذا نقل راتبه التقاعديّ إلى مانشستر، ثمّ إلى ماركت هاربورو، ثمّ أعاده إلى بارو؟

– والآن، هل ما زلت ترسلين إليه مالًا؟ سألتها، وقلبها يخفق بسرعة جنونية، أم بات يستطيع تحصيل راتبه التقاعديّ بنفسه؟

– إسمعي، قالت هولي...

حين اقتربت من روبن، تغضّن وشم هيلز أنجلز المرسوم في أعلى ذراعها، وهو كناية عن جمجمة فوقها خوذة مجنّحة. وانبعثت من فمها رائحة مقزّزة، اختلطت فيها البيرة بالتبغ والسكّر. لكنّ روبن لم يرفّ لها جفن.

– إسمعي كرّرت هولي. هل نقبض تعويضات حين نتعرض لإصابة... أو ما شابه ذلك؟

– نعم، بالتأكيد.

– وإذا كانت... كان على الخدمات الاجتماعية أن تقوم بشيء ما ولم تقم به؟

– هذا رهن بالظروف.

– ماتت أمّنا وكان لنا من العمر تسعة أعوام، وتركتنا مع زوجها.

– آسفة، قالت روبن. هذا مريع.

– في السبعينيات. حينذاك لم يكن أحد يعبأ بقصص التحرّش.

أحست روبن بانقباض شديد في معدتها. كان لهاث كريه الرائحة يملأ أنفها، كما كان وجه هولي المليء بالبقع الحمراء قريبًا جدًّا منها. لم تكن هذه الأخيرة لتتخيّل قطّ أنّ المحامية اللطيفة التي تعدها بالكسب الوفير لم تكن في الواقع سوى سراب.

– لقد تحرّش زوج والدتي بكلينا، قالت هولي. كنّا صغيرين، ونختبئ تحت الأسرّة. وبعد ذلك تحرّش نويل بي. وأضافت بنبرة جدّية: أتعرفين؟ كان نويل لطيفًا أحيانًا. كنّا متقاربين جدًّا في طفولتنا. وفي النهاية، حين بلغ السادسة عشرة من عمره، تركنا لينخرط في الجيش. دلّت نبرة صوتها على أنّها تعرّضت لخيانتين.

ظنّت روبن أنّها شربت ما فيه الكفاية، ومع ذلك أخذت كأسها وشربت جرعة كبيرة من النبيذ الأبيض. إذًا فقد اغتصب هولي رجلان. الثاني كان يحميها من الأوّل: إنّه أهون الشرّين.

– كان رجلًا قذرًا وضخم الجثّة، قالت هولي. فهمت روبن أنّها تقصد زوج والدتها، لا شقيقها التوأم الذي تحرّش بهل قبل هروبه إلى الخارج. تعرّض إلى حادث عمل وكان لي من العمر ستّة عشر عامًا. وبعد ذلك لم يعد إلى إزعاجي كثيرًا. منتجات كيميائيّة صناعيّة. اللعين. أصيب بعجز جنسي. كان يتناول أدوية كثيرة لمقاومة الألم، وأشياء أخرى. وبعد ذلك، أصيب بالجلطة.

كان تعبير الحقد الذي ارتسم على وجه هولي يشي بالعناية التي خصّت بها زوج والدتها.

– لعين، ردّدت بصوت خافت.

فوجئت روبن بسماع نفسها تسألها:

– هل خضعت لعلاج؟

إنّني الآن أتكلّم كمتعجرفة حقيقيّة.

أخذت هولي نفسًا، وأجابت:

– تبًا، لا. أنت أوّل شخص أطلعه على الأمر. هل سمعت الكثير من هذه القصص؟

– نعم، الكثير. أجابت روبن. كانت مدينة للمرأة بأن تقول لها تلك الحقيقة.

– في آخر مرة رأيت نويل، قلت له أن يرحل نهائيًا، قالت هولي متلعثمة، وإلا فسأذهب إلى الشرطة وأخبرهم كل شيء. وسنرى ما رأيهم في الأمر، خصوصًا بوجود الفتيات الصغيرات التي يقلن دائمًا إنّك تحرّشت بهنّ.

تحوّل طعم النبيذ الدافئ في فم روبن إلى طعم حامض كالخلّ.

– لهذا خسر وظيفته في مانشستر. تحرش بفتاة في الثالثة عشرة من عمرها. وأتخيّله قام بذلك أيضًا في ماركت هاربورو. كان يرفض أن يخبرني سبب عودته إلى المنزل كلّ مرّة. أمّا أنا فكنت أعرف أنّه رجع إلى عاداته، فقد تعلّم من أفضل أستاذ. أخبريني، هل يمكنني أن أرفع دعوى ضدّه؟

خشيت روبن أن تخطئ في النصيحة فتزيد من سوء حالة المرأة المسكينة.

– من الأفضل أن تسألي الشرطة. أين شقيقك؟ سألتها بإلحاح، مستعجلة الحصول على إجابتها، لتستطيع الانصراف بسرعة.

– لا أعلم. حين كلّمته عن الشرطة، استشاط غضبًا، لكنّه بعد ذلك...

ثمّ تمتمت بكلمات غير مفهومة، ظنّت روبن أنّ من بينها الراتب التقاعديّ.

تخلّى لها عن راتبه التقاعديّ لكي لا تذهب وتروي للشرطة كل شيء.

ومنذ ذلك الحين، وهي تنتحر ببطء بالخمر التي تعاقرها بفضل المال الذي اشترى شقيقها صمتها به. كانت هولي شبه متيقنة من أنه لا يزال يتحرّش بالفتيات الصغيرات... هل سمعت باتّهام بريتاني؟ هل كانت تبالي بذلك؟ أم أنّ الأنسجة التي غطّت جروحها الماضية كانت أسمك من أن تنكأها عذابات الأخريات؟ لا تزال تقيم في المنزل حيث تعرّضت إلى ما تعرّضت له، وهو منزل يطلّ على أسلاك شائكة وحجارة... لماذا لم تغادر هذا المنزل؟ تساءلت روبن. لماذا لم ترحل مثل نويل؟ لماذا لا تزال تسكن قبالة ذلك الجدار الضخم؟

– أتملكين رقم هاتف أستطيع الاتصال به من خلاله؟ أو وسيلة أخرى؟

– لا، قالت هولي.

– هذا مؤسف حقًّا. المبلغ الذي أتكلّم عنه كبير جدًّا. ليتك تستطيعين أن تذكري لي دليلًا، أو صديقًا، قالت لها روبن التي لم تعد تبالي بالحذر.

– هناك مكان، قالت هولي بعدما فكّرت طويلًا وهي تحملق بهاتفها المحمول، في ماركت هاربورو...

كانت بحاجة إلى وقت للعثور على رقم هاتف آخر ربّ عمل قام بتوظيف نويل. لكنّها عثرت عليه في النهاية. سجّلت روبن الرقم، وأخرجت من محفظتها ورقة عشرة جنيهات، وأعطتها لروبن، قائلة:

– شكرًا، قدّمت لي مساعدة كبرى. حقًّا.

– كلّهم يتشابهون، أليس كذلك؟ كلّهم يتشابهون.

– نعم، قالت روبن بدون أن تفهم. سنبقى على اتّصال. أعرف عنوانك.

ثمّ نهضت.

– نعم. إلى اللقاء. كلّهم يتشابهون.

– إنّها تقصد الرجال، قالت النادلة التي أتت لرفع الأكواب الفارغة من أمام هولي. ثمّ أضافت مبتسمة لروبن التي بدا عليها الارتباك: هي تقول إنّ الرجال كلّهم يتشابهون.

– نعم، طبعًا، قالت روبن بدون أن تفكّر كثيرًا في ما تقول. أنا موافقة تمامًا. شكرًا جزيلًا. إلى اللقاء يا هولي... إعتني بنفسك...

26

Desolate landscape,
Storybook bliss[1]*...*

Blue Öyster Cult, 'Death Valley Nights'

– أنت خسارة لعلم النفس، ولكنك مكسب لعلم التحقيق الجنائيّ، قال سترايك. ما فعلته كان معجزة يا روبن.

ثمّ رفع كوب البيرة ليشرب نخبها. كان روبن وسترايك يأكلان السمك والبطاطا في اللاند روفر المركونة في مكان غير بعيد من مطعم أولمبيك تايكاواي، الذي كانت واجهاته المضاءة تزيد من كثافة الظلمة المحيطة به. كما أنّ الأطياف التي تمرّ بين الفينة والأخرى أمام الواجهات الزجاجيّة المضاءة كانت تتحوّل إلى بشر ذوي أبعاد ثلاثة حالما تدخل إلى المطعم المزدحم بالزبائن، وتعود لتكون ظلالًا لا شكل لها حين تخرج منه.

– إذًا فقد تركته زوجته.

– نعم.

– وبحسب أقوال هولي، لم يرَ الأولاد بعد ذلك قطّ.

– صحيح.

[1] طبيعة حزينة / نعمة، كما في الكتب...

كان سترايك يشرب البيرة مفكّرًا. كان يريد أن يصدق بأنّ بروكبانك لم يعد على اتصال ببريتاني. لكن ماذا لو أنّ هذا الوغد تعقّب أثرها من جديد؟

– للأسف، ما زلنا نجهل أين هو، قالت روبن متنهّدة.

– ولكننا نعلم أنّه ليس في بارو، وأنّه لم يعد إلى هنا منذ عام. ونعلم أنّه لا يزال يعتبرني مسؤولًا عن مشاكله، وأنّه لا يزال يعتدي على الفتيات، وأنّه أرجح عقلًا بكثير مما ظنّه الأطبّاء في المستشفى.

– لماذا؟

– لم يبح قطّ بتهمة التحرّش التي وُجّهت إليه، كما مارس عدّة وظائف في حين كان يمكنه البقاء في منزله والاستفادة من راتبه التقاعديّ. أعتقد أنّ العمل يسمح له بلقاء فتيات صغيرات السنّ.

– لا تفعل هذا، همست روبن.

تراجع اعتراف هولي في ذهنها، لتحلّ محلّه صورة الرأس المتجمّد ذي الخدّين المليئين، وتعبير التعجّب.

– بالإيجاز، بروكبانك ولاينغ هما في مكان ما في المملكة المتّحدة، طليقان وينويان الانتقام منيّ.

فيما واصل سترايك أكل البطاطا راح يبحث في علبة القفازات. ثمّ أخرج منها خريطة الطريق وراح يتصفّحها للحظات. بعد ذلك طوى ورقة الجريدة حول ما تبقّى من عشائه.

– يجب أن أتّصل بوالدتي. سأعود حالًا، قالت روبن.

إتّكأت إلى عمود مصباح غير بعيد من السيارة وطلبت رقم منزل والديها.

– أنت بخير يا روبن؟

– نعم يا أمّي.

– ماذا يجري بينك وبين ماثيو؟

رفعت روبن عينيها إلى السماء التي التمعت فيها بعض النجوم.

– أعتقد أنّنا قطعنا علاقتنا.

– تعتقدين؟ سألتها ليندا.

لم يبدُ أنّ الخبر أثار حزنها أو صدمتها. كانت فقط متلهّفة إلى معرفة المزيد.

كانت روبن تخشى أن تبكي وهي تخبر أمّها بذلك. ولكنّها لم تبكِ، وتكلّمت بهدوء وارتياح. لعلّها بدأت تصبح أقوى. كما أنّ الحياة البائسة التي عاشتها هولي بروكبانك، والموت المريع للشابّة المجهولة في شيبرد بوش قد ساعداها على أن ترى مصائبها بحجمها الحقيقيّ.

– حدث الأمر مساء الاثنين.

– هل كورموران هو السبب؟

– لا، قالت روبن، بل ساره شادلوك. كان ماثيو يضاجعها فيما كنت أنا... في المنزل. حين... تعرفين متى. بعدما تركت الجامعة.

خرج شابّان من المطعم يترنّحان. من الواضح أنّهما كانا ثملين، ويتشاجران ويتبادلان الشتائم. لمح أحدهما روبن فلكز رفيقه بكوعه، وسارا معًا في اتّجاهها.

– كيف حالك يا عزيزتي؟

ترجّل سترايك من السيّارة وأغلق الباب خلفه. كان متجهّم الوجه، ويفوق الشابّين بنحو 30 سنتمترًا طولًا. إبتعد الاثنان مذهولين، وهما لا يزالان يترنّحان. أشعل سترايك سيجارة، واتّكأ إلى اللاند روفر، ووجهه في الظلمة.

– أمّي، ألا تزالين معي؟

– هل أخبرك ذلك مساء الاثنين؟ سألتها ليندا.

– نعم.

– لماذا؟

– كنّا نتشاجر بشأن كورموران، تمتمت روبن، لعلمها أنّ سترايك ليس بعيدًا. قلت له إنّ علاقتنا مجرّدة، كعلاقتك بساره. وآنذاك رأيت تعبيره، ثمّ باح بكلّ شيء.

أطلقت والدتها تنهيدة طويلة. لبثت روبن تنتظر أن تسمع من أمّها عبارة تشجّعها، أو تهدّئ خاطرها.

– ربّاه، قالت ليندا. وبعد صمت، سألتها: أخبريني بصراحة كيف حالك يا روبن.

– أنا بخير، أؤكّد لك يا أمّي، وأعمل. هذا يساعدني.

– لماذا ذهبتما إلى بارو؟

– نبحث عن دليل يقودنا إلى أحد الرجلين اللذين يشتبه سترايك في أنّهما أرسلا الساق إلينا.

– أين تقيمان؟

– سننام في نزل، وأضافت بسرعة: في غرفتين منفصلتين، طبعًا.

– هل اتّصلت بماثيو منذ رحيلك؟

– لا يتوقّف عن إرسال الرسائل النصية التي يقول فيها إنّه يحبّني.

تذكّرت آنذاك أنّها لم تقرأ رسالته الأخيرة.

– آسفة لضياع الفستان وحفلة الزفاف وكلّ شيء، قالت روبن. أنا حقًّا آسفة يا أمّي.

– هذا أقلّ همومي، أجابت ليندا، قبل أن تعود وتسألها: هل أنت بخير يا روبن؟

– نعم، أؤكّد لك. صمتت متردّدة قبل أن تضيف بحماس: كورموران كان رائعًا.

– ومع ذلك، يجب أن تكلّمي ماثيو، قالت ليندا ملحّة. لا يمكنك أن ترفضي له ذلك بعد كلّ الوقت الذي قضيتماه معًا.

فجأة، فقدت روبن السيطرة على أعصابها. فارتجف صوتها غضبًا وارتعشت يداها وأخذت الكلمات تتدفّق من فمها:

– كنّا مع ساره وطوم في مباراة الرغبي قبل أسبوعين فقط. إنّها لا تنفكّ تلاحقه منذ كنّا في الجامعة. كانت بينهما علاقة جنسيّة، فيما كنت أنا... فيما كنت أنا... لم يقطع علاقته بها قطّ. كما أنّها لا تتوقّف أبدًا عن معانقته، ومغازلته، وتعكير صفو علاقتي به. وفي خلال المباراة، أثارت موضوع سترايك: آه، كم هو جذّاب. ليس في المكتب أحد غيركما، أليس كذلك؟ وأنا كنت أعتقد أنّ الاهتمام من جانبها هي فقط. كنت أعلم أنّها حاولت إغراءه

لمعاشرتها في الجامعة، ولكنّني لم أتخيّل قطّ... ثمانية عشر شهرًا. دامت علاقتهما ثمانية عشر شهرًا! أتعرفين ما قاله لي؟ قال إنّها أرادت الترفيه عنه! كان عليّ الرضوخ ودعوتها إلى الزفاف، بحجّة أنّني دعوت سترايك من دون استشارته، لمعاقبتي لأنّني لم أكن أرغب في رؤيتها. ماثيو يتناول الغداء معها كلّما مرّ بجانب مكتبها...

– سوف آتي إلى لندن لرؤيتك، قالت ليندا.

– لا يا أمّي...

– ليوم واحد فقط. سآخذك للغداء.

أفلتت من روبن ضحكة صغيرة.

– أمّي، أنا لا آخذ فرصة غداء في عملي هذا.

– سآتي إلى لندن يا روبن.

قالت ليندا جملتها الأخيرة بالنبرة الحازمة التي لا تترك مجالًا للنقاش.

– لا أعرف متى أعود.

– حسنًا، ستخبرينني بذلك، فأحجز تذكرة سفر بالقطار.

– أنا... حسنًا، قالت روبن أخيرًا مذعنة.

حين أنهت المكالمة، وجدت نفسها تبكي. أخيرًا. مهما تظاهرت بالعكس، فإنّ فكرة رؤية والدتها كانت تريحها كثيرًا.

إلتفتت نحو سترايك الذي بقي متّكئًا إلى اللاندروفر. كان يتكلّم بالهاتف هو أيضًا. هل كان يتظاهر بذلك؟ لقد تكلّمت بصوت مرتفع. كما أنّ سترايك يمكنه أن يكون لائقًا حين يريد ذلك. نظرت إلى هاتفها الذي ما زال في يدها وفتحت رسالة ماثيو.

إتّصلت بي والدتك. قلت لها إنّك في رحلة عمل. أخبريني إن كنت تريدين أن أبلغ أبي بأنّك لن تذهبي إلى حفلة عيد مولده. أحبّك يا روبن. ماثيو. قبلاتي.

ها هو يعود من جديد. كان يرفض الاعتراف بأنّ كلّ شيء بينهما انتهى. أخبريني إن كنت تريدين أن أبلغ أبي... وكأنّ ما جرى بينهما كان مجرّد زوبعة

في فنجان، وكأنّها لن تجرؤ أبدًا على التخلّف عن حفلة عيد مولد أبيه... كما أنّني لا أحبّ أباك اللعين...

أجابته غاضبة:

طبعًا لن أذهب.

عادت للجلوس إلى مقود السيّارة. لم يكن سترايك يتظاهر بأنّه يقوم باتصال. فخريطة السفر مفتوحة على مقعد الراكب، وكان يبحث عن مدينة ماركت هاربورو في لسترشاير.

– نعم، وأنت أيضًا، سمعته روبن يقول. نعم. سنتقابل حين أعود.

إنّها إلين، فكّرت، وهو يصعد إلى السيارة.

– أكنت تكلّم واردل؟ سألته ببراءة.

– إلين.

هل تعرف أنّنا سافرنا معًا؟ وحيدين؟

أحسّت روبن بأنّها تحمرّ خجلًا. من أين أتتها هذه الفكرة؟ ليس الأمر كما لو أنّها...

– أتنوي الذهاب إلى ماركت هاربورو؟ سألته وهي ترفع الخريطة.

– ربّما أفعل، أجاب سترايك وهو يبتلع جرعة بيرة. فهو آخر مكان عمل فيه بروكبانك. قد نجد دليلًا ما. من الغباء ألّا نحاول... وما دمنا سنذهب من هناك...

أخذ الخريطة من يدها وقلّب بعض الصفحات.

– نعم، تقع المدينة على مسافة 18 كلم من كوربي. بعد ذلك يمكننا الذهاب لنعرف ما إذا كان الشخص المدعوّ لاينغ والذي أقام مع امرأة هناك في العام 2008 هو عينه الشخص الذي نبحث عنه. إنّها لا تزال هناك، واسمها لورين ماكنوتون.

كانت روبن تعرف أنّ سترايك صاحب ذاكرة مدهشة في ما خصّ الأسماء والأماكن.

– حسنًا، قالت.

شعرت بالسعادة لمعرفتها أنّ يوم الغد سيُكرّس لمواصلة التحقيق، لا للعودة الطويلة إلى لندن. وإذا ما وجدا شيئًا ما مثيرًا للاهتمام، فقد يقضيان ليلة ثانية بعيدًا عن لندن، وتنجو من رؤية ماثيو أربعًا وعشرين ساعة. ثمّ تذكّرت أنّ هذا الأخير سيرحل إلى يوركشاير في الغد ليشارك في عيد مولد أبيه. وستكون الشقة خالية لها في كلّ الأحوال.

– هل كان بإمكانه أن يعثر عليها؟ فكّر سترايك بصوت مرتفع.

– عفوًا... ماذا؟ مَن؟

– بعد كلّ هذه السنوات، هل كان بإمكان بروكبانك العثور على بريتاني وقتلها؟ أم هل أنّني أدع شعوري بالذنب يسيّرني في الطريق الخطأ؟

قال هذا وضرب بقبضته باب اللاند روفر.

– ومع ذلك فإنّ تلك الساق، قال سترايك مجيبًا بنفسه عن تساؤلاته، تغطيها الندوب، تمامًا كساقها. كانت تلك كجملة يعرفانها جيّدًا: حاولت أن أقطع ساقك في طفولتك، لكنّ أمّك وصلت. ذلك الرجل سافل. مَن غيره قد تخطر بباله فكرة أن يرسل إليّ ساقًا تحمل ندوبًا؟

– حسنًا، قالت روبن ببطء. لعلّ اختياره ساقًا لم يكن على صلة ببريتاني بروكبانك.

إلتفت سترايك نحوها وقال:

– تابعي الكلام.

– كان بوسع القاتل أن يرسل إلينا أيّ جزء من جسدها والوصول إلى النتيجة ذاتها. إنّ ذراعًا... أو ثديًا... – وبذلت جهدًا لئلاّ تتأثّر – كانا ليجذبا نحونا اهتمام الشرطة والصحافة. وما كانت النتائج التي سيعانيها مكتبنا أو نعانيها نحن لتكون أقلّ ضررًا ممّا هي عليه الآن. لكنّه اختار إرسال ساق يمنى، مقطوعة في المكان عينه حيث قُطعت ساقك.

– أفترض أنّ للأمر صلة بتلك الأغنية اللعينة. ومع ذلك... قال سترايك. لا، ما أقوله لا معنى له. إنّ ذراعًا أو عنقًا كانا ليتركا الوقع عينه.

– إنّه يشير بوضوح إلى إصابتك، قالت روبن. ماذا تعني له ساقك المقطوعة؟

– وحده الله يعلم، قال سترايك متأمّلًا ملامح روبن الجانبية وهي تتكلّم.

– البطولة، قالت روبن.

أفلتت من سترايك شخرة امتعاض.

– لا بطولة في أن يكون المرء في المكان والزمان غير المناسبين.

– أنت جنديّ قديم، وتحمل وسامًا.

– لم يكن ذلك بسبب القنبلة. قلّدوني الوسام قبل إصابتي.

– لم تقل لي ذلك قطّ.

إلتفتت نحوه لتنظر إلى وجهه، لكنّه لم يدع ذلك يُفقده تركيزه.

– تابعي الكلام. لماذا الساق؟

– إنّها إصابة حرب، وهي تمثّل الشجاعة، والانتصار على العوائق. كلّما تحدّثت الجرائد عنك أشارت إلى إصابتك. أعتقد أنّ إصابتك تمثّل بالنسبة إليه الشهرة، والنجاح... والشرف. إنّه يحاول تلويث ذلك، والإساءة إلى قيمة إصابتك وربطها بأمر مريع ما، بحيث لا يعود الجمهور يرى فيك بطلًا، بل شخصًا تلقّى قطعة من جثّة. إنّه يريد إلحاق الأذى بك، هذا بديهيّ، لكنّه يريد أيضًا أن يحطّ من قيمتك. يريد أن يحقّق ما حقّقته. إنّه يسعى إلى الشهرة والأهمية.

إنحنى سترايك ليأخذ علبة بيرة ثانية من الكيس البنيّ اللون عند قدميه. ودوّى في الهواء البارد صوت سدادتها وهو يفتحها.

– إذا كنت على حقّ، قال سترايك وهو ينظر إلى دخان السيجارة يتبدّد في الليل، أي إذا كان ذلك المهووس يتحرّق إلى الشهرة، فهذا يضع ويتايكر في أعلى لائحة المشتبه بهم. هذا هو ما أراد دائمًا الوصول إليه: الشهرة.

صمتت روبن. لم يكن سترايك قد قال لها الكثير في شأن زوج أمّه، غير أنّ الإنترنت قد سدّ حاجتها إلى كلّ ما تريده من المعلومات تقريبًا.

– هذا الوغد كان من أسوأ أنواع الطفيليّات. وليس غريبًا أن يحاول تحويل شهرة أحدهم إلى مصلحته.

شعرت روبن بأنّ سترايك يغلي غضبًا من جديد في داخل السيّارة. كانت ردّة فعله تختلف عند ذكر كلٍّ من المشتبه بهم الثلاثة: فبروكبانك يوقظ لديه الشعور بالذنب، وويتايكر الغضب. وحده لاينغ كان الموضوع الذي يستطيع التكلّم عنه بموضوعيّة نسبيًا.

– هل أعطاك شانكر معلومات مثيرة للاهتمام؟

– يقول إنّ ويتايكر في كاتفورد، وهو يتعقّب أثره. لا بدّ من أنّه يختبئ في جحر ما. أنا متيقّن من أنّه في لندن.

– لماذا؟

– لا لشيء إلّا لأنّها لندن، قال سترايك وهو ينظر إلى المنازل المنتظمة في خطّ واحد خلف موقف السيارات. تعرفين أنّ ويتايكر يأتي من يوركشاير، لكنّه بات لندنيًا بنسبة 100%.

– أنت لم تره منذ زمن بعيد، أليس كذلك؟

– هذا غير مهمّ، أنا أعرفه. إنّه واحد من المعتوهين الساعين إلى المجد، ويفشلون في تحقيقه في العاصمة، لكنهم لا يغادرونها أبدًا. كان يعتبر لندن المدينة الوحيدة التي تليق به. كان بحاجة إلى خشبة مسرح بقياسه.

لكنّ ويتايكر لم يستطع الخروج قطّ من الأحياء القذرة في المدينة، حيث تنتشر الجريمة والبؤس والعنف كالجراثيم، وحيث لا يزال شانكر يقيم. ومَن لم يُقم في لندن لا يستطيع أن يتخيّل أنّ تلك المدينة تشبه بلدًا قائمًا بذاته. يلوم الناس لندن على أنّها تحتكر الثروة والسلطة في بريطانيا، لكنّ ما لا يفهمونه هو أنّ للبؤس أسلوبًا خاصًا به في هذه المدينة حيث كلّ شيء أغلى ثمنًا من أي مكان آخر، وحيث الفوارق الهائلة بين الأغنياء والفقراء تظهر بوضوح تامّ. فبين شقّة إلين الفخمة ذات الطراز النيوكلاسيكيّ في كلارنس تيراس، والمبنى المهجور القذر في وايتشابل حيث ماتت والدة سترايك، لم تكن المسافة تُقاس بالكيلومترات فقط. فما يفصل بين ذينك المكانين كان محيطًا من الفروق الاجتماعية وصُدف الولادة والثروة وأخطاء التقدير وضربات الحظّ. في الأساس كانت والدة سترايك امرأة رائعة وذكيّة، وكذلك كانت إلين. لكنّ الأولى غرقت في رمال المخدّرات المتحرّكة والبؤس، فيما

الثانية تسكن كملكة تتربّع على عرشها، فوق ريجنتس بارك، خلف نوافذ منزلها التي تلتمع نظافة.

كانت روبن تفكّر في لندن أيضًا. هذه المدينة سحرت ماثيو. ومع ذلك فإنّ المستنقعات المُدُنيّة التي تخوضها كلّ يوم في إطار تحقيقاتها لم تكن تعني له شيئًا. لم تكن نظراته الجشعة تقع إلّا على كلّ ما يلمع: أفخر المطاعم، أفخم الأحياء السكنيّة، وكأنّ لندن ليست سوى لوحة مونوبولي ضخمة. لم يكن قطّ عاشقًا ليوركشاير ولمدينتهما ماشام. صحيح أنّ أباه وُلد في يوركشاير، لكنّ أمّه المتوفّاة والتي تتحدّر عائلتها من سوري، ندمت دائمًا على كونها نفت نفسها إلى الشمال. حين كان ماثيو وشقيقته كيمبرلي يستخدمان ألفاظًا وتعابير خاصّة بمنطقة يوركشاير، كانت أمّهما تصحّحها دائمًا. فكانت اللكنة المحايدة من أسباب عدم إثارة ماثيو انطباع أشقّاء روبن، في بداية العلاقة بين الاثنين. بالرغم من دفاع روبن عنه، وبالرغم من كون اسم ماثيو يخصّ منطقة يوركشاير، لم يرَ فيه أشقّاؤها إلّا لندنيًّا مستقبليًّا.

– ألا تظّنين أنّ من الغريب أن يولد المرء هنا؟ سألها سترايك ونظراته مشدودة دائمًا إلى صفوف المنازل المتحاذية. وكأنّها جزيرة. إنّها المرّة الأولى التي أسمع فيها هذه اللكنة.

ثمّ سمعا صوت رجل يغنيّ بصوت قويّ. في البداية، ظنّت روبن أنّه نشيد، ثمّ شاركته الغناء عدّة أصوات، واستطاعا حين تحوّل النسيم في اتّجاههما أن يميّزا بعض الكلمات.

'Friends to share in games and laughter
Songs at dusk and books at noon[2]...'

إنّها أغنية مدرسة، قالت روبن باسمة. ثمّ شاهدت المغنّين، وكانوا مجموعة من الكهول بملابس سوداء في شارع بيوكلوش، وهم يغنّون بصوت مرتفع.

[2] أصدقاء يتشاطرون الألعاب، ثمّ الضحكات، / والأغاني في المساء، والكتب عند الظهر...

– لا بدّ من أنّها جنازة لأحد رفاق صفّهم، قال سترايك. أنظري إليهم.

حين اقترب الرجال الذين يرتدون ملابس الحداد من السيّارة، التقت عينا أحدهم بعيني روبن.

إبتدائيّة الصبيان في بارو! هتف لها رافعًا قبضته وكأنّه سجّل هدفًا. حيّاه الآخرون بهتافاتهم، لكنّ مرحهم الظاهر الذي غذّته الخمر بلا شكّ، لم يخفِ الكآبة التي تخيّم عليهم. وظلّ صوت غنائهم مسموعًا حتّى بعد أن ابتلعهم الليل.

'Harbour lights and clustered shipping
Clouds above the wheeling gulls[3]...'

– الأرياف وأهاليها! علّق سترايك.

كان يفكر في تيد، زوج خالته، الكورنوالي حتّى العظم. عاش طوال حياته في سانت موز، وفيها سيموت. كان جزءًا من نسيج تلك المدينة. وما دامت مأهولة، سيتذّكر أهلها وجهه الباسم على الصور القديمة المعلّقة على جدران الحانة. حين يموت زوج خالته – وكان سترايك يرجو ألّا يأتي ذلك اليوم قبل عشرين أو ثلاثين عامًا – سيحتفل ذووه وأصدقاؤه بذكراه كما كان أولئك الرجال يحتفلون بذكرى رفيقهم: سيبكون، ويشربون الخمر، ولكنهم سيتذكّرون كذلك كلّ ما قدّمه لهم. وفي مدينة بروكبانك، ماذا سيتذكّر الناس عن ذلك الرجل الضخم والوحش، مغتصب الأطفال؟ وكذلك في مدينة لاينغ، ماذا سيتذكّرون عن الرجل الأصهب الذي عذّب زوجته؟ ماذا سيتركان حين يرحلان؟ تنهيدات ارتياح، والخوف من رؤيتهما من جديد، وأشخاصًا تحطّمت حياتهم، وذكريات سيّئة.

– هل نذهب؟ قالت روبن.

هزّ سترايك رأسه موافقًا. وألقى عقب سيجارته المشتعل في علبة البيرة التي يحملها، فانبعث لانطفائها صوت جعله يشعر بالارتياح.

[3] أضواء الميناء، والسفن الراسية، / والغيوم فوق طيور النورس التي تحلّق...

27

A dreadful knowledge comes[1]*...*

Blue Öyster Cult, 'In the Presence of Another World'

وجدا في النزل غرفتين غير متحاذيتين، فخشيت روبن أن يقترح عليهما موظف الاستقبال النزول في غرفة لشخصين. لكنّ سترايك استبق الأمر فطلب غرفتين لشخص واحد قبل أن ينبس الرجل ببنت شفة.

الواقع أنّها كانت سخافة من قبلها. لماذا شعرت بالحرج بداخل المصعد وقد أمضيا النهار كلّه بداخل سيارة اللاند روفر الضيقة؟ ومع ذلك، استغربت أن تتمّنى له ليلة طيبة أمام باب مغلق، مع أنّ سترايك لم يترك لديها الانطباع بأنّه يرغب في البقاء. فأفلتت منه عبارة «طابت ليلتك» باقتضاب ثمّ سار مبتعدًا في الرواق. ولكنّه مكث قبل الدخول إلى غرفته ينتظر حتّى تأكّد من أنّها دخلت غرفتها، ورآها تحيّيه بحركة عصبيّة صغيرة.

لماذا لوّحت له بيدها بهذا الشكل؟ كان ذلك غباءً منها.

رمت جعبتها على السرير وتوجهت إلى النافذة المطلة على مبانٍ تشبه المصانع التي شاهداها عند وصولهما إلى المدينة قبل ساعات. شعرت بأنّها غادرت لندن قبل أيّام. كانت الحرارة مرتفعة في الفندق، واضطرّت روبن إلى

[1] فجأة، معرفة تثير الرعب...

معالجة المزلاج طويلًا قبل أن تتمكّن من فتح النافذة. دخل هواء الليل البارد إلى الغرفة الصغيرة المكعّبة الشكل، فجدّد جوّها. وضعت سلك الشاحن في هاتفها، ثمّ خلعت ملابسها وارتدت قميص نوم، ونظّفت أسنانها، وانسلّت للنوم بين الشراشف النظيفة.

الغريب أنّ وجود سترايك في غرفة قريبة كان يقضّ مضجعها بالمعنى الحرفيّ للتعبير. لا بدّ من أنّ ماثيو هو السبب. إذا كنت تضاجعينه، فكلّ ما بيننا انتهى إلى الأبد.

صوّر لها جنون مخيّلتها سترايك يقرع باب غرفتها بذريعة ما...

لا تكوني سخيفة.

إستدارت للنوم على جنبها، ودفنت وجهها الذي احمرّ خجلًا في الوسادة. ما الذي يحدث لها؟ ماثيو اللعين هو الذي يحشو ذهنها بكلّ تلك الأفكار، لأنّه يعتقدها تشبهه...

تأخّر سترايك في النوم. كان يحسّ بالألم في كلّ أنحاء جسده بعد ساعات الجمود الطويلة التي قضاها في السيّارة. شعر بارتياح كبير حين نزع ساقه الاصطناعيّة. ثمّ دخل للاستحمام. لم يكن الحمّام مجهّزًا لحالته، ومع ذلك بقي فيه فترة طويلة متمسّكًا بالقضيب المثبّت من الجهة الداخلية الباب، وأخذ يرشّ ركبته التي تؤلمه بالماء الساخن. جفّف نفسه بالمنشفة، ثمّ سار بحذر إلى السرير، وانسلّ عاريًا تحت الأسرّة.

عقد يديه خلف رأسه، وراح يتأمّل السقف المظلم مفكّرًا في روبن، التي تنام في غرفة لا تبعد عنه إلّا قليلًا. هل تلقّت رسالة نصية جديدة من ماثيو؟ هل كانت تحادثه بالهاتف؟ هل استفادت من وحدتها لتذرف أخيرًا دموعها الأولى في ذلك اليوم؟

سمع أصوات رجال يضحكون، ويغنّون، ويتنادون، ويغلقون أبوابًا ويفتحون أخرى. لعلّها حفلة يقيمونها احتفالًا بتوديع سنين المراهقة. شغّل أحدهم الموسيقى، فارتجّت لها جدران غرفته. تذكّر الليالي التي قضاها في مكتبه في السابق، حين كانت موسيقى قوية جدًّا تصدح من الحانة القريبة، فتهتزّ لها قوائم سريره. أمل ألّا تصل هذه الجلبة إلى غرفة روبن. كانت بحاجة

إلى الراحة، وعليهما أن يجتازا غدًا مسافة 400 كيلومتر. تثاءب سترايك، واستدار للنوم على جنبه. وسرعان ما غطّ في النوم برغم الصياح والموسيقى.

في الصباح التالي، التقيا في المطعم كما كان مقررًا. وقف أمامها لكي لا يراها أحد وهي تملأ الترموس الذي يحملانه للرحلة من وعاء الشاي الكبير. ثمّ ملأ صحنيهما بالخبز المحمّص. كان سترايك عاقلًا فقاوم الرغبة في تناول فطور إنكليزيّ كامل. لكنّه بدلًا من ذلك، دسّ في جعبته عددًا من المعجّنات. عند الثامنة، عادا إلى اللاند روفر، وانطلقا عبر ريف كامبريا الرائع الذي زيّنته أشجار الخلنج، وسهولها الترابية الشاسعة والمتموّجة تحت سماء تناثرت فيها بعض الغيوم، في اتّجاه الطريق «M 6» الجنوبيّ.

– أتردّد في أن أقترح عليك القيادة بدلًا منك، قال سترايك معتذرًا وهو يشرب قهوته. فالضغط على دوّاسة تغيير السرعات قد يقتلني... بل قد يقتل كلينا.

– لا بأس، أجابت روبن. أنت تعرف أنّني أحبّ القيادة.

مرّت الكيلومترات في صمت لذيذ. كانت روبن السائقة الوحيدة التي يتحمّل سترايك الجلوس بجانبها، خصوصًا وأنّ لديه حكمًا مسبقًا راسخًا ضدّ النساء اللواتي يقدن السيّارات. لم يكن يفصح بذلك، لكنّه بنى رأيه على تجارب مرّ بها. فكلّ النساء السائقات في محيطه كنّ مصدر خطر حقيقيّ: خالته الكورنوالية امرأة متوتّرة الأعصاب، وأخته لوسي شاردة جدًّا، أمّا شارلوت فكانت تتعمّد التهوّر. كما تذكّر فتاة من فرع الاستقصاء الخاصّ سبق له أن عاشرها، اسمها ترايسي. كانت سائقة بارعة، ولكنّها اضطرّت إلى التوقف في أحد الأيّام على طريق جبليّ ضيّق في جبال الألب، بعدما شلّها الخوف وكاد نفسها ينقطع. وبرغم عجزها عن استئناف القيادة، رفضت أن تدعه يقود.

– هل تناسب اللاند روفر ماثيو؟ سألها سترايك، وهما يجتازان جسرًا.

– لا. إنّه يريد سيّارة أودي A3 مكشوفة السقف.

– هذا لا يفاجئني، تمتم سترايك. لكنّ تعليقه ضاع وسط ضجيج السيارة. وأضاف: وغد صغير.

قضيا أربع ساعات للوصول إلى ماركت هاربورو، المدينة التي لم يكن أيّ منهما يعرفها. قطعا المسافة الأخيرة من الطريق وسط عدد من القرى الجميلة ذات المنازل المسقوفة بالقشّ، والكنائس التي يعود بناؤها إلى القرن الثاني عشر، والحدائق الغنّاء. ومرّا بشوارع تحمل أسماء قروية مثل جادّة «جرّة العسل». تذكّر سترايك السور الضخم والبشع والذي تعلوه الأسلاك الشائكة، المحيط بمصنع الغواصات النوويّة المخيف. أمضى بروكبانك طفولته وتلك الصورة لا تفارق عينيه. ماذا أتى يفعل في هذه المنطقة المختلفة تمامًا عن بارو، ذات الطبيعة الساحرة والخلابة؟ أيّة أعمال مشبوهة يخفيها رقم الهاتف الذي أعطته هولي لروبن، والذي بات الآن في محفظة سترايك؟

لم تختلف ماركت هاربورو عن القرى التي اجتازاها، فشوارعها تعبق بسحر الزمن الجميل. وفي الساحة العامّة، حيث ارتفعت القناطر المنحوتة لكنيسة القدّيس ديونيسوس القديمة، اكتشفا بناء قديمًا يشبه الأكواخ التي تنتصب فوق الأعمدة الخشبيّة.

ركنا سيّارتهما خلف ذلك المبنى المدهش. وفي الحال ترجّل سترايك ليدخّن سيجارة، ويريح ركبته. ثمّ سار إلى اللوحة التي تُعرّف بالبناء، وقرأ فيها أنّ ذلك الكوخ هو مدرسة يعود بناؤها إلى العام 1614. كانت اللوحة محاطة بآية من الكتاب المقدّس مكتوبة بحروف ذهبيّة، تقول:

الإنسان ينظر إلى ما يظهر للعينين، أمّا الربّ فينظر إلى القلب.

بقيت روبن في السيّارة، وأخذت تتفحص الخريطة لتعرف أيّ طريق هو الأفضل للوصول من ذلك المكان إلى كوربي، وهي المحطّة التالية في رحلتهما. أنهى سترايك سيجارته، وعاد إلى السيارة ليقول لها:

– حسنًا. سأحاول الاتصال برقم الهاتف. إذا كنت ترغبين في بعض التمارين الرياضية، فأنا بحاجة إلى شراء السجائر.

رفعت روبن بصرها إلى السماء، لكنّها أخذت من يده ورقة العشرة جنيهات، وذهبت لشراء علبة سجائر بنسون.

في المحاولة الأولى، كان الخطّ مشغولًا. وفي الثانية، ردّت عليه امرأة بلكنة حادّة:

– أوركيديا، صالون للتدليك على الطريقة التايلاندية. كيف يمكنني أن أخدمك؟

– طاب يومك، قال لها سترايك، أعطاني صديق رقمكم. هل يمكنني معرفة العنوان؟

كان الصالون في طريق سانت ماري، أي على مسافة دقائق قليلة من وسط المدينة، كما ظهر على الخريطة التي نظر إليها.

– هل لديكم مدلّكة هذا الصباح؟ سألها.

– أيّ نوع من المدلّكات ترغب فيه؟

رأى سترايك في المرآة روبن تعود، وشعرها الأشقر يتطاير في النسيم. وظهرت في يدها علبة سجائر بنسون الذهبيّة اللون.

– أرغب في مدلّكة تايلاندية سمراء، قال سترايك بعد تردد لم يدم سوى ثانية واحدة.

– حسنًا، لدينا سيّدتان تايلانديّتان. أيّة خدمة تريد؟

فتحت روبن باب السيّارة وجلست إلى المقود.

– ماذا تقترحين عليّ؟ سأل محادِثته.

– كلفة تدليك مثير بالزيوت مع سيّدة واحدة: 90 جنيهًا. كلفة تدليك مثير بالزيوت مع سيّدتين: 120 جنيهًا. تدليك بالزيوت بواسطة الجسد: 150 جنيهًا. أمّا الكلفة الإضافية فالتفاوض عليها يكون مع السيّدات. اتفقنا؟

– سآخذ... مع سيدة واحدة، قال سترايك. سأصل حالًا.

وأنهى المكالمة.

– إنّه صالون تدليك، قال لروبن وهو يتفحّص الخريطة. لكنّه ليس كالمراكز التي تخفّف آلام الركبة.

– حقًّا؟ سألته متعجبة.

– هذه الصالونات منتشرة في كلّ مكان. تعرفين هذا.

أدرك سترايك ما كان يربكها. فالمشهد الذي ظهر من زجاج السيّارة الأماميّ، أي كنيسة القديس ديونيسوس، والمدرسة القائمة على أعمدة، والشارع التجاري المزدحم، وصليب القديس جاورجيوس الذي يتموّج على

علم يرتفع خارج حانة قريبة، هو من المشاهد التي تظهر على الإعلانات السياحية.

– أين ستجد... أين يقع هذا الصالون؟ سألته روبن.

– إنه ليس بعيدًا من هنا، أجابها وهو يدلّها إلى موقعه على الخريطة. لكنّ علي أوّلًا أن أسحب مبلغًا من المال.

هل كان جادًّا؟ هل حقًّا يريد الحصول على تدليك؟ تساءلت روبن، متعجّبة قليلًا. لكنّها لم تعرف كيف يمكنها أن تصوغ سؤالها، كما لم تكن واثقة من أنّها تريد معرفة الإجابة. توقفت أمام صَراف آليّ حيث سحب سترايك من حسابه المكشوف أصلًا مبلغ 200 جنيه أخرى. ثمّ سارت وفقًا لتعليماته حتى وصلت إلى شارع سانت ماري الذي يبدأ عند طرف الشارع الرئيسيّ للبلدة. رأيا جادّة جميلة توحي بالثراء، تنتشر على جانبيها مكاتب الوكالات العقارية وصالونات التجميل ومكاتب المحامين، ومعظمها في مبانٍ مستقلّة.

– هنا، قال سترايك وهو يشير بإصبعه.

كان المكان بناء عاديًا على تقاطع طريقين، تعلوه لافتة متألّقة باللونين القرمزيّ والذهبيّ كُتب عليها «صالون أوركيديا للتدليك على الطريقة التايلاندية». كان يمكن اعتباره عيادة طبية متخصصة في آلام المفاصل، لولا الستائر المسدلة والتي توحي بأنّ في الداخل ممارسات لا تعترف بها مهنة الطبّ. ركنت روبن السيارة في شارع جانبيّ، ونظرت إلى سترايك يختفي عند زاوية المنعطف.

مع اقتراب سترايك من المدخل، لاحظ أنّ زهرة الأوركيديا المرسومة على اللافتة تشبه وعلى نحو غريب العضو الجنسيّ للمرأة. رنّ الجرس ففتح الباب له رجل طويل الشعر، يكاد يوازيه حجمًا.

– إتصلت بكم منذ قليل.

تمتم الحارس بكلمات غير مفهومة، وأشار لسترايك بذقنه إلى ستارتين سوداوين سميكتين، وخلفهما غرفة استقبال صغيرة فُرشت بأريكتين وبالموكيت. وهناك جلست تايلانديتان صغيرتا السنّ، إحداهما لا تتجاوز

بالتأكيد الخامسة عشرة من عمرها، بالقرب من امرأة أكبر سنًّا. وفي الزاوية جهاز تلفزيون يعرض حلقة من برنامج «مَن سيربح المليون؟»

عند دخول سترايك، بدا على الفتاتين الاهتمام، ونهضت المرأة وهي تمضغ علكة بشكل منفّر.

– أنت الذي اتصلت، صحيح؟

– أجل، قال سترايك.

– أتريد شرابًا؟

– لا، شكرًا

– أتحب الفتيات التايلانديات؟

– نعم.

– مَن تريد؟

– هي، قال سترايك مشيرًا إلى الصغرى.

كانت تلك الفتاة ترتدي قميصًا عاري الكتفين والظهر، وتنّورة من جلد الغزلان، وتنتعل حذاء من الجلد الاصطناعيّ. إبتسمت لسترايك ونهضت، فظهرت ساقاها الهزيلتان كقائمتي طائر نحام.

– حسنًا، قالت مديرة الصالون. إدفع الآن، وبعد ذلك تذهب إلى الحجرة الخاصة.

دفع سترايك 90 جنيهًا. إبتسمت له الفتاة وأومأت إليه أن يتبعها. كان لها جسم مراهقة، ما عدا صدرها الذي بدا واضحًا أنّه غير حقيقيّ. تذكّر سترايك صورة دمى باربي المصفوفة على الرفّ في غرفة ابنة إلين.

كان رواق صغير يقود إلى الحجرة الخاصّة، والتي كانت صغيرة جدًّا وسيئة الإنارة، وليس فيها سوى نافذة واحدة مغلقة بستارة معدنية سوداء، وتنبعث منها رائحة خشب الصندل. كان في زاويتها مقصورة استحمام، وفي وسطها طاولة التدليك المكسوّة بالجلد الأسود.

– هل تريد أن تستحمّ أوّلًا؟

– لا، شكرًا، قال سترايك.

– حسنًا، انزع ملابسك هناك، قالت له مشيرة إلى معزل خلف ستارة أصغر بكثير من أن يتّسع لجثّة سترايك الضخمة.

– أفضّل عدم خلع ملابسي. أريد محادثتك.

لم يظهر عليها أيّ انفعال، من المؤكّد أنّه ليس الزبون الأوّل الذي يطلب منها هذا الأمر.

– هل تريدني أن أخلع قميصي؟ سألته بمرح وهي تمدّ يدها إلى أعلى قميصها لتفكّه. سيكلّفك هذا الأمر عشرة جنيهات إضافيّة.

– لا.

– هل تريدني أن أريحك يدويًا؟ سألته وهي تنظر إلى سحّاب سرواله؟ أن أريحك بواسطة الزيت؟ عشرين جنيهًا إضافيًا.

– لا. أريد فقط أن أكلّمك.

مرّت فوق وجهها سحابة شكّ، تلاها خوف مفاجئ.

– هل أنت من الشرطة؟

– لا، أجاب سترايك وهو يرفع يديه كمن يستسلم. لست من الشرطة. أنا أبحث عن رجل اسمه نويل بروكبانك. أظنّه كان يعمل حارسًا هنا.

إختار سترايك هذه الفتاة ظنًّا منه أنّ بروكبانك ربّما حاول التقرّب منها بسبب حداثة سنّها، نظرًا إلى ميوله المعروفة. لكنّها هزّت رأسها.

– لقد رحل.

– أعرف. أحاول أن أعرف إلى أين.

– ماما طردته.

هل كانت مديرة الصالون أمّها حقًّا، أم أنّ الفتاة كانت تلقبّها بذلك من باب التكريم؟ في كلّ حال، كان سترايك يفضّل إبقاء ماما خارج الأمر كله. فقد بدا عليها أنّها امرأة أعمال صلبة، وخشي أن يضطرّ إلى دفع مبلغ كبير لقاء معلومات قد تكون بلا فائدة. في المقابل بدت براءة هذه الفتاة الصغيرة واعدة جدًّا لسترايك، فقد كان بوسعها أن تطلب منه المال لقاء المعلومات القليلة التي أعطته إيّاها. لكنّ ذلك لم يخطر ببالها.

– هل كنت تعرفينه؟ سألها سترايك.

– طُرد في الأسبوع نفسه الذي أتيت فيه إلى هنا.

– لماذا؟

نظرت الفتاة نحو الباب.

– هل يملك أحد هنا رقم هاتفه أو يمكنه أن يقول لي أين ذهب؟

تردّدت الفتاة. أخرج سترايك محفظته.

– لك عشرون جنيهًا إذا ذكرت لي اسم شخص يرشدني إليه.

لبثت الفتاة واقفة تحملق به وهي تلعب بحاشية تنورتها كطفلة صغيرة. وفجأة انتزعت من يده ورقتي العشرة جنيهات، ودسّتهما في جيب تنورتها.

– إنتظرني هنا.

أسند سترايك ردفيه إلى طاولة التدليك، وراح يراقب الغرفة حوله. كانت نظيفة كغرف صالونات التجميل، وهذا ما جعله يشعر بالسرور، لأنّ القذارة تنفّره وتثير لديه أسوأ الذكريات عن المبنى المهجور البائس حيث عاشت أمّه وويتايكر فوق فراش وسخ، وعن رائحة زوج أمّه الكريهة. في هذه الحجرة، حيث قوارير زيوت التدليك معروضة فوق طاولة صغيرة، كانت الأفكار المثيرة جنسيًا تأتي بشكل طبيعيّ. كما أنّ تدليكًا بالزيوت تقوم به امرأة بجسدها فوق جسده ما كان ليزعجه أبدًا.

لم يعرف لماذا فكّر فجأة في روبن التي كانت تنتظره في السيارة. فقفز واقفًا فجأة، وكأنّ أحدهم باغته يقوم بعمل غير أخلاقيّ. سمع في الرواق حديثًا ساخنًا باللغة التايلاندية، ثمّ فُتح الباب بقوّة وظهرت ماما ترافقها الفتاة التي استبدّ بها الخوف.

– أنت دفعت لقاء تدليك من الفتاة، صاحت المرأة.

ومثلها مثل الفتاة العاملة لديها، خفضت ماما بصرها نحو سحّاب سروال سترايك، لتتأكّد من أنّ العمل قد أُنجز. كانت تشكّ في أنّه يريد الحصول على خدمات أخرى لقاء السعر عينه.

– لقد غيّر رأيه، قالت الفتاة. يريد سيّدتين واحدة تايلانديّة وأخرى شقراء. لم نفعل شيئًا.

– أنت دفعت لقاء الحصول على سيّدة واحدة، زعقت المرأة وهي تهدّد سترايك بسبّابتها التي عقفتها كخطّاف.

ثمّ سمع سترايك صوت خطوات ثقيلة تقترب، فافترض أنّ البوّاب الطويل الشعر لم يكن بعيدًا.

– أنا مستعدّ لأدفع للحصول على سيّدتين، قال وهو يلعن حظّه في سرّه.

– مئة وعشرين جنيهًا؟ سألته ماما التي لم تصدّق ما تسمعه.

– نعم، نعم، اتفقنا.

أرسلته إلى غرفة الاستقبال ليدفع ما عليه. وجد هناك امرأة صهباء بدينة ترتدي تنّورة بقماش الليكرا الأسود. رفعت إليه المرأة نظرة ملأى بالأمل.

– إنّه يريد الشقراء، قالت شريكة سترايك حين دفع هذا الأخير المبلغ المطلوب، فزالت ابتسامة الصهباء.

– إنغريد مع زبون، قالت ماما وهي تضع المال في درج. إنتظر هنا. لن تلبث أن تنتهي.

جلس سترايك بوداعة على الأريكة بين الفتاة التايلانديّة الهزيلة والمرأة الصهباء السمينة، يشاهد برنامج «من سيربح المليون؟»، إلى أن خرج من الرواق رجل قصير القامة ذو لحية بيضاء ويرتدي بزّة، متفاديًا أيّ اتّصال بصريّ، ومرّ بين الستارتين السوداوين ليخرج مسرعًا إلى الشارع. ما هي إلّا خمس دقائق حتّى ظهرت امرأة حسنة المظهر، ذات شعر مصبوغ بالأشقر، ترتدي لباسًا من قماش الليكرا البنفسجيّ، وتنتعل حذاء يصل حتّى ساقيها، قدّر سترايك أنّها في مثل سنّه.

– إذهب مع إنغريد، قالت ماما.

نهض سترايك والفتاة التايلانديّة ودخلا بهدوء الحجرة الصغيرة.

ما إن أُغلق الباب، حتى قالت الفتاة لزميلتها الشقراء لاهثة:

– إنّه لا يريد تدليكًا. يسأل فقط أين ذهب نويل.

نظرت إليه الشقراء بحذر. من الواضح أنّ عمرها كان يبلغ ضعفَي عمر رفيقتها، لكنّها كانت امرأة جميلة ذات عينين بنيّتين، وعظم خدّين مرتفع.

– هل يمكنني أن أعرف السبب؟ سألته بلكنة إسكس، لتضيف: هل أنت شرطيّ؟

– لا، أجابها سترايك مطمئنًا.

فجأة أشرق وجهها الجميل.

– مهلًا! قالت. أعرف من أنت! أنت سترايك. كامرون سترايك! المحقق! أنت من عثرت على قاتل لولا لاندري... أما استلمت بالبريد ساقًا مقطوعة مؤخّرًا؟

– نعم... كل ما قلته صحيح.

– لم يكن نويل يتكلّم إلّا عنك! قالت. لقد كان مهووسًا بك. بعدما شاهدنا صورك في الأخبار.

– حقًّا؟

– نعم، كان يقول إنّك سبّبت له أذى في الدماغ!

– هذا ليس صحيحًا تمامًا. أنت تعرفينه جيّدًا. أليس كذلك؟

– معرفتي فيه ليست وثيقة! قالت مصحّحة ما افترضه سترايك. الأحرى أنّني كنت أعرف صديقه جون، وهو رجل من الشمال. إنّه شخص رائع، كان يأتي لرؤيتي هنا بصورة منتظمة، قبل أن يسافر إلى السعودية. أظنّهما كانا رفيقين في المدرسة. كان يشفق عليه لأنّه كان جنديًا ويعاني بعض المشاكل. هو مَن أتى به للعمل هنا، وقال إنّه رجل بلا حظّ. أراد منّي أن أؤجّره غرفة في منزلي.

دلّت نبرة صوتها بوضوح إلى أنّها كانت تعتبر تعاطف جون مع بروكبانك أمرًا غير لائق أبدًا.

– كيف حدث الأمر؟

– كان سلوكه صحيحًا في البداية. ولكنّه تغيّر بعدما بات يتصرّف على سجيّته. لم يكن يتوقف عن التجريح بالجيش وبك. كان يتحدث عن ابنه. كان مهووسًا بابنه، ويفكّر في استعادته. قال إنّه لا يستطيع رؤيته مجدّدًا بسببك أنت. لكنّني لم أفهم ما علاقتك بالأمر. ليس ضروريًا أن يكون المرء عبقريًا ليفهم لماذا كانت زوجته السابقة ترفض اقترابه من ابنها.

– لماذا؟

– فاجأته ماما ذات يوم وهو يضع حفيدتها على ركبتيه، ويده تحت تنورتها. إنّها طفلة في السادسة من عمرها.

– آه.

– رحل وهو يدين لي ببدل إيجار أسبوعين. ومنذ ذلك الحين لم أعد لرؤيته. تخلّصت منه والحمد لله.

– أتعرفين أين ذهب بعد طرده من هنا؟

– لا أعرف.

– ألا تملكين وسيلة للاتصال به؟

– لعلي أحتفظ برقم هاتفه. أجهل إن لم يزل صالحًا.

– أيمكنك أن تعطيني إيّاه؟

– وهل يبدو عليّ أنّني أحمل هاتفًا؟ سألته وهي ترفع ذراعيها إلى ما فوق رأسها. كان فستان الليكرا لصيقًا جدًّا بجسدها، وظهرت حلمتا ثدييها تحت القماش. قاوم سترايك إغراء النظر إليهما، بالتركيز على النظر في عيني إنغريد.

– هل يمكننا أن نلتقي في مكان ما؟

– لا يحق لنا أن نعطي الزبائن أرقام هواتفنا. إنّها قواعد العمل يا عزيزي، ولهذا لا نحمل معنا هاتفًا. ولكن، أضافت تقول وهي تتفحّصه من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه، بما أنّك أنت مَن يطلب ذلك، أنت بطل الحرب، وقد حطّمت فكّ ذلك اللعين، أودّ حقًّا أن نلتقي بعد العمل، في مكان غير بعيد من هنا.

– هذا ممتاز، قال سترايك، شكرًا جزيلًا.

هل تخيّل أنّه شاهد التماعة خبث في عينَي إنغريد؟ هل فقد تركيزه بفعل عطر زيوت التدليك وتخيّلاته عن الأجساد الدافئة والزلقة؟

إنتظر سترايك عشرين دقيقة لئلاّ يثير شكوك ماما، ويطمئنها إلى أنّه لبث حتّى نال الراحة الموعودة، ثم خرج من صالون التدليك التايلانديّ وذهب إلى حيث كانت روبن في انتظاره.

– دفعت 230 جنيهًا من أجل رقم هاتف قديم، قال لها وهي تنطلق بالسيارة متجهة إلى وسط المدينة. آمل حقًّا أن يستحقّ الرقم هذا المبلغ. ضربت لي موعدًا في شارع آدم وحوّاء – يبدو أنّه إلى اليمين من هنا – في مقهى أبلبي. لن تلبث أن تأتي.

ركنت إنغريد السيارة، ومكثا فيها ينتظران ويتناقشان ما قالته إنغريد في شأن بروكبانك. كما استغلاّ ذلك الوقت ليأكلا الحلويات التي اختلساها من النزل عند الفطور. بدأت روبن تفهم سبب امتلاء جسم سترايك. كانت تلك المرة الأولى التي تقضي فيها أكثر من أربع وعشرين ساعة متواصلة في العمل. حين يضطرّ المرء أن يشتري من هنا وهناك أطعمة مختلفة ليأكلها وهو يقوم بعمل آخر، سرعان ما يقع في فخّ تناول الأطعمة المضرّة بالصحّة.

– تلك هي، قال سترايك بعد أربعين دقيقة. نزل بصعوبة من اللاند روفر ودفع باب مقهى أبلبي. إقتربت الشقراء سائرة على الرصيف. وكانت ترتدي سروال جينز وسترة من الفرو الاصطناعيّ. جسدها الشبيه بعارضات الأزياء ذكّر روبن ببلاتينوم. مرّت عشر دقائق، ثمّ خمس عشرة، ولم يخرج أحد من المقهى. لا سترايك ولا الفتاة.

ما الوقت المطلوب لإعطاء رقم هاتف؟ قالت روبن لنفسها بصوت مرتفع. كانت متوتّرة الأعصاب وتحسّ بالبرد. وتابعت: ظننتُنا سنذهب إلى كوربي.

قال لها إنّ شيئًا لم يحدث في داخل صالون التدليك، ولكن مَن يدري؟ ربّما حدث أمر ما. لعلّ هذه الفتاة سكبت على جسده زيتًا و...

أخذت روبن تنقر المقود بعصبيّة. فكّرت في إلين وتساءلت عمّا ستكون ردّة فعلها إذا علمت بما فعله سترايك اليوم. فجأة انتفضت حين تذكّرت أنّها لم تتفقّد هاتفها. أخذته من جيب معطفها، لكنّها لم تجد أيّة رسالة جديدة. لم يعد ماثيو إلى الاتصال بها منذ أن قالت له إنّها لن تحضر حفلة عيد مولد أبيه.

خرجت الشقراء من المقهى ومعها سترايك. بدت وكأنّها لا تريد التخلّي عنه. لوّح لها مودّعًا، فاقتربت منه وقبّلته على خده وانصرفت. إلتقت عينا

سترايك بعيني روبن اللتين تنظران إليه بكلّ تمعّن، وصعد إلى السيّارة وعلى وجهه تكشيرة ضيق.

– بدا لي أنّ الأمر كان مثيرًا جدًّا للاهتمام، قالت روبن.

– في الواقع، لا، أجاب سترايك وهو يريها اسمًا جديدًا في اتصالات هاتفه: نويل بروكبانك. إنّها ثرثارة لا أكثر.

لو كانت روبن رجلًا، لأضاف سترايك: «وقد وقعتْ في شباكي». فالواضح أنّ إنغريد حاولت إغراءه. بدأت بالبحث ببطء في هاتفها وهي تقول إنّها لم تعد تعرف أين الرقم. لدرجة أنّ سترايك بدأ يشكّ في أنّها تملكه. كما سألته إن كان قد جرّب التدليك على الطريقة التايلاندية، وسبب بحثه عن نويل، وكيف حلّ قضاياه السابقة، وخصوصًا جريمة قتل العارضة، وهي القضيّة التي أذاعت صيته. ثمّ أصرّت على أن يسجّل في هاتفه رقمها أيضًا، فقط تحسّبًا، قالت بابتسامة.

– هل ستجرّب الاتصال ببروكبانك في الحال؟ سألته روبن كي يكفّ عن النظر إلى ظهر إنغريد التي تسير مبتعدة على الرصيف.

– ماذا؟ لا. الأمر يستحقّ التفكير. إذا أجاب، ليس لدينا سوى مرّة واحدة للمحاولة. ثمّ تحقق من ساعة يده، وأضاف: هيّا بنا، لا أريد الوصول متأخّرًا إلى كور...

رنّ جرس هاتفه.

– واردل، قال سترايك. ثمّ شغّل مكبّر الصوت لكي تسمع روبن المحادثة. ما الأمر؟

– تمّ التعرّف إلى الجثّة.

عرف سترايك وروبن من نبرة واردل إنّهما يعرفان الضحيّة. وفي ثانيتَي الصمت اللتين تلتا، مرّت صورة في رأس سترايك. صورة فتاة لها عينا عصفور صغيرتان.

– إنّها كيلسي بلات، تابع واردل، الفتاة التي راسلتك تطلب منك نصيحة في شأن بتر ساقها. كانت جادّة في ما تقول. إنّها مراهقة في السادسة عشرة من عمرها.

بمزيج من الارتياح والذهول، بحث سترايك في جيوبه بحثًا عن قلم. لكنّ روبن كانت قد بدأت بالكتابة. تابع واردل:

– كانت تدرس للحصول على شهادة كفاءة مهنية في رعاية الأطفال. وفي خلال دراستها التقت أوكسانا فولوشينا. كانت كيلسي تعيش مع أختها وحبيبها. أوهمتهما أنّها ذاهبة في رحلة تدريبية لمدة أسبوعين، فلم يبلّغا عن اختفائها. حتّى أنّهما لم يشعرا بالقلق. كان يُفترض بها العودة هذا المساء.

تقول أوكسانا إنّ كيلسي لم تكن على اتفاق مع أختها. وطلبت منها إيواءها في منزلها لأسبوعين لكي تتنفس. بدا وكأنها خططت لكل شيء، لدرجة أنّها كاتبتك من منزل أوكسانا. أختها مفجوعة تمامًا، وهذا أمر مفهوم. لم أستطع الحصول على الكثير منها، لكنّني أريتها الرسالة، فتعرّفت إلى خطّ أختها. كما أنّ رغبة كيلسي في أن تُبتر ساقها لم تفاجئها كثيرًا. رفعنا عيّنات حمض نوويّ عن فرشاة شعر الفتاة، ووجدناها مطابقة للضحيّة. إنّها هي.

صرّ الكرسيّ تحت وزن سترايك حين اقترب من روبن لقراءة ما دوّنته. وآنذاك شمّت رائحة التبغ البارد وأثرًا من خشب الصندل.

– هل قلت لي إنّ الأخت تعيش مع رجل؟ سأل سترايك واردل.

– لا يمكننا إلصاق التهمة به، أجاب الشرطيّ. ففهم سترايك أنّ واردل فكّر في هذا الاحتمال. له من العمر خمسة وأربعون عامًا، وهو إطفائيّ متقاعد. وضعه الصحيّ غير سليم تمامًا. يعاني مشاكل كبيرة في الرئتين. كما يملك حجة غياب متينة جدًّا في نهاية الأسبوع التي ارتُكبت خلالها الجريمة.

– نهاية الأسبوع؟ سألت روبن، مدهوشة.

– غادرت كيلسي منزل أختها ليل الأوّل من نيسان/أبريل. نعرف أنّها ماتت في 2 أو 3 نيسان/أبريل. وفي 4، تلقيتِ الساق. سترايك، أنا بحاجة إليك هنا. يجب أن أطرح عليك أسئلة أخرى. الأسئلة الروتينية. لكنّنا بحاجة إلى إفادة وفق الأصول، في ما خصّ الرسالتين.

بعدما انتهى كل ما يجب قوله، أقفل واردل الخطّ. ساد سيّارة اللاند روفر صمت شديد الوقع. إنّه الصمت الذي يلي الصدمات الكبرى، فكّرت روبن.

28

... oh Debbie Denise was true to me,
She'd wait by the window, so patiently[1]*.*

Blue Öyster Cult, 'Debbie Denise'

Patti Smith كلمات

– هذه الرحلة كانت بلا جدوى. إذا لم تكن الضحية بريتاني، فالقاتل ليس بروكبانك.

شعر سترايك بالسعادة تغمره. بعدما تلقى اتصال واردل، بدت له ألوان شارع آدم وحوّاء أزهى، والمشاة فيه بدوا أكثر سعادة وودًّا. لا تزال بريتاني على قيد الحياة، في مكان ما. لم يكن مسؤولًا، والساق ليست لها.

لم تقل روبن شيئًا. إستشفّت نبرة السعادة في صوت سترايك، وشعرت بارتياحه. لم تكن قد قابلت بريتاني بروكبانك قطّ. لا شكّ بأنّها كانت مسرورة من أجلها. ومع ذلك فثمّة شابّة قد ماتت في ظروف مروّعة. وها هو الشعور بالذنب الذي تخلّص سترايك من عبئه قبل لحظات، يسقط فجأة كصخرة ثقيلة على كاهل روبن. كانت هي مَن فتحت رسالة كيلسي. ولم تتكلّف عناء قراءتها بانتباه ولا الردّ عليها، بل وضعتها في درج المخبولين. لو أنّها اتصلت بكيلسي

[1] ديبي دنيز لم تخنّي قطّ / كانت تنتظرني عند النافذة، بصبر كبير.

لتنصحها بالبحث عن معالجة نفسية، ألعلّ الأمور كانت لتسلك منحى آخر؟ لو أنّ سترايك اتصل بها ليقول لها إنّه فعلًا خسر ساقه في الحرب، وإنّ ما قيل لها محض أكاذيب؟ كان الندم يقبض بقوّة على معدتها.

– هل أنت واثق؟ سألته بعد قليل، وكان كلّ منهما غارقًا في أفكاره.

– ممّ؟ سألها سترايك وهو يلتفت نحوها.

– من أنّه ليس بروكبانك.

– إذا لم تكن القتيلة بريتاني...

– منذ قليل قلت لي إنّ هذه الفتاة...

– إنغريد؟

– نعم، إنغريد، ردّت روبن بشيء من الانزعاج، تقول إنّ بروكبانك لا يكفّ عن الحديث عنك، ويعتبرك مسؤولًا عن إصابته الدماغيّة، وعن خسارته عائلته.

حملق سترايك فيها مهمومًا. كان مستغرقًا في التفكير.

– كلّ ما قلته لك منذ يومين بشأن القاتل الذي يسعى للحطّ من قدرك وتلويث سمعتك العسكرية الناصعة، يتطابق تمامًا مع أوصاف بروكبانك، تابعت روبن تقول. ألا تظنه ربّما التقى كيلسي، ورأى على ساقها ندوبًا شبيهة بندوب ساق بريتاني، أو ربّما عرف بطريقة أو بأخرى أنّها تريد أن تُبتر ساقها. أما كان ذلك – لا أدري – ليوقظ لديه رغبة ما؟ أعني، تابعت روبن تقول بحذر، لا نعلم ما إذا كانت الإصابة الدماغيّة...

– الإصابة الدماغيّة؟ أيّة كذبة هذه؟! قاطعها سترايك. في المستشفى كان يتظاهر بالإصابة، أنا واثق من ذلك.

بدلًا من الإجابة، بقيت روبن جالسة تراقب المارّة. كانت تحسدهم. كانت لجميعهم مشاكلهم، طبعًا، لكنّها شكّت في أن يكون القتل وبتر الأعضاء من ضمنها.

– بعض ملاحظاتك في محلّه، اعترف أخيرًا سترايك، الذي حدّ رأي روبن من حماسته. ثمّ نظر إلى ساعته وقال: حسنًا، الأفضل أن ننطلق إذا أردنا المرور بكوربي اليوم.

مرّت الكيلومترات الثلاثون بين المدينتين بسرعة. لم يكن فيها ما يلفت الاهتمام، عبرا سهلًا شاسعًا، وحقولًا، ومزارع مسيّجة، وأشجارًا بين الحين والآخر. عاد وجه سترايك إلى التجهّم، فافترضت روبن أنّه يستعيد في ذهنه محادثتهما بشأن بروكبانك.

– ذكّرني، قالت له لمساعدته على التخلّص من أفكاره المؤلمة... لاينغ، ماذا فعل؟

– لاينغ... أجل، قال سترايك.

كان ظنّها في محلّه. لقد كان يفكّر في بروكبانك. وها هو الآن يعاني صعوبة في الخروج من أفكاره والتركيز على الوقت الحاضر.

– لاينغ قيّد زوجته وسبّب لها جروحًا عدّة. كما كان مشتبهًا به بتهمة الاغتصاب مرّتين، حسبما أعلم. لكنّه نجا في كلتيهما. حاول أن يسلخ نصف وجهي بأسنانه على حلبة ملاكمة. إنّه وباختصار رجل شرير وعنيف ومراوغ. لكن، وكما قلت لك، حماته تقول إنه كان مريضًا حين خرج من السجن. لعله رحل بعد ذلك توًّا إلى غايتسهاد، لكنّني لا أظنه بقي هناك طويلًا. ففي العام 2008 سكن كوربي مع هذه المرأة، قال سترايك وهو يعيد التحقق بواسطة الخريطة من الشارع حيث تسكن لورين ماكنوتون. العمر مطابق، وكذلك الفترة... سنرى. إذا لم تكن لورين هنا، سنعود بعد الخامسة.

تبعت روبن تعليمات سترايك لاجتياز وسط كوربي، وهو كناية عن ساحة من الإسمنت والحجارة يشرف عليها مركز تجاريّ. كان ذلك البناء مكعّبًا ضخمًا يضمّ مكاتب المجلس البلديّ، وتعلوه هوائيّات تقف كقصبات معدنيّة وتحجب الأفق. لم يكن في كوربي ساحة للسوق ولا كنيسة قديمة ولا حتى بناء مدرسة خشبيّ على أعمدة. فهذه المدينة لم تُنشأ إلّا لإيواء العمّال المهاجرين في أربعينيّات القرن الماضي وخمسينيّاته، وهذا سبب المظهر العملي والكئيب لمعظم مبانيها.

– نصف الشوارع لها أسماء سكوتلنديّة، قالت روبن وهما يمرّان بشارع أرغيل ومونتروز.

– لم تأت تسمية هذه المدينة «سكوتلندا الصغيرة» في الماضي صدفة، قال سترايك وهو يقرأ «إدنبره هاوس» على إحدى اللافتات. فقد سمع أنّ كوربي استقبلت في فترة ازدهار نشاطها الصناعيّ التجمّع الأكبر من العمّال السكوتلنديّين في جنوب الحدود. وكانت أعلام الأسود الزاحفة وصلبان القديس أندرو تخفق على شرفات المباني. وأضاف: لا بدّ من أنّ لاينغ شعر بأنّه في موطنه هنا، بقدر أكبر ممّا في غايتسهاد على كلّ حال. ولعلّه أقام بعض العلاقات.

بعد خمس دقائق، كانا يدخلان الحيّ التاريخيّ حيث الأبنية الحجريّة الجميلة التي تقدّم صورة عن المدينة قبل اجتياح معامل الفولاذ. لم يكن طريق ولدون، حيث تقيم لورين ماكنوتون، بعيدًا من ذلك المكان.

كانت المنازل عبارة عن مجموعات في كلّ منها ستّة منازل. وكلّ من المنازل يظهر وكأنّه صورة معكوسة في مرآة للمنزل المجاور، بحيث يتقارب باباهما وتتشابه نوافذهما تمامًا. كما كانت العتبة الحجريّة فوق كلّ مدخل تحمل اسمًا منقوشًا.

– هنا، قال سترايك وهو يدلّ إلى منزل سامرفيلد المجاور لمنزل نورثفيلد.

أمام منزل سامرفيلد، حلّ الحصى الصغير محلّ عشب الباحة. أمّا عشب منزل نورثفيلد فكان بحاجة إلى الجزّ. حين رأت روبن هذا، فكّرت في شقتها اللندنية.

– أظنّنا يجب أن نذهب نحن الاثنين، قال سترايك وهو ينزع حزام أمانه. برأيي أنّها ستشعر بارتياح أكبر بوجودك.

بدا أنّ الجرس معطّل، فقرع سترايك الباب بيده مرّات عدّة. سرعان ما دوّى نباح هائج، فعرفا أنّ في المنزل كائنًا حيًّا واحدًا على الأقلّ. ثمّ سمعا صوت امرأة توبّخ الكلب، ولكن بدون جدوى.

– صه! إخرس! توقف! صه! لا!

فُتح الباب. ما كادت روبن تلمح امرأة خمسينيّة قاسية الوجه، حتّى اندفع نحوهما كلب من فصيلة جاك راسل وهو يطلق زمجرات ساخطة مهدّدة،

ثمّ زرع أنيابه في كاحل سترايك. لحسن حظّ هذا الأخير، لا لحسن حظّ الكلب، أنّها كانت الساق الاصطناعية ذات القضيب الفولاذيّ. أنّ الكلب ألمًا، فاستغلّت روبن ارتباكه لترفعه من جلد عنقه. شلّت المفاجأة حركته وبقي معلّقًا بين الأرض والسماء.

– يجب عدم العضّ، وبّخته روبن.

بدا الكلب وقد اقتنع بأنّ امرأة لها مثل هذه الشجاعة لتعامله على هذا النحو هي امرأة تستحقّ احترامه، فتركها تحكم قبضتها عليه، والتفّ على ذاته ليلعق يدها.

– آسفة، قالت المرأة. كان لأمّي. إنّه كابوس حقيقيّ. أنظري. إنّه يحبّك. هذه معجزة!

كان شعرها الكستنائيّ غير الطويل رماديًا عند الجذور. كما أحاطت بفمها الرقيق الشفتين تجعيدتان بدتا كقوسين. كانت تتّكئ على عكّازين، وغطّت كاحلها المتورّم ضمادة. وبرزت أظافر قدمها الصفراء من طرف خفّيها.

عرّف سترايك بنفسه، ثمّ قدّم لها رخصة سوقه وبطاقة زيارة. ثمّ سألها:

– لورين ماكنوتون؟

– نعم، أجابت متردّدة.

ثمّ التفتت نحو روبن التي طمأنتها بابتسامة من فوق رأس الكلب. سألت المرأة سترايك:

– ماذا تعمل؟

– أعمل محققًا. هل يمكنك إعطائي بعض المعلومات بشأن دونالد لاينغ؟ ظهر في كشوفات الهاتف أنّه كان يقيم هنا منذ عامين.

– نعم، هذا صحيح. قالت ببطء.

– ألا يزال يقيم هنا؟ سألها سترايك، برغم أنّه كان يعرف الجواب.

– لا.

– هل تجدين مانعًا، سألها وهو يشير إلى روبن، في أن أدخل وزميلتي إلى منزلك – لطرح بعض الأسئلة؟ نحن نبحث عن السيّد لاينغ.

تجمّد الوقت حول الأشخاص الثلاثة. كانت لورين العابسة تعضّ شفتها السفلى، فيما روبن تحمل بين ذراعيها الكلب الذي راح يلعق أصابعها بحماسة مضاعفة، بسبب رائحة أثر الحلويات التي بقيت عليها بلا شك. أمّا سترايك فقد وقف وساق سرواله الممزّق يتلاعب بها النسيم.

– حسنًا، تفضّلا، قالت لورين التي عادت بعكّازيها إلى الوراء لتسمح لهما بالدخول.

سادت غرفة الاستقبال التي غطّاها الغبار رائحة تبغ بارد. وانتشرت فيها الزخرفات التي يجدها المرء غالبًا لدى السيدات العجائز، كالأغطية المطرّزة لعلبة المناديل الورقية، والأرائك الرخيصة الثمن، ومجموعة من الدمى بشكل دببة ترتدي ملابس أنيقة، مصفوفة على خزانة واطئة يلتمع خشبها. وعلى الجدار لوحة لطفل كبير العينين، متنكّر بملابس بييرو. وجد لاينغ صعوبة في أن يتخيّل دونالد لاينغ في هذا المكان. لا بدّ من أنّه سيكون هنا كثور هائج في دكّان للخزف الصينيّ.

حالما دخلا، أخذ الكلب يتلوى بين يدي روبن. وما إن وضعته هذه الأخيرة أرضًا حتّى عاد للنباح بوجه سترايك.

– إخرس! صاحت لورين.

ثم ارتمت جالسة في الأريكة المخمليّة البنية، ورفعت بيديها الاثنتين كاحلها لتلقيه على بوفة جلديّة. أخذت سيجارة من علبة سوبركينغ بجانبها، وأشعلتها.

– يجب عليّ أن أبقي كاحلي مرفوعًا، قالت، والسيجارة ترتجف في فمها. ثمّ تناولت منفضة زجاجيّة ملأى بأعقاب السجائر ووضعتها فوق بطنها، وأضافت: الممرّضة تأتي كل يوم لتغيّر ضمادتي. تفضّلا بالجلوس.

– ماذا حدث لك؟ سألتها روبن وهي تمرّ بين الطاولة الواطئة والأريكة للجلوس بجانب لورين. وفي الحال قفز الكلب على الوسادة بالقرب منها، وكفّ عن النباح.

– أوقعت زيتًا مغليًا على ساقي في العمل، أجابت لورين.

– هذا مريع، قال سترايك وهو يجلس في الأريكة المقابلة. لا بدّ من أنّ الألم كان شديدًا.

– نعم، كان شديدًا جدًّا. قيل لي إنّني سأبقى على هذه الحال شهرًا على الأقلّ. لكنّني ولحسن الحظّ لم أضطر إلى الابتعاد كثيرًا للعلاج.

كانت لورين تعمل في مطبخ أحد المستشفيات.

– إذًا، ماذا فعل دوني؟ تمتمت لورين وهي تنفخ دخان سيجارتها بعدما انتهى الحديث في الموضوع الأوّل. هل هي سرقة جديدة؟

– لماذا هذا السؤال؟ سألها سترايك بحذر.

– لأنّه سرقني.

كانت سيجارتها الطويلة ترتعش حين تلفظت بهذه العبارة. فهمت روبن أنّ فظاظة لورين ليست طبيعتها الحقيقيّة.

– متى حدث ذلك؟

– يوم رحل. أخذ كلّ مجوهراتي، وخاتم أمّي، وكلّ شيء. كان يعرف أنّني متعلّقة بذلك الخاتم. ماتت أمّي قبل رحيله بأقلّ من عام. نعم، في أحد الأيّام خرج من هذا المنزل ولم يعد إليه قطّ. إتصلت بالشرطة. ظننت أنّ حادثًا ما قد وقع له. بعد ذلك رأيت أنّ محفظتي خالية من المال وأنّ مجوهراتي مفقودة.

إمتقع خدّاها الهزيلان بالدم، من الواضح أنّ شعورها بالمذلّة لم يبارحها بعد.

فتّش سترايك في جيب سترته الداخليّ.

– أريد التأكّد من أنّنا نتحدّث عن الشخص عينه. أهذا هو؟

مدّ إليها إحدى الصور التي أعطته إيّاها حماة لاينغ السابقة في ملروز. رجل ضخم الجثّة يرتدي تنورة سكوتلنديّة زرقاء وصفراء، ذو عينين داكنتين كعينَي ابن مقرض، وشعر أصهب غامق، يكود يكون محلوقًا تمامًا. التُقطت تلك الصورة للاينغ أمام مكتب سجلاّت النفوس، ورونا إلى ذراعه. كان حجمه يفوق حجم الفتاة بضعفين، كما أنّ فستان الزفاف الذي اشترته بسعر محسوم لم يكن يناسبها.

تأمّلت لورين صورة الاثنين لوقت طويل، ثمّ قالت:

– أعتقد أنّ هذا هو. ممكن.

– لديه وشم وردة صفراء على ذراعه اليسرى، قال سترايك، وهو لا يظهر في الصورة طبعًا.

– نعم، قالت لورين حزينة. هذا هو تمامًا.

كانت تدخّن وعيناها مسمّرتان بالصورة.

– كان متزوّجًا، أليس كذلك؟ سألته بصوت مرتجف قليلًا.

– ألم يخبرك؟ سألتها روبن متعجّبة.

– لا، قال لي العكس.

– كيف التقيتِه؟ تابعت روبن.

– في حانة. لكنّ مظهره كان مختلفًا آنذاك.

نظرت إلى الخزانة الواطئة خلفها، وحاولت النهوض.

– هل يمكنني مساعدتك؟ سألتها روبن.

– أنظري في الدرج الأوسط. لا بدّ من وجود صورة.

وسط جولة جديدة من النباح، اكتشفت روبن في ذلك الدرج مناشف مختلفة، وفوطًا مطرّزة، وملاعق شاي تُقدَّم كتذكارات، وأعوادًا لتنظيف الأسنان، وصورًا مختلفة. بحثت روبن في الصور ثمّ حملتها وعادت بها إلى الأريكة.

– هذا هو، قالت لورين بعدما فتشت في عدد كبير من الصور ظهرت فيها امرأة عجوز جدًّا. لا بدّ من أنّها والدتها، فكّرت روبن. ثمّ ناولت سترايك الصورة.

كان ممكنًا أن يمرّ به سترايك في الشارع ولا يتعرّف إليه. فالملاكم العجوز قد ازداد ضخامة، وخصوصًا في وجهه. لم يعد عنقه ظاهرًا، وبدت بشرته مشدودة وتغيّرت ملامحه. كان يضع إحدى ذراعيه على كتفي لورين، فيما ترك الأخرى تتدلّى إلى جانبه. ولم يعد يبتسم. تمعّن سترايك في الصورة، فرأى الوردة الصفراء لكنّها كانت مشوّشة ببقع حمراء فاقعة اللون انتشرت فوق ذراعه كلّها.

– هل يعاني مشكلة جلديّة؟

– داء مفاصل مصحوب بالصدفيّة، أجابت لورين. كان يعاني منه بشدّة، ويتقاضى راتب عجز. لم يعد قادرًا على العمل.

– حقًا؟ وأي عمل كان يمارس من قبل؟

– أتى إلى هنا ليتولّى إدارة شركة بناء كبيرة، لكنه مرض واضطرّ إلى التوقف عن العمل. كانت لديه شركته الخاصة في ملروز، وكان مديرها العامّ.

– حقًّا؟ قال سترايك.

– نعم. إنّها مسألة عائليّة، قالت لورين وهي تبحث في كومة الصور. ورث مالًا عن أبيه. ها هو أيضًا. أنظر.

ظهرت لورين ولاينغ في تلك الصورة وكلّ منهما يمسك بيد الآخر على شرفة أحد المقاهي كما بدا. كانت لورين مشرقة، أمّا لاينغ فقد كان ينظر إلى الكاميرا بدون مشاعر. ولم تعد عيناه سوى ثقبين صغيرين في وجهه المنتفخ، والشبيه بوجوه من يخضعون لعلاج طبي بالستيرويدات. كان شعره الأصهب شبيهًا بفرو الثعالب. ولكن ما خلا ذلك، بذل سترايك جهدًا كبيرًا للتعرف إلى ملامح الملاكم الشابّ المفتول العضلات الذي عضّه في وجهه ذات يوم.

– منذ متى كنتما تقيمان معًا؟

– منذ عشرة أشهر. إلتقيته بُعيد موت والدتي. كانت في عامها الثاني والتسعين، وتقيم هنا معي. كما كنت أهتمّ بالسيّدة ويليامز التي تقيم في المنزل المجاور. كان عمرها 87 عامًا ومصابة بالخرف. إبنها في أميركا. كان دوني لطيفًا معها، فدأب على أن يجزّ عشب باحتها ويشتري لها الأغراض من السوق.

اللعين كان يعرف مصلحته جيّدًا، فكّر سترايك. أيّة فرصة رائعة هي هذه لرجل مريض ومفلس وبدون عمل، مثل لاينغ، أن يلتقي امرأة وحيدة وغير عجوز، بدون ارتباطات عائلية، وتجيد الطهو؟ كما أنّها كانت تملك منزلها وقد انتقل إليها ميراث والدتها. ومن أجل أن يستطيع الإقامة هنا، لم يكن عليه سوى التظاهر بالرأفة. كان لاينغ يعرف كيف يبدو ساحرًا حين يريد ذلك.

– في البداية، سار كلّ شيء حسنًا، تابعت لورين بوجه حزين. كان يعتني حقًّا بتفاصيل حياتي الصغيرة. لم يكن بصحّة ممتازة، فمفاصله متورّمة، وقد وصف له الطبيب حقنًا. لاحقًا أصبح سريع الانفعال والغضب، لكنّني ظننت أنّ سوء صحّته هو السبب. فالأشخاص المرضى لا يكونون سعيدين على الدوام. هذا طبيعيّ، أليس كذلك؟ ليس الجميع كأمّي. كانت امرأة رائعة، فبرغم سوء حالتها كانت البسمة لا تفارق وجهها و... و...

– سأعطيك محرمة، قالت روبن وهي تنحني نحو العلبة ذات الغطاء المطرّز بالإبرة، محاوِلة عدم إزعاج الكلب الذي كان مستلقي الرأس على فخذيها.

– هل أبلغت الشرطة عن سرقة مجوهراتك؟ سألها سترايك بعدما أخذت محرمة مسحت بها عينيها، وهي تأخذ نفسًا عميقًا من سيجارتها.

– لا، أجابت، وما الفائدة؟ ما كانوا ليعثروا عليها أبدًا.

إفترضت روبن أنّ لورين لم تشأ لفت انتباه السلطات إلى الإذلال الذي وقعت ضحيّته. وكانت تتفهمّها.

– هل كان عنيفًا؟

– لا. ألهذا السبب تأتيان؟ هل ألحق بأحدهم أي أذى جسديّ؟

– لا نعلم، ردّ سترايك.

– يفاجئني الأمر. ليس لاينغ من ذلك النوع. قلت ذلك للشرطة.

– لا أفهم، قالت روبن وهي تداعب رأس الكلب الذي غطّ في نوم هانئ. ظننتك قلتِ إنّك لم تبلّغي عن السرقة.

– حدث هذا الأمر لاحقًا، بعد نحو شهر على رحيله. دخل أحد اللصوص عنوة منزل السيدة ويليامز، فضربها وسرق محتوياته. أرادت الشرطة أن تعرف أين دوني، فقلت لهم إنّه غادر المنزل قبل وقت طويل. لكنّني أكّدت لهم أنّه ما كان ليقوم بعمل مماثل، فقد كان في غاية اللطف معها. دوني عاجز عن ضرب سيّدة عجوز.

لقد أمسك بيدها على شرفة إحدى الحانات، وجزّ عشب باحة منزل جارتها. كانت لورين ترفض أن تصدّق أنّ لاينغ يمكنه القيام بأمر كهذا.

– أفترض أنّ جارتك لم تستطع إعطاء أوصاف اللصّ الذي اعتدى عليها.
هزّت لورين برأسها علامة النفي.
– لم تعد إلى هنا قطّ، قالت لورين، وماتت في مأوى العجزة. ثمّة عائلة تعيش الآن في نورثفيلد. لديهم ثلاثة أطفال صغار. ليتكما تسمعان الجلبة التي يحدثونها. ومع ذلك لديهم الوقاحة للشكوى من الكلب.
شعر سترايك وروبن أنّهما وصلا إلى طريق مسدود. فلورين تجهل أين ذهب لاينغ. ولا تتذكّر أنّها سمعته يتحدّث عن مكان آخر يقصده غير ملروز، كما لم تلتقِ أيًا من أصدقائه قطّ. وحين اعتادت فكرة أنّه لن يعود أبدًا، حذفت رقمه من سجلّ اتصالاتها. وافقت على أن تعطيهما صورتَي لاينغ اللتين كانتا بحوزتها. لكن لم يكن لديها أيّ شيء آخر تقدّمه لهما.
حين همّت روبن بالنهوض عبّر الكلب عن احتجاجه بقوّة، ثمّ وجّه غضبه إلى سترايك الذي نهض بدوره.
– هذا يكفي يا تايغر، قالت لورين غاضبة. ونجحت بشيء من الجهد في إرغامه على البقاء على الأريكة.
– نعرف طريق الخروج، قالت روبن بصوت مرتفع ليعلو على النباح. شكرًا جزيلًا على مساعدتك.
إنصرف سترايك وروبن وخلّفا وراءهما لورين وسط غرفة استقبالها القليلة الترتيب، والعابقة بالدخان، بكاحلها المتورم وتعاستها وارتباكها. من المؤكّد أن زيارتهما لم ترفع من معنوياتها. ولاحقهما أنين كلبها الهستيريّ حتى الرصيف.
– ربما كان علينا أن نعدّ لها فنجان شاي أو شيئًا ما، قالت روبن وهي تشعر بالذنب، وهما يعودان إلى سيارتهما.
– إنّها تجهل ما نجت منه، ردّ سترايك. فكّري في تلك العجوز المسكينة التي كانت تعيش هنا، قال وهو يشير إلى المدخل الذي نُقشت كلمة نورثفيلد على عتبته. أوسعها ضربًا من أجل مبلغ بسيط من المال.
– أتعتقد أنّ الفاعل كان لاينغ؟

– بكل تأكيد، أجاب سترايك فيما أدارت روبن المحرّك. لا شكّ بأنّه أعدّ للسرقة فيما كان يتظاهر بتقديم الخدمات لها. أما لاحظت أنّ ألم مفاصله لم يمنعه من جزّ العشب أو ضرب النساء العجائز؟

إكتفت روبن المرهقة بالموافقة بدون تعليق. كانت تحسّ بالجوع وبالصداع. وبعد هذا اللقاء المحبط، كانت تخشى مدة الساعتين ونصف الساعة التي عليها أن تقضيها للوصول إلى لندن.

– أيزعجك أن نمضي؟ سألها سترايك وهو ينظر إلى ساعته. وعدت إلين بالعودة هذا المساء.

– لا بأس.

لعلّه كان صداعها، أو تلك المرأة العجوز الوحيدة الجالسة في غرفة استقبالها وسط ذكريات الأعزّاء الذين غادروها... لم تدرِ روبن السبب الحقيقيّ، لكنّها شعرت أنّها توشك على البكاء.

29

I Just Like To Be Bad[1]

كان أحيانًا لا يتحمّل هؤلاء الأشخاص الذين يظنّون أنفسهم أصدقاءه، ولكنّه لم يكن يرتبط بعمل معهم إلّا حين يحتاج إلى المال. كانوا يقضون الأسبوع في ارتكاب السرقات، ليتباهوا بذلك مساء السبت. هؤلاء الأشخاص كانوا يحبّونه كثيرًا، ويعتبرونه صديقًا، ورفيقًا، وندًّا. كانوا يعتبرونه ندًّا لهم!

يوم عثرت الشرطة عليها، رغب في أن يتذوّق طعم الانتصار بمفرده وهو يقرأ الجرائد. كل تلك المقالات كانت رائعة. شعر بالفخر. كانت المرة الأولى التي يرتكب فيها جريمة قتل في ظروف ممتازة، بعيدًا عن الأنظار، بدون عجلة، بعدما نظّم كلّ شيء على طريقته. هذا أيضًا ما كان ينوي أن يفعله مع السكرتيرة، أي أن يأخذ الوقت للاستفادة منها قبل قتلها.

ثمّة أمر بقي غامضًا. فقد غابت تمامًا أيّة إشارة إلى الرسالتين اللتين كتبهما ليلفت نظر الشرطة إلى ذلك اللعين سترايك، ويحضّهم على ملاحقته والتحقيق معه، حتّى تتشوّه سمعته تمامًا، وتمرّغ مقالات الجرائد اسمه في الوحل، كي يعتقده الجمهور الغبيّ متورّطًا في الجريمة.

لكنّ الجرائد لم تبخل بالتعليقات، فقد نشرت صورًا للشقة حيث قتلها، ومقابلات مع الشرطيّ الذي يقود التحقيق. كان يحتفظ بكل قصاصات الجرائد، مثل عيّنات الأجساد التي تشكّل مجموعته الخاصّة.

[1] أحبّ فقط أن أكون شرّيرًا.

طبعًا، كان مضطرًا في المنزل إلى أن يخفي فرحته. عليه أن يكون شديد الانتباه في هذا الوقت. لأنّ الشيء لم تكن سعيدة. لم تكن سعيدة قطّ. فالحياة ليست كما توقعتها. كان عليه أن يتظاهر بأنّه متعاطف معها، وقلق عليها، ويتصنّع اللطف، لأنه لا يستطيع الاستغناء عن الشيء، فهي تأتيه بالمال، وستقدّم له حجّة غياب إذا ما احتاج إليها في أحد الأيّام، كتلك المرّة حين كاد يدخل السجن في ميلتون كينز.

إرتكب جريمته الثانية في ميلتون كينز، على أساس المبدأ القائل إنّه يجب ارتكاب الحماقات في مكان بعيد عن المنزل. والواقع أنّه لم يسبق له أن قصد ذلك المكان قط، كما لم يعد إليه أبدًا. بدأ الأمر بأن سرق سيّارة، وحده، بدون مساعدة الأصدقاء. كان يحتفظ بلوحات تسجيل مزوّرة منذ بعض الوقت لمثل هذه المناسبة. ثمّ سار بها بدون هدف، متّكلًا على الحظّ. منذ أن ارتكب جريمته الأخيرة، فشل مرّتين. لم يعد اجتذاب الفتيات في الحانات وإبعادهنّ عن أصدقائهنّ بالأمر السهل بالنسبة إليه. فهو فقد وسامته القديمة، يعرف ذلك جيّدًا، لكنّه لا يريد أن يحصر اعتداءاته بالعاهرات. فمَن لا يستهدف إلّا نوعًا واحدًا من النساء، تكتشفه الشرطة بسهولة. وذات مرّة تبع فتاة ثملة حتّى وصلت إلى أحد الأزقّة. لكنّه ما كاد يسحب سكّينه حتى ظهرت زمرة من الفتيان يضحكون كالحمقى، فاضطرّ إلى الهرب. ومنذ ذلك الحين اختار اعتماد القوة.

ليلتذاك، في ميلتون كينز، سار بالسيّارة لساعات بحال من الشعور المتعاظم بالإحباط. لم تلح له أيّة ضحيّة في الأفق. عند الثانية عشرة إلّا عشر دقائق، كان يوشك على اليأس ويفكّر في اختيار إحدى العاهرات، حين شاهدها. كانت تتشاجر مع حبيبها عند مستديرة وسط أحد الطرق. كانت سمراء، قصيرة الشعر وترتدي سروال جينز. تجاوزهما لكنّه ظلّ ينظر إليهما عبر مرآته. فجأة، انطلقت الفتاة مسرعة، وكانت غاضبة وتبكي. بدأ الرجل الذي تركته بمناداتها، لكنّه ما لبث أن عبّر عن انزعاجه وسار في الاتجاه المعاكس.

رأى ذلك، فعاد بسيّارته للّحاق بها. كانت تبكي وهي تسير، وتمسح عينيها بكمّها.

فتح زجاج نافذة السيّارة.

– أنت بخير يا جميلتي؟

– إرحل من هنا!

قرّرت الابتعاد عن السيّارة التي تتقدّم بجانبها ببطء، فاتّجهت إلى شجيرات كانت على جانب الطريق لتختبئ بينها. ذلك القرار هو ما كلّفها حياتها. لو أنّها واصلت السير مسافة مئة متر، لبلغت مكانًا مضاءً بالمصابيح ونجت.

لم يكن عليه أن يبذل جهدًا كبيرًا، فأوقف سيّارته على جانب الطريق، واعتمر طاقيّة صوفيّة، ثمّ حمل سكّينًا، ومضى ليقف بهدوء أمام المكان حيث توارت. بعد قليل سمعها تعود وسط الشجيرات السميكة التي زرعها المهندسون المدنيون على جانبَي الطريق لإضفاء منظر طبيعيّ لطيف عليه. بسبب غياب المصابيح في ذلك المكان، لم يره السائقون يسير بمحاذاة الشجيرات المظلمة. حين خرجت، كان في انتظارها. وتحت تهديد السكين، جعلها تعود إلى ما بين الشجيرات.

قضى معها ساعة. ثمّ انتزع قرطيها، وراح يتسلّى بأن يسلخ بسكّينه قطعًا يختارها من جسدها. إنتظر برهة انقطعت فيها حركة السير عن المكان حتّى عاد بسرعة إلى سيّارته، مقطوع الأنفاس، وقد شدّ طاقيّته حتى كادت تغطّي ثلاثة أرباع رأسه.

إنطلق بالسيّارة والدم يسيل من جيوبه. كان يشعر بالسعادة والارتياح يغمران كيانه كلّه. وفجأة، ارتفع الضباب.

في المرّة الماضية، أخذ سيّارة من العمل، ثمّ نظّفها لدى عودته أمام زملائه. ولكن كيف السبيل إلى إخفاء الدم الذي ملأ كلّ المقاعد هذه المرّة؟ ناهيك عن أنّه ترك حمضه النوويّ في كلّ مكان. فكاد الهلع يستبدّ به.

في تلك الليلة، مضى بالسيّارة مسافة عشرات الكيلومترات شمالًا، وقادها حتّى بلغ مكانًا مقفرًا وبعيدًا جدًا عن الطريق. وهناك خرج منها وهو

يرتجف بردًا، وفكّ اللوحتين المزوّرتين. بعد ذلك غمس أحد جوربيه في خزّان الوقود ثمّ رماه على مقعده وأضرم النار فيه. لم تشتعل السيّارة بسرعة، فكان عليه العودة مرّات عدّة لتأجيج النيران. أخيرًا، وعند الثالثة فجرًا، شاهد من مخبئه بين الأشجار السيّارة تنفجر. بعد ذلك لاذ بالفرار راكضًا.

في ذلك الطقس الشتويّ، لم تكن طاقيّته الصوفيّة لتثير الشكوك. دفن اللوحتين المزوّرتين في إحدى الغابات قبل أن يبتعد مسرعًا، خافض الرأس، ويداه في جيبيه تقبضان على كنوزه المخفيّة. خطرت له فكرة إخفاء تلك الأشلاء البشريّة، لكنّ يديه لم تطاوعاه على ذلك. من قبيل الحذر، فرك بالوحل بقع الدم على سرواله، ولم ينزع طاقيّته حتّى وصل إلى المحطّة. ثمّ جلس في مؤخّرة القطار وراح يغنّي بصوت منخفض مقلّدًا السكارى لئلاّ يفكّر أحد في الاقتراب منه. كان يعرف كيف يبقي الناس بعيدين عنه. فمظهره الموحي بالخطر وهالة الجنون المنبعثة منه كانتا بمثابة حبل الأمان بالنسبة إليه.

حين وصل إلى منزله، كانت الجثة قد اكتُشفت. جلس يشاهد التقرير على التلفزيون وعلى ركبتيه صينيّة وضع عليها طعامًا. عثرت الشرطة على السيّارة المحترقة، ولكن اللوحتين لم تُكتشفا. وفي ما اعتبره إشارة إلى أنّ الحظّ إلى جانبه، وأنّ الكون يحميه، علم من خلال التقرير أنّ الشرطة قبضت على حبيب الفتاة الذي تشاجر وإيّاها، ووجّهت إليه تهمة قتلها، برغم غياب شبه تامّ للأدلّة. لا يزال حتّى اليوم يضحك أحيانًا حين يتخيّل وجه ذلك الشابّ خلف قضبان السجن...

لكنّه تعلّم من تلك المغامرة درسًا: فالساعات الطويلة التي قضاها على الطريق ليلًا، وهو يخشى ظهور سيّارة للشرطة فجأة، ثمّ عودته بالقطار وهو يرتجف لفكرة أن يسأله أحدهم أن يفرغ جيوبه، أو يلاحظ أحد الركّاب الدم على ملابسه، جعلته يقرّر أن لا يدع شيئًا للصدفة بعد تلك الليلة.

لذلك، كان عليه الخروج لشراء مرهم فيكس، وأولويّته أن يتأكّد من أنّ الشيء، والأفكار الغبيّة التي تدور في رأسها في تلك اللحظة لن تعيق مشاريعه.

30

I am gripped, by what I cannot tell[1]*...*

Blue Öyster Cult, 'Lips in the Hills'

لم تكن التغيرات المفاجئة في إيقاع العمل تؤثّر في سترايك عادةً. ففي مهنته كانت مراحل النشاط الكثيف تتبعها غالبًا ساعات طويلة من الجمود القسريّ. ومع ذلك فإنّ نهاية الأسبوع لم تكن كافية ليستريح من عناء الرحلة الطويلة التي قادته من لندن إلى بارو، فماركت هاربورو، ثمّ كوربي، فلندن من جديد.

في خلال العامين الماضيين ترافقت عودته التدريجية إلى الحياه المدنية مع مضايقات كثيرة كانت حياته العسكرية تبقيه بمنأى عنها في الماضي. فقد اتّصلت به لوسي أخته التي عاش معها طفولته، في ساعة مبكرة من صباح السبت لتسأله عمّا إذا كان سيحضر حفلة عيد مولد ابنها، وعن سبب عدم ردّه على الدعوة التي وجهتها إليه. ولم ينفع معها تبريره أنّه كان خارج المكتب، ولا يستطيع قراءة بريده، في التخفيف من استيائها الشديد.

– تعرف أنّ جاك يحبّك كثيرًا، قالت له. وهو يرغب في أن تكون في حفلته.

– آسف يا لوسي، هذا مستحيل، سأرسل إليه هدية.

[1] أشعر بنفسي أسيرًا ولكنني لا أعرف السبب.

ما كانت لوسي لتجرؤ على هذا الابتزاز العاطفي لو أنّ سترايك لا يزال جنديًا في فرع الاستقصاء الخاص. فآنذاك كان دائم السفر من مكان إلى آخر في العالم، ما سمح له بالتملّص من الواجبات العائلية. كما أنّ لوسي كانت تعتبره من الأجزاء الأساسية في تلك الآلة الهائلة المسمّاة الجيش. ولكّنها خلال المكالمة رأت أنّ أخاها لم يتغير، وأن ما بذلته من جهد لتصف له أنّ طفلًا في الثامنة من عمره ينتظر عبثًا دخول خاله سترايك من باب الحديقة، لم يغيّر شيء في برودة ردّ فعل هذا الأخير، ففضلت أن تقتصد في الكلام وتنتقل إلى موضوع آخر: هل بات قريبًا من العثور على الرجل الذي أرسل اليه الساق المقطوعة؟ بدا من نبرة صوتها أنها ترى في تلك الحادثه أمرًا مشينًا. غير أن سترايك الذي كان يستعجل إنهاء المكالمة، أجابها بأنه يترك الأمر للشرطة.

تربط سترايك بأخته عاطفة شديدة، ويشعر بالأسف لأنّ علاقتهما الحاليّة غير مبنيّة إلّا على الذكريات التي يحتفظان بها من طفولتهما المروّعة. وإذا كان يفضل أن لا يأتمنها على أسراره، إلا إذا أرغمته على ذلك أحداث خارجة عن إرادته، فلكي يعفيها من قسوة بعض تلك الأسرار. كانت لوسي، بطبيعتها، امرأة قلقة. والحياة التي اختارها أخوها كانت بالنسبة إليها مصدر خيبة دائمة. ولم تتقبّل أنّه في عامه السابع والثلاثين يصرّ على رفض ما تعتبرها شروطًا لا غنى عنها للسعادة، أي العمل ضمن ساعات العمل العاديّة، وكسب مال أكثر، ووجود زوجة وأولاد في حياته.

شعر سترايك بالارتياح لأنه تخلّص من محادثة أخته، وأعدّ فنجان الشاي الثالث في ذلك الصباح، وعاد إلى سريره ومعه كومة من الجرائد. كانت صورة الضحية كيلسي بلات منشورة في عدد منها، بزيّها المدرسيّ الأزرق، وعلى وجهها المليء بالبثور ابتسامة.

بات سروال سترايك الداخليّ أضيق من أن يحتوي استدارة بطنه، فأسبوعان من الأطعمة الجاهزة وألواح الشوكولاتة لا يساعدان على التخفيف من البدانة. قرأ الجرائد وهو يلتهم محتوى علبة من البسكويت. بعدما أنهى قراءة الأخبار ولم يجد فيها جديدًا حول القاتل، أخذ يقرأ المقالات التي تتناول مباراة فريقي أرسنال وليفربول المقرّرة للغد.

فجأة، انتشله من القراءة رنين هاتفه. لم يكن يدرك مدى توتّره، ففتح الخطّ بسرعة فاجأت واردل.

– ربّاه! ما هذه السرعة؟ هل كنت جالسًا على الهاتف؟

– ماذا يجري؟

– ذهبنا لرؤية أخت كيلسي. تدعى هايزل، وهي ممرّضة. ندقّق في كلّ اتصالات الضحيّة. فتّشنا غرفتها، وصادرنا كومبيوترها المحمول. كانت تمضي الوقت على منتديات التواصل تتحادث مع محبّي تشويه الذات وبتر أعضائهم. طرحت أسئلة تتعلق بك.

كان سترايك يحكّ شعره وهو يتأمّل السقف.

– حصلت على إحداثيّات اثنين من رواد الإنترنت الذين تحادثهم بصورة دوريّة، تابع واردل. وستصلني صورتاهما يوم الاثنين. أين ستكون؟

– هنا، في المكتب.

– يقول صديق أختها، الإطفائيّ السابق، إنّ كيلسي كانت تسأله دائمًا حول ضحايا الحوادث، والأشخاص الذين يبقون عالقين في الركام أو في حطام السيّارت. كانت حقًّا تريد التخلّص من ساقها.

– ربّاه، تمتم سترايك.

بعد هذا الاتصال، وجد سترايك صعوبة كبيرة في التركيز على قراءة أخبار الشائعات حول التعديلات التي ستطال فريق أرسنال. وبعد دقائق، لم يعد يتظاهر حتّى بالاهتمام بفريق أرسين وينغر، وعاد للتحديق في صدوع السقف وهو يقلّب هاتفه في يده بحركة آليّة.

لشدّة سعادته بأنّ الساق المقطوعة لم تكن ساق بريتاني بروكبانك، لم يُعر الضحيّة الاهتمام الكافي. لكنّ رسالة كيلسي عادت إلى مخيلته في تلك اللحظة، تلك الرسالة التي لم يكلّف نفسه عناء قراءتها.

كانت فكرة البتر الإراديّ تثير فيه شعورًا عميقًا بالقرف. ظل الهاتف يدور حول نفسه في يده اليسرى، وكأنما لمساعدته على استجماع كل ما يعرفه حول كيلسي. بدأت صورة ذهنية ترتسم في عقله، انطلاقًا من اسمها ومما كانت توحي له به من مشاعر، والتي كانت تتردّد بين الشفقة والنفور.

كان لها من العمر ستة عشر عامًا، وليست على أتمّ وفاق مع أختها، وتتابع دورة تدريبية في رعاية الأطفال... أخذ سترايك دفتره وكتب: حبيب في المعهد؟ أستاذ؟ وطرحت أسئلة تتعلق به. لماذا؟ أنّى لها هذه الفكرة الغريبة بأنّه بتر ساقه بنفسه؟ هل تكوّن لديها هذا التخيّل وهي تقرأ المقالات التي كُتبت عنه في الصحف؟

أهو مرض عقليّ؟ أهو هوس الكذب؟ تساءل.

تولّى واردل التحقيق في اتصالاتها عبر الإنترنت. توقّف سترايك عن الكتابة. عادت إلى ذهنه صورة الرأس المجمّد، والخدّين الممتلئين، ونظرة كيلسي الجامدة. كانت لها ملامح مراهقة. أدرك في الحال أنّها لا تبلغ أربعة وعشرين عامًا. ولكن، عند التفكير في الأمر مليًّا، لم يبدُ عليها حتّى أنّ عمرها ستة عشر عامًا.

كان شارد الذهن، وترك القلم يسقط من يده، ويده لا تزال تلعب بهاتفه المحمول...

هل كان بروكبانك متحرّشًا حقيقيًا بالأطفال، مثلما أكّد عالم نفس التقاه سترايك وهو يحقّق في قضيّة اغتصاب أخرى في الجيش؟ هل الأطفال وحدهم هم مَن يجذبونه؟ أم هو أحد أولئك المجرمين الذين يستهدفون الصغيرات لمجرّد أنّهنّ أقرب منالًا، ويمكن تخويفهنّ بسهولة أكبر، لكنّهم مستعدّون أيضًا للاعتداء على ضحايا أكبر سنًّا؟ أي هل كانت مراهقة في عامها السادس عشر وذات خدّين منتفخين أكبر سنًّا من أن تثير شهوة بروكبانك، أم هو يرغب في التحرّش بكلّ أنواع النساء ما دمن ضعيفات وقابلات للتأثير فيهنّ؟ سبق لسترايك أن استجوب جنديًّا في التاسعة عشرة من عمره بتهمة اغتصاب امرأة في عامها السابع والستين. بعض الميول الجنسيّة قد لا تظهر إلّا حين تتوفر الظروف المناسبة لتفتّحها.

لم يكن سترايك قد جرّب بعد رقم الهاتف الذي أعطته إيّاه إنغريد. نظر بعينين عابستين عبر نافذة عليّته إلى السماء القليلة الغيوم. ربما كان عليه أن يعطيه لواردل. لماذا لا يحاول الاتصال به في الحال؟

في اللحظة التي أخذ سترايك يبحث فيها عن رقم واردل، غيّر رأيه. سبق له أن أعلمه بشكوكه منذ البداية. وأية فائدة جنى؟ لا شيء. لا بدّ من أن واردل منهمك الآن في توجيه البحث من مركز عملياته. كان يواصل السعي إلى ملاحقة ما لديه من أدلّة، من دون أن يعير أدلّة سترايك اهتمامًا. لا بل كان هذا الأخير يشعر بأنّ المفتّش يعتبر أدلّته مجرّد حدس لا أساس له. كما أنّ فشل واردل حتّى ذلك الوقت في العثور على مكان وجود كلّ من بروكبانك ولاينغ وويتايكر يظهر قلّة الحماسة التي يبديها للعثور عليهم فعلًا.

لا. لإيجاد بروكبانك، الأجدى به أن يعتمد على الخدعة التي ابتكرتها روبن، أي مكتب المحاماة، والوعد بدفع تعويضات العطل والضرر. فالرواية التي أقنعت بها روبن شقيقته هولي في بارو قد تؤتي ثمارها. والواقع، فكّر سترايك وهو يجلس في سريره، لعلّ من مصلحته أن يتصل بروبن في الحال ويعطيها رقم الهاتف. كان يدرك أنّها في المنزل، وحيدة، وأنّ ماثيو ذهب إلى عائلته في ماشام. بمكنه الاتصال بها وربّما...

إيّاك أن تفعل هذا أيّها الغبيّ.

فجأة تخيّل نفسه جالسًا معها إلى مائدة في حانة توتنهام. يكفيه اتصال هاتفيّ واحد ليلتقيا هناك. كلاهما غير مشغول. لكن، مناقشة القضيّة وهما يشربان كأسًا...

مساء يوم سبت؟ أنت مخبول.

هبّ سترايك من سريره فجأة، وكأنّ إبرًا لسعته. إرتدى ملابسه وخرج لشراء حاجياته.

حين عاد إلى شارع الدانمارك، حاملًا الأكياس البلاستيكيّة الملأى بالمؤن، خُيّل إليه أنّه لمح الشرطيّ بالملابس المدنية الذي عيّنه واردل لحراسة مكتبه، تحسّبًا لاحتمال عودة الرجل الضخم الجثّة الذي يعتمر طاقية إلى ذلك المحيط. كان الشابّ الذي يرتدي معطفًا طويلًا في أقصى درجات الحذر، واكتفى بأن ألقى نظرة عابرة على المحقّق الذي مرّ من أمامه حاملًا أكياس المؤن.

في وقت لاحق، وبعدما تناول سترايك عشاءه وحيدًا في شقّته، تلقّى اتّصالًا من إلين. لم يكونا يتقابلان مساء السبت قطّ، ولم يكن ذلك اليوم استثناءً. سمع سترايك خلال المحادثة صوت ابنة إلين تلعب في الغرفة. كانا قد اتّفقا على اللقاء مساء اليوم التالي، لكنّ إلين اقترحت عليه أن يلتقيا قبل ذلك لمشاركتها البحث عن شقّة. فقد صمّم زوجها على بيع شقّة كلارنس تيراس الرائعة، وهي تدرك أنّه ما يصمّم عليه يتحقق.

– أتأتي لزيارة سمسار العقارات معي؟ لديّ موعد معه غدًا عند الثانية.

كان يعتقد – أو يظنّ نفسه يعتقد – أنّ تلك الدعوة لا تخفي أيّة فكرة مضمرة. وإذا دعته إلين إلى مرافقتها، فليس ذلك على أمل أن يسكنا معًا – فعمر معرفتهما يكاد لا يتجاوز ثلاثة أشهر – بل لأنّها لا تحبّ أن تتدبّر الأمور بمفردها. يجب عدم الوثوق بما تتظاهر به من الاستقلاليّة والتحرّر من كلّ ارتباط. وفي تلك السهرة التي جمعت أصدقاء شقيقها وزملاءه، لو أنّها قرّرت عدم الذهاب والبقاء وحيدة في منزلها، لما التقيا قطّ. لا بأس في ما تطلبه، فللجميع الحقّ في أن يتمنّى وجود إنسان يرافقه. لكنّ سترايك قد اعتاد تنظيم وقته كما يشاء منذ عام، ولم يكن يرغب في تغيير تلك العادة.

– مستحيل، أجابها، آسف. أنا مشغول حتّى الثالثة.

قال كذبته تلك بنبرة مقنعة. لم تغضب، بل أنهيا المكالمة على وعد اللقاء في المطعم مساء يوم الأحد كما سبق أن اتفقا عليه. وهذا يعني أنّ بوسع سترايك مشاهدة مباراة أرسنال وليفربول بكلّ هدوء.

من جديد، فكّر سترايك في روبن، وحيدة في شقّتها التي تتقاسمها وماثيو. مدّ يده إلى علبة سجائره، وشغّل التلفزيون وجلس على وسائده بارتياح.

بالنسبة إلى روبن، كانت نهاية الأسبوع تلك مختلفة عن غيرها. لكنّها صممت على ألا تستسلم للكآبة بسبب كونها وحيدة أو لأنّ سترايك يقضي السهرة عند إلين – من أين لها تلك الفكرة؟ كان حرًّا. ففي النهاية، إنّها نهاية الأسبوع، وله

الحقّ في أن يفعل ما يشاء مع مَن يشاء – فجلست ساعات إلى كومبيوترها المحمول، مصرّة على التحقيق في دليلين، الأوّل قديم، والآخر أحدث عهدًا.

إكتشفت مساء السبت شيئًا ما على الإنترنت. كان أمرًا ممتازًا لدرجة أنّها نهضت ورقصت في غرفة الجلوس في شقتها الصغيرة. حتّى أنّها شعرت لشدّة حماستها بالرغبة في الاتصال بسترايك لتنقل إليه الخبر. كانت بحاجة إلى دقائق عدّة ليهدأ قلبها وتستعيد أنفاسها، وتقنع نفسها بأنّ الأمر يمكنه الانتظار حتى الاثنين، وأنّ وقعه سيكون أكبر إذا ما أخبرته إيّاه وجهًا لوجه.

أمّها، التي كانت تعرف أنّ روبن بمفردها، اتّصلت بها مرّتين في نهاية الأسبوع. وفي المرّتين، ألحّت على أن تتّفقا على موعد قدومها إلى لندن.

– لا أعرف يا أمي، قالت روبن متنهّدة صباح الأحد.

كانت جالسة على الأريكة بثياب النوم، والكومبيوتر مفتوح أمامها، تحاول الدردشة مع أحد أعضاء مجموعة المصابين باضطراب سلامة الهوية الجسدية والذي يتنكر باسم «المتفاني». والواقع أنّها لم تواصل المكالمة إلّا خوفًا من رؤية أمّها تصل إلى منزلها فجأة وبدون سابق إنذار.

المتفاني: أين تريدين أن تُبتري؟

الحالمة: في منتصف الفخذ.

المتفاني: في كلتا الساقين؟

– وإذا أتيت إليك غدًا؟ سألتها لنيدا.

– لا، العمل متراكم جدًّا عليّ، سارعت روبن لتقول لها، كاذبة، بالجرأة على الكذب عينها التي كانت لسترايك في حديثه وإلين. الأسبوع المقبل مناسب أكثر.

الحالمة: نعم، في كلتا الساقين. أتعرف أحدًا فعل ذلك؟

المتفاني: لا يمكنني الحديث هنا في المنتدى. أين تقيمين؟

– لم أرَه، قالت ليندا. روبن، هل أنت جالسة أمام كومبيوترك؟

– لا، أجابت روبن بكذبة جديدة وهي ترفع أصابعها عن لوحة المفاتيح. لم تري مَن؟

– ماثيو طبعًا!

– أظنّه لم يكن ينوي المرور لزيارتكم في نهاية الأسبوع هذه.

ثمّ عادت إلى النقر على لوحة المفاتيح بتأنٍّ شديد.

الحالمة: في لندن.

المتفاني: وأنا أيضًا، هل لديك صورة؟

– هل ذهبت إلى حفلة عيد مولد السيد كانليف؟ سألتها روبن بصوت مرتفع محاوِلة إخفاء صوت المفاتيح.

– بالطبع لا! أجابت ليندا. حسنًا، ستخبرينني أيّ يوم من أيّام الأسبوع المقبل يناسبك فأحجز تذكرتي. إنّه عيد الفصح. سيكون الازدحام في القطارات شديدًا.

وافقت روبن على ما تقوله أمّها، وودّعتها بكلمات رقيقة، ثمّ عادت لتركّز جهودها على «المتفاني». لكنّ هذا الأخير (كانت روبن شبه متأكّدة من أنّه رجل)، وحالما رفضت روبن أن ترسل له صورتها، قطع وللأسف المحادثة بينهما، وتوارى تمامًا.

ظنّت أنّ ماثيو سيعود إلى لندن مساء الأحد. ولكن، حين مرّت الساعة الثامنة مساء ولم تره، تحقّقت من رزنامة المطبخ، ولاحظت أنّه أخذ إجازة يوم الاثنين أيضًا. طبعًا، لقد أخبرها بذلك من قبل، فكانت مضطرّة إلى المزايدة عليه بأنّها ستطلب كذلك يوم إجازة من سترايك. لحسن الحظّ أنّها قطعت علاقتها به، فكّرت في نفسها، وإلّا لاندلع بينهما شجار جديد.

ومع ذلك، فقد وجدت نفسها بعد دقائق قليلة في الغرفة، والدموع تسيل من عينيها. كانت تلك الغرفة تحتوي على ذكريات كثيرة من تاريخهما المشترك: الدمية المحشوّة على شكل فيل والتي قدّمها إليها لمناسبة عيد سانت فالنتاين الأوّل بينهما. كان أكثر خجلًا آنذاك. تتذكّر جيّدًا أنّه احمرّ ارتباكًا حين قدّم إليها تلك الهديّة، وكذلك علبة المجوهرات التي قدّمها إليها

لمناسبة عيد مولدها الواحد والعشرين. وكل تلك الصور التي يظهران فيها والسعادة تغمرهما، في اليونان، في إسبانيا، أو في حفلة زفاف شقيقة ماثيو وهما في أبهى ملابسهما. كبرى الصور التُقطت يوم التخرّج. وقفا للصورة يشبكان ذراعيهما. كان ماثيو في ردائه الجامعيّ، وروبن في فستان صيفيّ. كانت تحتفل بنجاحٍ حرمها منه رجل يضع على وجهه قناع غوريلا.

31

Nighttime flowers, evening roses,
Bless this garden that never closes[1].

Blue Öyster Cult, 'Tenderloin'

في الصباح التالي، شعرت روبن ببعض الحيويّة وهي تخرج من منزلها. كان الطقس ربيعيًّا رائعًا. في رحلتها بالمترو إلى محطة توتنهام كورت رود، راحت تراقب الركّاب بحذر شديد، لكنّها لم ترَ أيّ رجل ضخم الجثّة يعتمر طاقيّة. كما لاحظت أنّ الزواج الملكيّ القريب يثير مزيدًا من اهتمام الصحافة، فصورة كايت ميدلتون تحتلّ الصفحات الأولى لكلّ الجرائد المفتوحة حولها. وأحسّت بقوّة أكبر بالفراغ الذي تركه في أصبعها غياب خاتم الخطوبة الذي وضعته لأكثر من عام. لكنّها كانت تستعجل لقاء سترايك لتطلعه على نتيجة التحقيق الذي قادته بمفردها، ورفضت أن تدع نفسها فريسة للكآبة.

ما إن خرجت من المحطّة حتّى سمعت رجلًا يناديها باسمها. خشيت للحظة أن يكون ماثيو قد نصب لها كمينًا. ثمّ رأت سترايك يشقّ طريقه نحوها وسط الجموع وجعبته على كتفه، ما يعني أنّه أمضى الليل مع إلين.

1 أزهار الليل، ورود المساء / مباركة هذه الحديقة التي لا تُغلق أبوابها أبدًا.

– صباح الخير. هل أمضيت نهاية أسبوع جيّدة؟ سألها. ثمّ تابع بدون أن ينتظر إجابتها: آسف. لا، كانت نهاية أسبوع سيئة حسبما أرى.

– لم تكن سيئة تمامًا، ردّت روبن وهما يجتازان العوائق التي باتت مألوفة في الطريق، كحواجز الورش وخنادق الحفريات.

– ماذا وجدت؟ سألها سترايك وهو يزعق لتسمعه وسط ضجيج الحفّارات.

– عفوًا؟ صاحت.

– ماذا وجدت؟

– ما أدراك بأنّني وجدت شيئًا؟

– من نظرتك. إنّها نظرتك المألوفة حين تريدين أن تخبريني أمرًا ما.

إبتسمت له ابتسامة عريضة.

– أنا أوّلًا بحاجة إلى كومبيوتر.

إنعطفا عند زاوية شارع الدانمارك. كان رجل بملابس سوداء يقف على باب مبنى مكتبهما، حاملًا باقة عملاقة من الورود الحمراء.

– ربّاه! شهقت روبن.

لم يدُم خوفها إلّا برهة واحدة. كان دماغها قد حجب باقة الورود ليركّز على الرجل ذي الملابس السوداء. إنّه ليس الساعي القديم طبعًا، بل هو عامل تسليم أزهار من شركة إنترفلورا. وكان شابًّا طويل الشعر، لا يعتمر خوذة. لا شكّ بأنّ المسكين لم يسبق له قطّ أن سلّم باقة من خمسين وردة حمراء إلى امرأة لم تُبد أيّة حماسة، كما ظهر على روبن، فكّر سترايك في نفسه.

– أبوه هو الذي نصحه بأن يفعل هذا الأمر، تمتمت روبن فيما فتح لها سترايك الباب. وتابعت تقول، غير عابئة بالاهتمام بالورود: أكاد أسمعه يقول له: كلّ النساء يحببن الورود. الأمر غير معقّد. يكفي أن ترسل إليها باقة فينتهي كلّ شيء.

تبعها سترايك على الدرج المعدنيّ، وهو يحاول إخفاء ضحكته. حالما فتح الباب، مضت روبن توًّا إلى مكتبها وألقت عليه الباقة بلا مبالاة. سُمع صوت ارتطام الورود بالمكتب، وتلطّخت بقطرات ماء خضراء اللون ورقة

السيلوفان التي تغلّفها والمزيّنة بشريط معقود. كانت الباقة مرفقة ببطاقة، لكنّ روبن لم تشأ أن تفتحها أمام سترايك.

– إذًا، سألها وهو يعلّق جعبته بالمشجب خلف الباب؟ ماذا وجدت؟

قبل أن تجيب روبن، قُرع الباب. وظهر خلف الزجاج غير المصقول طيف واردل بشعره المتموّج وسترته الجلديّة.

– كنت مارًا من هنا. أرجو أنّني لم آتِ في وقت باكر جدًّا. أحدهم في الأسفل فتح لي الباب.

في الحال وقعت عينا واردل على الورود.

– عيد مولدك؟

– لا، أجابت روبن بنبرة جافّة. من يريد قهوة؟

– أنا سأعدّها، قال سترايك وهو يتوجّه إلى الغلاّية الكهربائيّة. لدى واردل ما يطلعنا عليه.

شعرت روبن بالاستياء، هل كان الشرطيّ سيحرمها لذّة إحداث المفاجأة؟ لماذا لم تتصل بسترايك مساء السبت لتطلعه على اكتشافها؟

جلس واردل على الأريكة المصنوعة من الجلد الاصطناعيّ، والتي تصدر عنها أصوات تشبه إطلاق الريح كلّما جلس عليها شخص ممتلئ الجسم. كاد الشرطيّ ينتفض، ثمّ عاد للجلوس بشكل حذر وفتح ملفًّا.

– تبيّن لي أنّ كيلسي كانت تتناقش مع أشخاص آخرين يرغبون في بتر أعضائهم على أحد مواقع الإنترنت، قال واردل لروبن.

جلست هذه الأخيرة في كرسيّها الدوّار. رأت أنّ الورود فوق مكتبها تمنعها من رؤية الشرطيّ فحملتها بحركة متذمّرة ووضعتها على الأرض.

– لقد أشارت إلى سترايك في الموقع المذكور، تابع واردل يقول. كانت تبحث عمّن يعرف عنه معلومات.

– هل استخدمت لقب الوحدة القاتلة مثلًا؟ سألت روبن وهي تتظاهر بالبراءة.

رفع واردل عينيه مدهوشًا، فيما التفت سترايك إلى الوراء وقد تجمّدت الملعقة الصغيرة في يده.

– نعم، صحيح، قال الشرطيّ وهو يتفرّس في سترايك. كيف عرفت؟

– وجدت الموقع الإلكتروني نفسه نهاية الأسبوع. وقلت في نفسي إنّ «الوحدة القاتلة» وفتاة الرسالة لا بدّ من أن تكونا شخصًا واحدًا.

– ربّاه، قال واردل الذي نظر إلى سترايك، يجب أن نعرض عليها عملًا.

– لديها عمل، قال سترايك. تابع. كانت كيلسي تناقش...

– حسنًا. في النهاية، أعطت عنوان بريدها الإلكتروني لشخصين. لم نجد شيئًا مثيرًا للاهتمام، لكنّنا نحاول أن نعرف ما إذا التقتهما... في الحياة الحقيقية.

«غريب» فكّر سترايك، هذا التعبير الذي غالبًا ما يستعمله الأطفال للتمييز بين عالمهم الخياليّ وواقع البالغين المملّ، قد تطور ليدلّ اليوم إلى الحياة التي يعيشها الإنسان خارج الإنترنت. قدّم القهوة إلى واردل وروبن ثمّ خرج ليأتي بكرسيّ من مكتبه، مفضّلًا أن يتجنّب مشاركة واردل الأريكة ذات الأصوات الغريبة.

حين عاد، رأى واردل يطلع روبن على نسختين ورقيّتين مطبوعتين لصفحتَي الفايسبوك الخاصّتين بشخصين يرتادان الإنترنت.

تفحّصت روبن النسختين ثمّ أعطتهما لسترايك. كان على إحداهما صورة لشابّة ممتلئة الجسم، ذات وجه مستدير وشاحب، وشعر أسود مقصوص فوق الكتفين، ونظّارة. وعلى الثانية شابّ أشقر له من العمر نحو عشرين عامًا، ينظر إلى الكاميرا بعينين حولاوين.

– كتبت على مدوّنتها أنّها «ذات قدرات عابرة»، مَن يدري ما معنى ذلك؟ أمّا هو فينشر رسائل على كل ما يجده من منتديات يتوسّل فيها مساعدته على أن يقوم ببتر أحد أعضائه. برأيي أنّ كليهما يعاني مشاكل خطيرة. هل يعني لكما الوجهان شيئًا؟

هزّ سترايك وروبن رأسيهما علامة النفي. فتنهّد واردل وأخذ الورقتين، وعلّق:

– محاولة بلا جدوى.

– هل تعرف ما إذا كانت تقابل أشخاصًا آخرين؟ فتيانًا من مدرستها؟ أساتذة؟ سأله سترايك، وهو يستعيد الأسئلة التي خطرت بباله يوم السبت الفائت.

– أخبرتنا أخت كيلسي عن حبيب غامض لم يتسنّ لهما شرف لقائه قطّ. هايزل تظنّه شخصًا وهميًا. تحادثنا مع فتاتين في صفّها، ولم يسبق لأيّ منهما أن رأتها برفقة فتى قطّ. لكنّنا ندقّق في هذا الاحتمال. في شأن هايزل، أضاف واردل وهو يرتشف جرعة قهوة، وعدتها بأن أنقل إليك رسالة. إنّها ترغب في رؤيتك.

– أنا؟ سأل سترايك مدهوشًا. لماذا؟

– لا فكرة لديّ. أعتقد أنّها بحاجة إلى أن تبرّر نفسها أمام الجميع. إنّها في حال سيئة.

– تبرّر نفسها؟

– تشعر بالذنب على نحو مؤلم لأنّها لم تأخذ أبدًا على محمل الجدّ رغبة شقيقتها في بتر ساقها. وتظنّ أنّ كيلسي ما كانت لتطلب المساعدة من الخارج لو أنّها تعاملت معها بطريقة أخرى.

– هل تعلم أنّني لم أردّ على رسالة أختها قطّ، ولم أُقِم أيّ اتّصال مع كيلسي؟

– نعم، نعم. شرحت لها كلّ شيء. ومع ذلك، تريد أن تكلّمك. لا أعلم، قال واردل بنبرة انزعاج. في النهاية أنت مَن استلمت ساق أختها. تعرف كيف يكون الأشخاص الذين يعانون صدمة. كما أنّك لست شخصًا عاديًا، أضاف ببرودة. لا بدّ من أنّها تتخيّل أنّ سوبرمان سيحلّ اللغز فيما الشرطة تتفرّج عاجزة.

تجنّب كلّ من سترايك وروبن النظر إلى الآخر. وتابع واردل يقول:

– أعترف أنّه كان بإمكاننا أن نكون أكثر لباقة معها. فهي لم تحبّ كثيرًا الاستجواب القاسي الذي أخضع رجالنا صديقها له. لعلها تفضل أن يكون إلى جانبها المحقق الشهير الذي سبق له أن أنقذ شخصًا بريئًا من السجن.

قرّر سترايك أن يتجاهل نبرة الامتعاض الواضحة في صوت المفتش.

– كنّا مضطرين إلى استجواب الرجل الذي يسكن مع كيلسي، قال واردل موجّهًا كلامه إلى روبن. إنّها إجرءات روتينية.

– نعم، أجابته، طبعًا.

– أما كان في حياتها رجال آخرون، ما عدا صديق أختها، والحبيب الوهميّ؟ سأله سترايك.

– كانت تقابل معالجًا نفسيًا، وهو رجل أسود في الخمسين من العمر، نحيل للغاية. كان مع عائلته في بريستول في نهاية الأسبوع التي قُتلت فيها. وهناك أيضًا داريل، وهو رجل بدين ينظّم النشاطات للشبّان في إطار الرعية. لم يتوقف عن البكاء طوال استجوابه. يعمل يوم الأحد في الكنيسة، لكننا لم نستطع أن نتحقق من كيفية قضائه بقية الوقت. لكنني لا أتخيله حاملًا سكينًا لتقطيع اللحم. هذا كل ما لدينا من ناحية الرجال الذين عرفتهم. أمّا صفّها فلا يضمّ إلّا فتيات.

– أما من فتيان في مجموعة الشبّان في الرعية؟

– المجموعة تتألف بشكل أساسيّ من الفتيات. الفتى الأكبر سنًّا يبلغ من العمر أربعة عشر عامًا.

– كيف ستكون ردة فعل الشرطة إذا ذهبت لرؤية هايزل؟ سأل سترايك.

– لا يمكننا أن نمنعك من ذلك، قال واردل وهو يرفع كتفيه. لا أمانع، شرط أن تطلعنا على ما جرى من حديث. لكنّني لا أظنّك ستعرف منها الكثير. إستجوبنا الجميع، وفتّشنا غرفة كيلسي تفتيشًا دقيقًا، وصادرنا كومبيوترها المحمول. أنا مستعدّ للمراهنة على أنّ أحدًا من الذين قابلتهم لا يعرف شيئًا. كانوا كلّهم يظنّونها في رحلة تدريبيّة.

شكرهما واردل على القهوة، ووجّه إلى روبن ابتسامة عريضة ردّت عليها هذه الأخيرة بشبه ابتسامة، ثمّ انصرف.

– لم يقل شيئًا بشأن بروكبانك أو لاينغ أو ويتايكر، قال سترايك مستاءً، فيما كان واردل ينزل الدرج المعدني، وأضاف قائلًا لروبن: لم أكن أعلم أنّك تفتشين في الإنترنت.

– لم يكن هناك ما يثبت لي أنّها صاحبة الرسالة، قالت روبن، لكنّ الاحتمال كبير بأن تكون كيلسي قد بحثت عن المساعدة عبر الإنترنت.

نهض سترايك، وأخذ فنجان روبن الموضوع على مكتبها واتجه نحو الباب.

– ألا يهمّك ما كنت أريد قوله لك؟ صاحت روبن بنبرة مَن يشعر بالإهانة.

إلتفت إليها مدهوشًا، وسألها:

– أليس هذا ما أردت قوله؟

– لا!

– ماذا إذًا؟

– أظنني عثرت على دونالد لاينغ.

لبث سترايك متجمّدًا في مكانه، حاملًا في كلّ من يديه فنجانًا.

– عثرت... ماذا؟ كيف؟

شغّلت روبن كومبيوترها، وأومأت إليه بالاقتراب، وبدأت بالنقر على المفاتيح. وقف سترايك خلفها ليرى الشاشة.

– كان عليّ في البداية أن أكتب عبارة «داء المفاصل المصحوب بالصدفيّة» بشكل صحيح. وبعد ذلك، أنظر.

ثمّ ظهرت صفحة الاستقبال الخاصة بجمعية خيرية تدعى «العطاء الحقيقي». وفي أعلى الشاشة ظهرت صورة صغيرة لرجل ذي نظرات حادّة.

– ربّاه، هذا هو! صاح سترايك بقوّة جعلت روبن تجفل.

وضع الفنجانين من يديه وجرّ كرسيّه إلى أمام الكومبيوتر، موقعًا الورود في طريقه.

– تبًا... آسف.

– غير مهمّ، قالت له، إجلس مكاني. سأهتمّ بها.

جلس سترايك في كرسيّ روبن، وبدأ بتكبير الصورة. كان السكوتلنديّ يقف على شرفة ضيقة ذات حاجز من الزجاج الأخضر السميك. لم يكن يبتسم، وظهر عكّاز تحت ذراعه اليمنى. كان شعره الكثيف يصل كعادته إلى أسفل

جبينه، لكنّ لونه الأحمر في العادة بدا في الصورة أغمق لونًا، وكان وجهه الحليق والمليء بالثقوب الصغيرة أقلّ انتفاخًا ممّا ظهر في صورة لورين. كما زاد وزنه كثيرًا عمّا كان عليه حين عضّ سترايك في وجهه فوق حلبة الملاكمة، وبدا مختلفًا تمامًا عن العملاق المفتول العضلات الشبيه بتمثال رخامي لإله إغريقيّ. وتحت قميصه الأصفر ظهر زنده، ووشم الوردة الذي تغيّر، ليخترقها خنجر وتسيل قطرات الدم منها نحو المقبض. وفي خلفية الصورة ظهرت وراء لاينغ واجهة مبنى غير واضحة المعالم تمامًا ما عدا بعض النوافذ السوداء غير المتناسقة.

إستخدم لاينغ اسمه الحقيقي:

«دونالد لاينغ يناشد سخاءكم.

أنا من قدامى المحاربين في الجيش البريطاني، وأعاني داء المفاصل المصحوب بالصدفية. أجمع أموالًا لإجراء أبحاث حول هذا المرض. شكرًا لتبرّعكم بما تستطيعون التبرّع به.»

كان تاريخ إنشاء الصفحة يعود إلى ثلاثة أشهر. ومن أصل الألف جنيه التي كان لاينغ يرجو جمعها، لم يتلقّ شيئًا.

– كل الوسائل جائزة لكسب المال، علّق سترايك قائلًا. يكفي أن يقول «أعطوني».

– لم يقل «أعطوني»، ردّت روبن مصحّحة قول سترايك، وهي تجلس القرفصاء أرضًا، تحاول مسح الماء الذي سال من الزهور بفوطة ورقية. إنّه يجمع المال للجمعية الخيرية.

– كما يزعم.

أمعن سترايك النظر في واجهة المبنى ذات الأشكال غير المتناسقة، خلف شرفة لاينغ.

– هل تعني لك هذه النوافذ شيئًا؟

– في البداية فكرت في مبنى غركين، قالت روبن وهي ترمي الفوطة الورقية المشبعة بالماء في سلّة المهملات. لكنّ شكل النوافذ مختلف.

– نحن لا نعلم أين يقيم، قال سترايك. ثمّ راح ينقر كلّ الروابط الظاهرة. لا بدّ من أنّ جمعية «العطاء الحقيقي» نشرت إحداثياتها في مكان ما.

– هذا غريب، قالت روبن، لا يمكننا أن نتخيل أنّ الأشرار يمرضون. وأضافت بعد أن نظرت إلى ساعتها: عليّ الذهاب لمراقبة بلاتينوم. يجب أن أسرع لأكون هناك بعد خمس عشرة دقيقة.

– نعم، قال سترايك بدون أن يبعد نظره عن صورة لاينغ. سنبقى على اتصال... الواقع أنّني أحتاج إليك في أمر.

وأخرج هاتفه من جيبه.

– أما زلت تشتبه به؟ سألته روبن وهي ترتدي سترتها.

– ربما. أريدك أن تتصلي به زاعمة أنك فينيشيا هول، المحامية المتخصصة في قضايا التعويض عن الإصابات الجسدية.

– حسنًا.

وأخذت هاتفها المحمول لتسجّل فيه رقم الهاتف الذي يعطيها إياه سترايك. برغم تظاهرها باللامبالاة، كانت سعيدة جدًّا من الداخل. فينيشيا كانت فكرتها وخطتها. وها هو سترايك يعتمد عليها كليًّا للسير في هذه الخطة.

كانت قد اجتازت نصف شارع الدانمارك تحت شمس دافئة حين تذكرت البطاقة الموضوعة في باقة الورود التي تكسرت. لم تكن قد قرأتها حتى.

32

What's that in the corner?
It's too dark to see[1].

Blue Öyster Cult, 'After Dark'

بين جلبة السيارات وأصوات الناس المرتفعة في الشارع، كان على روبن انتظار الساعة الخامسة قبل أن تنجح في الاتصال بنويل بروكبانك. وحين توارت بلاتينوم في داخل ملهى التعري، لجأت روبن إلى المطعم اليابانيّ، وحملت فنجان الشاي إلى مائدة منعزلة. إنتظرت خمس دقائق، لتتأكّد من أنّه لا يمكن التمييز بين ضجيج مطعم وضجيج مكتب محاماة يقع في جادّة كبيرة. ثمّ طلبت الرقم وقلبها يخفق بشدّة.

كان الرقم في الخدمة. أصغت روبن إلى صوت رنينه نحو عشرين ثانية. وحين كادت تفقد الأمل بأن يجيب أحد، سمعت الخطّ يُفتح، وعلى الطرف الآخر صوت شخص يتنفّس كفقمة. لبثت روبن صامتة وهاتفها ملتصق بأذنها. وفجأة انتفضت في مكانها، حين سمعت صوت طفلة حادّ جدًّا يزعق قائلًا:

– آلو!

[1] ماذا في الزاوية؟ / الظلام شديد ولا يمكنني أن أرى.

– آلو قالت روبن بحذر.

خُيّل إليها أنّها تسمع عبر الهاتف صوت امرأة تقول:

– ماذا تفعلين يا زهرة؟

ثمّ سمعت صوت احتكاك، وقال صوت المرأة مقتربًا:

– هذا هاتف نويل، إنّه يبحث عن...

ثمّ انقطع الاتصال. وضعت روبن الهاتف من يدها وقلبها لا يزال يخفق. وتخيّلت أصابع الطفلة وهي تضغط خطأ على زرّ إنهاء المكالمة.

إرتجّ الهاتف في يدها، وظهر رقم بروكبانك. فتنفّست الصعداء وأجابت:

– آلو، هنا فينيشيا هول.

– ماذا؟ سألها صوت امرأة.

– فينيشيا هول من مكتب هاردكاير وهول.

– ماذا؟ كرّرت المرأة. هل أنت مَن اتصلت منذ قليل؟

كانت تتكلّم بلكنة لندنيّة. أحسّت روبن بالجفاف في فمها.

– نعم، أجابت روبن منتحلة شخصيّة فينيشيا. أرغب في مكالمة السيد نويل بروكبانك.

– لماذا؟

تريثت روبن لبرهة قبل أن تسألها:

– أيمكنني أن أعرف مَن أخاطب، من فضلك؟

– لماذا؟ ردّت المرأة بصوت أكثر عدائيّة. مَن أنت؟

– أدعى فينيشيا هول، محامية متخصّصة في قضايا التعويضات عن الإصابات الجسديّة.

جلس رجل وامرأة إلى المائدة المقابلة لروبن، وأخذا يتحادثان بالإيطاليّة.

– ماذا؟ قالت المرأة على الخطّ.

شتمت روبن في سرّها الزبونين القريبين منها، ثمّ روت للمرأة بصوت مرتفع الحكاية التي سبق أن أقنعت هولي بها في حانة بارو.

– هل سيحصل على المال؟ قالت المرأة مدهوشة، وقد تراجعت عدائيّتها قليلًا.

– نعم، إذا فاز بالدعوى، أوضحت روبن. أيمكنني أن أسألك...؟

– كيف علمت بقصّته؟

– إكتشفنا قضيّة روبن ونحن نقوم بالبحث في قضيّة أخرى...

– ما هو المبلغ؟

– هذا رهن بواقع القضيّة. قالت روبن وهي تتنفّس بعمق. أين السيّد بروكبانك؟

– في العمل.

– هل لي أن أعرف أين...

– سأطلب إليه الاتصال بك. على هذا الرقم، أليس كذلك؟

– نعم، من فضلك، قالت روبن. سأكون في مكتبي غدًا اعتبارًا من الساعة التاسعة.

– فيني... ما اسمك؟

كرّرت لها روبن الاسم وهجّأته.

– حسنًا، سأقول له أن يعود للاتصال بك. إلى اللقاء.

في طريقها إلى المترو، طلبت روبن رقم سترايك لتوجز له فحوى اتصالها، لكن خطه كان مشغولًا.

حين ترجّلت من المترو وغادرت المحطة، كانت معنوياتها في الحضيض. لا بدّ من أنّ ماثيو قد عاد إلى المنزل. خُيّل إليها أنّها لم تره منذ دهر، وكانت تخشى أن تجد نفسها أمامه وجهًا لوجه. زاد الطريق من تعكّر مزاجها. ليتها تملك سببًا وجيهًا للبقاء خارج المنزل، فكّرت. لكنّ سترايك لم يكن يشاء أن تبقى في الشوارع بعد المغيب. كان ذلك مثيرًا للغضب لكنّ عليها أن تفي بوعدها.

بعد أربعين دقيقة، خرجت من محطة ويست إيلينغ واتجهت إلى منزلها، وهي تحسّ بانقباض في حلقها. حاولت الاتصال بسترايك من جديد. وهذه المرة أجاب.

– عمل جيد، أحسنت! قال لها حين علم أنّ أحدهم أجاب على رقم بروكبانك. هل تقولين إنّ لتلك المرأة لكنة لندنيّة؟

– إنّه الانطباع الذي تكوّن لديّ، نعم، وهي تقول في نفسها إنّ سترايك يغفل تفصيلًا أكثر أهمية. وأضافت: كانت هناك طفلة أيضًا.

– نعم. لا بدّ من أنّ هذا ما جذبه.

ظنت روبن أنّ ردّة فعل ما قد تبدر عن سترايك حين يعلم أنّ طفلة صغيرة تعيش مع مغتصب أطفال. ولكنّ ذلك لم يحدث بل انتقل إلى موضوع آخر.

– تحدثت بالهاتف إلى هايزل فورلي.

– مَن؟

– أخت كيلسي، أتتذكّرين؟ تلك التي أرادت لقائي؟ سأذهب لرؤيتها يوم السبت.

– أوه.

– الأمر مستحيل قبل ذلك. عاد «الأب المجنون» من شيكاغو. وهذا مناسب تمامًا لأنّ «المخدوع مرتين» لن يكون دائمًا هنا لإثارة المتاعب.

لم تجب روبن. لم تبارح تفكيرها الطفلة التي أقفلت الخط. كما أن ردة فعل سترايك خيبت أملها.

– هل أنت بخير؟ سألها سترايك؟

– نعم.

كانت روبن قد وصلت إلى نهاية شارع هايستنغز.

– حسنًا، إلى اللقاء غدًا. قالت.

ودّعها وأقفل الخطّ.

غريب، فكّرت في نفسها وهي تعود إلى منزلها، هذه المكالمة لم تعد إليها الشعور بالنشاط قطّ.

لم يكن قلقها في محلّه. فماثيو بات شخصًا مختلفًا تمامًا عن ذلك الشخص الذي كان يتوسّل إليها بإلحاح لكي تجيبه. فقد نام على الأريكة، والتزم كلّ منهما بالمسافة التي تفصل بينهما، متساكنين في هدوء لمدّة ثلاثة

أيّام. تعاملت معه روبن ببرودة جليديّة. أمّا هو فأظهر نحوها لياقة تكاد تثير السخرية أحيانًا. فما تكاد تنتهي من شرب الشاي حتّى يسارع إلى رفع فنجانها. وصباح يوم الخميس، بلغت به الحماسة أن سألها عن أخبار عملها.

– أوه! أرجوك! قالت له باقتضاب، وهي تمرّ أمامه خارجة من المنزل.

إفترضت روبن أنّ عائلته نصحته بألّا يضغط عليها. لم يتناقشا كيفيّة الإعلان عن إلغاء حفلة الزفاف للمدعوّين. من الواضح أنّ ماثيو لم يكن يرغب في التطرّق إلى الموضوع. أمّا روبن فلم تجد الشجاعة لتفعل ذلك. وكانت تتساءل أحيانًا عمّا إذا كان هذا الجبن علامة على أنّها تتمنّى في أعماقها أن تعيد خاتم الخطوبة إلى إصبعها. وأحيانًا أخرى تعزو ضعفها إلى الإرهاق. فلا شكّ بأنّ هذه المجابهة ستكون أسوأ بكثير من الشجارات السابقة، وكانت بحاجة إلى كلّ قواها لتحقيق القطيعة النهائيّة. برغم أنّها لم تشجّع أمّها على القدوم، فقد كانت تتمنّى، حتّى بدون أن تعترف لنفسها بذلك، أن تأتي ليندا وتقدّم إليها المساعدة والمواساة في المهمّة الشاقّة الي تنتظرها.

كانت الورود فوق مكتبها تذبل بهدوء. لم يتكبّد أحد عناء وضعها في الماء فأدركها الجفاف تحت غلاف السيلوفان. لكنّ روبن ليست في المكتب لترميها، أمّا سترايك الذي كان يأتي إلى المكتب بين الفينة والأخرى ليأخذ حاجياته منه، فلم يشعر أنّ له الحقّ بذلك. كذلك لم يلمس البطاقة التي بقيت في ظرفها المختوم.

بعد أسبوع من العمل معًا، باتا لا يلتقيان إلّا حين يأتي أحدهما للحلول محلّ الآخر في مراقبة بلاتينوم و«الأب المجنون»، الذي ما إن عاد من أميركا حتى استأنف ملاحقة ولديه. بعد ظهر يوم الخميس، تناقشا هاتفيًّا في أمر نويل بروكبانك. لم يكن هذا الأخير قد أعاد الاتصال، وتساءلا عمّا إذا كان على روبن محاولة الاتصال به من جديد. بعد التفكير قرّر سترايك أن على فينيشيا هول، المحامية ذات المشاغل الكبيرة، الاهتمام بأمور أخرى.

– إذا لم يتصل بك غدًا، أعيدي المحاولة. سيكون أسبوع بالتمام قد انقضى على اتصالك. ومن المحتمل طبعًا أن شريكته ربما أضاعت رقمك.

بعدما أنهى سترايك المكالمة، عادت روبن إلى السير في شارع إيدج، في كنزنغتون، حيث تعيش عائلة «الأب المجنون». لم يكن التنزّه في ذلك الحيّ الراقي يساهم في رفع معنوياتها قطّ. كانت قد بدأت بالبحث عن مسكن لها عبر الإنترنت. لكنّ المساكن التي يمكنها استئجارها بالراتب الذي يدفعه سترايك لها كانت أسوأ ممّا تخشاه حتّى. الواقع أنّ عليها أن تكتفي بأن تتشارك السكن مع شخص آخر.

كانت المنازل الفكتورية الطراز التي تحيط بها ذات مداخل تتألّق جمالًا، وواجهات مزيّنة بنباتات معترشة جميلة، وأوعية زهور موضوعة أمام نوافذها البيضاء. ذكّرتها تلك المنازل بحياة الرخاء التي طمح إليها ماثيو حين بدت روبن مستعدة لممارسة مهنة ذات مردود أكبر. لكنّها قالت له منذ البداية إنّ المال لا يهمّها، أقلّه ليس بالقدر الذي يهمّه. كان ذلك صحيحًا، لكنّ أيّ إنسان عاقل لا يسعه، وهو يسير أمام هذه المساكن البورجوازيّة الجميلة، إلّا أن يقارن بينها وبين الحجرة الصغيرة التي تنتظرها في مكان ما. والأرجح أنّ تلك الغرفة ستكون في منزل عائلة تمتنع عن أكل اللحم بشكل صارم، وحيث استعمال الهاتف الخلويّ ممنوع في أقسام المنزل المشتركة، أو لعلّها حجرة ضيّقة جدًّا متوفّرة في هاكني لدى «عائلة ودودة ومتسامحة، مستعدّة لاستقبالكم في منزلها».

رنّ هاتفها المحمول من جديد. أخرجته من جيبها وهي تنتظر ظهور اسم سترايك على الشاشة. لكنّها أحسّت بانقباض في معدتها حين قرأت بروكبانك. فأخذت نفسًا طويلًا قبل أن تجيب:

– فينيشيا هول.

– هل أنت المحامية؟

أيّ صوت كانت تنتظره؟ يستحيل الجزم بذلك بعدما رسمت لذلك الرجل صورة وحشيّة في مخيّلتها: مغتصب أطفال، ووغد ذو ذقن معقوفة يحمل زجاجة مكسورة، ومحتال يتظاهر بإصابته بفقدان الذاكرة، وفقًا لسترايك. كان صوته عميقًا، ولكنته تشير إلى أنّه يأتي من بارو، برغم أنّها كانت أقلّ وضوحًا من لكنة شقيقته.

– نعم، قالت روبن. أنت السيّد بروكبانك كما أفترض؟

– نعم. أنا هو.

ثمّ صمت. كان صمته مخيفًا. سارعت روبن إلى إخباره بالتعويض الذي قد يناله إذا وافق على لقائها للتحادث. صمت مجدّدًا. لكنّ روبن لبثت هذه المرّة تنتظر ردّه. كانت فينيشيا هول امرأة واثقة بنفسها وتستطيع أن تتحمّل الصمت في محادثة هاتفية. ومع ذلك كان سماع صمت يشوبه حفيف على الخطّ أمرًا مثيرًا للاضطراب.

– كيف علمت بقضيّتي؟

– وقعنا على ملفّك فيما كنّا نحقق في...

– ما هو هذا التحقيق؟

لماذا شعرت بأنّها في خطر؟ لم يكن ذلك الرجل قريبًا منها، ومع ذلك وجدت نفسها تنظر من حولها متوتّرة الأعصاب. كان الطريق المسدود حيث تقف، والذي ينتهي بمدرسة، خاليًا تمامًا.

– تحقيق بشأن الجنود الذين تعرّضوا للإصابات خارج إطار القتال، قالت وهي ترجو ألّا يخرج صوتها حادًّا.

ساد صمت جديد. ظهرت عند بداية الشارع سيّارة واقتربت منها.

– تبًّا، قالت روبن في سرها.

لم يكن سائق السيّارة سوى ربّ العائلة المهووس المكلّفة بمراقبته. لعلّه رأى وجهها حين التفتت نحو السيّارة. خفضت روبن رأسها وسارت مبتعدة ببطء عن المدرسة.

– إذًا، ماذا عليّ أن أفعل؟ سألها بروكبانك.

– هل يمكننا أن نتقابل للحديث قليلًا في قصّتك؟ أجابته روبن وقلبها يخفق بشدّة لدرجة أنّها أحسّت بألم في صدرها.

– ظننتك تعرفين قصتي، ردّ بروكبانك بنبرة أثارت فيها القشعريرة. ذلك اللعين كامرون سترايك سبّب لي أذى في الدماغ.

– نعم، هذا ما قرأته في ملفّك، قالت روبن وهي تحاول استعادة هدوء أنفاسها. لكنّني بحاجة ماسّة إلى إفادتك.

– إفادتي؟

تلت ذلك برهة صمت لم تكن تبشّر بالخير.

– هل أنت «باردو»؟

كانت روبن إيلاكوت من شمال إنكلترا، وتعرف أنّ أهالي كامبريا يطلقون على أفراد الشرطة تسمية «باردو»، لكنّ فينيشيا هول اللندنية لا يمكنها أن تفهم تلك العبارة.

– ماذا... عفوًا؟ قالت محاولة أن تبدو محتارة.

أوقف «الأب المجنون» سيّارته أمام منزل زوجته السابقة. قد يخرج ولداه مع مربيتهما في أي لحظة قاصدين منزل رفيقهما للّعب معه. كان على روبن أن تصوّر أيّة محاولة من الوالد للاقتراب منهما. إنّها في مهمة تعود على مكتبهما بالمال، ويجب أن تبدأ بتصوير «الأب المجنون».

– شرطية، قال بروكبانك.

– شرطية؟ قالت بضحكة تعجّب. طبعًا لا.

– أنت واثقة؟

فُتح باب المنزل، شاهدت روبن شعر المربية الأصهب، وسمعت صوت باب سيارة «الأب المجنون».

– ما الداعي إلى هذا السؤال؟ قالت متظاهرة الشعور بالإهانة. إذا لم يكن عرضي يثير اهتمامك...

ملأ العرق المتصبب من يديها ووجهها شاشة هاتفها المحمول. كانت تنتظر كل شيء، إلّا أن يجيبها:

– حسنًا، لنلتقِ.

– ممتاز، قالت روبن وهي تنظر إلى المربية ترافق الصبيين على الرصيف. أين تسكن؟

– في شورديتش.

خفق قلب روبن بقوة. لقد كان في لندن.

– حسنًا، أين يمكننا أن...؟

– ما هذا الضجيج؟

كانت المربية ترفع صوتها في وجه «الأب المجنون» الذي يقترب منها ومن الولدين. فبدأ أحدهما يبكي بصوت مرتفع.

– اليوم دوري في إحضار ابني من المدرسة، قالت روبن بصوت مرتفع ليسمعها برغم الصراخ والبكاء.

تكرر الصمت على طرف الخط. كانت فينيشيا هول الحقيقيّة لتندفع إلى الكلام أكثر، أمّا روبن فقد بقيت مسمّرة في مكانها، وقد استبدّت بها نوبة ذعر بدت لها عبثيّة.

في تلك اللحظة سمعت صوت بروكبانك، وكان أشدّ إثارة للرعب من كلّ ما سمعته في حياتها. لعلّ ذلك لأنّه لم يتكلّم، بل سألها بصوت كالهمس حتى كادت تحسّ بلهاثه كالفحيح في تجويف أذنها:

– هل أعرفك يا صغيرة؟

أخرس الذهول روبن. وانقطع الاتصال.

33

Then the door was open and the wind appeared[1]...

Blue Öyster Cult, '(Don't Fear) The Reaper'

– أخفقتُ مع بروكبانك، قالت روبن. أنا حقًّا آسفة. أجهل كيف استطعت أن أخطئ بهذا الشكل؟! كما أنّ «الأب المجنون» كان قريبًا جدًّا منّي فلم أستطع تصويره.

عند تمام التاسعة من صباح يوم الجمعة، وصل سترايك إلى المكتب. لم يكن قد أمضى الليل في منزله الكائن فوق المكتب، لأنّه كان يأتي من جهة الشارع، مرتديًا سترة وحاملًا حقيبة ظهره الاعتيادية. سمعته روبن يدندن بأغنية وهو يصعد الدرج. لقد نام في منزل إلين. كانت روبن قد اتصلت به مساء لتخبره عن محادثتها مع بروكبانك، لكنّ سترايك لم يستطع أن يصغي إليها أكثر من دقيقتين، قائلًا إنّ لديهما متسعًا من الوقت للحديث في اليوم التالي.

– بالنسبة إلى «الأب المجنون»، الأمر يحتمل التأجيل، قال لها وهو يملأ الغلاّية الكهربائيّة ماءً. كما أنّك قمت بعمل جيّد مع بروكبانك. بتنا نعرف الآن أنّه يقيم في شورديتش، وأنّه لم ينسني وأنّه يشتبه في كونك شرطيّة.

[1] آنذاك فُتح الباب وظهرت الريح...

ولكن، هل يخشى الشرطة لأنّ له ماضيًا في التحرّش بالأطفال في كلّ مكان، أم لأنّه قام مؤخرًا بقتل مراهقة وتقطيع جثّتها إلى أشلاء؟

كانت روبن متوتّرة الأعصاب جدًّا منذ أن سمعت فحيح بروكبانك في أذنها. وأمضت الأمسية كلّها من دون أن تتبادل وماثيو كلمة واحدة. لم يكن لديها من تُسرّ له بارتباكها. وزاد من شعورها بالإزعاج أنّها لم تستطع أن تجد تفسيرًا لما تشعر به. إنتظرت الصباح بفارغ الصبر حتّى تروي كل شيء لسترايك، على أمل أن يساعدها على تفسير تلك العبارة الصغيرة التي أرعبتها كثيرًا: هل أعرفك يا صغيرة؟

كانت تفضل أن ترى في سترايك ذلك الرجل المهموم الذي نصحها بعدم الخروج من منزلها بعد مغيب الشمس، والذي أخذ على محمل الجدّ وصول الطرد المروّع. لكنّ سترايك كان يومذاك مرحًا مطروبًا. راح يعدّ القهوة وهو يتكلّم عن إساءة معاملة الأطفال وكأنه يتحدّث عن أحوال الطقس. كيف يستطيع أن يطمئنها فيما هو لا يعرف أبدًا ما شعرت به وهي تسمع صوت بروكبانك عبر الهاتف؟

– نعرف أمرًا آخر يتعلّق به، قالت بصوت متوتّر. إنّه يسكن مع طفلة.

– لسنا أكيدين من أنّها يسكن معها. لعله نسي هاتفه في مكان ما.

– ممتاز، قالت روبن وهي تشعر بمزيد من القمع. إذا كنت مصرًّا على الخوض في التفاصيل التافهة، نحن نعرف أنّ في محيطه الضيّق طفلة.

ثمّ حولت نظرها عنه متظاهرة بأنّها تفرز الرسائل التي وجدتها عند مدخل المكتب حين وصلت. كان سماعه يصل مغنيًّا قد أثار غضبها. لا بدّ من أنّه استفاد من الأمسية التي قضاها مع إلين ليتسلّى ويريح أعصابه ويستعيد قواه. كانت روبن أيضًا بحاجة إلى شيء من الراحة. لكنّها كانت تمضي نهاراتها في مراقبة كلّ ما يتحرّك حولها، وأمسياتها في ضجر يشبه الموت في برد شقّتها الجليديّ. كانت تدرك أنّ اجترارها أساها وحزنها على هذا النحو خطأ، لكنّ الأمر كان أقوى منها. أمسكت الورود الذبلانة فوق مكتبها وألقتها بحركة واحدة في سلّة المهملات.

– لا يمكننا أن نفعل شيئًا لأجل تلك الطفلة، قال سترايك.

سرت في جسدها ارتجافة غضب.

– حسنًا، في هذه الحال، ما من داع لأقلق عليها، أجابت روبن.

من شدّة انفعالها تمزّقت إحدى الفواتير وهي تحاول إخراجها من ظرفها.

– ألعلّك تظنّين أنّ حالة تلك الطفلة هي الوحيدة؟ في لندن وحدها مئات الأطفال الذين يعيشون الآن في خطر التعرّض إلى اعتداء أحد المنحرفين.

كانت روبن تعتقد أنّ سترايك سيبادر إلى تهدئة الجوّ، بعدما سمعها تعبّر عن غضبها. لكنّها التفتت إليه مدهوشة، فرأته يراقبها بإمعان بدون أيّ تعاطف.

– هيّا، اقلقي! أهدري وقتك وطاقتك. لا أنا ولا أنت يمكننا أن نفعل شيئًا لأجل تلك الطفلة. لا سجلّ لبروكبانك، فهو لم يُدن قطّ. نجهل حتّى أين تسكن وما...

– تدعى زهرة، قالت روبن.

كانت تعرّض نفسها للسخرية. بدا صوتها كبحّة عصفور مخنوق، وامتقع لون وجهها، وأدمعت عيناها. شيئًا فشيئًا أشاحت بنظرها بعيدًا.

– دعك، قال سترايك بلطف.

غير أنّ روبن رفعت يدها لتلزمه بالصمت. لم تكن تريد أن تصل إلى الانهيار. وإذا كانت صامدة، ففقط بفضل المثابرة والجدّية اللتين تبرهن عليهما في عملها.

– لا بأس، قالت وهي تكزّ بأسنانها. أؤكّد لك. إنسَ الأمر.

بات صعبًا عليها أن تعترف لسترايك كم أثارت اضطرابها عبارة بروكبانك. نعتها بالصغيرة. لكنّها لم تكن صغيرة، وهي لا تشبه الفتيات المرتعبات في شيء، خصوصًا اليوم. لكنّ زهرة في المقابل...

سمعت صوت سترايك يخرج من الغرفة، ليعود بعد قليل ويضع أمام عينيها المضطربتين عددًا من الفوط الورقية.

– شكرًا، قالت بصوت مكتوم، ثمّ أخذت بعض تلك الفوط وتمخطت فيها.

تلت ذلك دقائق صمت قضتها روبن في تجفيف دموعها، والتمخط، متجنبة النظر إلى سترايك، الذي لم يذهب إلى مكتبه، بل بقي واقفًا بالقرب منها.

– ماذا؟ صاحت روبن وقد عاد إليها الشعور بالغضب من سترايك الذي كان يتفرّس بها بدون أن يقول شيئًا.

إبتسم ابتسامة عريضة، فشعرت برغبة مفاجئة في الضحك.

– هل ستبقى هنا كلّ الصباح؟ سألته وهي تتظاهر بأنها تريد توبيخه.

– لا، قال سترايك بدون أن تفارق الابتسامة شفتيه. كان لديّ أمر أريد أن أريك إيّاه.

فتش في حقيبة ظهره وأخرج مطوية إعلانية لمكتب سمسار عقاريّ مطبوعة على ورق لمّاع.

– أعطتني إلين هذه المطوية، قال لها. ذهبت أمس إلى السمسار العقاري، وهي تفكّر في شراء شقّة في المبنى.

فقدت روبن كلّ رغبة في الضحك. أهكذا يأمل أن يرفع من معنويّاتها؟ بأن يخبرها أنّ صديقته تفكّر في شراء شقّة باهظة الثمن؟ أم أنّها طريقة ملتوية ليعلن لها أنّه سينتقل للسكن معها؟ شعرت في تلك اللحظة بأنّ معنوياتها المترنحة على وشك أن تنهار بصورة نهائية. مرت أمام عينيها عدّة صور مفزعة في برهة واحدة. فرأت شقّة سترايك خالية من محتواها، وسترايك مستمتعًا في حياة الرخاء، بينما هي في غرفة ضيقة في مبنى على أطراف لندن، تتكلم في هاتفها المحمول همسًا لئلاّ تزعج مؤجرّتها التي لا تأكل اللحم أبدًا.

ألقى سترايك المطوية الإعلانية على مكتب روبن. ظهرت على الغلاف صورة برج ضخم حديث جدًّا، وعلى قمته سطح منحنٍ على شكل ترس مزود بثلاثة مراوح لتوليد الطاقة الهوائية تبدو كالعيون. وكُتب تحت الصورة «ستراتا ساوث إند 1 المبنى السكني المرغوب جدًّا في لندن».

– أترين؟ سالها سترايك.

كان تعبير الانتصار الذي ظهر على وجهه يثير حفيظتها بشدّة. خصوصًا وأنّ سترايك ليس من الأشخاص الذين يغتبطون لفكرة الاستفادة من مال الآخرين. وكانت تستعدّ للردّ حين سمعت قرعًا على الباب.

– رباه! قال سترايك، وقد فوجئ برؤية شانكر عند الباب. دخل هذا الأخير مفرقعًا بأصابعه، تتبعه رائحة جسده، المؤلّفة من خليط من التبغ والقنّب والقذارة.

– كنت مارًّا من هنا، قال، بدون أن يعلم أنّه يستعيد كلمات إريك واردل. وجدتُه يا بانسن.

إرتمى شانكر جالسًا على الأريكة، مباعدًا بين ساقيه، وأخرج علبة سجائر مايفير.

– هل عثرت على ويتايكر؟ صاح سترايك مدهوشًا لرؤية شانكر مستيقظًا في مثل هذه الساعة المبكرة.

– هل طلبت مني العثور على شخص آخر؟ رد شانكر وهو يأخذ نفسًا من سيجارته بقوّة، مزهوًّا بالتأثير الذي أحدثه في نفسَي سترايك وروبن. إنه يسكن في شقة فوق مطعم لبيع البطاطا المقلية بقرب مسرح كاتفورد برودواي، وتقيم معه عاهرة.

مدّ شانكر يده لمصافحة سترايك، مبتسمًا. ولولا سنّه الذهبيّة والندبة التي لوت شفته العليا، لبدت ابتسامته طفولية.

هل تريد فنجان قهوة؟ سأله سترايك.

– نعم، هات، قال شانكر الذي بدا على وشك الاحتفال بنجاحه. ثمّ سأل روبن بنبرة مرحة: هل أنت بخير؟

– نعم شكرًا، أجابته بابتسامة صغيرة تعبّر عن الضيق. ثمّ عادت إلى العمل على رسائلها.

– هبّت رياحنا، همس لها سترايك فيما بدأت الغلاية تصفر، وانهمك شانكر بقراءة رسائله الهاتفية وهو يدخّن. الثلاثة في لندن. ويتايكر في كاتفورد، وبروكبانك في شورديتش، وقد علمنا مؤخّرًا أنّ لاينغ يقيم في مكان قريب من إليفانت أند كاسل، أو أنه كان هناك منذ ثلاثة أشهر.

هزّت رأسها موافقة قبل أن تسأله:

– ما أدرانا بأن لاينغ في إليفانت أند كاسل؟

نقر سترايك بأصابعه مطوية الإعلان العقاريّ فوق مكتب روبن.

– لماذا تظنينني جئتك بهذا الإعلان؟

عقد الذهول لسان روبن. حملقت لعدّة ثوان في صورة ستراتا ساوث إند 1، على غلاف الإعلان. وشيئًا فشيئًا بدأت الأمور تتّضح لها: شاهدت في الصورة صفائح معدنيّة فضيّة، ونوافذ غامقة، الواحدة فوق الأخرى، ترسم خطوطًا متكسّرة على واجهة المبنى التي بدت مقوّسة نحو الداخل. إنّه المبنى الذي شاهداه خلف الشرفة الإسمنتية حيث وقف لاينغ، في الصورة.

– أوه. قالت متنهّدة.

إذًا، فسترايك لا ينتقل للسكن مع إلين. شعرت روبن بخدّيها يحمرّان، لكنّها لم تعرف السبب. لم تعد قادرة أبدًا على السيطرة على انفعالاتها، ومن الواضح أنّ عقلها مشوّش. إستدارت بكرسيّ مكتبها لتعود إلى فرز الرسائل، وإخفاء وجهها في الوقت عينه.

– أجهل إن كنت أحمل ما يكفي من المال لأدفع لك يا شانكر، قال سترايك وهو يفتح محفظته.

– لا بأس يا بانسن، قال شانكر وهو ينحني ليرمي رماد سيجارته في سلّة مهملات روبن. إذا أردت مساعدتي على العثور على ويتايكر، تعرف أين تجدني.

– شكرًا. أظنّني سأتدبّر أمري.

أمسكت روبن بآخر ظرف في كومة الرسائل. كان قاسيًا ومنتفخًا في إحدى زواياه، وكأنّ فيه بطاقة سميكة أوثِقت إليها لعبة صغيرة ما. كانت روبن على وشك أن تفتحها حين رأت أنّها مرسلة إليها. وفي الحال توقّفت، وتفحّصت الرسالة. كان اسمها وعنوان المكتب مطبوعين بالآلة الكاتبة، وأشار الختم إلى أنّها أرسِلت في اليوم السابق من أحد مكاتب البريد في وسط لندن.

تناهى إليها صوتا سترايك وشانكر يعلوان ثمّ يهبطان، لكنّها لم تفهم شيئًا ممّا يقولانه.

ليس في الأمر شيء، قالت لنفسها. أنت فقط متوتّرة الأعصاب. لا يمكن للأمر أن يحدث من جديد.

بلعت ريقها، وفتحت الظرف وأخرجت منه البطاقة.

كانت عليها صورة لإحدى لوحات جاك فيتريانو يظهر فيها رسم جانبيّ لامرأة تجلس على كرسيّ مغطّى بشرشف أبيض. وتحمل بيدها فنجان قهوة، وساقاها النحيلتان في الجوربين الأسودين الطويلين، واللتان تنتهيان بحذاءين أسودين أنيقين، تستريحان الواحدة فوق الأخرى على طاولة واطئة. لم يوثق إلى البطاقة أي شيء، فالشيء الذي أحسّت به كان ملصقًا بداخلها بشريط لاصق.

كان حديث سترايك وشانكر لا يزال متواصلًا. إنبعثت رائحة كريهة إلى أنفها غطّت على رائحة شانكر التي لا تفارقه أينما حلّ.

– ربّاه، همست.

لم يسمعها أحد. قلبت البطاقة.

كان إصبع قدم متفسّخ ملصقًا إلى البطاقة، ومعه هذه الكلمات المطبوعة:

She's as beautiful as a foot هي جميلة مثل قدم.

سقطت البطاقة من يدها. نهضت روبن واتجهت نحو سترايك، كانت تسير كما في مشهد سينمائيّ يتقدّم بصورة بطيئة. شاهد سترايك في البداية وجهها المرتعب، ثمّ وقع نظره على الشيء المروّع فوق المكتب.

– إبتعدي عن هذا الشيء.

أطاعته وهي ترتعد، وقلبها يكاد يخرج من بين أضلعها. كانت تفضّل ألّا يشاهد شانكر هذا الأمر.

– ماذا؟ ماذا؟ أخذ شانكر يسأل بدون توقّف. ما الأمر؟ ماذا؟

بذلت روبن جهدًا لتخرج منها هذه الكلمات، بصوت لا يشبه صوتها أبدًا:

– أحدهم أرسل إصبع قدم مقطوعًا، ومعه كلمة تقول «هي جميلة مثل قدم».

– لا، أنت تهذين، قال لها شانكر وهو يقترب منها بدافع الفضول.

وثب سترايك ليمنعه من أن يلمس البطاقة، التي لا تزال حيث وضعتها روبن. كان يعرف تلك العبارة. She's as beautiful as a foot هي جميلة مثل قدم. إنّه أيضًا أحد عناوين أغنيات فرقة Blue Öyster Cult.

– سأتّصل بواردل، قال سترايك.

ولكنّه، وبدلًا من أن يأخذ هاتفه المحمول، كتب على وريقة رمزًا من أربعة أرقام وأخذ بطاقة اعتماده من محفظته، قائلًا:

– إذهبي واسحبي المال لشانكر، وعودي حالًا.

أخذت الوريقة وبطاقة الاعتماد، وهي تشعر بارتياح غريب لفكرة خروجها إلى حيث تستطيع أن تتنفّس.

– وأنت يا شانكر، قال سترايك بلهجة الأمر فيما وصل وصديقه إلى الباب الزجاجيّ، سترافقها وتعيدها إلى هنا. هل اتفقنا؟ عليك أن تعيدها إلى المكتب.

– بالطبع يا بانسن، أجاب شانكر الذي تثيره دائمًا الألغاز والأخطار والعمل الجدّي.

34

The lies don't count, the whispers do[1].

Blue Öyster Cult, 'The Vigil'

في ذلك المساء جلس سترايك إلى طاولة المطبخ في عليّته، على كرسيّ غير مريح. وبعدما أمضى ساعات طويلة في ملاحقة «الأب المجنون» الذي لحق بابنه الثاني إلى متحف التاريخ الطبيعيّ، أحسّ بألم شديد في ركبة ساقه المقطوعة. كان ذلك الرجل يمضي معظم أوقاته في ملاحقة ولديه وإزعاجهما. ولو كان موظّفًا يعمل في إحدى الشركات لطُرد منذ زمن بعيد. من جهة أخرى، لم يتولّ أحد مراقبة بلاتينوم أو تصويرها اليوم. أبلغت روبن سترايك أنّ والدتها ستأتي في المساء لرؤيتها، فأجبرها على أخذ إجازة ثلاثة أيّام، برغم اعتراضاتها. حتّى أنه رافقها إلى محطّة المترو، وهو يشدّد لها على ضرورة أن تبعث إليه برسالة نصية حالما تصل إلى منزلها.

كان سترايك يشعر بنعاس شديد، غير أنّه لم يرغب في النهوض ليخلد إلى النوم. بذل جهدًا ليخفي عن شريكته الاضطراب الشديد الذي شعر به منذ وصول الطرد الثاني. لا شكّ بأنّ اكتشاف الساق في المرّة الأولى جعله يشعر بالصدمة. لكنّه أدرك خطأه في التمسّك بالأمل الواهن بأنّ القاتل تعمّد

[1] الأكاذيب غير مهمّة، أمّا الهمسات فبلى.

كتابة اسم روبن على الملصق الثاني بهدف استفزازه هو. ففي الطرد الثاني، واصل القاتل الإشارة إليه بطريقة غير مباشرة، بقوله هي جميلة مثل قدم، ومع ذلك فمن الواضح أنّ روبن هي المستهدفة. وحتّى اسم لوحة الشقراء ذات الساقين الجميلتين، والمكتوب على البطاقة، أي «أفكّر فيك»، جاء لتأكيد مخاوفه.

لبث سترايك جامدًا خلف طاولته، يشعر بغضب شديد أنساه حتّى تعبه. تذكّر وجه روبن الشاحب. وشاهد بأمّ العين تلاشي آخر آمالها أمامها حين تأكّدت من أنّ الساق كانت مرسلة إليها. ومع ذلك، وبرغم خوفها، رفضت الإجازة بشدّة، بحجّة أنّه لا يزال بحاجة إليها لاستكمال المهمّتين الوحيدتين اللتين تعودان عليهما بالمال. كان على سترايك أن يختار بين ملاحقة بلاتينوم أو ملاحقة «الأب المجنون». لكنّه كان عنيدًا في قراره عدم السماح لها باستئناف العمل إلّا بعد عودة أمّها إلى يوركشاير.

نجح القاتل الذي يطاردهما في إبعاد كلّ زبائنهما إلّا اثنين. رأى سترايك أفراد الشرطة يأتون إلى المكتب للمرّة الثانية، وخشي أن تعلم الصحافة بأمر الأحداث الأخيرة، حتّى ولو وعده واردل بالتكتّم، علمًا أنّ أوّل ما يسعى إليه القاتل هو القضاء على سمعة سترايك، وأنّ إبلاغ الصحافة بما جرى يعني الدخول في لعبته.

دوّى في المطبخ رنين جرس هاتفه المحمول. نظر سترايك إلى ساعته فرأى أنّها العاشرة والثلث. ولم يلاحظ من فرط قلقه على روبن الاسم الذي ظهر على الشاشة.

– خبر سارّ، بادره واردل في الحال، إذا جاز لنا أن نسمّيه سارًّا. لم يقتل أحدًا آخر. الإصبع لكيلسي، من قدمها الأخرى. معه لا يضيع شيء، أليس كذلك؟

لم يكن سترايك في مزاج يسمح له بالمزاح، فانتهت المكالمة بسرعة. لم يغادر طاولته، وعاد إلى أفكاره وسط الضجيج المتواصل لحركة السيارات في طريق شايرينغ كروس. وأخيرًا تذكّر أنّ لديه موعدًا في الغد مع أخت

كيلسي في فينشلي، فوجد في نفسه القوّة لكي ينزع ساقه الاصطناعيّة، وكان ذلك أمرًا مؤلمًا في كلّ مرة. ثمّ أوى إلى سريره.

بفضل أمّه التي عاشت حياة تنقّل دائمة، كان سترايك يعرف كلّ زاوية في لندن، تقريبًا. لكنّ فينشلي كانت استثناء. كلّ ما يعرفه عنها أنّها الدائرة الانتخابية القديمة لمارغريت تاتشر، في ثمانينيات القرن الماضي، حين كان يتنقّل مع ليدا ولوسي من مبنى مهجور إلى آخر بين وايتشابل وبريكستون. لم تكن فينشلي فقط منطقة بعيدة جدًا عن عالم عائلة لا تتنقّل إلّا بواسطة وسائل النقل المشترك، ولا تأكل إلّا الأطعمة المعلّبة، بل كانت كذلك باهظة جدًّا بالنسبة إلى امرأة غالبًا ما كانت لا تجد مالًا يكفي لتشغيل عدّاد الكهرباء. باختصار، كان ذلك أحد الأحياء حيث تعيش العائلات الحقيقيّة، كما كانت لوسي لتقول آنذاك بنبرة أسى. بزواجها من عالم رياضيّات أنجبت منه ثلاثة أبناء نموذجيّين، حقّقت لوسي أحلام طفولتها، التي تتلخّص بثلاث كلمات: النظافة والنظام والأمان.

ترجّل سترايك من المترو في وست فينشلي، وأكمل بقيّة المسافة سيرًا عوضًا عن أن يستقلّ سيّارة تاكسي، لأنّ وضعه المالي كان في أسوأ حالاته. كانت المسافة الباقية حتى سامرز لاين طويلة، وكان الطقس دافئًا، فتصبب منه العرق قليلًا. إجتاز منطقة من المنازل المستقلة وسط حدائقها، مارًّا من شارع إلى آخر وهو يلعن هدوء هذا الشارع المزيّن بالحدائق والخالي من أيّ معلم للاستدلال. أخيرًا وبعدما بحث نصف ساعة، عثر على منزل كيلسي بلات. كان أصغر من معظم المنازل القريبة، وله جدران مدهونة بالكلس وبوّابة من الحديد المشغول.

ما إن رنّ الجرس حتى سمع أصواتًا من خلف باب المنزل الزجاجيّ غير المصقول، والشبيه بباب مكتبه.

– أعتقد أنّه المحقّق يا عزيزتي، قال رجل بلكنة شمال شرق إنكلترا.

– أنت على حقّ، أجابه صوت حادّ.

ثمّ ظهرت خلف الباب بقعة حمراء كبيرة، وفتح له رجل ملأ حجمه مدخل المنزل كلّه تقريبًا. كان يسير حافي القدمين، مرتديًا مبذل حمّام

أحمر اللون. برغم أنّه كان أصلع، فقد بدا بلحيته الرماديّة الكثّة ومبذله شبيهًا بسانتا كلوز. ما كان ينقصه سوى الوجه الطافح سرورًا. كان يمسح وجهه بكمّ مبذله بعصبية. وبالكاد بدت عيناه خلف نظارته من شدّة انتفاخ جفنيه، فيما كان خدّاه الشديدا الحمرة يلتمعان بالدموع.

– آسف، تمتم وهو يبتعد ليسمح لسترايك بالدخول. ثمّ أضاف مبرّرًا ملابسه: أنا أعمل ليلًا.

حين مرّ سترايك أمامه، شمّ رائحة كافور ممزوجة بعطر أولد سبايس. ثمّ شاهد امرأتين متوسّطتي العمر، الأولى شقراء والثانية سمراء، تقفان متعانقتين وهما تبكيان عند أسفل الدرج. حالما رأتاه ابتعدتا وكلّ منهما تمسح دموعها.

– آسفة، قالت السمراء بصوت متقطع. شيريل جارتنا. لقد كانت في إجازة في ماغالوف، ولم تعرف بموت كيلسي إلّا منذ قليل.

– آسفة، قالت شيريل وهي تمسح عينيها المحمرّتين بالدموع. سأتركك يا هايزل. إذا كنت بحاجة إلى أيّ شيء... أتسمعني يا راي؟ إلى أيّ شيء على الإطلاق.

– آسفة، قالت شيريل وهي تمرّ أمام سترايك محاذرة الارتطام به. ثمّ اقتربت من راي وعانقته. لبثا متعانقين لبرهة، وكرشاهما الضخمان متلاصقان. شهق راي بالبكاء وهو يخفي وجهه في كتف جارته المكتنز لحمًا.

كانت هايزل ذات خدّين مستديرين وذقن معقوفة وأنف ممتلئ، وتشبه الفلاّحات في لوحات بروغل، وفوق عينيها المنتفختين حاجبان كثيفان مقوّسان. دلّته بإحدى يديها إلى غرفة الاستقبال، فيما كانت تمسح عينيها باليد الأخرى، وقالت له بصوت خنقته الدموع:

– أدخل. نحن على هذه الحال منذ بداية الأسبوع، والناس يتوافدون إلينا حالما يعلمون بالخبر. أنا آسفة.

كانت تلك المّرة الخامسة أو السادسة، في دقيقتين، التي يسمع فيها سترايك عبارة آسف أو آسفة. لعلّ العادات كانت لتختلف في مكان آخر،

ولربّما شعر الناس بالخجل من عدم البكاء. أمّا هنا، في ضاحية فينشلي الهادئة هذه، فقد كانوا يخجلون من البكاء أمامه.

– إنّهم لا يعرفون ما يجب أن يقولوا، قالت هايزل هامسة وهي تدلّه إلى الكنبة. الأمر يختلف عن الموت دهسًا بسيّارة، أو بسبب المرض. الناس لا يجدون الكلمات حين يكون أحدهم قد... تردّدت قبل أن تعدل عن قول الكلمة، لتنهي عبارتها بانتحابة طويلة.

– آسف، قال سترايك بدوره، أعرف أنكم تمرون بتجربة قاسية جدًا.

كانت غرفة الاستقبال البالغة الترتيب تفتقر إلى الدفء، ربّما بسبب الألوان التي اختيرت لها: فالكنبة والأريكتان ذات قماش فضيّ مقلّم، وورق الجدران أبيض تخالطه أشرطة رماديّة دقيقة. رُتبت وسائد الأرائك على زواياها، ووُضعت القطع الفنية بصورة متماثلة فوق رفّ الموقدة. أمّا شاشة التلفزيون التي كانت تلمع في الضوء الداخل إلى الغرفة عبر النافذة فلم يكن عليها ذرّة غبار واحدة.

لمح من خلف الستائر طيف شيريل تبتعد وهي تمسح عينيها. مرّ راي متقوّس الظهر أمام باب غرفة الاستقبال وهو يجرّ قدميه جرًّا. وكان يمسح الدموع التي تعكّر صفاء نظّارته بحزام مبذله. ثمّ قالت هايزل شارحة، وكأنّها قرأت أفكار سترايك:

– كسر راي ظهره وهو يحاول إنقاذ عائلة عالقة في مبنى محترق. إنهار الجدار، وسقط السلّم الذي كان عليه. ثلاث طبقات.

– ربّاه، قال سترايك.

كانت شفتا هايزل ترتعشان، وكذلك يداها. تذكّر سترايك ما قاله له واردل حول خشونة أفراد الشرطة معها. فبالإضافة إلى الصدمة النفسيّة العنيفة التي تعرضت لها، عاملت الشرطة شريكها وكأنّه مجرم. كان تصرّفًا وحشيًّا، لا عذر له وبدون طائل. كان سترايك محقّقًا مخضرمًا ومطّلعًا على سلوك أفراد الشرطة في مثل هذه الحالات. فهم لا يراعون الناس في منازلهم ولا يكنّون أيّ احترام لمشاعر ألمهم.

– أيريد أحدكما البيرة؟ سأل راي بصوت مبحوح من المطبخ، كما ظنّ سترايك.

– إذهب للنوم، أجابته هايزل وهي تقبض على كتلة من المحارم الورقيّة المبلولة. سأتدبّر أمري. إذهب للنوم.

– هل أنت واثقة؟

– نعم. إذهب. سأوقظك عند الساعة الثالثة.

أخذت هايزل منديلًا ورقيًا نظيفًا ومرّرته على وجهها وكأنّه قطعة قطن لنزع التبرّج.

– لا يحبّ أن يتقدّم للحصول على تعويض إعاقة، لكنّه لا يجد عملًا يليق به، قالت بصوت هامس فيما مرّ راي أمام الباب وكأنّما لا حياة فيه، بسبب ظهره، وعمره، ورئتيه الضعيفتين. يمارس بضع وظائف في الخفاء عن مصلحة الضرائب، في الليل غالبًا...

لم تستطع إكمال الجملة. بدأت ذقنها ترتجف. وللمرّة الأولى نظرت في عيني سترايك.

– لا أعرف لماذا طلبت منك القدوم، قالت. أنا مرتبكة جدًّا. قالوا لي إنّها راسلتك لكنّك لم تردّ على رسائلها. وبعد ذلك أرسلوا إليك سا... سا...

– أتخيّل هول الصدمة بالنسبة إليك، تمتم سترايك، مدركًا أنّ ألم هايزل يتجاوز كلّ ما يمكنه التعبير عنه.

– نعم. كان الأمر فظيعًا، قالت وكأنّها في حالة ذهول. لم نكن على علم بشيء، ظننّاها في دورة تدريبيّة. حين أتى أفراد الشرطة... قالت كيلي إنّها مسافرة مع رفيقاتها في دورة تدريبية في إحدى المدارس، وأنا صدّقتها. بدا لي الأمر قابلًا للتصديق... لم أشكّ قطّ... لكنّ الكذب كان سهلًا جدًّا بالنسبة إليها. دائمًا. عاشت ثلاث سنوات هنا ولا أستطيع... أعني: لم أستطع منعها من الكذب.

– بأيّ شأن كانت تكذب؟ سألها سترايك.

– بكلّ شيء، قالت هايزل بحركة تعبّر عن الضيق. تكذب حتّى حين تقول في أي يوم من أيام الأسبوع نحن. وأحيانًا بدون أيّ سبب. لا أعرف السبب. لا أعرف.

– لماذا كانت تقيم في منزلك؟

– إنّها أختي من أمّي. مات أبي وكان لي من العمر عشرون عامًا. تزوّجت أمّي بزميل لها وأنجبت منه كيلسي. كان فرق العمر بيننا أربعة وعشرين عامًا، كما كنت قد غادرت المنزل. كنت خالة بالنسبة إليها، لا أختًا. منذ ثلاثة أعوام، تعرضت أمّي ومالكولم لحادث سيّارة في إسبانيا. صدمهما سائق ثمل. قُتل مالكولم على الفور، بقيت أمّي في غيبوبة لأربعة أيّام ثمّ فارقت الحياة أيضًا. لا أقارب لنا، فطلبت من كيلسي أن تسكن معنا.

تساءل سترايك كيف استطاعت مراهقة أن تجد لها مكانًا في مثل هذه البيئة الشديدة البرودة، وسط هذه الوسائد المرتّبة بعناية وهذه الغرف الخالية وذات النظافة المبالغ بها.

– لم أكن أتّفق وكيلسي، قالت هايزل وكأنّها تقرأ من جديد أفكار سترايك. عادت الدموع تنهمر من عينيها وهي تدلّ إلى الطابق الأعلى، حيث صعد راي لينام، وأضافت تقول: كان أكثر صبرًا منّي معها، حتّى حين كانت تنزوي حردانة أو تثير حفيظتنا. لديه ابن شابّ يعمل في الخارج، فكان يجيد التصرّف مع الصغار. أكثر منّي. ثمّ أتت الشرطة إلى هنا، أضافت بغضب فجأة لتخبرنا أنّها... بدأوا يستجوبون راي، وكأنّه... وكأنّه... هو الذي ما كان أبدًا... أبدًا... ما قلته له كان كالكابوس. كأولئك الأشخاص الذين نشاهدهم في التلفزيون يتوسّلون الخاطفين أن يعيدوا إليهم أبناءهم. كالأشخاص الذين يُحاكَمون على جرائم لم يرتكبوها. لا يمكنني أن أتخيّل لثانية واحدة... لم نكن حتّى على علم بأنّها اختفت. وإلّا لبحثنا عنها. لم نكن على علم بذلك. لكنّ أفراد الشرطة أخذوا يستجوبون راي، ولا أعرف ماذا أيضًا...

– أكّدوا لي إنّه خارج دائرة الشكّ، قال سترايك.

– نعم. في النهاية صدّقوه، قالت هايزل بصوت خنقته الدموع. أكّد لهم ثلاثة من رفاقه أنّه لم يفارقهم طوال نهاية الأسبوع التي قضوها معًا احتفالًا بتوديع عمر الشباب، ودعموا أقوالهم بالصور.

كانت هايزل تستغرب أن تُخضع الشرطة للاستجواب الصارم الرجل الذي شارك كيلسي حياتها. لكنّ سترايك سبق له أن سمع شهادات من أمثال بريتاني بروكبانك ورونا لاينغ بما يكفي ليدرك أنّ معظم المغتصبين والقتلة ليسوا مجهولين مقنّعين يخرجون فجأة من زاوية مظلمة، أو من تحت درج، بل هم آباء الضحايا أو أزواجهنّ، أو أصدقاء أمّهاتهنّ أو شقيقاتهنّ...

مسحت هايزل خدّيها، لكنّ الدموع ما لبثت أن بللتها من جديد.

– ماذا فعلت برسالتها الغبية؟ سألته فجأة.

– وضعتها مساعدتي في الدرج الذي نحتفظ فيه بالرسائل الغريبة.

– قالت لنا الشرطة إنّك لم تردّ عليها، وإنّ الرسائل التي عثروا عليها كانت مزيّفة.

– صحيح.

– إذًا فلا بدّ من أنّ الفاعل يستهدفك.

– نعم.

تمخّطت هايزل بقوّة، ثمّ سألته:

– هل تريد فنجان شراب ساخن؟

وافق سترايك، ظنًّا منه أنّ هايزل بحاجة إلى برهة للتخفيف عن نفسها. بعدما غادرت الغرفة، بات بوسعه أن يتفحّص أثاثها بهدوء. لم يكن فيها سوى صورة واحدة، موضوعة على طاولة صغيرة بالقرب منه. إفترض إنّها لوالدة هايزل وكيلسي. وبجانبها، كان جزء من خشب الطاولة الرديء النوعيّة والباهت أغمق لونًا، ما جعل سترايك يظنّ أنّه كان محلّ إطار صورة أخرى، لم تعد موجودة، منع وصول ضوء الشمس إلى الخشب. لعلّها صورة كيلسي مع رفاق صفّها التي نشرتها كلّ الجرائد، فكّر سترايك.

عادت هايزل حاملة صينيّة عليها فنجانا شاي وصحنًا من البسكويت. نظر إليها سترايك تضع فنجانه على طبق، بالقرب من صورة أمّها.

– أظنني سمعت أنّه كان لكيلسي حبيب، سألها.

– تفاهات، ردّت هايزل وهي ترتمي جالسة في أريكتها. أكاذيب أخرى.

– ماذا يجعلك تظنّين...؟

– كانت تقول إنّ اسمه نيال. نيال. بكلّ صراحة.

من جديد سالت دموعها. لم يدرِ سترايك لماذا لا يحقّ لصديق كيلسي أن يدعى نيال. لاحظت هايزل ارتباكه.

– One Direction، قالت له بعدما تمخّطت من جديد.

– آسف، قال لها سترايك، وهو لا يزال محتارًا. لست أ...

– فرقة One Direction، حلّت في المرتبة الثالثة في برنامج X-Factor. إنّها من المعجبات بالفرقة... أعني أنّها كانت كذلك. وكان نيال الموسيقيّ المفضّل لديها. لذلك حين قالت إنّها تعرفت إلى فتى في الثامنة عشرة من عمره يدعى نيال ويتنقّل بدرّاجة ناريّة... هل تفهمني؟... ماذا كان علينا أن نستنتج؟

– نعم. فهمتك.

– زعمت أنّها التقته في عيادة المعالج النفسيّ. نعم، كانت تزور معالجًا. قالت إنّ نيال قصد المعالج لأنّ والديه ميتان، مثل والديها. لكنّنا لم نرَ ذلك الفتى قطّ. قلتُ لراي: ها هي تعود إلى اختلاق الأخبار. فأجابني: دعيها وشأنها إذا كان هذا يسعدها. لكنّني لم أكن أحبّ أن تكذب، قالت هايزل وهي توجّه إلى سترايك نظرة مؤلمة. كانت تكذب بلا توقّف. عادت ذات يوم ومعصمها في ضمادة، وقالت إنّها جرحته. لكنّها في الواقع كانت قد وشمته بشعار فرقة One Direction. هذا ما حدث حين قالت لنا إنّها مسافرة في دورة تدريبيّة. هل تتخيّل ذلك؟ أترى أين أوصلتها كثرة الكذب؟

بذلت هايزل جهدًا هائلًا لتلجم نوبة الدموع التالية. زمّت شفتيها المرتجفتين وضغطت المناديل على عينيها، وتنفّست بعمق، وأضافت تقول:

– يملك راي فرضيّة. أراد أن يقولها للشرطة، لكنّهم لم يرغبوا في أن يسمعوا. كلّ ما أرادوه هو أن يعرفوا أين كان حين تعرّضت هي... لراي صديق

يدعى ريتشي وهو رجل يمارس البستنة في أوقات فراغه. إلتقت كيلسي ريتشي...

ثمّ شرحت له الفرضيّة الشهيرة وأضافت إليها تفاصيل غير مجدية، وتفاصيل أخرى مكرّرة. كان سترايك معتادًا الردود المفكّكة لدى الشهود غير المتمرّسين، فأصغى إليها بصمت مؤدّب.

أخرجت صورة من درج. من حسنات تلك الصورة أنّها أظهرت راي مع أصدقائه الثلاثة في شورهام باي سي، في إجازة الأسبوع التي ماتت خلالها، وكذلك أنّها أظهرت ريتشي الذي شارك أيضًا في توديع عمر الشباب. كان ريتشي وراي جالسين على الحصى، بالقرب من كتلة أشواك زرقاء، يبتسمان حاملين علبتي بيرة، وعيونهما نصف مغمضة لشدّة سطوع الشمس. إلتمعت قطرات العرق المتصببة من رأس راي الأصلع، وظهرت أيضًا آثار الجروح والكدمات التي غطّت وجه ريتشي الشابّ. وكان هذا الأخير ينتعل حذاءً للسير في الجبال.

– أتى ريتشي إلينا بعد تعرّضه للحادث. يعتقد راي أنّ الفكرة خطرت ببالها حين رأته. ويظنّها خطّطت لتفعل بساقها شيئًا ما لتروي بعد ذلك أنّها تعرّضت لحادث.

– لا يمكن ريتشي أن يكون حبيبها، أليس كذلك؟

– ريتشي! إنّه بسيط العقل قليلًا. لو كان حبيبها لأخبرنا. بأيّة حال، بالكاد كانت تعرفه. الأمر كله كان في رأسها. أعتقد أنّ راي كان على حقّ. كانت تنوي أن تفعل بساقها شيئًا ما لتزعم بعد ذلك أنّها سقطت عن دراجة ناريّة. درّاجة رفيقها الشهير!

فكّر سترايك في أنّ فرضيّة راي كان ممكنًا أن تصحّ لو أنّ كيلسي أُدخلت المستشفى بسبب حادث مزعوم تعرّضت له على دراجة ناريّة، ورفضت الخوض في تفاصيله لتُجنّب صديقًا مزعومًا الوقوع في المتاعب. كان راي محقًّا في أمر: هذا هو تحديدًا السيناريو الذي تستطيع مراهقة في السادسة عشرة أن تختلقه: القصّة ذات الجوانب الدراماتيكية والطائشة إلى حدّ الخطر. لكنّ ثمّة خطبًا. فسواء أخطّطت كيلسي لاختلاق حادث زائف على

درّاجة ناريّة أو لا، لا بدّ من الاعتراف بأنّها عدلت عن الفكرة، وفضّلت الاتجاه إلى سترايك، فكاتبة الرسالة تستشيره في أفضل السبل لتبتر ساقها.

ومن ناحية أخرى، كانت تلك المرّة الأولى التي يمكن خلالها إثبات علاقة بين كيلسي وراكب درّاجة ناريّة. وأراد سترايك أن يعرف سبب اقتناع هايزل الراسخ بأنّ حبيب أختها لم يكن موجودًا إلّا في مخيّلة هذه الأخيرة.

– لم يكن في صفّها فتيان. أين كان بإمكانها أن تلتقي أحدًا في الخارج؟ نيال. لم يكن لديها أيّ حبيب في المدرسة قطّ. لم تكن تخرج إلّا لتزور معالجها النفسيّ في عيادته، وأحيانًا إلى الكنيسة البعيدة قليلًا عن تلك العيادة. كانوا ينظّمون فيها نشاطات للفتيان، لكن ما من فتى باسم نيال. تحقّقت الشرطة من ذلك، واستجوبت صديقاتها. داريل، الفتى الذي يدير تلك النشاطات، انهار لدى سماعه الخبر. إلتقاه راي صباح اليوم في طريق عودته من العمل. أخبرني أنّ داريل انفجر باكيًا حين شاهده على الرصيف المقابل.

ودّ سترايك أن يسجّل ملاحظات على دفتره، لكنّه لم يشأ أن يعكّر جوّ الثقة الذي كان يجتهد في خلقه بينهما.

– من هو داريل؟

– لا شأن له في هذا كله، قالت هايزل. إنّه شابّ يعمل للرعيّة ويأتي من برادفورد. راي متيقّن من أنّه مثليّ جنسيًا.

– هل كانت تتكلّم عن... تردّد سترايك في إكمال سؤاله، لأنّه لم يعرف ما يقول... مشكلتها مع ساقها، حين كانت في المنزل؟

– لم تكن تفعل ذلك أمامي، أجابت هايزل. ما كنت لأسمح لها بذلك. لم أرد سماع أيّ حديث عن تلك النزوة المخيفة. فاتحتني بالأمر مرّة، وكان لها من العمر أربعة عشر عامًا، فقلت لها رأيي بكلّ صراحة. كانت تريد جذب الانتباه إليها ليس إلاّ.

– والندوب القديمة على ساقها، ما سببها؟

– فعلت ذلك بنفسها بعد موت أمي. وكأنّ مشاكلي لم تكن تكفيني آنذاك. طوّقت ربلتها بشريط حديديّ لقطع الدم عنها.

رأى سترايك في تعبير هايزل مزيجًا من الاشمئزاز والغضب.

– كانت في المقعد الخلفيّ للسيّارة حين ماتت أمي ومالكولم. بحثت لها عن معالج نفسيّ. قال هذا الأخير إنّ ما فعلته يشبه نداء استغاثة، بسبب الحزن والشعور بالذنب، ولا أعرف ماذا. أمّا هي فكانت تقول العكس وإنّها أرادت أن تتخلّص من ساقها منذ عهد بعيد... لا أعلم، قالت هايزل وهي تهزّ برأسها بقوّة.

– هل فاتحت أحدًا آخر بالأمر؟ راي؟

– قليلًا، نعم. كان يعرف ما تفكّر فيه. حين انتقلنا للسكن معًا، أنا وراي، اختلقت له روايات تثير الذهول. أخبرته أنّ والدها كان جاسوسًا وأنّ ذلك كان سبب حادث السيّارة. رواياتها كلّها كانت كلّها مجرّد مزاعم. كان يعرفها جيّدًا، ومع ذلك لم يغضب في وجهها قطّ. بل غالبًا ما كان يغير وجهة الحديث، ويسألها عن دروسها...

فجأة امتقع وجهها بشدّة وقالت بغضب:

– سأخبرك ما كانت تأمله. كانت تريد أن تبقى إلى الأبد في كرسيّ للمعاقين، وأن نأخذها في نزهات كالأطفال، وندلّلها، وأن لا نهتمّ إلّا بها. تلك هي الحقيقة المحزنة. عثرت منذ نحو عام على مذكّراتها. لا يمكنك أن تتخيّل ما كانت تكتبه، والأكاذيب التي كانت ترويها. سخافات!

– مثلًا؟ سألها سترايك.

– كتبت مثلًا أنّها تحلم بأن تخسر ساقًا وتجد نفسها في كرسيّ للمعاقين، وتُدفع لتجلس في الصفّ الأماميّ في حفلة موسيقيّة لفرقة One Direction، وأن يأتي الموسيقيّون إليها ويتودّدون إليها لأنّها معاقة، قالت هايزل بانفعال. هل تصدّق؟ هذا مثير للقرف. هناك أشخاص مساكين أصيبوا بالإعاقة، لكنّهم لم يختاروا ذلك. أنا ممرّضة وأعرف. أنا أراهم. وأضافت وهي تنظر إلى ساقي سترايك: أنت لست بحاجة إلى أن أشرح لك. لست أنت من فعلت ذلك، أليس كذلك؟ سألته فجأة. لم تبتر ساقك بنفسك؟

ألكي تطرح عليه هذا السؤال أرادت أن تراه؟ تساءل سترايك. ألعلّها في ارتباكها، وربّما في لاوعيها، أرادت أن تتعلّق بشيء ما وسط هذا المحيط الذي جرفها؟ ألعلّها كانت تأمل أن يثبت لها سترايك، حتّى بعد فوات الأوان

بالنسبة إلى أختها، أنّ الناس لا يبترون بأنفسهم أعضاءهم في العالم الحقيقيّ، أي في العالم حيث توضع الوسائد بترتيب فوق الكنبات؟ وأنّ الإعاقة لا تنتج إلّا عن سوء الحظّ، ولا تصيب إلّا مَن يسقطون عن سلّم إثناء إخماد حريق، أو مَن يسيرون فوق لغم؟

– لا، أجابها. لقد أصبت في انفجار.

– طبعًا! صاحت صيحة انتصار برغم دموعها. كان بوسعي أن أقول لها ذلك... كان بوسعي أن أقول لها ذلك لو أنّها فقط طرحت عليّ السؤال. لكنّها كانت مقتنعة، أضافت هايزل وهي تبتلع مخاط أنفها، بأنّ ساقها كانت زائدة، وأنّها ما كان يجب أن تكون، وأنّه يجب استئصالها مثل ورم أو ما شابه ذلك. لم أرد الإصغاء إليها. كان ذلك عبثيًا جدًّا. حاول راي أن يخاطبها بلغة العقل، قال لها إنّها لا تعرف ما معنى أن يكون المرء طريح سرير في المستشفى، كما حدث له حين كُسر ظهره، وبقي أشهرًا ملفوفًا بالجصّ وملأت الندوب والقروح جسمه. ومع ذلك، لم يغضب في وجهها قطّ. بل كان يلهيها بأن يطلب إليها أن تساعده في الحديقة أو أن تفعل معه شيئًا ما.

قالت لنا الشرطة إنّها كانت تحادث أشخاصًا مثلها عبر الإنترنت. لم نكن ندري بذلك. كانت في عامها السادس عشر ولا يمكننا مراقبة ما يفعله المراهقون عبر كومبيوتراتهم. كما لم نكن نعرف ما يجب أن نبحث عنه.

– هل ذكرت اسمي أمامكما؟ سألها سترايك.

– الشرطة طرحت عليّ هذا السؤال. لا. لا أنا ولا راي نتذكّر أنّها حدّثتنا عنك. أرجو ألّا تسيء فهمي... أتذكّر قضيّة لولا لاندري، ولكنّني بعد ذلك نسيت اسمك ووجهك كذلك. لو أنّها كلّمتني عنك، لتذكّرتُ. كما أنّ اسمك طريف، ولا أقصد إهانتك.

– وصديقاتها؟ هل كانت تخرج كثيرًا بصحبتهنّ؟

– كانت لا تغادر المنزل تقريبًا. لم تكن ممّن يحبّون الاختلاط بالآخرين. وكانت تكذب على كلّ رفيقاتها في المدرسة، والناس لا يحبّون مَن يكذب عليهم. كنّ يسخرن منها بسبب ذلك، ويجدنها غريبة الأطوار. لذلك لم تكن تخرج إلّا نادرًا. لا أعرف متى كانت تقابل ذلك الفتى الشهير نيال.

غضب هايزل لم يفاجئ سترايك، فكيلسي كانت مصدر إزعاج لأختها في عالمها الشديد الترتيب. وأيقن أنّها ستمضي حياتها كلّها وهي تشعر بالندم والألم والخوف. ستندم خصوصًا على أنّ أختها ماتت يافعة جدًا، من دون أن يتسنّى لها الوقت للتغلّب على مشاكلها، ونسيان تلك النزوات التي باعدت بينهما.

– هل يمكنني استخدام مرحاضك من فضلك؟ سألها سترايك.

هزّت رأسها موافقة وهي تمسح عينيها.

– أمامك في أعلى الدرج.

تبوّل سترايك وهو يقرأ التنويه الذي كُتب عليه «تقديرًا لشجاعة الإطفائيّ راي ويليامز»، والمعلّق في إطار فوق كرسيّ الحمّام. لا شكّ بأنّ هايزل هي التي علّقته هناك، لا راي. وما خلا ذلك، لم يكن الحمّام مثيرًا للاهتمام. كما في غرفة الاستقبال، كان كلّ شيء غاية في الترتيب، وصولًا إلى محتوى خزانة الأدوية. حين فتحها سترايك، أيقن أنّ هايزل لم تبلغ بعد مرحلة انقطاع العادة الشهريّة، وأنّهما يشتريان معجون الأسنان بالجملة، وأنّ أحدهما، أو ربّما كليهما، يعاني آلام البواسير.

خرج على رؤوس أصابعه. تناهى إليه شخير بسيط من خلف باب مغلق أكّد له أنّ راي نائم. سار خطوتين ليجد إلى يمينه غرفة كيلسي.

كان اللون الليلكيّ يسيطر على الغرفة بجدرانها وغطاء السرير ومصراعي نافذتها وستائرها. حتّى ولو لم يرَ سترايك بقيّة المنزل، فقد افترض أنّ هذا اللون الواحد يرمز إلى انتصار النظام على الفوضى. كان في الغرفة لوح كبير من الفلّين الغاية منه حماية جدران الجصّ الداخليّة من ثقوب المسامير، رأى سترايك عليه صورًا لخمسة شبّان، قدّر أنّهم أعضاء فرقة One Direction. كانت رؤوسهم وسيقانهم تتجاوز إطارات الصور. وتكرّر ظهور شابّ أشقر أكثر من الآخرين. رأى أيضًا صورًا لجراء كلاب، خصوصًا من فصيلة الشينزو، وكلمات مثل أوكيوباي، وفومو، وأمايزبولز، وفي كلّ مكان اسم نيال، محاطًا بقلب في أغلب الأحيان. كانت تلك القصاصات الموضوعة بدون ترتيب تشكّل

خليطًا تسمه الفوضى، يتناقض بقوّة مع بقيّة الغرفة، أي غطاء السرير المقلوب بانتظام، والسجّادة البنفسجيّة الموضوعة في وسط الغرفة تمامًا.

وفي المكتبة الضيّقة وُضعت، بشكل يلفت الأنظار، نسخة جديدة من كتاب «فرقة One Direction، شباب دائم، روايتنا الرسميّة منذ X-Factor». وما خلا ذلك، امتلأت الرفوف بأسطوانات مسلسل Twilight التلفزيوني، وعلبة مجوهرات، وعدد من القطع الفنية التي لا شكّ بأنّ هايزل حتى عجزت عن ترتيبها، ومستلزمات تبرّج رخيصة النوعيّة، ودميتين محشوّتين.

إطمأنّ سترايك إلى أنّ وزن هايزل لا بدّ من أن يجعله يسمعها إذا صعدت الدرج، ففتّش الأدراج بسرعة. لا شكّ بأنّ الشرطة أخذت الأشياء الضروريّة، مثل الكومبيوتر والأوراق المكتوبة، وأرقام الهواتف، والأسماء المدوّنة هنا وهناك، والمذكّرات، هذا إذا ما واصلت الاحتفاظ بدفتر مذكّرات برغم سلوك أختها الفضوليّ. ومع ذلك فقد أهملت الشرطة أشياء كثيرة، كعلبة لأوراق الرسائل، عرفها سترايك، ولعبة نينتندو قديمة، وجيب يحتوي أظافر مزيّفة، وعلبة صغيرة تحتوي دمى صغيرة غواتيمالية جالبة للحظّ. وفي الدرج الأخير من الطاولة المحاذية للسرير، وفي داخل علبة على شكل دمية محشوّة، رأى عدّة عبوات أدوية. أخرجها من العلبة فرأى ألواح أقراص بيضويّة الشكل كتب عليها «أكيوتان» وضع أحدها في جيبه، وأغلق الدرج. توجّه نحو خزانة الملابس التي كانت بغير ترتيب وتفوح منها رائحة العفن. بدا أنّ اللونين الأسود والورديّ كانا يستهويان كيلسي. مرّر يديه بسرعة بين الأقمشة، وفتّش في الجيوب، ليعثر أخيرًا في جيب أحد الفساتين الفضفاضة على تذكرة متغضنة، كانت لتومبولا أو لغرفة ملابس، تحمل الرقم 18.

وجد سترايك هايزل في الوضعيّة عينها التي تركها عليها. وما كانت لتلاحظ لو أنّه تغيّب لفترة أطول. أجفلت قليلًا حين رأته يعود. ورأى أنّها بكت من جديد.

– أشكر لك قدومك لرؤيتي، قالت له بصوت متعب وهي تنهض. آسفة، أنا...

ثمّ عادت إلى البكاء بقوّة. وضع سترايك يده على كتفها. وما إن فعل ذلك حتّى رآها تتمسّك بسترته، وهي تدفن رأسها في صدره بعفويّة تامّة، مدفوعة بقلق تعجز الكلمات عن وصفه. أخذها بين ذراعيه وضمّها إليه. بقيا متعانقين لدقيقة قبل أن ترفع هايزل رأسها وتتراجع، وأنفاسها المسموعة تتلاحق. أنزل سترايك ذراعيه.

كانت هايزل عاجزة عن الكلام، فهزّت رأسها ورافقته إلى الباب.

كرّر تقديم التعازي إليها، فعبّرت له عن امتنانها بحركة من يدها. وفي ضوء مدخل المنزل ظهر وجهها الذي محا الحزن تعابيره.

– أشكر لك قدومك، قالت له من جديد وفي حلقها غصّة. كنت بحاجة إلى رؤيتك. لا أعرف لماذا. أنا في غاية الأسف.

35

Dominance and Submission[1]

منذ أن رحل عن منزله، ساكن ثلاث نساء. لكنّ هذه الأخيرة – الشيء – تستنفد صبره حقًّا. كانت النساء الثلاث قد أقسمن على حبّهنّ له. ولكن مَن يدري ماذا عنين بذلك، أولئك العاهرات؟ هذا الحبّ المزعوم قد حوّل الأولى والثانية إلى مخلوقتين وديعتين جدًّا. لكنّ الواقع أنّ النساء كلّهن هنّ في الحقيقة لعينات لا يسعين إلّا إلى الإيقاع بالرجال، وإلى أن يأخذن منهم أكثر ممّا يعطينهم. لكنّ الأولى والثانية لم تصلا في مستوى قذارتهما إلى ربع ما وصلت إليه الشيء. ومع ذلك، كان عليه أن يبقى، ويتحمّل بوداعة أمورًا لم يكن ليتقبّلها من قبل قطّ. لأنّ الشيء تلعب دورًا أساسيًّا في مخطّطه الكبير.

لكنّ ذلك لم يكن يمنعه من أن يحلم بقتلها باستمرار. كان يتخيّل ملامح وجهها الأبله تتغيّر بمقدار ما كانت سكّينه تنغرز في أحشائها، وعينيها تنظران إليه نظرة عدم التصديق، وكأنّها ترفض أن تفهم أن بايبي (كانت الشيء تناديه بايبي) يقتلها، برغم الدم الحارّ المتدفّق فوق يديه، ورائحة الصدأ المنبعثة في الهواء الذي لم يغب عنه صدى صراخها.

التظاهر باللطف أرهق أعصابه حتّى التلف. أن يسحر النساء ويغريهنّ ويتودّد إليهنّ... هذا أمر سهل، ويكاد يكون طبيعة ثانية لديه. ولكن أن يواصل التظاهر شهورًا، وحتّى سنوات، فذلك كان أمرًا يفوق طاقته. ولشدّة ما

[1] السيطرة والخضوع.

تخيّل مشهد القتل، كاد يصل إلى نقطة اللاعودة. كان يكفيه أحيانًا أن يسمع صوت أنفاس الشيء حتى تستبدّ به الرغبة في أن يمسك سكّينه ويغرزها في رئتيها القذرتين.

أحسّ بأنّه يكاد ينفجر ما لم يتصرّف بسرعة.

خرج منذ صباح الاثنين الباكر، متذرّعًا بأمر ما. ولكن، مع اقترابه من شارع الدانمارك، بنيّة رؤية السكرتيرة تدخل مكتب التحقيق، شعر بشيء ما يرتعش بداخله، كإنذار بخطر داهم.

وقف بقرب مقصورة الهاتف، على الرصيف المقابل للمكتب، وأخذ يراقب الرجل الواقف عند زاوية الشارع، أمام متجر الآلات الموسيقيّة ذات الواجهة المبهرجة الألوان كإعلانات السيرك.

كان يعرف الشرطة وطرقها وخدعها. ذاك الشابّ الواقف واضعًا يديه في جيبي معطفه الطويل كان يحاول أن يبدو كشخص عاديّ يمرّ في ذلك المكان...

هو نفسه كان مَن اخترع هذه اللعبة الصغيرة. كان قادرًا على أن يبدو وكأنّه شخص خفيّ. أيّ أحمق هذا الواقف عند زاوية الشارع، مرتديًا هذا المعطف البشع بهدف أن يبدو كشخص عاديّ...؟ لا يمكنك أن تخدع خبيرًا...

دار حول نفسه ببطء وانسلّ خلف المقصورة ليسحب طاقيّته... تلك التي كان يعتمرها حين طارده سترايك. لعلّ الشرطيّ المرتدي المعطف يعرف أوصافه. كان عليه أن يفكّر في ذلك، ويتوقّع أن يستدعي سترايك المغفّل رفاقه في الشرطة...

الأمر المؤكّد أنّهم لا يملكون له رسمًا تشبيهيًّا. وهذه الفكرة أعادت إليه تقديره لذاته فيما كان يسير بطريق العودة. كاد سترايك يلامسه منذ أيّام، من غير أن يعرف أنّه هو مَن يبحث عنه. كما أنّ سترايك ما زال يجهل هويته الحقيقيّة حتّى اللحظة. ربّاه! كم سيكون رائعًا، بعدما يجمّد جثّة السكرتيرة، أن يتفرّج على سترايك ومؤسسته يأخذهما سيل الوحول التي سيقذفهما بها

الناس والشرطة والصحف... كم سيستمتع بالنظر إلى سترايك محتقرًا لعجزه عن حماية مساعدته، ومتّهمًا بالتسبّب بموتها بصورة غير مباشرة، ومفلسًا...

لقد أعدّ بقيّة الخطّة. سيذهب للانتظار بقرب كلية الاقتصاد، حيث من عادة السكرتيرة أن تراقب الفتاة الشقراء الأخرى، وهناك سينال منها. عليه في هذا الوقت أن يجد لنفسه قبّعة جديدة، وأن يشتري نظّارة شمسيّة جديدة. مدّ يديه إلى جيبيه، ولكنّه لم يجد فيهما الكثير، كالعادة. لقد آن الأوان لكي تعود الشيء إلى العمل. سئم سماعها تتباكى وتئنّ وتبحث لنفسها عن أعذار للبقاء في المنزل.

في النهاية، اشترى قبّعة بايسبول وطاقيّة من الصوف الرماديّ ليستبدل بهما طاقيّة الصوف السوداء التي رماها في سلّة مهملات في كامبريدج سيركس. بعد ذلك ركب المترو متّجهًا إلى هولبورن.

لم تكن هناك، كما كان المكان خاليًا من الطلبة. نظر حوله باحثًا عن شعرها الأشقر ثمّ تذكّر فجأة أنّه يوم اثنين الفصح. كانت الجامعة مقفلة.

قضى ساعتين في المكان، ثم مضى إلى توتنهام كورت رود. بحث عنها في الداخل، ووقف لفترة بالقرب من مدخل ملهى سبيرمينت راينو. ولكن بدون جدوى. لم تظهر في أيّ مكان.

بعدما اضطرّ إلى ملازمة المنزل أيّامًا عدّة، ها هو الآن عاجز عن ملاحقتها... وهذه الخيبة الجديدة تسبّب له ألمًا يكاد يكون جسديًا. أحسّ بأنّ أعصابه تكاد تنفجر، فأخذ يسير في أزقّة ذلك الحيّ الخالية آملًا أن يلتقي بفتاة... بأيّ فتاة. لا ضرورة إلى أن تكون السكرتيرة. هذا كاف لإشباع رغبة السكّينين المخبّأتين تحت سترته لبعض الوقت.

لعلّ بطاقته التي أرسلها إليها قد سبّبت لها خوفًا شديدًا دفعها إلى تقديم استقالتها. لم يكن هذا ما يريده. قطعًا لا. كان يريد إثارة رعبها، واضطرابها. لكنّ عليها أن تواصل العمل لحساب سترايك. إنّها وسيلته الوحيدة للقضاء على ذلك الوغد.

في بداية السهرة عاد إلى الشيء، تُمزّق المرارة أحشاءه. كان يدرك أنّ عليه أن يلازم المنزل ليومين. مجرّد التفكير في الأمر كان يثير جنونه. لو أنّ

بوسعه استعمال الشيء كما ينوي استعمال السكرتيرة، لاختلف الأمر برمّته، ولعاد بأقصى سرعة، بسكينيه الجاهزتين. غير أنّه لم يجرؤ على ذلك. يجب أن تبقى الشيء حيّة وتحت سيطرته.

لم تكن الساعات الثماني والأربعون قد انقضت بعد، لكنّه لم يعد قادرًا على التحمّل. فقال مساء الأربعاء، وهو يكاد ينفجر من الداخل، إنّه سيخرج في الصباح الباكر بحثًا عن عمل، وبصريح العبارة، نصح الشيء بالعودة إلى العمل. تلا ذلك تذمّر وشكاوى خانقة أفقدته هدوء أعصابه. لكنّ الشيء التي راقها غضبه المفاجئ، حاولت أن تستدرك الأمر. وقالت له إنّها تحبّه، وبحاجة إليه، ونادمة على إثارة غضبه...

قرّر النوم وحيدًا بحجّة أنّه لا يزال غاضبًا، فتمكّن من الاستمناء بهدوء، غير أنّ ذلك لم يُرضِه. أمر واحد فقط سيشعره بالسعادة، وهو أن يلامس بسكّينه جسد امرأة، ويسيطر عليها وهو ينظر إلى دمها يتدفّق، ويستمع إليها تعبّر عن خضوعها بالصراخ، والاسترحام، وحشرجات الاحتضار. عبثًا حاول أن يسترجع في ذاكرته المرّات السابقة لكنّ ذلك لم يكفِ. على العكس من ذلك فقد أجّجت تلك الذكريات رغبته في معاودة الكرّة، ولكن مع السكرتيرة.

صباح يوم الخميس، نهض عند الخامسة إلّا ربعًا، وارتدى ملابسه، ووضع قبّعة البايسبول، واجتاز لندن ليقف أمام الشقّة التي تتقاسمها مع الوسيم. حين وصل إلى شارع هايستنغز، كانت الشمس قد أشرقت. إتّكأ إلى اللاند روفر القديمة المركونة في مكان غير بعيد وبدأ يراقب سرًّا نوافذ الشقّة من خلال زجاج السيارة الأماميّ.

عند الساعة السابعة، شاهد حركة خلف ستائر غرفة الاستقبال، وبعد دقائق قليلة، ظهر الوسيم على الرصيف، مرتديًا بزّته. كان يبدو مرهقًا وحزينًا. أنت تعتقد أنّك حزين، أيّها الأبله المسكين... مهلًا حتّى ترى حين أنتهي من تسليتي مع صديقتك...

وأخيرًا، رآها تخرج مع امرأة أكبر منها سنًّا تشبهها كثيرًا.

اللعنة.

ماذا دهاها لتتنزّه بهذا الشكل مع أمّها السمينة اللعينة؟ كانت تلك دعابة سيئة. كان أحيانًا يشعر بأنّ العالم كلّه يتآمر عليه ليمنعه من التصرّف بحرية، وليحطّ من قيمته. كان يكره أن يُحرم من شعوره بالقوّة المطلقة، وأن يعرقله الناس أو الظروف، وأن لا يعود سوى إنسان بسيط يستبدّ به الغضب. على أحدهم أن يدفع ثمن هذه الوقاحة.

36

I have this feeling that my luck is none too good[1]*...*

Blue Öyster Cult, 'Black Blade'

صباح الخميس، حين رنّ جرس المنبّه، مدّ سترايك يده بصعوبة وضغطَ على زرّ توقيفه بقوّة جعلت المنبّه القديم ينقلب على الطاولة بجانب سريره ويسقط أرضًا. ومن بين جفنيه نصف المغمضين، رأى الشمس ساطعة عبر ستائر غرفته الرقيقة. كان مستحيلًا أن يتجاهل ذلك حتّى ولو شعر بحاجة شديدة إلى أن يستدير إلى الجهة الأخرى ويعود للنوم. بقي راقدًا لبضع ثوانٍ، وساعِده فوق عينيه يحميهما من الضوء. ثمّ رفع عنه غطاءه مطلقًا تنهيدة تكاد تشبه الأنين. تلمّس باب الحمّام باحثًا عن مقبضه وهو يحتسب أن متوسّط ساعات نومه منذ خمسة أيّام وحتّى اليوم لا يزيد على ثلاث ساعات.

مثلما توقّعت روبن حين أرسلها إلى منزلها، كان على سترايك أن يختار ما بين مراقبة بلاتينوم ومراقبة «الأب المجنون». لكنّه في الفترة الأخيرة شاهد هذا الأخير يظهر أكثر من مرّة مباغتًا ولديه ومثيرًا رعبهما، فكانت دموعهما سببًا في اتخاذ سترايك قرارًا بتركيز جهوده على «الأب المجنون» وترك بلاتينوم تعيش حياتها. أمضى قسمًا كبيرًا من الأسبوع في المراقبة،

[1] أشعر بأنّ الحظّ لا يحالفني.

والتقط صورًا كثيرة للأب المسيء وهو يتجسّس على ولديه، أو يحاول الاقتراب منهما بغياب والدتهما.

وحين لم يكن سترايك يراقب «الأب المجنون»، كان يواصل تحقيقه الخاصّ. إعتبر أنّ الشرطة تتقدّم ببطء كبير، وبرغم أنّه لم يكن يملك دليلًا يربط بين موت كيلسي بلات بأيّ من بروكبانك أو لاينغ أو ويتايكر، فقد كرّس سترايك ساعات الحرية النادرة التي تسنّت له في مواصلة التحقيق بلا هوادة، وطوال خمسة أيّام، بجهد لم يألفه منذ أن غادر الجيش.

وقف متوازنًا على ساقه اليمنى وأخذ حمّامًا باردًا ليشعر بالنشاط. أراح دفق الماء القويّ جفنيه المنتفخين وبثّ القشعريرة في جسده. كان لحجرة الحمّام الصغيرة هذه حسنة واحدة، وهي أنْ لا مكان فيها للسقوط إذا ما زلّت قدمه. بعدما انتهى من حمّامه، عاد إلى الغرفة قافزًا على ساق واحدة، وشغّل التلفاز وهو يجفّف نفسه.

كان موعد الزفاف الملكيّ في اليوم التالي، وانشغلت القنوات الأخباريّة كلّها بأخبار الاستعدادات. واسترسل مقدّمو البرامج الشديدو الحماسة في الكلام حول هذا الحدث وقتًا كافيًا سمح له بتركيب ساقه الاصطناعيّة، وارتداء ملابسه، وشرب فنجان شاي وتناول شطيرة طعام. بُثّت صور الناس المنتظرين تحت الخيم على جوانب الطرق وأمام دير وستمينستر، والأعداد الغفيرة للسيّاح الآتين للمشاركة في الاحتفال. أطفأ سترايك التلفاز ونزل إلى مكتبه متثائبًا بقوّة كادت تخلع فكّه. كان يتساءل عمّا إذا كان هذا الزفاف الذي يحظى بتغطية إعلاميّة هائلة سيؤثّر في روبن، التي لم يرَها منذ يوم الجمعة الفائت، أي منذ وصلت بطاقة جاك فتريانو وبداخلها المفاجأة المشؤومة الصغيرة.

ما إن دخل المكتب حتّى أشعل الغلاّية الكهربائيّة بحركة تلقائيّة، وكأنّه لم يشرب فنجانًا كبيرًا من الشاي قبل قليل. ثمّ وضع على طاولة روبن لائحة بملاهي التعرّي والرقص الإباحيّ وصالونات التدليك الأخرى. لم يتسنّ له الوقت لإنهاء هذا البحث، وكان يعتمد على روبن لتقوم بذلك. حالما تعود، سيطلب منها الاتصال هاتفيًا بكلّ الأماكن المشبوهة في شورديتش.

كانت تلك مهمّة يستطيع المرء القيام بها من منزله. لو أنّه استطاع إقناعها بالمنطق، لعادت إلى ماشام مع والدتها. وقد لاحقته ذكرى وجهها الشاحب طوال الأسبوع.

كتم تثاؤبًا ثانيًا، وجلس متثاقلًا في كرسيّ روبن للتدقيق في رسائله الإلكترونيّة. كان يرغب من جهة في إرسالها إلى منزل والديها، ومن جهة أخرى كان يتوق إلى رؤيتها من جديد. فالمكتب يبدو فارغًا بدون حماستها الجميلة وتفاؤلها ولطافتها العفويّة. كان على عجلة ليخبرها عما اكتشفه في خلال غيابها حول الرجال الثلاثة الذين يشكّلون في تلك الفترة هاجسًا بالنسبة إليه.

أمضى اثنتي عشرة ساعة في كاتفورد، أمام الشقة التي يشغلها ويتايكر فوق مطعم للبطاطا المقلية، على شارع للمشاة يقع خلف مسرح كاتفورد. كان ذلك الشارع تجاريًا تملأه حوانيت مختلفة لبيع الأسماك أو الشعر المستعار، أو مقاه، أو مخابز. وفوق كلّ منها منزل ذو واجهة مثلّثة الشكل تظهر فيها نوافذ ثلاث تعلوها قناطر. وخلف زجاج نوافذ المنزل الذي قال شانكر إنّ ويتايكر يسكنه، ستائر رقيقة مُسدلة باستمرار. وقف سترايك على الرصيف بين بسطات الحوانيت ليراقب المنزل بدون أن يراه أحد. وبقي واقفًا حتّى فقد القدرة على التمييز بين رائحة البخور المتصاعدة من بسطات بائعي الحليّ الشرقيّة ورائحة الأسماك الحادّة المنبعثة من بسطات السمّاكين.

بقي واقفًا لثلاث ليالٍ متواصلة أمام مخرج الممثّلين في مسرح كاتفورد، محاولًا أن يرى هدفه يدخل إلى منزله أو يخرج منه. لكنّه ولسوء الحظّ، لم يرَ سوى خيالات تتحرّك خلف الستائر. ومساء يوم الأربعاء، فُتح الباب السفلي القريب من المطعم لتظهر منه مراهقة طويلة القامة ونحيلة. كان شعرها البنّي والوسخ مشدودًا إلى الخلف، كاشفًا عن وجه كوجه أرنب مسلوخ. وكان جلدها الشاحب مائلًا إلى اللون البنفسجيّ كالمصابين بالسلّ. كانت ترتدي كنزة مقوّرة الكمين تحت سترة مقفلة بسحّاب وذات غطاء رأس رماديّ، وسروالًا ملتصقًا بساقيها النحيلتين اللتين بدتا كقصبتين. شبكت ذراعيها فوق صدرها الهزيل، ووقفت مستندة إلى باب المطعم تنتظره حتى

يُفتح، وحينذاك كادت أن تسقط إلى الداخل. إجتاز سترايك الشارع بسرعة قبل أن ينغلق مصراع الباب، ووقف خلفها في صفّ الزبائن.

حين وصلت إلى طاولة البيع، ناداها الخادم باسمها.

– أنت بخير، يا ستيفاني؟

– نعم، قالت هامسة. أريد علبتَي كوكاكولا من فضلك.

كانت ثقوب الأقراط تملأ أذنيها وأنفها وشفتها. عدّت النقود المعدنيّة التي تحملها، ثمّ وضعتها أمام البائع، وانصرفت حانية الرأس، بدون أن تلاحظ سترايك.

عاد هذا الأخير إلى عتمة الرصيف المقابل، ليأكل علبة البطاطا المقليّة التي اشتراها، وليراقب النوافذ الثلاث المضاءة فوق المطعم. شراؤها علبتَي كوكاكولا جعل سترايك يفترض أنّ ويتايكر في الشقّة، ولعلّه يرقد عاريًا فوق فراش مثلما رآه غالبًا في مراهقته. لعلّ سترايك خال نفسه حصينًا ضدّ الانفعالات، لكنّ وحين وقف بانتظار دوره لشراء الطعام، مدركًا أنّ ذلك الوغد قد يكون فوقه تمامًا، لا تفصله عنه سوى طبقة رقيقة من الخشب والجصّ، شعر بقلبه يخفق بقوّة. واصل المراقبة حتى انطفأت الأنوار عند نحو الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. لم تكن رؤية ويتايكر ممكنة.

كذلك مع لاينغ كان الفشل نصيبه. بعد التدقيق عبر خدمة غوغل لرؤية الشوارع، استنتج سترايك أنّ الشرفة التي التُقطت عليها صورة للملاكم القديم لموقع «العطاء الحقيقي»، هي لأحد مباني وولاستون كلوز الإسمنتية المربعة والمخصصة لتأجير الشقق بأسعار زهيدة، في مكان لا يبعد كثيرًا عن ستراتا. لم يظهر اسم لاينغ لا في دليل الهاتف ولا في القوائم الانتخابية في الحيّ. ومع ذلك كان يأمل أن يعيش لاينغ هناك، لدى شخص ما يستضيفه، أو في شقة مؤجرة بدون خطّ هاتفيّ. وأمضى مساء الثلاثاء ساعات في المراقبة. وبفضل منظاره الخاصّ بالرؤية الليلية، استطاع أن يواصل مراقبة ما يجري في الشقق التي لا ستائر لها بعد حلول الليل. لكنّه لم يستطع أن يرى السكوتلنديّ في الداخل قطّ. كما أنّه لم يرَه يدخل المبنى أو يخرج منه قطّ. لم يشأ سترايك إثارة شكوك لاينغ بقرع أبواب الناس، بل راح يتنزّه من جهة جسر السكة

الحديديّة القديم، الذي حُوّلت ركائزه الحجريّة إلى محالّ تجارية، ومقهى يقدّم أصناف القهوة الاستوائيّة، وصالون مصفّف شعر. جلس سترايك إلى مائدة وسط زبائن سعداء من أميركا الجنوبيّة، فلفت النظر إليه بمزاجه السيئ والمتكدّر.

ظلّ جالسًا في كرسيّ روبن وعاد إلى التثاؤب بقوّة. ومن شدّة ما تمطّى وتأوّه تعبًا لم يسمع صوت الخطوات التي ارتجّت لها درجات السلم المعدنيّة. وحين لاحظ أخيرًا أنّ أحدهم يقترب من المكتب، نظر إلى ساعته. كان الوقت باكرًا، ولا يمكن أن تكون روبن قد عادت، لأنّ والدتها لن تستقلّ القطار قبل الحادية عشرة. إقترب خيال على طول الجدار خلف الباب الزجاجيّ. قُرع الباب، ثمّ دخل «المخدوع مرتين» المكتب أمام نظرة الدهشة التي علت وجه سترايك.

بخلاف ما قد يوحي به مظهره العاديّ، والذي قد يصل إلى درجة الإهمال، فقد كان هذا الرجل الخمسينيّ الضخم الكرش رجل أعمال في غاية الثراء. كان وجهه من الوجوه التي تُنسى بسهولة، فهو ليس وسيمًا ولا دميمًا. وفوق ذلك كان يبدو مستاء اليوم.

– لقد تركتْني، قال لسترايك، بدون مقدّمات.

حين ارتمى على كنبة الجلد الاصطناعيّ، فوجئ بالأصوات التي تشبه إطلاق الريح. لا شكّ بأنّ هذه هي مفاجأته الثانية اليوم، فكّر سترايك. فما من شكّ بأنّ قيام امرأة بالتخلّي عن هذا الرجل يشكّل صدمة بالنسبة إليه، هو الذي اعتاد جمع الأدلّة على خيانة رفيقاته الشقراوات من أجل أن يرميها في وجوههنّ وقطع علاقته بهنّ. بعد معرفته الطويلة به، استنتج سترايك أنّ هذه الممارسات الغريبة تعود عليه بلذّة داخليّة. فهذا الرجل مازوشيّ ومتلصّص ومهووس بالسلطة في الوقت عينه.

– حقًّا؟ سأله سترايك، وهو ينهض للاهتمام بالغلاية. كان بحاجة ماسة إلى الكافيين. لم نبتعد عنها خطوة واحدة، ولا شيء يدعو إلى الافتراض أنّ في حياتها رجلًا آخر.

الواقع أنّه لم يقم بشيء منذ أسبوع، ما خلا الردّ على اتّصالات رايفن الهاتفية، إلّا في المرّات التي لم يستطع خلالها الردّ لأنّه كان قريبًا من «الأب المجنون». راح يتساءل عمّا إذا كان قد أصغى جيّدًا إلى الرسائل التي تركتها في بريده الصوتيّ. عسى أنّها لم تبلغه بوجود راع ثريّ آخر، مستعدّ للتكفّل بجزء من نفقات بلاتينوم الجامعيّة مقابل أن تخصّصه باهتمامها الكامل. إذا كان ذلك ما حدث، فلم يبقَ سوى نسيان اسم «المخدوع مرتين» وعائداته الماليّة.

– إذًا، لماذا تركتني؟

لأنّك مغفّل تمامًا، فكّر سترايك.

– لا يمكنني أن أجزم بأنها لم تتعرف برجل آخر. قال سترايك بحذر. ثمّ أضاف بعدما صبّ ماء ساخنًا على حبوب البنّ في قعر فنجانه: لو كانت تقابل أحدهم، فلا بدّ من أنّها محتالة لعينة لأنّنا تبعناها كظلّها. أتريد قهوة؟

– كنت أظنّك أفضل المحقّقين، قال الآخر باستياء. لا أحبّ القهوة السريعة الذوبان.

رنّ هاتف سترايك. فقرأ الاسم الذي ظهر على الشاشة.

– آسف، يجب أن أردّ على الاتصال، قال لزبونه المستاء وهو يضغط زرّ الإجابة... مرحبًا يا واردل.

– إنّه ليس مالِلي، قال الشرطيّ.

لشدّة إحساس سترايك بالإرهاق، كان بحاجة إلى ثانيتين ليفهم ما سمعه. وفجأة، فهم أنّ واردل يعني رجل العصابات الذي سبق له أن بتر عضو أحد أعدائه من قبل، والذي يشتبه الشرطيّ بأنّه هو مَن أرسل الساق إلى سترايك.

– الحفّار... نعم، حسنًا، قال سترايك ليُظهر لواردل أنّه يتابع ما يقوله. تعني أنّه خارج دائرة الشبهة، أليس كذلك؟

– لا يمكنه أن يكون الفاعل. كان في إسبانيا حين قُتلت.

– في إسبانيا، كرّر سترايك.

كانت أصابع «المخدوع مرتين» السمينة تنقر بعصبيّة على مسند الكنبة.

– نعم، أكّد واردل، في مينوركا...

شرب سترايك رشفة قهوة. كانت قويّة الطعم جدًّا، وكأنّما صبّ الماء الساخن في علبة البنّ مباشرة. أحسّ بألم ينبض في صدغيه. نادرًا ما كان يشعر بالصداع.

– لكنّ بحثنا حول الآخرين يتقدّم. تعرف ذلك، فقد عرضت عليك صورتيهما، قال واردل. أعني الرجل والمرأة اللذين كانا يبعثان برسائل على ذلك الموقع الإلكتروني الخاصّ بالمعتوهين، حيث كانت كيلسي تطرح أسئلة تتعلق بك.

لم يكن سترايك يتذكّر الصورتين بوضوح. رجل ذو عينين حولاوين، وامرأة شديدة السمرة تضع نظارة.

– إستجوبناهما. لم يلتقيا كيلسي قط. يعرفان بعض الأشخاص على الإنترنت فقط. وإضافة إلى ذلك فالرجل يملك حجة غياب متينة جدًّا يوم وقوع الجريمة: كان يعمل في أسدا، في ليدز، ولنوبتين متواصلتين. تحقّقنا من ذلك.

ولكن... أضاف واردل بنبرة توحي بأنّ هناك عنصرًا جديدًا وواعدًا، عثرنا على رجل كان يتدخّل للمشاركة في المنتدى بين الحين والآخر، واسمه «المتفاني». كان يخيفهم جميعًا. من النوع المخبول تمامًا، والذي يجذبه المبتورون. ويستهويه أن يسأل النساء في أيّ مكان يحببن أن يُبترن. يبدو أنّه حاول أن يلتقي بامرأتين أو ثلاث. لكنّه لم يعد للظهور منذ فترة. نحاول العثور عليه.

– إممم، قال سترايك الذي انزعج من رؤية «المخدوع مرتين» يفقد صبره على الكنبة، يبدو لي العمل جيّدًا.

– نعم. وهناك أيضًا الرسالة التي تلقّيتها. رسالة الرجل الذي يحب ساقك كثيرًا، قال واردل. نحن نبحث عنه أيضًا.

– ممتاز، قال سترايك بدون أن يعرف كثيرًا ما يقول. ثمّ رفع يده مشيرًا إلى «المخدوع مرتين» الذي كان يهمّ بالنهوض، بأنّه لن يطيل الحديث. وأضاف: إسمع، لا يمكنني أن أتكلّم الآن يا واردل. ربّما في ما بعد؟

حين انتهت المكالمة، حاول سترايك أن يهدّئ أعصاب «المخدوع مرتين»، الذي اشتد به الغضب وهو جالس وحيدًا في زاويته خلال المكالمة الهاتفية. تحفّظ سترايك عن سؤاله عمّا ينتظره منه، بعدما تخلّصت منه بلاتينوم. كان يخشى كثيرًا أن يخسر زبائنه. أحسّ وهو يشرب قهوته القويّة أنّ الألم استقرّ تحت جمجمته. لم يكن في تلك اللحظة يتمنّى سوى أمر واحد: ليته يملك ما يكفي من المال ليتخلّص من «المخدوع مرتين» بصورة نهائيّة.

– إذًا؟ سأله الآخر، ما الذي تنوي عمله؟

ماذا يعني؟ هل يريد من سترايك أن يرغم بلاتينوم على العودة إليه؟ أن يلاحقها في كلّ أنحاء لندن لاكتشاف هوية صديقها الجديد؟ أم أن يعيد إليه ماله؟ لم يتسنّ له الوقت ليطرح عليه السؤال لأنّ صوت أقدام جديدة تردّد على الدرج، صاحبته هذه المرّة أصوات نسائيّة. نظر «المخدوع مرتين» إلى سترايك نظرة حيرة، وفي الحال فُتح الباب الزجاجيّ.

كانت روبن التي ظهرت عند العتبة امرأة تختلف عمّا يتذكّره سترايك، فقد بدت أطول قامة، وأجمل، وأكثر ارتباكًا. وخلفها امرأة لا يمكنها أن تكون سوى أمها. كانت أقصر قامة من روبن وأسمن، ولها الشعر الأشقر ذاته والعينان الزرقاوان الرماديّتان ذاتهما. شعر سترايك بأنّه كان ليجد حضورها المفاجئ هذا طريفًا لو أنّ الظروف اختلفت عمّا هي عليه الآن. كما ذكّرته نظرتها الحانية والذكيّة إليه بشخص يعرفه جيّدًا.

– أنا آسفة، قالت روبن مرتبكة، بعدما رأت «المخدوع مرتين». يمكننا الانتظار في الأسفل. تعالي يا أمّي.

طفحت الكأس، قفز الزبون – حرفيًّا – عن الكنبة وهو يقول:

– لا، لا، رجاء. لم آتِ في موعد. سأنصرف. أرسِل إليّ الفاتورة يا سترايك.

وغادر المكتب.

بعد ساعة ونصف، كانت روبن ووالدتها جالستين بصمت في سيّارة التاكسي التي تقودهما إلى كينغز كروس. وعند أقدامهما حقيبة ليندا تتأرجح قليلًا.

أصرت ليندا على التعرف بسترايك قبل رحيلها إلى يوركشاير.

– أنت تعملين لديه منذ أكثر من عام. لا أظنّه سيغضب إذا ما فاجأته بزيارة صغيرة؟ أودّ أن أرى أين تعملين. وهكذا، حين تحدّثينني عن مكتبه أستطيع أن أتخيّله بشكل أفضل.

بذلت روبن كل ما في وسعها لثنيها عن ذلك. كانت فكرة تعريف سترايك بأمّها تزعجها، وتبدو لها غبيّة وطفوليّة وغير ملائمة. أكثر ما خشيته كان أن تبدر عن سترايك ردة فعل سيئة حين يراها مع أمها، لأنه شبه مقتنع بعجزها عن متابعة جريمة قتل كيلسي.

ندمت روبن على انهيار أعصابها حين تلقت بطاقة فتريانو. كان عليها ألّا تدع مشاعرها تظهر، خصوصًا بعدما علم بحادثة اغتصابها. قال لها إنّ تلك الحادثة لن تغير شيئًا لكنّها لا تصدّقه. لقد عرفت أشخاصًا كثيرين يظنّون أنفسهم يعرفون ما يناسبها وما لا يناسبها.

فيما مضت سيّارة التاكسي إلى إينر سيركل، كانت روبن تقول لنفسها إنّ أمّها لا شأن لها في الأمر، وإنّه كان عليها إخطار سترايك هاتفيًا قبل وصولهما. كان ذلك سيجنّبها لقاء «المخدوع مرتين». تمنّت ألّا يكون سترايك موجودًا، أو أن يكون في منزله بالطابق الأعلى. كانت لتستطيع بذلك أن تدع ليندا تزور المكتب بدون أن تضطرّ إلى تعريف كلّ منهما بالآخر. لكنّها خشيت أن يتعمّد سترايك الحضور إذا ما اتّصلت به، مدفوعًا بما تعرفه فيه من فضول ودهاء.

تبادل سترايك وليندا دردشة قصيرة فيما كانت روبن تعدّ الشاي، غارقة في صمتها. إفترضت أنّ إصرار والدتها على اللقاء بسترايك ما هو إلّا للحكم على درجة الحميميّة التي تجمع بينهما. لحسن الحظّ أنّ سترايك كان بمظهر مثير للخوف، وكأنّه شاخ عشرة أعوام دفعة واحدة، فذقنه غير محلوقة، وعيناه غائرتان مثلما يحلّ به حين يمضي ليالي العمل بدون نوم.

والآن، وبعدما رأت ليندا ربّ عمل ابنتها، ستجد صعوبة بأن تتخيّل أنّ هذه الأخيرة تحبّه في صمت.

– لقد أعجبني، قالت ليندا فيما لاح أمامهما القصر الأحمر الحجارة الذي تقع فيه محطة سانت بانكراس. قد لا يكون وسيمًا، لكنّ ثمّة قوّة تنبعث منه.

– نعم، أجابت روبن ببرودة. هذا أيضًا رأي ساره شادلوك.

قبل انصرافهما، طلب سترايك روبن الانفراد بروبن خمس دقائق في المكتب الثاني. وهناك أعطاها لائحة بصالونات التدليك وملاهي التعري في منطقة شورديتش. كان عليها الاتصال بكلّ تلك الأرقام لمحاولة العثور على مكان نويل بروكبانك.

– كلّما فكرت في الأمر، أظنّه وجد لنفسه وظيفة حارس. أيّة وظيفة أفضل يمكنه ممارستها مع ما له من سوابق وبجسده وإصابته الدماغيّة؟

واحترامًا منه لليندا التي كانت تصغي إلى حديثهما، لم يقل سترايك إنّ بروكبانك يعمل في قطاع الجنس، حيث الكثير من النساء الضعيفات والمعرّضات للأذى.

– حسنًا، قالت روبن وهي تضع لائحة سترايك على مكتبها. سأرافق والدتي إلى المحطّة وأعود.

– لا، أريدك أن تقومي بالأمر من منزلك. سجّلي اتصالاتك وسأسدّد لك قيمتها.

فجأة تراءت لروبن صورة ملصق أسطوانة Survivor لفرقة Destiny's Child في غرفتها.

– متى يُفترض بي العودة إلى المكتب؟

– سنرى كم من الوقت ستحتاجين إليه، قال. ثمّ أضاف موضحًا: أعتقد أنّ «المخدوع مرتين» لن يلجأ إلى خدماتنا بعد الآن. يمكنني الاهتمام بقضيّة «الأب المجنون» وحدي.

– وفي موضوع كيلسي؟

– إهتمّي بتعقّب أثر بروكبانك، قال لها مشيرًا إلى اللائحة. لم تكن روبن تعلم أنه يحسّ بصداع شديد، وأضاف: اسمعي. الجميع في إجازة غدًا. إنّه يوم عطلة وطنية بسبب الزفاف الملكيّ.

كان الأمر في غاية الوضوح: إنّه يريد إبعادها. تغيّر شيء ما في خلال غيابها. لقد تغيّر سترايك. لعلّه استنتج أخيرًا أنّها ليست الشريكة التي يحتاج إليها في هذه الظروف الصعبة، فهي في الواقع لم تتلقّ تدريبًا في الشرطة العسكرية، ولم تشاهد قطّ أشلاء قبل أن تستلم ساق فتاة في علبة.

– لقد أخذتُ إجازة خمسة أيّام...

– ربّاه! صاح بها وقد عيل صبره. لست بحاجة إلى أن تكوني هنا لتكتبي قائمة وتقومي ببعض الاتصالات الهاتفية!

لتكتبي قائمة وتقومي ببعض الاتصالات الهاتفية.

تذكّرت أنّها لم تكن بالنسبة إلى إلين سوى سكرتيرة سترايك.

في سيارة التاكسي التي كانت تسير بهما إلى المحطّة، شعرت روبن بالغضب يعلو في داخلها كحمم بركانيّة، جارفة معها كلّ تبرير منطقيّ. حين كان سترايك يريدها أن تنظر منذ أيّام إلى صور أشلاء بشرية، قال لواردل إنّها شريكته. لكنّه لم يعدّل عقد عملها، ولم يتناقشا في شروط علاقتهما المهنيّة. في الضرب على لوحة المفاتيح، كانت أصابعها أسرع من أصابعه الضخمة والمكسوّة بالشعر. وهي وحدها تقريبًا من تتولى المهامّ الشاقّة كالفواتير، والرسائل، وحفظ المستندات. لعلّه هو مَن قال لإلين إنّها سكرتيرته. لعلّه لم يذكر كلمة شريكة إلّا لخداعها أو بمثابة تعبير بلاغيّ. أدركت روبن أنّ تلك الأفكار لم تكن إلّا زيتًا تصبّه على نار غضبها، ومع ذلك لم تلجمها. لعلّه وإلين كانا يسخران من حماقاتها حين يلتقيان للعشاء خفية عن زوجها. بل لعلّه عبّر لإلين عن ندمه على توظيف امرأة لم تكن في الأساس سوى موظّفة مؤقّتة. وربّما أخبر إلين بحادثة تعرّضها إلى الاغتصاب.

أنا أيضًا عانيت الأمرّين آنذاك، أتعلم؟

لتكتبي قائمة وتقومي ببعض الاتصالات الهاتفية.

لماذا بدأت فجأة بالبكاء؟ سالت على خدّيها دموع الغضب والقهر.

– روبن؟ قالت ليندا.

– لا شيء. لا شيء أبدًا، ردّت روبن وهي تمسح خدّيها بأصابعها.

كانت سعيدة جدًّا بالعودة إلى العمل بعدما قضت خمسة أيّام في شقّتها الصغيرة عالقة بين أمّها وخطيبها. كانت تستعجل نسيان فترات الصمت المشوبة بالارتباك، والأحاديث الجانبيّة بين ليندا وماثيو. لم تقل شيئًا، لكنّها كانت تراهما يتهامسان حالما تدخل الحمّام. لم تُرد أن يكون منزلها فخًّا لها. لعلّه شعور غبيّ، لكنّها كانت تشعر في قلب لندن بأمان أكبر ممّا في شقتها في هايستنغز، حتى لو كان عليها أن تنظر حولها باستمرار تحسّبًا لاحتمال وجود الرجل الضخم ذي الطاقيّة قريبًا منها.

حين ترجلتا من سيارة التاكسي في المحطّة، بذلت روبن قصارى جهدها لتضبط أعصابها. وشعرت بليندا تختلس النظرات إليها في الطريق إلى القطار. هذا المساء، ستعود لتبقى وحيدة مع ماثيو، وقد يتمكّنان أخيرًا من إجراء تلك المحادثة النهائيّة التي أجّلتها روبن طويلًا. لم تكن روبن ترغب في قدوم أمّها، ومع ذلك فقد شعرت مع رحيل ليندا أنّ حضور هذه الأخيرة أمدّها ببعض القوّة.

وضعت ليندا حقيبتها في حجرة الأمتعة، وعادت إلى الرصيف لتمضي الدقيقتين الأخيرتين مع ابنتها.

– حسنًا، هذه لك وقالت وهي تحمل بين أصابعها 500 جنيه.

– أمّي، لا أستطيع...

– بلى، تستطيعين، قالت ليندا، قد تكونين بحاجة إلى هذا المبلغ لتدفعي مقدّم إيجار منزلك المقبل... أو لتشتري حذاء من ماركة جيمي شو لزفافك.

يوم الثلاثاء تنزّهتا في شارع بوند وتوقّفتا لتتفرّجان أمام واجهات المتاجر. سحرتهما المجوهرات الفخمة وحقائب اليد الأغلى ثمنًا من بعض السيّارات، وملابس الماركات التي لا يمكن لأيّ منهما أن تأمل شراءها يومًا. هذا المكان بعيد جدًّا عن متاجر هاروغايت. وقفت روبن مذهولة أمام متجر

للأحذية. لم يكن ماثيو يحبّ أن تنتعل حذاء عالي الكعب. فأعلنت تتحدّاه أنّها تحلم بانتعال كعب بطول 12 سنتمترًا.

– لا أستطيع، كرّرت روبن وسط جلبة المحطّة التي لا تهدأ.

كان على والديها دفع حصّتهما من نفقات زفاف شقيقها ستيفن، المقرّر في نهاية العام. كما دفعا عربونًا لحفلة زفافها والتي سبق أن أُجّلت. واشتريا فستان الزفاف، ودفعا كلفة تعديله، وخسرا الدفعة الأولى التي سدّداها على حساب استئجار سيّارات موكب العرس.

– أريدك أن تأخذي هذا المال، ألحّت ليندا بتعابير قاسية. فإمّا أن تستخدميه للانطلاق في حياة مستقلّة جديدة، أو لشراء حذاء للعرس.

رغبة روبن في البكاء منعتها من أن تستطيع الإجابة.

– أيًّا كان قرارك، فاعلمي أنّني ووالدك معك كليًّا، قالت ليندا. ولكنني أرجو منك أن تتساءلي لما لم تخبري أحدًا بالسبب الذي يدفعك إلى إلغاء العرس. لا يمكنك مواصلة العيش وسط الغموض. هذا غير مفيد لكليكما. خذي هذا المال وقرّري.

عانقت ليندا ابنتها بحرارة وقبّلتها على خدّها، وعادت للصعود إلى عربة القطار. إستطاعت روبن أن تبتسم وهي تلوّح لها فيما كان القطار ينطلق إلى ماشام، حيث والدها، وكلب اللابرادور وكلّ الأشياء الرائعة التي تعرفها جيّدًا. بعد ذلك، وحين لم تعد في خطر أن يراها أحد، تهالكت جالسة على المقعد المعدنيّ البارد، وأخفت وجهها بيديها، وبكت في صمت فوق الأوراق المالية التي أعطتها إياها ليندا.

– إبتسمي أيتها الحسناء، مَن تخسر رجلًا تجد عشرة رجال آخرين.

رفعت ليندا نظرها، فرأت رجلًا سمينًا رثّ الملابس ينظر إليها بعيني الشهوة.

نهضت عن مقعدها ببطء. كانت توازيه طولًا، فالتقت عيونهما على مستوى واحد.

– إنصرف، قالت له.

رفّ جفنا الرجل، وتحوّلت ابتسامته إلى تكشيرة. وفيما ابتعدت مسرعة وهي تدسّ المال في جيبها، سمعته يصيح بكلمات لم تفهمها، لكنّها كانت لا تبالي. كان غضب عارم يتأجّج بداخلها. شعرت بالحنق على العالم كلّه، وخصوصًا على هؤلاء الرجال القذرين الذين لا يمكنهم أن يروا امرأة تبكي بدون أن يتخيّلوا أنّ لهم الحقّ في التحرّش بها، والذين يحملقون في ثديي امرأة وهم يتظاهرون بأنّهم ينظرون إلى زجاجات النبيذ على أحد رفوف السوبرماركت، والذين تجتاحهم أفكار الشهوة بمجرّد أن تمرّ امرأة أمامهم.

كذلك شمل غضبها سترايك، الذي يعيدها إلى ماثيو لأنّه اعتبرها فجأة مصدر إزعاج له. وكان يفضّل إقفال المؤسسة التي ساعدته على بنائها برغم كلّ العوائق، على أن يدعها تمارس المهنة التي تبرع فيها، أكثر منه أحيانًا. ولأجل ماذا؟ لأنّه اعتبر أنّ ما تعرّضت له قبل سبع سنوات قد ألحق بها إعاقة دائمة، لمجرّد أنّها كانت تمرّ في المكان والزمان غير المناسبين.

نعم، ستتصل بملاهي التعرّي لتعثر على ذلك الوغد الذي نعتها بالصغيرة. لكنها لن تتوقف عند ذلك الحدّ. أرادت أن تكلّم سترايك في الأمر قبل قليل، لكن كان عليها أن ترافق والدتها. أمّا الآن وبعدما أعادها إلى منزلها، فقدت كلّ رغبة في أن تحدّثه.

شدّت روبن حزام سترتها وسارت، عاقدة الحاجبين، مقتنعة تمامًا بأنّ لها الحقّ في أن تتابع دليلًا يجهل سترايك وجوده.

37

This ain't the garden of Eden[1].

Blue Öyster Cult, 'This Ain't the Summer of Love'

ما دامت ستبقى في المنزل، فلماذا لا تستفيد من ذلك لتشاهد العرس الملكيّ؟ منذ الصباح الباكر، جلست روبن على كنبة غرفة الاستقبال أمام شاشة التلفزيون، وكومبيوترها على ركبتيها، وهاتفها المحمول في متناول يدها. أمّا ماثيو الذي كان يستفيد من يوم عطلة، فقد انزوى في المطبخ لئلاّ يزعجها. لاحظت روبن أنّه تغيّر منذ رحيل والدتها. فلم يعد يسارع إلى إعداد الشاي لها، أو يسألها عن عملها، أو يبذل قصارى جهده لإرضائها. بل بات يبدو قلقًا، حذرًا، وأكثر وجومًا. هل أقنعته ليندا في خلال أحاديثهما الجانبيّة بأنّ الخلاف الذي وقع بينهما لا يمكن إصلاحه؟

كانت روبن تعرف تمامًا أنّ عليها هي أن تطلق رصاصة الرحمة. منذ أن كلّمتها روبن على رصيف المحطّة، أدركت أنّ انتظارها طال أكثر من اللازم. برغم أنّها لم تعثر بعد على مسكن، كان عليها أن تعلن لماثيو عن نيّتها الرحيل، وتتّفق معه على كلمة توجّهها إلى الأنسباء والأصدقاء. ولكن بدلًا من

[1] هذه ليست جنة عدن.

الحديث في هذا الموضوع الذي يخلق في شقّتهما الصغيرة وضعًا مشحونًا قابلًا للانفجار، بقيت مسمّرة بالكنبة، تعمل وسط جوّ شديد التشنّج.

وقف المعلّقون التلفزيونيون، بستراتهم الرسميّة التي زُيّنت عُراها بالزهور، يصفون بالتفاصيل الدقيقة الزينة في دير وستمينستر، وصفّ المدعويّن الذي يمتدّ في باحته. كانت روبن تسمع ما يُقال، فيما انهمكت بتسجيل أرقام هواتف نوادي الرقص الخلاعيّ، وملاهي التعرّي وصالونات التدليك الأخرى الكائنة في منطقة شورديتش. ومن وقت إلى آخر، كانت تنتقل إلى الصفحة التالية للاطّلاع على الآراء التي يتركها الزبائن، علّ أحدهم قد تحدّث عن حارس اسمه نويل. لكنّها لم ترَ أيّ اسم، ما خلا أسماء النساء اللواتي يقدّمن خدماتهنّ في تلك المؤسّسات. كان الزبائن يصنّفونهنّ بحسب الحماسة التي يبدينها في القيام بوظيفتهنّ. ماندي، وهي موظّفة في صالون تدليك كانت تقدّم ثلاثين دقيقة كاملة، بدون أن تكون فظّة أبدًا مع الزبون، أمّا شيري الرائعة من نادي بلتواي ستريبرز، فقد كانت دائمًا جاهزة، وخدومة، ومستعدّة للمزاح. وكتب آخر: «أوصيكم حقًّا بطلب زوي، فلها جسد رائع، وأضمن لكم النشوة الكاملة!!!»

لو أنّ روبن كانت في وضع آخر، أو ربّما في حياة أخرى، فلربّما ابتسمت وهي تقرأ هذه التعليقات. معظم الرجال الذين يدفعون مالًا لقاء الحصول على الجنس كانوا بحاجة إلى أن يقنعوا أنفسهم بأنّ النساء يستظرفن صحبتهم، ويجدن دعاباتهم طريفة جدًّا، ويستمتعن وهنّ يدلّكنهم بأجسادهنّ، أو يساعدنهم على الاستمناء. حتّى أنّ أحدهم نشر قصيدة تكريمًا لمدلّكته المفضّلة.

فيما انشغلت بتدوين أرقام الهواتف على لائحتها، كانت تقول في نفسها إنّ بروكبانك لا يمكنه أن يعمل في مكان راقٍ، كتلك الصالونات التي تظهر على مواقعها الإلكترونيّة صور نساء عاريات وسط إضاءة مدروسة، والتي تقترح على الزبائن القدوم مع زوجاتهم.

كانت روبن تعلم أنّ المواخير غير مشروعة. لكنّ نقرات قليلة كانت كافية للعثور عليها على الإنترنت. منذ أن بدأت العمل في مكتب سترايك،

تعلّمت اكتشاف المعلومات في الأماكن الأكثر إثارة للاشمئزاز في الفضاء الإلكترونيّ. بعد بحث دقيق، وقعت على الأماكن الأكثر دناءة، أي المواقع القذرة التي تبيع خدمات قذرة. هنا، لم يعد من مكان للشعر: «إيلاج في الشرج: 60 جنيهًا»، «فتيات أجنبيّات، لا إنكليزيّات لدينا»، «فتيات شابّات، لا يزلن نظيفات». «لا تُدخلوا أعضاءكم الجنسيّة في أمكنة مشبوهة».

غالبًا، ما كانت تلك المواقع لا تذكر عناوينها، بل تكتفي بالإشارة إلى مكان تقريبيّ. كانت روبن تشكّ في أن يدعها سترايك تذهب للتحقيق في تلك الأمكنة، في تلك الأقبية أو الشقق القذرة حيث تعمل الفتيات الآسيويات خصوصًا، أو المضيفات الصينيّات.

منحت نفسها استراحة قصيرة لتتنفّس الصعداء وتتخلّص من الانقباض الذي شعرت به في معدتها. كانت كاميرات التلفزيون تتابع الأميرين ويليام وهاري وهما يسيران معًا في ممشى الكنيسة. فُتح باب غرفة الاستقبال، ودخل ماثيو حاملًا فنجان شاي. لم يعرض عليها فنجانًا، واكتفى بالجلوس في الأريكة صامتًا، وراح يتفرّج على التلفزيون.

عادت روبن إلى بحثها، وقد أثار وجود ماثيو بالقرب منها اضطرابها. حسنًا، لقد دخل بدون ضجيج. وهذا يُعتبر تحسّنًا. بدا أنّه يتقبّل فكرة أن تجلس في زاوية بدون أن يقاطعها، ولو ليعرض عليها فنجان شاي. هذا أيضًا كان أمرًا جديدًا، ناهيك عن أنّه لم يسارع إلى آلة التحكّم عن بعد لتغيير المحطّة.

آنذاك كانت الكاميرات تصوّر واجهة فندق غورنغ. لن تلبث كايت ميدلتون أن تظهر بثوب الزفاف. راحت روبن تنقّل نظراتها بسرعة بين التلفزيون وشاشة كومبيوترها حيث كانت تقرأ التقديرات المكتوبة عن ماخور يقع بالقرب من طريق كومرشال رود.

فجأة سُمعت هتافات رافقتها تعليقات متحمّسة، ما أجبرها على رفع نظرها إلى التلفزيون لترى كايت ميدلتون تصعد في سيّارة ليموزين. كانت ترتدي فستانًا ذا كمّين طويلين من الدانتيل، مطابقين تمامًا للكمّين اللذين كانا لفستانها قبل تعديله.

تقدمت سيارة الليموزين ببطء، وبداخلها كايت ميدلتون، بالكاد يمكن رؤيتها، جالسة بجانب والدها. إختارت أن تترك شعرها بدون ربط، كما خططت روبن أن تفعل. كان ماثيو يحبّ أن تترك شعرها بدون ربط، لكنّ ذلك لم يعد له أيّة أهمية...

واصلت الليموزين طريقها بمحاذاة مبنى مول، وسط هتافات الحشود التي أخذتها الحماسة، وهي ترفع الأعلام البريطانيّة إلى ما لا نهاية.

حين التفت إليها ماثيو، عادت روبن لتدفن وجهها خلف شاشة كومبيوترها.

– هل تريدين الشاي؟

– لا، شكرًا، أجابته بنبرة عدائيّة كادت أن تفاجئه.

إنطلقت إشارة صوتية من هاتفها المحمول الموضوع على الكنبة. حين كانت تتلقى رسائل نصية في أيّام الإجازة، كان ماثيو يوجّه إليها نظرة جارحة أو حزينة. كان يتخيل أن سترايك هو صاحب الرسالة، وكان على حقّ أحيانًا. أمّا اليوم فقد اكتفى بأن يلتفت نحو التلفزيون.

قرأت روبن الرسالة النصية التي وصلتها:

ما أدراني بأنّك لست صحفيّة؟

ذلك كان الدليل الذي تتابعه بدون علم سترايك. وقد أعدّت ردّها عليه. كانت سيارة الليموزين تتقدّم وسط الهتافات فيما انشغلت روبن بالكتابة:

لو كنتُ صحفيّة لوجدتَ الصحفيّين أمام بابك. قلت لك أن تبحث عنّي على الإنترنت. ثمّة صورة لي وأنا أدخل المحكمة للشهادة في قضيّة مقتل أوين كواين. هل وجدتها؟

ثمّ وضعت الهاتف من يدها، وقلبها يخفق.

توقفت الليموزين أمام الدير، وترجّلت منها كايت ميدلتون، بفستان من الدانتيل يُبرز قوامها الرائع. بدت سعيدة جدًّا... بدت سعيدة للغاية...

بدأ قلب روبن يخفق بعنف حين تقدّمت العروس المتوّجة بعصبة رأس مرصّعة نحو مدخل الكنيسة.

من جديد انطلقت إشارة صوتية من هاتفها.

نعم، شاهدت الصورة. إذًا؟

سمعت روبن صوتًا مثيرًا للضحك أحدثه ماثيو بفنجانه، لكنّها لم تبالِ. لا بدّ من أنّه يظنّها تكاتب سترايك. هذه هي عادته في التعبير عن انزعاجه، بالتكشيرات الصغيرة والتنهّدات المبالغ بها. رفعت الهاتف إلى أمام وجهها، والتقطت لنفسها صورة.

فاجأ الضوء الوامض ماثيو، فالتفت نحوها. وكان يبكي.

بيد مرتجفة، أرسلت روبن صورتها عبر الهاتف. ثمّ عادت إلى التحديق بالتلفزيون لتتجنّب النظر إلى ماثيو.

كانت كايت ميدلتون ووالدها يسيران في ممشى الكنيسة بخطى بطيئة على سجّادة قرمزيّة اللون تخترق بحرًا من المدعوّين الذين يعتمرون قبّعات. كانت تشاهد النهاية السعيدة لأجمل القصص الخرافيّة: الراعية تتزوّج بأميرها الوسيم، والجمال يتقدّم بخطوات لا رجوع عنها إلى حيث السلطة والمجد...

تذكّرت روبن، رغمًا عنها، الأمسية التي طلب فيها ماثيو يدها تحت تمثال إيروس في ساحة سيرك بيكاديلي. لم يخش إفساد أفضل بزّاته على الدرجات الرطبة والوسخة. ذلك الإعلان المفاجئ عقد لسانها، أمّا المتسوّلون الذين انبعثت منهم روائح كحول أبشع من غازات عوادم السيارات، فقد ضحكوا كثيرًا لمنظره راكعًا أمامها. رأت روبن علبة مجوهرات مخمليّة زرقاء، وبعد ذلك التماع ياقوتة زرقاء، لا شكّ بأنّها كانت أصغر من ياقوتة كايت ميدلتون وأقلّ تألّقًا. قال لها ماثيو إنّه اختارها لأنّها تتناسب ولون عينيها. وحين وافقت على الزواج به، نهض أحد المتسوّلين الثملين مصفّقًا. لا تزال تتذكّر وجه ماثيو المشرق، والذي أضاءته ألوان مصابيح النيون الوامضة من سيرك بيكاديلي.

تسعة أعوام من الحياة المشتركة. تسعة أعوام كبرا خلالها، وتخاصما، وتصالحا، وتبادلا الحبّ. تسعة أعوام من التجارب الصعبة التي كان يُفترض بها أن تقضي على علاقتهما، ولكنّهما تجاوزاها معًا، يدًا بيد.

في اليوم التالي، أرسلتها وكالة التوظيف إلى مكتب سترايك لتعمل كموظفة بديلة. ذلك اليوم بدا لها بعيدًا جدًّا. لقد باتت امرأة مختلفة جدًّا الآن... هذا ما ظنّته على الأقلّ، إلى أن أمرها سترايك بالعودة إلى منزلها لتسجيل أرقام هواتف، متجنّبًا أن يقول متى يمكنها العودة إلى المكتب بصفتها شريكة.

– هما أيضًا انفصلا.

– ماذا؟ قالت روبن.

– نعم، قال ماثيو بصوت مخنوق. وأشار بذقنه إلى الأمير ويليام الذي يلتفت إلى خطيبته، وأضاف: هما أيضًا انفصلا لبعض الوقت.

– أعلم.

أرادت أن تجيبه ببرودة، لكنّ تعاسته أثّرت فيها.

أشعر في أعماقي بأنّك تستحقّين شخصًا أفضل منّي.

– هل حقًّا... انتهى كلّ شيء بيننا؟ سألها.

وقفت كايت ميدلتون بجانب الأمير ويليام أمام المذبح. بدوا سعيدين بأنهما عادا ليكونا معًا.

ظلّت عينا روبن مسمّرتين على الشاشة. كانت تدرك أنّ إجابتها في هذا اليوم ستُعتبر نهائيّة. خاتم الخطوبة لا يزال حيث تركته، في المكتبة، فوق كتاب المحاسبة القديم. ومنذ ذلك الحين، لم يمدّ أحد منهما يده إليه.

ولديّ العزيزين... بدأ رئيس كهنة وستمينستر.

فكّرت روبن في اليوم الذي دعاها خلاله ماثيو إلى موعد للمرّة الأولى في حياتهما. عادت من الثانويّة وخدّاها يشتعلان حماسة وفخرًا. رأت ساره شادلوك في حانة في باث. كانت هذه الأخيرة تقهقه وتتكئ إلى ماثيو الذي أصرّ على إبعادها عنه، وكان بعض العبوس يرتسم على وجهه. فكّرت في سترايك وإلين... لماذا خطرا ببالها في تلك اللحظة؟

تذكّرت المستشفى حيث استُبقيت للمراقبة أربعًا وعشرين ساعة بعد تعرّضها للاغتصاب. وقف ماثيو أمامها شاحب الوجه. فوّت على نفسه امتحانًا في الجامعة ليكون معها. أتى إليها من دون أن يبلّغ أحدًا. لم تتقبّل والدته ذلك. كان عليه تقديم ذلك الامتحان مجدّدًا في الصيف.

كان لي من العمر واحد وعشرون عامًا، ولم أكن أعرف ما أصبحتُ أعرفه اليوم، وهو أنّك الشخص الوحيد في حياتي، وأنّني لن أحبّ أبدًا امرأة كما أحبك...

أمسكت به ساره شادلوك من عنقه. لا شكّ بأنّه أسرف في الشرب. لم يعد يعلم أين أصبحت علاقته بروبن التي حبست نفسها في غرفتها، ولم تعد تتحمّل أن يلمسها أحد...

إشارة صوتيّة جديدة من الهاتف المحمول. نظرت روبن إلى الشاشة في ردّة فعل لا إراديّة.

حسنًا. أصدّقك.

لم تكن روبن تفهم ما تقرأ. ألقت الهاتف على الكنبة بدون أن تجيب. رؤية رجل يبكي كانت أمرًا مؤلمًا جدًّا. كانت عينا ماثيو حمراوان، وكتفاه تنتفضان.

– ماثيو، همست بين شهقتين صامتتين، ماثيو...

ومدّت إليه يدها.

38

Dance on Stilts[1]

تلوّنت السماء باللون الورديّ، لكنّ الشوارع ظلّت تعجّ بالناس. كان مليون شخص من اللندنيّين وأبناء الضواحي والسيّاح يملأون الأرصفة. قبّعات وتيجان بألوان العلم البريطانيّ، ومهرّجون ملأوا بطونهم بالبيرة يسيرون ممسكين بأيدي أطفال لُوّنت وجوههم بألوان فاقعة. والجميع يتقافزون محمولين بزوبعة من المشاعر العاطفيّة الغبيّة. المترو يعجّ بالركّاب، والشوارع اختنقت بالمارّة. وكان هو يشقّ طريقه وسط الحشود، باحثًا عمّا هو بحاجة إليه. سمع مرّات عدّة لازمة النشيد الوطنيّ، التي غالبًا ما شوّهتها أصوات المخمورين. مرّة واحدة سمع ذلك النشيد يؤدّى بموهبة حقيقيّة، بصوت فرقة مغنيّات من بلاد الغال كنّ يقطعن عليه الطريق عند الخروج من المحطّة.

ترك الشيء باكية. كان الزفاف الملكيّ قد أنساها بؤسها لبعض الوقت. لكنّها عادت للغرق في المشاعر العاطفيّة التافهة، والشفقة على الذات، وراحت تلمّح بشكل مبهم إلى الصداقة، وإلى الالتزام بين شخصين، بعبارات قطّعها البكاء. لم يستطع لجم نفسه إلّا لأنّ تفكيره وأعصابه وخلايا جسده كلّها كانت تركّز على ما ينوي القيام به في ذلك المساء. ولم يُظهر الصبر والحنان إلّا لعلمه بأنّه لن يلبث أن يروي غليله. وبدلًا من أن تشكره، طالبته الشيء بالمزيد، إلى حدّ محاولة منعه من الخروج.

[1] الرقص على العصيّ.

كان قد ارتدى السترة التي يخبّئ فيها سكينيه. ثار غيظًا، لكنّه لم يضربها. لا جدوى من ذلك. كان يكفي لإسكاتها أن يكشف لها عن بعض جوانب الوحش الكامن بداخله، بكلمات قليلة، وتصرّفات معيّنة. وحين أغلق الباب خلفه وخرج. لم تكن الشيء تشعر بالاطمئنان.

فيما كان يسير بين الجموع المحتشدة على الرصيف، فكّر في أنّ عليه أن يبذل مجهودًا كبيرًا لتصحيح خطأه، كأن يأتيها بباقة زهور غبيّة وبرسالة فيها كلمات أسف قليلة. لا بدّ من أن يجد أعذارًا تافهة يقدّمها، كالضغط مثلًا... هذه الفكرة جعلته يكشّر كراهية. لم يتردّد في الاصطدام عنوة بالناس في طريقه، لكنّ أيًّا منهم لم يعترض، وخصوصًا حين كانوا يرونه ضخامة جثّته ومشيته. لم يكن الناس سوى أوتاد يجب إسقاطها، أوتاد من لحم ودم، لا أكثر ولا أقلّ. ولم يكن لهم أهمية إلّا بقدر ما يمكنه أن يستفيد منهم. لهذا اكتسبت السكرتيرة أهمية كبرى بالنسبة إليه. لم يسبق له قطّ أن تعقّب امرأة كلّ هذه المدّة.

الواقع أنّ العكس هو الصحيح. فضحيّته الأخيرة شغلته وقتًا طويلًا أيضًا، لكنّ الأمر يختلف. فتلك العاهرة فسّرت له ما عليه أن يفعل، وقدّمت نفسها إليه بحماسة، حتّى يكاد المرء يظنّها أمضت حياتها كلّها تحلم بأن تُقطّع إلى أشلاء. ولكن، كان الأمر حقًّا...

حين تذكّر ذلك، ارتسمت على شفتيه ابتسامة. مناشف الحمّام الدرّاقية اللون، رائحة الدم... ها هو الشعور يجتاح كيانه من جديد... هذا الشعور بالقوّة المطلقة. سينال من امرأة هذا المساء، كان يشعر بذلك...

Headin' for a meeting, shining up my greeting... أمضي إلى موعد، وأهيّئ كلمات اللياقة بكلّ إتقان...

لم يكن يحتاج إلّا إلى فتاة تسير وحيدة بعيدًا عن الحشود، سكرانة بالكحول والمشاعر العاطفيّة. لكنّ الفتيات اللواتي شاهدهنّ كنّ يتنقّلن قطعانًا وزرافات. لعلّ الأفضل له أن يبحث عن عاهرة.

لقد تغيّرت الأزمنة. كان الأمر مختلفًا في الماضي. منذ اختراع الهواتف المحمولة والإنترنت، لم تعد الفتيات بحاجة إلى المكوث في الشوارع. بات

بوسع المرء اليوم أن يطلب فتاة كما يطلب البيتزا، بمكالمة هاتفية واحدة. لكنّه لم يرد أن يترك أثرًا على الإنترنت أو في سجلاّت العاهرات الهاتفيّة. حثالة العاهرات هنّ اللواتي بقين في الشارع. كان يعرف أماكن تسكّعهنّ، لكنّ عليه أن يبحث عن منطقة نائية لم يطأها قطّ، في أبعد مسافة ممكنة من الشيء...

عند منتصف الليل إلّا عشر دقائق، كان يسير في شاكلويل، مخفيًا أسفل وجهه خلف ياقة سترته المرفوعة، وقد أنزل طاقيته حتّى غطّت جبهته. وكانت سكّيناه تهتزّان فوق صدره على وقع خطواته. إنّهما ثقيلتان. كان يحمل سكّين تقطيع كلاسيكية، وساطورًا قصير الشفرة. مرّ بمطاعم هنديّة، وحانات، وكلّها مضاءة ومزيّنة بالأعلام... قد يستغرق الليل بطوله، لكنّه سيجدها...

عند زاوية أحد الشوارع المظلمة، كانت ثلاث نساء يرتدين التنانير القصيرة يدخنّ وهنّ يدردشن. حين مرّ على الرصيف المقابل، نادته إحداهنّ لكنّه تجاهلها وتوارى في الظلمة. كنّ كثيرات العدد، ومحال أن يترك شاهدتين.

كان للصيد سيرًا حسناته وسيّئاته. فالمرء لن يخشى أن تسجّل إحدى الكاميرات رقم لوحة تسجيل السيّارة. ولكن، من جهة ثانية، سيصعب عليه عندما يختار فتاة أن يجد مكانًا يأخذها إليه، ناهيك عن ضرورة الانصراف بسرعة بعد أن ينتهي.

سار في الحيّ لساعة، ووجد نفسه مجدّدًا عند التقاطع حيث سبق أن شاهد العاهرات الثلاث. بقيت منهنّ اثنتان. شاهدة واحدة، يمكن التحكّم بأمرها بسهولة أكبر. كان وجهه مخفيًا بشكل شبه كامل. وقف متردّدًا لبعض الوقت، وفي اللحظة عينها، مرّت سيّارة، فأبطأت سرعتها ثمّ توقّفت أمام الفتاتين. تحادث سائقها معهما لثوان قليلة، ثمّ أقلّ إحداهما وتوارى بها عن الأنظار.

فار في عروقه سمّ مسكر بلغ دماغه. كان الأمر شبيهًا بجريمته الأولى. فيومذاك أيضًا لم يفُز إلّا بالمرأة البشعة.

لم يكن بوسعه أن يضيّع وقتًا. عليه أن يتصرّف قبل أن تعود أخرى.

– هل عدت يا عزيزي؟

كان صوتها مبحوحًا، لكنّه يشي بصغر سنّها، وقد صبغت شعرها القصير بالحنّاء، وملأت الأقراط ثقوبًا عدّة في أذنيها وأنفها. بدا منخراها أحمرين ورطبين وكأنّها مصابة بزكام. كانت ترتدي سترة جلديّة وتنّورة قصيرة من اللاتكس، وتنتعل حذاءين ذا كعبين عاليين جدًّا بدت وكأنّها تتأرجح فوقهما.

– كم تريدين؟ سألها.

الواقع أنّه لم يسمع إجابتها. فالمشكلة لم تكن في السعر بل في المكان.

– يمكننا الذهاب إلى منزلي إذا شئت.

وافق، من غير أن يقتنع تمامًا. كان يرجو أنّها تقيم في شقّة صغيرة أو في غرفة مستقلّة، حيث لن يصادف أحدًا على الدرج، أو شهودًا محتملين. تمنّى أن يكون مكانًا صغيرًا ومظلمًا وقذرًا ومناسبًا تمامًا ليترك جثّة فيه. ولكن إذا كان مكانًا تشاركها فيه أخريات، أو ماخورًا فيه عاهرات أخريات وقوّادة سمينة، أو أسوأ، إذا كان فيه قوّاد...

سارت الفتاة بخطوات مترنّحة على الطريق قبل انتظار إشارة الوقوف الحمراء. مرّت شاحنة صغيرة بيضاء أمامهما مباشرة، فنجح في اللحظة الأخيرة بسحبها من ذراعها وإعادتها إلى الرصيف قبل أن تدهسها الشاحنة.

– يا مخلّصي! قالت، شكرًا يا عزيزي.

من الواضح أنّها كانت معتوهة. شاهد كثيرات مثلها. كان أنفها الأمر والرطب يثير اشمئزازه. إنعكس ظلّاهما على واجهات المتاجر المظلمة. كانت قصيرة القامة وهزيلة، وهو كان ضخمًا وقويّ البنية حتّى ليبدوا وكأنّهما أب وابنته المراهقة.

– هل شاهدت الزفاف؟ سألته.

– ماذا؟

– الزفاف الملكيّ. كانت جميلة.

حتّى هذه العاهرة القذرة الصغيرة مولعة بالزواج. كانت تتكلم عن أمور تافهة بسرعة، وتضحك بين الجملة والأخرى، وتكاد تلوي كاحلها وهي تسير بحذائها الرخيص. أمّا هو فبقي صامتًا تمامًا.

– والعريس أيضًا! مؤسف أنّ أمّه لم تستطع رؤيته، أليس كذلك؟ لقد وصلنا، قالت الفتاة وهي تشير إلى مبنى قريب. أسكن هناك.

بدا له بوضوح مدخل المبنى مضاءً والناس حوله، ورأى رجلًا يجلس على الدرج. فتوقّف عن السير.

– لا.

– ماذا؟ لا تقلق لأمرهم يا عزيزي. إنّهم يعرفونني، قالت بنبرة جدّية تمامًا.

– لا، قال مرّة أخرى بغضب.

وشدّ قبضته حول ذراع الفتاة الهزيل. ما الذي تخطّط له؟ هل تظنّه شرطيًا؟

– هناك، قال لها وهو يشير إلى ممرّ مظلم بين مبنيين.

– عزيزي، لديّ سرير...

– هناك، قال من جديد، حانقًا.

نظرت إليه وجفناها المثقلان بمساحيق التبرّج يرفّان، تعبيرًا عن الارتباك. لكنّ دماغ هذه الغبيّة بطيء الاستيعاب. وفي النهاية تغلّب على تردّدها بدون أن يقول لها شيئًا، فقط بقوّة إرادته.

– حسنًا، كما تشاء يا عزيزي.

كانت خطواتهما تصرّ على الحجارة التي كست الأرض في بعض الأماكن. خشي لبرهة أن يجد أمامه أضواء خافتة أو أجهزة لكشف الدخلاء، ولكنّ خشيته كانت في غير محلّها، فبعد عشرين مترًا أحاطت بهما ظلمة أشدّ حلكة.

أعطاها المال بيده المكسوّة بقفّاز. ركعت الفتاة وأنزلت سحّاب سرواله. لم يكن بحال انتصاب. وفيما انهمكت بإثارته، أخرج بصمت السكّينين من بطانة سترته. شمع صوت غلاف النايلون يُنزع عنهما. وأطبق بكفّي يديه الرطبتين على المقبضين البلاستيكيّين للسكينين.

سدّد إلى بطنها ركلة شديدة ألقت بها إلى الوراء. أفلتت منها حشرجة اختناق. دلّه صوت سقوطها إلى حيث هي. إندفع نحوها وسحّابه لا يزال مفتوحًا وسرواله نصف مُنزل. تعثّر وسقط فوق الفتاة.

بدأت سكّين التقطيع عملها. مرّة. مرّتين. لامست الشفرة عظمة، لعلّه ضلع. ثمّ عاد إلى الطعن. إنبعث من رئتَي الفتاة صفير غريب. بعد ذلك فوجئ بسماعها تعود إلى الصراخ.

كان يجلس القرفصاء فوقها، ومع ذلك فقد كانت تتخبّط. لم يعثر على حلقها الذي كان يأمل ذبحه. وبيده اليسرى التي حمل بها الساطور، سدّد إلى وجهها ضربة عنيفة. لكنّ المدهش أنّها ظلّت تحتفظ بما يكفي من قوّة لتعود إلى الصراخ.

تدفّق من شفتيها المخضّبتين بالدم سيل من الشتائم. سدّد إليها طعنة، ثمّ طعنة ثانية، فثالثة. رفعت يدها لتحتمي بها، فاخترقت السكّين كفّها. خطرت بباله فكرة. لوى ذراعها إلى الخلف، على الأرض، وسحقها تحت ركبته، ورفع سكّينه.

عاهرة، قذرة، حثالة...

– هل من أحد؟

اللعنة!

دوّى في الظلام صوت رجل، من جهة الشارع.

– مَن هناك؟ مَن هناك؟

نهض عن جسد الفتاة، ورفع سرواله، وانسحب إلى الخلف بهدوء حاملًا السكّينين بيده اليسرى، وباليمنى إصبعين مقطوعين بحسب تقديره. قطعتان من اللحم دافئتان، هزيلتان، يسيل منهما الدم... سمعها تواصل الأنين والبكاء... وبعد صفرة طويلة صمتت.

إبتعد عن الجثّة وهو يعرج ليغرق في الفراغ، وحواسّه في أعلى درجات اليقظة، كنمر يقترب منه كلب صيد.

– ماذا يجري هنا؟ قال الصوت مدويًا في الليل.

لامست يداه جدارًا حجريًا. سار بمحاذاته متلمّسًا طريقه ووصل إلى السياج الذي بدا أنّه عند نهاية الجدار. وعلى ضوء مصباح بعيد في أحد الشوارع، رأى مبنى مهدّمًا، وخلف الحاجز مشغلًا لتصليح السيّارات، كما افترض لدى رؤية كتل السيّارات السوداء التي بدت تسبح في الظلام. وفي مكان ما خلفه، سمع خطوات. إنّه الرجل الذي نبّهته صرخات الفتاة.

عليه ألّا يستسلم للذعر ويركض. أقلّ ضجّة قد تكلّفه حياته. تابع طريقه منسلًا ببطء على طول السياج الحديدي المحيط بهياكل السيارات، في اتجاه بقعة أكثر ظلامًا قد تكون مدخلًا، أو شارعًا آخر، أو طريقًا مسدودًا. دسّ السكّينين الداميتين في داخل سترته، ووضع الإصبعين في جيبه، وتابع طريقه، خطوة خطوة، بدون أن يتنفّس.

– ربّاه! آندي... أندي!

أفلت العنان لساقيه. بعد تردّد صدى صيحات الجمع المحتشد، لم يعد بوسعهم سماعه. حالما غاص في الجهة المظلمة، أحسّ ببقعة من العشب الطريّ تحت قدميه. شعر وكأن الكون عاد ليكون صديقه.

كان ذلك المكان طريقًا مسدودًا بجدار يبلغ ارتفاعه نحو مترين. ومن الجهة الأخرى، يُسمع صوت السيّارات. لم يكن أمامه الخيار. تكمّش بالجدار مقطوع الأنفاس، آسفًا على شبابه وقوّته ورشاقته. حاول أن يتسلّق لكنّ قدميه انزلقتا على الجدار الأملس، وأحسّ بالألم في عضلاته.

لكنّ الذعر قادر على اجتراح المعجزات. فوجد نفسه، من دون أن يعرف حتّى، فوق أعلى الجدار، وفي الثانية التالية، في المقلب الآخر. شعر بألم في ركبتيه حين هبط، وترنّح لبرهة ثمّ استعاد توازنه.

هيّا، سر... بشكل طبيعيّ... بشكل طبيعيّ... بشكل طبيعيّ...

كانت السيارات تمرّ مسرعة. مسح يديه الداميتين على سترته بشكل لا يلفت الأنظار. سمع في البعيد أصوات صياح، لكنّه لم يفهم ما يُقال... كان يجب أن يبتعد بأسرع ما يمكنه. سيذهب للاحتماء في المكان الذي لا تعرفه الشيء.

رأى محطّة للحافلات. سار عشرات الأمتار ووقف في صفّ المنتظرين. لم تكن الوجهة مهمّة. المهمّ أن يرحل بعيدًا عن هذا المكان.

تركت إصبعه بصمة حمراء على التذكرة. وحين أخفاها في جيبه، أحسّ بالإصبعين المقطوعتين.

إنطلق القطار، فتنفس الهواء ملء رئتيه ببطء، مرّات عدّة، لكي يستعيد هدوءه.

في الطابق الأعلى للحافلة، كان أحدهم ينشد النشيد الوطنيّ. مجدّدًا. زادت سرعة الحافلة. تسارعت دقّات قلبه لبعض الوقت. بعد ذلك استعاد تنفّسه إيقاعه الطبيعيّ بهدوء.

تأمّل انعكاس صورته في الزجاج القذر، وهو يقلّب بين أصابعه الإصبعين الصغيرين اللذين لا يزالان دافئين. تراجع الشعور بالذعر ليحلّ الانشراح محلّه. نظر إلى عينيه السوداوين في الزجاج وابتسم ابتسامة تواطؤ مع الشخص الوحيد القادر على أن يستمتع بانتصاره.

39

The door opens both ways[1]*...*

Blue Öyster Cult, 'Out of the Darkness'

– أنظر إلى هذا! قالت إلين صباح الاثنين، وهي تنظر إلى التلفزيون بملامح دهشة، وبين يديها قصعة من رقاقات الذرة والفواكه. وأضافت: لا أصدّق!

دخل سترايك المطبخ، بعدما استحمّ وارتدى ملابسه، غداة لقائهما التقليديّ مساء الأحد. كان ذلك المطبخ النظيف، بأنواره المخفّفة، وخزائنه ذات الطلاء القشديّ اللون اللمّاع، وسطوح طاولاته المصنوعة من الفولاذ غير القابل للصدأ، يشبه غرفة عمليّات جراحيّة في محطّة فضائيّة. وخلف الطاولة، وعلى شاشة البلازما المعلّقة على الجدار، كان الرئيس أوباما يتحدّث، واقفًا على شرفة.

– قتلوا أسامة بن لادن! قالت إلين.

– ربّاه! قال سترايك وقد وقف لقراءة الشريط الأخباريّ الذي يمرّ في أسفل الشاشة.

[1] الباب يُفتح في الاتجاهين.

برغم ملابسه النظيفة وذقنه الحليقة، بدا سترايك في حال من الإرهاق الشديد. فالساعات الطويلة التي قضاها في المراقبة لرؤية لاينغ أو يتايكر بدأت تؤثّر في صحّته، واحتقنت عيناه بالدم وبدت سحنته رماديّة اللون.

إجتاز المطبخ ليصبّ لنفسه فنجانًا كبيرًا من القهوة، شربه دفعة واحدة. مساء الأمس، كاد يغفو فوق جسد إلين. واعتبر أنّ مجرّد وصوله بالعلاقة الجنسيّة إلى خاتمة مرضية أمر يمكن اعتباره أحد إنجازات أسبوعه. إستند إلى الطاولة الوسطيّة في المطبخ والمكسوّة بسطح من الفولاذ غير القابل للصدأ، ووقف ينظر إلى الرئيس النشيط بعين الحسد. فأقلّه لقد تمكّن هذا الأخير من النيل من عدوّه.

تواصلت الأحاديث حول ظروف موت بن لادن في حين أوصلته إلين إلى أمام محطة المترو.

– أتساءل كيف استطاعوا التأكّد من أنّ بن لادن في المنزل قبل دخوله، قالت وهي تركن السيّارة.

– كان سترايك قد طرح السؤال عينه على نفسه. من البديهيّ أنّ أوصاف بن لادن كانت مميّزة، فطوله أكثر من 180 سنتمترًا... ومن جديد اتجهت أفكار سترايك إلى بروكبانك ولاينغ وويتايكر، قبل أن تعيده إلين إلى أرض الواقع.

– سألتقي والزملاء في سهرة مساء الأربعاء، إذا كنت تجد الأمر مسلّيًا. وأضافت والانزعاج بادٍ عليها: لقد اتّفقت ودنكان على كلّ شيء تقريبًا. سئمت الاختباء.

– آسف، لا أستطيع. لديّ عمل كثير. قلت لك.

كان مضطرًا إلى أن يخبرها أنّه يقبض مالًا لقاء البحث عن بروكبانك ولاينغ وويتايكر، وإلّا لما فهمت سبب حماسته للعثور عليهم، برغم قلّة النتائج التي حقّقها حتّى الآن.

– حسنًا، إذًا سأنتظر اتّصالك، قالت.

إختار سترايك أن يتجاهل نبرة البرودة في صوتها.

هل يستحقّ الأمر العناء؟ تساءل سترايك وهو ينزل إلى المترو، وحقيبته على ظهره. لم يكن يفكّر في المشتبه بهم الثلاثة، بل في إلين. هذه العلاقة التي رأى فيها في البداية متنفّسًا له، تتحوّل شيئًا فشيئًا إلى عبء. فمواعيدهما مضبوطة بدقّة ساعاتيّ: الأمسيات عينها والمطاعم عينها، وقد بدأ ذلك يتعبه. كما لم يتحمّس كثيرًا لاقتراحها عليه كسر هذا الروتين المضني. فهو يعرف طرقًا عدّة لقضاء الأمسيات أكثر متعة من شرب بضعة كؤوس مع مقدّمي البرامج على راديو ثلاثة، وأوّل تلك الطرق النوم.

عمّا قريب – وكان يشعر باقتراب هذا اليوم بخطوات حثيثة – سترغب إلين في أن تعرّفه بابنتها. نجح سترايك طوال سبعة وثلاثين عامًا في النجاة من صفة حبيب الوالدة. فالرجال الذين مرّوا في حياة ليدا، وقليلون منهم فقط كانوا مستقيمين، وآخرهم ويتايكر، تركوا لديه ذكريات مريرة، بل مثيرة للغثيان. لم تكن لديه أيّة رغبة في أن يرى في عينَي أيّة طفلة الخوف والحذر اللذين كان يراهما في عينَي لوسي كلّما فُتح الباب ليدخل منه رجل مجهول. أمّا نظرته هو، بمَ باحت؟ كان يجهل الإجابة. قضى سنوات طويلة يمتنع عن إثارة هذه الناحية من حياة ليدا، مفضّلًا عدم الاحتفاظ إلّا بالنواحي الجيّدة: ضحكتها، عاطفتها، فخرها بنجاحات ابنها.

خرج من المترو في نوتينغ هيل ليقوم بالمراقبة بالقرب من المدرسة حين أزّ هاتفه المحمول. نظر فإذا هي رسالة من زوجة «الأب المجنون»:

الولدان لن يذهبا إلى المدرسة، هذا يوم عطلة. إنّهما مع جدّيهما. لن يذهب إلى هناك.

أطلق سترايك شتيمة. لقد نسي تمامًا أنّ هذا يوم عطلة. الناحية الإيجابيّة هو أنّ وقته كان بكامله له. ويستطيع الاهتمام بما تكدّس في مكتبه من أعمال ورقيّة، ومن ثمّ العودة إلى كاتفورد برودواي، في وضح النهار للمرّة الأولى. ليته تلقّى هذه الرسالة النصيّة من قبل، لكان وفّر على نفسه الرحلة إلى نوتينغ هيل.

بعد أربعين دقيقة، كان سترايك يصعد الدرج المعدنيّ لمكتبه متسائلًا للمرّة الألف وأكثر لماذا لم يبلّغ بعد مالك المبنى بأنّ المصعد معطّل. ولكن حين وصل إلى منبسط الدرج، طرأ على باله سؤال أكثر إلحاحًا: لماذا أنوار مكتبه مضاءة؟

دفع سترايك الباب بعنف شديد جعل روبن تجفل فوق كرسيّها برغم أنّها سمعته يلهث أثناء صعوده. نظر كلّ منهما إلى الآخر، هي بنظرة تحدٍّ، وهو بنظرة لوم.

– ماذا تفعلين هنا؟

– أعمل، قالت روبن.

– قلت لك أن تعملي من منزلك.

– إنتهيت. قالت وهي تنقر بأصابعها كومة صغيرة من الأوراق على مكتبها، مغطّاة بأرقام هواتف وملاحظات مكتوبة بخطّ واضح، وأضافت: هذه هي الأرقام التي استطعت العثور عليها في شورديتش.

نظر سترايك إلى يدها. لم تلفته الصفحات التي كانت تدلّه إليها بل خاتم الخطوبة الياقوتيّ.

تلت ذلك فترة صمت. كانت روبن تتساءل لما يخفق قلبها بقوّة شديدة بين أضلعها. هذا سخيف. هي ليست بحاجة إلى التبرير. قرار زواجها بماثيو أمر يخصّها وحدها... هل كانت حتّى بحاجة إلى تذكير نفسها بذلك؟

– إذًا؟ تصالحتما؟ سألها سترايك مديرًا لها ظهره لتعليق سترته وحقيبته.

– نعم، قالت روبن.

تريّث سترايك، ثم استدار نحوها وقال لها:

– ليس لديّ عمل أعطيك إيّاه. لم يبقَ لنا سوى زبون واحد، ويمكنني الاهتمام بأمر «الأب المجنون» بنفسي.

قالت له وقد ضاقت عيناها حنقًا:

– وفي ما يتعلّق ببروكبانك ولاينغ وويتايكر؟

– نعم، ماذا؟

– أما زلت تحاول العثور عليهم؟

– نعم، لكنّ هذا ليس...

– كيف ستدير أربع قضايا في وقت واحد؟

– إنّها ليست قضايا بالمعنى الحقيقيّ للكلمة، فهي لا تعود علينا بالمال...

– إذًا فالأمر ليس سوى هواية بالنسبة إليك؟ ردّت روبن. ألهذا أمضيت نهاية الأسبوع أبحث عن أرقام هواتف؟

– إسمعي. نعم، أنا أريد العثور عليهم، تمتم سترايك...

بحث عن حجج مقنعة، مقاومًا التعب والانفعالات التي اجتاحته بعدما اكتشف عودتها إلى خطيبها، والتي لا يمكن تفسيرها. منذ البداية، كان يتوّقع حدوث هذا الأمر حين أرسلها إلى منزلها وتركها تقضي وقتًا مع ماثيو. قال:

– لكنّني لا...

– كنتَ مسرورًا بأن أقودك إلى بارو بالسيّارة... وأن أستجوب هولي بروكبانك ولورين ماكنوتون، أليس كذلك؟ ما الذي تغيّر؟ قالت روبن التي استعدّت لهذه المواجهة، بعدما فهمت تمامًا أنّه لم يعد يريدها.

– تبًّا يا روبن! لقد أرسلوا إليك قطعة أخرى من جثّة إنسان! هذا ما تغيّر!

لم يكن يريد أن يصيح، لكنّ صوته تردّد على الخزائن الحديديّة.

لبثت روبن جامدة. سبق لها أن رأته في حالة غضب. سبق لها أن رأته يضرب هذه الخزائن وهو يكيل الشتائم. لم يكن ذلك يؤثّر بها.

– نعم، أجابت بهدوء، وقد خفت كثيرًا. أعتقد أنّ معظم الناس سيخافون إذا ما تلقّوا بطاقة تحتوي إصبع قدم مقطوعًا. أنت نفسك لم يبدُ عليك السرور.

– نعم، صحيح، لأجل هذا...

– ... تحاول أن تدير أربعة أمور في آن واحد، وتعيدني إلى منزلي. لم أطلب منك أيّام إجازة قطّ.

في ساعات النشوة القليلة التي تلت المصالحة بينها وبين ماثيو، ساعدها هذا الأخير على أن تتمرّن على الدفاع عن نفسها. كلّما فكّرت في المشهد كانت تجد الأمر مفاجئًا. ماثيو يلعب دور ربّ عملها، وهي تجتهد على الردّ بالطريقة المناسبة. كان ماثيو مستعدًّا للقيام بأيّ شيء من أجل أن تقبل بالزواج به في 2 تمّوز/يوليو.

– أردت العودة إلى العمل بعد...

– لا يكفي أن تريدي العودة إلى العمل، ردّ سترايك. يجب أيضًا معرفة ما إذا كان الأمر في مصلحتك.

– كنت أجهل أنّك خبير في علم نفس العمل، قالت له روبن بنبرة فيها شيء من السخرية.

– إسمعيني، قال سترايك الذي شعر بانفعال شديد أمام نبرة روبن الباردة والساخرة، خصوصًا وأنّه توقّع نوبة من البكاء، وكذلك شاهد ذلك الخاتم الياقوتيّ يلتمع من جديد في يدها... أنا ربّ عملك، وسأكون مسؤولًا إذا ما...

– ظننتني شريكتك.

– لا فرق في الأمر. سواء أكنت شريكتي أم لا، أتحمّل مسؤولية...

– إذًا تفضّل إغلاق المكتب على تركي أعمل؟ سألته روبن وقد أجّج الغضب وجهها الشاحب.

ربّما كانت روبن تهزمه بالحجّة تلو الحجّة، لكنّ سترايك كان يستمتع سرًّا برؤيتها تفقد هدوء أعصابها. وأضافت تقول:

– أنا ساعدتك على بناء هذا المكتب! أنت تلعب لعبة ذلك القاتل بإبعادي عنك، وبإهمال القضايا المربحة لتندفع إلى حيث هلاكك...

– ما أدراك بأنّي...

– لأنّ شحوب وجهك مخيف، قالت روبن بفجاجة.

أمّا سترايك الذي فوجئ بردّها فكاد ينفجر ضاحكًا للمرّة الأولى منذ أيّام. تابعت تقول:

– باختصار: إمّا أنّني شريكتك أو أنّني لست كذلك. إذا واصلت معاملتي كقطعة من الخزف الفاخر التي لا تُعرض إلّا في المناسبات المهمّة

خوفًا من أن تنكسر، فنحن... نحن هالكان، والمكتب هالك. والأجدى لي أن أقبل بعرض واردل.

– أيّ عرض؟ قاطعها سترايك.

– عرض الانتساب إلى الشرطة، قالت روبن وهي تحدّق في عينيه. تعرف أنّ هذه ليست لعبة بالنسبة إليّ. لست طفلة صغيرة. عشت ما هو أسوأ من استلام إصبع قدم في ظرف، وبقيت حيّة. حسنًا، إذًا... ثمّ أضافت متسلّحة بكلّ شجاعتها، وكانت تحبّ ألّا يصل بها الأمر إلى توجيه هذا الإنذار: قرّر. من أنا بالنسبة إليك؟ شريكة أم عبء؟ إذا لم يكن بوسعك الاتّكال عليّ، إذا لم تكن تريدني أن أواجه المخاطر عينه التي تواجهها، فالأجدى بي... كاد صوتها يختنق، لكنّها أرغمت نفسها على المتابعة: الأجدى بي أن أرحل.

ثمّ أدارت كرسيّها لتواجه كومبيوترها، لكنّ شدّة انفعالها جعلت الكرسيّ يواصل دورته حتّى باتت تواجه الجدار. إستعانت بما تبقّى من كرامتها وصحّحت جلستها وعادت إلى فتح الرسائل الإلكترونيّة بانتظار ردّه.

قبل أن تحدّثه عن الدليل الجديد الذي عثرت عليه، كانت تريد أن تعرف إن كان ينوي إعادتها إلى العمل بصفتها شريكة. وعلى أساس قراره، إمّا أن تتقاسم كنزها معه، أو تتركه له كهديّة وداع.

– مهما كان هذا الرجل، فهو يقتل النساء ويقطّع جثثهنّ للذّته الخاصّة. وقد أعلن بوضوح عن نيّته بجعلك تواجهين المصير عينه.

– أدركت هذا جيّدًا، قالت روبن بصوت متوتّر، بدون أن ترفع نظرها عن الشاشة. ولكن أنت، هل أدركت جيّدًا أنّه، وما دام يعرف أين أعمل، فلا بدّ من أنّه يعرف أيضًا أين أسكن؟ وأنّه، إذا كان مصمّمًا على النيل منّي كما تقول، فسيجدني في أيّ مكان؟ الأجدى بي أن أساهم في اعتقاله بدلًا من أن أبقى مكتوفة اليدين في انتظار أن يصل إليّ. هل تفهم هذا؟

لم تكن لديها النيّة لتتوسّل إليه. تسنّى لها الوقت لتتخلّص من نحو عشر رسائل إلكترونيّة دعائيّة، قبل أن يجيبها بصوت مكتوم:

– موافق.

– علامَ؟ سألته وهي تنظر نحوه بحذر.

– موافق على أن تعودي إلى العمل.

أشرق وجهها انشراحًا، أمّا هو فلم يكن قادرًا على الابتسام.

– دعك من هذا التجهّم، قالت وهي تقفز لتدور حول المكتب.

في لحظة عدم تركيز، خُيّل لسترايك أنّها تقترب لتعانقه لشدّة ما بدت سعيدة. هل بات بعد عودة خاتم الخطوبة إلى إصبعها مجرّد كائن – لا رجل – غير مؤذٍ، ويمكن معانقته بحرارة بدون أيّ شعور بالذنب؟ ولكن لا، كانت روبن تتّجه إلى الغلاّية الكهربائيّة.

– لديّ دليل، قالت له.

– حقًّا؟ أجاب وهو يحاول أن يجد تفسيرًا لهذا المعطى الجديد.

ألم يكن ما ينوي أن يطلبه منها أمرًا في غاية الخطورة؟ إلى أيّ فخّ يغامر بأن يقودها؟

– نعم. أقمت اتّصالًا مع أحد روّاد الإنترنت الذين كانوا يتبادلون الدردشة مع كيلسي على منتدى اضطراب سلامة الهوية الجسدية.

تهالك سترايك الذي استبدّت به الرغبة في التثاؤب على مقعد الجلد الاصطناعيّ، الذي أطلق أصوات الريح الغريبة. لم يفهم ماذا تعني. كان إحساسه بالنعاس شديدًا لدرجة أنّ ذاكرته التي لا تخطئ في العادة، خانته هذه المرّة.

– الرجل... أم المرأة؟ سألها وقد اختلطت في ذاكرته الصورتان اللتان عرضهما واردل عليهما.

– الرجل، قالت روبن وهي تصبّ الماء المغليّ على أكياس الشاي.

للمرّة الأولى في علاقتهما، وجد سترايك لذّة في أن يوجّه إليها لومًا.

– هل أفهم منك أنك وجّهت رسائل عبر الإنترنت بدون أن تخبريني؟ ولعبت مع عدد من الشركاء المجهولين بدون أن تكون لديك أدنى فكرة عما تخاطرين به؟

– قلت لك إنّني أعمل على الأمر! قالت روبن وقد شعرت بالإهانة. أتتذكّر حين وجدت الأسئلة التي طرحتها كيلسي بشأنك في أحد المنتديات؟

دعت نفسها «الوحدة القاتلة». قلت لك ذلك كلّه حين أتى واردل إلى هنا. وقد أثار ذلك انطباعه؟

– أثار انطباعه؟ إنّه يسبقك بأشواط. لقد استجوب اثنين ممّن كانوا يدردشون معها عبر الإنترنت. هذا لا يقود إلى شيء. لم يرياها قطّ. وقد انتقل واردل إلى أمر آخر، وهو الآن يبحث عن رجل يدعى «المتفاني»، يستعمل الموقع للقاء النساء.

– أعرف «المتفاني».

– كيف؟

– أراد أن يرى صورتي، وحين لم أرسلها إليه، توارى...

– إذًا فقد غازلت معتوهين؟

– بربّك! قالت روبن وقد عيل صبرها، تظاهرت بأنّني مضطربة نفسيًا. كما أنّني لا أظنّ «المتفاني» شخصًا خطرًا.

مدّت إلى سترايك فنجان الشاي، كما يحبّه تمامًا، أي بعد انتقاعه فترة كافية. لكنّ هذا الاهتمام به أثار غضبه أكثر، بدلًا من أن يهدّئ ثورته.

– لا تظنّين «المتفاني» شخصًا خطرًا؟ إلامَ تستندين لتقولي أمرًا كهذا؟

– منذ وصول تلك الرسالة... أعني رسالة الرجل الذي كان يركّز على ساقك، قمت بأبحاث حول مرضى الأكروتوموفيليا. نادرًا ما يقترن حبّ فقدان الأعضاء بالعنف. كلّ الاحتمالات ترجّح أن يكون «المتفاني» من الأشخاص الذين يمارسون الاستمناء أمام شاشة الكومبيوتر وهم يتخيّلون نساء يردن بتر أعضائهنّ.

لم يجد سترايك ما يجيب به، فاكتفى بشرب جرعة شاي، حتّى بدون أن يشكرها لأنّها قدّمت له الفنجان.

– بأية حال، واصلت روبن، فإن الرجل الذي كان يدردش مع كيلسي، أعني الرجل الذي أراد بتر ساقه هو أيضًا، قد كذب على واردل.

– فيمَ؟

– لقد قابل كيلسي خارج الإنترنت.

– حقًّا؟ سألها سترايك الذي كان يجد صعوبة في الحفاظ على هدوئه، وما أدراك بذلك؟

– الشخصّ المعنيّ نفسه أخبرني كلّ شيء. خاف كثيرًا حين اتّصلت به الشرطة. أفراد عائلته وأصدقاؤه يجهلون موضوع هوسه جهلًا تامًّا. وبفعل الذعر قال للشرطة إنّه لم يلتقِها قطّ. كان يخشى أن يعترف بالحقيقة فتُذاع قصّته ويرغَم على الشهادة أمام المحكمة. بأيّة حال، حالما استطعت إقناعه بأنّني لست صحفيّة ولا شرطيّة...

– هل قلتِ له مَن أنت؟

– نعم، كان ذلك أفضل تكتيك، لأنّه وحالما اقتنع وافق على لقائي.

– وما أدراك بأنّه ينوي حقًّا لقاءك؟

– لأنّني أملك ضدّه وسيلة ضغط لا تملكها الشرطة.

– وما هي؟

– أنت، ردّت ببرودة. وفي الحال ندمت على أنّها لم تجب بطريقة أخرى، وأضافت: جايسون مستعدّ لأن يفعل أيّ شيء من أجل أن يقابلك.

– يقابلني؟ لماذا؟ سألها سترايك الذي بدا مستغربًا تمامًا.

– لأنّه مقتنع بأنّك بترت ساقك بنفسك.

– ماذا؟

– كيلسي هي مَن أقنعته بتلك الفكرة. وهو الآن يريد أن يعرف منك كيف فعلت ذلك.

– ربّاه! ربّاه! إنّه مريض عقليّ، أليس كذلك؟ نعم، بالطبع هو مريض عقليًّا قال سترايك وهو يطرح الأسئلة ويجيب عنها. هذا بديهيّ. يريد أن يبتر ساقه، تبًّا! ربّاه! ربّاه!

– تختلف الآراء في هذا الخصوص. لا نعرف حقًّا ما إذا كان اضطراب سلامة الهوية الجسدية مرضًا عقليًّا أو شذوذًا دماغيًّا. حين يتمّ تصوير دماغ شخص يعاني هذا المرض بالسكانر...

– غير مهمّ، قال سترايك متجنّبًا الحديث بحركة تدلّ على نفاد صبره. ما الذي يجعلك تظنين أنّ هذا المعتوه يمتلك معلومة ما؟

– لقد قابل كيسلي، كرّرت روبن من دون أن تخفي شعورها بالضيق. لا شكّ بأنّ كيلسي شرحت له سبب تأكّدها من أنّك واحد منهم. عمره تسعة عشر عامًا ويعمل في أسدا، في ليدز. لديه في لندن خالة، وينوي القدوم لزيارتها. سنغتنم الفرصة للّقاء به. لم نحدّد زمان اللقاء بعد. سيخطرني حين يمنحه ربّ عمله إجازة. إسمع، لعلّه يعرف الشخص الذي أقنع كيلسي باعتبارك بترت ساقك بنفسك، تابعت تقول.

كانت روبن تشعر بالخيبة والانزعاج في الوقت عينه، من قلّة الحماسة التي أبداها سترايك أمام نتيجة أبحاثها، لكنّها لم تفقد الأمل بأن يهدأ ويتوقّف عن كيل الانتقادات لها. ثمّ أضافت:

– الاحتمال كبير بأن يكون ذلك الشخص هو القاتل!

عاد سترايك إلى شرب الشاي، تاركًا لكلمات روبن أن تخترق دماغه المنهك. كان تحليلها منطقيًا، كما أنّ نجاحها في إقناع جايسون بلقائها كان عملًا بارعًا. يجب عليه أن يهنّئها، ومع ذلك واصل شرب فنجان الشاي بدون أن يقول شيئًا.

– إذا كنت تفضّل أن أتّصل بواردل لأنقل إليه هذه المعلومة... قالت روبن بصوت مليء بالامتعاض.

– لا، ردّ سترايك بسرعة جعلت روبن تشعر بشيء من الرّضا. وأضاف: إلى أن نعرف ماذا... لا داعي إلى تضييع وقت واردل. سنبلغه حين نحصل على شهادة هذا المدعوّ جايسون. متى سيأتي إلى لندن؟

– إنّه يحاول الحصول على إجازة. لا أعلم بعد.

– يستطيع أحدنا الذهاب إلى ليدز.

– هو يرغب في المجيء إلى هنا، تجنّبًا لانتشار هذه القصّة في محيطه.

– حسنًا، قال سترايك باستياء وهو يفرك عينيه المحتقنتين بالدم.

كان عليه أن يجد لروبن عملًا ما تقوم به، ومهمّة تكون جديّة وخالية من المجازفة في الوقت عينه. فقال لها:

– واصلي الضغط عليه. وحتّى يقرّر المجيء، اتّصلي بأرقام هذه اللائحة لنعرف أين يختبئ بروكبانك.

– باشرت بالأمر، أجابت.

سمع سترايك في صوت روبن نبرة ثورة. سوف تطالبه بالعودة للعمل على الأرض، فتابع يقول وهو يفكّر بسرعة:

– كذلك أريد أن تراقبي وولاستون كلوز.

– من أجل لاينغ؟

– تمامًا. إحرصي على البقاء في الظلّ والعودة إلى منزلك قبل المغيب. وإذا ظهر صاحب القبّعة، تتوارين أو تستعملين جهاز الإنذار ضدّ الاغتصاب. والأفضل أن تعتمدي الطريقتين.

كانت سعادة روبن بالعودة إلى عملها، بصفتها شريكة كاملة، كبيرة جدًّا لدرجة أنّ مزاج ربّ عملها، برغم تعكّره، لم يفسد عليها سرورها.

أنّى لها أن تخمّن دوافع سترايك الحقيقيّة؟ الواقع أنّه كان يعرف ويأمل أن هذه المراقبة لن تقود إلى أيّة نتيجة. فهو نفسه قد قام بمراقبة المبنى الصغير ليل نهار، مغيّرًا زاوية المراقبة باستمرار، ومتفحّصًا الشرفات والنوافذ بمنظار الرؤية الليليّة. لا شيء كان يدلّ إلى أنّ لاينغ موجود هناك: فهو لم يرَ أيّ خيال لرجل ضخم الجثّة ينسلّ خلف الستارة، أو رجلًا له عينا ابن مقرض وشعر يصل إلى أسفل جبينه، أو طيف رجل ضخم يتّكئ إلى عكّازين، ويتنقّل بخطوات متأرجحة كما كان الملاكم القديم يفعل. كان سترايك غير متأكّد من أيّة معلومة تتعلّق بدونالد لاينغ. وهو قد تفحّص بدقّة كلّ الرجال الذين دخلوا ذلك المبنى أو خرجوا منه، وقارنهم بصورة الرجل التي ظهرت على موقع «العطاء الحقيقي»، أو بالمجهول صاحب القبّعة. لكنّ النتيجة كانت فشلًا.

– نعم، قال لها. سنتقاسم العمل. أنت ستتكفلين بأمر لاينغ، وأنا بويتايكر. دعي لي نصف أرقام هواتف لائحة بروكبانك. لا تنسي الاتصال بي بانتظام، اتفقنا؟

ثمّ نهض عن الكنبة.

– إتّفقنا، قالت روبن التي كادت تطير فرحًا. في الواقع... يا كورموران...

توقف سترايك الذي كان يتّجه إلى مكتبه، والتفت نحوها.

– ما هذه؟ سألته.

كانت تحمل الأدوية التي وجدها سترايك في درج كيلسي، ثم تركها فوق علبة الرسائل الخاصة بروبن بعدما تحقّق منها عبر الإنترنت.

– آه، هذه. لا شيء.

شيئًا فشيئًا تلاشى شعور روبن بالغبطة. وأحسّ سترايك بشيء من الذنب. كان يعرف أنّه يتصرّف بفظاظة، ولم تكن تستحقّ ذلك. فحاول التعويض.

– إنّه علاج ضدّ البثور وحبّ الشباب، كان لكيلسي.

– نعم، طبعًا. ذهبت إلى منزلها وقابلت أختها. كيف جرى الأمر؟ ماذا قالت؟

لم يكن سترايك يرغب في أن يخبرها عن هايزل فورلي. حتّى أنّ مقابلته معها تلك بدت بعيدة جدًّا. كما كان مرهقًا ويشعر بالضيق من دون أن يستطيع تحديد السبب.

– لا شيء جديدًا، ولا شيء مهمًّا.

– إذًا لماذا عدت بهذا الدواء؟

– خلتها أقراصًا لمنع الحمل... ظننتها كانت تنوي القيام بشيء ما خفية عن أختها.

– آه، قالت روبن. معك حقّ. ليست ذات أهميّة.

ثمّ رمتها في سلّة المهملات.

وجد سترايك أنّ روبن توصلت إلى دليل مهمّ، بعكسه هو الذي لا يملك شيئًا تقريبًا، ما خلا علبة دواء للبثور وحبّ الشباب. فدفعته الرغبة في الثأر لعزّة نفسه إلى المزايدة، وقال:

– كذلك وجدت تذكرة.

– تذكرة ماذا؟

– وكأنّها تذكرة لغرفة تبديل ملابس.

لبثت روبن تنتظر أن يكمل كلامه.

– الرقم 18، قال سترايك.

كانت روبن ترجو أن تعرف المزيد لكنّ عطشها لم يرتوِ. فقد تثاءب سترايك وتخلّى عن الموضوع، قائلًا:

– سنتقابل لاحقًا. لا تنسي أن تطلعيني على كلّ ما تقومين به.

دخل إلى مكتبه وأغلق الباب، ثمّ جلس على كرسيّه وأرخى جسده عليه. لقد فعل المستحيل ليمنعها من العودة إلى الشارع. أمّا الآن فلم يعد يريد سوى أمر واحد فقط، وهو سماعها ترحل.

40

... love is like a gun
And in the hands of someone like you
I think it'd kill[1].

Blue Öyster Cult, 'Searchin' for Celine'

كانت روبن تصغر سترايك بعشر سنوات. وقد أتت للعمل في المكتب كسكرتيرة مؤقّتة، في خطأ غير مقصود من إحدى وكالات التوظيف. كان سترايك آنذاك يواجه مصاعب ماليّة كبيرة، ومؤسّسته على وشك الإفلاس، كما لم يعلن عن حاجته إلى موظفين. لم يوافق على بقائها أسبوعًا إلّا تعويضًا عن خطأه حين اصطدم بها فوق الدرج فكاد يقتلها يوم وصولها. ومع ذلك نجحت روبن في إقناعه بتمديد عقدها أسبوعًا، ثمّ شهرًا، وأخيرًا إلى أجل غير محدّد. ساعدته على إنعاش وضعه الماليّ، وإعادة النشاط إلى أعماله. وفي المكتب تعلّمت أصول المهنة. ولمّا كان المكتب يواجه من جديد وضعًا صعبًا، لم تتمنّ سوى أمر واحد، وهو أن تفعل المستحيل لإنقاذه.

كان الجميع يقدّر روبن. هو نفسه كان يقدّرها. كيف لا يكون هذا بعد كلّ ما اجتازاه معًا؟ ومع ذلك فقد عاهد نفسه منذ اليوم الأوّل على عدم

[1] الحبّ كالسلاح / وبين يدَي شخص مثلك / أعتقد أنّه قد يكون قاتلًا.

الذهاب بعيدًا. وهو يحافظ منذ ذلك الحين على مسافة بينهما، ولا يتجاوز أبدًا الحدود التي رسمها لنفسه.

دخلت حياته يوم قطع علاقته نهائيًا بشارلوت بعد ستّة عشر عامًا متقطّعة من الحبّ والجفاء، اختلطت فيها اللذّة بالألم بدرجات ما زال مستحيلًا عليه أن يقدّرها. كانت لطافة روبن وتفانيها وانجذابها إلى المهنة التي تقوم بها، والإعجاب الذي تكنّه له – لمَ لا يذهب إلى النهاية في المكاشفة ما دام صادقًا مع نفسه؟ – كل ذلك كان كالبلسم على الجروح التي سبّبتها شارلوت له. جروح داخليّة احتاجت حتى تشفى إلى وقت أطول ممّا احتاجت إليه كدمة العين والخدوش التي قدّمتها له بمثابة هديّة وداع.

كان خاتم الياقوت الذي تضعه روبن في بنصرها ضمانة إضافيّة، وإشارة وقوف حمراء تقطع الطريق على أيّ احتمال... بمَ كان ذلك الخاتم يسمح له، إذًا؟ بأن يستطيع الاعتماد عليها؟ أن يصبح صديقها؟ الواقع أنّ تلك الحواجز بينهما تآكلت شيئًا فشيئًا. وهو الآن، وحين ينظر إلى الماضي، يرى أنّ كلًا منهما يعرف عن الآخر تفاصيل حميمة يجهلها معظم الناس. كانت روبن واحدة من ثلاثة أشخاص (بحسب علمه) عرفوا بقصة الجنين الذي زعمت شارلوت أنّها خسرته ولكنّه ربّما لم يكن موجودًا قطّ. إلّا إذا كانت شارلوت قد أجهضت الجنين. كذلك، ما خلا سترايك، قلّة فقط من الناس يعرفون بأنّ ماثيو خان روبن. وبرغم كلّ ما بذله من جهود لإبقائها بعيدة، فقد اتّكأ كلّ منهم على الآخر، بالمعنى الحرفيّ للتعبير. كان سترايك يحتفظ بذكرى واضحة تمامًا عمّا شعر به حين طوّق خصرها بذراعه وساعدها على السير إلى فندق هازليت. كانت طويلة القامة فلم يضطرّ إلى الانحناء للإمساك بها. لم تكن النساء القصيرات القامة يجذبنه.

ماثيو قد لا يروقه هذا، قالت.

لو أنّ ماثيو علم كم أحبّ سترايك تلك اللحظة، لما راقه الأمر بكلّ تأكيد.

لم تكن روبن بجمال شارلوت. فهذه الأخيرة من النساء الاستثنائيّات اللواتي ينظر الرجال إليهنّ فاغري الأفواه وينسون ما يريدون قوله. لكنّ روبن فتاة مثيرة جدًا، ويجب أن يكون المرء أعمى لكي لا يلاحظها حين تنحني

لإطفاء الكومبيوتر. إلّا أنّ الرجال لم يكونوا يفقدون أصواتهم أمامها. بل على العكس من ذلك، فكّر سترايك وهو يتذكّر واردل، يبدو أنّها تطلق ألسنتهم.

ومع ذلك، أكثر ما يروقه فيها كان وجهها وصوتها وحضورها إلى جانبه.

لم يكن يتمنّى وجودها بصورة دائمة إلى جانبه، فذلك كان جنونًا مطلقًا. لا يمكن أن تنشأ بينهما علاقة ويديرا المكتب في الوقت عينه. وبأيّة حال، لم تكن روبن من الفتيات اللواتي يقبلن بإقامة العلاقات. وهو لم يعرفها إلّا مخطوبة أو منهارة بعد فسخ خطوبتها. كانت فتاة للزواج.

بشيء من الشعور بالضيق، جمع كلّ ما يعرفه عن روبن، كلّ الأمور التي لاحظها والتي تجعل منها شخصًا مختلفًا جدًّا عنه. كانت تنتمي إلى عالم تقليديّ جدًّا، وأكثر حماية واستقرارًا. كانت تواعد، ومنذ سنتها الثانويّة الأخيرة، الفتى المغرور عينه – بات يفهم السبب الآن – وهي نشأت في يوركشاير وسط عائلة لطيفة من الطبقة الوسطى، وبين والدين غير منفصلين يبدوان سعيدين في زواجهما، وكلب لابرادور، وسيارة لاند روفر... وحصان بوني، تذكّر سترايك. بوني لعين!

ثمّ عادت إليه ذكريات أخرى، ومن صورة الشابّة المثاليّة خرجت صورة امرأة مختلفة تمامًا. روبن المختلفة هذه كانت لتجد بسهولة محلًا لها في فرع الاستقصاء الخاصّ، فقد خضعت لدورة قيادة سيّارات عسكريّة، وأصيبت بجروح وهي تطارد مجرمًا، ولم تتردّد يوم طُعن سترايك في ذراعه، في أن تستخدم حزام معطفها لتصنع منه مرقأة تحقن بها دمه قبل أن تقوده إلى المستشفى. كانت روبن تفاجئ المشتبه بهم بأسئلة تمكّنها من انتزاع معلومات منهم تعجز حتّى الشرطة عن الوصول إليها. إخترعت شخصيّة فينيشيا هول وجسّدتها ببراعة. ونجحت في إقناع شابّ مرتعب، يرغب في بتر أحد أعضائه، بالتعاون معها. في ذهن سترايك عدد لا يحصى من المبادرات ومن براهين الشجاعة والكفاءة التي كان شاهدًا عليها. كان يعرف أنّها تملك كلّ صفات الشرطيّة، وأنّها كانت لتصبح شرطية لولا أنّ وغدًا يضع قناعًا ترقّبها واختبأ في ظلمة بيت درج.

وهذه المرأة كانت تنوي الزواج بماثيو! وهذا الأخير رجل يفضّل أن تجد لها وظيفة هادئة في قسم الموارد البشريّة في شركة ما، وتتقاضى راتبًا كبيرًا يكمل راتبه. رجل يلومها على ساعات عملها غير المنتظمة وعلى راتبها الضئيل... ألا ترى أنّها ترتكب خطأ فادحًا؟ لماذا أعادت ذلك الخاتم إلى إصبعها؟ ألم تذق طعم الحرية في خلال اليومين اللذين قضتهما معه في بارو؟ كان سترايك يتذكّر ذينك اليومين بلذّة يشوبها القلق.

كانت ترتكب خطأ فادحًا، وحسب.

وحسب. لا شيء شخصيًّا في ما يفكّر فيه. سواء أكانت مخطوبة أو متزوّجة أو عزباء، فلا شيء جيّدًا يمكنه أن ينتج، ولن ينتج، من هذا الضعف الذي يشعر به تجاهها. عليه الاعتراف بذلك. عليه الحرص على إعادة المسافة المهنيّة بينهما، والتي سقطت ليحلّ محلّها نوع من الزمالة، في خلال الرحلة إلى الشمال، وحتى قبلها، حين باحت له بأسرارها تحت تأثير الخمر. وسينسى مشروعه غير الواضح بالتخلّي عن إلين. ففي وقت كهذا، من الأفضل له أن تكون لديه امرأة، وهي امرأة رائعة تحبّ الجنس، وعاشقة ذات صفات تعوّضه عن عدم الرضا الذي تسبّبه له في الوقت الباقي.

تساءل عمّا إذا كانت روبن ستستمرّ بالعمل لديه بعد أن تصبح السيّدة كانليف. لا شكّ بأنّ ماثيو سيستفيد من تأثيره ليبعد زوجته عن وظيفة خطرة وقليلة المردود في الوقت عينه. حسنًا. هي مَن عليها أن ترى أنّ المرء يحصد ما يزرعه.

غير أنّ انفصالًا أوّل غالبًا ما يليه انفصال ثانٍ. هو الأدرى بذلك. كم من مرّة انفصل عن شارلوت؟ كم من مرّة انفجرت علاقتهما وتناثرت ألف جزء؟ وكم من مرّة أعادا لصق ما تبقّى من العلاقة لدرجة أنّه لم يبقَ منها في النهاية ما يمكن إنقاذه، سوى بضع فتات حافظا عليه في مزيج من الأمل والألم والوهم؟

زواج روبن وماثيو سيتمّ بعد شهرين.

ما زال هناك وقت.

41

See there a scarecrow who waves through the mist[1].

Blue Öyster Cult, 'Out of the Darkness'

في خلال الأسبوع التالي، لم يتقابل سترايك وروبن إلّا نادرًا. لكنّ ذلك لم يكن متعمّدًا. فكلّ منهما يقوم بالمراقبة في مكان مختلف، ولا يتواصلان إلّا بواسطة الهاتف المحمول.

كما توقّع سترايك، لم تجد روبن أيّ أثر للجندي السابق في فوج الحدود الملكيّ، لا في وولاستون كلوز ولا في محيطها. ومن جهته أيضًا، لم يحالفه الحظّ كثيرًا في كاتفورد. خرجت ستيفاني الهزيلة مرّات عدّة من الشقة الواقعة فوق مطعم البطاطا. لم يكن سترايك يستطيع البقاء هناك للمراقبة أربعًا وعشرين ساعة على أربع وعشرين. لكنّه ظن أنّه رأى كلّ ما لديها من ملابس، وهي بعض الكنزات المتسّخة وسترة رثّة ذات غطاء للرأس. إذا كانت ستيفاني تمارس الدعارة، كما أكّد شانكر، فلا بدّ من أنّها لا تعمل كثيرًا. بقي سترايك في الظلّ، متسائلًا عمّا إذا كانت ستيفاني ستلاحظه حتّى لو كشف نفسه لها، لشدّة ما بدت عيناها الشاردتان والغائرتان عميقًا مغمضتين عن العالم الخارجيّ، ولا تنظران إلّا إلى داخل نفسها الذي تسيطر عليه ظلمة حالكة.

[1] أنظر هناك. إنّها فزّاعة تومئ إليك من خلال الضباب.

حاول سترايك أن يعرف ما إذا كان ويتايكر يمضي معظم وقته مختبئًا في شقّة كاتفورد برودواي، أم أنّه لا يقيم هناك إلّا في ظروف استثنائيّة. لكنّ ذلك العنوان لم يكن له أيّ خطّ هاتفيّ، كما أنّ السجلّات العقاريّة تذكر أنّ مالك الشقّة شخص يدعى دايرشاك، وهو إمّا أنّه يؤجّرها، أو عاجز عن طرد ساكنيها.

ذات مساء، كان المحقّق يدخّن سيجارته بهدوء بقرب مدخل الممثّلين، وهو يراقب النوافذ المضاءة والأشكال التي بدت تتحرّك في الداخل، حين ارتجّ هاتفه المحمول. كان واردل هو المتّصل.

– سترايك. ما الأمر؟

– أمر جديد، برأيي. أظنّ أنّ صديقنا قد قام بعمليّة جديدة.

نقل سترايك الهاتف إلى أذنه الأخرى لإبعاده عن صوت المارّة. وقال:

– أكمل.

– أصيبت عاهرة في حادثة طعن في شاكلويل. قطع القاتل إصبعين ليحتفظ بهما تذكارًا. فعل ذلك عمدًا، فقد ثبّت ذراعها إلى الأرض وقطعهما.

– ربّاه. متى؟

– منذ عشرة أيّام. في 29 نيسان/أبريل. وقد استيقظت حديثًا من غيبوبة فرضها عليها الأطبّاء.

– بقيت حيّة؟ سأله سترايك محوّلًا نظره عن النوافذ. لم يعد يهمّه وجود ويتايكر في الشقّة أو عدم وجوده، بل فضّل التركيز على واردل.

– إنّها لمعجزة. تلقت عدّة طعنات في بطنها، وأخرى اخترقت رئتيها، كما قطع إصبعين. لكنّ أيًا من الأعضاء الحيويّة لم يُصب بأذى. نحن شبه متأكّدين من أنّه رحل وهو يظنّها ميتة. قادته إلى ممرّ مظلم بين مبنيين لتمارس معه الجنس الفمويّ لكنّ الأمر لم يجرِ كما كان يشتهي. فقد سمع طالبان كانا يمرّان في شاكلويل صرخات الفتاة وذهبا ليريا ما يجري. لو أنّهما تأخّرا خمس دقائق لما نجت. إضطرّوا إلى نقل الدم إليها مرّتين لتبقى حيّة.

– إذًا؟ ماذا قالت؟

– تلقّت جرعات كبيرة من المسكّنات، وهي لا تتذكّر الكثير. تظنّه رجلًا أبيض، ضخم الجثّة، ممتلئًا. يرتدي قبّعة وسترة سوداء مرفوعة الياقة. لم تستطع رؤية وجهه كثيرًا لكنّها تظنّه من الشمال.

– حقًّا؟ قال سترايك الذي بدأ قلبه يخفق بسرعة كبيرة.

– هذا ما قالته. لكنّها لم تكن بوعيها الكامل. كما أنّه أنقذها من شاحنة كادت تدهسها. هذا آخر ما تتذكّره. سحبها فأعادها إلى الرصيف في اللحظة الأخيرة.

– يا له من سيّد نبيل، قال سترايك وهو ينفخ دخان سيجارته في الليل المرصّع بالنجوم.

– طبعًا. إنّه يفضّل تقطيع الجثث وهي بحال جيّدة.

– هل يمكننا الوصول إلى رسم تشبيهيّ؟

– سيزورها الرسّام في المستشفى غدًا، لكنّنا لا نعلّق آمالًا كبيرة على ذلك.

وقف سترايك في الظلام وأخذ يفكّر. شعر بأنّ واردل مضطرب بسبب هذا الاعتداء الجديد.

– ألديك معلومات عن الرجال الذين أشتبه بهم؟

– لا، بعد، قال واردل.

برغم أنّ إجابة واردل المقتضبة خيّبت أمل سترايك، فقد قرّر ألّا يلحّ بالسؤال. كان بحاجة إلى واردل ليتابع مجريات التحقيق.

– ودليل «المتفاني»؟ سأل سترايك وهو ينظر مجدّدًا نحو نوافذ شقّة ويتايكر حيث لا شيء بدا أنّه تغيّر. هل من جديد فيه؟

– أحاول تكليف زملائي في جرائم المعلوماتيّة بالأمر، لكن يبدو أنّ لديهم مشاغل أخرى حاليًا، اعترف واردل بنبرة مرارة. يعتقدون أنّنا أمام شخص منحرف بالمعنى الكلاسيكيّ للتعبير.

تذكّر سترايك أنّ ذلك كان رأي روبن أيضًا. حين قيل كلّ شيء بينهما، أنهى المكالمة مع واردل، وعاد إلى موقعه أمام الجدار البارد لمراقبة نوافذ ويتايكر، والسيجارة في فمه.

في الصباح التالي، تقابل سترايك وروبن في المكتب صدفة. كان سترايك نازلًا من منزله حاملًا علبة ملأى بصور «الأب المجنون»، ولم يكن ينوي المرور بالمكتب لكنّه غيّر رأيه حين رأى طيف روبن عبر زجاج الباب.

– مرحبًا، قالت روبن.

– صباح الخير.

كانت مسرورة برؤيته، وخصوصًا برؤيته يبتسم بعد أن انطبعت لقاءاتهما الأخيرة بشيء من الشعور الغريب بالضيق. كان سترايك يرتدي بزّته الأجمل، تلك التي تجعله يبدو نحيلًا.

– لماذا هذه الأناقة؟ سألته.

– طرأ عليّ موعد عاجل مع المحامي. تريد مني زوجة «الأب المجنون» أن أحضر الصور التي يظهر فيها أمام المدرسة محاولًا الاقتراب من الولدين. إتّصلت بي في وقت متأخر أمس لتخبرني أنّه أتى إلى المنزل كالمجنون وهو يطلق التهديدات، وأنّها تسعى للاستحصال على أمر قضائيّ ضدّه.

– هل هذا يعني أنّنا سنتوقف عن مراقبته؟

– أشكّ في ذلك. «الأب المجنون» لن يستسلم بسهولة، قال سترايك وهو يتحقّق من ساعته. دعك منه، لم يبقَ لي سوى عشر دقائق، وهناك ما أريد إعلامك به.

ثمّ أخبرها كلّ ما يعرفه حول محاولة قتل عاهرة شاكلويل. حين انتهى، كانت سحنة روبن متجهّمة، وبدت مستغرقة في التفكير.

– هل أخذ إصبعين؟

– نعم.

– كنت تقول في فيذرز منذ أيّام إنّ كيلسي ليست ضحيّته الأولى بلا شكّ. وكنت مقتنعًا بأنّه أعدّ لما فعله بها.

أكّد لها سترايك ذلك بإيماءة من رأسه.

– هل تعرف ما إذا حقّقت الشرطة في جرائم أخرى تعرّضت فيها نساء إلى التشويه؟

– أظنّهم فعلوا ذلك، قال سترايك وهو يرجو أن يكون على صواب، وفكّر في أن يسأل واردل في مناسبة مقبلة. وتابع يقول: على أيّة حال، هذا ما سيفعلونه بعد هذه الجريمة.

– هل تستطيع الفتاة التعرّف إليه؟

– كما قلت لك، كان يخفي وجهه. إنّه رجل أبيض وضخم الجثّة ويرتدي سترة سوداء.

– هل أخذوا من الضحيّة عيّنات من الحمض النوويّ؟ سألت روبن.

كانا يفكّران في الوقت عينه في الفحوص الطبيّة التي خضعت لها روبن بعد حادثة الاعتداء عليها. بحكم وظيفته السابقة، كان سترايك يعرف الإجراءات الروتينيّة. أمّا روبن فقد عادت إليها الصور المؤلمة فجأة. كان عليها أن تقدّم عيّنة من بولها في قارورة، كما كانت إحدى عينيها مصابة بكدمة ولا يمكنها النظر بها. أحسّت بالألم في كلّ مكان، كما تورّم حلقها بسبب ضغطه على خناقها. عادت إليها صورتها ممدّدة على طاولة الفحص في المستشفى، وكانت طبيبة نسائيّة تكلّمها بلطف وهي تباعد بين ركبتيها...

– لا، قال لها سترايك. لم... لم يحدث إيلاج. باختصار، يجب أن نذهب. سندع مراقبة «الأب المجنون» اليوم، فهو يعرف أنّ في مصلحته البقاء بعيدًا. أشكّ في أن يأتي إلى المدرسة. إذا كان بوسعك الاستمرار بمراقبة وولاستون...

– مهلًا! أعني إن كان لديك وقت، قالت له مقاطعة.

– دقيقتان أخريان، قال وهو ينظر إلى ساعته من جديد. ماذا يجري؟ هل رأيت لاينغ؟

– لا، لكنّني أعتقد... إنّه مجرّد احتمال. أعتقد أنّ لدينا دليلًا يقودنا إلى بروكبانك.

– أنت تمزحين!

– أظنه في نادي تعرٍّ في محيط كومرشال رود. في البداية، عرفت الحيّ عبر غوغل. إنه مكان قذر. إتّصلت بهم، وحين سألت عن نويل بروكبانك، سألتني امرأة: مَن؟ أتعنين نايل؟ ثمّ سدّت السمّاعة بيدها لتسأل امرأة أخرى

عن اسم الحارس الجديد. من الواضح أنّه بدأ العمل منذ فترة قصيرة. وحين أعطيتها أوصافه، قالت: نعم، هذا نايل. طبعًا، أضافت روبن وهي تقلّل من قدر ما اكتشفته، قد لا يكون هو. لعلّه رجل أسمر يدعى فعلًا نايل. ولكن حين ذكرتُ لها ذقنه المعقوفة إلى الأمام، كانت ردّة فعلها سريعة...

– أنت تصنعين العجائب كالعادة، قال سترايك وهو ينظر إلى ساعته. عليّ أن أنصرف. إبعثي لي عنوان النادي في رسالة نصيّة.

– قلت لنفسي...

– لا، أريدك أن تعودي إلى وولاستون كلوز. لنبقَ على اتصال.

فيما انغلق الباب الزجاجي خلفه وارتجّت الدرجات المعدنيّة تحت وطء قدميه، حاولت روبن أن تتلذّذ بالثناء الذي قدّمه لها قبل ثوانٍ. ومع ذلك، كانت تفضّل أن يكلّفها بمهمّة أخرى، فقد سئمت أن تراقب ذلك المبنى في وولاستون كلوز إلى ما لا نهاية. وبدأت تقول في نفسها إنّ لاينغ لا يسكنه، بل أنّ سترايك يعرف ذلك حتّى.

كانت زيارة المحامي قصيرة ولكن بنّاءة، فقد وضع سترايك على مكتبه كمية كبيرة من الصور الواضحة جدًّا والتي يظهر فيها «الأب المجنون» وهو يخالف بشكل مخزٍ اتّفاقات حضانة ولديه.

– ممتاز، صاح المحامي، وهو يشاهد في الصورة المكبّرة التي بين يديه الولد الأصغر يبكي وهو يختبئ خلف مربّيته، فيما والده يقترب من هذه الأخيرة مهدّدًا وأنفه يكاد يلامس أنفها. وصاح من جديد: ممتاز، ممتاز...

لكنّ المحامي سرعان ما لاحظ علامات البؤس على وجه موكّلته لدى رؤيتها صورة طفلها المرتاع، فاستبدل سعادته بتعبير يلائم الموقف على نحو أفضل، وقدّم لهما الشاي.

بعد ساعة كان سترايك، الذي خلع ربطة عنقه وأخفاها في جيب سترته، يسير خلف ستيفاني في الطريق إلى وسط كاتفورد التجاريّ. للوصول إلى هناك، يجب المرور بمنحوتة عملاقة من الألياف الزجاجيّة على هيئة هرّ أسود يبتسم، جاثم على عمود يمتدّ على طول الممرّ المؤدّي إلى المتاجر. كان ارتفاع ذلك الهرّ يساوي طابقين، من قائمته المدودة نحو المشاة وحتى طرف

ذيله المصوّب نحو السماء، ويوحي بأنّه يستعدّ للتبوّل على المارّين تحته، أو بالقبض عليهم لدى مرورهم.

كان قرار سترايك بالسير خلف ستيفاني مفاجئًا. إنّها المرّة الأولى التي يلاحقها خلالها، وقد أزمع على العودة إلى موقعه للمراقبة حالما يعلم مَن تذهب إلى موعد معه، وأين. كانت ستيفاني تسير كعادتها مكتوفة الذراعين، وكأنّها تخشى أن تسقط أرضًا فتتفتّت، وترتدي سترتها الدائمة الرماديّة وذات غطاء الرأس، وتنوّرة قصيرة سوداء وجوربين لاصقين طويلين. كما بدت ساقاها أكثر نحولًا في الحذاء الرياضيّ الضخم الذي انتعلته. دخلت صيدليّة، ورآها سترايك من خلال الواجهة تنتظر دواءها وهي تجلس متقوقعة فوق كرسيّ، شاردة تتأمّل قدميها. أخذت الكيس الأبيض الصغير وانصرفت كما أتت، مارّة تحت قائمة الهرّ العملاق. وبدلًا من الصعود إلى الشقّة، سارت متجاوزة المطعم، ثمّ انعطفت يمينًا أمام مركز الأطعمة الأفروكاريبيّة، لتدخل حانة صغيرة تدعى كاتفورد رام، تقع خلف المركز التجاريّ. لم يكن للحانة سوى نافذة واحدة. وقد بدت، بواجهتها الخشبيّة شبيهة بكشك ضخم من الحقبة الفكتوريّة، لولا اللافتات الإعلانيّة المثبّتة فوقها: إحداها لمطعم وجبات سريعة، والثانية لقناة سكاي الرياضيّة، والثالثة لشركة إنترنت.

كانت المنطقة كلّها مخصّصة للمشاة، غير أنّ شاحنة مقفلة رماديّة، مغطّاة بآثار الصدمات ومركونة على مسافة أمتار قليلة من الحانة، وفّرت لسترايك مخبأ ملائمًا. وقف خلفها مفكّرًا. لقاء ويتايكر وجهًا لوجه سيكون أمرًا غير مُجد أبدًا. إذا كانت ستيفاني على موعد معه في هذه الحانة الصغيرة، فسيلاحظ سترايك لحظة دخوله. الواقع أنّ سترايك كان فقط يريد أن يرى كيف أصبح مظهر ويتايكر حاليًا ليستطيع مقارنته بصاحب الطاقيّة، وربّما بصاحب سترة التمويه الذي كان يراقبهما من المطعم اليابانيّ مقابل كورت.

إتّكأ سترايك على الشاحنة وأشعل سيجارة. كان يستعدّ لتغيير موقعه ليرى مع مَن ستخرج ستيفاني من الحانة حين فُتح باب الشاحنة الخلفيّ فجأة. بسرعة، تراجع إلى الخلف خطوات قليلة. خرج من الشاحنة المقفلة أربعة رجال ودخان كثيف حادّ الرائحة شبيه برائحة البلاستيك المحترق.

لكنّ الشرطيّ القديم في فرع الاستقصاء الخاصّ سرعان ما تعرّف إلى رائحة الكوكايين المركّز.

كان الرجال الأربعة يرتدون سراويل جينز وقمصان تي شيرت قذرة. كما أنّ وجوههم المتعبة والملأى بالتجاعيد السابقة لأوانها جعلت من الصعب تحديد أعمارهم. كان اثنان منهم قد فقدا أسنانهما وتراجعت شفاههما إلى داخل فمهما. فوجئوا في البدء برؤية هذا الرجل الأنيق الملابس واقفًا أمامهم، لكنّهم أدركوا من الدهشة التي علت وجهه أنّه يجهل تمامًا ما يجري في الداخل، وعادوا لإغلاق بابها الخلفيّ.

مضى ثلاثة منهم نحو الحانة. لكنّ الرابع وبدلًا من أن يتبعهم، لبث مكانه وعيناه مسمّرتان بسترايك الذي كان يتفرّس به بدوره. إنّه ويتايكر.

كان زوج والدته السابق أضخم جثّة مما يتذكّره عنه. يعرف سترايك أنّ لهما الطول عينه لكنّه نسي كتفيه العريضتين. بدا ويتايكر كهيكل عظميّ ثقيل مكسوّ بجلد مليء بالوشوم، وكان يرتدي قميص تي شيرت عليه شعار فرقة Slayer، وهي فرقة روك تركّز على الشعائر العسكريّة ورموز الشعوذات الباطنية، وتحت قماشه الرقيق ظهرت حدود أضلاعه. كان وجهه الشمعيّ مجعّدًا كتفّاحة ذابلة وقد جفّت بشرته والتصقت بجمجمته، كما كان خدّاه مقعّرين بصورة مخيفة تحت عظمتيهما البارزتين، وشعره المنتصب خفيفًا عند الصدغين، فيما تدلّت ضفائره كأذيال الفئران حول أذنيه المنتفختين، والمثقوبتين لتحملا عددًا كبيرًا من الأقراط الفضيّة. وقف الرجلان وجهًا لوجه: سترايك، أنيقًا على غير عادته في بزّته الإيطاليّة، وويتايكر تنبعث منه رائحة الكوكايين، وعيناه الصفراوان الشبيهتان بعيون كهنة عبادة الشيطان غائرتان خلف جفنيه المرتخيين والمتجعدين.

لم يدرِ سترايك كم من الوقت بقيا هكذا، يتفرّس كلّ منهما بعينَي الآخر، لكنّ سيلًا من الأفكار المتجانسة تمامًا مرّ في ذهنه بهذه الفترة.

لو أنّ ويتايكر كان القاتل لأصابه الذعر ربّما، لكنّه ما كان ليفاجأ كثيرًا برؤية سترايك، بل كان ليشعر بارتباك كبير وهو يرى سترايك واقفًا خلف

الشاحنة المقفلة. ومع ذلك، لم يكن ويتايكر يومًا يشبه غيره من البشر، فهو لطالما أحبّ أن يعتبره الآخرون حكيمًا كبيرًا واسع المعرفة ولا يرفّ له جفن.

حين تحرّك ويتايكر أخيرًا، قال سترايك في نفسه إنّه كان عبثيًّا أن يتوقّع منه ردّة فعل أخرى. فقد افترّ ثغر الرجل عن ابتسامة كشفت أسنانه المتكسّرة. وفي الحال شعر سترايك بعودة الكراهية التي كانت كامنة فيه منذ عشرين عامًا إلى الظهور. وكم كان يرغب في أن يحطّم له فكّه في الحال.

– يا للأناقة، قال ويتايكر. ألست أرى الرقيب شرلوك هولمز؟

حين أدار رأسه، سرّ سترايك حين رأى جمجمة الرجل تلتمع تحت بقايا شعره المبعثرة. كان ويتايكر يصبح أصلع، ولا شكّ بأنّه كان يمقت ذلك لشدّة ما كان مزهوًّا بنفسه.

– بانجو! صاح بأحد رفاقه الذي وصل إلى أمام الحانة. جئ بها إلى هنا!

نقّل ويتايكر نظره بين الشاحنة المقفلة وسترايك والحانة، محرّكًا أصابعه القذرة، بدون أن يمحو عن وجهه تلك الابتسامة الوقحة. برغم أنّه حاول التظاهر باللامبالاة، فقد بدا جليًّا أنّه غير مرتاح. لماذا لا يسأله عمّا يفعله هنا؟ فكّر سترايك. هل يعرف الإجابة مسبقًا؟

خرج المدعوّ بانجو من الحانة وهو يشدّ ستيفاني من معصمها الهزيل. كانت هذه الأخيرة تحمل بيدها الثانية كيس الأدوية الذي يتناقض لونه الأبيض مع قذارة ملابسها وملابس بانجو، وحول عنقها سلسلة ذهبيّة تتراقص.

– لماذا...؟ ماذا...؟ قالت الفتاة متشكّية بدون أن تعرف ماذا يحلّ بها.

أوقفها بانجو إلى جانب ويتايكر.

– إذهب وأحضر لنا البيرة، قال هذا الأخير لبانجو الذي امتثل للأمر، وسار مبتعدًا وهو يجرّ قدميه.

أمسك ويتايكر بعنق الفتاة الهزيل، فرفعت إليه عينيها بنظرة إعجاب تقارب حدّ العبادة. تلك النظرة الخاضعة أكّدت لسترايك أنّ ستيفاني، مثلها مثل ليدا من قبل، ترى في ذلك الرجل أشياء رائعة يعجز هو عن إدراكها. وفجأة، اشتدّت أصابع ويتايكر القابضتين على عنق ستيفاني الذي شحب لونه

بفعل الضغط. وبدأ يهزّها، لا بعنف قد يلفت إليه أنظار المارّة، ولكن بما يكفي ليرسم فوق وجه الفتاة المتألّمة قناعًا من الرعب.

– هل كنت على علم؟

– بمَ؟ تمتمت قائلة فيما كانت أقراص الدواء تخشخش في الكيس الأبيض.

– بأمره! أجاب ويتايكر بهدوء، هذا الرجل الذي يهمّك جدًّا، أيتها العاهرة الصغيرة القذرة...

– لا تلمسها، قال له سترايك الذي لم يكن قد فاه بكلمة بعد.

– هل تصدر إليّ أوامر؟ قال ويتايكر بصوت هامس وعلى وجهه تكشيرة المهووسين.

بسرعة وقوّة مفاجئتين، وضع كلتا يديه حول عنق ستيفاني ورفعها في الهواء. أفلتت الفتاة كيس الأدوية وراحت تحرّك قدميها في الهواء محاولة أن تتحرّر، ومال لون وجهها إلى البنفسجيّ.

لم ينتظر سترايك أكثر، فسدد قبضته إلى بطن ويتايكر الذي سقط إلى الخلف جارًّا معه ستيفاني. قبل أن تبدر منه أيّة ردّة فعل، شمع صوت ارتطام رأس الفتاة بالإسمنت. حالما استعاد ويتايكر أنفاسه راح يكيل سيلًا من الشتائم بصوت منخفض من بين أسنانه المهترئة. لمح سترايك بطرف عينه أصدقاء الرجل الثلاثة يهرعون خارجين من الحانة وعلى رأسهم بانجو، بعدما رأوا ما حدث من نافذة الحانة الوحيدة. وكان أحدهم يحمل في يده مدية قصيرة صدئة.

– هيّا! لا تزعجوا أنفسكم! قال لهم سترايك وهو يقف بثبات وذراعاه مفتوحتان. أفراد الشرطة سيحبّون كثيرًا شاحنتكم الملأى بالكوكايين!

بحركة من يده، أوقفهم سترايك الذي لا يزال أرضًا، مقطوع الأنفاس. لم يسبق لسترايك أن رآه بمثل هذا التعقّل قطّ. كانت وجوه المتفرّجين تحملق فيهم من خلف زجاج الحانة.

– يا ابن العاهرة... يا ابن الساقطة... قال ويتايكر.

– حقًّا؟ أتتكلّم عن الأمّهات؟

كان الدم يغلي في عروق سترايك، المتحرّق لتحطيم وجه ويتايكر الشمعيّ. أمسك بذراع ستيفاني الهزيلة وساعدها على النهوض بحركة واحدة. وأمام نظراتها الفارغة والمذهولة، قال لها:

– لقد قتل أمّي. أتسمعين ما أقوله لك؟ سبق له أن قتل امرأة، وربّما أكثر من واحدة.

حاول ويتايكر الذي بقي أرضًا الإمساك بساق سترايك لإسقاطه، لكنّ هذا الأخير أبعده بضربة واحدة من قدمه، بدون أن يفلت ستيفاني. ظهرت على عنق الفتاة الشاحب الآثار الحمراء التي خلّفتها أصابع ويتايكر، وكذلك أثر السلسلة الذهبيّة التي تدلّت منها حلية بشكل قلب.

– تعالي معي، قال لها سترايك. هذا الرجل قاتل. أعرف ملاجئ للنساء. لا تدعيه يقترب منك أبدًا.

كانت عينا ستيفاني تبدوان كحفرتين مفتوحتين على ليل شديد الظلام. وكان ما يقوله سترايك جنونًا بالنسبة إليها، والحلّ الذي قدّمه بدا أبعد من حدود المعقول. المذهل أنّها وبعد أن خنقها ويتايكر حتّى لم يعد صوتها يخرج من حلقها، ابتعدت عن سترايك وكأنّه يحاول خطفها، ولجأت إلى الرجل الذي عذّبها، وانحنت فوقه وكأنّها تريد حمايته، والقلب الذهبيّ يتأرجح على طرف السلسلة.

كسيّد مطاع، وافق ويتايكر على أن تساعده ستيفاني على النهوض، ووقف أمام سترايك وهو يفرك بطنه الذي يؤلمه، ثمّ استغرق في الضحك كالمعتوهين بصوت يشبه صوت النساء العجائز. لقد فاز بتلك المعركة. كان كلاهما يدرك ذلك. تمسّكت ستيفاني بمنقذها الذي وضع يده خلف رأسها وأغرز أصابعه الوسخة في شعرها وقرّبها من فمه، وراح يقبّلها بنهم. وبيده الحرّة، أومأ لزملائه بالصعود إلى الشاحنة المقفلة. جلس بانجو إلى المقود.

– إلى اللقاء يا صغير أمّك المدلّل، قال ويتايكر لسترايك وهو يدفع بستيفاني إلى مؤخّرة الشاحنة.

قبل أن ينغلق الباب على صياح أصدقائه المختلط بالسباب، نظر ويتايكر في عيني سترايك مبتسمًا، وصنع بيديه حركة الخنق من جديد. ثمّ انطلقت الشاحنة مبتعدة.

لاحظ سترايك أنّ عددًا من الأشخاص تجمّعوا حوله ونظروا إليه بعيون فارغة ومدهوشة، كما يحدث حين تُشعل الأنوار فجأة في قاعة مسرح. وظلّت وجوه أخرى ملتصقة بزجاج الحانة. لم يكن أمام سترايك سوى أن يحفظ رقم لوحة الشاحنة المقفلة قبل أن تختفي عند المنعطف. وحين استدار عائدًا، وهو يغلي غضبًا، ابتعد المتفرّجون مفسحين له الطريق للمرور.

42

I'm living for giving the devil his due[1].

Blue Öyster Cult, 'Burnin' for You'

لا يمكن للمرء أن يبقى بمنأى عن الفشل أبدًا، فكّر سترايك. سبق له أن عرف بعض الإخفاقات في خلال حياته العسكريّة. على رغم التدريب الكثيف، والتحقّق من كلّ المعدّات، والتحسّب لكلّ الاحتمالات، قد يؤدّي سوء الحظّ إلى الفشل. ذات مرّة في البوسنة، فرغت فجأة بطّاريّة هاتف، ممّا أدّى إلى سلسلة من الأعطال كادت تؤدّي إلى مقتل أحد أصدقائه بعدما سلك في موستار طريقًا ما كان عليه سلوكه.

على رغم أنّ الفشل أمر محتمل، كان سترايك ليوبّخ بشدّة أيّ جنديّ بإمرته، لو أنّ هذا الأخير اتّكأ في خلال عمليّة مراقبة إلى شاحنة بدون أن يتأكّد مسبقًا ممّا إذا كان فيها أحد. لم يسع سترايك إلى المواجهة مع ويتايكر. أقلّه هذا ما كان يقوله لنفسه. ولكنّ تفسيرًا مغايرًا كليًّا قد ظهر بعد تفكير عميق وتحليل لتصرّفاته. فالساعات الطويلة التي قضاها في مراقبة شقّة ويتايكر أوجدت لديه حالة شديدة من الإحباط لدرجة أنّه لم يفكّر في الاختباء حين اقترب من الحانة. طبعًا لم يكن بوسعه أن يعلم ما إذا كان ويتايكر في

[1] لا أعيش إلّا لأقدّم للشيطان ما يعود إليه.

الشاحنة، ولكنّ سترايك وبعد التفكير أدرك أنّ ضرب ذلك المعتوه جعله يشعر بمتعة كبيرة.

نعم. كان يرغب بشدّة في إيلامه. فالرجل كان سافلًا حقًّا بضحكته اللئيمة، وشعره القذر، والقميص الذي يرتديه وعليه شعار Slayer، والرائحة البشعة والحادّة التي تنبعث منه، وأصابعه المشدودة على عنق الفتاة الأبيض والصغير، وشتائمه بحقّ أمّه. حين رآه سترايك يخرج من تلك الشاحنة، عاد حالًا ليكون الفتى ابن الثمانية عشر عامًا، الذي لا يفكّر إلّا في مجابهة ويتايكر مهما كانت النتائج.

ومع ذلك لم تكن تلك المجابهة مع ويتايكر ذات فائدة كبيرة، إذا ما استثنينا لحظة السرور القصيرة بضربه. فقد حاول سترايك أن يقارن ويتايكر بالرجل الضخم المعتمر طاقيّة، لكنّه لم يتوصّل لا إلى تأكيد أنّه هو ولا إلى استبعاده. فالرجل الذي جرى خلفه في سوهو لم تكن له ضفائر شعر، ولكن لعلّه ربط شعره الطويل أو أخفاه تحت الطاقيّة. كما بدا له أضخم جثّة من ويتايكر، لكنّ تلك السترة المنتفخة تُكسب المرء مظهرًا ضخمًا. وكذلك لم تكن ردّة فعل ويتايكر لدى اكتشافه سترايك خارج الشاحنة المقفلة واضحة أبدًا. أكان تعبير اللؤم الذي ظهر على وجهه وسيلة لإخفاء انتصاره؟ أم أنّ محاولة الخنق لم تكن سوى تهديد فارغ ومجرّد استفزاز؟ هل أراد ويتايكر أن يقوم باستعراض مبالغ به ليبرهن أنّه لا يزال الأكثر شرًّا والأكثر إثارة للرعب؟

لكنّ ثمّة أمرًا واحدًا على الأقلّ كان مؤكّدًا: وهو أنّ ويتايكر لم يتخلّ عن العنف والنرجسيّة. كما أنّ سترايك علم أمرين آخرين. أوّلهما أنّ ستيفاني ضايقت ويتايكر بطرحها أسئلة عنه. ولكن هل كان سبب اهتمامها بسترايك رابط القربى البعيد بينه وبين ويتايكر، أم بوح هذا الأخير أمامها بمشاعر الكره والرغبة في الانتقام من سترايك؟ هل سمعته يقول إنّه قتل؟ والأمر الثاني أنّ ويتايكر بات له أصدقاء، وهذا أمر جديد. لطالما كان الرجل جذّابًا جدًّا بالنسبة إلى بعض النساء، وهو ما لم يكن سترايك يفهم سببه. ولكنّ الرجال كانوا دائمًا يكرهونه، أقلّه في الفترة التي عرفه سترايك خلالها. كان ويتايكر يتظاهر بأنّه من كبار الملمّين بالعلوم الباطنيّة، ويمارس شذوذ عبدة

الشياطين، ويعبّر عن هوس بأن يكون دائمًا الأفضل والأقوى، كما كان صاحب جاذبيّة غريبة مع النساء. وذلك كلّه كان يستثير ضدّه كراهية شديدة من قبل الرجال. وها هو اليوم قد جمع حوله عصابة من مدمني المخدّرات الذين تركوه يلعب دور الزعيم الصغير.

بنتيجة التفكير، رأى سترايك أنّ أفضل ما يسعه عمله على المدى القصير هو أن يروي مغامرته لواردل ويعطيه رقم لوحة الشاحنة. قد تجد الشرطة أنّ من المفيد تفتيشها بحثًا عن المخدّرات أو عن بعض الأدلّة الجرميّة الدامغة. والعمل الأجدى، برأيه، كان أن تقوم الشرطة بتفتيش الشقّة الواقعة فوق مطعم البطاطا المقليّة.

أصغى واردل بهدوء إلى سترايك يروي مغامرته. برغم إصرار هذا الأخير على أنّ رائحة الكوكايين كانت تنبعث من الشاحنة، بدا الشرطيّ مشكّكًا. وحين أنهيا المكالمة، كان على سترايك أن يعترف لنفسه بأنّ ردّة فعله، في حال كهذه، ما كانت لتختلف عن ردّة فعل واردل أبدًا، فلا يمكن استصدار مذكّرة تفتيش بناء على معلومة بسيطة كهذه. ظلّ الشرطيّ مقتنعًا بأنّ ما يقوله سترايك لا يعدو كونه مجرّد حقد عائليّ، حتّى بعدما أخبره سترايك عن فرقة Blue Öyster Cult، وعن العلاقة بينه وبين الأغنيتين وزوج أمّه السابق.

مساء ذلك اليوم، ولدى اتّصال روبن به لإطلاعه على تقريرها اليوميّ، شعر سترايك بشيء من الارتياح حين روى لها ما جرى. وبرغم أنّها كانت تحمل أخبارًا إليه، فقد أصغت إليه بصمت تامّ، وبدا أنّ روايته أسرتها.

– أنا مسرورة لأنّك ضربته، قالت روبن حين انتهى سترايك من لوم نفسه على الخطأ الذي ارتكبه.

– حقًّا؟ سألها سترايك، مدهوشًا.

– طبعًا. كان يخنق ستيفاني!

ما لبثت روبن أن ندمت على ما قالته. كانت تفضّل ألّا تعيد إلى ذاكرة سترايك القصّة التي ما كان عليها أن ترويها له على الإطلاق.

– رغبتي في لعب دور دون كيشوت جعلتني أفشل تمامًا. فقد سقطت الفتاة معه وارتطم رأسها بالإسمنت. ثمّ أضاف بعد برهة من التفكير: لكنّني

لا أفهم ردّة فعلها. أعطيتها فرصة لتنجو من تلك الحياة. أردت أن أبحث لها عن ملجأ وحرصت على أن تتحسّن حالها. هل يمكنك أن تشرحي لي لما عادت إليه؟ لماذا تتصرّف النساء على هذا النحو؟

صمتت روبن لبعض الوقت، أدرك سترايك خلاله أنّ كلامه يمكن تطبيقه أيضًا عليها هي.

– أفترض، قالت في اللحظة عينها التي قال فيها سترايك «لم أكن أريد...»

ثمّ صمت كلاهما.

– آسف، تابعي ما كنت تقولين، قال سترايك.

– أردت أن أقول إنّ الضحايا يتعلّقن بجلاّديهنّ. فهؤلاء يغسلون أدمغتهنّ إلى حدّ أنّهنّ لا يتخيّلن أنّ هناك حياة أخرى ممكنة.

أنا كنت تلك الحياة الأخرى الممكنة. ما كان عليك إلّا أن تفتحي عينيك!

– هل ظهر لاينغ اليوم؟ سألها سترايك.

– لا، أتعلم؟ أنا لا أظنّه هناك حقًّا.

– ومع ذلك، أعتقد أنّه يجب...

– إسمع. أعرف ساكني الشقق كلّها إلّا واحدة. وهم كلهم يخرجون ويدخلون. فإمّا أنّ تلك الشقّة غير مأهولة أو أنّ بداخلها جثّة. بابها لا يُفتح أبدًا، كما أنّني لم أرَ قطّ ممرّضة أو خادمة تدخلها.

– سنواصل المراقبة أسبوعًا. إنّه الدليل الوحيد الذي نملكه ضدّ لاينغ.

وحين رآها تهمّ بالاعتراض، سارع يقول: أنا أيضًا سأشعر بملل كبير أمام ملهى التعرّي ذاك.

– لكنّنا نعرف أنّ بروكبانك يعمل هناك، أجابت روبن.

– لن أصدّق ذلك إلّا حين أراه، أجاب سترايك.

بعد دقائق قليلة أنهيا المكالمة بدون أن يسعى أيّ منهما إلى إخفاء شعوره بالانزعاج.

كلّ التحقيقات تشهد مدًّا وجزرًا. فالمحقّقون يفتقرون إلى الوحي أحيانًا، ويسعون خلف بعض المعلومات غير المجدية. كان سترايك يعرف ذلك، لكنّه لم يستطع ان يأخذ الأمر بحكمة ورويّة. فبسبب القاتل الذي أرسل الساق، انقطع المال عن المكتب. كما أنّ الزبونة الأخيرة، أي زوجة «الأب المجنون» لم تعد بحاجة إلى خدماته. فالوالد الذي يلاحق ولديه قرّر التوقّف عن كلّ تحدٍّ ليحول دون إصدار أمر قضائيّ بحقّه.

إذا لم تتبدّد بسرعة روائح الفشل والانحراف المجرم المنبعثة من المكتب، لن يكون عليه سوى الإقفال. ما خشي منه قد تحقّق، فاسمه بات يرتبط بجريمة قتل كيلسي بلات وتقطيع جثّتها. وغطّت هذه التفاصيل الدامية على أخبار نجاحاته القديمة في صفحات الإنترنت. حتّى أنّ إعلانه الذي يعرض فيه خدماته قد غاب. ولكن، مَن سيفكّر في إيكال مهمّة تحقيق إلى رجل يملك هذه الشهرة المحزنة؟ إنّ أيّ محقق ارتبط اسمه بجريمة قتل غير محلولة لا يمكنه أن يوحي بالثقة.

لم يفقد سترايك عزمه، ولكنّه لم يكن أسير أوهامه. تلك كانت حالته الذهنيّة حين انطلق نحو نادي التعرّي في شورديتش حيث يعمل نويل بروكبانك. حين وصل إلى الشارع الصغير المؤدّي إلى كومرشال رود، لاحظ أنّ النادي كان في الماضي حانة، تمّ تغيير وجهة نشاطها. حانة أخرى تصبح ناديًا للتعرّي! كانت واجهته الحجريّة تتفتّت في بعض الأماكن. وعلى النوافذ المغطّاة بالطلاء الأسود، أشكال بيضاء رسمها هاوٍ بالفرشاة لنساء عاريات. وعلى الباب ظهر الاسم الأصليّ للمكان، ساراسن، بأحرف كبيرة مذهّبة تحت طبقة الطلاء التي تقشّرت.

كان الحيّ يستقبل عددًا كبيرًا من المقيمين المسلمين. ومرّ سترايك بعدد من النساء المحجّبات، وبرجال يرتدون طاقيات الصلاة يدخلون ويخرجون إلى متاجر الألبسة الرخيصة التي تحمل أسماء غريبة مثل «الأزياء العالمية» أو «صُنع في ميلانو»، وتظهر فيها تماثيل حزينة لعرض الأزياء تحمل على رؤوسها شعورًا اصطناعيّة. إنتشرت على طول كومرشال رود بنوك بنغلادشيّة، ومكاتب عقاريّة حقيرة، ومدارس لتعليم الإنكليزيّة، ودكاكين

بقالة قذرة تعرض فاكهة مهترئة خلف واجهاتها التي يغطّيها الغبار. لكنّ الشارع كان يخلو تمامًا من أيّ مكان للجلوس، فلا مقعد فيه ولا حتّى جدار واطئ مطيّن. كان سترايك يغيّر موقع المراقبة، ولكن من كثرة ما سار وانتظر بلا جدوى، بدأ يحسّ بألم في ركبته. كما أنّ بروكبانك لم يظهر في أيّ مكان.

كان الحارس رجلًا قصيرًا وضخمًا، يبدو وكأنّه بلا عنق. وما خلا الزبائن والراقصات، لم يرَ سترايك أحدًا يدخل باب النادي. كانت الفتيات على صورة المكان، أي أقلّ جمالًا وإغراء من فتيات سبيرمينت راينو. بعضهنّ غطّين أجسادهنّ بالوشوم والأقراط، وكثيرات كنّ سمينات. من خلال واجهة مطعم الكباب على الرصيف المقابل، شاهد سترايك إحداهنّ تصل مترنّحة عند الحادية عشرة قبل الظهر. بدت سكرى وقذرة. كان سترايك، وخلافًا لما قاله لروبن، يراهن كثيرًا على أن يجد بروكبانك في ساراسن، ولكنّه بعد ثلاثة أيّام من المراقبة، كان مضطرًّا إلى الاعتراف بأمر من اثنين: إمّا أنّ بروكبانك لم يعمل في ذلك النادي قطّ، أو أنّه قد طُرد منه.

صباح يوم الجمعة، كان سترايك واقفًا في المكان عينه، أمام متجر للألبسة البشعة جدًّا يدعى وورلد فلير، حين رنّ جرس هاتفه المحمول.

– جايسون سيأتي إلى لندن صباح الغد، قالت له روبن. تتذكّره، إنّه الفتى الذي كان يكلّم الراغبين في بتر أعضائهم عبر الموقع الإلكتروني.

– ممتاز! قال سترايك وقد ارتاح لفكرة أنّ يستطيع أخيرًا استجواب أحد ما. أين علينا لقاؤه؟

– الواقع أنّهما شخصان، أجابت روبن بصوت يرتجف قليلًا. موعدنا هو مع جايسون و«عاصفة»، وهي...

– عفوًا؟ قاطعها سترايك. «عاصفة»؟

– أشكّ في أن يكون هذا اسمها الحقيقيّ، أجابت روبن. إنّها المرأة التي كانت تحادث كيلسي عبر الإنترنت. ذات الشعر الأسود والنظّارة السوداء.

– نعم، نعم، أتذكّر، قال سترايك وهو يحشر الهاتف بين أذنه وكتفه اليسرى ليشعل سيجارة.

– كلّمتها منذ قليل عبر الهاتف. إنّها تناضل لأجل قضيّة المصابين باضطراب سلامة الهوية الجسدية. وهي متعِبة قليلًا، لكنّ جايسون يجدها رائعة، وهو يفضّل أن ترافقه فذلك يطمئنه.

– جيّد جدًّا، قال سترايك. أين الموعد؟

– إختاروا غاليري ميس، مقهى معرض ساتشي.

– حقًّا؟

لمّا كان سترايك قد علم أنّ جايسون يعمل في سوبرماركت، فقد تعجّب من اختياره زيارة معرض للفنّ المعاصر حالما يصل إلى لندن.

– «عاصفة» تتنقّل بكرسيّ معاقين، أوضحت روبن. ويبدو أنّ هذا المتحف يناسب المعاقين.

– حسنًا. في أيّ ساعة؟

– الواحدة بعد الظهر. لقد... سألتني إذا كنّا سندفع الحساب.

– أظنّنا لا نملك الخيار.

– الواقع... كورموران... هل يزعجك أن آخذ إجازة في الصباح؟

– لا، أبدًا. هل كلّ شيء على ما يُرام؟

– نعم. على خير ما يُرام. عليّ فقط الاهتمام ببعض الأمور الخاصّة بالعرس.

– لا مشكلة. مهلًا، أضاف قبل أن تنهي المكالمة. هل نلتقي قبل الموعد بقليل؟ لنتفق على استراتيجيّة الحديث؟

– نعم، ممتاز! هتفت روبن.

عرض عليها سترايك، الذي تأثّر بحماستها، أن يلتقيا في مطعم لتقديم الفطائر في كينغز رود.

43

Freud, have mercy on my soul[1].

Blue Öyster Cult, 'Still Burnin''

في اليوم التالي، لم تكد خمس دقائق تمضي على جلوس سترايك في مطعم الشطائر في كينغز رود حتّى وصلت روبن حاملة كيسًا ورقيًا صغيرًا أبيض. شأنه شأن معظم العسكريّين القدامى، لم يكن سترايك يعرف شيئًا عن الأزياء النسائيّة، لكنّ ماركة جيمي شو كانت تعني له شيئًا.

– حذاء، قال وهو يشير إلى العلبة بعدما طلب لها قهوة.

– أحسنت، قالت روبن مبتسمة. حذاء للعرس نعم.

في النهاية، كان يجب أن يقرّرا الكلام في الموضوع لتجاوز التابو الغريب الذي بدا أنّه وقف حاجزًا بينهما منذ أن أعادت الخاتم إلى إصبعها.

– ألا تزال موافقًا على الحضور؟ سألته فيما كان يجلسان بقرب الواجهة.

لم يكن سترايك يتذكّر أنّه وافق على تلبية الدعوة. صحيح أنّه تلقّى بطاقة الدعوة الجديدة التي كانت تشبه القديمة، أي مطبوعة على كرتون سميك عاجيّ اللون بأحرف سوداء نافرة. ولكنّه لا يتذكّر أنّه وعدها بالحضور.

[1] فرويد، إرحم روحي.

وحين التقت عيناه بنظراتها المتسائلة، لم يستطع سوى التفكير في لوسي والجهود التي بذلتها لإقناعه بالمجيء إلى حفلة عيد مولد ابنها.

– نعم، أجابها مرغمًا.

– هل أردّ على الدعوة بالنيابة عنك؟

– لا، سأفعل ذلك.

الردّ يعني أنّ عليه الاتصال بوالدة روبن، قال سترايك في نفسه. هكذا توقع النساء الرجل في الفخّ: يدعونه إلى مناسبة ما، فيشعر بأنّ المنافذ سُدّت في وجهه، ويصبح لزامًا عليه أن يؤكّد حضوره، وأن يشارك. كما يعبّرن بوضوح عن أنّ التخلّف عن تلبية الدعوة فظاظة كبيرة، لأنّ هناك طبقًا شهيًا سيبرد في المكان المخصص للرجل، وكرسيًا مذهّبًا سيبقى فارغًا أمام البطاقة التي كتب عليها اسم هذا الشخص الذي يفتقر إلى اللياقة. لكنّ سترايك كان يفضّل الانتحار على حضور قران روبن وماثيو.

– أتريد... أترغب في أن أدعو إلين؟ سألته روبن بسخاء، وهي ترجو أن تراه يتحرّر قليلًا من عبوسه؟

– لا، أجاب سترايك بدون أدنى تردّد.

لكنّه اكتشف أنّ في صوته نبرة التماس، فدفعته العاطفة الكبيرة التي يكنّها لها إلى أن يقول بلطف أكبر:

– لنرَ هذا الحذاء قليلًا.

– أتريد أن ترى...!

– أليس هذا ما قلته لك؟

أخرجت روبن العلبة من الكيس وكأنّها تخرج شيئًا مقدّسًا، وهو ما وجده سترايك طريفًا. ثمّ رفعت الغطاء، وأزاحت الورق الناعم فكشفت له عن حذاء رائع بلون الشمبانيا له كعب عال جدًّا.

– هذا ليس حذاء عرس كلاسيكيًا، قال سترايك. ظننته سيكون... لا أعلم... مزيّنًا بالأزهار.

– بالكاد نظرت إليه، قالت روبن وهي تلامس الجلد بطرف سبابتها. إنّه عالي الكعب قليلًا، ولكن...

لم تُنه جملتها. الحقيقة أنّ ماثيو لم يكن يحبّ أن تبدو طويلة القامة كثيرًا.

– إذًا، كيف سنتصرّف مع جايسون و«عاصفة»؟ سألته وهي تعيد إغلاق العلبة قبل إعادتها إلى الكيس.

– بما أنّك مَن اتّصلتِ بهما، فأنت ستتولّين الحديث. ولن أتدخّل إلّا عند الضرورة.

– أتدرك أنّ جايسون سيسألك عن ساقك؟ سألته روبن متضايقة. يظنّك... كذبت حول ظروف بتر ساقك.

– نعم. أدرك ذلك.

– حسنًا. قلت لك ذلك على سبيل الاحتياط لئلاّ يفاجئك سؤاله.

– سأتدبّر أمري، أجابها سترايك الذي وجد قلقها طريفًا. لن أضربه، إذا كان هذا ما تخشينه.

– حسنًا، هذا أفضل. فحسبما يبدو مظهره في الصور، ضربة واحدة منك تكفي لشطره إلى نصفين.

سارا معًا على طريق كينغز رود، وكان سترايك يدخّن. يقع مدخل المتحف في منعطف متفرّع من الطريق، خلف تمثال السير هانس سلون بشعره المستعار وجوربيه. مرّا تحت قنطرة في جدار من الحجارة الخمرية اللون ودخلا ساحة كبيرة تزيّن وسطها دائرة من العشب المجزوز. ولولا ضجيج الشارع خلفهما، لخالا أنّهما في حديقة أحد القصور. كان مقهى ومطعم غاليري ميس هناك، في مبنى شبيه بثكنة قديمة.

كان سترايك يتخيّل المكان نوعًا من المطاعم العاديّة الملحقة بالمتاحف، لكنّه فوجئ بدخوله إلى مؤسسة أفخم بكثير. وحين تذكّر أنّه وافق على دفع حساب ما بدا أنّه سيكون غداء لأربعة أشخاص، شعر بالخوف وهو يفكّر في حسابه المصرفيّ المكشوف.

دخلا في البداية صالة طويلة وضيّقة، تلتها صالة أخرى، تقع خلف قناطر تمتدّ على الجهة اليسرى. وأمام منظر الشراشف البيضاء والخدم ببزّات السموكينغ، وسقوف أقواس العقد المرتفعة، والأعمال الفنية المعاصرة

المنتشرة على كلّ الجدران، زادت خشية سترايك الذي سار خلف رئيس الخدم متسائلًا كم ستكلّفه هذه النزوة الجامحة.

جلس الشخصان اللذان يقصدانهما وسط الزبائن الراقين والذين كانوا بمعظمهم تقريبًا من النساء. كان جايسون شابًا هزيلًا طويل الأنف، يرتدي كنزة بنّية ذات غطاء للرأس وسروال جينز، ويوحي بأنّه شخص كثير الخوف قد يلوذ بالفرار أمام أيّة معاكسة. وبدا وهو مستغرق في تأمّل فوطته، شبيهًا بطائر منتوف الريش.

جسديًا، كانت «عاصفة» نقيض جايسون بحجم مضاعف: فتاة بدينة شاحبة البشرة، شعرها قصير صبغته باللون الأسود، وخلف نظّارتها السميكة ذات الإطار الأسود المستطيل بدت عيناها أشبه بحبّتي زبيب مغروزتين في عجينة قالب حلوى. كانت ترتدي قميص تي شيرت أسود، مزيّنًا برسم متعدّد الألوان لحصان بوني من برامج الكرتون مطبوع فوق صدرها الضخم. وقد ركنت كرسيّها المتحرّك إلى جانب المائدة. وكانت لوائح الطعام مفتوحة أمامهم، وقد طلبت كأس نبيذ.

حين رأت «عاصفة» سترايك وروبن يقتربان، قابلتهما بابتسامة مشرقة، وربّتت على كتف جايسون بطرف سبابتها. نظر الفتى حوله بقلق. لاحظ سترايك الفرق الواضح بين عينيه الزرقاوين، فقد كانت إحداهما أعلى من الأخرى بسنتمتر كامل. وهذا التشوّه جعله يوحي بأنّه شخص سريع القابليّة للأذى، وكأنّ أعضاءه قد رُكّبت على عجل.

– صباح الخير، قالت روبن وهي تمدّ يدها أوّلًا إلى جايسون. أنا سعيدة بلقائك أخيرًا.

– صباح الخير، تمتم وهو يمدّ إليها أصابعه الرخوة. ألقى نظرة خاطفة إلى سترايك، ثمّ حوّل وجهه واحمرّ خجلًا.

– صباح الخير، صاحت «عاصفة» وهي تصافح سترايك مشرقة الوجه. ثمّ أعادت قليلًا كرسيّها إلى الخلف لتدعوه إلى الجلوس إلى الطاولة التي ألصقت بطاولتها. وأضافت: هذا المكان رائع. يمكن التنقّل فيه بسهولة كما

أنّ موظفيه خدومون جدًّا. معذرة! صاحت بالنادل الذي كان يمرّ بهم. هل يمكنني الحصول على لائحتَي طعام أخريين من فضلك؟

جلس سترايك بالقرب منها، فيما أزاح جايسون كرسيّه ليفسح المجال لروبن.

– أليس هذا المكان جميلًا؟ قالت «عاصفة» وهي تشرب كأسها. الموظفون هنا يتعاملون بلياقة فائقة مع المعاقين، ويهتمّون بتفاصيلهم الصغيرة. سأوصي بهذا المكان في مدوّنتي. أنا أحدّث دائمًا قائمة الأماكن الصديقة للمعاقين.

أخفى جايسون وجهه بلائحة الطعام لئلاّ تلتقي عيناه بعيون الآخرين. أمّا «عاصفة» فقد تابعت تقول بدون أيّ حرج:

– قلت له أن يطلب ما يشاء. لم يكن يدري أنّك جنيت الكثير بحلّ لغزي تينك الجريمتين، فأخبرته أنّ الجرائد لا شكّ بأنّها دفعت لك الكثير لمعرفة التفاصيل. وأعتقد أنّك الآن تحظى بالقضايا التي تعود عليك بالمال الوفير؟

كان سترايك يفكّر في حسابه المصرفيّ المكشوف، وفي العلية المتواضعة التي يقطنها فوق مكتبه، وفي الكارثة التي سبّبتها الساق المقطوعة لأعماله.

– لا بأس، أجاب بدون أن ينظر إلى روبن.

إختارت روبن طبق السلطة الأرخص ثمنًا وزجاجة ماء. فيما طلبت «عاصفة» مقبّلات وطبقًا رئيسيًا، وشجّعت جايسون على أن يحذو حذوها. ثمّ جمعت لوائح الطعام وأعادتها إلى الخادم وكأنّها هي صاحبة الدعوة.

– إذًا يا جايسون، بدأت روبن.

لكنّ «عاصفة» قاطعتها وقالت لسترايك:

– جايسون متوتّر الأعصاب بعض الشيء. لم يفكّر حقًّا في آثار هذا اللقاء معك. كان عليّ أن أشرح له كلّ شيء. بقينا نتحادث عبر الهاتف أيّامًا وليالي. ليتك ترى فواتير الهاتف. يجب أن أضعها على حسابك. هاها! لا، حقًّا... وفجأة تجهّم وجهها، وأضافت: نودّ الحصول على ضمانة بأنّ الشرطة

لن تسبّب لنا المتاعب. صحيح أنّنا أخفينا عنها أمورًا، لكنّها لم تكن معلومات أساسيّة. كانت مجرّد طفلة تعاني الكثير من المشاكل. لسنا نعرف شيئًا. إلتقيناها مرّة واحدة ونجهل مَن قتلها. أنا أكيدة من أنّك أوسع اطّلاعًا منّا على القضيّة. الحقيقة أنّني قلقت قليلًا حين أخبرني جايسون أنّه كلّم شريكتك. لا يمكنك أن تتخيّل حجم الاضطهاد الذي تعانيه جماعتنا. أنا نفسي وصلتني تهديدات بالقتل. يجدر بي تكليفك التحقيق في الأمر. هاها!

– مَن هدّدك بالقتل؟ سألتها روبن محاولة الإيحاء بأدب بأنّها فوجئت.

– بسبب مدوّنتي، قالت «عاصفة»، مواصِلة توجيه حديثها إلى سترايك. أنا نفسي أكتبها. أنا أمّ حاضنة حقيقيّة، أو أمّ رئيسة، هاها...! أنا التي يأتمنها الجميع على أسرارهم ويسألونها رأيها. ولذلك من الطبيعيّ أن أكون دائمًا في الخطّ الأوّل في مواجهة الأغبياء الذين يستهدفوننا. لكنّني لا أدّخر جهدًا، بل أقاتل من أجل الآخرين. أليس كذلك يا جايسون؟

لم تكن تتوقّف عن الكلام إلّا لتشرب بنهم جرعة من الخمر. ثمّ أضافت:

– باختصار، أنصح جايسون بعدم الحديث إليك قبل الحصول على الضمانة بأنّه لن يتعرّض للمتاعب.

تساءل سترايك أيّة سلطة تظنّه يملكها. الحقيقة كانت أنّ جايسون و«عاصفة» أخفيا معلومات عن الشرطة. مهما كانت أسبابهما وقيمة هذه المعلومات، فهما قد تصرّفا بطريقة غير مسؤولة، بل خطيرة.

– أعتقد أن ليس لديكما ما تخشيانه، طمأنها وهو يكذب بجرأة.

– حسنًا، اتّفقنا، يسرّني سماع ذلك، قالت «عاصفة» بشيء من الغرور. لا نطلب أفضل من مساعدتك، طبعًا. شرحت لجايسون أنّ من واجبنا أن نساعدك إذا كان ذلك الرجل يسعى إلى إيذاء جماعة المصابين باضطراب سلامة الهويّة الجسديّة، وهو أمر محتمل جدًّا. لا يفاجئني ما أراه على الإنترنت من عدائيّة الآخرين تجاهنا وكراهيتهم. أعني أنّ ذلك كلّه هو ثمرة الجهل طبعًا. لكنّ الواقع هو أنّ أعنف المنتقدين هم تحديدًا الذين يجدر بهم الدفاع عنّا، ومَن يعرفون ما معنى التعرّض للتفرقة.

وصلت المشروبات. إرتاع سترايك حين رأى النادل، وهو رجل من أوروبا الشرقية، يهمّ بصبّ زجاجة بيرة سبيتفاير التي طلبها في كوب يحتوي على مكعّبات ثلج.

– هاي! صاح به سترايك.

– البيرة ليست باردة، قال النادل الذي فوجئ بردّة فعل المحقق ولا شكّ بأنّه اعتبرها مبالغًا بها.

– اللعنة، تمتم سترايك وهو يخرج مكعّبات الثلج من كوبه.

وكأنّما الفاتورة الباهظة التي سيدفعها لا تكفي، بل عليه أن يشرب بيرة مع الثلج. وضع الرجل الذي بدا عليه الاستياء كأس خمر ثانية أمام «عاصفة». إستغلّت روبن تلك الفرصة وتوجّهت إلى جايسون:

– جايسون، حين حدث الاتصال بينك وبين كيليسي...

لكنّ «عاصفة» تركت كأسها، وتدخّلت لاستبعاد روبن المتطفّلة عن الحديث:

– نعم، تحقّقت من الأمر في موقعي الإلكترونيّ. تعود الزيارة الأولى لكيلسي إلى شهر كانون الأول/ديسمبر. قلت ذلك للشرطة، وكشفت لهم كلّ شيء. كانت تطرح أسئلة تتعلّق بك أنت، قالت «عاصفة» لسترايك بنبرة تفخيم، وكأنّه يجب أن يشعر بالفخر لأنّ اسمه ظهر في مدوّنتها. بعد ذلك تناقشت وجايسون، وتبادلا عنوانيهما الإلكترونيين، ولاحقًا تحادثا مباشرة. أليس كذلك يا جايسون؟

– نعم، أجاب بصعوبة.

– إقترحتْ عليه أن تلتقيه. وآنذاك اتّصل بي، صحيح يا جايسون؟ قال لي إنّه سيشعر بالارتياح إذا رافقتُه. في النهاية، الإنترنت هو الإنترنت. مَن يدري ما يحدث؟ لعلّها كانت غير مَن تدّعي، أو رجلًا، مثلًا.

– ما الذي جعلك ترغب في لقاء كيلس...؟ قالت روبن وهي تلتفت نحو جايسون.

– كانا مهتمّين بكليكما، قالت «عاصفة» لسترايك، مقاطِعة روبن من جديد. لكنّ كيلسي هي التي أخبرته كلّ ما يتعلّق بك. أليس كذلك يا جايسون؟

وقد كانت واسعة الاطّلاع، أضافت بمكر، وكأنّها تعرف عن سترايك أسرارًا لا يمكن البوح بها.

– ماذا قالت لك كيلسي عنّي يا جايسون؟ سأل سترايك.

مجرّد توجيه سترايك حديثه إلى الفتى جعل وجه هذا الأخير يحمرّ خجلًا. تساءلت روبن ما إذا كان مثليًا. لقد قضت وقتًا طويلًا وهي تتصفّح منتديات الدردشة الإلكترونيّة واكتشفت بعض التلميحات الجنسيّة لدى عدد من روّاد تلك المنتديات. «المتفاني» كان أخطرهم.

– قالت إنّ شقيقها كان يعرفك، تمتم جايسون، وإنّه عمل معك.

– حقًّا؟ سأله سترايك مدهوشًا. أنت متأكّد من أنّها ذكرت شقيقها؟

– نعم.

– لأنّه ليس لها شقيق. لديها أخت فقط.

مرّت عينا جايسون المتباعدتين بسرعة على مختلف أواني المائدة، قبل أن تعودا للنظر إلى سترايك.

– أنا واثق من أنّها ذكرت شقيقها.

– هل كان يعمل معي في الجيش؟

– لا، لا أعتقد أنّها ذكرت الجيش. بعد ذلك.

كانت تكذب بكلّ شيء... حتّى حين تقول في أي يوم من أيام الأسبوع نحن.

– أعتقد أنّ صديقها هو مَن أخبرها ذلك، قالت «عاصفة» مقاطِعة. قالت إنّها تعرف شابًا، يدعى نيل. هل تتذكّر يا جايسون؟

– نيال، تمتم جايسون.

– حقًّا؟ حسنًا، نيال. أتى ليقلّها يوم شربنا القهوة معًا. هل تتذكّر؟

– مهلًا، قال سترايك وهو يرفع يده، فصمتت «عاصفة» حالًا. وأضاف: هل حقًّا رأيتما نيال؟

– نعم، أجابت «عاصفة». أتى ليقلّها على درّاجته الناريّة.

تلا ذلك صمت قصير.

– أتى رجل على درّاجته الناريّة ليقلّها من... أين كان موعدكما؟ سألها سترايك بصوت هادئ، ولكن بقلب خافق.

– في كافيه روج في توتنهام كورت رود، أجابت «عاصفة».

– المكان لا يبعد كثيرًا عن مكتبنا، لاحظت روبن.

إشتدّ احمرار وجه جايسون.

– نعم. كانا يعلمان ذلك تمامًا، كيلسي وجايسون. هاها! كنت تأمل رؤية كورموران، أليس كذلك يا جايسون؟ هاهاها! قهقهت «عاصفة» فيما كان النادل يعود حاملًا إليها طبق المقبّلات.

– هل أتى رجل على درّاجته الناريّة ليقلّها يا جايسون؟

لمّا كان فم «عاصفة» مليئًا بالطعام، نجح جايسون في أن يقول جملة كاملة، وهو يختلس النظرات إلى سترايك:

– نعم، كان ينتظرها في الخارج.

– هل رأيت شكله؟ سأله سترايك منتظرًا إجابة سلبيّة، وهو ما سمعه.

– لا، كان... مختبئًا عند زاوية الشارع.

– لم ينزع خوذته، أوضحت «عاصفة» التي سارعت بشرب الخمر لتعود إلى الحديث.

– هل تتذكّر ما لون الدرّاجة الناريّة؟

كانت «عاصفة» تميل إلى أن تقول إنّ اللون كان أسود. لكنّ جايسون أكّد أنّها كانت حمراء. غير أنّهما اتّفقا على أنّها كانت بعيدة ولم يستطيعا تمييز ماركتها.

– هل ذكرت كيلسي شيئًا آخر يتعلّق بصديقها؟ سألت روبن.

هزّ الاثنان رأسيهما علامة النفي.

حين وصلت أطباق الطعام، كانت «عاصفة» تثرثر بلا توقّف بشأن الموقع الإلكترونيّ الذي أنشأته، والذي كان يقدّم نصائح قانونيّة وخدمات مساعدة للأشخاص الراغبين في قطع أطرافهم. إنتظرها جايسون حتّى تملأ فمها بالبطاطا المقليّة ليجرؤ على مخاطبة سترايك مباشرة.

– هل الأمر صحيح؟ سأله فجأة، ووجهه يعود إلى الاحمرار.

– ماذا؟ سأله سترايك.

– أنّك... أنّك...

مالت «عاصفة» على كرسيّها المتحرّك وهي تمضغ طعامها بقوّة، ووضعت يدها على ذراع سترايك، وقالت له وهي تبتلع:

– أنّك فعلت ذلك بنفسك، تمتمت وهي توّجه إليه غمزة خفيّة.

حين مالت «عاصفة» نحو سترايك، لاحظ هذا الأخير أنّ فخذيها الضخمين يتحرّكان، وليسا جامدين تحت جذعها المتحرّك. كان سترايك قد شاهد في المستشفى حيث عولج مصابي حرب مشلولي الساقين أو الأطراف الأربعة، ورأى سيقانهم الجامدة وكيف يعوّضون عن الإعاقة بتعلّم استخدام الجزء الأعلى من جسدهم. وفجأة، اتّضحت له الحقيقة التي لم يفكّر فيها من قبل. لم تكن «عاصفة» بحاجة إلى كرسيّ متحرّك. لقد كانت سليمة تمامًا.

الغريب أنّ سترايك نجح في المحافظة على هدوء أعصابه ولياقته حين رأى روبن ترسل إلى «عاصفة» نظرات غاضبة. ثمّ التفت إلى جايسون، وقال له:

– قبل أن أخبرك إذا كان الأمر صحيحًا أو لا، يجب أن أعرف منك ماذا أخبرتك كيلسي.

– حسنًا، قال جايسون الذي لم يلمس طبق الهمبرغر تقريبًا، قالت كيلسي إنّك بحت بكلّ شيء لأخيها في إحدى الحانات ذات يوم، بعدما أفرطت في الشرب. وإنّك غادرت قاعدتك العسكريّة في أفغانستان ومعك سلاح، وابتعدت إلى أكبر مسافة ممكنة... وأطلقت رصاصة على ساقك، ثمّ طلبت من طبيب أن يبتر لك ساقك.

إبتلع سترايك مقدارًا كبيرًا من البيرة، ثمّ سأله:

– ولماذا أفعل ذلك؟

– كيف؟ سأله جايسون وهو يطرف بعينيه مضطربًا.

– ألأجل تسريحي من الجيش بسبب الإعاقة أم...

– لا، قال جايسون مجروح المشاعر، بل لأنّك كنت... واحمرّ بشدّة حتّى بدا وكأنّ دمه كلّه تجمّع في وجهه... مثلنا، تشعر بالحاجة إلى... تشعر بالحاجة إلى بتر ساقك.

كانت روبن عاجزة عن النظر إلى سترايك، فتظاهرت بأنّها تتأمّل لوحة غريبة معلّقة على الجدار تظهر فيها يد ممسكة بحذاء. ذلك كان انطباعها الأوّل، لكنّ من الممكن أيضًا أن يتخيّل الناظر إليها إناء زهور بنيّ اللون وبداخله نبتة صبّار ورديّة اللون.

– شقيق... كيلسي... هل كان يعرف أنّها تريد بتر ساقيها؟

– لا أعتقد. لا. قالت إنّها لم تحدّث بالأمر سواي.

– إذًا، حديثه لها عن... هل كان ذلك محض مصادفة؟

– هذا الأمر لا يذاع، قالت «عاصفة» التي استغلّت الفرصة للعودة إلى الحديث من جديد. نخجل بالبوح بالأمر خجلًا حقيقيًا. أنا الأدرى بذلك، قالت وهي تشير إلى ساقيها. أنا مضطرّة إلى القول إنّني مصابة في عمودي الفقريّ. لو علم الناس إنّني من محبّي الإصابة بالإعاقة لما فهموا. ناهيك عن الأحكام المسبقة لدى الأطبّاء، والتي لا يمكن تخيّلها. كان عليّ أن أغيّر مرّتين طبيب الصحّة العامّة الذي أقصده. الطبيبان الأوّل والثاني ضغطا عليّ لاستشارة طبيب نفسيّ. لا، تلك الطفلة المسكينة كيلسي لم تكن تستطيع البوح بسرّها لأحد. لم يكن لديها مَن تذهب إليه. لا أحد كان يفهمها. لهذا السبب اتّجهت إلينا. وإليك طبعًا، قالت لسترايك بابتسامة استعلاء صغيرة، ملمّحة إلى أنّه، وبعكسها، أهمل نداء استغاثة كيلسي. لكنّك لست الوحيد. فبعد أن ينال الناس ما يريدونه، يبتعدون عن جماعتنا. ندرك ذلك تمامًا، ونتفهّمه. لكنّه سيكون مفيدًا جدًّا لو أنّهم يبقون ليشرحوا لنا حقيقة العيش في جسد يناسبهم.

كانت روبن تخشى حقًّا أن ينفجر سترايك غضبًا وسط هذه القاعة البيضاء حيث كان هواة الفنّ يتحادثون بصوت منخفض. لكنّ الضابط السابق في فرع الاستقصاء الخاصّ اكتسب على مرّ السنوات، ومن خلال استجوابه

مئات الأشخاص، قدرة على ضبط نفسه. برغم أنّ توتّرًا طفيفًا شاب ابتسامته الودودة، فقد التفت بهدوء إلى جايسون ليسأله:

– إذًا، لا تعتقد أنّ شقيق كيلسي هو الذي اقترح عليها الاتصال بي؟

– لا، أعتقد أنّ الفكرة فكرتها هي.

– وماذا كانت تنتظر منّي تحديدًا؟

– إيه! وماذا تظن؟ قاطعته «عاصفة» ضاحكة بنصف ضحكة. كانت تسعى إلى نصيحتك لتفعل ما فعلت!

– أهذا هو رأيك أيضًا يا جايسون؟ سأل سترايك الفتى الذي هز برأسه إيجابًا.

– نعم... أرادت أن تعرف أيّة إصابة عليها أن تعرّض نفسها لها حتّى تستوجب بتر ساقها. وأعتقد أنّها كانت ترجو أن تعرّفها بالطبيب الذي قام ببتر ساقك.

– إنّها الحكاية نفسها دائمًا، قالت «عاصفة» التي كانت بدون أدنى شكّ تجهل التأثير الذي تتركه في سترايك. ليس من السهل العثور على جرّاحين يمكن الوثوق بهم. فالجرّاحون عمومًا عدائيّون جدًّا. بعض الأشخاص أرادوا بتر أعضائهم بأنفسهم فماتوا جرّاء ذلك. كان في سكوتلندا جرّاح رائع، بتر شخصين مصابين باضطراب سلامة الهويّة الجسديّة، لكنّهم منعوه من مزاولة الطبّ. كان ذلك منذ عشر سنوات. يمكن دائمًا السفر إلى الخارج، ولكن مَن لا يملك المال للرحلة... يمكنك أن تفهم لماذا أرادت كيلسي الوصول إلى لائحة معارفك!

سقط الكوب من يد روبن محدثًا ضجيجًا. كانت تعاني بسبب الإهانة التي تلحقها تلك المرأة بسترايك. لائحة معارفه! وكأنّ عمليّة بتر ساقه قطعة فنّية تباع في السوق السوداء...

واصل سترايك استجواب «عاصفة» وجايسون ربع ساعة. ولكن بدا أنّهما لا يعرفان أكثر ممّا ذكراه. وارتسمت من لقائهما الوحيد مع كيلسي صورة شابة غير ناضجة، يائسة وشديدة التحرّق إلى بتر ساقها لدرجة أنّها

كانت مستعدّة للقيام بأيّ شيء من أجل تحقيق ذلك، ودائمًا بحسب رأي صديقيها عبر الإنترنت.

– نعم، قالت «عاصفة» متنهّدة. كانت كيلسي واحدة من الحالات الصعبة جدًّا. جرّبت في طفولتها بتر نفسها بواسطة سلك حديديّ. عرفنا أشخاصًا بلغ بهم اليأس أن وضعوا أقدامهم على سكّة القطار. أحدهم استخدم الهدروجين السائل. كما تعمّدت شابّة أميركيّة أن تقوم بقفزة خطأ في خلال ممارسة التزلّج. لكنّ مشكلة هذه الوسائل أنّه نادرًا ما يمكن الوصول بها إلى درجة الإعاقة التي يرغب فيها المرء...

– وأنت، أية درجة من الإعاقة تبحثين عنها؟ سألها سترايك الذي أومأ إلى النادل يطلب الحساب.

– أريد قطع نخاعي الشوكيّ، ردّت «عاصفة» بهدوء. أريد أن أصاب بالشلل في ساقيّ الاثنتين. الحلّ الأمثل هو أن ألجأ إلى جرّاح. وفي الانتظار أكتفي بهذا، قالت وهي تشير إلى كرسيّها المتحرّك.

– لدخول المراحيض المخصّصة للمعاقين، واعتماد السكك الخاصّة بالمعاقين في الأدراج، وكلّ ما إلى ذلك، صحّ؟ سألها سترايك بحدّة.

– كورموران! قالت روبن لتلجم سترايك.

كانت تشكّ في أن يستطيع تحمّل الأمر. فهو يعاني توتّرًا شديدًا ونقصًا في النوم. من الرائع أنّهما استطاعا جمع كلّ تلك المعلومات قبل أن يفقد هدوءه.

– إنّها حاجة، أجابت «عاصفة» من دون أيّ انفعال. أدرك هذه الحاجة في نفسي منذ طفولتي. لقد وُلدت في الجسم الخطأ. أنا بحاجة إلى أن أصاب بالشلل.

وصل النادل. ولمّا لم يرَه سترايك، تولّت روبن أمر تسديد الحساب.

– بسرعة، من فضلك، قالت للرجل الكئيب الملامح الذي وضع مكعّبات الثلج في كوب البيرة الخاصّ بسترايك.

– هل تعرفين الكثير من المعاقين؟ سأل سترايك «عاصفة».

– نعم، أعرف شخصين أو ثلاثة. بالتأكيد، لدينا الكثير من الأمور...

– المشتركة؟ تبًا لك!

– كنت أعرف، تمتمت روبن.

إنتزعت بسرعة آلة الدفع الإلكترونيّ من يد النادل، ووضعت فيها بطاقة اعتمادها. وفي اللحظة عينها نهض سترايك، ووقف كالعملاق أمام «عاصفة» التي اضطربت فجأة، فيما تقوقع جايسون في كرسيّه، وكأنّه يحاول الاختفاء بداخل غطاء الرأس في كنزته.

– تعال يا كورم... قالت روبن وهي تسحب بطاقتها من الآلة.

– لمعلوماتكما، قال سترايك متوجّهًا إلى الاثنين معًا فيما كانت روبن تمسك بمعطفها وتحاول إبعاده عن المائدة، كنت في آلية عسكريّة مرّت فوق لغم.

وضع جايسون يديه فوق وجهه الممتقع، وملأت الدموع عينيه. أمّا «عاصفة» فراحت تنظر فاغرة الفم إلى سترايك، الذي واصل صبّ غضبه عليها:

– جسد سائق الآليّة انشطر إلى نصفين. كان ذلك ليعجبك، صح؟ لكنّه مات. اللعنة. الرجل الآخر خسر نصف وجهه، وأنا خسرت ساقي. لم يكن ذلك عملًا طوعيًا قطّ...

– حسنًا، قالت روبن وهي تأخذ بذراع سترايك. لنذهب. شكرًا جزيلًا لأنّك وافقت على القدوم يا جايسون...

– إسعَ لاستشارة معالج نفسيّ، صاح سترايك وهو يشير بإصبعه إلى جايسون، فيما كانت روبن تجرّه تحت أنظار الزبائن وموظّفي المطعم المشدوهين. إسعَ لاستشارة معالج نفسي. تبًا. أنت تهذي!

إبتعدا تحت الأشجار على جانب الطريق. وكان عليهما السير نحو مئتي متر قبل أن يستعيد سترايك تنفسّه الطبيعيّ.

– حسنًا، قال لروبن التي لم تفتح فمها، لقد حذّرتني. أنا آسف.

– كلّ شيء على ما يُرام، أجابته برقّة. لقد نلنا ما أردناه.

سارا خطوات قليلة أخرى في صمت.

– هل دفعت الحساب؟ لم ألاحظ شيئًا.

– نعم، سأستعيد المبلغ من صندوق النفقات العامّة في المكتب.

فيما تابعا السير، مرّا بأشخاص يسيرون منهمكين، وكلّهم كاملو الأناقة. تجاوزتهما شابّة تبدو كالغجريات، بشعرها المجدول ضفائر وفستانها الهنديّ الطويل. لكن كان يكفي رؤية حقيبة يدها التي يبلغ سعرها 500 جنيه لمعرفة أنّها ليست هيبية إلّا بقدر ما كانت «عاصفة» معاقة.

– لم تحطّم وجهها، هذا جيّد، قالت روبن. فضرب امرأة في كرسيّ متحرّك أمام كلّ هواة الفنّ هؤلاء...

إنفجر سترايك ضاحكًا، فيما هزّت روبن رأسها وتابعت تقول متنهّدة:

– كنت أعلم أنّك ستفقد هدوء أعصابك.

لكنّها كانت تبتسم.

44

Then Came the Last Days of May[1]

ظنّها ماتت. لم يرَ شيئًا في الأخبار، لكنّ ذلك لم يدهشه كثيرًا لأنّ الفتاة كانت عاهرة. وكذلك لم يحتلّ الخبر عناوين الجرائد الأولى. فالعاهرات لا أهمية لهنّ. هنّ لا شيء، ولا أحد يبالي بهنّ. لكنّ السكرتيرة ستسيّل حبرًا كثيرًا. كلّ ذلك لأنّها تعمل لحساب هذا النذل، ولأنّها فتاة لائقة ومخطوبة إلى رجل وسيم، ومن النوع الذي يثير جنون الصحفيين...

ومع ذلك هو لا يفهم كيف استطاعت تلك العاهرة أن تنجح في البقاء حيّة. يتذكّر تمامًا أنّه أحسّ بقفصها الصدري تحت طرف سكّينه، وسمع صوت المعدن يخترق الجلد، واحتكاك النصل بالعظم، ورأى الدم يتدفّق. يقولون إنّ طلاّبًا عثروا عليها. تبًّا لهم.

ومع ذلك فقد أخذ إصبعيها.

أعطتهم أوصافه، ورسمًا تشبيهيًا له. يا للدعابة! رجال الشرطة ليسوا سوى قرود بهندام رسميّ، جميعهم بدون استثناء. أحقًّا يعتقدون أنّ هذا الرسم يفيد في شيء؟ هذا الرسم لا يشبهه أبدًا، وقد يكون لأيّ شخص. لو لم تكن الشيء إلى جانبه لانفجر ضاحكًا، فما كانت لتستحسن أن يسخر من عاهرة مشوّهة ومن رسم تشبيهيّ...

[1] ثمّ أتت آخر أيّام أيّار/مايو.

آنـذاك، كانت الشيء قد استعادت حيويتها، وكان عليه أن يضبط نفسه، ويعتذر منها ويعترف بأنّه تصرّف بفظاظة، ويتظاهر باللطف. قال لها: «كنت مضطرًا إلى ذلك. فعلًا. صدّقيني». وجد نفسه مضطرًا إلى معانقتها وتقديم أزهار غبيّة لها، وملازمة المنزل معها، لتسامحه على نوبة غضبه. وها هي الشيء الآن تتصرّف وكأنّها الآمرة الناهية، مثل كلّ النساء. كانت تريد منه المزيد. كانت تريد أكثر، بل كانت تريد كل شيء.

– لا أحبّ أن ترحل.

عاهرة. أنت التي سترحلين، وإلى الأبد، إذا لم تكفّي عن إزعاجي.

إختلق لها حكاية عجيبة عن وظيفة عُرضت عليه. لكنّ هناك جديدًا هذه المرّة. الشيء كانت لها الجرأة لتسأله: «من عرض عليك هذه الوظيفة؟ كم ستغيب؟»

تخيّل نفسه، وهي تتكلّم، يطوي ذراعه ليسدّد قبضته إلى فمها. ضربة واحدة شديدة تكفي ليحطّم كل عظام وجهها البشع.

ولكن لا. يجب ألّا يفعل ذلك. لا يزال بحاجة إلى الشيء لبعض الوقت، أقلّه حتّى ينتهي من السكرتيرة.

لا تزال الشيء تحبّه، وهي ورقته الأساسيّة. كان يدرك أنّه إذا هددها بأن يخرج من حياتها نهائيًا، ستعود لتتصرّف بوداعة. لكنّه يفضّل عدم الوصول إلى تلك النقطة. يفضّل أن يقدّم الأزهار لها، ويقبّلها، ويتصرّف معها بلطافة. لا يحتاج إلى أكثر من ذلك لتزول ذكرى نوبة غضبه الشديد من عقلها الغبيّ. يجب أن يقوم بشيء صغير، بشيء بسيط جدًا، لتبقى عاقلة وتبكي على كتفه وتتعلّق به.

كان صبورًا، ولطيفًا، ولكن مصمّمًا.

في النهاية، وافقت الشيء على أن تمنحه أسبوعًا من الحرية ليفعل كلّ ما يحلو له.

45

Harvester of eyes, that's me[1].

Blue Öyster Cult, 'Harvester of Eyes'

لم تبد السعادة على وجه المفتّش إريك واردل حين علم أنّ جايسون و«عاصفة» كذبا على رجاله. ولكن حين دعا سترايك لشرب البيرة في حانة فيذرز مساء الاثنين، وجده هذا الأخير أقلّ غضبًا ممّا كان يتوقّع. غير أنّ سبب هذه الأريحيّة كان بسيطًا: قدوم درّاج إلى كافيه روج ليقلّ كيلسي كان أمرًا يتطابق تمامًا ونظريّة واردل الجديدة.

– أتتذكّر «المتفاني» الذي كان يزور موقعهم الإلكترونيّ؟ عاشق المبتورين الذي اختفى بعد جريمة قتل كيلسي؟

– نعم، قال سترايك.

كان يتذكر أن روبن تحادثت مع ذلك الرجل على الموقع الإلكترونيّ.

– وجدناه. إحزر ماذا كان في مرأبه.

لم يكن سترايك قد سمع بخبر اعتقال شخص ما في القضيّة، فافترض أنّ الشرطة لم تعثر على أشلاء أخرى، فسأله بلياقة:

– على درّاجة ناريّة؟

[1] أنا حصّاد عيون.

– كاواساكي نينجا، أكد له واردل. أعرف أنّنا نبحث عن درّاجة هوندا، أضاف مستبقًا ملاحظة سترايك، لكنّه أصيب بالهلع حين رآنا نصل.

– مثله مثل معظم الناس حين تدقّ الشرطة الجنائيّة بابهم. تابِع.

– إنه رجل صغيرة القامة، كريه، يدعى باكستر، ويعمل مندوبًا لمؤسسة تجارية. لا يملك حجّة غياب في يومي 2 و3 نيسان/أبريل، ولا في 29. مطلّق وله ولدان. قال إنّه لازم منزله لمشاهدة عرس الأمير ويليام. هل كنت لتشاهد ذلك العرس بدون امرأة بجانبك؟

– لا، أجاب سترايك الذي لم يشاهد سوى بعض الصور في نشرات الأخبار.

– يزعم أنّ الدراجة النارية لشقيقه وأنه فقط يركنها في منزله. أصررنا قليلًا فاعترف بأنّه يتنزّه عليها أحيانًا. أي أنّه يجيد قيادة درّاجة، ومن الممكن أنّه استأجر دراجة هوندا.

– ماذا يقول بشأن الموقع الإلكتروني؟

– حاول تضليلنا. قال إنّ الأمر مجرّد دعابة ولا يعني له شيئًا، وإنّ المبتورين لا يستهوونه. لكنّه رفض أن ننظر إلى كومبيوتره، وطلب الاتّصال بمحاميه. توقف الأمر هناك، لكنّنا سنعود لزيارته غدًا لإجراء حديث ودّي قصير معه.

– هل اعترف بأنّه تحدّث عبر الإنترنت مع كيلسي؟

– لم يكن بوسعه أن ينكر ذلك، فكومبيوتر كيلسي معنا، كما اطّلعنا على ما لدى «عاصفة» من معطيات معلوماتيّة. سأل كيلسي عن نواياها، وطلب لقاءها، لكنّها تخلّصت منه، ودائمًا عبر الإنترنت. تبًّا، علينا التدقيق في هذا الدليل، أكّد واردل لسترايك الذي بدا مشكّكًا. لا يملك حجّة غياب، ولديه دراجة، والنساء المبتورات يستهوينه، كما طلب من الفتاة موعدًا!

– نعم، طبعًا، قال سترايك. والآخرون؟

– لهذا أردت رؤيتك. عثرنا على دونالد لاينغ. إنّه في إيليفانت أند كاسل في وولاستون كلوز.

– حقًّا؟ صاح سترايك الذي فوجئ بالخبر فعلًا.

سُرّ واردل لأنّه استطاع إثارة دهشة المحقق، فتابع يقول بابتسامة زهوّ:

– نعم، وهو مريض. وجدناه عبر «موقع العطاء» الحقيقي على الإنترنت، ومن خلالهم عرفنا عنوانه.

ذلك كان الفرق الكبير بين سترايك وواردل، فالأخير يملك الصفة والسلطة والقدرة التي تخلّى عنها واردل حين غادر الجيش.

– هل رأيته؟ سأله سترايك.

أرسلت رجلين إلى المكان لكنّه لم يكن موجودًا. يؤكّد الجيران أنّه يستأجر تلك الشقة، ويعيش وحيدًا، ويبدو أنّه مريض جدًّا. يقولون إنّه عاد إلى مسقط رأسه في سكوتلندا لعدّة أيّام، لحضور جنازة أحد أصدقائه، ويجب أن يعود قريبًا.

– كذب، تمتم سترايك وهو يشرب كوب البيرة. إذا تبيّن أنّ له في سكوتلندا صديقًا واحدًا، فأنا مستعدّ لآكل زجاج هذا الكوب.

– كما تشاء، ردّ واردل مستاءً برغم أنّ تعليق سترايك أضحكه. ظننتك ستسر حين تعرف أنّنا نلاحق الرجال الذين تبحث عنهم.

– أنا مسرور بذلك. هل قلت إنّه مريض جدًّا؟

– قال جاره إنّه بحاجة إلى عصا ليسير، وإنّه أمضى فترات عدّة في المستشفى.

كان على الجدار المقابل لسترايك تلفزيون مثبّت في إطار مكسوّ بالجلد، تُعرض عليه مباراة فريقي ليفربول وأرسنال التي جرت الشهر الماضي، ولكن بدون صوت. وكما فعل سترايك يومذاك عبر شاشة تلفزيونه الصغير المحمول، عاد ليشاهد اللاعب فان بيرسي يسدّد ضربة الجزاء التي كان ممكنًا أن تسمح لفريق أرسنال بتحقيق الفوز، وهو ما كان بحاجة ماسّة إليه. غير أنّه لم يحرز هدفًا طبعًا. في تلك اللحظة، كان سوء الحظّ الذي يصيبه هو نفسه ما يصيب لاعبي أرسنال.

– هل تعاشر امرأة ما؟ سأله واردل فجأة.

– ماذا؟ سأل سترايك مرتبكًا.

– كوكو تحبّ أسلوبك، أجابه واردل بنصف ابتسامة أراد منها أن توضح لسترايك كم أنّه يستسخف ما سيقوله. كوكو. صديقة زوجتي، صاحبة الشعر الأحمر.

كان سترايك يتذكّر أنّ كوكو هي راقصة بورلسك.

– وعدتها بأن أطرح عليك السؤال. حذّرتها من أنّك وغد قذر، قالت إنّها لا تبالي.

– قل لها إنّ التفاتتها تُشعرني بالمديح، ردّ سترايك. لكنّني أقابل امرأة.

– أنت لا تعني شريكتك، صح؟ سأله واردل.

– لا، إنها تنوي الزواج.

– أنت تفوّت عليك شيئًا مهمًّا، قال واردل متثائبًا. لو كنت مكانك...

– فلأفهم جيّدًا، قالت روبن صباح اليوم التالي، في المكتب. بتنا الآن نعرف أنّ لاينغ يقطن فعلًا في وولاستون كلوز. وأنت تريدني أن أتوقّف عن مراقبته.

– إسمعيني، أجاب سترايك وهو يعدّ الشاي. يقول جيرانه إنّه رحل.

– قلت لي منذ قليل إنّك لا تظنّه في سكوتلندا!

– نعم، ولكن لا شكّ بأنّه في مكان آخر لأنّ باب منزله لم يُفتح مرّة واحدة منذ أن بدأتِ بمراقبته.

وضع سترايك كيس شاي في كلّ من الفنجانين.

– لا أصدّق حكاية دفن صديقه، لكن لن يفاجئني أن أعرف أنّه قام بزيارة قصيرة إلى ملروز ليحاول أخذ بعض المال من أمّه المصابة بالخرف. صديقنا دوني قد يفكّر في أن يأخذ إجازة من هذا النوع.

– على أحدنا الذهاب إلى هناك في انتظار عودته...

– أحدنا سيذهب، قال لها سترايك مطمئنًا. في هذا الوقت أريدك أن تذهبي لمراقبة...

– بروكبانك؟

– لا، أنا سأتولّى أمر بروكبانك. عليك بستيفاني.

– من؟

– ستيفاني. الفتاة التي تقيم مع ويتايكر.

– لماذا؟ سألته روبن.

إرتفع من الغلاّية صوت غليان الماء، وقرقعة غطائها، كما غطّى البخار زجاج النافذة.

– أودّ أن تخبرنا ماذا كان ويتايكر يفعل يوم قتلت كيلسي، ويوم قُطع إصبعا تلك الفتاة في شاكلويل، أي في 3 وفي 29 نيسان/أبريل على وجه التحديد.

صبّ سترايك الماء على كيسي الشاي، وحرّك الماء لمزج الحليب. كانت الملعقة الصغيرة تقرقع على أطراف الفنجان. لم تدرِ روبن أي موقف تأخذه من هذا التغيير في البرنامج. هل عليها أن تسرّ به أم لا؟ بعد التفكير، قرّرت اختيار الشعور بالسرور، لكنّ شيئًا في أعماقها كان يقول لها إنّ سترايك ما زال يحاول استبعادها.

– أما زلت تعتقد أنّ ويتايكر قد يكون القاتل؟

– نعم، أجاب سترايك.

– ولكنّك لا تملك...

– لا أملك دليلًا ضدّ أيّ من الثلاثة، قاطعها. لذلك، أستمرّ بالبحث إلى أن أجد دليلًا، أو إلى أن أكتشف أنّهم جميعًا خارج دائرة الشكّ.

ناولها فنجان الشاي وجلس على الكنبة الجلديّة التي لم تصدر آنذاك أيّ صوت. شعر بأنّ ذلك انتصار صغير.

– كنت أرجو استبعاد ويتايكر على أساس ما آل إليه مظهره، قال سترايك، لكنّه قد يكون فعلًا صاحب الطاقيّة. كل ما أعرفه هو أنّه لا يزال نذلًا كما كان. أخطأتُ تمامًا مع ستيفاني، ولن تقبل بمكالمتي بعد اليوم. أما أنت فلا شكّ بأنّك تستطيعين أن تستخرجي منها شيئًا. إذا استطاعت أن تقول لنا أين كان في ذينك اليومين، أو أن تدلّنا على مَن يستطيع أن يقول لنا ذلك، نعيد التفكير، وإلّا فسيبقى على لائحة المشتبه بهم.

– وماذا ستفعل في هذا الوقت؟

– سأواصل البحث عن بروكبانك، قال سترايك وهو يمدّ ساقيه، ويشرب جرعة كبيرة من الشاي ليتنشّط. قرّرت الذهاب للتحقيق في ملهى التعري اليوم. سئمت أكل الكباب والتسكّع في متاجر الألبسة في انتظار ظهوره.

لم تجب روبن بشيء.

– ماذا؟ سألها سترايك حين رأى تعابيرها.

– لا شيء.

– هيّا، قولي.

– ماذا ستفعل إذا كان هناك؟

– كلّ شيء في حينه... لا لن أضربه، أضاف سترايك وقد خمّن ما تفكّر فيه.

– طبعًا. كذلك لم تكن تنوي ضرب ويتايكر.

– مع ويتايكر، الأمر يختلف، ثمّ أضاف حين رأى نظرتها المشكّكة: إنّه من أفراد العائلة.

فأفلتت منها ضحكة أبعد ما تكون تعبيرًا عن الفرح.

سحب سترايك 50 جنيهًا من الصرّاف الآلي قبل الذهاب إلى ساراسن في كومرشال رود، وظهر على الشاشة رصيد حسابه الجاري المكشوف. ثمّ مضى إلى الملهى، وهناك، أعطى الحارس الذي كان عنقه غائرًا بين كتفيه ورقة 10 جنيهات، ودخل القاعة الغارقة في ظلام لم يكن كافيًا لإخفاء حالتها الرثّة.

لم يبق من مظاهر الحانة القديمة شيء. فالديكور الذي تغيّر تمامًا كان يوحي بأنّ المكان قاعة احتفالات مهجورة لا روح فيها. وعلى الأرضية الخشبيّة، انعكس النور البارد لأنبوب النيون الطويل الممتدّ فوق المنصّة.

كانت الساعة قد تجاوزت الظهر، وشاهد سترايك راقصة على خشبة صغيرة غارقة في ضوء أحمر. كانت الراقصة تدور وسط مرايا مائلة انعكس فيها جسدها الممتلئ, ثمّ بدأت تخلع صديريتها على ألحان أغنية Start me up لفرقة Rolling Stones. وكان أربعة رجال يجلسون على كراسٍ أمام طاولات عالية، منقّلين أنظارهم بين الفتاة التي ترقص حول العمود المعدنيّ بدون رشاقة، وشاشة التلفزيون الكبيرة المفتوحة على قناة سكاي سبورتس.

سار سترايك نحو البار الذي ظهر فوقه إعلان يقول: «كلّ زبون نضبطه يقوم بالاستمناء سيُطرد».

– ماذا تريد أن تشرب ياعزيزي؟ سألته فتاة طويلة الشعر، كحّلت عينيها بلون بنفجسيّ وعلّقت في أنفها حلقة.

طلب سترايك كوبًا من البيرة قبل أن يذهب للجلوس أمام المنصّة. ما خلا الحارس لم يرَ سوى موظّف واحد، جالس خلف أجهزة صوت بالقرب من الراقصة، وكان ضخم الجثّة وأشقر، في منتصف العمر ولا يشبه بروكبانك أبدًا.

– أبحث عن صديق هنا، قال سترايك للنادلة التي كانت متّكئة إلى البار، تهتمّ بأظافرها الطويلة وهي تلقي نظرات عابرة إلى التلفزيون في القاعة شبه الخالية من الزبائن.

– حقًّا؟ قالت متنهدة.

– نعم، قال لي إنّه يعمل هنا.

إقترب من البار رجل يرتدي سترة بلون مشعّ، فمضت لخدمته.

إنتهت الأغنية، وكذلك وصلة الراقصة التي كانت آنذاك عارية تمامًا. فقفزت عن الخشبة وبحثت عمّا تستر به جسدها لتتوارى خلف ستارة بدون أن يُسمع في القاعة أيّ تصفيق.

خرجت من الكواليس امرأة ترتدي كيمونو من النايلون وجوربين، ودارت في القاعة حاملة بيدها وعاء فارغًا. راح الزبائن يبحثون في جيوبهم ويلقون في الوعاء نقودًا معدنيّة. وصلت إلى سترايك الذي ألقى قطعتين، ثمّ مضت إلى وسط القاعة ووضعت حصيلة ما جنته بالقرب من أجهزة الصوت، قبل أن تخلع الكيمونو وهي تتلوّى، وتصعد إلى الخشبة وليس عليها سوى صديريّة وسروال داخليّ وجوربين وحذاء عالي الكعب.

– أيّها السادة، أظنّكم ستحبّون الوصلة التالية... ألا ترحّبون بحرارة للجميلة ميا!

بدأت بالرقص على أغنية Are «Friends» Electric لغاري نومان، بحركات لا تتناسب مع الموسيقى أبدًا.

عادت النادلة لتجلس أمام المنصّة بالقرب من سترايك، حيث يمكنها مشاهدة التلفزيون بشكل أفضل.

– كنت أقول إنّ صديقي يعمل هنا، قال سترايك.

إكتفت النادلة بالهمهمة.

– واسمه نويل بروكبانك، تابع.

– حقًّا؟ لا أعرفه.

– يا لسوء الحظّ، قال سترايك وهو يسرّح نظره في أنحاء القاعة، برغم استنتاجه بأنّ بروكبانك ليس فيها. لعلّي أخطأت المكان.

خرجت راقصة التعرّي الأولى من خلف الستارة، مرتدية فستانًا قصيرًا ورديّ اللون عاري الكتفين، وملتصق بجسمها، يجعلها تبدو أكثر عريًا ممّا حين كانت عارية فعلًا. إقتربت من صاحب السترة المشعّة وطرحت عليه سؤالًا. ولمّا لم تلق منه سوى هزّة رأس سلبيّة نظرت إلى سترايك، فابتسمت له ثم اقتربت منه.

– مرحبًا، قالت له بنبرة إيرلنديّة.

شعرها الذي ظنّه أشقر تحت الضوء الأحمر، كان في الواقع نحاسيًا. وتحت طبقة كثيفة من حمرة الشفاه البرتقاليّة اللون والرموش المستعارة، رأى سترايك فتاة في عمر الطالبات الثانويّات.

– أنا أورلا، وأنت؟

– كامرون، قال سترايك مستخدمًا الاسم الذي يطلقه عليه، خطأً، معظم الناس.

– أتحبّ أن أرقص لك يا كامرون؟

– أين؟

– هناك، قالت وهي تدلّه إلى الستارة التي غيّرت ملابسها خلفها. لم يسبق لي أن رأيتك هنا قطّ.

– أبحث عن شخص.

– ما اسمها؟

– هو رجل.

– أتيت إلى المكان غير المناسب يا حبيبي.

شعر سترايك بالانزعاج لأنّ فتاة يافعة كهذه تناديه بكلمة «حبيبي».

– هل يمكنني أن أدعوك إلى كأس؟ سألها سترايك.

تردّدت في الإجابة. الرقصة الخاصّة تعود عليها بمال أكثر، ولكنّه قد يكون من الزبائن الذين هم بحاجة إلى تهيئة أنفسهم.

– نعم، أحبّ ذلك.

دفع سترايك مبلغًا باهظًا لقاء كأس فودكا بالحامض شربته بكثير من الحركات الغريبة والملفتة، وهي تجلس بجانبه. كاد ثدياها يخرجان من خلف لباسها الضيّق والعاري الكتفين، وبدت بشرتها الناعمة والمشدودة والممتلئة، شبيهة ببشرة كيلسي، وكان على كتفها ثلاث نجمات صغيرة زرقاء مرسومة بالحبر.

– لعلّك تعرفين صديقي، نويل بروكبانك، قال لها سترايك.

لم تكن أورلا الصغيرة غبيّة، والبرهان على ذلك هو النظرة التي وجهتها إليه بطرف عينها، والتي قرأ فيها سترايك مزيجًا من الشكّ والتفكير. كانت تتساءل، مثلما فعلت مدلّكة ماركت هاربورو من قبلها عمّا إذا كان هذا الرجل من الشرطة.

– إنّه يدين لي بالمال، أضاف سترايك.

حدّقت إليه أورلا لهنيهة، وحاجباها المرفوعان يرسمان على جبينها الأملس خطوطًا صغيرة، ثمّ اقتنعت بما يقوله.

– نويل، قالت. أعتقد أنّه رحل. إنتظر... إيدي؟

– ممم؟ ردّت الساقية الضجرة بدون أن ترفع عينيها عن شاشة التلفزيون.

– ما اسم الرجل الذي طرده ديس منذ أسابيع قليلة؟ والذي لم يبقَ هنا سوى أيّام قليلة؟

– لا أعرف ما اسمه.

– نعم، أعتقد أنّه نويل، ذلك الرجل الذي طُرد، قالت أورلا لسترايك، قبل أن تضيف فجأة: أعطني عشر جنيهات أيضًا، وسأذهب لأتحقق.

بحسرة، أعطاها سترايك ورقة عشرة جنيهات.

– إنتظرني هنا، قالت أورلا والسعادة تغمرها. نزلت عن كرسيّها، ودسّت العشرة جنيهات في الرباط المطاطيّ لسروالها الداخليّ، وشدّت فستانها بحركة سريعة، ثمّ هرعت نحو الرجل الذي يشغّل الموسيقى. راح هذا الأخير ينظر باستياء إلى سترايك فيما كانت الفتاة تكلّمه، ثمّ هزّ رأسه إيجابًا، ووجهه الممتقع يلتمع تحت الضوء الأحمر.

عادت أورلا إلى سترايك بخطوات راقصة، وبدت مسرورة من نفسها. ثمّ قالت له:

– كنت على حقّ! لم أكن هنا حين حدث الأمر، لكنّه أصيب بنوبة أو ما شابه ذلك.

– نوبة؟ سألها سترايك.

– نعم، حدث ذلك خلال الأسبوع الأول بعد بدئه العمل. كان رجلًا ضخم الجثّة، عريض الذقن، أليس كذلك؟

– صحيح.

– نعم، أتى إلى العمل متأخرًا، فثار ديس. ديس هو ذلك الرجل، قالت وهي تشير إلى مشغّل الموسيقى، الذي كان يراقب سترايك بطرف عينه وهو يستبدل أغنية بأخرى. لامه ديس على وصوله متأخرًا، وفجأة سقط صديقك أرضًا كتلة واحدة، وبدأ يتلوّى يمينًا ويسارًا. يبدو أيضًا أنه تبوّل في سرواله، قالت أورلا مسرورة.

شكّ سترايك في كون بروكبانك تعمّد التبوّل في سرواله ليتجنّب ثورة ديس ضدّه. لا بدّ من أنّها كانت نوبة صرع حقيقيّة.

– وبعد ذلك، ماذا جرى؟

– هرعت صديقته خارجة من الكواليس.

– أيّة صديقة؟

– مهلًا... إيدي؟

– ماذا؟

– ما اسم الفتاة السوداء التي تضع شعرًا مستعارًا؟ ذات النهدين الكبيرين والتي لا يحبّها ديس؟

– أليسا، قالت إيدي.

– أليسا، كرّرت أورلا. أتت من الداخل وهي تصرخ بديس لاستدعاء الإسعاف.

– هل فعل ذلك؟

– نعم، أخذوا الرجل ومعه أليسا.

– هل عاد بروك... هل عاد نويل إلى العمل؟

– ما نفع الحارس الذي يسقط أرضًا ويتبوّل في سرواله إذا صاح بوجهه أحد؟ يبدو أنّ أليسا طلبت من ديس أن يمنحه فرصة ثانية، لكنّ ديس لا يمنح فرصة ثانية أبدًا.

– وآنذاك نعتته أليسا بالوغد الصغير، قالت إيدي وقد خرجت فجأة من صمتها، فتسبّبت بطردها هي الأخرى. كم كانت غبيّة، خصوصًا وأنّها كانت بحاجة إلى المال، فلديها طفلتان.

– متى حدث كلّ ذلك؟ سأل سترايك الفتاتين.

– منذ أسبوعين، أجابت إيدي. لكنّ هذا الرجل كان غريب الأطوار. الحمد لله على أنّنا تخلّصنا منه.

– ماذا تعنين بغريب الأطوار؟

– إنّها أشياء نشعر فيها بالحدس، قالت إيدي باستياء. أليسا تختار الجبناء دائمًا.

آنـذاك، كانت الراقصة الثانية قد وصلت في تعرّيها إلى سروالها الداخليّ الرفيع. وراحت تلوي فخذيها أمام جمهورها الضئيل العدد. دخل النادي كهلان، وتوقّفا وهما في الطريق إلى البار، وعيونهما مسمّرة إلى ذلك السروال الرفيع الذي يوشك على أن يزول كليًّا.

– ألا تعرفين أين يمكنني العثور على نويل؟ سأل سترايك إيدي التي كانت أكسل من أن تطالب بمقابل ماليّ للمعلومات التي تدلي بها.

– يسكن مع أليسا، في مكان ما في باو. حين كانت تعمل هنا، استطاعت الحصول على منزل بإيجار زهيد، لكنّها كانت دائمة الاستياء من تلك الشقة. وأجهل عنوانها، أضافت مستبقة سؤال سترايك. لم أذهب إلى تلك المنطقة قطّ. ظننتها كانت مسرورة، وقالت إنّ في تلك المنطقة دار حضانة جيّدة للأطفال.

خلعت الراقصة سروالها الداخليّ وراحت تلوّح به فوق رأسها. إكتفى الزبونان الجديدان بما رأياه وتوجّها إلى البار. نظر أحدهما بعينين غشاهما الاصفرار إلى فستان أورلا الفاضح، وهو يكاد يكون بعمر جدّها. تفحّصته بنظرة خبيرة، ثمّ عادت لتلفت إلى سترايك.

– هل تريد رقصة خاصّة أم لا؟

– لا أعتقد ذلك.

لم يكد ينهي سترايك جملته حتّى وضعت أورلا كأسها من يدها، وترجّلت عن كرسيّها العالي بدلع لتركّز انتباهها على الرجل الستينيّ الذي انفرج فمه عن ابتسامة كشفت عمّا تبقّى فيه من أسنان.

فجأة رأى سترايك بجانبه الحارس الضخم الغائر العنق.

– ديس يريد التحدّث إليك، قال مهدّدًا، ولكن بصوت رفيع وغير متوقّع من رجل بهذا الحجم.

إلتفت سترايك، فرأى مشغّل الموسيقى ينظر إليه نظرة شرّ، ثمّ أشار إليه بأن يقترب.

– هل من مشكلة؟ سأل سترايك الحارس.

– سترى ذلك مع ديس.

سار سترايك بهدوء ووقف أمام ديس كطالب استُدعي إلى مكتب المعلّم. كان يقدّر تمامًا سخافة الموقف، ومكث منتظرًا راقصة ثالثة تنتعل حذاءً شفّافًا حتى تنتهي من جمع النقود، وتضعها بقرب آلات الموسيقى، وتخلع فستانها البنفسجيّ لتصعد إلى الخشبة بصديريّتها وسروالها الداخليّ المصنوعين من الدانتيل الأسود. كان جسدها مغطّى بالوشوم، وعلت وجهها البثور التي لم تستطع مساحيق التبرّج إخفاءها.

– أيّها السادة، هذه الفتاة تملك ميزات كثيرة، أهمّها الرقيّ... رحّبوا بجاكالين!

شغّل ديس أغنية Afrika لتوتو، فبدأت جاكالين رقصتها حول العمود بموهبة كانت زميلتاها تفتقران إليها. بعد ذلك، غطّى الميكروفون بيده، ومال نحو سترايك قائلًا:

– إذًا؟

بدا الرجل لسترايك أكبر سنًّا وأشدّ قساوة ممّا خُيّل إليه قبل قليل وهو يراه في الضوء الأحمر. وكان ذا نظرة ماكرة، وامتدّت فوق فكّه ندبة أعمق من ندبة شانكر.

– لماذا تسأل عن ذلك الحارس؟

– إنّه صديقي.

– لم يوقّع معي عقدًا أبدًا.

– لم أقل عكس ذلك.

– لا يمكن اتّهامي بصرفه تعسّفًا، فهو تكتّم عن موضوع نوباته. هل تلك القذرة أليسا هي التي أرسلتك؟

– لا، قيل لي إنّ نويل يعمل هنا.

– تلك الفتاة مخبولة تمامًا.

– لا علم لي بالأمر، هو مَن أبحث عنه.

حكّ ديس أذنه مواصلًا التحديق بسترايك بنظرات الغضب. وفي هذا الوقت، وعلى مسافة لا تزيد عن المترين، كانت جاكالين تنزع حمّالتي صديريّتها، وهي تنظر إلى الزبائن الستّة الذي يحملقون فيها.

– محال أن يكون هذا الرجل قد عمل سابقًا في القوّات الخاصّة. غباء! قال ديس بغضب وكأنّه يريد أن يناقض ردّ سترايك، والذي لم يكن قد أكّد له شيئًا.

– أهو مَن أخبرك ذلك؟

– هي. أليسا. محال أن يقبل الجيش بتطويع شبه رجل كهذا. بأية حال، أضاف ديس، كانت لديه أمور أخرى لا أحبّها.

– حقًّا؟ ماذا مثلًا؟

– هذا الأمر لا يعنيك. ما عليك سوى أن تقول لأليسا إنّني لم أطرده بسبب نوبته فقط. قل لها أن تسأل ميا لماذا رفضت إعادته إلى العمل، وإنّني سأتقّدم بشكوى ضدّها إذا لمست سيّارتي من جديد أو إذا أرسلت إليّ أحدًا آخر من أصدقائها. قل لها ذلك!

– لا بأس. هل تعرف عنوانها؟

– إرحل من هنا، قال ديس بغضب. هيّا اذهب. أتفهم؟

ثمّ مال إلى الميكروفون، وقال «هذا جميل»، وهو يرمق بنظرات الخبير جاكالين التي كانت تحرّك نهديها على إيقاع الموسيقى وسط هالة من الضوء البنفسجيّ. وبحركة من يده أشار إلى سترايك بالانصراف ليعود إلى أسطواناته القديمة.

بهدوء، سار سترايك مع الحارس إلى باب النادي، بدون أن يعيره أحد اهتمامًا. فالزبائن كلّهم انصبّ اهتمامهم على جاكالين، لا على ليونل ميسي الذي ظهر على شاشة التلفزيون وهو يركض خلف الكرة. وعند الباب، ابتعد سترايك ليسمح بدخول مجموعة من الشبّان السكارى.

– أنظروا إلى نهديها! قال الأوّل وهو يشير إلى الراقصة، أنظروا إلى نهديها!

هذه الطريقة غير اللائقة في الدخول لم تعجب الحارس الذي تلاسن مع الشابّ وراح يوجّه إلى صدر الأخير نقرات حادّة بسبابته وهو يكيل له التوبيخ. كذلك لم يسلم الفتى الفظّ من انتقادات رفاقه.

لبث سترايك ينتظر بصبر نهاية الإشكال، وحين أذن الحارس للرفاق بالدخول، خرج هو إلى الشارع وأصوات الموسيقى لا تزال ترنّ في أذنيه.

46

Subhuman[1]

وحيدًا مع غنائمه، كان يشعر بالرضا التامّ، وبأنّ السعادة تغمره. تلك الغنائم كانت الأدلّة الملموسة على تفوّقه، وموهبته المدهشة التي تسمح له بالتنقّل بين قرود الشرطة وقطعان البشر التي تثغو، يدون أن يطاله عقاب، يختار على طريقه مَن يشاء، كنصف إله.

لا شكّ بأنّ غنائمه كانت لها فوائد أخرى أيضًا.

لم يكن يشعر بالانتصاب وهو يقتلهنّ. نشوته الحقيقيّة كان يشعر بها قبل أن يقتلهنّ. وأحيانًا يستسلم لرغبة جامحة تجعله يستمني مرّات ومرّات لمجرّد فكرة ما سيقدم عليه. كان يتخيّل في ذهنه كلّ التفاصيل ويفكّر في كلّ الاحتمالات. وبعد ذلك يستمني، كما ينوي أن يفعل الآن حاملًا في يده ثدي كيلسي الذي سلخه عن جثّتها، وقد بات كتلة باردة تشبه المطاط بملمسها، وتجعّدت، وبدأت تقسو بسبب تنقّلها الدائم بين البرودة وحرارة جوّ الغرفة. وآنذاك لا يعاني أيّة مشكلة على الإطلاق. في تلك اللحظة شعر بانتصاب شديد.

كان قد وضع إصبعي ضحيّته الأخيرة في المجمّدة. أخرج أحدهما، وضغط به على شفتيه، ثمّ غرز أسنانه فيه متخيّلًا أنّه لا يزال موصولًا بيد الفتاة وأنّها تصرخ ألمًا. عضّ بقوّة أكبر، متلذّذًا بتذوّق طعم اللحم البارد الذي

[1] أقلّ من إنسان.

تخترقه الأنياب حتّى العظم. وبيد مرتجفة حلّ رباط السروال الرياضيّ الذي يرتديه...

بعدما انتهى أعاد الإصبع إلى الثلاّجة، وأغلق بابها ثمّ ربّت عليه بابتسامة. عمّا قريب سيدخل الثلاّجة محتوى أفضل بكثير. فالسكرتيرة ليست امرأة قصيرة القامة، وطولها يتجاوز 170 سنتمترًا تقريبًا.

مشكلته الوحيدة كانت أنّه يجهل أين هي. فقد أثرها. لم تأتِ إلى المكتب هذا الصباح. ذهب إلى كلّية الاقتصاد، فرأى الشقراء هناك، لا السكرتيرة. دخل حانتَي كورت وتوتنهام مفتّشًا عنها، ولم يجدها. لكنّ ذلك ليس سوى عائق صغير، فهو لن يلبث أن يجدها. وإذا اقتضت الحاجة، سينتظرها غدًا صباحًا عند محطّة وست إيلينغ.

أعدّ لنفسه فنجان قهوة، وصبّ فيه جرعة من زجاجة ويسكي يحتفظ بها منذ أشهر. كان الجحر الموبوء – أي ملجأه المقدّس حيث يحتفظ بكنوزه – خاليًا من أيّ شيء آخر تقريبًا، وليس فيه سوى غلاّية وبضعة فناجين مكسّرة الأطراف، والثلاّجة – العنصر الأهمّ الذي يسمح له بارتكاب جرائمه – وفراش قديم للنوم، ومنصّة لشحن الأيبود. الموسيقى أمر مهمّ، وقد باتت جزءًا من طقوس الانحراف التي يمارسها.

حين سمعهم للمرّة الأولى، وجد أنّهم رديئون جدًّا. لكنّ تقديره لموسيقاهم كان يزداد بمقدار ما كان هوسه بالقضاء على سترايك يشتدّ. كان يستمع إلى تلك الموسيقى في خوذته حين يلاحق السكرتيرة، أو حين ينظّف سكّينيه. وقد باتت بالنسبة إليه نوعًا من الترانيم المقدّسة، لدرجة أنّ بعضًا من كلماتها لا يفارق ذهنه. وكلّما أصغى إليها، يجدها تتناغم مع شخصيّته أكثر فأكثر.

أمام سكّينه، تتضاءل النساء ليعدن إلى حقيقتهنّ الجوهريّة التي ينقّيها شعورهنّ بالرعب. وحين يتوسّلن إليه للعفو عنهنّ، يبصر النور فيهنّ نوع من البراءة. أفراد فرقة Cult كما يدعوهم، كانوا يفهمون ذلك كلّه ويعرفونه.

وضع الأيبود على المنصّة واختار إحدى قطعه المفضّلة، Doctor Music. ثمّ اتّجه إلى المغسلة. المرآة الصغيرة المكسورة، آلة الحلاقة،

المقصّات، كلّ شيء كان موجودًا وجاهزًا. هذه الأشياء الصغيرة كانت كافية لتغيير رجل تغييرًا كاملًا.

ومن الغرفة الوحيدة، تصاعد صوت إريك بلوم:

Girl don't stop that screamin'

...You're sounding so sincere[2]

[2] يا صغيرتي، لا تكفّي عن الصراخ / صراخك يبدو جدّيًا للغاية...

47

I sense the darkness clearer[1]*...*

Blue Öyster Cult, 'Harvest Moon'

في الأوّل من حزيران/يونيو، بات بإمكان روبن أن تقول أخيرًا: سأتزوّج بعد شهر. فجأة، بدا لها يوم الثاني من تمّوز/يوليو قريبًا جدًّا. تمنّت عليها الخيّاطة في هاروغايت المرور لقياس الفستان لمرّة أخيرة، لكنّ روبن لم تعرف متى يمكنها أن تتحرّر من مشاغلها. كانت قد اشترت الحذاء، وتلك خطوة كبيرة. إنهمكت أمّها باستلام الردود على بطاقات الدعوة، وبإطلاعها بانتظام على لائحة المدعوّين. لكن روبن كانت تقضي ساعات منهكة في كاتفورد برودواي لمراقبة الشقّة الكائنة فوق مطعم البطاطا، وشعرت بأنّها بعيدة تمامًا عن الواقع، وعاجزة عن التفكير في الزهور، وتوزيع موائد المدعوّين، وفي أن تطلب من سترايك – بناءً على إلحاح ماثيو – أن يمنحها إجازة خمسة عشر يومًا لقضاء شهر العسل، وهي رحلة أعدّها خطيبها ولا يزال يكتم عنها وجهتها.

تساءلت كيف مرّ الوقت بهذه السرعة بدون أن تلاحظ. في الشهر المقبل، ستصبح روبن كانليف. أقلّه، هذا ما كانت تفترضه. لا شكّ بأنّ ماثيو كان يرجو أن تحمل شهرته. كانت سعادة مجنونة تغمره في الفترة الأخيرة، فما

[1] أشعر بالظلمات بوضوح أكبر.

إن يلتقيها في الممرّ حتّى يعانقها بدون أن يقول كلمة واحدة. كذلك امتنع عن انتقاد الساعات الطويلة التي تقضيها في العمل، والتي تقضم نهايات الأسبوع.

دأب في تلك الفترة على إيصالها بالسيارة كل صباح إلى كاتفورد في طريقه إلى بروملي حيث يتولّى التدقيق في حسابات إحدى الشركات. لم يعد يأتي على ذكر سيارة اللاند روفر بالسوء، برغم كرهه لها، حتّى لو وجد صعوبة في تغيير السرعات، أو توقّف محرّكها فجأة وسط الطريق. كان يقول إنّ ليندا في غاية اللياقة، وإنّ السيّارة هديّة رائعة ومفيدة جدًّا حين يذهب في عمل خارج المدينة. مساء اليوم السابق، اقترح عليها وهو يعود بها من كاتفورد شطب اسم ساره شادلوك عن لائحة المدعوّين. فكّرت روبن في أنّه كان بحاجة إلى كثير من الشجاعة حتّى يفتح الموضوع، علمًا بأنّ مجرّد ذكر اسم ساره كان يهدّد بإثارة شجار بينهما. فكّرت في الأمر قليلًا، لاختبار مشاعرها، وفي النهاية رفضت اقتراحه.

– لا أبالي، من الأفضل أن تكون موجودة. لا بأس.

شطبُ اسم ساره عن لائحة المدعوّين كان ليثير شكوك هذه الأخيرة، ويؤكد لها بأنّ روبن اكتشفت السرّ المخفيّ. فضّلت روبن أن تلعب دور المرأة اللامبالية، التي أطلعها ماثيو على سرّ منذ سنوات، ولكنّها لا تعيره أية أهمية. كان لها كبرياؤها. كذلك، كانت أمّها قلقة هي الأخرى من وجود ساره. وحين سألت ابنتها عمّن تريده أن يجلس بجانب ساره، بعدما اعتذر شون، صديق ماثيو، عن الحضور، أجابت روبن بسؤال:

– هل ردّ كورموران على الدعوة؟

– لا.

– حسنًا، قال لي إنّه سيأتي.

– أتريدينه أن يجلس بجانب ساره؟

– بالطبع لا! ثمّ أضافت بعد صمت قصير: آسفة يا أمّي، آسفة. أتعرّض لضغط شديد. يمكنك أن تجلسي كورموران بجانب... لا أعلم...

– هل ستأتي صديقته؟

– قال إنّها لن تأتي. ضعيه أينما شئتِ، على ألّا يكون قريبًا جدًّا من تلك القذرة... أعني من ساره.

كان الطقس حارًّا على نحو استثنائيّ. عادت روبن لمراقبة الشقة التي تسكنها ستيفاني. كان الزبائن في كاتفورد برودواي يتنزّهون بقمصان تي شيرت والأحذية المفتوحة، ووضعت النساء الأفريقيات أغطية رأس ملوّنة رائعة. كانت روبن ترتدي فستانًا صيفيًّا وفوقه سترة جينز قديمة، وتقف متّكئة إلى جدار بالقرب من مدخل الممثّلين. ولقتل الوقت، كانت تتظاهر بأنّها تتحدث بالهاتف، أو بالنظر إلى الشموع المعطّرة وأعواد البخور في الدكّان المجاور.

كان صعبًا عليها أن تحافظ على تركيزها وهي تعرف أنّها في أثر لا يقود إلى أيّ مكان. مهما قال سترايك إنّه لا يزال يشتبه بكون ويتايكر قاتل كيلسي، فهي لم تعد تصدّق ذلك. ومع مرور الوقت، كانت تزداد اقتناعًا برأي واردل، وهو أنّ سترايك حاقد جدًّا على زوج أمّه السابق، وأنّ هذا الحقد يؤثّر على حكمه، الصائب جدًّا في العادة. كانت تنظر بين الحين والآخر إلى الستائر الجامدة خلف نوافذ الطابق الأوّل، وهي تفكّر في أنّ ستيفاني ربّما لم تعد تسكن هناك، نظرًا إلى أنّ آخر شخص شاهدها كان سترايك، يوم رمى بها ويتايكر في مؤخّرة الشاحنة المقفلة.

شعرت بالاستياء لفكرة أنّها ستخسر يومًا آخر، وعادت للتفكير في السبب الحقيقيّ لحنقها من سترايك، وهو أنّه انتزع منها التحقيق في أمر نويل بروكبانك. لسبب ما كانت روبن تشعر بأنّها معنيّة شخصيًّا بتلك القضيّة، وكأنّ الاشتباه ببروكبانك هو شأنها هي. لو لم تجسّد ببراعة شخصيّة فينيشيا هول، لما عرف سترايك قطّ أنّ بروكبانك يعيش في لندن. ولو لم تفطن إلى الرابط بين نايل ونويل، لما وجد سترايك أبدًا الأثر الذي يقوده إلى ساراسن. حتّى الكلمات القليلة التي همس لها بها – هل أعرفك يا صغيرة؟ – كانت تقيم صلة بينها وبين ذلك الشخص برغم كلّ ما كانت توحي به من الرعب.

أسندت روبن ظهرها إلى الجدار البارد. كان أنفها ممتلئًا بروائح السمك المختلطة بروائح البخور، لدرجة أنّ هذا الخليط بات يرتبط في ذهنها بالثنائيّ

ويتايكر وستيفاني. ومع ذلك واصلت النظر إلى ذلك الباب الموصود على الدوام. ومثل هرّ جائع يعود إلى حاوية نفايات، كان ذهنها يعود دائمًا إلى التفكير في زهرة، الفتاة الصغيرة التي ردّت على هاتف بروكبانك المحمول. كانت روبن تفكّر في تلك الفتاة كلّ يوم. وحالما عاد سترايك من نادي التعرّي، سارعت إلى طرح الأسئلة عليه حول والدة الفتاة.

علمت كذلك أنّ صديقة بروكبانك تدعى أليسا، وأنّها سوداء البشرة، وأنّ زهرة لا بدّ من أن تكون سوداء أيضًا. لعلّها كانت تشبه تلك الطفلة التي تلفّ رأسها بغطاء قماشيّ وتسير أمامها على الرصيف، وهي تشدّ في قبضة يدها الصغيرة سبابة والدتها، وتنظر إلى روبن بعينين متسائلتين. إبتسمت لها المحققة، لكنّ الصغيرة حافظت على جدّيتها واكتفت بالتفرّس في وجه روبن الباسم وهي تمرّ أمامها، ولم ترفع عنها نظرها حتّى بعدما تجاوزتها، إلى أن تعثّرت بحذائها، وسقطت أرضًا وبدأت بالبكاء والصراخ. حملتها أمّها بين ذراعيها وواصلت السير بها كأنّ شيئًا لم يحدث. شعرت روبن بالذنب، فمحت الابتسامة عن وجهها وعادت إلى مراقبة الشقّة، فيما كان صراخ الفتاة يدوّي في الشارع.

إحتمال أنّ زهرة تعيش في باو كان كبيرًا جدًّا، في الشقّة الزهيدة الإيجار التي كلّمها عنها سترايك. يبدو أنّ والدة زهرة كانت تتذمّر من ذلك المنزل، حتّى أنّ إحدى فتيات النادي...

إحدى فتيات النادي قالت...

– طبعًا! تمتمت روبن بحماسة، طبعًا!

لم يفطن سترايك إلى الأمر، لأنّه رجل، هذا بديهيّ. أخذت هاتفها وبدأت تبحث.

كان في باو ستّ دور حضانة. أعادت هاتفها إلى جيبه، ثم استأنفت جولتها على بسطات الدكاكين شاردة الذهن، تنظر تارة إلى نوافذ شقّة ويتايكر، وطورًا إلى باب المبنى. لكنّ تفكيرها لم يكن منصبًّا إلّا على بروكبانك. كانت ثمّة طريقتان للتحقيق، لا غير. إمّا المراقبة أمام كلّ من دور الحضانة بحثًا عن

أمّ سوداء تأتي لاصطحاب ابنتها المدعوّة زهرة (كيف يمكن التعرف إليهما؟)، وإمّا... إمّا...

وقفت أمام بسطة عُرضت عليها حليّ قبليّة أفريقيّة، لكنّها كانت تنظر إليها ولا تراها لشدّة انهماكها بالتفكير.

كانت تتظاهر بأنّها تتفحّص الأقراط المصنوعة من الريش واللؤلؤ، حين رفعت عينيها فجأة لترى ستيفاني، تمامًا كما وصفها لها سترايك، تخرج من الباب القريب من المطعم. كانت شاحبة اللون، وعيناها الشبيهتان بعيون الأرانب تلتمعان في الضوء. إتّكأت إلى باب المطعم، ثمّ دخلته بخطوات غير ثابتة وسارت إلى طاولة البيع. لم تكن روبن قد أفاقت بعد من مفاجأتها حين كانت ستيفاني تعود من حيث أتت، حاملة علبة كولا، وتوارت خلف باب المبنى الأبيض.

تبًا.

– لا شيء، قالت لسترايك عبر الهاتف بعد ساعة. عادت إلى الشقّة ولم أستطع أن أفعل شيئًا. خرجت وعادت للدخول بعد ثلاث دقائق.

– إبقي مكانك، قد تعود للنزول، قال سترايك. أقلّه عرفنا أنّها استيقظت.

– هل حالفك حظّ أفضل مع لاينغ؟

– لم يحدث شيء، أقلّه طوال مدّة مراقبتي. الواقع أنّه كان عليّ العودة إلى المكتب. لدينا خبر رائع: «المخدوع مرتين» سامحني. لقد غادر المكتب منذ قليل. لم أستطع رفض المهمّة التي يكلّفنا بها، فنحن بحاجة إلى ماله.

– هذا لا يصدّق. كيف استطاع أن يجد حبيبة في مثل هذا الوقت القصير؟

– لا حبيبة له بعد. يريدني أن أراقب الراقصة الجديدة التي يعاشرها ليعرف إن كان لديها صديق ما.

– ألا يمكنه أن يسألها؟

– سألها فأجابت بالنفي. لكنّك تعرفين جيّدًا يا روبن أنّ النساء يتميّزن بالمكر والخداع.

– نعم، طبعًا، قالت روبن متنهّدة. لقد نسيت. خطرت لي فكرة بشأن برو... مهلًا، ثمّة ما يحدث.

– هل كلّ شيء على ما يُرام؟ سألها فجأة.

– نعم، إبق على الخطّ...

أتت شاحنة صغيرة مقفلة وتوقفت أمامها. بدون أن تترك الهاتف، دارت روبن حولها محاولة أن ترى شاغليها. لكنّ ذلك كان صعبًا لأنّ نور الشمس انعكس على الزجاج الأماميّ. إلّا أنّ طيف السائق خلف المقود أظهر شعره المنتصب. ثمّ ظهرت ستيفاني على الرصيف، كاتفة ذراعيها على صدرها. إجتازت الشارع وصعدت إلى مؤخّرة الشاحنة. كان على روبن التي تتظاهر بأنّها تتكلّم بالهاتف أن تعود خطوة إلى الوراء لتسمح بمرور الشاحنة. وآنذاك رأت عيني السائق الداكنتي اللون وجفنيه الهابطين.

– صعدت في مؤخّرة شاحنة مقفلة قديمة، قالت لسترايك. لم يكن ويتايكر يقودها، بل رجل متوسّطي الملامح أو خلاسيّ. لم أستطع التمييز.

– تذهب للعمل في الدعارة. لا شكّ أنّها تفعل ذلك لتحصيل بعض المال لويتايكر.

صدمتها لامبالاة سترايك، لكنّها حاولت ألّا تحقد عليه. فهو قد لكم ويتايكر في بطنه لمنعه من خنق ستيفاني. توقّفت أمام واجهة بائع الجرائد حيث لا تزال تذكارات الزفاف الملكيّ معروضة. وخلف الفتاة الآسيويّة الجالسة إلى الصندوق تدلّى علم بريطانيّ.

– ماذا تريدني أن أفعل الآن؟ هل أعود إلى وولاستون كلوز فيما تهتمّ أنت بصديقة «المخدوع مرتين» الجديدة؟ مضى... آخ.

فيما كانت تستدير لتمضي في الاتجاه الآخر، اصطدمت بأحدّ المارّة وهو رجل ضخم الجثّة ذو لحية، فشتمها.

– آسفة، قالت له. لكنّ الرجل الفظّ دخل دكّان بائع الجرائد بدون أن يتوقّف حتّى.

– ماذا جرى؟ سألها سترايك.

– لا شيء. إصطدمت بأحدهم. إسمع، سأذهب إلى وولاستون كلوز.

– حسنًا، أجابها سترايك بعد تريّث. لا تحاولي أن تفعلي شيئًا حتّى لو ظهر لاينغ. صوّريه إذا استطعت، ولكن إيّاكِ والاقتراب منه.

– لم أكن أنوي أن أفعل ذلك.

– إتّصلي بي إذا ما استجدّ أيّ جديد. وحتّى إذا لم يستجدّ جديد.

لكنّ الحماسة التي شعرت بها مع فكرة العودة إلى وولاستون كلوز سرعان ما فترت. حين دخلت محطّة كاتفورد، شعرت بنفسها منهكة القوى ومتوتّرة بدون أن تعرف السبب. لعلّها كانت جائعة. خوفًا من أن تحول كمّيات الشوكولا التي تلتهمها دون أن تستطيع ارتداء فستان العرس، اشترت قبل دخولها القطار لوح طاقة بالشوفان. لكنه كان كنشارة الخشب، ولم تجد في مذاقه أيّ لذّة.

جلست في المترو السائر إلى إيليفنت أند كاسل، تأكل الشوفان وتدلّك أضلاعها حيث اصطدم بها الرجل الملتحي. مَن يسكن لندن، عليه أن يتوقّع إهانات من أشخاص مجهولين. لكنّ أحدًا لم يجرؤ على أن يكلّمها بهذه الطريقة في ماشام قطّ.

شيء ما أثار حذرها فجأة. ومع ذلك لم يكن في عربتها شبه الخالية أيّ رجل طويل القامة. كذلك لم ترَ أحدًا يراقبها في العربات القريبة. لكنّها وبعد التفكير أدركت أنّها تخلّت عن حذرها في كاتفورد برودواي صباح ذلك اليوم، واستسلمت لروتين ذلك الشارع الذي حفظته غيبًا، مستغرقة في التفكير في بروكبانك وزهرة. لو أنّها كانت أكثر انتباهًا لربّما رأت رجلًا ما يثير الشبهة... لا. لا شكّ بأنّها تقع فريسة الارتياب. وصلت إلى كاتفورد بالسيّارة مع ماثيو في الصباح. محال أن يكون القاتل قد لاحقها، إلّا إذا كان ينتظرها أمام منزلها في شارع هايستنغز، في عربة ما.

ومع ذلك، فكّرت في أنّ عليها ألّا تفرط في الثقة. حين ترجّلت من المترو، توقّفت لبرهة لتسمح بمرور رجل أسمر ضخم الجثّة يسير على مسافة خطوات قليلة خلفها. لم يلتفت الرجل إلى الوراء. لا شكّ بأنّني أصاب بذهان الارتياب، قالت لنفسها وهي ترمي بقيّة لوح الطاقة في سلّة المهملات.

عند تمام الواحدة والنصف، وصلت روبن إلى وولاستون كلوز. كان برج ستراتا يشمخ فوق المبنى الهرم كعملاق يخرج من المستقبل. لعل الفستان الصيفي الطويل وسترة الجينز يُعتبران طبيعيين في مكان كسوق كاتفورد، إلّا أنّهما بدوا غريبين هنا، وأوحيا بأنّها تتنكّر بزيّ طالبة. أخرجت هاتفها المحمول لكي يبدو عليها الانشغال وتظاهرت بأنّها تتكلّم به وهي تنظر إلى نوافذ الشقة بعين شاردة. فجأة أحست بقلبها يخفق. لقد تغيّر شيء ما: الستائر مفتوحة.

ركّزت روبن يقظتها وحواسّها كلّها على المراقبة، ولكن بدون أن تتوقف، تحسّبًا لاحتمال أن يكون لاينغ خلف الزجاج. بحثت عن زاوية ما في الظلّ تستطيع أن تراقب منها شرفته على نحو أفضل. وكانت غارقة في بحثها ومكالمتها الهاتفية الوهمية فلم تنظر إلى حيث تسير.

لا! صاحت حين زلت قدمها اليمنى. وحين علقت قدمها اليسرى في حاشية تنورتها الطويلة، انفسخت ساقاها فسقطت أرضًا وأفلت هاتفها من يدها.

تبًا! قالت وهي تئنّ. كانت قد داست ما يشبه القيء أو الغائط السائل، فاتّسخ فستانها وحذاؤها، كما خدشت يدها في سقطتها. لكنّ أكثر ما كان يقلقها هو رغبتها في معرفة طبيعة تلك المادّة الصفراء السميكة واللزجة.

سمعت قهقهة رجل على مسافة قريبة منها. كانت مستاءة، وبذلت جهدها لتنهض بدون أن تتّسخ أكثر، ولم تحاول أن تعرف مَن يسخر منها.

– آسف يا صغيرتي، قال رجل بلكنة سكوتلنديّة. إلتفتت نحوه لتراه، فسرت في جسدها صاعقة.

برغم الطقس الربيعيّ الدافئ، كان الرجل يعتمر قبعة بايسبول بواقيتي أذنين، ويرتدي سترة ذات مربعات حمراء وسوداء وسروال جينز. خفض بصره نحوها وهو يبتسم. كان جسده الضخم يتّكئ على عكّازين معدنيين. كما ملأت آثار الجدري خدّيه الشاحبين، وذقنه، والجيوب تحت عينيه الداكنتين. كما خرجت ثنايا عنقه الضخم عن ياقة قميصه.

كان يحمل في يده كيسًا من النايلون يحتوي على خضار. وظهر تحت كمّه الطويل طرف الخنجر الذي يخترق الوردة الصفراء الموشومة على ذراعه، والتي تتذكّرها روبن تمامًا برغم أنّها لم تكن ظاهرة في تلك اللحظة.

رأت بضع قطرات من الدم تسيل على معصمها.

– أنت بحاجة إلى الماء، قال بودّ وهو يشير إلى حذائها وطرف فستانها المتّسخين، مضيفًا: وإلى فرشاة قاسية الشعيرات للتنظيف.

– نعم، قالت روبن بصوت يرتجف، وهي تنحني لاسترجاع هاتفها المحمول الذي تشقّقت شاشته.

– أسكن هناك، قال لها مشيرًا بذقنه إلى الشقة التي كانت تراقبها بشكل متقطّع منذ شهر. ما عليك سوى المجيء إذا أردت تنظيف نفسك.

– لا، لا بأس. ولكن شكرًا جزيلًا، قالت روبن لاهثة.

– كما تشائين، قال دونالد لاينغ.

حين نظر إليها، شعرت روبن بوخز كما لو أنّه لامس بشرتها بأصابعه. إستدار وعاد متّكئًا على عكّازيه، وكيس النايلون المتدلّي من ذراعه يزعجه في سيره. وقفت روبن على الرصيف تنظر إليه يبتعد، والدم ينبض بعنف في صدغيها.

لم يلتفت إلى الخلف مرّة واحدة. وكانت الواقيتان القماشيتان تخفقان خارج قبّعته كأذني كلب سبَنيليّ. تابع سيره حتّى زاوية المبنى حيث يسكن قبل أن يختفي.

«ربّاه»، قالت روبن. كانت خدوش يدها وركبتها تؤلمانها قليلًا. أعادت شعرها إلى الخلف بحركة تلقائية. وحين مرّت يدها أمام أنفها شعرت بارتياح كبير، فالمادّة اللزجة لم تكن سوى صلصة الكاري. سارت مبتعدة حتى وصلت إلى زاوية هادئة بعيدة عن نوافذ لاينغ. وهناك أخذت هاتفها المحمول لتطلب سترايك.

48

Here Comes That Feeling[1]

لم تكن موجة الحرّ التي أصابت لندن في مصلحته. كيف يمكنه أن يخفي سكّينيه تحت قميص تي شيرت؟ كما أنّه سيثير الانتباه إليه إذا ما رفع ياقة سترته واعتمر قبّعة بشكل يخفي وجهه، في مثل هذا الحرّ. لم يبقَ أمامه سوى الانتظار، وهو يدور حول نفسه كحيوان في قفص، في ذلك المكان الذي لا تعرف الشيء بوجوده.

في النهاية تغيّر الطقس، وهطلت الأمطار الغزيرة يوم الأحد فسقت الحدائق العطشى، وتراقصت المسّاحات على زجاج السيارات، ولبس السيّاح معاطفهم البلاستيكيّة، وخرجوا للسير في لندن لا يخشون الخوض في برك الماء المتجمّع.

شعر بالبهجة، وأنزل قبّعته حتّى عينيه، وارتدى سترته الخاصّة. وفي الجيبين الطويلين المستحدثين بداخل بطانة السترة، كان السكّينان يهتزّان مع وقع خطواته. كانت شوارع العاصمة تعجّ بالمارّة، اللندنيين منهم والسياح، يروحون ويجيئون بنشاط، كما يوم طعن العاهرة التي يحتفظ بإصبعيها في المجمّدة. إشترى بعضهم مظلات وقبعات بلاستيكية بألوان العالم البريطاني. وكان تَدافع المارة مصدر سرور لبعضهم.

[1] ها هو ذلك الشعور.

يجب أن يقتل امرأة، وبسرعة. الأيام الأخيرة لم تنفعه بشيء. كانت العطلة القصيرة التي منحته إياها الشيء تشرف على نهايتها، والسكرتيرة لا تزال حية، وتتنقل بحرية. عبثًا بحث عنها لساعات، وها هي تظهر أمامه فجأة في وضح النهار. تلك العاهرة الصغيرة الوقحة. يا لها من صدمة! يا لها من دهشة! لسوء الحظّ أنّ المكان كان يعجّ بالناس.

مشاكل في التحكّم بالانفعالات، هذا ما كان ليقوله ذلك الطبيب النفسيّ المعتوه لو علم ما فعله حين رآها. مشاكل في التحكّم بالانفعالات! هو قادر، حين يريد، على التحكّم جيّدًا بانفعالاته. لا بدّ من أن يكون رجلًا خارق الذكاء، ذلك القادر على قتل ثلاث نساء، وتشويه رابعة بدون أن تشتبه به الشرطة. ليذهب إلى الجحيم ذلك الطبيب النفسيّ الأخرق، هو وتشخيصه التافه. ولكن حين رآها أمامه، بعد كلّ تلك الأيّام التي ضاعت هباء، أراد أن يثير خوفها، أن يقترب منها، أن يقترب منها كثيرًا، أن يشمّها، أن يكلّمها، أن يتفرّس في عينيها الخائفتين.

لكنّها ابتعدت ولم يجرؤ على اللحاق بها. لا. بعد. كان مضطرًا إلى قمع نفسه ليدعها ترحل. لو أنّ الظرف مناسب، لكانت الآن مقطّعة وموضوعة في داخل ثلّاجته، ولاستطاع الاستمتاع بذلك المشهد: بوجهها الذي نقّاه الرعب، باحتضارها، في تلك اللحظة التي لا يشبهها شيء حين تصبح النساء ملكه تمامًا، وحين يمكنه اللعب معهنّ.

واليوم كان يذرع شوارع لندن تحت المطر، بقلب كسير، لأنّه يوم الأحد وها هي من جديد بعيدة عنه، في تلك الشقّة التي لا يمكن الوصول إليها لأنّ الوسيم فيها أيضًا.

كان بحاجة إلى حريّة، إلى حريّة أكبر بكثير. لكنّ وجود الشيء بصورة دائمة في المنزل كان يحدّ حركته. وقد كانت تراقبه ولا تسمح له بالابتعاد عنها أبدًا. عليه أن يجد حلًا. لقد أرغمها على العودة إلى عملها. وسيخبرها عمّا قريب أنّه وجد بدوره عملًا. وسيسرق المال عند الحاجة لكي تظنّه يكسب مالًا من عمله. ولن تكون المرّة الأولى التي يلجأ فيها إلى السرقة. كان هدفه أن يكون حرّ اليدين، وأن يكون له متّسع من الوقت لملاحقة السكرتيرة

إلى أن تسقط في الفخّ في مكان مقفر، أو في شارع مظلم دفعها عدم الحذر إلى سلوكه.

لم يكن يرى في الناس الذين يسيرون حوله أكثر من مجرّد أشخاص آليين، أو حيوانات لا تنفع إلّا لابتلاع التبن... راح يفتّش في كل مكان، كان يبحث عنها، الضحيّة التالية على لائحته. لا، ليست السكرتيرة. فهذه العاهرة مع الوسيم الآن خلف بابها الأبيض. أيّة فتاة أخرى ستفي بالغرض، شرط أن تكون غبية بما يكفي لتسير خلف رجل يحمل سكّينين. يجب أن يقتل فتاة قبل أن يعود إلى الشيء. هذا أمر ضروريّ جدًّا، وإلّا فلن يستطيع أن يمثّل ليكون الرجل الذي تحبّه الشيء. من خلف زجاج خوذته، كانت عيناه تستكشفان الجموع، وتفرزان الأشخاص، وتستبعدان هذه وتلك. بعضهنّ كنّ يسرن بجانب رجال، فيما كانت أخريات يرافقهنّ أولاد. لم يجد أيّة امرأة تسير وحيدة، من النوع الذي يريده على الأقلّ...

ظلّ يجول في المدينة على هذا المنوال لساعات إلى أن هبط الليل. بصبر صيّاد، مرّ أمام المطاعم، ودور السينما، والحانات المضاءة، والملأى بأشخاص يتضاحكون أو يتغازلون. مساء السبت، يعود الموظفون والعاملون إلى منازلهم باكرًا، ولكن يبقى السيّاح، أبناء المناطق البعيدة الذين تجذبهم لندن بتاريخها وأسرارها...

قبيل منتصف الليل، خرجن أمام عينه الخبيرة، مثل نباتات فطر مكتنزة ومختبئة بين الأعشاب العالية. كنّ يسرن زرافات زرافات وهنّ يطلقن صيحات صغيرة كالببغاوات، ويترنّحن من شدّة السكر. كان يعشق هذا النوع من الأزقّة البائسة والقذرة، حيث الشجارات بين السكارى وصرخات النساء لا تلفت انتباه أحد. بدأ بالسير، حريصًا على أن يبقى خلفهنّ بعشرة أمتار ليستطيع مراقبتهنّ على نحو أفضل حين يمررن تحت المصابيح متشابكات بالأذرع، كلهنّ ما عدا واحدة، وهي أصغرهنّ سنًّا وأشدهنّ سكرًا. عرف من مشيتها أنّ لن تلبث أن تتقيّأ. كانت تلك الغبية تسير متأخّرة خطوات قليلة عن رفيقاتها، متعثّرة بكعب حذائها العالي. لكنّ الأخريات اللواتي انشغلن بالضحك ومحاولة السير في خطّ مستقيم لم يلاحظن شيئًا.

كان يتبعهنّ بهدوء، متجنّبًا إثارة الشكوك.

إذا ما تقيأت في الطريق، فستسمعها صديقاتها ويعدن لمساعدتها. كان شعورها بالغثيان شديدًا، ولن تستطيع أن تناديهنّ. وشيئًا فشيئًا راحت المسافة بينها وبين الأخريات تزداد. طريقتها الخرقاء بالسير بحذائها العالي الكعب، ذكّرته بضحيّته الأخيرة. أمّا هذه فسيحرص على ألّا تعيش فترة تسمح لها بتقديم أوصافه إلى الشرطة.

حالما رأى سيّارة الأجـرة تقترب، فهم ما سيحدث. جرى كلّ شيء مثلما توقّع. صرخن بالسائق ليتوقّف وهنّ يلوّحن إليه بكلّ أذرعهنّ، ثمّ جلسن بمؤخّراتهنّ الضخمة على المقعد، الواحدة خلف الأخرى. حثّ الخطى، خافض الرأس، مخفيًا وجهه خلف ياقته. كانت أضواء المصابيح تنعكس في برك الماء المتجمّع. إنطفأ الضوء الأصفر فوق سقف سيّارة الأجرة، وهدر محرّكها...

لقد نسينها. توقفت الفتاة أمام أحد الأبنية ورفعت ذراعها لتتّكئ إلى الجدار.

عليه التصرف بسرعة قبل أن تكتشف إحدى رفيقاتها غيابها عن سيّارة الأجرة.

– أنت بخير يا عزيزتي؟ لا، هل تشعرين بتوعّك؟ تعالي. لا تخافي. كلّ شيء سيكون على ما يُرام. تعالي من هنا.

حين قادها من ذراعها في طريق جانبيّ، أحسّت بالحاجة إلى التقيّؤ. حاولت أن تتحرّر منه، وفي اللحظة عينها انفتح فمها وخرج سيل من القيء لطّخ ملابسها.

– أيّتها القذرة الكبيرة، قال لها موبّخًا، وقد دسّ يده تحت سترته.

حمل مقبض السكّين في يده وجرّها إلى مكان مظلم يقع بين متجر لبيع الأفلام الخلاعيّة وآخر لبيع المتاع المستعمل.

– لا، قالت وهي تختنق بقيئها.

على الرصيف المقابل، فُتح باب، وأنار الضوء درجًا خرج منه أشخاص إلى الشارع وهم يضحكون.

أسندها بعنف إلى الباب وقبّلها وهو يضغط بكلّ وزنه عليها ليمنعها من المقاومة. كان طعم فمها مريعًا بسبب القيء. إنغلق الباب الذي فُتح، وابتعد الأشخاص الذين خرجوا منه وهم يضحكون في الليلة الصافية، وانطفأ الضوء.

إبتعد عن فمها وهو يشعر بغثيان شديد. لكنّه ظلّ ملصقًا جسده بجسدها.

أرادت أن تستعيد أنفاسها لتصرخ طالبة النجدة، لكنّ السكّين انغرزت بين أضلاعها وكأنّها تخترق الزبدة. كان الأمر أسهل ممّا مع الضحيّة الأخيرة التي قاومت كشيطانة. لم تخرج الصرخة من شفتي الفتاة الوسختين. سال الدم على قفّاز يده، وبلّل الجلد. إجتاحتها اختلاجات عنيفة، وحاولت أن تتلفّظ بكلمة، ثمّ أصبحت عيناها بيضاوين تمامًا وانهار جسدها الذي ظلّ معلّقًا بفولاذ السكّين.

– فتاة عاقلة، تمتم وهو يسحب منها سكّين التقطيع. تهاوت الفتاة المحتضرة بين ذراعيه.

حملها إلى مكان أبعد قليلًا، حيث أكوام النفايات التي تنتظر مرور عمّال النظافة. أبعد الأكياس بضربات من قدميه، ثمّ وضعها بينها وأخرج ساطوره. لا بدّ من أن يأخذ تذكارات صغيرة قبل أن يرحل، ولكنّه لا يملك سوى ثوان قليلة، فقد ينفتح باب آخر، أو تعود اللعينات الأخريات بسيّارة الأجرة...

سلخ غنائمه، ودسّها في جيبه وهي لا تزال ساخنة والدم يتقطّر منها، ثمّ دفع أكياس النفايات فوق الجثّة لتغطيتها.

الأمر كلّه كلّفه أقلّ من خمس دقائق. شعر بأنّه لا يُقهر، بأنّه ليس أقلّ من ملك، أو إله. أعاد سكّينيه إلى مخبئهما وابتعد لاهثًا في هواء الليل البارد. ما كاد يخرج إلى الشارع الرئيسيّ ويسير نحو مئة متر حتّى سمع عدّة نساء يصرخن في البعيد.

– هيذر! هيذر! أين أنت أيّتها الغبيّة؟

– هيذر لا تسمعكنّ، تمتم في الظلمة.

غرز رأسه في ياقة سترته ليمنع نفسه من الضحك، لكنّ ذلك كان مستحيلًا، فالأمر طريف جدًّا. دسّ أصابعه اللزجة في جيبيه وأخذ يعبث بقطع من الجلد الغضروفيّ، لا يزال قرطان بلاستيكيّان مخروطيّا الشكل معلّقين باثنين منها...

49

It's the time in the season for a maniac at night[1].

Blue Öyster Cult, 'Madness to the Method'

دخل شهر حزيران/يونيو أسبوعه الثاني لكنّ الطقس ظلّ باردًا ورطبًا تتخلّله رياح ناشطة أحيانًا. بات الجوّ الاحتفاليّ الذي ساد العاصمة في فترة الزفاف الملكيّ من الماضي، وهدأت فورة الحماسة والرمانسيّة، كما اختفت من واجهات المتاجر الرايات والسلع الأخرى التي راجت للمناسبة الكبيرة، وعادت صحف لندن إلى الكتابة عن أمور بعيدة عن الشاعرية، ومن بينها الإضراب المتوقع لعمّال المترو.

يوم الأربعاء، حفلت عناوين الجرائد بأخبار الدم فجأة، بعد اكتشاف جثّة شابّة مشوّهة بين أكوام النفايات. وبعد ساعات على إطلاق الشرطة دعوتها إلى الشهود المحتملين للتقدّم بإفاداتهم، عرف العالم أنّ مقلّدًا لجاك السفّاح يتجوّل حرًّا في شوارع لندن.

ثلاث نسوة تعرّضن للاعتداء والتشويه، لكن يبدو أنّ الشرطة لا تملك أيّ دليل. تسابق الصحفيون على تغطية كلّ تفاصيل القضيّة، ونشروا صورًا للضحايا الثلاث، وخرائط للندن تشير إلى مواقع الجرائم، في حمّى جارفة

[1] إنّه الوقت المناسب لمهووسي الليل.

أظهرت عزمهم على التعويض عمّا فاتهم حين اعتبروا مقتل كيلسي بلات جريمة منعزلة ارتكبها مجنون ساديّ، أو حين اكتفوا بخبر بسيط للحديث عن الاعتداء الذي تعرّضت له ليلا مونكتون، العاهرة ابنة الثمانية عشر عامًا. ولكن طبعًا، لم يكن ممكنًا لخبر طعن عاهرة يوم الزفاف الملكيّ أن يتقدّم على خبر اكتساب كايت ميدلتون لقب دوقة كامبريدج.

لكنّ موت هيذر سمارت، ابنة الاثنين وعشرين عامًا، والموظّفة في شركة تسليفات عقاريّة حمل طابعًا مختلفًا تمامًا. فمعها، ما من حاجة أبدًا للتفكير كثيرًا لكتابة عناوين لافتة. هيذر كانت الضحيّة المثاليّة، فهي فتاة مقبولة جدًّا من الناحية الاجتماعيّة، وتمارس وظيفة لائقة، وحبيبها مدرّس. وقد أتت إلى العاصمة لزيارة معالمها. وكانت هيذر، عشيّة مقتلها، قد حضرت المسرحيّة الموسيقيّة «الأسد الملك»، وتناولت طعامًا صينيًّا في تشايناتاون، والتُقطت لها صور في هايد بارك، وخلفها حرّاس على صهوات جيادهم. ما عاشته الفتاة خلال نهاية الأسبوع الطويلة هذه، شكّل موادّ غزيرة للكتابة. وملأ الصحفيّون صفحات وصفحات بأخبار العيد الثلاثين لزوجة شقيقها، والنهاية المأساوية التي لقيتها حين قُتلت في شارع قذر، خلف متجر يبيع الأفلام الخلاعيّة.

على غرار الأخبار المتفرّقة ذات الوقع الكبير، انتشرت هذه الرواية كالنار في الهشيم، وأطلقت العنان لسيل من المقالات التي كُتبت حول مواضيع متفرّعة منها ومواضيع جدل اجتماعيّ، ومواقف في كلا الاتّجاهين. وانتُقد الميل الجديد الذي يظهر لدى الشابّات البريطانيّات للإفراط في شرب الخمور، وذهب بعضهم حتّى إلى لوم الضحيّة. وأعلن البعض الآخر أنّهم يشعرون بالخوف أمام تصاعد حوادث العنف الجنسيّة، ما استدعى ردًّا من معارضيهم بأنّ بريطانيا تسجّل نسبة منخفضة من تلك الجرائم بالمقارنة مع بقيّة دول العالم. أُجريت مقابلات مع رفيقات هيذر اللواتي نسينها في شارع مهجور. تعرّضت هؤلاء الفتيات إلى نقد لاذع على مواقع التواصل الاجتماعيّ، فيما انبرى أشخاص آخرون للدفاع عنهنّ والإشارة إلى حزنهنّ وأسفهنّ العميق على ما جرى.

كان طيف القاتل يخيّم فوق كلّ الجرائد، ذلك الوحش الذي يقطّع جثث النساء. حين عاد الصحفيّون إلى شارع الدانمارك لمقابلة سترايك، قرّر هذا الأخير أنّ على روبن العودة إلى ماشام لقياس فستان العرس للمرّة الأخيرة. أمّا هو فقد عاد إلى منزل نِك وإلسا، محمّلًا بحقيبة وضع فيها ملابسه وبشعور هائل بالعجز. ووقف شرطيّ بلباس مدنيّ أمام المكتب لحراسته، لأنّ واردل كان يخشى وصول طرد مشؤوم جديد خلال غياب سترايك وروبن.

إنهمك واردل في ذلك التحقيق الذي زاد من دقته تسليط أضواء الصحف الوطنيّة عليه، فلم يستطع مقابلة سترايك في الأيّام الستّة التي تلت العثور على جثّة هيذر. لاحقًا، التقيا في حانة فيذرز في مساء أحد الأيام، فبدا واردل مرهقًا ولكنّه كان توّاقًا إلى أن يبوح بأفكاره إلى شخص ينظر إلى القضيّة من الخارج، وهو مع ذلك صاحب مصلحة في التحقيق الجاري.

– كان أسبوعًا سيّئًا جدًّا، قال واردل متنهّدًا وهو يقبل كوب البيرة الذي طلبه له سترايك. عدت إلى التدخين، كما أنّ أبريل لم تعد تستطيع أن تتحمّل.

شرب واردل جرعة كبيرة من كوبه، وبدأ يروي لسترايك الظروف التي عُثر فيها على جثّة هيذر. كان الأخير قد لاحظ تناقضًا في مقالات الصحف حول كثير من النقاط الأساسيّة، غير أنّها توافقت كلّها على لوم الشرطة على عدم اكتشاف الجثّة إلّا بعد مرور أربع وعشرين ساعة.

– الفتيات الخمس كنّ سكارى تمامًا، قال الشرطيّ مباشرة. صعدت أربع منهنّ إلى سيّارة الأجرة ونسين الخامسة على الرصيف، ولم يلاحظن غيابها إلّا بعدما ابتعدت السيّارة مسافة مئتي متر. وآنذاك أثرن هرجًا كبيرًا أثار غضب السائق الذي رفض أن ينعطف في وسط الشارع ليعود. هاجمته إحداهنّ وهي تشتمه، فتلاسنا. ومرّت خمس دقائق قبل أن يقبل بالعودة إلى المكان. حين عادت الفتيات إلى حيث يعتقدن أنّهنّ نسين هيذر – لا تنسَ أنّهنّ من نوتينغهام، ولا يعرفن لندن كلّها – لم يجدنها هناك. بدأن ينادينها من نافذة السيّارة التي سارت بهنّ مرّات عدّة في الشارع. إعتقدت إحداهنّ إنّها رأتها تصعد في حافلة. قصّتهنّ تخلو من المنطق تمامًا، فلم يكنّ في كامل

وعيهنّ. ترجّلت اثنتان وأخذن يركضن خلف الحافلة فيما بقيت الأخريان في السيّارة، وصاحتا بهنّ للعودة لأنّ ملاحقة الحافلة بالسيّارة أمر أسهل. بعد ذلك، عادت الفتاة التي تلاسنت والسائق إلى شتمه ونعته بالباكستانيّ الفظّ، فطردهنّ من سيّارته ورحل.

باختصار، أضاف واردل متعبًا، كلّ النقد الذي يوجّه إلينا الآن بسبب تأخّرنا أربعًا وعشرين وساعة في العثور على الجثّة، ما هو إلّا نتيجة مباشرة للإفراط في الكحول وللعنصريّة. كانت أولئك الحمقاوات متأكّدات جدًّا من أنهنّ رأين هيذر تصعد في حافلة، فأضعنا يومًا ونصف في محاولة العثور على امرأة لها أوصاف هيذر. ولاحقًا، حين أخرج مدير متجر الأدوات الجنسيّة نفاياته، وجدها بين أكياس النفايات، مقطوعة الأنف والأذنين.

– إذًا هناك على الأقلّ تفصيل صحيح واحد، قال سترايك.

كانت الجرائد كلّها قد تحدّثت عن وجود جروح بالغة في الرأس.

– نعم، هذا صحيح، قال واردل باستياء. سفّاح شاكلويل، يا لها من عبارة مثيرة للصدمة!

– هل من شهود؟

– لم يرَ أحد شيئًا.

– ومن جهة «المتفاني» ودرّاجته الناريّة؟

– هذا الأمر بات من الماضي، أقرّ واردل متجهّمًا. لديه حجّة غياب متينة يوم مقتل هيذر: كان يحضر زفافًا عائليًّا. وبالنسبة إلى الاعتداءين الآخرين، فهما لا يتناسبان مع دوام عمله.

شعر سترايك بأنّ لدى واردل أمرًا آخر يريد إطلاعه عليه، وما عليه سوى الانتظار.

– لا أريد إطلاع الصحف على هذا الأمر، قال له واردل هامسًا، لكنّني أظنّه ارتكب جريمتين أخريين من قبل.

– ماذا؟ متى؟ سأله سترايك وقد بدا عليه القلق.

– تعود الأولى إلى تاريخ قديم: العام 2009 في ليدز. وقد حُفظت القضيّة بدون التوصّل إلى حلّ. تعرّضت عاهرة من كارديف إلى القتل طعنًا.

لم ينتزع من جثّتها أيّ عضو، لكنّه أخذ قلادة تضعها دائمًا حول عنقها. لم تعثر الشرطة على الجثّة إلّا بعد خمسة عشر يومًا.

وأيضًا، في العام الماضي، قُتلت فتاة وشُوهّت جثّتها في ميلتون كينز. كانت تدعى سادي روتش. إتُّهم صديقها بقتلها. راجعتُ القضيّة برمّتها. أقامت عائلته الدنيا ولم تقعدها لإطلاق سراحه. تمّت تبرئته بعد استئناف الحكم. لم يكن يربطه بالجريمة شيء، سوى أنّهما تشاجرا قبل مقتلها بدقائق، وأنّه سبق له أن هدّد رجلًا بسكّين.

أطلعنا علماء النفس والخبراء على معطيات الاعتداءات الخمسة، فتوصّلوا إلى أنّ بينها ما يكفي من النقاط المشتركة لافتراض أنّ الفاعل واحد. يبدو أنّه يستعمل نوعين من السلاح الأبيض، سكّينًا للتقطيع وساطورًا. والضحايا كلهنّ كنّ في حالة ضعف، فهنّ إمّا عاهرات، أو سكارى، أو نساء عانين صدمة عاطفيّة. كما أنّه وجدهنّ كلّهنّ في الشارع، ما عدا كيلسي. وأخذ غنيمة من كلّ منهنّ. ما زال الوقت مبكرًا للتأكيد على تطابق آثار الحمض النوويّ المرفوع عن الضحايا الخمس. لكنّني أميل إلى الشكّ بذلك. فأولئك النساء لم يُغتصبن، وهو يصل إلى النشوة بطريقة أخرى.

كان سترايك جائعًا، لكنّ شيئًا ما كان يثنيه عن مقاطعة ما يبوح له به واردل. شرب المفتّش جرعة بيرة، ثمّ أضاف بدون أن ينظر إلى وجه سترايك:

– سأهتمّ بالرجل الثلاثة الذين تشتبه بهم، بروكبانك ولاينغ وويتايكر. أما آن الأوان؟!

– يبدو لي بروكبانك مشتبهًا به مثيرًا للاهتمام، أضاف واردل.

– هل وجدته؟ سأله سترايك وهو يحمل كوبه أمام وجهه.

– لم أجده بعد، لكنّنا نعلم أنّه كان يرتاد كنيسة في بريكستون منذ خمسة أسابيع.

– كنيسة؟ هل أنت متأكّد من أنّنا نتحدّث عن الرجل عينه؟

– رجل ضخم الجثّة، جنديّ قديم، لاعب رغبي قديم، ذقن معقوفة، عين غائرة، أذن منتفخة، له شعر بنيّ منتصب، قال واردل، واسمه: نويل بروكبانك. يبلغ طوله نحو 190 سنتم، ذو لكنة شماليّة حادّة.

– إنّه هو. ومع ذلك، في كنيسة!

– مهلًا، قال واردل وهو ينهض. يجب أن أذهب لأتبوّل.

ولماذا لا يرتاد كنيسة؟ فكّر سترايك وهو يذهب إلى البار لشراء كوبَي بيرة جديدين. كانت الحانة تمتلئ. عاد إلى مائدتهما حاملًا الكوبين ولائحة طعام، لكنّه لم يستطع التركيز على اللائحة. فتيات الجوقة الصغيرات... لن يكون أوّل مَن يفعلون ذلك...

– أشعر بالارتياح، قال واردل بعدما عاد. سأخرج لتدخين سيجارة، وأعود إليك...

– حدّثني أوّلًا عن بروكبانك، قال سترايك وهو يدفع بكوب بيرة نحوه.

– الحقيقة أنّنا عثرنا عليه بالصدفة، قال واردل الذي عاد للجلوس وأخذ البيرة. كان أحد رجالنا يلاحق والدة أحد كبار مروّجي المخدّرات المحليين. تزعم الأمّ أنّها لا تعرف شيئًا عن نشاطات ابنها، لكنّ لدينا من الأسباب ما يدفعنا للشكّ بذلك. تبعها زميلنا حتّى الكنيسة، ورأى عند مدخلها بروكبانك يوزّع كتيّبات ترانيم. أخذا يتحادثان، بدون أن يعلم بروكبانك أنّه يحادث شرطيًا، وبدون أن يعرف الشرطيّ أنّ بروكبانك مطلوب.

بعد أربعة أسابيع، سمعني ذلك الشرطيّ أتحدّث عن علاقة نويل بروكبانك بقضيّة كيلسي بلات، فقال لي إنّه التقى رجلًا بهذا الاسم في بريكستون، قبل شهر. أترى يا سترايك؟ قال واردل وقد استعاد ارتياحه وارتسمت ابتسامته الساخرة المعهودة على وجهه. هذا هو البرهان على أنّني أهتمّ بالمعلومات التي تقدّمها لي. بعد قضيّة لاندري، من الغباء ألّا أهتمّ بمعلوماتك.

أنت تهتمّ بمعلوماتي لأنّك لم تجد شيئًا على الحفّار ماللي ولا على «المتفاني»، فكّر سترايك. لكنّه أرضى واردل ببعض عبارات الإعجاب والامتنان، وعاد إلى صلب الموضوع.

– هل قلت إنّ بروكبانك لم يعد يقصد تلك الكنيسة؟

– نعم، أجاب واردل متنهّدًا. ذهبت إلى هناك أمس وتحادثت والكاهن قليلًا. إنّه شابّ يسخو بأفكار رائعة، كالكهنة الذين نراهم غالبًا في

الأحياء المحرومة. أنت تعرف هذا النوع، أضاف واردل وهو يجهل أنّ سترايك لم يتعرّف إلى الإكليروس إلّا من خلال بعض الكهنة الذين التقاهم في الجيش. خصّص ذلك الكاهن كثيرًا من وقته لبروكبانك لأنّه ظنّه عانى كثيرًا في حياته.

– دائمًا السخافات عينها: إصابته الدماغيّة، وتسريحه من الجيش بسبب الإعاقة، وانفصاله عن عائلته؟

– نعم، تقريبًا. يبدو أنّه مشتاق إلى ابنه.

– نعم، قال سترايك مستاء. هل أعطاك الكاهن عنوانه؟

– لا، ولكن يبدو أنّ يقيم في منزل صديقته...

– أليسا؟

عبس واردل قليلًا ووضع يده في جيب سترته، ليخرج منه دفترًا راح يقرأ فيه.

– صحيح. أليسا فنسنت. ما أدراك؟

– لقد طُردا مؤخّرًا من نادي التعرّي حيث كانا يعملان. ثمّ سارع ليضيف بعدما رأى واردل مرتبكًا: سأشرح لك في الحال. أخبرني عن أليسا.

– وجدت منزلًا بإيجار زهيد في الأحياء الشرقيّة من لندن، بالقرب من أمّها. وقال بروكبانك للكاهن إنه سيذهب ليعيش معها ومع الفتاتين.

– الفتاتان؟ سأل سترايك وهو يفكّر في روبن.

– يبدو أنّهما طفلتان.

– أين تلك الشقّة؟

– لا نعرف ذلك بعد. أسف الكاهن لرؤيته يرحل، قال واردل وهو ينظر إلى الرصيف حيث وقف رجلان يدخّنان. نجحت في أن أعرف منه أنّ بروكبانك كان في الكنيسة يوم الأحد في الثالث من نيسان/أبريل، أي في نهاية الأسبوع التي قُتلت خلالها كيلسي.

كاد واردل يفقد صبره، فامتنع سترايك عن أيّ تعليق واقترح عليه الخروج لتدخين سيجارة.

دخّنا في صمت لبعض الوقت. كان بعض الموظّفين المتعبين الذين غادروا مكاتبهم بعدما بقوا فيها حتّى وقت متأخّر، يسيرون على الرصيف

أمامهم. وكان المساء يقترب. وفوق رأسيهما، ما بين لون الليل الأزرق الذي يقترب، واللون المرجانيّ المشعّ للشمس الغاربة امتدّت رقعة من السماء لا لون لها، كانت بمثابة فضاء خالٍ لا كيان له.

– ربّاه، لقد فاتني ذلك، قال واردل وهو يدخّن كما يمصّ الطفل رضّاعته، قبل أن يعود إلى الحديث. نعم، كنت أقول إنّ بروكبانك ذهب إلى الكنيسة في نهاية الأسبوع تلك لتقديم المساعدة. يبدو أنّه موهوب جدًّا مع الصغار.

– لا يفاجئني هذا، تمتم سترايك.

نفث واردل دخان سيجارته باتّجاه الرصيف المقابل، وعيناه على منحوتة داي لإيبشتاين، التي تزيّن واجهة إدارة النقل في لندن. يظهر في تلك المنحوتة صبيّ صغير، يقف مواجهًا الشارع أمام رجل جالس على عرش، ومحاولًا إمساك الملك من عنقه، وهو يُظهر للمارّة قضيبه. ثمّ قال لسترايك:

– يجب أن يكون الشخص قويّ الأعصاب ليقتل فتاة ويقطّعها، ثم يذهب إلى كنيسة متظاهرًا بالتقوى. ألا تظنّ ذلك؟

– هل أنت كاثوليكيّ؟ سأله سترايك.

فوجئ واردل بالسؤال.

– نعم، إلى حدّ ما، أجاب مشكّكًا، لماذا؟

هزّ سترايك رأسه باسمًا.

– حسنًا، أعرف أن ذوي الأمراض النفسيّة لا يتوقّفون أمام الاعتبارات الدينية، عاد واردل ليقول، بنبرة تدلّ على شيء من الاستياء. أنا فقط... باختصار، لقد أرسلنا رجالًا في أثره. إذا كانت المرأة تدعى أليسا فنسنت حقًّا، وكانت تسكن في منزل زهيد الإيجار، لن يكون من الصعب العثور عليها.

– ممتاز، قال سترايك.

كانت لدى الشرطة وسائل عظيمة بالمقارنة مع ما لديه ولدى روبن، وقد تتمكّن من حلّ القضيّة قريبًا.

– ولاينغ؟ سأل سترايك.

– آه، قال واردل وهو يسحق سيجارته مسارعًا إلى إشعال أخرى. عرفنا عنه معلومات جديدة. إنّه يسكن وحيدًا في وولاستون كلوز منذ ثمانية عشر شهرًا، ويعيش براتب تقاعده المرضيّ. وفي 2 و3 نيسان/أبريل، كان مصابًا بالتهاب رئويّ، وجاء صديقه ديكي لمساعدته لأنّه لم يكن يستطيع الخروج لشراء حاجياته.

– هذا مناسب تمامًا.

– شرط أن يكون صحيحًا. إستفسرنا ديكي حول الأمر، فأكّد كلّ شيء.

– كيف كانت ردّة فعل لاينغ حين رآكم؟

– كان مدهوشًا جدًّا في البداية.

– هل سمح لكم بدخول منزله؟

– لم يجرِ الأمر هكذا. رأيناه وكان يجتاز موقف السيّارات على عكّازيه. وجلسنا في أحد المقاهي لنتحادث.

– المقهى الاستوائيّ الكائن بداخل نفق؟

نظر إليه واردل بنظرة كالصاعقة، لكنّ سترايك لم يرفّ له جفن.

– هل لاحقته أيضًا؟ توقّف عن التدخّل في عملي يا سترايك. نحن نتابع القضيّة.

كان بوسع سترايك الردّ بأنّ واردل لم يبدأ بالاهتمام بالرجال الثلاثة الذين يشتبه بهم إلّا بعدما تيقّن من فشل نظريّاته، وتحت ضغط وسائل الإعلام. غير أنّه آثر الصمت.

– لاينغ ليس غبيًّا، تابع واردل. لم نكن بحاجة إلى استجوابه ساعات ليفهم ما الأمر. كان يشكّ في أنّك أنت مَن أعطيتنا اسمه، وقد علم بقضيّة الساق المقطوعة عبر الجرائد.

– وما رأيه في الأمر؟

– بدا لي وكأنّه شعر بالإهانة على نحو غامض، كمن يقولون: من غير المنصف أن يُشتبه بي، أنا رجل صالح، أجاب واردل بابتسامة خفيفة. كان رصينًا. لا شيء غير مألوف في ردّة فعله التي تراوحت بين الحيرة والحذر.

– هل بدا عليه أنّه مريض حقًّا؟

– نعم. كان يسير بصعوبة متّكئًا على عكّازيه. وهو مخيف لكلّ مَن ينظر إليه من قرب. فعيناه محتقنتان بالدم، وبشرته في حال سيئّة. مظهره مرعب.

لم يجب سترايك. كان غير مقتنع بذلك المرض المزعوم. في الصور، بدا من المؤكّد أنّ لاينغ يتناول المنشّطات. وقد رأى إصابته الجلديّة والطفح الأحمر. ومع ذلك ظلّ يشكّ في مرضه.

– ماذا كان يفعل حين وقعت الجريمتان الأخريان؟

– يقول إنّه كان وحيدًا في منزله. لكنّنا لا نملك دليلًا يؤكّد ذلك أو ينفيه.

– نعم، قال سترايك.

عادا لدخول الحانة، ليجدا أنّ رجلًا وامرأة قد جلسا إلى مائدتهما، فانتقلا إلى مائدة أخرى خلف واجهة زجاجيّة تمتدّ من الأرض وحتّى السقف.

– وفي ما خصّ ويتايكر؟

– رأيناه مساء أمس، يعمل مهندس ديكور لفرقة روك.

– هل أنت واثق؟ قال سترايك مشكّكًا. أكّد لي شانكر أنّ ويتايكر يتظاهر بقيامه بهذا العمل، غير أنّه في الواقع يعيش من تسهيل الدعارة لستيفاني.

– أبدًا، لقد رأينا صديقته، وكانت تحت تأثير المخدّرات...

– هل دخلتم الشقّة؟

– أبدًا. إستقبلتنا عند الباب. كانت الرائحة التي تنبعث منها منتنة. باختصار، قالت لنا إنّ ويتايكر ذهب مع الفرقة، وأعطتنا عنوان الحفلة الموسيقيّة، فوجدناه هناك. ركن شاحنة مقفلة قديمة الطراز أمام المكان. كما أنّ الفرقة الموسيقيّة أقدم عهدًا هي الأخرى. هل سبق أن سمعت بفرقة Death Cult؟

– لا، أجاب سترايك.

– لا بأس، فرقة رديئة جدًّا. كان عليّ أن أستمع إلى ذلك الضجيج التافه نصف ساعة قبل أن أستطيع الاقتراب من ويتايكر. يعزفون في قبو حانة في

واندسوورث. أمضيت اليوم التالي وأنا أسمع طنينًا في أذني. برأيي أنّه كان يتوقّع زيارتنا. فقد وجدك بقرب شاحنته منذ أسابيع قليلة.

– أخبرتك الأمر، كانت رائحة الكوكايين تنبعث منها...

– نعم، نعم. هذا الرجل كذّاب، لكن يبدو أنّ ستيفاني قادرة على أن تؤمّن له حجّة غياب يوم الزفاف الملكيّ، وهو ما يبعد عنه شبهة الاعتداء على عاهرة شاكلويل. كما يزعم أنّه كان في جولة مع فرقة Death Cult حين قُتلت كلّ من كيلسي وهيذر.

– أي أنّه يملك حجّة غياب في الجرائم الثلاث؟ الأمر واضح تمامًا. هل أكّد أفراد الفرقة أقواله؟

– أعترف أنّ إجاباتهم بقيت غامضة قليلًا، أجاب واردل. المغنّي يضع سمّاعة، وأجهل إن كان قد فهم كلّ أسئلتي. ولكن لا تقلق. أرسلت رجالًا للتحقّق من شهاداتهم، أضاف يقول لسترايك الذي بدا عليه الاستياء. لن يطول بنا الأمر حتّى نعرف الحقيقة.

توقّف واردل ليتثاءب وتابع يقول:

– يجب أن أعود إلى العمل. أخشى أن أقضي ليلة أخرى بدون نوم. بعدما أحاطت الصحافة بالأمر، نحن نغرق تحت كمّ هائل من المعلومات.

كان سترايك يشعر بجوع شديد، لكنّ الجلبة المتزايدة في الحانة حملته على أن يقرّر الذهاب إلى مكان آخر. سار الرجلان في الشارع وأشعلا سيجارة أخرى.

– أبلغني العالم النفسي أمرًا آخر، قال واردل فيما كان الليل قد أرخى سدوله تمامًا. إذا كنّا فعلًا أمام قاتل متسلسل، يجب أن نعلم أنّ لهؤلاء الأشخاص قدرات هائلة على التكيّف. رجلنا صاحب طريقة عمل فعالة للغاية. وهو منظّم جدًّا وإلّا لكان أمره قد اكتُشف. لكنّه مع كيلسي غيّر طريقته، فهو كان يعرف عنوانها. والرسائل، ومعرفته بأنّ الشقّة ستكون فارغة، كلّ ذلك يشير إلى أنّه يتحسّب لكل شيء بدقّة لامتناهية.

المشكلة أنّنا ومهما حاولنا التدقيق، عاجزون عن إثبات أنّ أيًا من الرجال الثلاثة الذين تشتبه بهم قد اتّصل بها. فكّكنا ذاكرة كومبيوترها

بدون جدوى. لم تفاتح أحدًا بموضوع ساقها سوى ذينك الأحمقين جايسون و«عاصفة». وما خلا بعض الصديقات، هي لا تعاشر أحدًا. وليس في هاتفها أي أمر مريب. وحسبما ندري، فإنّ أيًا من الرجال الثلاثة لم يسكن أو يعمل في فينشلي أو في شيبرد بوش قطّ، ولا مرّ بالقرب من مدرستها. كما لا صلة لهم بأيّ شخص في محيطها. أيمكنك أن تقول لي كيف استطاع أن يتقرّب منها ويتلاعب بعواطفها بدون أن تلاحظ عائلتها الأمر؟

– نعرف أنّها كانت تحيط تصرّفاتها بالكتمان. تذكّر صديقها الذي كان الجميع يظنّونه وهميًا، ولكنّه أتى فعلًا إلى كافيه روج ليقلّها على درّاجته الناريّة.

– نعم، قال واردل متنهّدًا. لكنّ تلك الدرّاجة الناريّة اللعينة لا تزال مفقودة. وزّعنا أوصافها عبر الصحف، ولكن لا شيء.

توقّف واردل أمام الباب الزجاجيّ للمبنى حيث يعمل، مصرًّا على تدخين سيجارته حتّى النهاية، ثمّ سأل سترايك:

– كيف حال شريكتك؟ أتشعر بكثير من الاضطراب؟

– لا بأس، أجاب سترايك. إنّها في منزل عائلتها في يوركشاير لإتمام الاستعدادات لعرسها. منحتها إجازة أيّام قليلة. في الفترة الأخيرة كانت تعمل سبعة أيّام في الأسبوع.

كانت روبن قد رحلت بدون اعتراض. لم يكن لديها أيّ سبب للبقاء. فالصحفيون يحاصرون شارع الدانمارك، وراتبها زهيد، والشرطة تهتمّ ببروكبانك ولاينغ وويتايكر على نحو أفضل ممّا كانت لتستطيع هي أو سترايك القيام به.

– حظًّا سعيدًا، قال سترايك لواردل حين افترقا.

رفع الشرطيّ يده ليشكر سترايك ويودّعه، ثمّ توارى بداخل المبنى الكبير الذي يرتفع خلف اللافتة الدوّارة المضيئة التي التمعت عليها عبارة سكوتلنديارد.

حثّ سترايك خطواته عائدًا إلى المترو. كان يحلم بلفافة كباب مفكّرًا في الوقت عينه بالمشكلة التي أثارها واردل أمامه. كيف استطاع أيّ من

الرجال الثلاثة أن يقترب من كيلسي بلات بما يسمح له أن يعرف عاداتها ويكسب ثقتها؟

كان لاينغ يعيش وحيدًا في شقّته الحقيرة في وولاستون كلوز، ولا مورد لديه سوى راتبه التقاعديّ. كان مصابًا بإعاقة، وبدينًا، وأدركه العجز وهو لا يزال في عامه الرابع والثلاثين. كان رجلًا طريفًا في الماضي. ألا يزال يملك من الفكاهة ما يسمح له بإغراء شابّة وإقناعها بأن تركب درّاجته الناريّة أو تتبعه إلى شقّة في شيبرد بوش تجهل عائلتها بوجودها؟

وويتايكر؟ هو أيضًا كان مزري المظهر، بأسنانه المكسّرة، وشعره القليل، وضفائره، ورائحة الكوكايين التي لا تزول عن جسده. لا شكّ بأنّه عرف في شبابه نجاحًا كبيرًا بين النساء. كما أنّ ستيفاني برغم قباحتها وهزالها تجد فيه سحرًا ما. ولكنّ كيلسي كانت معجبة بشابّ أشقر لا يكبرها بكثير.

وهناك بروكبانك أيضًا. كان من الصعب العثور على ذرّة جاذبيّة واحدة لدى لاعب الرغبي السابق، الضخم الجثة. كان سترايك يعتبره النقيض التامّ للفتى الساحر المسمّى نيال. عاش بروكبانك وعمل على مسافة كيلومترات عدّة من الحيّ الذي ارتادته كيلسي. شارك كلاهما في نشاطات كنسيّة، لكنّ نهر التايمز يفصل بين كنيستيهما. ولو أنّ صلة ما جمعت بين الرعيّتين، لكانت الشرطة اكتشفت ذلك.

هل كان غياب أيّة صلة بين كيلسي وأولئك الرجال الثلاثة يشطبهم من لائحة الشكّ؟ كان المنطق يدفعه إلى أن يجيب على هذا السؤال بنعم، ولكنّ صوتًا صغيرًا في داخله ظلّ يهمس له بعكس ذلك.

50

I'm out of my place, I'm out of my mind[1]...
Blue Öyster Cult, 'Celestial the Queen'

قضت روبن إجازتها في منزل ذويها، من بدايتها وحتّى نهايتها، كمن يعيش كابوسًا رهيبًا. شعرت بأنّها بعيدة عن الجميع، وحتّى عن ليندا. وقد بدأت هذه الأخيرة، وبرغم ما تتحلّى به من تسامح وصبر، تستاء من اضطرارها إلى الاهتمام وحيدة بالاستعدادات الأخيرة للزفاف، فيما ابنتها، وبدلًا من أن تساعدها، تمضي وقتها في متابعة آخر الأخبار على هاتفها المحمول بحثًا عن أيّ جديد يتعلّق بالبحث عن سفّاح شاكلويل.

جلست روبن إلى طاولة الخشب القديمة في مطبخ المنزل العائليّ، وراونتري يغطّ في النوم عند قدميها، وأخذت تدرس على خريطة للمطعم بسطتها أمامها ترتيب جلوس المدعوّين. أدركت أنّها أهملت كثيرًا مسؤوليّاتها في تنظيم زفافها. كانت ليندا ترهقها بالأسئلة حول الهدايا المخصصة للمدعوين، والكلمات، وأحذية الوصيفات، وغطاء الرأس، والموعد مع الكاهن، والعنوان الذي ترغب وماثيو في تلقّي الهدايا عليه، والمكان المخصص لسو، عمّة ماثيو، إلى مائدة العروسين أو في مكان آخر؟ شعرت روبن التي كانت

[1] أنا خارج محيطي الطبيعيّ، أنا خارج نفسي...

تأمل الاستفادة من هذه الإجازة لتأخذ قسطًا من الراحة، بأنّها تتعرّض للضغط من كلّ مكان. فحين لا تغرقها والدتها في سيل من المشاكل التافهة، يمطرها شقيقها مارتن بالأسئلة حول قضيّة هيذر سمارت، والتي قرأ تفاصيلها بعناية في الصحف. في النهاية، وضعت روبن حدًّا لإزعاجه وفضوليته المقيتة، فمنعتهما ليندا التي لم تعد تستطيع التحمّل من الإتيان على ذكر السفّاح في منزلها.

وكأنّ ذلك لم يكن يكفي، فقد استبدّ الغضب بماثيو – بصمت – لأنّ روبن لم تطلب من سترايك بعد إجازة أسبوعين لشهر العسل.

– أنا واثقة من أنّ تلك لن تكون مشكلة، أكّدت له روبن خلال العشاء. فلا قضايا نتابعها حاليًا، كما أنّ كورموران يقول إنّ الشرطة تعمل على الأدلّة التي نتابعها نحن.

– لم يؤكّد حضوره بعد، قالت ليندا التي لاحظت انعدام شهيّة روبن.

– مَن تعنين؟

– سترايك. لم أتلقّ إجابته.

– سأقول له، قالت روبن وهي تشرب جرعة كبيرة من الخمر.

لم تخبر أحدًا، ولا حتّى ماثيو، أنّها لا تزال تشاهد كوابيس مروّعة توقظها من نومها منتصف الليل، في السرير عينه الذي لازمته أشهرًا بعد حادثة اغتصابها. إستمرّت صورة رجل ضخم الجثّة تقضّ مضجعها، فتراه أحيانًا يقتحم المكتب حيث تعمل وسترايك، وأحيانًا أخرى، يخرج فجأة من زقاق لندنيّ مظلم وهو يحمل سكاكين برّاقة. وهذا الصباح استيقظت مذعورة في اللحظة الأخيرة قبل أن يفقأ عينيها.

– ماذا قلتِ؟ سألها ماثيو بصوت يغلبه النعاس.

– لا شيء، أجابته وهي تبعد خصلات شعرها المبتلّة بالعرق والتي التصقت بجبينها. لا شيء أبدًا.

كان على ماثيو العودة إلى العمل يوم الاثنين، وبدا مسرورًا ببقائها في ماشام لمساعدة ليندا. فالأمّ وابنتها كانتا على موعد بعد الظهر مع الكاهن للاتفاق معه على تفاصيل حفلة مباركة العروسين.

بذلت روبن جهدًا كبيرًا لتصغي إلى اقتراحات الكاهن التي راح يقدمها بسرور وحماسة دينية مفرطة. كانت غير قادرة على التركيز، ونظرها لا يفارق السرطان الحجري الكبير المنحوت على جدار الكنيسة، إلى يمين الممرّ الرئيسي.

لطالما جذبها هذا السرطان في طفولتها. ولم تفهم سبب وجوده في ذلك المكان. إنتقلت عدوى فضولها إلى ليندا التي فتّشت في أرشيف المكتبة البلدية، وعادت تعلن لابنتها بنبرة ظفر أنّ السرطان ما هو إلّا شعار عائلة سكروب النبيلة القديمة التي خُصّصت لها لوحة تذكاريّة فوق منحوتة السرطان.

بيد أنّ روبن ابنة السنوات التسع شعرت بالخيبة. فهي لم ترغب قطّ في معرفة الإجابة. كان يكفيها أن تعرف أنّها الوحيدة التي تثير تلك المنحوتة تساؤلاتها.

في الصباح التالي، كانت روبن في مشغل الخيّاطة الذي تنبعث منه رائحة الموكيت المفروش حديثًا حين رنّ هاتفها. إنّها الرنّة الخاصّة بسترايك. حين مدّت يدها إلى حقيبتها لتأخذ الهاتف، أطلقت الخيّاطة صرخة دهشة وانزعاج، لأنّ ثنايا الموسلين التي كانت تحاول تثبيتها بدبّوس قد أفلتت منها.

– آلو؟

– صباح الخير.

حالما سمعت نبرة صوته أدركت أنّ خطبًا ما قد وقع.

– ربّاه! هل وقعت ضحيّة أخرى؟ صاحت روبن.

نسيت تمامًا الخيّاطة التي تجلس القرفصاء أمام حاشية فستانها تنظر، وفمها مليء بالدبابيس، إلى انعكاس صورة روبن في المرآة.

– آسفة، هل يمكنني البقاء على انفراد لدقيقة؟ لا! لا أعنيك أنت! صاحت بسترايك، لمنعه من أن يفكّر في إنهاء المكالمة.

بعد خروج الخيّاطة جلست على كرسيّ واطئ في إحدى الزوايا، وقالت مجدّدًا:

– آسفة. لم أكن وحدي. هل مات شخص آخر؟

– نعم، أجاب سترايك. ولكنّ الأمر ليس كما تظنّين. مات شقيق واردل. ليس للأمر أية علاقة بقضيتنا. دهسته شاحنة على ممرّ للمشاة.

كانت روبن مرهقة جدًّا لدرجة أنّها كانت بحاجة إلى عدّة ثوان قبل أن تستوعب الأمر، ثمّ قالت:

– ربّاه!

كادت تنسى أنّ للموت أوجهًا عدّة، وهو ليس فقط نتيجة اعتداء يقوم به مجرم ساديّ يهوى السكاكين المشحوذة.

– نعم، الأمر فظيع. لديه ثلاثة أبناء، وزوجته حامل. كلّمت واردل منذ قليل عبر الهاتف. إنّه منهار تمامًا.

عاد دماغ روبن إلى العمل بصورة طبيعية.

– إذًا، واردل...

– في إجازة. إحزري مَن سينوب عنه؟

– أنستيس؟ سألته روبن، التي انتابها القلق فجأة.

– بل أسوأ.

– كارفر؟ سألته باستياء.

كان المفتّش روي كارفر أشدّ أفراد الشرطة الحاقدين على سترايك بعدما نجح، حيث فشلوا، في حلّ لغزَي جريمتين ضجّ بهما الإعلام. فالجرائد لم تقصّر في الحديث عن إخفاق كارفر في التحقيق في سقوط عارضة الأزياء الشهيرة من النافذة، وعناده في رفض الاعتراف بأنّ في الأمر جريمة. فضلًا عن ذلك، كان الرجل يفتقر إلى أدنى مقوّمات الجاذبيّة، فشعره تغزوه القشرة، وجبينه يلتمع دائمًا بقطرات العرق، ووجهه تملأه البقع البنفسجيّة اللون. وقد كان يضمر لسترايك كرهًا شديدًا حتّى قبل أن يفضح هذا الأخير عدم كفاءته على الملأ.

– نعم. وفوق ذلك، أمضى ثلاث ساعات يستجوبني هنا في المكتب.

– ربّاه... لماذا؟

– الأمر بديهيّ. كارفر يحلم بالثأر! وسلسلة الجرائم هذه هي الفرصة المناسبة لذلك. حتّى أنّني توقّعتُ منه أن يسألني أين كنت ساعة وقوع

الجرائم. كما توقف كثيرًا عند الرسالتين الموقعتين باسمي واللتين تلقّتهما كيلسي.

تأوّهت روبن استياء.

– لماذا سمحوا لكارفر صاحب الماضي...

– قد تجدين صعوبة في تصديق الأمر. لكنّ كارفر لم يكن مغفّلًا دائمًا، ولا بدّ من أنّ رؤساءه قد افترضوا أنّ خطأه في قضيّة لاندري أمر عابر سببه الحظّ السيئ. نقلوا إليه ملفّ التحقيق مؤقّتًا بغياب واردل. نصحني بأن أبقى بعيدًا عن القضية. وحين أردت معرفة أين أصبح التحقيق في أمر بروكبانك ولاينغ ويتايكر، تجاهلني متحدّثًا بازدراء عن «غروري وحدسي». الأمر المؤكّد هو أنّنا بعد اليوم لن ننال من جانب الشرطة معلومة واحدة.

– ولكنّه ملزم بمتابعة سير التحقيق الذي بدأه واردل، أليس كذلك؟

– قد يظنّ المرء أنّه يفضّل الموت على أن أتفوّق عليه مرّة جديدة، وأنّه سيُخضع كلًا من أدلّتي إلى التمحيص الدقيق. لكنّ الواقع أنّه ومثلما أقنع نفسه بأنّ نجاحي في قضيّة لاندري كان مجرّد ضربة حظّ، فها هو الآن يعتبر اهتمامي بالرجال الثلاثة الذين أشتبه فيهم ليس إلّا غرورًا وادّعاء. أنا آسف لأنّ واردل لم يتسنّ له الوقت ليوافينا بعنوان بروكبانك.

صمت روبن الذي طال أكثر من دقيقة، جعل الخيّاطة تظنّ المكالمة انتهت وأنّ بوسعها العودة إلى قياس الفستان. فمدّت رأسها عبر الستارة، لتعاجلها روبن بحركة من يدها أعادتها إلى حيث كانت.

– لدينا عنوان لبروكبانك، قالت روبن بالهاتف، فيما توارت الخيّاطة خلف الستارة.

– ماذا؟

– لم أقل لك شيئًا لأنّني ظننت واردل أعطاك العنوان. لكنّني فكّرت، فقط لأتأكّد... اتّصلت بدور الحضانة في المنطقة، منتحلة اسم أليسا، والدة زهرة. طلبت منهم التحقق من أنّهم يملكون العنوان الجديد لمنزلنا. فأخرجت إحدى الموظفات قسيمة المعلومات وقرأت لي العنوان. إنّهم يقيمون في شارع بلوندين، في باو.

– ربّاه يا روبن! عمل ألمعيّ!

حين عادت الخيّاطة إلى عملها، وجدت أنّ العروس الكئيبة التي كانت معها منذ قليل قد عادت إليها إشراقتها. وهذا ما طمأنها لأنّها كانت تحبّ عملها. كما أنّ روبن أجمل زبونة لديها، وهي ترجو استخدام صورتها بفستان الزفاف، بعدما ينتهي، كدعاية لمشغلها.

– هذا رائع! صاحت روبن حين انتهت الخيّاطة من عملها ووقفتا تتأمّلان النتيجة في المرآة. رائع حقًّا!

للمرّة الأولى، وجدت روبن أنّ فستان زفافها ليس بشعًا جدًّا.

51

Don’t turn your back, don’t show your profile,
You’ll never know when it’s your turn to go[1]*.*

Blue Öyster Cult, ‘Don’t Turn Your Back’

«لاقت دعوتنا للحصول على إفادات الشهود إقبالًا منقطع النظير. ونقوم الآن بالتدقيق في أكثر من 1200 دليل يبدو بعضها واعدًا، أعلن المفتش روي كارفر، ونشجّع كلّ شخص شاهد درّاجة هوندا حمراء من طراز CB 750 استُخدمت لنقل جزء من جثّة كيلسي بلات، أو كان موجودًا في شارع أولد ستريت مساء 5 حزيران/يونيو، أي بتاريخ قتل هيذر سمارت، على الاتّصال بنا.»

إعتقدت روبن أنّ عنوان المقال «ظهور عدّة أدلّة جديدة في التحقيق حول سفّاح شاكلويل»، لا يتناسب والمعلومات الهزيلة التي ذكرتها السطور القليلة المطبوعة تحته، حتّى مع الأخذ بالاعتبار أنّ كارفر يتردّد في أن يكشف للصحافة عن كلّ ما يعرفه.

1 لا تُدر ظهرك، لا تُظهر وجهك / لا يمكنك أن تعرف أبدًا متى يحين موعد رحيلك.

خُصّص القسم الأكبر من الصفحة لصور خمس ضحايا للسفّاح تمّ رسميًا تحديد هويّاتهنّ، وتحت كلٍّ منها، يظهر بالخطّ العريض اسم الضحيّة وشهرتها وعمرها ومهنتها، إضافة إلى طبيعة الاعتداء الذي تعرّضت له.

مارتينا روسي، 28 عامًا، عاهرة، قُتلت طعنًا، وسُرقت قلادتها.

ظهرت في الصورة غير الواضحة تمامًا مارتينا، وهي امرأة سوداء مكتنزة الجسم، ترتدي كنزة بيضاء، وحول عنقها سلسلة تنتهي بحلية على شكل قلب.

سادي روتش، 25 عامًا، مساعدة إداريّة، قُتلت طعنًا، وشُوّهت جثّتها، وسُرق قرطا أذنيها.

وظهرت في الصورة فتاة جميلة ذات تسريحة شعر صبيانيّة، وفي أذنيها حلقتان. كان واضحًا أنّ تلك الصورة التُقطت في خلال اجتماع عائلي، وكُبّرت لتُزال منها صور الأشخاص الآخرين.

كيلسي بلات، 16 عامًا، طالبة، قُتلت طعنًا، وقُطّعت جثّتها إلى أشلاء.

ظهرت الفتاة التي راسلت سترايك في الصورة ذاتها التي انتشرت لها، بزيّها المدرسيّ ووجهها المنتفخ وغير الجميل، الشبيه بوجوه الدمى.

ليلا مونكتون، 18 عامًا، عاهرة، تعرّضت للطعن، وقُطع إصبعاها، وتمكّنت من النجاة.

وفي الصورة غير الواضحة ظهرت فتاة هزيلة بشعر قصير مصبوغ بالحنّاء وسيّئ التسريح، وفي أذنيها عدّة أقراط تلتمع في وميض الكاميرا.

هيذر سمارت، 22 عامًا، موظّفة في شركة تسليفات عقاريّة، قُتلت طعنًا، وقُطع أنفها وأذناها.

ظهرت في وجه الفتاة المستدير الذي يوحي بالبراءة بعض حبوب النمش، وارتسمت ابتسامة خجولة، كما كان شعرها المتموّج كستنائيًا فاتحًا.

حين انتهت روبن من قراءة جريدة دايلي إكسبرس، أطلقت تنهيدة عميقة. كان على ماثيو أن يقصد أحد الزبائن في هاي وايكومب، فاضطرّت إلى الذهاب بمفردها إلى كاتفورد. دامت الرحلة إلى هناك ساعة وعشرين دقيقة في عربة مترو تعجّ بالسيّاح وسكّان الضواحي الذين يتصبّبون عرقًا بسبب موجة الحرّ التي تسود لندن. حين تباطأت سرعة المترو للتوقف في محطّة كاتفورد بريدج، نهضت من مقعدها، واتّجهت إلى الباب وهي تحاول، مثلها مثل الركّاب الآخرين، أن تحافظ على توازنها.

لقد استأنفت العمل منذ أسبوع، ولكنّ جوّ المكتب كان غريبًا. لم تكن لسترايك نيّة الإذعان لتعليمات كارفر، غير أنّه أخذ تهديدات الشرطيّ على محمل الجدّ، وضاعف من حذره.

– إذا استطاع أن يبرهن أنّنا أعقنا سير التحقيق الذي تقوم به الشرطة، سيكون مصير مكتبنا الإقفال، قال لها، ونعلم أنّه وفي حال الفشل، سيحمّلني المسؤوليّة كاملة، سواء كنت أنا المسؤول أم لا.

– إذًا، لماذا نواصل التحقيق؟

لعبت روبن دور محامي الشيطان، لكنّ الحقيقة أنّها ما كانت لتتقبّل أبدًا أن يستسلم سترايك.

– لأنّ كارفر يعتبر أنّ اشتباهي بالرجال الثلاثة هو بمثابة ذرّ للرماد في العيون، ولأنّني أعتبر أنّ كارفر أبله يفتقر إلى الكفاءة تمامًا.

إنفجرت روبن مقهقهة، لكنّ سترايك ما لبث أن قطع عليها ضحكتها حين طلب منها العودة إلى كاتفورد لمراقبة صديقة ويتايكر.

– مجدّدًا؟ لماذا؟

– قلت لك إنّ ستيفاني تستطيع أن تؤكّد وجوده معها في تواريخ وقوع الجرائم.

– أتعرف؟ قالت له روبن وقد استجمعت شجاعتها، لقد أمضيت في كاتفورد وقتًا طويلًا جدًّا. أرغب في الاهتمام ببروكبانك الآن إذا كنت لا تجد مانعًا. لماذا لا أجرّب حظّي مع أليسا؟

– إذا كنت تريدين التغيير، يمكنك مراقبة لاينغ.

– رآني عن قرب حين وقعتُ. ألا تظنّ أنّ من الأفضل أن تراقبه أنت؟

– راقبتُ شقّته حين كنتِ في ماشام.

– وماذا حدث؟

– يقضي معظم وقته في منزله. لكنّه يخرج أحيانًا للتسوّق ثمّ يعود.

– هل شطبته عن لائحة مَن تشتبه بهم؟

– لم أفعل ذلك تمامًا. فيمَ يثير بروكبانك اهتمامك؟

– أظنّني ساهمت مساهمة كبيرة في العثور عليه، قالت روبن بجرأة. من خلال هولي، عرفت عنوانه في ماركت هاربورو، ومن خلال دار الحضانة، عرفت عنوان منزله في شارع بلوندين...

– وأنت قلقة بشأن الطفلتين اللتين تسكنان معه، قاطعها سترايك.

تذكّرت روبن آنذاك الفتاة الصغيرة ذات غطاء الرأس القماشيّ التي نظرت إليها قبل أن تسقط أرضًا في كاتفورد برودواي.

– نعم، يعني؟

– ستلازمين ستيفاني، قال سترايك منهيًا النقاش.

أثار هذا الردّ امتعاضها بشدّة لدرجة أنّها طالبته، وبنبرة حازمة، بإجازة أسبوعين.

– إجازة اسبوعين؟ قال مدهوشًا، خصوصًا وأنّ من عادة روبن أن ترفض الإجازات.

– نعم، لرحلة شهر العسل.

– آه. فهمت. هل بات الزفاف قريبًا؟

– طبعًا، في 2 تمّوز/يوليو.

– 2 تمّوز/يوليو؟ أي بعد كم من الوقت... ثلاثة أسابيع؟

أزعجتها ردّة فعله. بدا وكأنّه نسي التاريخ.

– نعم، أكّدت له وهي تنهض لتأخذ سترتها. ألديك مانع في أن تردّ على الدعوة إذا كنت تنوي حضور الزفاف؟

عادت روبن إلى كاتفورد برودواي، وبسطاتها، وروائح البخور والسمك، ووقفت مجدّدًا في ظلّ تماثيل الدببة الحجريّة في الكورنيش المطلّ على مدخل الممثّلين، لتستأنف مراقبة النوافذ الثلاث لشقّة ويتايكر وستيفاني.

برغم النظارة الشمسية التي وضعتها، وقبّعة القشّ التي أخفت شعرها تحتها، تساءلت عمّا إذا كان التجّار الذين يشاهدونها قد تعرّفوا إليها. رأت الفتاة مرّتين منذ الصباح، من دون أن تستطيع محادثتها. أمّا ويتايكر فلم تره قطّ. وشعرت بأنّ يومًا من الملل الشديد ينتظرها، فاستندت إلى جدار المسرح البارد وتثاءبت.

في نهاية بعد الظهر نالت منها الحرارة والتعب. واكتشفت على هاتفها المحمول رسالة نصية جديدة من والدتها التي ما انفكّت تمطرها بالرسائل منذ الصباح. طلبت منها في الرسالة الأخيرة الاتصال ببائعة الزهور لأنّ لديها سؤالًا معقدًا آخر تريد طرحه عليها. وصلت الرسالة فيما كانت روبن تستعدّ لاجتياز الشارع لتشتري شرابًا. حاولت أن تتخيّل ردّة فعل ليندا إذا ما قالت لها إنّها تفكّر باعتماد الأزهار البلاستيكيّة في كلّ مكان، أي في التاج وباقة اليد وفي الكنيسة. كانت مستعدّة للقيام بأيّ شيء من أجل تخفيف الأعباء عن كاهلها.

مضت إلى المطعم حيث يمكن العثور على خيار واسع من المشروبات الغازية الباردة. كانت تهمّ بوضع يدها على مقبض الباب لتدخل، حين سبقتها يد فتاة أخرى إلى ذلك، فارتطمت بها.

– آسفة، قالت روبن في ردّ فعل طبيعيّ، ثمّ أضافت في دهشة: ربّاه!

كان وجه ستيفاني متورّمًا ومليئًا بالبقع الزرقاء، وبدت على عينها كدمة كبيرة.

لم يكن ارتطام الاثنتين قويًّا، ولكنّ ستيفاني ارتدّت عن روبن، فسارعت هذه الأخيرة إلى مدّ يدها نحوها لتحميها من السقوط.

– ولكن... ماذا حلّ بك؟

خاطبت روبن ستيفاني وكأنّها تعرفها. كان ذلك صحيحًا في سياق ما، فلكثرة ما راقبت عاداتها الصغيرة، ودرست لغة جسدها، وملابسها، عرفت

عنها أشياء كثيرة، كحبّها للكولا مثلًا. حتى أنها باتت تكنّ نحوها مشاعر من جهة واحدة. لدرجة أنّها تجد أنّ من الطبيعيّ جدًّا أن تطرح عليها سؤالًا لا يجرؤ أيّ بريطانيّ تقريبًا على طرحه على امرأة غريبة: هل أنت بخير؟

كيف نجحت؟ حتى روبن ما كانت لتستطيع أن تشرح ذلك، ولكنّها، وبعد دقيقتين فقط كانت تجلس وستيفاني في هدوء مقهى ستايج دور كافيه، الواقع على مسافة أمتار قليلة من المطعم. كان من الواضح أنّ ستيفاني تعاني وتخجل بمظهرها الخارجيّ. لكنّها كانت تتضوّر جوعًا وعطشًا، فاضطرت إلى الخروج لتشري ما تسدّ به رمقها. أمّا الآن، فقد وجدت نفسها تخضع لإرادة أقوى من إرادتها، من غير أن تجد تفسيرًا لما تريده هذه المرأة التي تكبرها بعدّة سنوات، والتي تدعوها إلى الغداء. راحت روبن تحدّثها في مواضيع شتّى، وقادتها إلى هذا المقهى بذريعة أنّها تريد الاعتذار إليها لأنّها كادت تسقطها.

نظرت ستيفاني إلى علبة فانتا الباردة وشطيرة التونا، وشكرت روبن بخجل، ولكنها بعدما قضمت منها، مدت يدها إلى خدّها وكأنّها تشعر بالوجع.

– سنّك؟ سألتها روبن بلطف.

هزّت الفتاة رأسها، وسالت دمعة من عينها السليمة.

– مَن فعل بك هذا؟ تابعت روبن، وهي تمدّ يدها فوق الطاولة لتمسك بيد ستيفاني.

كانت روبن قد ارتجلت لنفسها دورًا ما، وراحت تتقمّصه شيئًا فشيئًا. فقبعة القشّ، والفستان الصيفيّ الطويل أوحيا إليها بشخصيّة امرأة هيبّية مُحِبّة للبشر قرّرت إنقاذ ستيفاني. شعرت روبن بأصابع الشابّة تنكمش بين أصابعها، وفي الوقت عينه رأتها تهزّ برأسها رافضة البوح باسم الشخص الذي اعتدى عليها.

– أهو شخص من محيطك؟ همست تسألها روبن.

بوجه بلّلته الدموع، سحبت ستيفاني يدها، وشربت علبة الفانتا. وما لبثت أن كشّرت حين بلغ السائل البارد إحدى أسنانها المكسورة، كما ظنّت روبن.

– أهو والدك؟ سألتها روبن ثانية.

كانت الفكرة تبدو قابلة للتصديق، فمن الواضح أنّ ستيفاني لم تتجاوز عامها السابع عشر، كما كانت هزيلة جدًّا لدرجة أنّها بدت بدون صدر. وقد سيّلت دموعها الكحل الذي يغطّي عينيها في العادة. فاجتمعت آثار التبرّج على وجهها مع أسنانها الناتئة قليلًا إلى الأمام لتمنحها مظهرًا طفوليًّا، برغم الكدمة البنفسجيّة التي شوّهتها. لقد ضربها ويتايكر حتّى انفجرت شرايين عينها اليمنى، وصبغت باللون الأحمر ما يظهر من قرنيّتها.

– لا، همست ستيفاني، بل صديقي.

– أين هو؟ سألتها روبن وهي تعود إلى الإمساك بيدها الباردة بعدما أمسكت بعلبة الفانتا.

– رحل.

– هل يعيش معك؟

هزّت ستيفاني رأسها موافقة، وشربت جرعة أخرى من الجهة التي لا تؤلمها.

– لم أرده أن يرحل.

حين مالت نحوها روبن، شعرت الشابّة بالارتياح، وكأنّ اللطافة والسكّر قد أتيا على حذرها.

– أردته أن يأخذني معه لكنّه رفض. إنّه مع عاهرته. أنا واثقة من ذلك. يقابل امرأة أخرى. سمعت بانجو يقول ذلك. لديه فتاة أخرى في مكان ما.

لم تصدّق روبن ما تسمع. لا شكّ بأنّ سنّها المكسورة، ووجهها المكدوم يؤلمانها، لكنّ ذلك الألم لا يُقارن بالعذاب النفسيّ الذي كانت تعانيه لفكرة أنّ ويتايكر، ذاك المروّج القذر، يضاجع غريمة لها.

– أردته فقط أن يأخذني معه، قالت ستيفاني من جديد. سالت الدموع على وجهها، وازداد احمرار عينها التي كانت بالكاد تُرى وسط جفنيها المتورّمين.

وجدت روبن نفسها أمام معضلة. فالمجنونة الودودة التي تجسّد شخصيّتها يُفترض بها أن تشجّع ستيفاني على أن تترك الرجل الذي يبرّحها

ضربًا. لكنّها كانت تعلم أنّ حديثًا كهذا هو الطريقة الأسرع لجعلها تلوذ بالفرار.

– أهو غاضب لأنّك أردت مرافقته؟ إلى أين ذهب؟

– يقول إنّه مع Cult، كالمرّة الماضية. إنّها فرقة روك، تمتمت ستيفاني وهي تمسح أنفها بظاهر يدها. يعمل مهندس ديكور معهم. لكنّها ليست سوى ذريعة ليجد فتيات يضاجعهنّ، قالت وهي تبكي بكاء مرًّا. قلت له إنّني أريد مرافقته، ومستعدّة للترفيه عن كلّ أفراد الفرقة من أجله، كما فعلتُ المرّة الماضية.

تظاهرت روبن بأنّها لم تفهم، لكن لا شكّ بأنّ ابتسامة التعاطف التي ظهرت على وجهها قد حلّت محلّها ارتجافة غضب واشمئزاز قصيرة، لأنّ ملامح ستيفاني انقبضت. كانت هذه الأخيرة ترفض أن يُصدر عليها أحد أيّ حكم أخلاقيّ. وكانت، في كلّ يوم من حياتها، تتحملّ نظرات الآخرين.

– هل قابلت طبيبًا؟ سألتها روبن بصوت منخفض.

– ماذا؟ لا، أجابت ستيفاني وهي تكتف ذراعيها فوق صدرها.

– متى يُفترض بصديقك أن يعود؟

إكتفت ستيفاني بهزّ رأسها ورفع كتفيها. وبدا أنّ ثمّة حاجزًا يفصل بين الفتاتين. كان على روبن أن تجد ما يقنع ستيفاني بالبقاء، فقالت بفم جافّ:

– هل عنيت فرقة Death Cult؟

– نعم، أجابت ستيفاني بشيء من الدهشة.

– حضرتُ إحدى حفلاتهم منذ أيّام! أين كانت الحفلة التي حدّثتني عنها؟

لا تسأليني أين رأيتهم يعزفون، بالله عليك...

– في حانة اسمها... غرين فيدل، أو ما يشبه ذلك في إنفيلد.

– لا، ليست الحفلة التي حضرتها، قالت روبن. في أيّ يوم كان ذلك؟

– يجب أن أذهب لأتبوّل، تمتمت ستيفاني وهي تنظر حولها.

ثمّ ذهبت إلى المرحاض وهي تجرجر قدميها، وحين أغلقت الباب خلفها، أدخلت روبن بسرعة عدّة كلمات في محرّك البحث على هاتفها المحمول. وبعد عدّة محاولات، نالت الإجابة: عزفت فرقة **Death Cult** في إحدى حانات إنفيلد، تدعى فيدلرز غرين، يوم السبت 4 حزيران/يونيو، أي عشية يوم مقتل هيذر سمارت.

كان الظلام يحلّ خارج المقهى. وكانت روبن وستيفاني آخر زبونتين. إنّه المساء، ولن يلبث صاحب المقهى أن يقفله.

– شكرًا على الشطيرة وعلى كلّ شيء، قالت ستيفاني التي عادت. سوف...

– خذي شيئًا آخر، كوب شوكولاتة مثلًا، قالت لها روبن برغم أنّ الخادمة التي كانت تمسح الطاولات بدت مستعدّة لترمي بهما إلى الخارج.

– لماذا؟ سألتها ستيفاني بحذر مفاجئ.

– لأنّني أريد حقًّا أن أكلّمك عن صديقك.

– لماذا؟ كرّرت المراهقة سؤالها بنبرة توتّر هذه المرّة.

– أرجوك. عودي للجلوس، كلّ شيء على ما يُرام، قالت لها روبن مطمئنة. أنا فقط أشعر بالقلق عليك.

تردّدت ستيفاني، ثمّ عادت للجلوس ببطء في الكرسيّ الذي غادرته قبل دقائق. وهذه المرّة شاهدت روبن العلامات الحمراء حول عنقها الهزيل.

– هل حاول... هل حاول أن يخنقك؟ سألتها.

– ماذا؟

رفعت يدها إلى عنقها، والتمعت في عينيها الدموع.

– آه، هذا... كان عقدي. هو قدّمه إليّ، وبعد أن... بما أنّني لم أكن أجني ما يكفي من المال، باعه، قالت وهي تبكي بحرقة.

كانت روبن تجهل ما عليها أن تفعل، فاكتفت بأن شدّت بيديها على يدي ستيفاني وأمسكت بها، وكأنّ هذه الأخيرة تقف على مزلاج وتكاد تسقط إلى الخلف.

– قلت لي إنّه أرغمك على... مع كلّ أفراد الفرقة؟ سألتها روبن بصوت هادئ.

– نعم، فعلت ذلك مجانًا، قالت ستيفاني باكية. لا شكّ بأنّها لا تفكّر إلّا في المال الذي يمكنها أن تجنيه لويتايكر. كان ذلك جنسًا فمويًّا لا أكثر.

– بعد الحفلة؟ سألتها روبن بإصرار وقد مدّت يدها وأخذت مناديل ورقيّة ناولتها لستيفاني.

– لا، أجابت الشابّة وهي تمسح أنفها. في مساء اليوم التالي. كنّا في الشاحنة أمام منزل المغنّي. إنّه يقيم في إنفيلد.

كانت روبن تجهل أنّ بوسع المرء أن يشعر بالألم والسرور في الوقت عينه. إذا كانت ستيفاني قد أمضت ليلة 5 حزيران/يونيو مع ويتايكر، فمعنى ذلك أنّه لم يقتل هيذر سمارت.

– هل كان... صديقك... هناك؟ سألتها روبن هامسة، فيما كنت... تعرفين ما أعني.

– تبًّا، لقد عاد!

رفعت روبن عينيها. وسحبت ستيفاني يدها بسرعة وهي مذعورة.

وقف ويتايكر بقامته المديدة أمامهما. عرفته روبن في الحال، فقد شاهدت له صورًا كثيرة في الإنترنت. كان رجلًا طويل القامة وعريض الكتفين وهزيلًا في الوقت عينه. وارتدى قميص تي شيرت قديمًا باهت اللون، لا بدّ من أنّه كان أسود. وفي عينيه الصفراوين كعيني أحد دعاة الشيطان نظرة قويّة وآسرة. وجدته روبن مثيرًا للقرف، بضفائر شعره الوسخة، ووجهه الشمعيّ والهزيل. ومع ذلك، شعرت بوضوح بهالة الغرابة والجنون المحيطة به، وبقوّة جاذبة تنبعث منه كرائحة جيفة. كان حضوره يوقظ فيها فضوليّة دنسة، وحاجة معيبة، ولكن لا يمكن مقاومتها، إلى الخوض في القذارة.

– مَن أنت؟ سألها بصوت هادئ وغير عدائيّ، وعيناه تحملقان بفستانها المفتوح الصدر.

– إصطدمت بصديقتك أثناء دخولي المطعم، قالت له روبن، فدعوتها إلى شراب.

– ما هذا الهراء؟

– نريد إغلاق المقهى!

أدركت روبن حين سمعت صيحة النادلة أنّ وصول ويتايكر استنفد كلّ قدرة المرأة على التحمّل. لا محلّ في هذا المقهى لرجل مثير للغثيان تغطّي الوشوم جسده، أذناه مثقوبتان، وله عينان تفضحان هلوسته.

جمّد الخوف ستيفاني، ومع ذلك لم يكن ويتايكر المنشغل بالإصغاء إلى روبن يعيرها أيّ اهتمام. كانت روبن تشعر بإحراج غريب، فدفعت الحساب ونهضت متّجهة إلى الباب، وويتايكر يسير في أثرها.

– حسنًا... إلى اللقاء، قالت بخجل وهي تلتفت إلى ستيفاني.

شعرت بالأسف لأنّها لا تمتلك شجاعة سترايك. فهو حاول على الأقلّ أن ينتزع تلك الفتاة من جلاّدها، وأمام عينيه حتى. غير أنّ فم روبن جفّ فجأة. كان ويتايكر يتفرّس فيها وكأنّه رأى شيئًا ثمينًا على كومة نفايات. خلفهما، كانت النادلة تقفل باب المقهى. وبسطت الشمس الغاربة ظلالها الباردة على الشارع الذي لم تكن روبن تعرفه إلّا نهارًا، حين يغمره الضوء والروائح.

– هل فعلت ذلك من باب اللطف يا عزيزتي؟ سألها ويتايكر بصوت لم تستطع أن تميّز فيه الرقّة من سوء النيّة.

– كنت قلقة، قالت روبن وهي ترغم نفسها على التحديق في عينيه المتباعدتين جدًّا. بدت لي إصابات ستيفاني بالغة جدًّا.

– هذه؟ قال ويتايكر بدهشة وهو يشير إلى وجه الشابّة المغطّى بالكدمات. لقد سقطت عن الدرّاجة، أليس كذلك يا ستيف؟ يا لك من خرقاء صغيرة.

فجأة، فهمت روبن لماذا يكنّ سترايك لويتايكر كراهية عمياء. شعرت بأنّها ترغب، هي أيضًا، بأن توسعه ضربًا.

– آمل أن نلتقي من جديد يا ستيفاني، قالت.

لم تجرؤ روبن على أن تعطيها رقمها أمام ويتايكر. إستدارت وسارت مبتعدة وهي تلعن جبنها. ستصعد ستيفاني إلى الشقّة معه. كان عليها أن تفعل أكثر ممّا فعلت، ولكن ماذا؟ ماذا كان بوسعها أن تقول؟ وإذا بلّغت

الشرطة عن اعتداء ويتايكر على الفتاة؟ هل يعتبر كارفر ذلك تدخّلًا في التحقيق؟

حين شعرت بأنها ابتعدت عن نظرات ويتايكر، زال فجأة الشعور بالوخز في عنقها. فأخرجت هاتفها المحمول واتّصلت بسترايك.

– أعرف أنّها ساعة متأخّرة، قالت له قبل أن يلومها، لكنّني أتّجه إلى محطّة المترو، وحين تعلم ما أريد قوله لك، ستفهم.

كانت تسير بخطى حثيثة، وهواء الليل يزداد برودة.

– أي أنّ لديه حجّة غياب؟ سألها سترايك بعدما انتهت من سرد قصّة ستيفاني عليه.

– في قضيّة مقتل هيذر، نعم، شرط أن تكون ستيفاني قد قالت الحقيقة. وأنا أميل إلى تصديقها. فقد كانت معه ومع كلّ أفراد فرقة Death Cult.

– هل أكّدت أنّ ويتايكر كان موجودًا فيما كانت ترفّه عن الفرقة؟

– نعم. أعتقد ذلك. لم تستطع أن تنهي جملتها لأنّ ويتايكر وصل في اللحظة عينها... إبقَ معي.

توقفت روبن لتنظر حولها. لقد انشغلت بالحديث عبر الهاتف فدخلت شارعًا خطأً. كانت الشمس تختفي في الأفق. وشاهدت بطرف عينها ظلًا يتوارى بسرعة عند زاوية أحد الجدران.

– كورموران؟

– نعم، أسمعك.

لعلّ الظلّ كان من نسج مخيّلتها. وجدت نفسها في شارع بحيّ سكنيّ لا تعرفه، لكنّها لم تكن وحيدة، فالنوافذ مضاءة، كما شاهدت رجلًا وامرأة يسيران على مسافة منها. فكّرت في أنّها بأمان وأنّ عليها ألّا تستسلم للذعر. ما عليها إلّا أن تعود أدراجها.

– هل كلّ شيء على ما يُرام؟

– نعم. أخطأت في الطريق، ليس إلّا.

– أين أنت تحديدًا؟

– على مسافة قريبة جدًّا من محطة كاتفورد بريدج. أجهل كيف وصلت إلى هنا.

لم تشأ أن تخبره عن الظلّ الذي ظنّت أنها رأته. من باب الحذر، عبرت الشارع الذي كان يزداد ظلامًا، إلى الجهة الثانية، لتتجنب السير بمحاذاة الجدار حيث ظنت أنّها رأت الظل يتوارى. وأمسكت بهاتفها المحمول بيدها اليسرى وشدّت بكلّ قوتها على جهاز الإنذار ضدّ الاغتصاب الذي كان في جيبها الأيمن.

– سأعود أدراجي من حيث أتيت، قالت لكي يعرف سترايك أين هي.

– هل لاحظت شيئًا آخر؟

– لا أعلم... ربّما، اعترفتْ.

ومع ذلك، حين وصلت إلى ممر يقع بين منزلين، لم ترَ أحدًا.

– أعصابي متوتّرة جدًّا، قالت وهي تحثّ الخطى. كان لقائي بويتايكر شاقًّا بعض الشيء. بصراحة، إنّه رجل فيه شرّ.

– أين أنت الآن؟

– على مسافة خمسة أو ستّة أمتار من المكان حيث كنت حين طرحت علي هذا السؤال من قبل. مهلًا، أرى اسم شارع. سأذهب إلى هناك. أظّنني أعرف أين ضللت طريقي. كان عليّ أن أستدير...

لم تسمع صوت الخطوات التي تسير خلفها إلّا في اللحظة الأخيرة. أطبقت ذراعان ضخمتان تنتهيان بقفّازين أسودين على قفصها الصدريّ، فأخرجتا كلّ ما فيه من هواء. وأفلت هاتفها المحمول من يدها وسقط على الأسفلت.

52

Do not envy the man with the x-ray eyes[1]*.*

Blue Öyster Cult, 'X-Ray Eyes'

كان سترايك مختبئًا في ظلّ أحد المستودعات، يراقب السائرين في شارع بلوندين حين سمع صرخة روبن المكتومة، ثمّ صوت سقوط هاتفها المحمول، تبعه صوت احتكاك ووقع نعال على الأسفلت.

مضى راكضًا نحو أقرب محطّة مترو. كان هاتفه لا يزال مفتوحًا مع هاتف روبن، لكنّه لم يعد يسمع شيئًا. فالذعر الذي أصابه شحذ إدراكه وخدّر ألم ركبته في الوقت عينه. تابع سيره بخطى حثيثة باحثًا عن شخص ما يسير حاملًا هاتفًا.

– أريد استعارة هاتفك لدقيقتين يا صاح، أحتاج إليه! صاح بفتى أسود نحيل يسير ورفيقه في اتّجاهه، ويتحدّث بهاتفه ضاحكًا. ثمّة جريمة تُرتكب الآن. أعطني هاتفك!

ما إن رأى المراهق حجم الرجل المندفع نحوهما ونبرة السلطة التي يتكلّم بها حتّى أعطاه هاتفه كالمذهول.

[1] لا تحسد صاحب العينين الشبهيتين بأشعّة إكس.

– إتبعاني! قال للفتيين وهو يتّجه إلى طرقات أكثر ازدحامًا كان يرجو أن يجد فيها سيّارة أجرة. وفيما لم يرفع هاتفه عن أذنه، صاح في هاتف الفتى الذي أخذ يركض وصديقه بجانبه، كأنّهما حارسان شخصيّان: الشرطة؟ ثمّة امرأة تتعرّض لاعتداء في محيط محطّة كاتفورد بريدج. كنت أكلّمها بالهاتف حين حدث الأمر! الأمر يحدث الآن... لا، لا أعرف اسم الشارع، لكنّه قريب من محطة المترو... منذ قليل، كنت أكلّمها بالهاتف حين هاجمها، وسمعت كلّ شيء. تحرّكوا!

– شكرًا يا صاح، قال لاهثًا وهو يرمي الهاتف المحمول نحو صاحبه، الذي ظلّ يتبعه عدّة أمتار قبل أن يدرك أنّ الأمر لا جدوى منه.

كاد سترايك ينزلق وهو ينعطف عند زاوية أحد الشوارع. كان يجهل هذا الحيّ تمامًا. مرّ أمام حانة باو بلز بدون أن يبالي بالألم الذي يمزّق أربطة ركبته. كان عليه أن يحافظ على توازنه بذراع واحدة، فيما الأخرى تواصل الإمساك بالهاتف إلى أذنه. ثمّ سمع صوت جهاز إنذار ضدّ الاغتصاب ينطلق.

– تاكسي! صاح وهو يرى أمامه ضوءًا بعيدًا لإحدى السيّارات. روبن! صاح بالهاتف، حتى ولو لم تكن تسمعه بسبب صوت جهاز الإنذار. روبن! لقد اتصلت بالشرطة وهم قادمون! أتسمعني أيها القذر؟

توارت سيّارة الأجرة. وعلى الرصيف أمام حانة باو بلز، كان الزبائن المذهولون يتبعون بأعينهم ذلك المجنون الساخط يندفع أمامهم كالسهم برغم أنّه يعرج، وهو يزعق عبر هاتفه المحمول. ظهرت سيّارة أجرة ثانية.

– تاكسي! تاكسي! صاح سترايك.

إنعطفت السيّارة في اتّجاهه، وفي الوقت عينه سمع صوت روبن يقول له لاهثًا:

– ألا... تزال على الخطّ؟

– ربّاه يا روبن! ماذا جرى؟

– توقّف عن الصراخ...

كان عليه أن يبذل مجهودًا كبيرًا ليخفض صوته.

– ماذا جرى؟

– لا أرى شيئًا، قالت له... لا أرى شيئًا.

فتح سترايك بعنف باب السيّارة الخلفيّ وارتمى في مقعدها.

– إلى محطّة كاتفورد بريدج وبسرعة! ماذا تعنين بأنّك لا ترين شيئًا؟ ماذا فعل بك؟ لا، لا أعنيك أنت، قال للسائق المضطرب. هيّا. إمضِ!

– هذا... بسبب... غبائك... في شأن جهاز الإنذار ضدّ الاغتصاب... في وجهي... تبًّا...

كانت سيّارة الأجرة تسير بسرعة، لكنّ سترايك لجم نفسه لكي لا يأمر السائق بأن يضغط على دوّاسة الوقود بأقصى قوّة.

– هل أنت مصابة؟

– نعم... قليلًا... يوجد ناس هنا...

آنذاك سمع سترايك أصوات أناس يهمسون حولها. كانوا يتكلّمون بسرعة. ثمّ سمع روبن تلفظ كلمة مستشفى لكنّها كانت بعيدة عن الهاتف.

– روبن. روبن؟

– توقف عن الصراخ على هذا النحو! إسمع، لقد استدعوا سيّارة إسعاف، سأذهب إلى...

– ماذا فعل بك؟

– سبّب لي جرحًا... في ذراعي... أظنّني بحاجة إلى خياطة جرحي... ربّاه، هذا مؤلم...

– أيّ مستشفى؟ أعطيني شخصًا ما لأكلّمه! سأوافيك إلى هناك!

بعد خمس وعشرين دقيقة، كان سترايك يدخل كالقنبلة إلى قسم الطوارئ في مستشفى لويشام الجامعيّ. كانت ساقه تؤلمه وبدا مهمومًا لدرجة أنّ ممرّضة قالت له، محاوِلة التخفيف عنه، إنّ طبيبًا لن يلبث أن يأتي معاينته.

– لا، قال لها، ثمّ صرفها بحركة من يده وتابع طريقه وهو يعرج في اتجاه مكتب الاستقبال، حيث قال: أبحث عن... روبن إيلاكوت، لقد تلقّت طعنة سكّين...

كانت عيناه تبحثان بجنون بين الموجودين الذين اكتظّت بهم قاعة الانتظار. رأى طفلًا صغيرًا يبكي على ركبتي أمّه، وسكّيرًا يئنّ وهو يمسك رأسه الدامي بيده، وممرّضًا يعلّم امرأة كيف تستعمل بخّاخة تنفّس.

– سترايك... نعم... الآنسة إيلاكوت أخطرتنا بقدومك، قالت الممرضة بعدما راجعت كومبيوترها ببطء مثير للغضب. في نهاية الرواق إلى اليمين... الحجرة الأولى.

إنطلق سترايك راكضًا فانزلق على الأرضيّة المشمّعة. أطلق شتيمة، وعاد يركض. لاحقه أشخاص كثيرون بنظراتهم متسائلين عمّا إذا لم يكن هذا الرجل الضخم الجثّة الذي يعرج قليلًا مختلًا بعض الشيء.

– روبن؟ اللعنة!

كان وجهها ملطّخًا ببقع حمراء اللون، وعيناها منتفختين. وكان طبيب شابّ يعالج جرح ذراعها البالغ طوله خمسة عشر سنتمترًا، فصاح به:

– إلى الخارج! لم أنتهِ بعد!

– هذا ليس دمًا! صاحت روبن بسترايك الذي عاد إلى خلف الستارة. إنّه جهازك للإنذار ضدّ الاغتصاب والسائل اللعين الذي كان بداخله!

– لا تتحرّكي! أمرها الطبيب.

إنتظر سترايك في الرواق الذي كانت فيه خمس حجرات أخرى مماثلة تحدّها الستائر. كانت نعال الممرّضين المطّاطية تصرّ على الأرض الرماديّة. ربّاه، كم كان يكره المستشفيات. فما إن يشمّ رائحتها، أي رائحة تلك النظافة المضبوطة، والممزوجة بروائح اللحم المتفسّخ، حتّى تعود به الذاكرة إلى سيلي أوك، المستشفى حيث قضى أشهرًا طويلة بعدما فقد ساقه.

ماذا فعل؟ ماذا فعل؟ لقد تركها تعمل وهو يعلم أنّ ذلك القذر يطاردها. كادت تموت. كان الممرّضون بألبستهم الزرقاء يروحون ويجيئون أمامه. سمعها خلف الستارة تخنق صرخة ألم، فكزّ على أسنانه.

– إنّها محظوظة حقًّا، قال الطبيب وهو يخرج من الحجرة بعد عشر دقائق. كادت الطعنة أن تقطع شريانها. ومع ذلك فقد أصيب وترها ببعض الأذى. لا يمكننا تحديد حجم الضرر إلّا بعد إجراء جراحة لها.

من الواضح أنّ الطبيب كان يعتبرهما زوجين. لكنّ سترايك لم يشأ توضيح الصورة له.

– هل يجب أن تخضع لجراحة؟

– نعم، لمعالجة الوتر، أكّد له الطبيب وكأنّه يعتبره بطيء الفهم. كما يجب تنظيف الجرح بعناية. أريد أيضًا تصوير أضلعها.

فيما ابتعد الطبيب، راح سترايك يستعدّ ذهنيًا، ثمّ أزاح الستارة ودخل.

– أعرف، لقد ارتكبتُ خطأً كبيرًا، قالت روبن.

– ربّاه! هل ظننتني سألومك؟

– قليلًا، نعم، قالت وهي ترفع جسدها لتجلس في السرير، وظهرت ذراعها ملفوفة بالضمادة المؤقّتة. كانت الشمس قد غابت، ولم أنتبه. إنّه خطأي في النهاية.

تهالك سترايك جالسًا في الكرسيّ الذي غادره الطبيب، فارتطم بوعاء معدنيّ وأسقطه أرضًا بقرقعة كبيرة.

– روبن، كيف تمكّنت من النجاة منه؟

– بدفاعي عن نفسي. وحين رأت ملامح الشكّ على وجهه، أضافت باستياء: كنت أعلم بأنّك لن تصدّقني، ومع ذلك فالأمر صحيح. أخذت دروسًا في الدفاع عن النفس.

– بلى، أنا أصدّقك، ولكن اللعنة..

– أخذت دروسًا في هاروغايت مع امرأة رائعة، وهي جنديّة سابقة، قالت روبن بتكشيرة وهي تعدّل جلستها في السرير. وأضافت: على أثر... تعرف.

– هل أخذت تلك الدروس قبل أو بعد دورة قيادة السيارات العسكرية؟

– بعدها. عانيت رهاب الخروج بين الناس. دروس القيادة هي التي ساعدتني حقًّا على الخروج من غرفتي. بعد ذلك أخذتُ دروسًا في الدفاع عن النفس. تسجّلت في البداية في صفّ يديره رجل. كان أحمق. لم يكن يعلّمنا إلّا لقطات الجودو... التي كانت بغير جدوى تمامًا. لكنّ لويز كانت ممتازة.

– حقًّا؟ سألها سترايك الذي أزعجه صمتها.

– نعم. تعلّمت معها أنّ اللقطات المدروسة لا تفيد بشيء، اللهم إلّا إذا كان المرء رياضيًّا، وأنّ كلّ شيء يعتمد على تحليل الوضع وسرعة الردّ. تعلّمت أنّ عليّ أن أقاوم، وألّا أدع المعتدي يقودني إلى مكان آخر، وضربه في الأماكن الحسّاسة، والهروب بسرعة.

قبض عليّ من الخلف لكنّني سمعته يقترب قبل ثانية واحدة من الوصول إليّ. تمرّنت كثيرًا على هذه الحركة مع لويز. إذا هاجمك أحد من الخلف، يجب أن تنحني إلى الأمام.

– أن أنحني إلى الأمام، ردّد سترايك، مذهولًا.

– كان جهاز الإنذار بين يديّ، فانحنيت وضربته به بين فخذيه. كان يرتدي سروالًا رياضيًّا. تركني لبرهة، ولكنّني وحين أردت الهروب تعثّرت من جديد بهذا الفستان اللعين. أخرج سكّينه، وبعد ذلك لا أدري ما الذي حدث. أعلم فقط أنّه جرحني في ذراعي لحظة كنت أقف. لكنّني تمكّنت من الضغط على زرّ جهاز الإنذار فانطلق، ممّا أثار ذعره. تناثر حبر الجهاز على وجهي وعلى وجهه بدون شكّ، لأنّه كان بجانبي. كان يضع قناعًا وبالكاد كنت أراه. ولكن حين انحنى فوقي ضربته على شريانه السباتي بقاطع يدي. تلك حيلة أخرى علّمتنا إيّاها لويز، وهي الضرب على جانب العنق، فيسقطون إذا أصابت الضربة هدفها. لقد أوقفه ذلك تمامًا. وبعد ذلك، أظنّه رأى أشخاصًا يقتربون، فانسحب.

شعر سترايك بأنّه عاجز عن الكلام.

– الطريف أنّني أحسّ بالجوع.

فتّش سترايك في جيوبه، وأخرج لوح تويكس.

– شكرًا.

كانت تستعدّ لتقضم الشوكولاته حين مرّت أمام سريرها ممرّضة ترافق رجلًا عجوزًا، فقالت لها بنبرة جافّة:

– عليك ألّا تأكلي، ستذهبين إلى غرفة العمليّات.

رفعت روبن عينيها إلى السماء، وأعادت لوح تويكس إلى سترايك. وآنذاك رنّ جرس هاتفها المحمول.

– مرحبًا يا أمّي، قالت.

إلتقت نظرات روبن وسترايك. وفهم هذا الأخير أنّها لا تريد إطلاع والدتها على ما جرى لها. أقلّه ليس في الوقت الراهن. لكنّها لم تضطرّ إلى الخداع، لأنّ والدتها سرعان ما بدأت بالثرثرة بدون توقف. وضعت روبن الهاتف المحمول على ركبتيها، وفتحت مكبّر الصوت، وبدت كمن لا حول له ولا قوّة.

– ... وأجيبيها بسرعة لأنّ موسم زنبق الوادي قد انتهى. فإذا كنت تريدينه، يجب أن تقومي بطلبيّة خاصّة.

– حسنًا، قالت روبن، سأستغني عن زنبق الوادي.

– حسنًا، لكنّ الأفضل أن تتّصلي بها لتقولي لها ماذا تريدين يا روبن. ليس سهلًا عليّ أن أقوم بدور الوسيطة. البائعة تقول إنّها أرسلت لك رسائل نصيّة كثيرة.

– آسفة يا أمّي، سأتّصل بها.

– لا يحقّ لك القيام باتّصالات من هنا! قالت لها ممرّضة ثانية بنبرة توبيخ.

– آسفة يا أمّي. يجب أن أذهب، سنتحادث لاحقًا.

– أين أنت؟

– أنا... سأعود للاتّصال بك، قالت روبن وأنهت المكالمة. ثمّ التفتت نحو سترايك وسألته: لم تسألني إذا تعرّفت إليه.

– أفترض أنّك لم تتعرّفي إليه. فقد كان يضع قناعًا، والحبر يملأ عينيك.

– أنا واثقة من أمر. إنّه ليس ويتايكر، إلّا إذا كان قد عاجل بارتداء سروال رياضيّ بعدما تركته. كان ويتايكر يرتدي سروال جينز، كما أنّ... مظهره الجسديّ لا يتناسب والمعتدي، الذي كان قويًّا وبليدًا في الوقت عينه. كان ضخمًا أيضًا، مثلك.

– هل كلّمت ماثيو؟

– إنّه في...

حين رأى سترايك وجه روبن يتجمّد رعبًا، خال أنّه سيستدير ليرى ماثيو ينقضّ عليهما كمجنون غاضب. لكنّه أخطأ الظنّ، فقد رأى عند طرف السرير المفتّش روي كارفر والرقيبة فانيسا إكوينسي.

بعكس الرقيبة التي كانت بكامل أناقتها، ظهر المفتّش كارفر بهيئة مهملة، وارتدى قميصًا بدون سترة، وظهرت عند إبطيه دوائر العرق. كما كانت عيناه الزرقاوان شديدتي التهيّج وكأنّه يغتسل دائمًا بماء الكلور. وغزت شعره الذي خطّه الشيب كتل كبيرة من القشرة.

نظرت الرقيبة إكوينسي إلى ذراع روبن، ثمّ بادرت بسؤالها:

– كيف حال...

– هل لنا أن نعرف ماذا كنت تنوين عمله؟ قاطعها كارفر موجّهًا السؤال إلى روبن.

نهض سترايك. كان صبره ينفد منذ دقائق، وها هو قد وجد متنفّسًا لغضبه. كان يريد أن يُسقط على أحدهم، أيًّا يكن، مشاعر الذنب والقلق التي يختنق بها منذ أن تعرّضت روبن للاعتداء. فكان كارفر الهدف المثاليّ.

– يجب أن أكلّمك، قال كارفر لسترايك. إكوينسي، خذي إفادة الضحيّة.

آنذاك دخلت ممرّضة جميلة وشابّة، ومرّت بهدوء بين الرجلين وقالت لروبن بابتسامة:

– سأقودك إلى قسم الأشعّة، آنسة إيلاكوت.

بصعوبة، ترجّلت روبن من السرير وسارت في الممشى. رآها سترايك تستدير وتلتفت إليه، وقرأ في نظرتها تحذيرًا ودعوة إلى الهدوء.

– لنخرج من هنا، قال كارفر مستاءً.

سار المحقّق خلف الشرطيّ في قسم الطوارئ. كان هذا الأخير قد حجز غرفة صغيرة، كتلك التي يلتقي فيها الأطباء أفراد العائلات ليبلغوهم بموت أحد أقاربهم. كان فيها بعض المقاعد المريحة، وعلبة محرمة ورقيّة موضوعة على طاولة صغيرة، وعُلّقت على الجدار نسخة من لوحة تجريديّة بألوان برتقاليّة.

– قلت لك ألّا تتدخّل في التحقيق، قال كارفر بحدّة وهو يقف وسط الغرفة مباعدًا بين ساقيه ومكتوف الذراعين.

حين أُغلِق الباب، ملأت رائحة جسد كارفر الغرفة. لم تكن تلك رائحة قذارة ومخدّرات كرائحة ويتايكر الذي نادرًا ما كان يغتسل، بل رائحة العرق المتراكمة بعد يوم عمل طويل. لقد بدا الرجل، بسحنته البنفسجيّة اللون التي أبرزتها أضواء النيون المثبّتة في السقف، وشعره الذي ملأته القشرة، وقميصه المبلل بالعرق، والبقع التي تملأ بشرته، في أسوأ مظهر ممكن لإنسان. كما أنّ وجود سترايك، الذي أذلّ كارفر في الجرائد أثناء التحقيق في قضيّة لولا لاندري، لم يكن من شأنه أن يجعله أفضل مظهرًا.

– لقد أرسلتها في أعقاب ويتايكر، أليس كذلك؟ قال كارفر الذي كان وجهه يزداد احمرارًا وكأنّه يغلي من الداخل. أنت السبب في ما حلّ بها.

– تبًّا لك، قال له سترايك.

في تلك اللحظة، وفي حين كانت رائحة عرق كارفر تملأ أنف سترايك، اضطرّ هذا الأخير إلى الاعتراف بما كان يعرفه منذ بعض الوقت: ويتايكر ليس القاتل. وإذا كان قد أرسل روبن لاستجواب ستيفاني، فلأنه كان متأكّدًا من أنها ستكون بعيدة عن الخطر هناك. ولكن في المقابل، لم يكن عليه أن يتركها تجوب الشوارع طوال أسابيع، وهو يعلم أنّ القاتل في أثرها.

كان كارفر الذي علم أنّه أصاب وترًا حسّاسًا، يبتسم بلؤم.

– لقد استغللت قضايا أولئك النساء اللواتي قُتلن للانتقام من زوج أمّك، قال له وهو يتلذّذ برؤية سترايك يحمرّ انفعالًا ويشدّ على قبضتيه، متمنّيًا أن يصل إلى حدّ القبض عليه بتهمة إلحاق أذى جسديّ بشرطيّ، وهو ما كان سترايك يعرفه حقّ المعرفة. حقّقنا في أمر الرجال الثلاثة الذين تشتبه بهم، ولم نجد ضدّهم شيئًا. لذلك عليك الآن أن تصغي إليّ.

تقدّم كارفر نحو خصمه خطوة. كان دونه طولًا بنحو خمسة عشر سنتمترًا، غير أنّ ما كان يتأجج في نفسه من غضب ومرارة، عوّض عن هذا الفارق الجسديّ. بدا أنّه مستعدّ لكلّ شيء من أجل إثبات قيمته، كما كان يتمتّع بدعم السلطات. فمدّ إصبعه نحو صدر سترايك وهو يقول له:

– إبقَ بعيدًا. من حظّك أنّ شريكتك لم تُقتل. إذا اكتشفتُ أنّك لا تزال تواصل البحث، سأزجّ بك في السجن، مفهوم؟

آنذاك لامس إصبعه الضخم صدر سترايك، الذي انقبض فكّه، وشعر بأنّ عليه لجم نفسه لئلاّ يبعد الشرطي بصفعة واحدة. بقي الرجلان لبضع ثوانٍ يتجابهان بنظرات كالصاعقة. ثمّ ارتسمت على وجه كارفر ابتسامة عريضة، وكان يتنفّس وكأنّه خرج منتصرًا من مباراة مصارعة. ثمّ غادر الغرفة وهو يتبختر، تاركًا سترايك يغلي غضبًا وإحباطًا.

كان سترايك يعود أدراجه ببطء، حين دخل ماثيو الوسيم قسم الطوارئ بسرعة. كان يرتدي بزّة رسميّة كاملة، غير أنّ عينيه كانتا كعيون المجانين وشعره كان منفوشًا كمن يخرج من معركة. للمرّة الأولى في حياته، شعر سترايك نحوه وهو يراه بشيء يختلف عن الكراهية.

– ماثيو، قال له.

نظر إليه هذا الأخير وكأنّه لم يعرفه.

– أخذوها إلى قسم الأشعّة، لكن لا بدّ من أنّها عادت. من هنا، قال له وهو يدلّه إلى المكان.

– الأشعّة؟ لماذا...؟

– لتصوير أضلاعها.

أبعده ماثيو بضربة من كوعه، لكنّ سترايك الغارق في شعوره بالذنب لم يردّ. رأى خطيب روبن يهرع نحو حبيبته. وقف متردّدًا لهنيهة، ثمّ اتّجه نحو المخرج.

كانت النجوم تلتمع في سماء الليل الصافية. وحالما بلغ الرصيف توقف ليشعل سيجارة، دخّنها على طريقة واردل، كأنّما النيكوتين هو إكسير الحياة. ثمّ استأنف سيره. إستيقظ الألم في ركبته، ومع كلّ خطوة خطاها، كان يلعن نفسه أكثر.

– ريكي! صاحت امرأة في الشارع تحاول أن تجد وسيلة لحمل كيس صخم وثقيل الوزن، فيما ركض ابنها مبتعدًا عنها، ريكي، عد حالًا.

لم يفكّر سترايك كثيرًا، بل انحنى وأمسك بالطفل الذي كان يضحك، في اللحظة الأخيرة قبل أن يصبح في الشارع.

– شكرًا! قالت المرأة وهي تكاد تبكي ارتياحًا.

فيما حثّت خطاها، سقطت من الكيس الذي شدّته إلى صدرها بعض الأزهار. ثمّ وصلت إلى حيث سترايك، وقالت له:

– نأتي لزيارة أبيه... ربّاه...

كان الصبيّ يتلوّى بين يدي سترايك، فقاده إلى جانب والدته التي كانت ترفع باقة النرجس الأصفر عن الأسفلت.

– إحملها جيّدًا، قالت للصبيّ الذي امتثل لأمرها. ستقدّمها إلى أبيك. لا تدعها تسقط. شكرًا، قالت مجدّدًا لسترايك قبل أن تتابع سيرها، وهي تقبض بشدّة على يد الطفل.

سار هذا الأخير بجانب أمّه، وديعًا، ومسرورًا بالمهمّة التي أوكلت إليه، وحاملًا باقة الأزهار الصفراء كالصولجان في يده الصغيرة.

سار سترايك بضع خطوات، وفجأة وقف جامدًا وسط الرصيف، ومسلّطًا نظره على جسم خفيّ معلّق أمامه في برودة الليل. لسعت وجهه برودة جليديّة، لكنّه لم يحسّ بها، فاهتمامه كلّه انصبّ فجأة على شيء آخر.

نرجس أصفر... زنبق الوادي... أزهار في غير موسمها.

ومن جديد، دوّى صوت الأمّ في الليل: «ريكي، لا!» مطلقًا سلسلة من ردّات الفعل في ذهن سترايك. وشعر بيقين يكاد يكون إيمانيًّا، ورأى في ذهنه ما يشبه مدرجًا للطائرات اشتعلت أضواؤه فجأة. وكأنّما ذلك المدرج أضيء لاستقبال نظريّة تقوده للقبض على القاتل. ومثلما يظهر هيكل مبنى بعدما تأتي النيران على جدرانه، ظهر كالبرق في مخيّلته هيكل متكامل للخطّة التي تخيّلها القاتل. كذلك رأى عيوب تلك الخطّة كلّها، وهي نقاط أساسيّة فاتته – بل فاتت الجميع – لكنّها قد تسمح له بالوصول إلى النهاية وإفشال أهداف المجرم.

53

You see me now a veteran of a thousand psychic wars[1]...

Blue Öyster Cult, 'Veteran of the Psychic Wars

تحت أضواء المستشفى، لم تجد روبن صعوبة في التظاهر باللامبالاة. شعرت بأنّ إعجاب سترايك، ورواية مغامرتها التي سردتها له، قد زادا من تحفيزها. كما كانت فخورة جدًا بنجاتها من القاتل، وفي الساعات التي تلت حادثة الاعتداء عليها، بدت أقوى من الجميع. وقامت هي بالتخفيف عن ماثيو الذي أجهش بالبكاء حين رأى وجهها الملطخ بالدم والجرح الطويل في ذراعها، وطمأنته. لقد استمدّت من ارتباك محيطها طاقة، وأملت أنّ هذه الشجاعة المقترنة بالأدرنالين المتدفّق في جسدها ستسمح لها بالعودة إلى حياتها الطبيعيّة بسهولة، وإيجاد التوازن الضروريّ لمواصلة التقدّم بخطى حازمة، بدون أن تخشى السقوط من جديد في المستنقع الذي غرقت فيه طويلًا بعد حادثة اغتصابها...

ومع ذلك لم تجد إلى النوم سبيلًا في الأسبوع الذي تلا الحادث. وليس ذلك فقط بسبب الألم الذي أحسّت به في ساعدها المطوّق بالجصّ. فما إن تغمض عينيها لدقائق، في النهار أو في الليل، حتّى تعيش من جديد

[1] أنظري إليّ الآن، جنديّ قديم خاض ألف حرب نفسيّة...

حادث الاعتداء عليها، وترى ذراعين قوّيتين تأسرانها، وتسمع لهاث القاتل كالفحيح في أذنيها. لم ترَ عينيه قطّ، لكنّها تعطيه أحيانًا عيني مغتصبها: حدقتان باهتتان، وبؤبؤ متضخّم وجامد. وخلف القناع الصوفيّ، أو قناع الغوريلا، تختلط هذه الأشكال الآتية من عالم الكوابيس، وتتحوّل، وتتعاظم حتّى تحتلّ كلّ زوايا عقلها، ليل نهار.

كانت تراه في أحلامها الأكثر إثارة للخوف يعذّب امرأة أخرى فيما هي واقفة تنتظر دورها، عاجزة عن الحركة أو عن الفرار. الضحايا كنّ يتغيّرن، فتارة ستيفاني بوجهها المضروب، وطورًا طفلة سوداء تصرخ مستنجدة بوالدتها. كان الأمر لا يُحتمل لدرجة أنّ روبن استيقظت وهي تصرخ في إحدى الليالي. وقد سبّب ذلك اضطرابًا كبيرًا لماثيو لدرجة أنّه أخذ إجازة من عمله في اليوم التالي ليبقى إلى جانبها. ولم تعد روبن تعلم ما إذا كان عليها أن تشكره أو تحقد عليه.

أتت والدتها لتراها وتعيدها إلى ماشام.

– بقي حتّى الزفاف عشرة أيام، روبن، لماذا لا تعودين معي لتستريحي قليلًا...

– أريد البقاء هنا، قالت روبن.

لم تكن مراهقة. لقد أصبحت امرأة بالغة. ولها الحقّ في أن تختار أين تذهب، وماذا تفعل. بات كلّ شيء يحدث وكأنّ عليها أن تصارع من جديد لتحافظ على هويتها التي انتزعت منها في آخر مرّة انقضّ عليها رجل في الظلام، وحوّل الطالبة اللامبالية إلى كائن ضعيف وخائف. بسببه تخلّت عن مستقبلها المهنيّ في علم النفس الجنائيّ لتتحول إلى فتاة مسكينة ومحطّمة، وغير قادرة على مواجهة عائلتها التي تخنقها، وتعتبر أنّ تلك المهنة ستزيد من حدّة مشاكلها.

لم تكن العودة إلى ذلك أمرًا واردًا. هجرها النوم تقريبًا، وفقدت شهيّة الأكل، ومع ذلك كانت تقاوم بعنف وترفض أن تكون لها مخاوفها وحاجاتها. وخشي ماثيو معاكستها، فتظاهر بأنّه يساندها حين رفضت عرض والدتها

العودة معها، لكنّ روبن كانت تسمعهما يتآمران في المطبخ، حالما تدير لهما ظهرها.

لم يقدّم لها سترايك أيّة مساعدة. هو حتّى لم يودّعها في المستشفى. وبدلًا من القدوم لزيارتها في منزلها، اكتفى بالاتصال بها بين الحين والآخر. هو أيضًا كان يريدها أن تعود إلى يوركشاير، لتبقى بمنأى عن الخطر.

– لا بدّ من أنّ لديك أمورًا كثيرة تفعلينها استعدادًا للزواج.

– دعك من هذه النبرة الاستعلائيّة، رجاء، قالت روبن غاضبة.

– أيّة نبرة استعلائيّة...؟

– آسفة، قالت وهي تبكي في صمت، قبل أن تضيف بصوت حاولت جاهدة أن تجعله يبدو طبيعيًا: آسفة، أعصابي متوتّرة. سأعود إلى منزل والديّ يوم الخميس الأخير قبل الزفاف. لا داعي إلى الاستعجال.

تغيّرت روبن، ولم تعد كما كانت. لم تعد الفتاة التي قضت أشهرًا طريحة الفراش تحملق في ملصق Destiny's Child. كانت ترفض أن تكون تلك الفتاة من جديد.

لم يفهم أحد سبب إصرارها بعناد على البقاء في لندن، كما لم تكن تنوي أن تشرح ذلك لأحد. قررت أن ترمي الفستان الصيفيّ الذي كانت ترتديه حين وقع الاعتداء. وفي اللحظة التي كانت تلقيه في سلّة المهملات، دخلت ليندا المطبخ.

– سئمت رؤيته، قالت حين التقت عيناها بعيني والدتها. على الأقلّ تعلّمت أمرًا، وهو أنّ ملاحقة المجرمين بالفستان الطويل ممنوعة.

كانت تتحدّث بنبرة تحدّ: سأعود إلى العمل، هذا كلّه مؤقّت.

– عليك ألّا تستخدمي هذه اليد، أجابتها ليندا التي لم تفهم التلميح. طلب منك الطبيب أن تستريحي وتبقي ذراعك عالية.

لا ماثيو ولا والدتها كانا يحبّان أن تتابع سير التحقيق في الصحف، وهو ما دأبت على فعله كالمهووسة. لم يبُح كارفر باسمها للصحفيين، خشية تعرّضها للمضايقة على حدّ زعمه. لكنّها وسترايك فسّرا قراره على نحو مختلف. لا شكّ بأنّ كارفر يخشى بأنّ طيف سترايك لا بدّ من أن يظهر إذا ما تواصل

التركيز على هذه القضيّة، ممّا قد يوحي للصحفيّين بعنوان جديد، من قبيل: كارفر مقابل سترايك، مباراة الإياب.

– لا بدّ من الاعتراف بأنّ هذا الأمر سيكون غير مُجدٍ، قال لها سترايك بالهاتف. (كانت روبن تحرص على عدم الاتّصال به أكثر من مرّة واحدة في اليوم). المهمّ هو اعتقال ذلك القذر.

لم تجب روبن. كانت ترقد على سريرها، تحيط بها الجرائد التي اشترتها برغم اعتراض ليندا وماثيو، وتتفرّس في صور الضحايا الخمس المفترضة لسفّاح شاكلويل، والمنشورة على صفحتين في جريدة ميرور. وكانت القضيّة السادسة، التي ظهر فيها ظلّ مكان صورة روبن، تتحدّث عن موظّفة مكتب في السادسة والعشرين من العمر نجت من الاعتداء. إستفاض الصحفيّون في وصف ما قامت به الشابّة لإرغام المعتدي على الفرار، بعدما رشّت وجهه بالحبر الأحمر. وهنّأتها شرطيّة متقاعدة على تفكيرها في أن تحمل معها ذلك الجهاز. تلا ذلك مقالة تتغنّى بحسنات أجهزة الإنذار ضدّ الاغتصاب.

– هل حقًّا تخلّيت عن القضيّة؟ سألته روبن.

– المشكلة ليست هنا، أجاب سترايك. كانت تسمعه يروح ويجيء في مكتبه، وشعرت بالأسف لأنّها ليست هناك، ولو لإعداد الشاي أو للردّ على الرسائل الإلكترونيّة. سأدع الأمر للشرطة. القبض على قاتل متسلسل أمر ليس في طاقتنا. لم يكن كذلك قطّ.

نظرت روبن إلى الوجه الشاحب للناجية الأخرى، ليلا مونكتون، العاهرة. كانت ليلا قد شعرت مثلها بأنفاس القاتل القذرة. قطع اثنين من أصابعها، فيما روبن ستحمل ندبة كبيرة في ذراعها. أشعل الغضب دماغها، وشعرت بنفسها مذنبة لأنّها استطاعت النجاة.

– أتمنّى لو أنّ بوسعنا أن نفعل شيئًا...

– إنسي الأمر، قال سترايك. بدا غاضبًا، مثله مثل ماثيو. أضاف: إنتهى الأمر بالنسبة إلينا يا روبن. ما كان عليّ أن أطلب منك مراقبة ستيفاني أبدًا. جرفتني كراهيتي لويتايكر. وفقدت الحسّ السليم منذ أن وصلت تلك الساق إلى المكتب، وبسبب ذلك كدتِ أن...

– بالله عليك! قالت روبن بانفعال، لستَ أنت مَن حاول قتلي، بل هو. دعنا لا نضيّع الحقيقة. كانت لديك أسباب وجيهة للاشتباه بويتايكر، ككلمات الأغاني. بأيّة حال، بقي...

– حقّق كارفر في أمر لاينغ وبروكبانك، ويقدّر أن لا شأن لهما بالقضيّة. علينا ألّا نتدخّل في التحقيق بعد اليوم.

كان سترايك يتكلّم من المكتب، الذي تفصل وبين منزل روبن خمسة عشر كيلومترًا بينه، ويأمل أن يكون قد أقنعها بكلامه. لم يقل لها شيئًا عن الرؤيا العبقريّة التي ظهرت له أمام المستشفى، بعدما صادف الطفل في طريقه. حاول في الصباح التالي الاتّصال بكارفر، لكنّ مساعدًا لهذا الأخير قال له إنّ رئيسه مشغول ولا يستطيع مكالمته، كما نصحه بعدم الإصرار على ذلك. لكنّ سترايك لم يبالِ بالنصيحة، بل ذكر للشرطيّ، برغم نبرته التي تتّسم بالعدائيّة، كلّ ما كان ينوي قوله لكارفر، مراهنًا في الوقت علينه على أنّ شيئًا ممّا قاله لن يصل إلى هذا الأخير.

كان نور شمس حزيران/يونيو يدخل عبر نوافذ المكتب المفتوحة ويدفّئ الغرفتَين اللتين لم يعد أيّ زبون يقصدهما. سيكون عليه قريبًا أن يخلي المكان إذا عجز عن تسديد بدل الإيجار. فقد تراجع «المخدوع مرتين» عن محاولة إغراء راقصة التعرّي الجديدة. ولم يعد لدى سترايك عمل يقوم به. كانت هذه الحال شديدة الوقع عليه، كما على روبن، لكنّه امتنع عن الإقرار لها بذلك. جلّ ما أراده، هو أن تشفى وتبقى في مكان آمن.

– ألا تزال الشرطة أمام منزلك؟

– نعم، قالت متنهّدة.

بناءً على طلب كارفر، تمّ تكليف شرطيّ بالبقاء في شارع هايستننغز لمراقبة المكان أربعًا وعشرين ساعة على أربع وعشرين. وكان ماثيو وليندا يجدان في ذلك أمرًا مطمئنًا للغاية.

– إسمعني يا كورموران، أجهل ما إذا كان بوسعنا نحن...

– روبن، لم يعد هناك ما يسمّى نحن في الوقت الراهن. لم يعد هناك سواي، جالسًا بلا عمل. أمّا أنت فستلازمين شقّتك حتّى يصبح القاتل خلف القضبان.

– لم أكن أشير إلى القضيّة، قالت وقلبها يخفق بشدّة. كان عليها أن تتكلّم لئلاّ تنفجر. ثمّة أمر نستطيع... بل تستطيع أنت القيام به. لعلّ بروكبانك ليس القاتل، لكنّنا نعلم أنّه مغتصب. يمكنك أن تقصد أليسا وتبلغها بأنّها تعيش مع...

– محال، أجاب سترايك بحدّة. للمرّة الأخيرة يا روبن، كفّي عن محاولة إنقاذ العالم كلّه! لم يُدَن بروكبانك بالاغتصاب قطّ! سيقضي علينا كارفر إذا اقتربنا منه.

تلا ذلك صمت طويل.

– أتبكين؟ سألها سترايك الذي استغرب صوت تنفّسها.

– لا، لست أبكي، ردّت روبن، صادقة.

أحسّت ببرد شديد لدى سماع سترايك يرفض مساعدة الطفلتين اللتين تعيشان مع سترايك.

– يجب أن أنهي المكالمة، إنّهما يناديانني لتناول الغداء، قالت له متملّصة.

– إسمعي، أنا أفهم لما...

– سنتكلّم في الأمر لاحقًا، قالت له وأقفلت الخطّ.

لم يعد هناك ما يسمّى نحن في الوقت الراهن.

عود على بدء! رجل آخر خرج من الظلمة ليسرق منها مجدّدًا هدوء بالها ومكانتها الاجتماعيّة. قبل ذلك بوقت قليل، كانت شريكة في مكتب للتحقيق الخاصّ...

شريكة؟ حقًّا؟ الحقيقة أنّ أيّ عقد لم يكن قد وُقِّع بينهما على هذا الأساس، كما لم يرفع سترايك أجرها. كانا مشغولين بأمور كثيرة جدًّا، ناهيك عن المشاكل الماليّة، لدرجة أنّها لم تفكّر حتّى في التطرّق إلى الموضوع. إكتفت بمعرفة أنّ سترايك يعاملها معاملة الندّ للندّ. لكنّها الآن خسرت حتّى

هذه الصفة. لعلّ الأمر مؤقّت، أو لعلّه نهائيّ. لم يعد هناك ما يسمّى نحن في الوقت الراهن.

بقيت روبن غارقة في أفكارها لعدّة دقائق، ثمّ نزلت من سريرها وسط صوت تغضّن عشرات أوراق الجرائد المفتوحة عليه. إقتربت من منضدة التبرّج حيث وضعت علبة الحذاء الأبيض التي طُبعت عليها ماركة جيمي شو بأحرف فضيّة، ومدّت يدها لتداعب غطاءها الجميل.

لم تأتِ الفكرة التي خطرت ببالها كرؤيا صاعقة، كما جرى مع سترايك أمام المستشفى. بل تسلّلت إليها بهدوء، كضباب مظلم ومقلق ولّده القهر. كأنّه لم يكفِها أنّها تدور كلبؤة في قفصها منذ أسبوع، بل أتى سترايك ليكرّر لها أنّه يرفض أن يقوم بشيء. شعرت بغضب بارد أمام هذا العناد. سترايك، صديقها سترايك، انضمّ إلى صفوف الأعداء. طوله 192 سنتمترًا، وقد مارس الملاكمة، ولم يسبق له قطّ أن شعر بالضعف والعجز. فكيف له أن يضع نفسه مكانها؟ كيف له أن يعرف أنّ الاغتصاب يحطّم المرأة من الداخل، وأنّ جسدها يصبح شيئًا بلا روح، أو قطعة لحم يضاجعها رجل ويرميها؟

لا بدّ من أنّ عمر زهرة لا يتجاوز السنوات الثلاث، حسبما سمعت عبر الهاتف.

وقفت جامدة أمام منضدة تبرّجها، تفكّر محملقة في علبة الكرتون التي تحتوي حذاء العرس. ومثل بهلوان يسير على حبل عالٍ فوق صخور ومياه متلاطمة، كانت ترى أمام عينيها كلّ المخاطر التي تحيط بها.

لا، هي لا تستطيع إنقاذ العالم كلّه. بالنسبة إلى مارتينا، وسادي، وكيلسي، وهيذر، فات الأوان. أمّا ليلا فستقضي بقيّة حياتها بإصبعين ناقصين في يدها اليسرى، وبجرح عميق في الروح، تدرك روبن تمامًا كم هو مؤلم. لكنّ هناك طفلتين لا تزالان في خطر، وإذا لم تتصرّف روبن فالله وحده يعلم أيّة معاناة تنتظرهما.

إبتعدت روبن عن حذائها الجديد، وأخذت هاتفها المحمول، وطلبت رقمًا لم تظنّ قطّ أنّها قد تستعمله في أحد الأيّام، برغم أنّ صاحبه أعطاها إيّاه بكلّ سرور.

54

And if it's true it can't be you,
It might as well be me[1].

Blue Öyster Cult, 'Spy in the House of the Night'

أمامها ثلاثة أيّام لتنفيذ خطّتها. كان على شريكها أن يجد في البداية سيارة، ووقتًا متاحًا في برنامجه المثقل بالمشاغل. في البداية قالت لليندا إنّ حذاءها ضيق جدًّا ولافت جدًّا للأنظار، واقترحت عليها أن ترافقها إلى متجر جيمي شو لإعادته. بعد ذلك فكّرت في الذريعة التي ستستخدمها مع والدتها وماثيو لتنجو من مراقبتهما.

في النهاية قالت لهما إن سكوتلنديارد استدعتها لاستجوابها من جديد. ولمزيد من الاحتياط، قررت أن تطلب من شانكر البقاء خلف المقود حين يأتي ليصطحبها بالسيارة، وكذلك أن يركن سيارته حيث يقف الشرطي المولج بالحراسة أمام منزلها، ويقول له إنّه يقودها إلى المستشفى لفكّ درزات جرحها، وهو موعد مقرّر أن يكون بعد يومين.

كانت الساعة السابعة مساءً، والسماء صافية والشارع خاليًا. وقفت روبن تتكئ إلى الجدار الحجري الدافئ أمام مركز إيستواي التجاريّ. كانت

1 وإذا كان صحيحًا أنّه لا يمكن أن تكون أنت، / فمن الممكن أيضًا أن أكون أنا.

الشمس تغيب ببطء في الأفق الضبابيّ في نهاية شارع بلوندين، وظهر في البعيد برج أوربت. سبق لروبن أن شاهدت في الجرائد خرائط البرج المعمارية، وكان شبيهًا بهاتف قديم، يلتفّ حوله سلك لولبيّ. وفي البعيد رأت ورشة الملعب الأولمبيّ. كان لتلك المباني العملاقة طابع غير بشريّ، وكأنّها تنتمي إلى عالم آخر، يقع على مسافة سنوات ضوئية من الأسرار المتكدّسة، برأي روبن، خلف الباب المطليّ حديثًا لمنزل أليسا.

أزعجها منظر المنازل التي تمتدّ بانتظام على جانبي الشارع الخالي، ربّما بسبب ما تنوي القيام به. كانت تلك المنازل جديدة وعصريّة وبلا روح. برغم المشاريع المعماريّة الكبيرة التي يتمّ تنفيذها في نهاية الشارع، كان هذا الحيّ يفتقر إلى طابع مميّز، وإلى الحياة. فلا أشجار تلطّف محيط المنازل الواطئة السقوف، المكعّبة الشكل، والتي عُلّق على معظمها لافتات مكتوب عليها «للإيجار». لا متاجر قريبة، لا حانات، لا كنائس. وقفت تتكئ إلى جدار مستودع، نوافذه عالية، أسدِلت خلفها ستائر بيضاء كالأكفان، وأبوابه مغطّاة بالرسوم. لكنّ ذلك المكان ليس بالمخبأ المثاليّ. كان قلب روبن يخفق وكأنها ركضت مسافة طويلة. الآن، وقد أصبحت هنا، لا شيء سيجعلها تعود عمّا تنوي القيام به، ومع ذلك كانت تشعر بالخوف.

سمعت روبن وقع خطى على حجارة الشارع. إلتفتت إلى الخلف، وكفّاها رطبتان، وقبضتها مشدودة على جهاز الإنذار الجديد الذي جاءت به. رأت طيف شانكر يتّجه نحوها بمشيته المتوازنة، ووجهه الشاحب. كان يحمل بيده لوح شوكولاتة مارس، وباليد الأخرى سيجارة.

– إنّها آتية، قال بصوت مكتوم.

– أنت واثق؟ سألته روبن، وقلبها يخفق بشدّة لدرجة أنّها كادت تصاب بدوار.

– امرأة سوداء، وفتاتان. إنّهن آتيات بهذا الاتجاه. رأيتها وأنا أشتري الشوكولاتة، أضاف وهو يلوّح بلوح مارس. هل تريدين؟

– لا، شكرًا... هل يزعجك أن تبقى بعيدًا؟

– حقًّا؟ ألا تريدينني أن آتي؟

– لا. إلّا فقط إذا رأيت... إذا رأيته آتيًا.

– وما أدراك بأنّ القذر ليس في الداخل؟

– إتصلت مرتين. أنا متأكّدة من أنّه ليس في الداخل.

– إذًا سأبقى عند زاوية الشارع، قال شانكر باقتضاب.

ثمّ ابتعد بهدوء، وهو يقضم من لوح مارس حينًا، ويدخّن سيجارته حينًا آخر، باحثًا عن مكان يقف فيه ولا يمكن رؤيته من منزل أليسا. في هذا الوقت سارعت روبن إلى السير مبتعدة في شارع بلونديـن، لكي لا تراها أليسا واقفة على الرصيف حين تدخل منزلها. توارت في ظلّ شرفة أحد المباني ذات اللون الأحمر الغامق، ونظرت إلى امرأة سوداء بالغة تنعطف عند زاوية الشارع، تحيط بها ابنتاها، وهما طفلة صغيرة وفتاة لا بدّ من أنّها في عامها الحادي عشر. أدارت أليسا المفتاح في القفل، ودخلت الثلاث المنزل.

سارت روبن نحوهنّ. كانت ترتدي سروال جينز وتنتعل حذاء رياضيًا، لئلاّ تتعثّر أو تسقط أرضًا. وكانت أوتارها التي لم تُشف تمامًا بعد تؤلمها تحت الجصّ.

حين رنّت جرس باب المنزل، كان قلبها يخفق بشدّة لدرجة أنّها أحسّت بألم في صدرها. نظرت الفتاة الكبرى من النافذة على الجهة اليمنى، ثمّ تراجعت فجأة حين رأت روبن ترسم على شفتيها ابتسامة متوتّرة.

بعد دقيقة ظهرت امرأة فاتنة. كانت ذات بشرة سمراء، وممشوقة القدّ، ومتناسقة الشكل، وشعر طويل ينسدل حتّى خصرها. حين رأتها روبن، خطر ببالها في الحال أنّ طبعها لا بدّ من أن يكون سيّئًا جدًّا حتى يقرّر ملهى تعرٍّ أن يطردها.

– نعم؟ قالت وهي تنظر إلى روبن عابسة.

– مرحبًا، قالت روبن مرتبكة. أنت أليسا فنسنت؟

– نعم. وأنت؟

– إسمي روبن إيلاكوت. تساءلت... هل بوسعي أن أكلّمك بشأن نويل؟

– في أيّ شأن مثلًا؟ سألتها أليسا.

– أفضّل أن أكلّمك في الداخل. وأمام ملامح الحذر التي ظهرت على وجه أليسا، والتي تُميّز من يتوقّع دائمًا أن تحلّ به مصيبة، ألحّت روبن التي كاد لسانها الجافّ يلتصق بسقف حلقها، وقالت: رجاءً، الأمر في غاية الأهمية، وإلّا لما أتيت.

نظرت كلّ من الأمرأتين في أعماق عيني الأخرى. كانت عينا أليسا بلون الكراميل، أمّا عينا روبن فكانتا مزيجًا من الأزرق والرماديّ. توقعت روبن رفضًا جازمًا من قبل أليسا. لكنّ جفنَي هذه الأخيرة المبطّنين والمنتهيين برموش بنية سميكة انفتحا فجأة، وانفرجت أساريرها، وكأنّ فكرة جميلة خطرت ببالها. تراجعت بدون أن تقول كلمة واحدة إلى مدخل المنزل المعتم، ودعتها بحركة مسرحيّة إلى الدخول.

فجأة، خالج روبن شعور سيئ، لم تعرف سببه. ولولا وجود الطفلتين في المنزل، لما تجاوزت عتبته أبدًا.

كان رواق صغير يفضي إلى غرفة استقبال راقية الأثاث. كان فيها تلفزيون وكنبة ومصباح طاولة موضوع أرضًا. وعُلّقت على الجدار صورتان في إطارين مذهّبين. ظهرت في إحداهما زهرة الصغيرة بخدّيها المنتفخين ترتدي فستانًا فيروزيّ اللون كربطتَي شعرها. وفي الصورة الأخرى، وقفت شقيقتها الكبرى والتي تشبه والدتها كثيرًا، بزيّها المدرسيّ البنيّ، بدون أن ينجح المصوّر في إقناعها بالابتسام.

سمعت روبن قفل الباب يدور. وحين التفتت إلى الوراء، صرّ حذاءاها الرياضيّان على أرضيّة المنزل المشمّعة. وسُمع صوت إنذار من فرن مكرويف أشار إلى أنّ وقت تسخين الطعام قد انقضى.

– أينجل! صاحت أليسا وهي تدخل غرفة الاستقبال. أخرجي الحليب من الفرن. ثمّ أضافت مكتوفة الذراعين: حسنًا، ماذا تريدين قوله لي في شأن نويل؟

شعرت روبن بأنّ أليسا مسرورة برؤيتها أمامها، وكأنّ فكرة ما تدور في ذهنها. كما أنّ الابتسامة المتوتّرة التي انطبعت على وجهها الجميل زادت من شعورها بالحذر. كانت الراقصة السابقة كاتفة ذراعيها بطريقة رفعت ثدييها

حتى بدت كتمثال حوريّة على مقدّم سفينة. وكان شعرها الطويل المضفور يتأرجح على ظهرها، وقامتها تتجاوز قامة روبن بخمسة سنتمترات.

– أليسا، أنا أعمل مع كورموران سترايك، وهو...

– أعرف مَن يكون، قالت أليسا وقد امّحت فجأة ابتسامتها الصغيرة. إنّه الوغد الذي سبّب داء الصرع لنويل! اللعنة! أنت أتيت لرؤيته هو، أليس كذلك؟ أنت وسترايك متواطئان، أليس كذلك؟ لماذا لا تشين به إلى الشرطة أيتها الكاذبة القذرة، إذا كان حقًّا...

ثمّ ضربتها بعنف على كتفها، وبدون أن تترك لروبن الوقت للردّ، أنهت جملتها موقّعة كلّ كلمة بضربة جديدة.

– ... قد... فعل... لك... شيئًا!

فقدت أعصابها أليسا ونهالت بالضرب على روبن، التي حاولت أن تحمي ذراعها اليمنى باليسرى، ثمّ ركلت مهاجِمتها في ركبتها. وثبت أليسا إلى الخلف مطلقة صرخة ألم حادّة. وخلف روبن انفجرت الطفلة الصغيرة باكية، وفي الوقت عينه دخلت شقيقتها الكبرى الغرفة.

– قذرة! صاحت أليسا، تأتين لمهاجمتي أمام ابنتيّ...

ثمّ عادت للهجوم، وأمسكت روبن من شعرها وضربت رأسها بزجاج النافذة الخالية من الستائر. شعرت روبن بأنّ أينجل تقترب منهما وتحاول أن تباعد بينهما بذراعيها النحيلين والعصبيّين. قرّرت ألّا تلجم نفسها فسدّدت إلى أذن أليسا صفعة. كتمت هذه الأخيرة صرخة ألم وتراجعت. أمسكت روبن أينجل من تحت إبطيها لتبعدها، ثمّ أخفضت رأسها وانقضت على أليسا التي رأت نفسها تسقط على الكنبة.

– أتركي أمّي... أتركي أمّي وشأنها! صرخت أينجل.

أمسكت الفتاة بذراع روبن المصابة، وشدّتها بقوّة لدرجة أنّ هذه الأخيرة صرخت ألمًا بدورها. أمّا زهرة التي كانت عند العتبة، فكانت تبكي وهي تحمل كوب حليب ساخن مقفلًا ومقلوبًا.

– أنتنّ تعشن مع متحرّش بأطفال! صاحت روبن لكي يُسمع صوتها وسط الجلبة، فيما كانت أليسا تحاول مغادرة الكنبة للعودة إلى العراك.

كانت روبن تتخيّل أن يجري الأمر على نحو مغاير تمامًا. ظنّت أنّها ستنقل الحقيقة همسًا إلى امرأة على وشك السقوط من هول الصدمة، ولم تتخيّل قطّ أنّ أليسا ستنظر إليها بهذا الاحتقار وهذه الابتسامة الشريرة.

– تبًا لك. أتظنيني لا أعرف مَن تكونين أيتها العاهرة القذرة؟ ألا يكفيك أنك دمّرت حياته...

ثمّ عادت لتنقضّ على روبن. كانت غرفة الاستقبال ضيّقة جدًّا، والمسافة بينهما قصيرة جدًّا لدرجة أنّ روبن سرعان ما وجدت نفسها إزاء الحائط. ظلّت كلّ منهما تمسك بخناق الأخرى حتّى سقطتا أرضًا وأطاحتا بالتلفزيون الذي تحطّم على الأرضيّة. شعرت روبن بجرحها يُنكأ من جديد، وصرخت ألمًا.

– ماما! ماما! صاحت زهرة فيما كانت أينجل تشدّ روبن بحزام سروالها لتمنعها من الهجوم من جديد.

– إسألي ابنتيك! صرخت روبن وهي تتلقى وابلًا من اللكمات وضربات المرفق. حاولت الانسحاب لكنّ أينجل كانت تثبتها. إسألي ابنتيك إذا كان...

– كيف تجرؤين... أيتها العاهرة القذرة... كيف تجرؤين على إقحام ابنتيّ...

– إسأليهما!

– عاهرة قذرة! كاذبة قذرة! أنت وأمّك اللعينة...

– أمّي؟ قالت روبن.

ثمّ تمكّنت بمجهود خارق من تسديد ضربة عنيفة بمرفقها إلى معدة غريمتها فأجبرتها على السقوط على الكنبة وقد انطوت على نفسها من شدّة الألم. وصرخت بالفتاة الصغيرة وهي تنتزع بالقوّة أصابع هذه الأخيرة المتمسّكتين بسروالها:

– أتركيني يا أينجل!

كانت زهرة مسترسلة بالبكاء عند عتبة غرفة الاستقبال. ولم يكن أمام روبن سوى ثوان قليلة قبل أن تنهض أليسا وتعاود هجومها، فقالت لها لاهثة:

– أنت تخلطين بيني وبين شخص آخر...

– أيتها المنافقة! قالت أليسا مقطوعة الأنفاس! أنت بريتاني القذرة! لا تتوقفين أبدًا عن الاتصال به، أو عن تنكيد عيشه...

– بريتاني؟ قالت روبن مذهولة. أنا لست بريتاني! ثمّ سحبت بسرعة محفظة أوراقها من جيب سترتها، وقالت لها: أنظري إلى بطاقة اعتمادي! أنظري إليها جيّدًا! أنا روبن إيلاكوت، وأعمل مع كورموران سترايك...

– الوغد الذي أصابه في...

– أتعرفين لماذا ذهب كورموران لاعتقاله؟

– لأنّ زوجته العاهرة أوقعت به...

– لم يوقع به أحد! لقد اغتصب بريتاني وطُرد من كلّ الوظائف التي عمل بها. لا ربّ عمل في هذه البلاد يقبل بتوظيفه لأنّه يتحرّش بالفتيات الصغيرات! لقد اغتصب أخته. أنا نفسي التقيتها!

– كاذبة قذرة! صاحت أليسا وهي تحاول النهوض من جديد.

– أنا... لا... أكذب! صاحت روبن وهي تعيدها إلى الوسائد.

– أيتها اللعينة، قالت أليسا بصوت مخنوق، غادري منزلي في الحال!

– إسألي ابنتك إذا كان قد ألحق بها الأذى! إسأليها! أينجل؟

– أمنعك من محادثة ابنتيّ يا قذرة!

– أينجل، قولي لأمّك إذا...

– ماذا يحدث هنا؟

كان بكاء زهرة شديدًا لدرجة أنّهما لم تسمعا صوت المفتاح في القفل.

كان الرجل ضخمًا، ذا شعر ولحية بنّيي اللون، ويرتدي لباسًا رياضيًّا أسود. كان أحد محجري عينيه غائرًا، فظهر ذلك التجويف العظميّ الممتدّ باتّجاه أنفه وكأنه يضفي على نظراته قوّة هائلة ومثيرة للاضطراب الشديد. وقعت عيناه الشرّيرتان على روبن، وانحنى ليحمل الفتاة الصغير التي هرعت تحتمي به مسرورة. غير أنّ شقيقتها أينجل تراجعت نحو الجدار. أودع بروكبانك زهرة في حضن أمّها من دون أن يبعد عينيه عن روبن لحظة واحدة.

– أنا مسرور برؤيتك، قال بابتسامة لم تكن إلّا وعدًا بأشدّ أهوال التعذيب.

وقفت روبن مرتعشة من أعلى رأسها حتّى أخمص قدميها، وأرادت أن تأخذ سرًّا جهاز الإنذار ضدّ الاغتصاب من جيبها، لكنّ بروكبانك لم يدع لها الوقت، بل أمسك بمعصمها وضغط على جرحها.

– لن تتّصلي بأحد أيتها العاهرة الصغيرة القذرة. أظننتني لم أعرف أنّك أنت المتّصلة...

حاولت التملّص منه، لكنّ درزات جرحها كادت أن تنفجر تحت الضغط، فصرخت بكل ما في رئتيها من قوّة:

– شانكر!

– كان عليّ أن أقتلك حين أتيحت لي الفرصة أيتها الساقطة!

سُمع صوت تحطّم الباب وظهر فيه ثقب. ترك بروكبانك روبن، والتفت ليرى شانكر يندفع إلى داخل غرفة الاستقبال وبيده سكّين.

– لا تجرحه! صاحت روبن وهي تمسك بساعدها.

لبرهة، حلّ الجمود على الأشخاص الستّة المتجمّعين في تلك الغرفة الصغيرة، بمن فيهم الطفلة الصغيرة المتعلّقة بوالدتها. ثمّ ارتفع صوت صغير، صوت مرتجف، ومتوسّل، ولكنّه تحرّر أخيرًا بفضل وجود رجل يحمل على وجهه ندبة وفي يده المغطّاة بالوشوم سكّينًا.

– لقد فعل بي ذلك! فعل بي ذلك يا أمّي، فعل بي ذلك! فعل بي ذلك!

– ماذا؟ قالت أليسا وهي تلتفت نحو أينجل، وقد غيّر الذهول ملامحها.

– فعل بي ذلك! ما قالته لك السيّدة، فعله بي!

إتجه بروكبانك نحوها بعنف، لكنّ النصل الفولاذيّ الذي وضعه شانكر على صدره جمّده في الحال.

– كلّ شيء على ما يُرام يا صغيرتي، قال شانكر لأينجل وهو يحميها بيده الحرّة. وكانت أسنانه الذهبيّة تبرق تحت أشعّة الشمس الغاربة خلف المنازل المقابلة. وأضاف: لن يعاود الأمر أبدًا، أعدك بذلك، قال في وجه بروكبانك... كم أحبّ أن أسلخ جلدك حيًّا.

– عمّ تتكلّمين يا أينجل؟ قالت أليسا وهي لا تزال تعانق زهرة الصغيرة، والفزع باد على وجهها، هل...؟

فجأة، أسقط بروكبانك رأسه بين كتفيه وانقضّ على غريمه انقضاضة لاعب الرغبي القديم. تهاوى شانكر كدمية من ورق. بعد ذلك خرج بروكبانك راكضًا من الغرفة، وتجاوز الباب المخلوع، فيما انطلق شانكر لمطاردته وهو ينهال عليه بالسباب.

– دعه... دعه! صرخت روبن التي كانت تنظر عبر النافذة إلى الرجلين يركضان في الشارع، ربّاه يا شانكر... الشرطة سوف... أين أينجل؟

كانت أليسا قد غادرت الغرفة لتندفع نحو أينجل، تاركة زهرة تبكي على الكنبة. أدركت روبن أنّها عاجزة عن اللحاق بالرجلين، وشعرت بالدوار والغثيان، فجلست القرفصاء وهي تمسك برأسها.

لقد مضت حتى النهاية في المهمّة التي حدّدتها لنفسها. كانت تدرك تمامًا منذ البداية أنّ ثمّة أخطاء قد تقع، كأن يهرب بروكبانك أو أن يطعنه شانكر. لم يعد لديها في الوقت الراهن سوى أن ترى الوضع كما هو بدون أن يكون بوسعها معالجته. أخذت نفسًا عميقًا، ثمّ آخر، ونهضت وسارت نحو الكنبة للتخفيف عن الطفلة المرتعبة. لكنّ روبن كانت قد ارتبطت في ذهن الفتاة بمشاهد العنف الهستيريّ، لذلك لم تتعجّب حين أخذت زهرة بالصراخ، وراحت تدفعها عنها بقدمها الصغيرة.

– لم أكن أعلم، قالت أليسا. ربّاه! ربّاه! لماذا لم تقولي شيئًا يا أينجل؟ لماذا؟

حلّ المساء. أشعلت روبن مصباحًا ألقى ظلالًا رماديّة على الجدار العاجيّ اللون. منها ثلاثة ظلال بدت وكأنّها جاثمة على ظهر الكنبة، كانت تتبع كلّ حركة تقوم بها أليسا. تقوقعت أينجل في حضن والدتها باكية، وراحت الاثنتان تتأرجحان إلى الأمام وإلى الوراء.

أمّا روبن التي أعدّت الشاي مرّتين، وطبق سباغيتي لزهرة، فكانت آنذاك جالسة أرضًا تحت النافذة. شعرت بأنّها ملزمة بانتظار قدوم النجّار لتصليح الباب الذي خلعه شانكر. لم يتّصل أحد بالشرطة. وكانت الأمّ وابنتها تتحادثان بصوت منخفض. شعرت روبن بأنّها متطفّلة، لكنّها لم تستطع أن تقرّر تركهنّ قبل أن تتأكّد من أنّهنّ حظين بالحماية خلف باب متين وقفل

جديد. تكوّمت زهرة على الكنبة وغطّت في النوم بجانب والدتها وشقيقتها، وإبهامها في فمها، فيما يدها الصغيرة لا تزال تمسك بكوب الحليب.

– قال لي إنّه سيقتل زهرة إذا أخبرتك، قالت أينجل هامسة في عنق والدتها.

– يا إلهي، قالت أليسا متأوّهة وتساقطت دموعها فوق ظهر ابنتها. ربّاه.

أحسّت روبن وكأنّ أحشاءها فريسة لمخالب تنهشها نهشًا. أرسلت إلى والدتها وإلى ماثيو رسالة نصيّة لتبرير غيابها الذي طال، قالت فيها إنّ الشرطة تعرض عليها مزيدًا من الرسوم التشبيهيّة. ومع ذلك فقد شعرا بالقلق وأرادا القدوم لأخذها. خلت جعبة روبن من الأفكار. مجدّدًا تأكّدت من أنّ رنّة جرس هاتفها في وضعيّة التشغيل. أين هو شانكر؟

وصل النجّار أخيرًا. أصرّت روبن على أن تدفع كلفة الأضرار التي سبّبها شانكر، فأعطته رقم بطاقتها المصرفيّة ثمّ استأذنت أليسا وانصرفت.

تركت هذه الأخيرة ابنتيها تجلسان متلاصقتين على الكنبة، ورافقت روبن إلى الشارع الغارق في العتمة.

– إسمعي، قالت أليسا.

كانت الدموع قد تركت آثارًا على وجهها. وأدركت روبن أنّ من غير عادة تلك المرأة أن تقول كلمة شكرًا.

– إذًا، شكرًا، قالت أليسا بنبرة تكاد تكون عدائيّة.

– لا بأس، ردّت روبن.

– لم يخطر... أعني... قابلته في إحدى الكنائس. ظننتني عثرت على رجل شجاع... أعني أنّه كان لطيفًا حقًّا مع الفتاتين...

وأجهشت بالبكاء. خطر لروبن أن تعانقها، لكنّها عدلت عن الفكرة لأنّ كتفيها كانتا تؤلمانها. لقد أوسعتها أليسا ضربًا، كما أنّ ألم جرح ساعدها كان لا يُحتمل.

– هل صحيح أنّ بريتاني اتّصلت به؟ سألتها روبن.

– هذا ما أخبرني إيّاه، قالت أليسا وهي تمسح عينيها. قال إنّ زوجته السابقة أرادت الإيقاع به، وإنّها دفعت بريتاني إلى الكذب... حذّرني من قدوم فتاة شقراء إلى منزلنا، وقال لي إنّ عليّ ألّا أصغي إليها أبدًا.

تذكرت روبن الصوت الهامس الذي قال لها:

هل أعرفك يا صغيرة؟

لقد ظنّها بريتاني.

لهذا السبب أقفل الخطّ ولم يعد إلى الاتّصال أبدًا.

– الأجدى بي أن أعود، قالت روبن، قلقة من الوقت الذي تحتاج إليه لتعود إلى وست إيلينغ. ستتّصلين بالشرطة، أليس كذلك؟

– أتخيّل ذلك، قالت أليسا، فشكّت روبن في أنّها لم تفكّر في الأمر حتّى الآن. وأضافت: نعم.

سارت روبن مبتعدة وسط الظلام، ويدها تقبض على جهاز الإنذار ضدّ الاغتصاب، متسائلة عمّا يمكن أن تكون بريتاني بروكبانك قد قالته لزوج والدتها عبر الهاتف: لم أنسَ شيئًا. إفعل ذلك من جديد أفضح أمرك. لا بدّ من أنّها شعرت بالارتياح بعد ذلك. لا شكّ بأنّ بريتاني كانت تخشى أن يواصل الإيقاع بضحاياه، ولا يكون فضحها أمره مفيدًا. فالواقع أنّ اعتداءه عليها يعود إلى سنوات كثيرة خلت.

برأيي المتواضع يا آنسة بروكبانك، زوج والدتك لم يمسّك قطّ. أنت ووالدتك اختلقتما هذه الرواية...

كانت روبن تعرف ما يُقال في المحكمة. ولا تزال تتذكّر محامي الدفاع في قضيّتها، وكان رجلًا ساخرًا ذا وجه قاس وماكر.

– كنتِ عائدة من حانة الكليّة، آنسة إيلاكوت. وقد شربتِ هناك كحولًا، أليس كذلك؟ سمعك عدّة شهود تمزحين قائلة إنّك... تشتاقين إلى اهتمام حبيبك بك. صحيح؟ حين التقيت السيد تروين...

– لم...

– حين التقيت السيد تروين أمام مسكن...

– لم ألتقِ...

– قلت للسيد تروين إنّ...

– لم نتحادث...

– برأيي المتواضع يا آنسة إيلاكوت، كنت تخجلين من دعوة السيّد تروين...

– لم أدعه...

– كنت تمزحين في الحانة، أليس كذلك يا آنسة إيلاكوت، قائلة إنّ اهتمام حبيبك... بالمعنى الجنسيّ...

– قلت إنّني أشتاق إليه...

– كم كأسًا شربت، آنسة إيلاكوت؟

كانت روبن تفهم تمامًا لماذا يخاف الناس أن يتكلّموا، فهم يخشون أن يرووا ما عانوه، ويُتّهموا بالكذب، ويُقال لهم إنّ ما تعرّضوا له من إساءة وإذلال هو وليد مخيّلتهم المريضة. كانت هولي، مثلها مثل بريتاني، تخشى مواجهة آثار المحاكمة. لعلّ هذا ما ستشعر به أليسا وأينجل. لكنّ روبن كانت واثقة من أنّ شيئًا لن يردع نويل بروكبانك من مواصلة اغتصاب الفتيات الصغيرات، ما عدا الموت أو السجن. ومع ذلك، كانت ستشعر بارتياح لو علمت أنّ شانكر لم يقتله، لأنّه وفي حال قتله...

– شانكر! صاحت وهي ترى رجلًا ضخمًا يحمل على جسده وشومًا ويرتدي لباسًا رياضيًّا يمرّ تحت أحد مصابيح الطريق.

– ذلك اللعين اختفى يا روب. قال شانكر، الذي بدا غير مدرك أنّ روبن جلست أرضًا طوال ساعتين ترتجف خوفًا من فكرة أنّه قد لا يعود أبدًا. وأضاف: إنّه يركض بسرعة بالنسبة إلى شخص ضخم الجثّة مثله، أليس كذلك؟

– ستعثر الشرطة عليه، قالت روبن التي شعرت فجأة بأنّ ساقيها تخونانها. أعتقد أنّ أليسا ستتّصل بهم. شانكر، هل يزعجك... أن تعيدني بالسيّارة؟

55

Came the last night of sadness
And it was clear she couldn't go on[1]*.*

Blue Öyster Cult, '(Don't Fear) The Reaper'

طوال أربع وعشرين ساعة، لم يعرف سترايك ما فعلته روبن. وحين اتّصل بها ساعة الغداء في اليوم التالي، لم تردّ. كان غارقًا في مشاكله وهمومه الخاصة، ومطمئنًا إلى أنّها في أمان منزلها، ومعها والدتها، لذلك لم يثر عدم اتصالها به استغرابه ولا قلقه. كان سترايك يعتبر أنّ مشكلة روبن لم تُحلّ إلّا مؤقّتًا، وخشي أن تصرّ على العودة إلى العمل إذا ما أطلعها على الرؤيا التي شاهدها أمام المستشفى.

تلك الرؤيا كانت كلّ ما يشغل باله آنذاك. ما الذي يمكن أن يفعله في هذا المكتب الصامت الذي لا يقصده أحد ولا يتصل به أحد؟ لم يكن شيء يتحرك ما عدا الذباب الذي يطنّ قبل أن يفرّ عبر النافذة إلى ضوء الشمس الذي يتخلّله الضباب في الخارج، أو سترايك الذي يدخّن سجائره الواحدة تلو الأخرى.

[1] أتت ليلة الحزن الأخيرة / وكان واضحًا أنّها لا تستطيع الاستمرار.

فكّر في الأشهر الثلاثة التي انقضت منذ وصول الرزمة التي تحتوي على الساق المقطوعة، ورأى كلّ الأخطاء التي تراكمت. كان يجب أن يدرك من هو القاتل منذ اليوم الذي قصد فيه منزل كيلسي بلات. لو أنّه فقط شغّل دماغه، لو أنّه لم يسقط في الأفخاخ التي نصبها القاتل على طول الطريق، لو أنّه لم يسر بلا تبصّر خلف أدلّة تركها مرضى نفسيّون آخرون... فلربّما كان إصبعا ليلا مونكتون لينجوا، ولربّما كانت هيذر سمارت تعمل الآن في شركة التسليفات في نوتنغهام، حازمة أمرها بألّا تعود إلى شرب الكحول كما فعلت في عيد مولد زوجة شقيقها في لندن.

لم يرتقِ سترايك في فرع الاستقصاء الخاص في الشرطة العسكرية بدون أن يتعلّم كيف يتحكّم بردّات الفعل العاطفية الناتجة عن التحقيق. أمضى العشيّة وهو ينعت نفسه بالغبيّ، ويلوم نفسه على تجاهله الدليل. ومع ذلك، كان عليه أن يعترف بأنّه يواجه مجرمًا على درجة عالية من الذكاء. وحده العبقريّ يستطيع أن يفعل ذلك، أي أن يستخدم ماضي سترايك سلاحًا، ويرغمه على التشكيك، على أن يضع نفسه موضع السؤال، على تدمير ثقته بنفسه وبحكمه على الأمور.

فكرة أنّ القاتل كان واحدًا من الرجال الثلاثة الذين اشتبه بهم منذ البداية، لم تكن مصدر ارتياح كبير بالنسبة إليه. كما لا يتذكّر أنّ أيّ تحقيق سبّب له هذا القدر من العذاب النفسي. كان يجلس وحيدًا في مكتبه الخالي، مقتنعًا بأنّ الشرطي لم يبالِ بما قاله له عبر الهاتف، وبالتالي بأنّ كارفر لم يتلقَّ رسالته، ويقول لنفسه، بما يجافي كلّ منطق، إنّه سيكون مسؤولًا عن أيّة جريمة جديدة قد تقع.

ولكن إذا انغمس بالتحقيق من جديد، أي إذا قرّر أن يضع الشخص تحت المراقبة، أو أن يتتبّع أثره، فسيسوقه كارفر أمام المحاكم بتهمة إعاقة سير التحقيق. لو كان مكان كارفر لقام بالأمر عينه، مع فارق وحيد، فكّر سترايك غاضبًا، وهو أنّه كان ليكتم حقده ليصغي أوّلًا إلى كلّ الاقتراحات علّه يجد فيها أثرًا لدليل ما. إذ لا يستطيع محقق حلّ قضيّة بمثل هذا التعقيد مبعدًا شهودًا بذريعة أنّهم كانوا أشدّ مكرًا منه في الماضي.

ذكّرته قرقرة معدته بأنّه على موعد عشاء مع إلين. أخيرًا، اتفقت وزوجها على شروط الطلاق، كما على شروط حضانة الطفلة. قالت لسترايك بالهاتف إنّهما سيستطيعان أخيرًا أن يتناولا عشاء حقيقيًا، وأنّها حجزت مائدة في مطعم غافروش، مضيفة: «على حسابي».

كان سترايك يدخّن ويفكّر في الأمسية التي تنتظره. شعر بأنّها لا تعنيه، لكنّ هذا الشعور كان يختفي حالما يفكّر في سفّاح شاكلويل. الناحية الإيجابية للأمر هي أنّه سيستمتع بوجبة طعام رائعة، وكانت هذه الفكرة تبدو أشدّ إغراء خصوصًا وأنّه مفلس. عشاء الأمس اقتصر على علبة فاصولياء بيضاء وخبز. لا شكّ بأنّها ستصطحبه بعد العشاء إلى شقّتها الجميلة البيضاء، أي إلى المنزل السابق لعائلتها التي تتفكّك، وسيمارسان الحبّ. أمّا الناحية السلبية، وكانت هذه المرة الأولى التي يواجه فيها الأمر، هي أنّ عليه أن يكلّمها. يجب أن يعترف بأنّ الحديث إلى إلين لا يستهويه، وخصوصًا حين يتناول الحديث التحقيقات التي يقوم بها. كانت إلين تهتمّ بتحقيقاته، ولكنها تفتقر بشدة إلى المخيلة. كما لم تكن تملك لا الفضول الفطريّ، ولا التعاطف الطبيعيّ مع الآخرين اللذين يميزان روبن. وحين يحاول سترايك الترفيه عنها بأن يصف لها زبائنه الغريبي الأطوار، مثل «المخدوع مرتين»، كانت تنظر إليه باستغراب، وكأنّها لا تفهم ما يجده طريفًا في الأمر.

كذلك لم يرقه تعبير «على حسابي». فالفرق المتزايد بين نمطي حياتيهما بدأ يزعجه. حين تعرّف سترايك بإلين، لم يكن رجلًا غارقًا في الديون، لكنّ أحواله ساءت، وقد يخيب ظنّها إذا كانت تأمل أن يردّ إليها دعوتها إلى مطعم غافروش في أحد الأيام.

سبق لسترايك أن عاشر امرأة أثرى منه بكثير، وذلك طوال ستة عشر عامًا. كانت علاقة شارلوت بالمال علاقة ملتبسة، فتارة كانت تشهر ثروتها سلاحًا، وطورًا تلوم سترايك على عدم رغبته – أو عدم قدرته – في العيش بما يتجاوز قدراته المالية. يكفيه أن يتذكّر اللؤم الذي كانت شارلوت تقابله به كلّما رفض لها نزوة، لكي ينفر من الطريقة التي قالت لها إلين فيها «عشاء حقيقيّ، لمرّة واحدة على الأقلّ». لم يسبق له حتّى الآن أن تردّد في تسديد

فواتير العشاءات التي التقيا فيها، في المطاعم غير المشهورة، الفرنسيّة والهنديّة، والتي لم يكن زوج إلين السابق يرتادها. هذا المال الذي أنفقه هو نتاج جهده وعمله، ولم يكن يحب قطّ أن يسمع أيّ استخفاف به.

تلك كانت حاله الذهنيّة حين ارتدى أجمل بزّة إيطاليّة يملكها، ومضى إلى مايفاير عند الثامنة من ذلك المساء. لكنّ الحقيقة كانت أنّ القاتل المتسلسل ظلّ شغله الشاغل ومحور الأفكار التي تدور في رأسه المرهق.

يقع مطعم غافروش في أحد المباني ذات الواجهات الفخمة العائد بناؤها إلى القرن الثامن عشر والتي تحيط بشارع بـروك. لكن لا بوّابته المصنوعة من الحديد المشغول، ولا قضبان نوافذه التي تعلوها النباتات المعترشة، ولا بابه الثقيل والمزيّن بالمرايا الذي يوحي بالغنى والاستقرار المـاديّ، كان يتناسب ومـزاج سترايك في ذلك المساء. وصلت إلين بعده بقليل. كانت مائدتهما في قاعة يطغى عليها اللونان الأخضر والأحمر، وجُهّزت بإضاءة مدروسة أبـرزت شراشف الموائد البيضاء، واللوحات ذات الأطر الفخمة. بدت إلين بفستانها الأزرق الضيّق في غاية الجمال. نهض سترايك لتقبيلها، ونسي لبرهة ما كان يزعجه.

– إنّه تغيير جميل لعاداتنا، قالت بابتسامة وهي تجلس على المقعد الوثير الذي يحيط بمائدتهما المستديرة.

طلبا الطعام. كان سترايك يحلم بكوب بيرة لكنه اضطرّ إلى أن يشرب النبيذ الذي طلبته إلين. وتحسّر على عجزه عن التدخين، برغم أنّه استهلك أكثر من علبة سجائر في خلال النهار. إسترسلت رفيقته في الحديث بحماسة. كان بحثها عن شقّة يحقّق بعض النتائج. عدلت عن الشقّة في ستراتا، وباتت تحلم بملكيّة في كامبرويل، في منطقةٍ أسعار عقاراتها آخذة في الارتفاع. عرضت عليه صورة في هاتفها، فنظر بقليل من الاهتمام إلى الأعمدة البيضاء التي بدت له مألوفة.

كان سترايك يشرب وهو يصغي إليها تقارن بين حسنات الانتقال إلى كامبرويل وسيّئاته. كان النبيذ فاخرًا ويستحقّ أن يتذوّقه المرء بسلاسة، لكنّ سترايك راح يبتلعه وكأنّه من النوع الرخيص، آملًا أن يخفّف من شعوره

بالمرارة. ولكن عبثًا. فإحساسه بأنّه في غير مكانه كان يتفاقم. وبدا له ذلك المطعم الفخم، بأضوائه المخففة، والموكيت السميك في أرضه، أشبه بديكور مسرح غير حقيقيّ وقصير العمر. ما الذي يفعله في ذلك المكان، برفقة هذه المرأة الرائعة، ولكن المضجرة جدًّا؟ لماذا يتظاهر بالاهتمام بمشاريعها الباهظة، فيما مكتبه يغرق، وفيما هو الشخص الوحيد في كلّ لندن الذي يعرف هويّة سفّاح شاكلويل؟

وصل طعامهما. كان طبق لحم العجل الذي طلبه لذيذًا جدًّا لدرجة أنّه خفّف قليلًا من شعوره بالكآبة.

– وأنت؟ ماذا فعلت مؤخّرًا؟ سألته إلين بلباقتها المعهودة.

فجأة، وجد سترايك نفسه أمام اختيار صعب. فإذا ما قرّر أن يجيبها بصراحة، فسيكون عليه أن يعترف لها بأنّه أخفى عنها الأحداث الأخيرة، والتي كانت كافية لأن تملأ حياة أيّ إنسان طوال عشر سنوات. سيكون مضطرًّا إلى أن يكشف لها أنّ آخر ضحايا السفّاح، والتي بقيت حيّة، ليست سوى شريكته في العمل. سيكون عليه أن يشرح لها أنّه أقصي عن التحقيق على يد أحد معارفه القدماء، وهو شرطيّ سبق أن أذلّه سترايك خلال تحقيق جنائي حظي بتغطية إعلامية كثيفة. ولكي يكون صادقًا حتّى النهاية يجب أن يقول لها أيضًا إنّه يعرف القاتل. لكنّ مجرّد فكرة أن يخبرها سترايك هذا كلّه كان يُشعره بالضجر والتعب. لم يخطر بباله قطّ أن يتّصل بها ليخبرها عن أي تطوّر في التحقيق. وهذا هو أفضل تفسير لحقيقة علاقتهما.

شرب جرعة جديدة من النبيذ، ما منحه بضع ثوانٍ من التفكير، وقرّر أنّ الوقت حان ليطوي الصفحة. في البداية، سيجد عذرًا لكي لا يمارس الحبّ معها هذا المساء، في كلارنس تيراس. هذا الأمر لا بدّ من أن يثير شكوكها لأنّ الجنس لطالما كان الجزء الأفضل في علاقتهما. وفي المرّة المقبلة سيقول لها إنّ كلّ شيء بينهما انتهى. كان يفضّل ألّا يقول لها شيئًا في الوقت الراهن، ليس فقط لأنّه اعتبر أنّ من غير اللائق أن يقطع علاقته بها في خلال عشاء دعته إليه، ولكن أيضًا لأنّه كان يخشى أن تغادر إلين المطعم وتترك له فاتورة حساب لا شكّ بأنّ مصرفه سيرفض تسديدها.

– في الحقيقة، لم يكن هناك الكثير، قال لها سترايك.

– وبالنسبة إلى موضوع السفّاح...

رنّ جرس هاتف سترايك. أخرجه من جيبه، فرأى أنّ رقم الطالب محجوب، لكنّ حدسه أملى عليه أن يردّ.

– آسف، قال لإلين، أعتقد أنّه يجب...

– سترايك، بدأ كارفر حديثه بلكنته اللندنية التي لا يمكن تقليدها، أنت من طلبت منها أن تفعل ذلك؟

– ماذا؟

– شريكتك اللعينة. أنت مَن أرسلها إلى منزل بروكبانك؟

نهض من مقعده فجأة فاصطدم بطرف المائدة. إنزلقت قطعة اللحم إلى خارج الطبق وسال مرقها الأحمر على الشرشف الأبيض السميك، وسقطت كأس النبيذ فاندلق ما فيها على فستان إلين. نظر إليه النادل فاتحًا فمه، وكذلك فعل الرجل والمرأة الجالسان إلى المائدة القريبة.

– أين هي؟ ماذا جرى؟ صاح سترايك غير عابئ إلّا بصوت كارفر في هاتفه المحمول.

– لقد حذّرتك يا سترايك، صاح الشرطيّ بغضب لم يجهد لإخفائه. طلبت منك ألّا تتدخّل في التحقيق. تبًّا لك. هذه المرّة تماديت كثيرًا...

خفض سترايك هاتفه. كان زعيق كارفر يدوّي في كلّ أنحاء المطعم. وسمعه الزبائن القريبون ينهال على سترايك بسيل من أقذر الشتائم. إستدار سترايك نحو إلين، فرأى فستانها الجميل ملطّخًا بالنبيذ، ووجهها الفاتن منقبضًا في مزيج من الغضب والحيرة.

– يجب أن أذهب، آسف، سأعود للاتصال بك لاحقًا.

لم يلازم مكانه طويلًا ليرى ردّ فعلها، بأيّة حال، لم يكن يكترث.

حين قفز من مقعده، اصطدمت ركبته بالمائدة، ما أرغمه على أن يعرج قليلًا وهو يجتاز القاعة ليندفع إلى الخارج، وهاتفه لا يزال ملتصقًا بأذنه. لم يعد يفهم شيئًا من كلام كارفر، وكلّما حاول سترايك أن يقاطعه، يأمره الآخر زاعقًا بأن يخرس.

– كارفر، إسمعني! صاح سترايك وهو يضع قدمه على الرصيف. لديّ أمر أقوله... اللعنة، هل ستسمعني؟!

لكنّه لم يلاقِ سوى مزيدًا من الصراخ والشتائم.

– أيّها اللعين الضخم، لقد لاذ بالفرار... إخرس، أعرف ما كنت تريد عمله، تبًا... كنّا على وشك القبض عليه يا أحمق. فقد وجدنا الصلة بين الكنيستين! إذا ما... إخرس، أنا أتكلّم! إذا ما عدت للتدخّل مرّة أخرى في تحقيقاتي...

كان سترايك يسير بصعوبة في تلك الليلة الدافئة، فهو يحسّ بالألم في ركبته. كما كان شعوره بالسخط والإحباط يتزايد مع كل خطوة.

كان بحاجة إلى نحو ساعة للوصول إلى شارع هايستنغز. لكنّ كارفر أطلعه على حقيقة ما حدث. فالشرطة استجوبت روبن طوال المساء، ولعلّهم لا يزالون في منزلها حتّى الساعة. دخلت روبن منزل بروكبانك، وبسبب تدخّلها، هرب المشتبه به. تمّ تقديم شكوى اغتصاب قاصر ضدّه، ووُزّعت صورته على كلّ مراكز الشرطة، لكنّه لا يزال متواريًا عن الأنظار.

لم يبلّغ سترايك روبن بوصوله. حين وصل إلى شارع هايستنغز الغارق في الظلام، رأى النور مضاء في نوافذ شقّتها. خرج رجلان من المبنى، عرف سترايك حالًا أنّهما شرطيّان برغم ملابسهما المدنية. دوّى ضجيج الباب وهو يُغلق في صمت الليل. إختبأ سترايك. ذهب الشرطيّان إلى سيّارتهما وهما يتحادثان بصوت منخفض. إنتظر سترايك أن يتواريا عند نهاية الشارع قبل أن يقترب من الباب الأبيض ويرنّ الجرس.

سمِع صوت ماثيو الغاضب يقول من خلف الباب «ظننتُ الأمر انتهى». لا بدّ من أنّه كان يظنّ أنّ أحدًا في الخارج لا يسمعه، لأنّه كان يرسم على شفتيه ابتسامة حين فتح الباب، سرعان ما اختفت حين عرف الزائر.

– ماذا تريد؟

– يجب أن أكلّم روبن.

من الواضح أنّ ماثيو لم يكن ينوي أن يدعه يدخل. وآنذاك ظهرت ليندا في المدخل.

– أوه، قالت حين رأت سترايك.

وجدها سترايك وقد ازدادت نحولًا منذ لقائهما الأوّل، وبدت أكبر سنًّا. لا شكّ بأنّ ذلك يعود إلى أنّ ابنتها كادت تموت قتلًا، وذهبت بملء إرادتها إلى منزل معتد جنسيّ، حيث تعرّضت لاعتداء جديد. شعر سترايك بالغضب يغلي في صدره. سينادي روبن إذا اقتضى الأمر، وسيطلب منها أن توافيه عند الباب. لكنّها سرعان ما ظهرت خلف ماثيو. هي أيضًا بدت أكثر شحوبًا ونحولًا من قبل. وكالعادة وجدها أجمل ممّا يتذكّره عنها، لكنّ ذلك لم يجعله أكثر تسامحًا.

– أوه، قالت، تمامًا مثلما فعلت أمّها قبل ثوان قليلة.

– أرغب في أن نتحادث، قال سترايك.

– حسنًا، أجابت روبن وهي ترفع ذقنها بكبرياء، ما جعل شعرها الأشقر يتراقص فوق كتفيها. إلتفتت إلى أمّها، وإلى ماثيو، ثمّ عادت لتنظر إلى سترايك وقالت له: في المطبخ، هل يناسبك الأمر؟

تبعها في الرواق حتى وصلا إلى المطبخ الصغير، حيث وجد طاولة وكرسيّين في إحدى الزوايا. أغلقت روبن الباب خلفهما. ظلاّ واقفين. رأى بقرب المجلى أطباقًا وسخة، وظهر أنّهم كانوا يأكلون المعكرونة قبل وصول الشرطة لاستجواب روبن. كان في ذلك المشهد ما يثير الصدمة. لم يتقبّل أن تكون روبن قد أمضت أمسية عاديّة جدًّا بعد المصيبة التي تسببت بها. ومع ذلك فقد كان ينوي الحفاظ على برودة أعصابه.

– قلت لك ألّا تقتربي من بروكبانك.

– نعم، أجابت روبن بنبرة لامبالاة زادت من سخطه. أعلم.

تساءل سترايك عمّا إذا كانت ليندا وماثيو يصغيان إليهما من خلف الباب. كانت رائحة ثوم وطماطم قويّة تفوح في المطبخ. وعلى رزنامة فريق الرغبي الإنكليزي المعلّقة على الجدار، كان تاريخ 30 حزيران/يونيو محاطًا بخطّ عريض، وكُتب تحته المنزل – الزواج.

– ومع ذلك قرّرتِ الذهاب، قال سترايك.

كانت صور عنيفة تتدافع في ذهنه وكأنّه يفرّج بها عن غضبه. فقد تخيّل نفسه مثلًا يحمل سلّة المهملات ويقذف بها عبر زجاج النافذة الذي يغشاه البخار. لكنّه في الواقع بقي واقفًا حيث هو، وقدماه الكبيرتان على الأرضيّة القديمة، ينظر إلى وجه روبن الشاحب. كانت الفتاة تنظر إليه بعناد.

– لست نادمة على شيء، قالت، كان يغتصب...

– كارفر مقتنع بأنّني أنا مَن أرسلتك إلى هناك. توارى بروكبانك عن الأنظار. وهو الآن مختبئ في مكان ما بسببك. ما ستكون ردّة فعلك إذا قرّر أن يقطّع ضحيّته المقبلة قطعًا قطعًا لِيحول دون أن تفضح أمره؟

– إيّاك أن تحمّلني مسؤولية ذلك! ردّت روبن بنبرة عالية. هذا كثير! أنت مَن ضربته يوم اعتقاله! لو لم تضربه لربما دخل السجن!

– هذا ما يبرّر تصرّفك، أليس كذلك؟

لم يمتنع سترايك عن الصراخ إلّا لأنّه سمع صوت خطوات ماثيو الذي كان يروح ويجي في الممشى وهو يظنّ أنّ أحدًا لا يسمعه.

– أينجل بمأمن الآن. إذا كان هذا ما تسمّيه تصرّفي...

– مكتبي سيقفل بسببك، قال سترايك بصوت هادئ جدًّا لدرجة أن الدهشة عقدت لسان روبن. مُنعنا من الاقتراب من المشتبه بهم، ومن التدخّل في هذا التحقيق. لكنّ شيئًا لم يردعك. وقد توارى بروكبانك الآن، ولن تلبث الجرائد أن تنقضّ عليّ. سيقول لهم كارفر إنّني أفسدت كلّ شيء، وسيسلخون جلدي حيًّا. لكنك لا تبالين، أضاف وقد شحب لونه من شدّة الغضب. لا تبالين بأن تعرفي أنّ الشرطة وجدت صلة بين كنيسة كيلسي والكنيسة التي كان بروكبانك يرتادها في بريكستون.

شعرت روبن بالصدمة.

– كنت.. أجهل... أنّ...

– لمَ انتظار النتائج؟ سأل سترايك. بدت عيناه تحت ضوء مصباح النيون المثبت في السقف كبئرين لا قاع لهما. لمَ الانتظار، حيث يمكننا اقتحام منزل أحد المشبوهين ومنحه فرصة الهروب قبل وصول الشرطة؟

ذهول روبن تركها عاجزة عن أن تنبس ببنت شفة. كان سترايك ينظر إليها وكأنّه لم يعد يعرفها، وكأنّهما لم يعيشا معًا كلّ تلك التجارب التي نسجت بينهما رابطًا لا مثيل له. إنتظرت أن تراه يلكم الجدران، والخزائن. حتّى أنّها اعتقدت أنّ الغضب قد يحمله على...

– إنتهى كلّ شيء بيننا، قال سترايك.

وجد لذّة خبيثة في رؤية وجهها يمتقع وينقبض برغم كلّ الجهود التي بذلتها لتخفي انفعالها.

– أنت لا تفكّر...

– لا أفكّر في ما أقول؟ أتعتقدين أنّني بحاجة إلى شريكة لا تتبع تعليماتي، وتفعل عكس ما أقوله لها، وتجعلني أبدو مخادعًا في عيني الشرطة، ومغفّلًا لدرجة أنّ مشتبهًا به توارى أمام أعين الشرطة التي كانت على وشك القبض عليه؟

أمام هذا النقد اللاذع، تراجعت روبن خطوة إلى الخلف فاصطدمت بالرزنامة التي سقطت وسط صوت تمزّق أوراقها. لكنّها لشدّة انفعالها لم تسمع صوت سقوطها. كادت تفقد الوعي. لقد تخيّلت كلّ شيء. كانت تتوقّع منه أن يهدّدها بالطرد، لكنّها لم تفكّر للحظة أنّه سيقوم بذلك فعلًا، وأنه سيقضي بحركة واحدة على كل ما فعلته من أجله – التعرّض للخطر، والإصابة، وحدسها السليم، والوقت الهائل الذي قضته في الشارع تقوم بالمراقبة – فقط بسبب خطأ وحيد ارتكبته من غير سوء نيّة. حتّى أنّها لم تجد القوّة للردّ عليه، للدفاع عن نفسها، لأنّ التعبير الذي ارتسم على وجه سترايك لم يكن يوحي إلّا بالملامة الكبيرة وبأنّ خطأها لا يمكن أن يُغتفر. كانت تعيش منذ ساعات قلق أن تراه يأتي إلى منزلها لتوبيخها، لكنّها قاومت ذلك الشعور بتخيّلها صورة إينجل وأليسا متعانقتين على الكنبة، بفكرة أنّ عذاب أينجل قد انتهى، وبأنّ أمّها تصدّقها وتدعمها. لم تجرؤ آنذاك على أن تخبر سترايك بشيء. أمّا الآن فقد ندمت على ذلك.

– ماذا؟ تمتمت، بعد أن سمعته يطرح عليها سؤالًا.

– مَن أخذت معك؟

– هذا الأمر لا يعينك، همست قائلة بعد تريّث قصير.

– قالوا إنّه هدّد بروكبانك بسك... شانكر! صاح سترايك. زادت الحقيقة التي ظهرت أمام وجهه من حنقه. وللحظة، رأت روبن في وجه سترايك تعبيرًا تعرفه حقّ المعرفة. كيف حصلت على رقم هاتفه؟

لكنّها كانت عاجزة عن أن تتفوّه بكلمة واحدة. وأيّ فرق في ذلك، ما دام قد طردها من العمل؟ كانت تعلم أنّ سترايك حين يقرّر أن يقطع علاقته بشخص ما، لا يعود أبدًا إلى الوراء. أمضى ست عشرة سنة من حياته مع شارلوت، ولكنّه لم يخبرها شيئًا عمّا استجدّ في حياته بعدما انفصلا، في حين حاولت هي استعادة الاتصال بينهما.

إستدار سترايك ينوي الانصراف. تبعته روبن في الممشى. كانت ساقاها مخدّرتين، وبدت ككلب مضروب يزحف خلف سيّده متوسّلًا عفوه.

– طابت ليلتكما، قال لليندا وماثيو اللذين دخلا غرفة الاستقبال.

– كورموران... همست روبن.

– سأرسل إليك راتب شهرك الأخير، وينتهي الأمر هنا. لقد ارتكبتِ خطأً فادحًا.

أغلق الباب خلفه. سمعت روبن صوت حذائه الضخم يسير فوق الممشى القصير أمام المبنى. إختنقت بغصّة في حلقها، وسالت الدموع من عينيها. إندفعت ليندا وماثيو إلى المدخل، لكنّهما لم يصلا في الوقت المناسب، فقد دخلت روبن الغرفة لئلاّ تواجه سحنتيهما السعيدتين وانشراحهما لرؤيتها تتخلّى أخيرًا عن حلمها بأن تصبح محقّقة.

56

When life's scorned and damage done
To avenge, this is the pact[1].

Blue Öyster Cult, 'Vengeance (The Pact)'

عند الرابعة من صباح اليوم التالي، لم يكن سترايك قد عرف طعم النوم بعد. وكان لسانه يؤلمه لأنّه أمضى الليل كلّه تقريبًا وهو يدخّن جالسًا إلى مائدة المطبخ، ومستعيدًا في ذهنه الأفكار السوداء، كخسارة زبائنه، ومكتبه. أمّا روبن فقد فضّل أن يتركها في إحدى زوايا عقله البعيدة. وبدأ الغضب الهائل الذي استبدّ به في المساء يتفتّت كطبقة سميكة من الجليد بدأت تذوب. لكنّ ما تحت تلك الطبقة لم يكن أقلّ إثارة للغضب. لا شكّ بأنّ خطوة روبن يمكن فهمها. أيّ أمر هو بديهيّ أكثر من السعي إلى إنقاذ ضحيّة بروكبانك الصغيرة؟ ألم يضرب بنفسه ذلك القذر – كما ارتأت روبن أن تذكّره – بعدما شاهد فيلم فيديو للتحقيق مع بريتاني؟ ما لم يتقبّله هو أنّها فعلت ذلك غفلة عنه، وبمساعدة شانكر، في حين أوضح له كارفر أنّ عليه ألّا يتحرّك. قلب علبة سجائره، فاكتشف أنّها فارغة. بدأ الغضب يغلي في عروقه.

[1] حين تكون الحياة محتقرة، ويقع الخطأ / يجب الانتقام، هذا هو الميثاق.

آنـذاك نهض، وأخذ مفاتحيه وغادر منزله، وهو لا يزال مرتديًا البزّة الإيطاليّة عينها. كان الفجر يطلع حين وصل إلى شايرينغ كروس رود، وضوؤه الشاحب يلوّن كلّ شيء بلون رماديّ فاتح. إشترى علبة سجائر من دكان صغير في كوفنت غاردن، وعاد يسير في الشوارع مدخّنًا، وشاردًا في أفكاره.

بعد ساعتين من السير، اتّخذ سترايك قرارًا. عاد أدراجه قاصدًا مكتبه، ولكنّه حين مرّ في شايرينغ كروس رود، رأى نادلة بفستان أسود تفتح أبواب مقى فرنيانو 1882، وتذكّر أنّه يتضوّر جوعًا.

إستقبلته عند المدخل رائحة أخّاذة لأثاث المقهى الخشبيّ وللبنّ المطحون حديثًا. جلس في مقعد مريح مصنوع من خشب السنديان، ثمّ استعاد في ذاكرته مجريات الأمس. شعر بالاستياء حين أدرك أنّه ومنذ اثنتي عشرة ساعة، يدخّن السيجارة تلو السيجارة، ونام بملابسه، وأكل لحمًا وشرب نبيذًا أحمر بدون أن ينظّف أسنانه بعد ذلك. رأى في المرآة القريبة منه أنّه في أسوأ مظهر ممكن. وحين طلب شطيرة بالجبن والجمبون، وقنينة ماء وفنجان قهوة إسبرسو مزدوجًا، حرص على ألّا تشمّ النادلة الشابة رائحة أنفاسه.

فيما أخذ إبريق القهوة النحاسيّ يصفر فوق طاولة العمل، عاد ليغرق في أفكاره. كان هناك سؤال يقلقه، ويريد أن يجد له إجابة صادقة.

هل كان أفضل من كارفر؟ ما السبب الحقيقيّ للقرار الذي أخذه؟ هل اختار الحلّ الأكثر مجازفة لأنّها الوسيلة الوحيدة للقبض على القاتل؟ أم هو يدرك أنّه، إذا ما نجح في تحقيق الأمر – باعتباره الشخص الوحيد القادر على اكتشاف القاتل وإيداعه السجن – فسيتمكّن من إنقاذ مكتبه، وسمعته، ويعود ليكون في عيون الجميع الرجل الذي نجح حيث أخفقت الشرطة؟ باختصار، هل الحاجة أم الغرور ما يدفعه لأن يسلك دربًا قد يعتبرها معظم الناس متهوّرة وغير واقعية؟

أحضرت إليه النادلة شطيرته والقهوة. بدأ سترايك بالأكل محملقًا في الفراغ أمامه، وأكثر انشغالًا من أن يتذوّق طعم ما يأكله.

أثارت سلسلة الجرائم التي وقعت في أوساط الجمهور اهتمامًا قلّ نظيره في أي تحقيق آخر. لا شكّ بأنّ الشرطة باتت تملك كمًّا هائلًا من المعلومات،

ومضطرّة إلى البحث في كلّ الأدلّة، والتي يراهن سترايك على أنّ أيًّا منها لن يقودهم إلى القاتل الذي يزدريهم منذ أسابيع بموهبة مذهلة.

يمكنه طبعًا أن يحاول الاتصال بأحد رؤساء كارفر. لكنّه ليس قدّيسًا، ويشكّ في أن يسمحوا له بالاتصال بمفوّض. وهبْ أنّه نجح بالاتّصال بأحد المفوّضين فهذا الأخير سيرفض الاعتراف بفشل رجاله، وهو أمر مفهوم تمامًا. كما أنّ محاولة الالتفاف على كارفر ستزيد الأمور سوءًا بالنسبة إليه، لأنّ الشرطة مقتنعة بأنّ سترايك يعمل على تشويه صورة الشخص المسؤول عن التحقيق.

وفوق ذلك كلّه، لم يكن سترايك يملك دليلًا واحدًا. كانت لديه فقط فرضيّة. وعدا عن ضعف احتمال أن يقبل أحد أفراد الشرطة بالإصغاء إليه والسير بإرشاداته، فإنّ أيّ تأخير إضافيّ قد تنتج عنه التضحية بحياة أخرى.

لاحظ مدهوشًا أنّه أكل شطيرته كلّها. لكنّه ظلّ يشعر بالجوع، فطلب شطيرة ثانية.

لا، فكّر بحزم مفاجئ، لا توجد أيّة طريقة أخرى للعمل.

يجب شلّ قدرة ذلك الوحش على إلحاق الأذى. وللمرة الأولى كان سترايك قادرًا على أن يسبقه. لكنّه ومع ذلك أراد أن يريح ضميره ويثبت لنفسه أنّ ما يحفّزه فعلًا هو اعتقال القاتل، لا المجد الذي قد يجنيه من ذلك. فأخذ هاتفه واتصل بالمفتش ريتشارد أنستيس. لم يكن على علاقة ممتازة بأنستيس، لكنّ سترايك أراد أن يطمئن باله ويتأكّد من أنّه جرّب كل شيء لإبلاغ الشرطة وتركها تتصرّف بدلًا منه.

بعد انتظار طويل، سمع رنّة غير مألوفة، ولم يجب أحد. كان أنستيس يقضي إجازة في الخارج. فكّر سترايك في أن يترك له رسالة، ثمّ عدل عن الفكرة. بأية حال، لن يكون أنستيس البعيد عن مسرح الأحداث قادرًا على أن يفعل شيئًا. كان سترايك يعرف زوجة المفتش وأولاده، وأدرك أنّ الرجل بحاجة ماسّة إلى إجازة، وأنّ اتصاله به لن يفيد إلّا بأن يفسد عليه إجازته.

أقفل سترايك الخطّ، وراح يدقق بدون تركيز في الاتصالات الأخيرة التي وردته. لم يترك كارفر رقمه، وظهر أمامه اسم روبن. شعر بانقباض في قلبه.

كان متعبًا، نفسيًا وجسديًا، كما كان حانقًا عليها بشدّة. ولكنّه يتوق إلى سماع صوتها. وضع الهاتف على الطاولة بحركة حازمة، ومدّ يده إلى جيب سترته الداخليّ ليأخذ قلمًا ودفترًا.

وفيما راح سترايك يلتهم شطيرته الثانية، بدأ بكتابة لائحة:

1. الكتابة إلى كارفر.

أمل سترايك بهذه الوسيلة أن يرتاح من عبء الضمير، وأن يحمي نفسه في الوقت عينه. يدرك أنّ سكوتلنديارد لا بدّ من أن تكون غارقة في سيل من الرسائل الإلكترونية الواردة من شهود محتملين، ويشكّ في وصول رسالته إلى كارفر خصوصًا وأنّه يجهل عنوان بريده الخاصّ. من الظواهر الثقافيّة أن يولي الناس عمومًا أهمية أكبر للرسائل المكتوبة بالحبر على ورق، خصوصًا حين يكون عليهم التوقيع على إشعار بالاستلام لينالوا الحقّ بقراءتها. لا بدّ من أن تحظى رسالة مكتوبة بالأسلوب القديم، ومرسلة بالبريد المضمون مع إشعار بالاستلام، بكلّ الفرص الممكنة للوصول إلى مكتب كارفر. وبهذه الطريقة يترك سترايك أثرًا – تمامًا مثلما فعل القاتل – يثبت على نحو لا يقبل الشكّ أنّه جرّب كلّ شيء من أجل لفت نظره. وهذه الرسالة ستفيده كثيرًا يوم يلتقون جميعًا أمام القضاء، وهو ما سيحدث بلا شكّ، أيًّا تكن نتيجة الخطّة التي أعدّها سترايك وهو يجتاز كوفنت غاردن مع ساعات الصباح الأولى.

2. قارورة غاز (بروبان؟)

3. سترة بألوان مشعّة

4. إمرأة – مَن؟

أبعد قلمه ونظر إلى الصفحة بوجه مهموم. وبعد وقت طويل من التفكير، أرغم نفسه على أن يكتب:

5. شانكر

وهذا ما قاده إلى أن يضيف السطر التالي:

6. العثور على 500 جنيه (أين؟)

وأخيرًا، وبعد دقيقة أخرى من التردّد:

7. نشر إعلان للبحث عن بديلة لروبن.

57

Sole survivor, cursed with second sight,
Haunted savior, cried into the night[1].

Blue Öyster Cult, 'Sole Survivor'

مرت أيام أربعة. في البداية، كانت روبن التي شلّتها الصدمة والتعاسة تأمل، بل تعتقد، أنّ سترايك سيتصل بها، ويعتذر عمّا قاله، ويدرك خطأه. عادت ليندا إلى ماشام. صحيح أنّها أظهرت لروبن لطفًا وتعاطفًا لا حدود لهما، لكنّ روبن كانت تعتقد أنّ والدتها تستمتع سرًّا بفكرة ألّا تعود ابنتها إلى العمل مع سترايك أبدًا.

من جهته، قدّم لها ماثيو دعمًا وعزاءً كبيرين. وقال إنّ سترايك لم يعرف كيف يقدّر فرصة وجود مساعِدة بذكاء روبن إلى جانبه. وأحصى كلّ الخدمات التي قدّمتها له، بدءًا بقبولها براتب ضئيل مقابل ساعات عمل غير معقولة. وذكّرها بأنّ وضعها كشريكة لم يكن سوى خدعة، كما عدّد لها كلّ ما قصّر ربّ عملها في القيام به: فسترايك لم يجعل شراكتهما رسميّة، ولم يدفع لها بدل الساعات الإضافيّة، كما ألقى دائمًا على عاتق روبن مهمّة إعداد الشاي أو الخروج لشراء الشطائر.

[1] ناجٍ وحيد، حلت لعنة البصيرة / منقذ مسكون بروح غريبة، يصرخ في الليل.

لو أنّ ماثيو ساق هذا النوع من الاتّهامات ضدّ ربّ عملها قبل أسبوع، لدافعت روبن عنه، ولقالت إنّ ساعات العمل الزائدة هي من طبيعة مهنتهما، وإنّ المطالبة بزيادة راتب ليست في محلّها نظرًا إلى الصعوبات الماديّة التي يمرّ بها المكتب، وإنّ سترايك يعدّ الشاي أيضًا. ولأَضافت أنّ سترايك لم يتردّد في إنفاق القليل من المال الذي يملكه ليدفع لها نفقة تدريب على تقنيات الملاحقة، وأنّ من غير الواقعيّ أن تنتظر منها أن يعاملها معاملة الندّ للندّ وهو الشريك الرئيسيّ في المكتب، والمستثمر الوحيد، والعضو المؤسس فيه.

لكنّ روبن لم تقل شيئًا من ذلك كله، لمجرّد أنّ الكلمات الأخيرة لسترايك لا تزال تطنّ في أذنيها: لقد ارتكبتِ خطأً فادحًا. كانت ذكرى تلك الكلمات الرهيبة تساعدها على التظاهر بالغضب أمام ماثيو، وإيهامه بأنّها تشاطره وجهة نظره، وبأنّها تستطيع بسهولة أن تغيّر هذه المهنة التي لطالما عنت لها الكثير، وبأنّ سترايك لا يملك أيّ حسّ إخلاقيّ لأنّه يعجز عن تقديم سلامة أينجل على أيّ اعتبار آخر. لم تكن روبن تملك الطاقة ولا الإرادة المطلوبتين لإطلاع ماثيو على تناقضاتها الشخصية، بعدما بدرت منه ردّة فعل سيئة جدًّا حين علم أنّها ذهبت إلى منزل بروكبانك.

مكثت تنتظر كل يوم أخبارًا من سترايك، ولكن عبثًا. وكلّ يوم كانت تشعر أكثر بالضغط الذي يمارسه خطيبها عليها. كان يريدها أن تقول إنّ زواجهما سيعوّض تعويضًا وافيًا عن خسارتها لوظيفتها، وإنّ هذا الزواج بات شغلها الشاغل الوحيد. تعبت روبن كثيرًا من التظاهر بالسعادة في حضوره، وكانت كلّ يوم تنتظر بفارغ الصبر موعد انصرافه إلى المكتب. حينئذ فقط تستطيع أن تتنفّس. وكلّ مساء، تمحو قبل عودتها تاريخ بحثها على الكومبيوتر. فقد كانت تمضي معظم وقتها على الإنترنت بحثًا عن معلومات حول التحقيق، أو في كتابة اسم سترايك في محرك البحث في غوغل.

عشيّة يوم رحيلهما، عاد ماثيو إلى المنزل حاملًا عددًا من سان، وهي الجريدة التي لم يكن يشتريها قطّ.

– لماذا أحضرت هذه الجريدة؟

تردّد ماثيو في الإجابة، فأحسّت روبن بانقباض في معدتها.

– هل وقعت جريمة أخرى؟

ومع ذلك، كانت تعرف أنّ القاتل لم يقتل ضحيّة جديدة، فهي تتابع الأخبار على مدار الساعة.

قلّب ماثيو نحو عشر صفحات قبل أن يناولها الجريدة، وعلى وجهه تعبير لا يمكن تفسيره. وقعت روبن على صورة لها مرتدية معطفها الواقي من المطر، وهي تخرج من المحكمة حيث أدلت بشهادتها في القضيّة التي حظيت بتغطية إعلاميّة كبيرة، والتي انتهت بإدانة قاتل أوين كواين. كما رأت في داخل صورتها صورتين صغيرتين، إحداها لسترايك، منتفخ الوجه، وكأنّه استيقظ حديثًا بعد ليلة قضاها بمعاقرة الكحول، والصورة الأخرى للعارضة الفاتنة التي قُتلت. وفي الأسفل قرأت العنوان التالي:

المحقق في قضيّة لاندري يبحث عن سكرتيرة جديدة

كورموران سترايك، المحقق الخاص الذي حلّ لغز جريمة قتل العارضة الشهيرة لولا لاندري، والكاتب أوين كواين، انفصل عن مساعدته الجميلة روبن إيلاكوت، 26 عامًا.

وقد نشر المحقق إعلانًا عبر الإنترنت يقول: أنت تملكين خبرة في التحقيق الجنائيّ، أو كنت سابقًا من أفراد الجيش أو قوى الأمن، وترغبين في متابعة...

لم تستطع روبن إكمال قراءة الفقرات التالية. كانت المقالة تحمل توقيع دومينيك كالبيبر، وهو صحفيّ على معرفة شخصيّة بسترايك، ويلجأ إلى خدماته حين يفتقر إلى الأخبار. لا بدّ من أنّ سترايك أوصل المعلومة إليه ليضمن أوسع انتشار لها.

أخطأت روبن حين ظنّت أنّها بلغت قاع الحزن. ها هو البرهان، أمام عينيها. فسترايك لن يعود عن قراره، بعد كلّ ما فعلته لأجله. لم تكن في عينيه أكثر من سكرتيرة، أو مساعِدة، لا شريكة أو نظيرة. سكرتيرة يوظفها المرء ثمّ يرميها. وها هو يبحث عمّن يستبدلها بها، عن امرأة سبق أن عملت في الجيش أو الشرطة، وذات انضباط، ومستعدة لإطاعة الأوامر.

إستبدّ بها الغضب. واضطرب في عينيها كلّ شيء: مدخل المنزل والجريدة وماثيو الذي ينظر إليها متظاهرًا بالأسف لحالها. كان على روبن أن تبذل جهدًا لئلاّ تدخل غرفة الاستقبال، وتأخذ هاتفها المحمول الذي تشحنه هناك، وتتصل بسترايك. عدّة مرّات عنّ لها أن تفعل ذلك في الأيام الأربعة الأخيرة لتطلب منه، بل لتتوسّل إليه، أن يعيد التفكير.

أمّا الآن فلم يعد الأمر واردًا. الآن، لا تريد سوى أن تزعق في أذنيه، وتلقيه إلى أسفل درك ممكن، وتتهمه بالجحود، والنفاق، والخيانة...

حين التقت عيناها المتّقدتان ألمًا عينَي ماثيو، لمحت تعبيرًا – سارع إلى تغييره – يشي بغبطة كبيرة. لم يكن يصدّق أنّ غريمه قد كشف عن وجهه الحقيقيّ. لا بدّ من أنّه استعجل العودة إلى المنزل حاملًا هذه الجريدة. كان قلق روبن أمرًا ضئيلًا بالمقارنة مع نشوة خطيبها حين أدرك أنّها لن ترى سترايك بعد اليوم.

تجنّبًا لإهانته، أدارت وجهها ومضت إلى المطبخ. إذا تشاجرا، فسيعني هذا أنّ سترايك قد فاز. لن تسمح لربّ عملها السابق بتلويث علاقتها بالرجل الذي يجب عليها... بل بالرجل الذي تريد الزواج به بعد ثلاثة أيّام.

أطلقت شتيمة لأنّ الماء المغليّ تناثر عليها وهي تضع السباغيتي في المصفاة.

– معكرونة من جديد؟ سألها ماثيو متذمّرًا.

– نعم، ردّت بجفاف. هل في الأمر مشكلة؟

– لا، لا، قال ماثيو مستدركًا خطأه، وهو يقترب منها من الخلف ليطوّقها بذراعيه. ثم قال لها، ووجهه في شعرها: أحبّك.

– أنا أيضًا أحبّك، أجابت روبن في ردّ فعل آليّ.

إمتلأت سيّارة اللاند روفر حتى السقف. حمّلاها كلّ ما قد يحتاجان إليه خلال إقامتهما في الشمال، وليلة الزفاف في فندق سويندون بارك، وشهر عسلهما في أحد البلاد الحارّة. لا تزال روبن تجهل وجهتهما الحقيقية. إنطلقا عند العاشرة من صباح اليوم التالي، مرتديين قميصي تي شيرت مناسبين لذلك النهار المشمس. حين صعدت روبن بالسيارة، تذكّرت ذلك الصباح الضبابي

في نيسان/أبريل حين لحق بها ماثيو في الشارع، وهي تقود السيارة وفي ذهنها فكرة واحدة: الهروب واللحاق بسترايك.

كانت روبن تقود بشكل أفضل من ماثيو، ولكنّه هو مَن يصرّ على القيادة في كلّ مرة يسافران معًا بالسيّارة. وحين وصلا إلى طريق M 1 كان يدندن أغنية Never gonna leave your side، للمغني دانيال بدينغفيلد، وهي أغنية قديمة تعود إلى زمن دخولهما الجامعة.

– هلاّ توقفت عن غناء هذه الأغنية؟ قالت فجأة روبن التي لم تعد قادرة على أن تتحمّل.

– آسف، قال لها مدهوشًا، بدت لي أغنية مناسبة.

– لعلها تثير لديك ذكريات جميلة، قالت روبن وهي تنظر عبر النافذة، لكنّها ليست حالي.

رأته بطرف عينها يلتفت نحوها قبل أن يعود للنظر إلى الطريق. وبعدما سارا كيلومترين، ندمت على ردّة فعلها الخشنة تجاهه.

– لكن بوسعك أن تغنّي شيئًا آخر إذا أردت.

– لا بأس.

حين وصلا إلى طريق دونينغتون بارك، كانت الحرارة قد انخفضت قليلًا. توقفا ليشربا القهوة في مقهى كوستا. ذهبت روبن إلى المرحاض تاركة سترتها على ظهر كرسيها. مطّ ماثيو ذراعيه ما رفع مقدّم قميصه قليلًا، ولكن بما يكفي للفت انتباه النادلة الواقفة خلف طاولة العمل. شعر ماثيو بالسرور من نفسه، ومن الحياة بشكل عامّ، فبادرها بابتسامة عريضة أرفقها بغمزة. إحمرّت الفتاة وضحكت، والتفتت نحو زميلتها التي رأت ما جرى، فبادلتها التفاتتها بنظرة احتقار.

رنّ الهاتف في سترة روبن. إفترض ماثيو أنّ ليندا هي المتصلة لمعرفة إذا كانا سيصلان قريبًا، فمدّ ذراعه بكسل وأخذ الهاتف، مدركًا أنّ النادلتين تنظران تمامًا إلى ما يجري.

كان سترايك هو المتصل.

نظر ماثيو إلى الهاتف المحمول الذي كان يرتجّ في يده كعنكبوت سامّة أمسك بها. ثمّ رفع بصره، فلم يرَ روبن. فتح الخطّ ثمّ سارع إلى إغلاقه، وظهرت على الشاشة عبارة «اتصال فائت من كورم».

ذلك الوغد الكبير يريد استعادة روبن، هذا واضح. أمضى سترايك خمسة أيّام طويلة ليدرك أنّه لن يجد أحدًا أفضل منها. لعلّه بدأ يستقبل طالبات الوظيفة، بدون أن يجد بينهنّ مَن تستحقّ العمل. لعلّ الفتيات سخرن منه حين عرض عليهنّ الراتب البائس الذي ينوي دفعه.

عاد الهاتف ليرنّ من جديد. إتصل سترايك ليتأكّد من أنّ روبن لم تقفل الخطّ خطأً. كان ماثيو يتأمّل الهاتف، مشدوهًا. ماذا يفعل؟ يردّ ويقول له أن يدعها وشأنها؟ لا. هو يعرف الرجل، سيصرّ حتّى يجد روبن ويكلّمها.

إنطلق إنذار ورود رسالة صوتية. وفي اللحظة عينها فكّر ماثيو في أنّ ما من شيء أسوأ من الاعتذارات الصوتيّة المسجّلة، فقد تسمعها روبن مرات عدّة حتى يرقّ قلبها...

فجأة، رآها عائدة من المرحاض. وبدلًا من أن يترك الهاتف، نهض وتظاهر بأنّه يكلّم أحدًا.

– هذا أبي، قال لروبن وهو يخفي الميكرو راجيًا ألّا يتصل سترايك في الحال. وأضاف: بطارية هاتفي فرغت... أعطيني كلمة السرّ الخاصة بهاتفك. أريد التحقق من مسألة تتعلق برحلة الطيران إلى شهر العسل. أبي يريد أن يعرف...

أعطته كلمة السرّ.

– إعذريني قليلًا، لا أريدك أن تسمعي مكالمتنا.

ثمّ ابتعد ومشاعره تتأرجح بين الذنب والفخر ببراعته في المبادرة.

دخل إلى مرحاض الرجال، واستعمل كلمة السرّ. كان محو اتصال سترايك يعني محو كلّ تاريخ الاتصالات وهو ما فعله. ثمّ انتقل إلى البريد الصوتيّ، وأصغى إلى رسالة سترايك، ثمّ حذفها أيضًا. وفي النهاية دخل إلى إعدادات الهاتف ومنع رقمه من الوصول إلى هاتفها.

تنفّس ماثيو بعمق، ونظر إلى انعكاس وجهه الوسيم في المرآة. كان سترايك قد وعدها في رسالته الصوتية بأنّه لن يعاود الاتصال بها إذا لم تردّ. فكّر ماثيو بقلق في أنّ الزواج سيتمّ بعد ثمانٍ وأربعين ساعة. وأمل أن يفي سترايك بوعده.

58

Deadline[1]

كان منهوكًا، وعلى وشك أن يصاب بنوبة عصبيّة. شعر بأنّه ارتكب حماقة ما. وفي المترو الذي يسير متأرجحًا في اتّجاه الجنوب، تشبث بالحلقة المتدلّية من السقف بقوّة، لدرجة أنّ مفاصل يده كلها زال منها الدم. وكان عليه، من أجل قراءة أسماء المحطّات، أن يمعن النظر بعينيه الحمراوين والمنتفختين من خلف نظارته الشمسية.

في هذا الوقت، كان صوت الشيء يتردد في رأسه، وهي تزعق بكل قواها.

– لا أصدقك. إذا كنت تعمل ليلًا، أرني المال. لا. يجب أن أكلمك. لا، لن تخرج مجددًا...

ضربها. يعترف بأنّه أخطأ في ذلك. وهو منذ ذلك الحين يرى تعبير الخوف الذي ظهر على وجهها وعينيها اللتين جحظتا دهشة، ويدها التي وضعتها على خدّها الأبيض حيث تركت أصابعه آثارًا حمراء.

في النهاية، الخطأ خطأها هي. ما كان على تلك الساقطة أن تستفزّه بهذا القدر. إنّها تنهكه منذ أسبوعين. حين عاد إلى المنزل منذ أيّام، أخبرها أنّه مصاب بالحساسية ليبرّر لها سبب امتلاء عينيه بالحبر الأحمر. ولكنّ تلك العاهرة، وبدلًا من أن تأسف لحاله، أثارت غيظه بسؤالها إياه من أين يأتي،

[1] المهلة النهائية.

وأين المال الذي يزعم أنّه جناه. كانت تفعل ذلك للمرّة الأولى. لم يكن الوقت قد تسنّى له ليقوم بعملية مع رفاقه اللصوص، نظرًا إلى أنّه يمضي نهاره في المطاردة.

إشترت جريدة كُتب فيها أنّ وجه سفّاح شاكلويل قد رُشّ بالحبر الأحمر. أحرق تلك الجريدة في الحديقة، لكنّ من الممكن أنّها سمعت هذه الحكاية بوسائل أخرى. وليلة أوّل من أمس، فاجأها وهي تنظر إليه باستغراب. لم تكن الشيء غبيّة. لم تكن غبيّة جدًّا. هل بدأت تطرح تساؤلات؟ بعد الإذلال الذي ألحقته به السكرتيرة، شعر بأنّه بغنى فعلًا عن هذا الهمّ الإضافيّ.

لم يعد لديه أيّ سبب يدعوه إلى قتل السكرتيرة، لأنّها تركت سترايك نهائيًا. قرأ تلك المقالة في أحد المواقع في مقهى الإنترنت الذي يلجأ إليه من وقت إلى آخر، ليتنفّس قليلًا. كان يعزّي نفسه بالتفكير في أنّ ساطوره قد أثار رعبها الشديد، وأنّ ذراعها ستحمل إلى الأبد الندبة التي خلّفها فيها. لكنّ ذلك ليس كافيًا.

إذا كان قد أمضى أشهرًا في ابتكار هذا السيناريو، فلأنّه أراد توريط سترايك في جريمة قتل واتّهامه بها. ورّطه في البداية في موت تلك الفتاة التي أرادت التخلّص من ساقها. بذل قصارى جهده للفت انتباه الشرطة إليه، وبثّ الشكّ في عقول الناس. بعد ذلك خطّط لقتل سكرتيرته، ثمّ للتفرّج على المحقق العظيم، كما يدّعي، يحاول الخروج من ورطته.

ولكن ها أنّ ذلك الرجل القذر لا يزال ينام قرير العين، وكأنّ شيئًا لم يحدث. لم تتحدّث الجرائد عن الرسائل، وخصوصًا عن تلك التي كتبها من جانب كيلسي، والتي كان يجب أن تحوّل سترايك إلى المشتبه به الأوّل. بعد ذلك، دخل الصحفيّون في لعبة ذلك المعتوه. فهم لم يكتفوا بإغفال اسم السكرتيرة، بل لم يذكروا أيّة صلة لها بسترايك.

ربّما من الأفضل أن يتوقف هنا... غير أنّ ذلك كان مستحيلًا. فهو قد ابتعد كثيرًا، كما أنّه طوال حياته لم يبذل قطّ جهدًا كالجهد الذي بذله للقضاء على سترايك. لكنّ ذلك الوغد المبتور الساق نشر إعلانًا لاستبدال السكرتيرة، ما يعني أنّه لا ينوي إقفال المكتب.

ومع ذلك لم يخلُ هذا الأمر من جانب إيجابيّ واحد على الأقل. فالشرطة لم تعد تراقب شارع الدانمارك. لا شكّ بأنّ غياب السكرتيرة جعل مراقبة الشارع أمرًا غير مُجدٍ.

ربّما كان عليه ألّا يعود للتسكّع في الشارع، لكنّ الإغراء كان أقوى منه. كم كان يودّ أن يرى السكرتيرة ترحل خائفة، وبين ذراعيها علبة من الكرتون، أو أن يرى وجه سترايك وقد حلّت به المصيبة. تبًّا لك! حالما انزوى في مكان غير ظاهر بالقرب من المكتب، ظهر الوغد على الرصيف، وهو يسير بخفّة، وبجانبه امرأة فاتنة، وكأنّ شيئًا لم يكن.

لا بدّ من أنّ هذه الفتاة موظّفة مؤقّتة، فسترايك لم يتسنّ له الوقت الكافي لإجراء مقابلات التوظيف. لا شكّ بأن الرجل الضخم بحاجة إلى يد امرأة لفتح رسائله. إنتعلت الفتاة حذاء عالي الكعب، كان ليليق بالعاهرة التي حاول قتلها، وتسير على أطراف أصابعها، مؤرجحة مؤخّرتها الجميلة. كان دائمًا يحبّ السمراوات. والواقع أنّه لو أتيح له الاختيار، لاستبدل السكرتيرة بفتاة من هذا النوع بكلّ سرور.

بدا واضحًا أنّ هذه الفتاة لا تعرف شيئًا من تقنيّات المراقبة. بعدما رآها، بقي في زاويته طوال الصباح. قصدت مكتب البريد ثمّ عادت منه، من دون أن تتوقف عن التكلّم بهاتفها المحمول أو تعير ما يجري من حولها أيّ اهتمام. فهي كانت مشغولة جدًّا بإعادة شعرها الطويل إلى كتفيها فلم تنظر إلى أحد مدّة تزيد عن الثانية. أوقعت مفاتيحها مرارًا، وكانت تصرخ في هاتفها. أمّا حين تخاطب الناس، كالتجّار مثلًا، فلم تكن تتكلّم، بل تصيح. تبعها عند الواحدة إلى مطعم الشطائر. وقد دخل في اللحظة التي كانت تقول فيها إنّها تنوي الذهاب إلى ملهى كورسيكا في مساء اليوم التالي.

كان يعرف ملهى كورسيكا، ويعرف أين يقع. سرت في جسده موجة من الحماسة. أدار لها ظهره وتظاهر بأنّه ينظر إلى الشارع من خلال النافذة، خوفًا من أن يفضحه التعبير الذي ظهر على وجهه... إذا قتلها وهي تعمل لدى سترايك، يكون هدفه قد تحقّق. فأيّة مصداقيّة ستبقى لسترايك حين يظهر أنّ

له علاقة بامرأتين قُتلتا وقُطّعت جثتاهما؟ ولن يعود الجمهور إلى الوثوق به قطّ.

إضافة إلى ذلك فإنّ هذه المهمّة ستكون أسهل بكثير. كانت ملاحقة السكرتيرة قد أرهقته، فهي واسعة الحيلة، وحذرة، ونادرًا ما كانت تبتعد عن الحشود ومصابيح الطرقات بطريق عودتها إلى المنزل لملاقاة حبيبها الوسيم. ولكن في المقابل، كانت الموظفة المؤقتة تقدّم نفسها إليه على صينيّة. بعدما قالت لكلّ من في المطعم أين تنوي اللقاء بصديقاتها، ها هي تعود إلى العمل سائرة بحذائها البلاستيكيّ الشفّاف العالي الكعب. وفي الطريق سقطت منها شطائر سترايك. وحين انحنت لتلمّها، لاحظ أنّها لا تضع في يدها خاتم زواج أو خطوبة. وفي طريق عودته إلى المنزل، شعر بسعادة غامرة لدرجة أنّه وجد صعوبة في استعادة هدوءه الضروريّ لتنفيذ خطّته.

لو أنّه امتنع عن ضرب الشيء، لكان الآن في قمّة سعادته. لكنّ تلك الصفعة كانت نذير سوء لما تبقّى من الأمسية. ومن غير المفاجئ أن يشعر بتوتّر الأعصاب، فلم يتسنّ له الوقت لتعزيتها وملاطفتها. بل غادر المنزل فجأة بدون أن يقول شيئًا، ليلحق بالموظفة البديلة في أسرع وقت ممكن. وهو الآن يشعر بالقلق... عسى أنّ الشيء لم تتصل بالشرطة.

لا، هي لن تقوم بعمل مماثل أبدًا. لن تفعل ذلك بسبب صفعة صغيرة تافهة. كانت تحبّه. هي لا تنفكّ تقول ذلك. والنساء اللواتي يحببن يسامحن على كلّ شيء، حتّى...

شعر بوخز على مؤخرة عنقه. نظر حوله قلقًا ومتسائلًا فجأة عمّا إذا كان سترايك يختبئ في زاوية ما من زوايا القطار. لكنّ أحدًا لم يكن يشبه ذلك الوغد الضخم الجثة لا من قريب ولا من بعيد. رأى فقط جماعة من صعاليك الضواحي. أحدهم، وكان ذا ندبة وسنّ ذهبيّة، كان ينظر إليه بجرأة، ولكنّه حين رأى العينين اللتين ترمقانه من خلف النظارة الشمسية، خفض عينيه وعاد إلى اللعب بهاتفه المحمول...

لعلّ الأجدى أن يطلب الشيء هاتفيًا وهو يخرج من المترو، وقبل الوصول إلى ملهى كورسيكا. فقط لكي يقول لها إنّه يحبّها.

59

With threats of gas and rose motif[1].

Blue Öyster Cult, 'Before the Kiss'

مكث سترايك منتظرًا في زاوية معتمة وهاتفه المحمول في يده. وفي الجيب الكبير لسترته التي اشتراها في فترة التنزيلات، والتي لا تتناسب سماكتها مع هذه الأمسية من شهر حزيران/يونيو، أخفى شيئًا ثقيلًا وضخمًا جدًّا لدرجة أنّه غيّر مظهر السترة وأثقل على درزاتها. كان عليه لينجح أن ينتظر الظلام. ولكنّ الشمس لم تكن ولسوء الحظّ تستعجل الغياب خلف سقوف المنازل المتفرقة التي يراها من مخبئه.

كان يفضّل التركيز الكامل على المهمّة الخطرة التي حددها لنفسه في تلك الليلة، ولكن عبثًا. فروبن تشغل أفكاره. لم تعد إلى الاتّصال به. وضع لنفسه مهلة قصوى: إذا لم يأتِ منها ردّ قبل نهاية اليوم، فهي لن تعود أبدًا. ظهر يوم غد، في يوركشاير، ستصبح زوجة ماثيو، وبعد ذلك تصبح قطيعتهما نهائيّة. كان سترايك يدرك ذلك. إذا لم يأخذا وقتًا ليتحادثا قبل أن يضع ماثيو الخاتم في يدها، فهو يشكّ بأنّ الفرصة ستتاح لهما بعد ذلك. كان يتقاسم منذ

[1] تحت تهديد الغاز ورسم وردة.

أيّام مكتبه مع امرأة جميلة جدًّا، ولكنّها مفرطة الحركة وثرثارة. لو أنّ القدر أراد أن يلقنّه درسًا في ما خسره، لما اختار طريقة أفضل.

فوق سقوف المنازل في جهة الغرب، كانت السماء تتدثّر بألوان ناريّة تشبه ذيل الببغاء: القرمزيّ، والبرتقاليّ، وشيء من الأخضر حتّى. وخلفها مسحة من البنفسجيّ مرصعّة بالنجوم. كاد الظلام يحلّ.

إرتجّ هاتف سترايك في يده. رسالة من شانكر، وكأنّما هذا الأخير يقرأ أفكاره:

أنشرب البيرة غدًا؟

تلك كانت كلمة السرّ المتفق عليها. إذا كانت هذه القضيّة ستنتهي بمحاكمة، وهو ما بدا مرجّحًا جدًّا، فسترايك يفضّل عدم مثول شانكر في مقعد الشهود. عليهما هذا المساء ألّا يتبادلا أيّة رسالة قد تورّطه. وعبارة «أنشرب البيرة غدًا؟» تعني أنّه دخل النادي.

أعاد سترايك الهاتف إلى جيبه، وخرج من مخبأه. إجتاز موقف السيارات المظلم الذي يمتدّ تحت شقّة دونالد لاينغ الخالية. بدا أنّ البرج الأسود العملاق لمبنى ستراتا ينظر إليه وهو يمرّ. وكانت نوافذه غير المتناسقة تعكس آخر أنوار الشمس الغاربة.

أمام منبسطات الدرج المفتوحة في مبنى وولاستون كلوز، رأى شباكًا ذات فتحات ضيّقة لتمنع العصافير من أن تجثم على سياجاتها أو من أن تدخل عبر نوافذ شققها وأبوابها. دار سترايك حول المبنى للوصول إلى الباب الجانبيّ الذي حرص قبل قليل على إبقائه نصف مفتوح، بعدما خرجت منه شلّة من الفتيات. لم يمسّ الباب أحد منذ ذلك الحين. إفترض سكّان المبنى أنّ أحد الجيران فعل ذلك ليستطيع الدخول والخروج بحريّة، ولم يشاؤوا معاكسته. ففي هذا الحيّ، الجار الغاضب لا يقلّ خطرًا عن أيّ دخيل، خصوصًا وأنّ عليهم أن يواصلوا العيش على مقربة منه.

حين وصل سترايك إلى منتصف الدرج، خلع سترته الضخمة، وكان يرتدي تحتها سترة أخرى بلون أصفر مشعّ، ورمى بها على ذراعه بطريقة تخفي

قارورة البروبان الكبيرة التي تحتويها، ثمّ واصل صعوده ليبلغ أخيرًا الرواق الذي يفضي إلى شقّة لاينغ.

كانت الأنوار تشعّ في نوافذ الشقق الأخرى بذلك الطابق. فتح جيران لاينغ زجاج نوافذهم ليستفيدوا من طقس الصيف المعتدل، وملأت أصواتهم وضجيج تلفزيوناتهم ذلك المساء. واصل سترايك سيره بهدوء نحو الشقّة الأخيرة التي بدا بوضوح أنّها غير مأهولة. وقف أمام الباب الذي غالبًا ما كان يتأمّله من موقف السيارات، وطوى ذراعه اليسرى، وأسند إليها قارورة الغاز التي أخرجها من جيب سترته الكبيرة. ثمّ أخذ قفّازين من اللاتكس وضعهما في يديه، وأخرج عدّة أدوات كان قد استعار معظمها من شانكر، ومنها مفتاح عموميّ وعلبتي سنانير مع مستلزماتهما.

كان سترايك يستعدّ لفتح قفلَي الباب حين دوّى في الليل صوت امرأة أميركيّة اللكنة، آتيًا من شقّة قريبة.

– هناك فرق بين القانون وبين ما نعتقده صحيحًا. سأفعل ما أعتقده صحيحًا.

– أنا مستعدّ للتضحية بكلّ شيء من أجل أن أضاجع جسيكا ألبا! قال رجل ضخم، مثيرًا قهقهة رجلين آخرين.

«هيّا»، قال سترايك وهو يعالج القفل الأسفل مسندًا قارورة الغاز إلى كوعه. «تحرّك.. بسرعة...»

طقطقت آلية القفل، ودار في يدي سترايك، فانفتح الباب.

مثلما توقّع، كانت رائحة المكان كريهة. شاهد في الظلام ملامح غرفة قديمة بحال سيئة. كان عليه أن يسدل الستائر قبل أن يشعل الضوء. خطا خطوة نحو اليسار واصطدم بما يشبع العلبة الموضوعة على الأرض، فسقط شيء ثقيل.

تبًّا.

– ها! صاح صوت عبر الجدار الرفيع الذي يفصل الغرفة عن الشقة المجاورة. أهذا أنت يا دوني؟

إستدار سترايك عائدًا نحو الباب، وراح يتلمّس الجدار بسرعة باحثًا عن مفتاح كهربائيّ قريب من إطار الباب. بعدما أضيئت الغرفة، رأى أنها خالية إلّا من فراش قديم مليء بالبقع، وصندوق برتقاليّ لا بدّ من أنّه يُستخدم منصّة لجهاز أيبود كان آنذاك ملقيًا على الأرض.

– دوني؟ قال من جديد الرجل الذي خرج إلى الرواق.

فتح سترايك صمّام قارورة البروبان ووضعها تحت الصندوق البرتقالي. سُمع وقع خطوات في الرواق، تلاه قرع على الباب.

فتح سترايك الباب، فظهر رجل كثّ الشعر ووجهه مليء بالبثور، نظر إلى سترايك بعينين تركت المخدّرات عليهما غشاوة، وكان يحمل بيده علبة بيرة.

– ربّاه، قال وهو يستنشق هواء الغرفة، ما هذه الرائحة الكريهة؟

– تسرّب للغاز، قال بنبرة جافّة سترايك الذي أوحت سترته ذات اللون الأصفر المشعّ بأنّه عامل في شركة للغاز. إتّصل بنا شخص يسكن في الطابق الأعلى. يبدو أنّ الرائحة مصدرها هنا.

– تبًا، قال الرجل الذي بدا عليه الغثيان. أرجو ألّا يحدث انفجار.

– أنا هنا لأتأكّد من عدم حدوث انفجار، أجاب سترايك بلهجة الخبير الواثق. هل الفرن في منزلك مشتعل؟ هل يدخّن أحد في منزلك الآن؟

– سأذهب لأتأكّد، قال الرجل الذي شعر بالخطر فجأة.

– حسنًا، قد أمرّ لألقي نظرة في منزلك حين أنتهي. أنتظر زميلًا لمساعدتي.

لكنّ سترايك سرعان ما ندم على جملته الأخيرة. لم تكن ضرورية، فالرجل وجد أنّ من الطبيعيّ تمامًا أن يحدّثه عامل صيانة في شركة الغاز بهذه الطريقة. وفي حين اتجه عائدًا إلى منزله، سأله سترايك:

– هل اسم الرجل الساكن هنا دوني؟

– دوني لاينغ، قال الرجل الذي بدا مستعجلًا للذهاب لتناول جرعة جديدة من المخدّرات، وإطفاء كلّ ما يشتعل في منزله. إنّه مدين لي بأربعين جنيهًا.

– أجل. لا يمكنني فعل شيء حيال ذلك.

مضى الرجل. أغلق سترايك الباب وهو يحمد الله على أنّه وجد هذا التمويه. من الضروريّ جدًّا تجنّب وصول الشرطة قبل عثوره على الدليل إلى أن...

رفع الصندوق البرتقاليّ وأقفل الصمام الذي كان الغاز ينبعث منه. وأعاد منصة أيبود إلى مكانها، وخرج من الغرفة. ثمّ غيّر رأيه وعاد إلى الوراء. ضغط بإصبعه على الأيبود الذي اشتغل، فظهر على شاشته عنوان الأغنية. Hot Rails to Hell لفرقة Blue Öyster Cult، كما كان يتوقّع.

60

Vengeance (The Pact)[1]

كان الملهى الذي يعجّ بالزبائن قد أقيم تحت جسر للسكّة الحديدية، شبيه بالذي كان يراه من شقته. وكان سقفه من العقد الحجريّ المكسوّ بالصفائح المعدنيّة، ويوحي للداخل إلى الملهى بأنّه يدخل سردابًا. وكان ضوء كشّاف قـويّ يرسم على الصفيح المتموّج أشكالًا تشبه الهلوسات. سمع صوت موسيقى يصمّ الآذان.

بعد تردّد، سمح له حرّاس النادي بالدخول. كانوا قد نظروا إليه شزرًا، وخشي أن يفتّشوه ويجدوا السكّينين المخبّأين في حاشية سترته.

بدا أكبر سنًّا من كلّ زبائن النادي، وهو ما لم يرقه. فبشرة وجهه تبدو محبحبة على هذا النحو بسبب إصابته بداء المفاصل المصحوب بالصدفيّة، كما أنّ وزنه زاد بسبب المنشّطات التي تناولها. تغيّر جسده كثيرًا منذ أن كان يمارس الملاكمة، وتحوّلت عضلاته إلى دهون. في قبرص كان ناجحًا في استمالة النساء. لكنّ ذلك الزمن قد ولّى. فمن بين مئات الساقطات هؤلاء، والمتجمّعات تحت الكرة اللماعة في سقف النادي، لن يجد واحدة قد يثير اهتمامها. كما أنّ أيًّا منهنّ لم تكن ترتدي الملابس المألوفة في النوادي الليلية، بل كنّ كلّهنّ يرتدين الجينز وقمصان التي شيرت، كأنّهنّ زمرة من السحاقيّات.

[1] الانتقام...

أين هي الموظفة المؤقتة العاملة لدى سترايك، صاحبة المؤخرة المثيرة والطيش الجميل؟ لم يكن في المكان كثير من النساء السوداوات الطويلات القامة، ويجب أن يجدها بسهولة. بحث في كلّ مكان ولم يرَها، لا إلى جانب البار ولا على المرقص. حين سمعها منذ قليل تذكر اسم هذا الملهى القريب من منزله، ظنّ أنّها إشارة من العناية الإلهيّة. وقال في نفسه إنّه لن يلبث أن يستعيد صفته الإلهيّة، وإنّ الكون يعود لينتظم وفقًا لما يناسبه هو. لكنّ هذا الشعور بأنّه لا يُقهر بدا سريع الزوال، وبعد شجاره مع الشيء، كاد أن يختفي تمامًا.

كانت الموسيقى تقرع صدغيه، وفضّل العودة إلى منزله ليستمع إلى أغاني Blue Öyster Cult وهو يستمني أمام غنائم جثثه. لكنّه سمعها تقول إنّها ستأتي إلى هنا... تبًّا. الحشد كثيف في هذا المكان لدرجة أنّ بإمكانه أن يلتصق بها ويطعنها بدون أن يلاحظ أحد شيئًا. حتّى أنّ أحدًا لن يسمعها تصرخ... أين هي تلك الساقطة؟

كان هناك وغد يرتدي تي شيرت عليه شعار Wild Flag، ولا يكفّ عن الاصطدام به. رغب في أن يركله بشدّة، لكنّه لجم نفسه وابتعد عن البار وهو يدفع الموجودين بمرفقيه للوصول إلى المرقص.

كانت غابة من الأذرع والوجوه المبللة بالعرق تتموّج تحت الأضواء المتحرّكة. إلتماعة ذهبيّة... فم يحمل ندبة، تكشيرة...

شقّ طريقه وسط الجموع الواقفين حول المرقص، بدون أن يلتفت إلى النساء اللواتي كان يدفعهنّ في طريقه.

هذا الرجل صاحب الندبة، كان في المترو منذ قليل. إلتفت نحوه. بدا صاحب الندبة يبحث عن شخص ما، فقد كان يقف على رؤوس أصابعه ليرى القاعة.

هناك خطب ما. شعر بذلك. يوجد ما يثير الشكّ. ثنى ركبتيه قليلًا حتى يتوارى وسط الجموع، واندفع جاهدًا نحو مخرج الطوارئ.

– آسف، عليك المرور عبر...

– إذهب إلى الجحيم.

قبل أن يستطيع أحد منعه، دفع الباب ووجد نفسه في الخارج. ثمّ توارى في الظلمة، وسار بخطوات قصيرة محاذيًا الجدار، وعند الزاوية انعطف. أخيرًا بات بمفرده، وأخذ نفسًا طويلًا محاولًا تقييم الوضع.

أنت في أمان، قال في نفسه. في أمان. لا أحد على علم بأمرك.

ولكن هل كان ذلك صحيحًا؟

من بين كلّ الملاهي، اختارت أن تذكر اسم الملهى الواقع على مسافة دقيقتين من منزله. وكأنّما بمحض الصدفة. ألعلّه أخطأ حين ظنّ أنّ السماء تقدّم إليه هديّة؟ ماذا لو أنّ أحدهم نصب له فخًّا؟

لا، هذا مستحيل. أرسل إليه سترايك الشرطة منذ أيّام قليلة، لكنهم رحلوا من دون أن يثيروا له المتاعب. لا، ليس لديه ما يخشاه. لا يمكن إثبات أيّة صلة بين النساء وبينه...

غير أنّ صاحب الندبة تبعه في المترو من فينشلي. أيّ استنتاج يجب أن يتوصل إليه؟

تشوّشت أفكاره لبرهة. إذا ظنّ هذا الرجل أنّه يتبع شخصًا آخر غير دونالد لاينغ، فهذا يعني أنّ أمره انتهى...

عاد للسير. بين الحين والآخر، كان يحث الخطى، ويسير مهرولًا لبضعة أمتار. لم يعد عكّازاه القديمان يفيدانه اليوم إلّا في إثارة تعاطف النساء اللواتي يصدّقن كلّ شيء، وفي خداع إدارات الخدمات الاجتماعيّة، وطبعًا، في الحصول على غطاء لا غنى عنه. فرجل ضعيف ومريض مثله غير قادر على أن يلاحق كيلسي بلات. كما أنّ داء المفاصل لم يعد سوى ذكرى سيئة، غير أنّ المبلغ المالي الذي جناه بواسطته سمح له بأن يحافظ على شقّته في وولاستون كلوز.

إجتاز موقف السيارات بسرعة، ورفع نظره نحو نوافذ شقته. كانت ستائرها مسدلة، ومع ذلك فهو متأكّد من أنّه تركها مفتوحة.

61

And now the time has come at last
To crush the motif of the rose[1].

Blue Öyster Cult, 'Before the Kiss'

كانت اللمبة الكهربائية محروقة في الغرفة الوحيدة. أضاء سترايك القنديل الكهربائيّ الذي أحضره واتجه نحو قطعة الأثاث الوحيدة في ذلك المكان، وهي خزانة زهيدة السعر، صرّ بابها حين فتحه.

كانت الخزانة ملأى بمقالات جرائد تتحدث كلها عن سفّاح شاكلويل. وفوقها صورة لا شك بأنّه جاء بها من الإنترنت، مطبوعة على ورقة بالقطع العاديّ وملصقة بشريط لاصق. وفي الصورة والدة سترايك الشابة، عارية، ترفع ذراعيها نحو السماء، وشعرها البنيّ الطويل يغطّي جزئيًا صدرها الذي تعرضه بفخر، وسطر منحنٍ موشوم فوق مثلّث شعر عانتها الأسود، كُتب فيه Mistress of the Salmon Salt.

خفض بصره، فرأى في أسفل الخزانة مجلاّت خلاعيّة مكدّسة بالقرب من كيس نفايات أسود. وضع سترايك القنديل الكهربائيّ تحت ذراعه، وفتح الكيس بقفازيه. رأى فيه مجموعة صغيرة من الملابس الداخليّة النسائية،

[1] ها قد حان الوقت أخيرًا لسحق رسم الوردة.

بعضها متخشّب بفعل الدم الذي جفّ عليها. وفي الأسفل وجدت أصابعه سلسلة رفيعة وقرطًا. كما التمعت حلية صغيرة على شكل قلب في ضوء القنديل. ورأى على الخاتم لطخة بنية اللون.

أعاد سترايك كلّ تلك الأشياء إلى كيس النفايات، وأغلق الخزانة واتّجه إلى المطبخ الصغير، حيث مصدر الرائحة الكريهة التي تملأ الشقّة.

في المنزل المجاور، كان أحدهم يشاهد التلفزيون. دوّى صوت رشق من الطلقات الناريّة ارتجّ لها الجدار الفاصل الرفيع، وسمع سترايك ضحكة مكتومة.

بقرب الغلاية، رأى علبة قهوة سريعة الذوبان، وزجاجة ويسكي، ومرآة مكبّرة، وآلة حلاقة. كانت طبقة سميكة من الدهون والغبار تغطّي الموقد، وبدا أنّه لم يُستعمل منذ عهد بعيد. وكان باب الثلاجة يحتوي على آثار ورديّة اللون بشكل قوس، وكأنّ أحدهم حاول محوها بخرقة وسخة. وفيما همّ سترايك بفتح باب الثّلاجة، ارتجّ هاتفه المحمول في جيبه.

كان الاتصال من شانكر، برغم أنّهما اتفقا على ألّا يتواصلا إلّا بالرسائل النصية.

– تبًّا يا شانكر، قال سترايك بعدما فتح الخطّ، قلت لك...

سمع لهاثًا خلفه، وفي اللحظة التالية، شقّ الهواء ساطور يتجه إلى عنقه. تجنّبه سترايك وقفز جانبًا. أفلت هاتفه المحمول من يده وانزلق على الأرض الوسخة. شعر أثناء سقطته بفولاذ الساطور يجرح أذنه، ثمّ رأى طيف المهاجم الداكن والضخم. كان الرجل شاهرًا سلاحه. لم ينتظر سترايك ضربته الثانية بل وجّه إليه ركلة عنيفة بين ساقيه. أنّ الرجل ألمًا، وعاد خطوتين إلى الوراء، ثمّ استعاد وضعيّة الهجوم.

نهض سترايك على أطرافه الأربعة، وتقدم نحو القاتل وسدّد نحو أسفل بطنه ضربة شديدة. سقط الساطور على ظهر سترايك الذي أطلق صرخة ألم، فيما هو يمسك بخصمه من ركبتيه ليسقطه. إصطدم رأس لاينغ باب الفرن، لكنّه حاول مدّ يديه نحو عنق سترايك. أراد هذا الأخير أن يدفعه بلكمة، لكنّ لاينغ لم يدع له الوقت، بل قفز فوقه وسحقه بكلّ وزنه قابضًا بيديه الضخمتين

على عنقه. في مجهود غير طبيعيّ، تخلّص سترايك من خصمه بنطحة هائلة. من جديد اصطدم رأس لاينغ بباب الفرن...

تقلّبا أرضًا، لكنّ الدور انقلب هذه المرّة. جلس سترايك القرفصاء فوق خصمه وأراد ضربه في وجهه. غير أنّ ردّة فعل لاينغ كانت سريعة كما فعل في ذلك المساء حين التقيا على الحلبة. فقد أبعد الضربة بإحدى يديه، وبالأخرى أمسك ذقن سترايك، مرغمًا إيّاه على رفع رأسه. سدّد المحقق العاجز عن رؤية هدفه لكمة عشوائيّة اصطدمت بإحدى العظام، وسُمع صوت تشقّق...

في تلك اللحظة هوت قبضة لاينغ الهائلة على أنف سترايك فجأة. شعر سترايك بعظمه ينفجر، وتدفّق الدم من أنفه، وابتعد رأسه إلى الوراء كما فاضت عيناه بالدمع. تخلّص لاينغ منه وهو يلهث كالثور، وظهرت فجأة سكّين تقطيع في يده.

إمتلأ فم سترايك دمًا، وتشوّش بصره، لكنّه رأى نصل السكين يلتمع في ضوء القمر. فمدّ بغتة ساقه الاصطناعية. سُمعت رنّة حادّة حين اصطدم الفولاذ بقضيب كاحله المعدنيّ. لكنّ السكّين عادت لترتفع...

– محال أيّها المعتوه!

كان شانكر يقف خلف لاينغ، مثبّتًا عنقه بيده. أراد سترايك أن يستغلّ هذه الفرصة لينتزع منه السكّين، لكنّه أخطأ، وأمسكها من النصل فانغرزت في كفّ يده. راح لاينغ يتخبّط كمَن به مسّ محاولًا أن يتحرّر. كانت المعركة غير متكافئة، واستطاع السكوتلنديّ الذي كان أقوى بكثير من شانكر أن يتفوّق عليه. آنذاك خطرت لسترايك فكرة استعمال ساقه الاصطناعية من جديد. فسدّد بها ركلة طيّرت السكّين في الهواء، وتمكّن من أن يهبّ لنجدة صديقه.

– إيّاك أن تتحرّك أو أقتلك! صاح شانكر وهو يشدّ قبضته من جديد على لاينغ، الذي حاول المقاومة ضاربًا الهواء بقبضتيه الكبيرتين، وفاتحًا فمه بسبب فكّه الذي تحطّم. أنا أيضًا أملك سكّينًا، أيها القذر الكبير!

بحركة سريعة، أخرج سترايك قيدًا، وهي أثمن أداة حملها معه منذ أن ترك فرع الاستقصاء الخاصّ. كان لاينغ يشتم ويقاوم بقوّة هائلة لدرجة أنّ

الرجلين وجدا نفسيهما مضطرّين إلى توحيد قواهما لإرغامه على وضع يديه خلف ظهره لتكبيله.

بعدما استعاد شانكر القدرة على استعمال أطرافه، اقترب من لاينغ وركله في صدره ركلة عنيفة لدرجة أنّ صفيرًا مخنوقًا سُمع يخرج من رئتيه. وفقد القاتل القدرة على الكلام مؤقتًا.

– كيف حالك يا بانسن؟ أنت مصاب؟ أين؟ سأله شانكر.

وقف سترايك يستند بصعوبة إلى الفرن. كان الدم يسيل بغزارة من أذنه المجروحه ومن كفّ يده اليمنى، لكنّ المشكلة الكبرى كانت في أنفه المتورّم، فالدم سال منه مباشرة في حلقه ويعيق تنفسّه.

– خذ هذا، قال له شانكر بعدما عاد من جولة قصيرة على الشقّة حاملًا لفافة من ورق المراحيض.

– شكرًا، قال سترايك بصوت مبحوح. ثمّ ملأ منخريه بالورق وخفض بصره إلى لاينغ وقال له: يسرّني أن أراك يا راي.

ظلّ لاينغ عاجزًا عن الكلام. والتمع رأسه الأصلع قليلًا في ضوء القمر، مثلما التمع قبل قليل نصل سكينه.

– إعتقدت أن اسمه دونالد؟ قال شانكر مدهوشًا.

ولمّا رأى لاينغ يتحرك، عاد وركله في بطنه.

– نعم، صحيح، قال سترايك. ولكن كفّ عن ضربه! إذا كسرت له ضلعًا ما فستُحاكم.

– إذًا، لماذا تناديه...

– لأنّ... لا تلمس شيئًا من فضلك. تجنّب أن تترك بصماتك في كلّ مكان... لأنّ دوني كان يعيش باسم مستعار. وحين لا يكون هنا، شرح سترايك وهو يقترب من الثلاجة ويمسك بمقبضها بيده اليسرى التي حماها بورق المراحيض، يعيش باسم راي ويليامز، الإطفائي المتقاعد الحائز على تنويه بسبب أعماله البطولية، ويسكن في منزل هايزل فورلي في فينشلي.

بيده اليسرى، فتح سترايك باب الثلاجة، ثمّ باب المجمّدة.

كان ثديا كيلسي بلات الأصفران والجافّان مثل التين المجفّف، موضوعين فوق الجليد، وبجانبهما إصبعا ليلا مونكتون، بإظفريهما المطليين باللون البنفسجيّ، وأثر أسنان لاينغ. وفي الداخل أذنان مقطوعتان، لا يزال قرطان بلاستيكيّان مخروطيّان يتدلّيان منهما، وبقربهما قطعة لحم لا تُعرف إلّا بالمنخرين الظاهرين في وسطها.

– يا ربّ السماء، تمتم شانكر الذي كان ينظر من فوق كتف صديقه. يا ربّ السماء. بانسن هذه قطع...

أغلق سترايك المجمّدة، ثمّ عاد نحو أسيره.

لبث لاينغ بلا حراك. لكنّ سترايك كان واثقًا بأنّ ذهنه يعمل بأقصى طاقته ليجد حلًا لوضعه الميئوس منه، لبقلب الأمور إلى مصلحته والزعم بأنّ سترايك أوقع به ودسّ الأدلّة في شقّته.

– كان يجب أن أتعرّف عليك حالًا، أليس كذلك يا دوني؟ قال سترايك وهو يغلّف يده المجروحة بورق المراحيض لإيقاف النزيف.

تحت ضوء القمر الشاحب خلف النوافذ الوسخة، كان سترايك يميّز مجدّدًا ملامح لاينغ التي عرفها. أدّى تناوله للمنشطات وتوقفه عن ممارسة التمارين الرياضية بانتظام إلى تغيير جذري في شكل جسده الرياضيّ. كان يبدو أكبر من عمره الحقيقي بعشر سنوات، بسبب بدانته بلا شكّ، وبشرته الجافّة والمتجعّدة، ولحيته التي أطلقها لإخفاء وجه المحبحب، إضافة إلى رأسه المحلوق، وطريقته في جرّ قدميه حين يسير، التي يخدع العالم بها.

– كان يجب أن أتعرّف إليك حالما فتحت لي الباب في منزل هايزل، قال سترايك. لكنّك كنت تخفي وجهك جيّدًا وأنت تمسح دموع التماسيح، أليس كذلك؟ ماذا فعلت لتتورّم عيناك على هذا النحو؟ بمَ فركتهما؟

أعطى سترايك شانكر علبة سجائره، ثمّ أشعل سيجارة.

– أرى أنّ لكنتك التي حرصت على أن تبدو وكأنها من الشمال الشرقي كانت مبالغًا بها قليلًا. إكتسبتَها من إقامتك في غايتسهاد، أليس كذلك؟ لطالما كان صديقنا دوني موهوبًا في التقليد، أضاف سترايك يقول لشانكر.

ليتك سمعته حين كان يقلّد صوت العريف أوكلي. صاحب موهبة حقيقيّة... في الظاهر.

كان شانكر ينقّل نظراته المدهوشة بين لاينغ وسترايك، الذي وقف يدخّن وهو ينظر إلى أسيره الملقى أرضًا. كان أنفه يؤلمه بشدّة لدرجة أنّ الدموع كانت تسيل من عينيه. لكنه كان يريد أن يسمع صوته، مرة واحدة على الأقل، قبل أن يتصل بالشرطة.

– سرقت أيضًا منزل سيدة عجوز، وضربتها حتى الموت في كوربي، أليس كذلك يا دوني؟ مسكينة السيدة ويليامز، سرقت منها الوسام الذي ناله ابنها على شجاعته، ولا شكّ بأنّك سرقت كذلك عددًا من الأوراق الرسمية. كنت تعلم أنّ ابنها في الخارج. ليس صعبًا أن تنتحل هوية رجل تملك أوراقه الرسمية. وبعد ذلك، يكفيك أن تتظاهر بأنّك ذلك الشخص حتى تستغلّ امرأة تحتاج إلى العاطفة وبعض أفراد الشرطة الذين لا يتمتعون بالانتباه الكافي.

ظلّ لاينغ صامتًا، لكن سترايك كاد يسمع الأفكار التي تمرّ في ذهنه المريض.

– وجدتُ أكيوتان في المنزل، قال سترايك لشانكر. إنّه دواء لمعالجة البثور، ولكنه يُستخدم كذلك في علاج داء المفاصل المصحوب بالصدفية. كان يجب أن أدرك ذلك في الحال. أخفى علبة الدواء في غرفة كيلسي. راي ويليامز لم يكن يعاني داء المفاصل.

أتخيّل أنّه كانت بينك وبين كيلسي أسرار صغيرة كثيرة، أليس كذلك يا دوني؟ أنت مَن حدّثتها عني. أنت مَن حشوت رأسها لكي تتلاعب بها على نحو أفضل. كنت تأخذها بالدراجة النارية للتجسس بالقرب من مكتبي... تظاهرتَ بأنّك ترسل رسائلها بالبريد... وحملتَ إليها رسائل مزعومة مني...

– أيها المعتوه، قال شانكر مشمئزًا.

إنحنى فوق لاينغ، وقرّب من وجهه طرف سيجارته المحترق، بنية حرقه.

– أرجو ألّا تسبب له حروقًا، إذا كان الأمر لا يزعجك يا شانكر، قال سترايك وهو يخرج هاتفه المحمول. حسنًا، من الأفضل أن تنصرف الآن، سأتصل بالشرطة.

طلب الرقم 999 وأعطى الشرطة العنوان. كان ينوي أن يقول لهم إنّه تبع لاينغ حتى النادي، ثمّ إلى شقته، وإنهما تشاجرا وهاجمه لاينغ. لا لزوم لأن يعرف أحد أنّ شانكر كان مشاركًا، أو أنّ سترايك فتح قفلي الباب عنوة. طبعًا، قد يتكلّم الجار مدمن المخدّرات، لكنّ سترايك افترض أنّه سيفضّل التزام الصمت خشية أن يُكشف النقاب في المحكمة عن عاداته غير القانونية.

– خذ هذا كله وتخلص منه، قال سترايك لشانكر وهو يخلع سترته الصفراء المشعة. ولا تنسَ قارورة الغاز هناك.

– أنت على حقّ يا بانسن. هل ستتدبر أمرك معه؟ سأله شانكر، وهو ينظر إلى أنف سترايك المكسور وأذنه المجروحة ويده الدامية.

– نعم، لا تقلق، سيجري الأمر على ما يُرام، قال سترايك الذي لم يتأثّر كثيرًا بقلق صديقه.

في الغرفة المجاورة، سمع شانكر يأخذ قارورة الغاز، ثمّ رآه يخرج بعد قليل عبر نافذة المطبخ للقفز إلى الرواق الخارجيّ.

– شانكر!

عاد صديقه القديم للظهور بسرعة خيالية، حاملًا قارورة الغاز في يده سلاحًا. لكنّه رأى لاينغ لا يزال مقيّدًا، وسترايك يدخّن بهدوء إلى جانب الموقد.

– تبًّا يا بانسن، خلت أنّه هاجمك!

– قل لي يا شانكر، هل يمكنك أن تجد لي سيّارة لتقودني إلى مكان ما صباح يوم غد؟ سأعطيك...

خفض سترايك بصره ونظر إلى معصمه العاري. كان قد باع ساعته أمس ليدفع لشانكر أتعابه. ماذا يملك بعد ليعطيه؟

– إسمع. أنت تعرف أنّني سأجني مالًا بسبب هذه القضية. بعد أشهر قليلة سيتقاطر الزبائن إلى مكتبي.

– حسنًا يا بانسن، قال شانكر بعد تفكير قصير، سأسجّل الأمر على حسابك.

– حقًّا؟

– نعم، أكّد له شانكر، وهو يهمّ بالرحيل. إتّصل بي حين تصبح جاهزًا. سأجد لك سيّارة.

– لا تسرقها! صاح سترايك.

لم تكد ثوانٍ تنقضي على خروج شانكر عبر النافذة حتى سمع سترايك صفارات سيارات الشرطة.

– لقد وصلوا يا دوني، قال.

وآنذاك سمع سترايك صوت دوني لاينغ الحقيقي، للمرة الأولى والأخيرة.

– أمك كانت عاهرة قذرة، قال بلكنة سكوتلندية ظاهرة.

قهقه سترايك.

– ربما، قال وهو يدخّن سيجارته بين شفتيه الداميتين، فيما كان صوت الصفارات يقترب. لكنها كانت تحبني يا دوني. يبدو أنّ أمك لم تكن تهتمّ بك. أنت ابن غير شرعيّ لشرطيّ.

أخذ لاينغ يتحرّك في كلّ اتجاه محاولًا أن يحرّر نفسه، لكنّه سقط على جنبه، وذراعاه لا تزالان خلف ظهره.

62

A redcap, a redcap, before the kiss[1]...

Blue Öyster Cult, 'Before the Kiss'

لم يلتقِ سترايك بكارفر ذلك المساء. وظنّ أنّ الرجل كان يفضّل إطلاق رصاصة على ساقه على أن يواجهه. إستجوبه شرطيّان من قسم مكافحة الجرائم لا يعرفهما في حجرة صغيرة في قسم الطوارئ، فيما انهمك الأطباء والممرضون في معالجة جروحه المختلفة. فأعادوا خياطة أذنه، وضمّدوا يده، وعالجوا جرح ظهره الذي سبّبه الساطور. وللمرةِ الثالثة في حياته، عانى ألمًا شديدًا وهم يحاولون أن يعيدوا إلى عظمة أنفه شكلًا مستقيمًا. وبين عمل طبيّ وآخر، كان سترايك يشرح لأفراد الشرطة المنطق الذي قاده إلى لاينغ، ولم يغفل أن يوضح أنّه أبلغ أحد مساعدي كارفر بالأمر، قبل أسبوعين بواسطة الهاتف، وأنّه حاول أن يكلّمه شخصيًا في آخر لقاء بينهما.

– لماذا لا تكتبان شيئًا؟ سأل الشرطيين اللذين كانا يتفرسان فيه بدون أن ينطقا بكلمة واحدة.

تظاهر أصغرهما سنًا بأنّه يكتب شيئًا.

[1] حمّال، حمّال، قبل القبلة...

– أبلغكما أيضًا أنّني بعثت رسالة بالبريد المضمون مع إشعار بالاستلام. لا بدّ من أنّ المفتش كارفر قد استلمها أمس.

– بالبريد المضمون؟ سأله أكبر الشرطيين سنًّا، وهو رجل ذو شاربين وعينين حزينتين.

– تمامًا، أردت التأكّد من وصول الرسالة.

راح الشرطيّ يحكّ رأسه باقتناع أكبر.

أمّا رواية سترايك للأحداث التي جرت في المساء، فهي التالية: لاحظ أنّ الشرطة غير مقتنعة بأنّ لاينغ مذنب، فواصل مراقبته، وتبعه إلى النادي الليلي، خوفًا من أن يعتدي على ضحية جديدة، ثمّ إلى الشقة حيث وقعت بينهما المجابهة الأخيرة. لم يقل أيّة كلمة حول أليسا، التي لعبت دور الموظفة المؤقتة بجرأة نادرة، ولا حول شانكر الذي حال تدخّله الحماسيّ في إنقاذ سترايك من إصابات أخرى.

– ولمساعدتكم، أضاف سترايك، أنصحكم بالبحث عن شخص يدعى ريتشي، يطلق على نفسه أحيانًا اسم ديكي. هو مَن كان لاينغ يستعير الدراجة النارية منه، ومَن كان يوفّر له حجّة الغياب. هايزل ستشرح لكم. إنّه نذل صغير اعتقد أنّه يحسن التصرّف بمساعدة لاينغ على خداع هايزل وإدارات الخدمات الاجتماعية. لا يبدو ماكرًا جدًّا. أظنّه سيبادر إلى الاعتراف حالما يدرك أنّ في الأمر جريمة.

عند الخامسة صباحًا، قرّر الأطباء والشرطيان تركه وسبيله. إقترح عليه الشرطيان إيصاله إلى منزله، لكنّه رفض. فلا شكّ بأنّ تلك الخدمة المزعومة ليست سوى ذريعة لمراقبته لأطول فترة ممكنة، جزئيًّا على الأقلّ.

– يجب ألّا تتسرب المعلومات قبل أن نبلغ عائلات الضحايا، أوضح الشرطيّ الشابّ ذو الشعر الأشقر الملتمع في ضوء الفجر الرماديّ، فيما كان الثلاثة يتصافحون أمام المستشفى.

– لن أقول للصحافة شيئًا، وعدهما سترايك متثائبًا، وباحثًا في جيبه عن علبة سجائره شبه الخالية. لديّ عمل آخر أقوم به اليوم.

فيما سار مبتعدًا، خطرت بباله فكرة، فعاد وسألهما.

– أيّة صلة كانت بالكنيسة؟ بروكبانك... لماذا ظنّ كارفر أنّ بروكبانك هو القاتل؟

– أوه، قال الشرطي ذو الشاربين الذي لم يبدُ متحمّسًا للبوح بهذه المعلومة. كان أحد المدرّسين قد نُقل من فينشلي إلى بريكستون... لم يؤدِّ الأمر إلى أيّة نتيجة، أضاف بنبرة شجاعة مصطنعة، ومع ذلك فقد قبضنا على بروكبانك. بعدما قادتنا إليه معلومة أرسلها مأوى للمشرّدين أمس.

– ممتاز، قال سترايك. الشرطة تعشق روايات المتحرّشين بالأطفال. لو كنت مكانكما لبدأت حديثي إلى الشرطة بهذه المعلومة.

لم تحمل ملاحظته أيًّا منهما على الابتسام. تمنّى لهما سترايك يومًا طيّبًا، وسار مبتعدًا، وهو يتساءل عمّا إذا كان يحمل ما يكفي من المال لطلب سيارة أجرة. كان يدخّن بيده اليسرى بعدما امتدّ أثر المخدّر الموضعيّ إلى يده اليمنى، وكان يشعر بوخز في أنفه المكسور بسبب هواء الصباح البارد.

– إلى يوركشاير؟ سأله شانكر بامتعاض وهو يتصل بسترايك لإبلاغه أنّه وجد له سيّارة، فعرف منه أين ينوي الذهاب. إلى يوركشاير؟

– إلى ماشام، تحديدًا، أجاب سترايك. إسمع: قلت لك إنّني سأدفع لك ما تشاء حالما أتدبّر المال. هذه حفلة زفاف ولا أريد تفويتها عليّ. إنها ليست سوى مسألة وقت، سأدفع لك ما تشاء، أعدك بذلك.

– زفاف مَن؟

– روبن.

– آه، قال شانكر وقد ظهر الانشراح جليًّا في صوته. حسنًا، في هذه الحال، أنا سأقودك يا بانسن. قلت لك إنّ عليك ألاّ...

– نعم...

– هل قالت لك أليسا...

– نعم، قالت لي. الواقع أنها كانت تزعق وهي تقول ذلك.

شعر سترايك بأنّ شانكر يضاجع أليسا. وإلّا فما تفسير حماسته إلى اقتراح مشاركتها في خطّة سترايك التي يحتاج فيها إلى امرأة لتلعب دورًا أساسيًّا، لا خطر فيه، من أجل القبض على دونالد لاينغ؟ طلبت أليسا مئة

جنيه للقيام بهذا العمل، مؤكّدة له بأنّها كانت لتطلب منه مبلغًا أكبر لو لم تعتبر نفسها مدينة لشريكته.

– شانكر، أيمكننا التحادث في الأمر خلال الرحلة؟ أنا بحاجة إلى أن أستحمّ وآكل. سنكون محظوظين جدًّا إذا وصلنا في الوقت المناسب.

إتّجه الرجلان شمالًا بسيّارة المرسيدس التي استعارها شانكر، ولم يشأ سترايك أن يعرف ممّن. غفا هذا الأخير، والذي لم يغمض له جفن منذ أيّام، طوال الكيلومترات الثمانين الأولى. ثمّ استيقظ مجفلًا وهو يشخر حين شعر بأزيز هاتفه المحمول في جيب بزّته.

– سترايك، قال بصوت يغالبه النعاس.

– عمل جيد يا رجل، قال واردل.

كانت نبرة صوته غير منسجمة مع مضمون ما قاله. فهو مَن استبعد راي ويليامز من دائرة الشبهات، بعدما ذهب فريقه لاستجوابه في قضية مقتل كيلسي.

– شكرًا جزيلًا، قال سترايك. أنت تدرك أنّك الآن الشرطيّ الوحيد في لندن الذي لا يزال يقبل بمكالمتي.

– حسنًا، قال واردل بصوت أقلّ جفافًا، لنقل إنّ النوعية تتغلب على الكمية. ظننتك ستسر بأن تعرف أنّهم أمسكوا بريتشارد، وهو الآن يغرّد كالكنار.

– ريتشارد... تمتم سترايك.

وكأنّ دماغه قد تعرّض لعمليّة مسح كاملة، وكادت تختفي المعلومات التي تتراكم فيه منذ أشهر. رأى من زجاج السيارة الأشجار وكأنّها موكب هادئ من ألوان الصيف. وشعر بأنّه مستعدّ لأن يقضي هنا أيّامًا عدّة.

– ريتشي، ديكي... الدراجة النارية، قال واردل.

– آه، نعم، قال سترايك وهو يحكّ بدون تركيز أذنه المجروحة، ثمّ صاح: تبًّا، إنّها تؤلمني... آسف... هل قلت إنّه وافق على الإدلاء بإفادته؟

– لم يقدّم إلينا الكثير. عثرنا في منزله على الكثير من المسروقات.

– كنت أعتقد أنّ دوني يكسب المال من تجارة المسروقات، لطالما كان موهوبًا في عمليات السطو.

– شكّلوا عصابة صغيرة للسرقة. ليست بالأمر المهمّ. ريتشي كان الوحيد بينهم الذي يعلم بأنّ لاينغ يعيش بهوية مزدوجة، وظنّ أنّه يفعل ذلك لاستغلال إدارات الضمان الاجتماعيّ. طلب لاينغ من ثلاثة منهم توفير حجّة غياب له، والقول إنّهم قاموا برحلة إلى شورهام باي سي في نهاية الأسبوع التي قُتلت خلالها كيلسي. يبدو أنّه أقنعهم أنّ له صديقة في مكان ما، وأنّ على هايزل ألّا تعلم بالأمر.

– لطالما عرف كيف يقنع الآخرين، قال سترايك متذكّرًا المحقق الذي سارع إلى تبرئته عند اعتقاله بتهمة السرقة في قبرص.

– كيف علمت أنّهم لم يكونوا في شورهام في نهاية الأسبوع تلك؟ سأله واردل من باب الفضول. أخذوا صورًا لتلك الرحلة... كيف علمت أنّ رحلة توديع مرحلة الشباب لم تجر في ذلك اليوم؟

– بواسطة الشوك الأزرق.

– ماذا؟

– الشوك الأزرق، كرّر سترايك. هذا الشوك لا يزهر في نيسان، بل في الصيف أو الخريف. قضيت فترة طويلة من حداثتي في كورنوال. صورة لاينغ وريتشي على الشاطئ... رأيت فيها شوكًا أزرق. كان يجب أن أفهم في الحال، لكنني تهت وتبعت دليلًا خطأ.

أنهى سترايك المكالمة وراح يتأمّل الحقول والأشجار التي يمرّان وسطها. فكّر في الأشهر الثلاثة التي انقضت. لا شكّ بأنّ لاينغ لم يسمع بأمر بريتاني بروكبانك قطّ، ولكن لا بدّ من أنّه قام بأبحاث حول محاكمة ويتايكر، واكتشف أنّ هذا الأخير اقتبس كلمات أغنية Mistress of the Salmon Salt أمام المحكمة. بدا الأمر له وكأنّ لاينغ قدّم له الأدلة، بدون أن يعرف كم ستكون مفيدة له.

شغّل شانكر الراديو. كان سترايك يفضّل العودة للنوم قليلًا، لكنّه لم يتذمّر بل أنزل زجاج النافذة ليدخّن. رأى في ضوء الشمس أنّ بزّته الإيطالية

التي ارتداها على عجل كانت ملطّخة بمرق اللحم وبالنبيذ الأحمر. فركها محاولًا إزالة اللطخة الكبرى، وفجأة خطرت بباله فكرة.

– تبًّا.

– ماذا؟

– نسيتُ أن أترك صديقتي.

إنفجر شانكر ضاحكًا. حاول سترايك أن يبتسم فأحسّ بألم شديد. كان وجهه كله يؤلمه.

– هل سنحاول منع هذا الزواج من الحدوث يا بانسن؟

– طبعًا لا، أجاب سترايك وهو يأخذ سيجارة أخرى. وُجّهت إليّ الدعوة، أنا صديق.

– أنت طردتها، قال شانكر، وفي قاموسي هذا لا يدعى صداقة.

إمتنع سترايك عن تذكيره بأنّه لا يعرف أشخاصًا كثيرين مارسوا عملًا حقيقيًا ولو لمرة في حياتهم.

– إنّها مثل أمّك، قال شانكر بعد صمت طويل.

– مَن؟

– روبن. إنّها فتاة لطيفة، أرادت أن تنقذ تلك الطفلة.

أدرك سترايك أنّه لن يستطيع تبرير رفضه لإنقاذ فتاة أمام رجل تمّ إنقاذه حين كان في عامه السادس عشر، ملقيًا في قناة على جانب الطريق والدم يسيل منه.

– حسنًا، سأقترح عليها أن تعود، اتفقنا؟ ولكن حين تتصل بك في المرة المقبلة، إذا اتصلت بك...

– نعم، نعم، سأبلغك يا بانسن.

كان الرجل الذي انعكست صورته في مرآة السيارة الجانبية يشبه ضحيّة حادث سير. فأنفه متورم وبنفسجيّ اللون، وأذنه سوداء. وفي ضوء الشمس، رأى أنّ محاولته حلاقة ذقنه باليد اليسرى لم تأتِ بنتيجة حسنة. تخيّل الوقع الذي سيحدثه حين يدخل الكنيسة ليجلس في زاوية بعيدة. وكم ستكون الفضيحة كبيرة إذا ما قرّرت روبن طرده! لكنّه لا يريد أن يفسد عليها

زواجها. فعزم على المحافظة على هدوئه والخروج بدون ضجّة إذا ما طلبت منه ذلك.

– بانسن! صاح شانكر بحماسة. أجفل سترايك فيما كان شانكر يرفع صوت الراديو.

... وجرت عملية الاعتقال في إطار التحقيق في جرائم سفّاح شاكلويل. بعد تفتيش دقيق في إحدى الشقق الواقعة في وولاستون كلوز في لندن، اعتقلت الشرطة المدعوّ دونالد لاينغ، ويبلغ من العمر أربعة وثلاثين عامًا، المشتبه به في جرائم قتل كيلسي بلات، وهيذر سمارت، ومارتينا روسي، وسادي روتش، ومحاولة قتل ليلا مونكتون وإلحاقه الأذى الجسديّ بضحيّة سادسة لم يتمّ الكشف عن اسمها حتّى الآن...

– لم يأتوا على ذكرك! قال شانكر في نهاية النشرة. وبدا خائبًا.

– هذا لا يفاجئني البتّة، قال سترايك الذي شعر فجأة بقلق غير مألوف لديه. فقد شاهد اللافتة الأولى التي تشير إلى مدينة ماشام. ثمّ أضاف: سيأتون على ذكري، وهذا أفضل بكثير، أنا بحاجة إلى الدعاية من أجل أن يعود العمل إلى المكتب.

ألقى نظرة إلى معصمه، ناسيًا أنّه لم يعد يحمل ساعة يد، ثمّ نظر إلى ساعة لوحة القيادة في السيّارة.

– إضغط على دوّاسة الوقود يا شانكر، سنتأخّر عن بداية الزفاف.

مع اقترابهما من وجهتهما، ازداد سترايك توتّرًا. كانت عشرون دقيقة قد انقضت على بداية حفل الزفاف حين وصلا إلى قمّة الهضبة ودخلا المدينة. تحقّق سترايك من موقع الكنيسة على هاتفه.

– من هناك، قال وهو يشير فجأة إلى الناحية المقابلة لساحة السوق، الكبيرة والملأى بالناس.

دار شانكر حول الساحة مسرعًا، فأثار امتعاض المشاة. ومدّ رجل يعتمر قبعة بيضاء قبضته شاتمًا السائق صاحب الندبة الذي يسير بسرعة هكذا في وسط ماشام، بطريقة تعكّر النظام والهدوء.

– أركن السيّارة هنا، لا يهمّ! قال سترايك وهو يشير إلى سيّارتي بنتلي كحليّتين مزيّنتين بأشرطة بيضاء، ومتوقفّتين عند طرف الساحة.

كان سائقا السيارتين قد نزعا قبّعتيهما وأخذا يتحادثان في الشمس، فاستدارا حين سمعا صوت فرامل سيارة شانكر بالقرب منهما. فكّ سترايك حزام الأمان بسيّارته. شاهد في البعيد برج الكنيسة الذي يعلو فوق قمم الأشجار. شعر بغثيان، بسبب الأربعين سيجارة التي دخّنها خلال الليل بدون شكّ، وقلّة النوم، وقيادة شانكر التي لا تليق إلّا بسيّارات السباق.

مضى سترايك مسرعًا كالسهم، ثمّ عاد إلى السيّارة وقال لصديقه:

– إنتظرني، قد لا أبقى هنا.

بعد ذلك، مرّ بسرعة أمام السائقين المدهوشين، وسوّى ربطة عنقه بعصبيّة. ثمّ تذكّر حال وجهه، فتساءل لما يتكلّف عناء ترتيب هندامه.

إجتاز سترايك البوابة، وعبر المدافن الفارغة وهو يعرج. كانت هذه الكنيسة المثيرة للانطباع تذكّره بكنيسة القديس ديونيسوس في ماركت هاربورو. آنذاك كان وروبن صديقين. إكتنف صمت مخيف المدافن الغافية، السابحة في نور الشمس. مرّ بعمود غريب تملأه النقوش، يشبه مسلّة وثنيّة، وتوقف أخيرًا أمام باب الكنيسة الثقيل المصنوع من خشب السنديان.

أمسك مقبض الباب بيده اليسرى، وانتظر ثانيتين.

تبًا، فكّر وهو يدفع مصراع الباب بأقلّ ضجّة ممكنة.

إستقبله عطر الورود بدءًا من المدخل. كانت الورود في كلّ مكان، بشكل باقات على أعمدة، أو على أطراف المقاعد الملأى بالناس. ورود بيضاء من يوركشاير. ورأى غابة من القبّعات ذات الألوان الزاهية تمتدّ حتّى المذبح. حين دخل سترايك على رؤوس أصابعه، لم يلتفت إليه أحد إلى الوراء، ما خلا بعض النظرات الفضولية. سار بمحاذاة الجدار الخلفي، وهو ينظر إلى الطرف الآخر.

كانت روبن تعتمر تاجًا من الورود البيضاء على شعرها المتموّج الطويل. لم يرَ وجهها. نزعت الجصّ عن ساعدها وبرغم المسافة، ظهرت الندبة القرمزية بوضوح.

– روبن فينيشيا إيلاكوت، رنّم صوت الكاهن الذي لم يرَه سترايك، هل تقبلين بهذا الرجل، ماثيو جون كانليف، زوجًا شرعيًا لك، لتحبيه وتخلصي له من اليوم...

كان سترايك منهكًا، ومتوتّر الأعصاب، مركّزًا بصره على روبن، فلم يلاحظ إلى جانبه باقة موضوعة على عمود برونزي رائع على شكل زهرة توليب.

– ... في السرّاء والضرّاء، في الصحّة والمرض، إلى أن...

– تبًّا، قال سترايك.

هوت الباقة التي اصطدم بها، وأثار سقوطها على الأرض صوتًا قويًّا صمّ الآذان. فالتفت العروسان والمدعوّون إلى الوراء في حركة واحدة.

– أنا... ربّاه... أنا آسف، قال سترايك الذي لم يعد يعرف أين يقف.

في مكان ما وسط الجموع، انفجر رجل ضاحكًا. وعاد معظم المدعوّين لمتابعة مراسم الزفاف، فيما وجّه بعضهم إلى سترايك نظرات الغضب.

– ... يفرّقكما الموت، تابع الكاهن بتسامح كبير.

لم تكن العروس الرائعة الجمال قد ابتسمت مرة واحدة منذ بداية الزفاف، أمّا الآن، فقد شعّ وجهها سرورًا.

– نعم، قالت روبن بصوت رخيم.

لكنّها لم تكن تخاطب زوجها المتجهّم والجامد كالصنم، بل الرجل المثخن بالجروح والكدمات والذي أسقط أزهارها أرضًا.

شكر

لا أظنّني استمتعت بكتابة رواية أكثر ممّا شعرت به لدى كتابتي «مهنة الشرّ». وهذا غريب، ليس فقط من حيث موضوع الرواية الذي يبعث القشعريرة في الأجساد، بل أيضًا لأنّني نادرًا ما انشغلت كما في خلال الشهور الاثني عشر الأخيرة. فكان عليّ أن أواصل القفز بين مشروع وآخر. ولا يمكنني الزعم أنّ تلك هي طريقتي المفضّلة في العمل. ومع ذلك، شعرت دائمًا بأنّ روبرت غالبريث هو مساحة حريّتي الشخصيّة، وهو لم يخذلني في هذه المناسبة.

ينبغي عليّ التقدّم بالشكر من فريقي المعهود لحرص أفراده على ألّا تفقد هويّتي، التي كانت سرّية، ما يحيط بها من متعة. وأعني بهم: محرّري الذي لا مثيل له، David Shelley، عرّاب أربعٍ من رواياتي حتّى الآن، والذي يجعل من عمليّة التحرير مصدر فائدة كبيرة؛ ووكيل أعمالي وصديقي الرائع، Neil Blair، الذي كان سندًا قويًّا لروبرت منذ البداية؛ و Deeby وSOBE، للسماح لي بالاستفادة القصوى من ذهنيّتهما العسكريّة؛ و«رجل الباب السريّ»، وذلك لأسباب من الأفضل عدم كشف النقاب عنها الآن؛ وAmanda Donaldson، وFiona Shapcott، وAngela Milne، وChristine Collingwood، وSimon Brown، وKaisa Tiensu، وDanni Cameron، والذين لولا عملهم الشاقّ، لما توافر لي الوقت للقيام بعملي؛

والفريق الرائع المؤلّف من Mark Hutchinson، وNicky Stonehill، وRebecca Salt، والذين لولاهم لكنت الآن، وبكلّ صراحة، حطامًا لا نفع منه.

كذلك أتقدّم بالشكر الخاصّ من النائب في البرلمان الذي أتاح لي فرصة القيام بزيارة مميّزة إلى مكاتب الشعبة 35 التابعة لفرع الاستقصاء الخاصّ في الشرطة العسكريّة الملكيّة في قلعة إدنبره؛ وكذلك إلى الشرطيّتين اللتين لم تعتقلاني بسبب قيامي بالتقاط صور فوتوغرافيّة في محيط منشأة نوويّة في بارو إن فورنس.

وإلى كتّاب الأغاني الذين عملوا مع فرقة Blue Öyster Cult، شكرًا على الأغاني الرائعة التي ألّفتموها، وعلى سماحكم لي باستخدام بعض كلماتكم في هذه الرواية.

إلى أولادي Decca وDavy وKenz، حبّي لكم يتجاوز كلّ وصف. أريد أن أشكر لكم تفهّمكم الكبير لحاجتي إلى الابتعاد عنكم حين كان وحي الكتابة في ذروته.

الشكر الأخير والأهمّ، أخصّصه لك يا Neil، فلا مساعدة فاقت مساعدتك في سبيل إنجاز هذا الكتاب.

Music '**Shadow of California**' (p65) Words and Music by Samuel Pearlman and Donald Roeser © 1983, Reproduced by permission of Sony/ATV Music Publishing (UK) Ltd/Sony/ATV Tunes LLC, London W1F 9LD '**O.D.'D On Life Itself**' (p88) Words and Music by Albert Bouchard, Eric Bloom, Samuel Pearlman and Donald Roeser © 1973, Reproduced by permission of Sony/ATV Music Publishing (UK) Ltd, Sony/ATV Tunes LLC, London W1F 9LD '**In The Presence Of Another World**' (p97 and p256) Words and Music by Joseph Bouchard and Samuel Pearlman © 1988, Reproduced by permission of Sony/ATV Music Publishing (UK) Ltd, Sony/ATV Tunes LLC, London W1F 9LD '**Showtime**' (p112) (Eric Bloom, John P. Trivers). Reproduced by permission of Six Pound Dog Music '**Power Underneath Despair**' (p122) (Eric Bloom, Donald B. Roeser, John P. Shirley). Reproduced by permission of Six Pound Dog Music and Triceratops Music '**Before the Kiss**' (p129, p546, p554, p562) Words and Music by Donald Roeser and Samuel Pearlman © 1972, Reproduced by permission of Sony/ATV Music Publishing (UK) Ltd, Sony/ATV Tunes LLC, London W1F 9LD Words taken from '**Here's Tae Melrose**' (p129) by Jack Drummond (Zoo Music Ltd) '**The Girl That Love Made Blind**' (p145) Lyrics by Albert Bouchard '**Lips In The Hills**' (p148 and p287) Words and Music by Eric Bloom, Donald Roeser and Richard Meltzer © 1980, Reproduced by permission of Sony/ATV Music Publishing (UK) Ltd, Sony/ATV Tunes LLC, London W1F 9LD '**Workshop Of The Telescopes**' (p157) (Albert Bouchard, Allen Lanier, Donald Roeser, Eric Bloom, Sandy Pearlman) '**Debbie Denise**' (p161 and p271) Words by Patti Smith. Music by Albert Bouchard and Patti Smith © 1976, Reproduced by permission of Sony/ATV Music Publishing (UK) Ltd, Sony/ATV Tunes LLC, London W1F 9LD '**Live For Me**' (p179) (Donald B. Roeser, John P. Shirley). Reproduced by permission of Triceratops Music '**I Just Like To Be Bad**' (p193 and p283) (Eric Bloom, Brian Neumeister, John P. Shirley). Reproduced by permission of Six Pound Dog Music '**Make Rock Not War**' (p203) Words and Music by Robert Sidney Halligan Jr. © 1983, Reproduced by permission of Screen Gems-EMI Music Inc/EMI Music Publishing Ltd, London W1F 9LD '**Hammer Back**' (p218) (Eric Bloom, Donald B. Roeser, John P. Shirley). Reproduced by permission of Six Pound Dog Music and Triceratops Music '**Death Valley Nights**' (p245) Words and Music by Albert Bouchard and Richard Meltzer © 1977, Reproduced by permission of Sony/ATV Music Publishing (UK) Ltd, Sony/ATV Tunes LLC, London W1F 9LD '**Outward Bound (A Song for the Grammar School, Barrow-in-Furness)**' (p254, p255) Words by Dr Thomas Wood '**Tenderloin**' (p296) Words and Music by Allen Lainer © 1976, Reproduced by permission of Sony/ATV Music Publishing (UK) Ltd/Sony/ATV Tunes LLC, London W1F 9LD '**After Dark**' (p305) Words and Music by Eric Bloom, L Myers and John Trivers © 1981, Reproduced by permission of Sony/ATV Music Publishing (UK) Ltd, Sony/ATV Tunes LLC, London W1F 9LD '**(Don't Fear) The Reaper**' (p35, p52, p314, p520) Words and Music by Donald Roeser © 1976, Reproduced by permission of Sony/ATV Music Publishing (UK) Ltd, Sony/ATV Tunes LLC, London W1F 9LD '**She's As Beautiful As A Foot**' (p320, p321) (Albert Bouchard, Richard Meltzer, Allen Lanier) '**The Vigil**' (p273) Words and Music by Donald Roeser and S Roeser © 1979, Reproduced by permission of Sony/ATV Music Publishing (UK) Ltd, Sony/ATV Tunes LLC, London W1F 9LD '**Dominance and Submission**' (p338) (Albert Bouchard, Eric Bloom, Sandy

Pearlman) **'Black Blade'** (p343) Words and Music by Eric Bloom, John Trivers and Michael Moorcock © 1980, Reproduced by permission of Sony/ATV Music Publishing (UK) Ltd, Sony/ATV Tunes LLC and Action Green Music Ltd/EMI Music Publishing Ltd, London W1F 9LD **'Dance on Stilts'** (p364 and p365) (Donald B. Roeser, John P. Shirley). Reproduced by permission of Triceratops Music **'Out of the Darkness'** (p372, p390) (Eric Bloom, Danny Miranda, Donald Roeser, John D. Shirley). Reproduced by permission of Six Pound Dog Music and Triceratops Music **'Searchin' For Celine'** (p386) Words and Music by Allen Lainer © 1977, Reproduced by permission of Sony/ATV Music Publishing (UK) Ltd, Sony/ATV Tunes LLC, London W1F 9LD **'Burnin' For You'** (p402) Words and Music by Donald Roeser and Richard Meltzer © 1981, Reproduced by permission of Sony/ATV Music Publishing (UK) Ltd, Sony/ATV Tunes LLC, London W1F 9LD **'Still Burnin''** (p409) (Donald B. Roeser, John S. Rogers). Reproduced by permission of Triceratops Music **'Then Came The Last Days of May'** (p424) Words and Music by Donald Roeser © 1972, Reproduced by permission of Sony/ATV Music Publishing (UK) Ltd, Sony/ATV Tunes LLC, London W1F 9LD **'Harvester of Eyes'** (p427) Words and Music by Eric Bloom, Donald Roeser and Richard Meltzer © 1974, Reproduced by permission of Sony/ATV Music Publishing (UK) Ltd, Sony/ATV Tunes LLC, London W1F 9LD **'Subhuman'** (p440) (Eric Bloom, Sandy Pearlman) **'Dr. Music'** (p442) Words and Music by Joseph Bouchard, R Meltzer, Donald Roeser © 1979, Reproduced by permission of Sony/ATV Music Publishing (UK) Ltd, Sony/ATV Tunes LLC, London W1F 9LD **'Harvest Moon'** (p443) (Donald Roeser). Reproduced by permission of Triceratops Music **'Here Comes That Feeling'** (p452) (Donald B. Roeser, Dick Trismen). Reproduced by permission of Triceratops Music **'Celestial the Queen'** (p471) Words and Music by Joseph Bouchard and H Robbins © 1977, Reproduced by permission of Sony/ATV Music Publishing (UK) Ltd, Sony/ATV Tunes LLC, London W1F 9LD **'Don't Turn Your Back'** (p477) Words and Music by Allen Lainer and Donald Roeser © 1981, Reproduced by permission of Sony/ATV Music Publishing (UK) Ltd, Sony/ATV Tunes LLC, London W1F 9LD **'X-Ray Eyes'** (p490) (Donald B. Roeser, John P. Shirley). Reproduced by permission of Triceratops Music **'Veteran of the Psychic Wars'** (p501) Words and Music by Eric Bloom and Michael Moorcock © 1981, Reproduced by permission of Sony/ATV Music Publishing (UK) Ltd, Sony/ATV Tunes LLC and Action Green Music Ltd/EMI Music Publishing Ltd, London W1F 9LD **'Spy In The House Of The Night'** (p508) Words and Music by Richard Meltzer and Donald Roeser © 1985, Reproduced by permission of Sony/ATV Music Publishing (UK) Ltd, Sony/ATV Tunes LLC, London W1F 9LD **'Vengeance (The Pact)'** (p531, p551) Words and Music by Albert Bouchard and Joseph Bouchard © 1981, Reproduced by permission of Sony/ATV Music Publishing (UK) Ltd, Sony/ATV Tunes LLC, London W1F 9LD **'Sole Survivor'** (p535) Words and Music by Eric Bloom, L Myers and John Trivers © 1981, Reproduced by permission of Sony/ATV Music Publishing (UK) Ltd, Sony/ATV Tunes LLC; .(London W1F 9LD **'Deadline'** (p542) (Donald Roeser

يصل طرد غامض وبطريقة لا تقلّ غموضًا إلى روبن إيلاكوت. لكنّها سرعان ما تجمد مصعوقةً أمام فظاعة محتواه: ساق مبتورة، ساق امرأة!

أمّا المحقّق الخاصّ وربّ عملها، كورموران سترايك، فلا يهزّه هول المفاجأة بقدر ما يقلقه طيف الخطر الذي استشفّه في الحال: خطر مُحدق يسير قدمًا؛ فثمّة أربعة أشخاص عاودوا الظهور فجأةً من ماضيه، أربعة من أفظع المُجرمين، وأربعة لم يعد يشكّ بوحشيّتهم المقزّزة...

أمام عناد الشرطة الغافلة والتي تصوّب جهودها برمّتها على مشتبه به واحد - الأمر الذي يثير حفيظة سترايك - يقرّر المحقّق استلام زمام الأمور تُعاونه روبن كالعادة. قرار يؤدّي بالثنائيّ إلى الغوص في ظلمة عالم جرائميّ، دنيء، يسكنه مشبوهون ثلاثة أحرار طليقون، ويحيكون حبائله ودسائسه.

لكنّ الجرائم تتواصل، الواحدة تلو الأخرى وأفظع من الأخرى، فيما الوقت يفرّ من أمام سترايك وروبن...

«مهنة الشرّ» تروي لغزًا جرائميًا دقيق الحبكة تدعمه أحداث تُفاجئ قارئها عند كلّ منعطف وصفحة. هي أيضًا قصّة آسرة لرجل وامرأة يقفان عند مفترق طرق حياتهما الشخصيّة والمهنيّة. لن تتركوا «مهنة الشرّ» حتّى تنتهوا من قراءتها.

المحقّق البريطانيّ الأكثر جاذبيّة
وتشويقًا لهذا العام.

Daily Mail





نوفل هي دمغة الناشر




ISBN 978-614-438-592-0
9 786144 385920